

بحث لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع:

الهدايات القرآنية وأثرها في
مستجدات الواقع المعاصر:
سورة النمل والقصص: "دراسة تطبيقية"

تحت إشراف:
أ.د. توفيق العبقرى

إعداد الطالب:
عبد الجليل حيمود

إهداء

أهدي هذا البحث إلى الذي كان لا يسعد إلا بسماع القرآن من أهله، ورؤية
حملته مجتمعين في منزله، لا يرد لهم كلاما، ولا يخل عنهم بشيء، يطير فرحا إذا
ختمت كتاب الله، وطلب منه الشيخ جمع الفقهاء عنده ليكرّمهم، أخذ
بيدي باللين إن طابت نفسي، وبالقوة إن نفرت، فكان بحق شيخا
وأستاذًا ومربيًا مع أنه أُمّي لا يعرف حرفا، ولا يجمع كلمة، إلى أبي الغالي الذي
انتقل إلى به قبل أن يرى ثمار غرسه.

شكر وامتنان

في البداية أشكر الله المنان الذي أكرمني بحفظ كتابه، وأدخلني في زمرة خدمته، وهداني إلى البحث في هداياته، لأسهم في إخراج الناس من ظلمات التبع في بحر الفلسفات والنظريات، إلى نور الهدى والآيات البينات.

ثم أثنى بشكر كل من أسهم في هذا البحث من أساتذتي في جامعة القاضي القاض، الذين عاملوني مثل أبناءهم، وتفضلوا علي بما فتح الله عليهم من فحومهم
كما أشكر أسياسي في جمعية الحافظ ابن عبد البر، الذين غرسوا البذرة، وسقوا الشجرة، حتى ظهرت منها هذه الثمرة، فلهم من الله الفضل والإحسان، ومن العبد الضعيف الشكر والعرفان.
وأخص بالشكر شقيقي وأستاذي وأبي الثاني: سيدي توفيق العبقري الذي أشرف علي في كل بحثي العلمية، فعلمني بأفعاله قبل مقالته، ونشأه قبل تنبؤاته، يحتضني في بيته العامر، ويتحفني بأفضل ما طابت به نفسه، فكان بحق أستاذًا للعلم، وشيخًا في التربية، أسأل الله أن يجعله من أهل القرآن، ورفيق النبي العدنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله وسلّم على سيد المرسلين

مقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1] ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ، أَسْفَلُهُ مَغْدُقٌ، وَأَعْلَاهُ مَثْمَرٌ، قَلْبٌ مُوَازِنُ الْكُونَ، وَغَيْرُ مَجْرِيَاتِ الزَّمَانِ، فَجَعَلَ الَّذِي يَثْدُ الْبَنَاتِ، وَيَعْتَكِفُ عَلَى الْأَحْجَارِ، يَجُولُ فِي الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ، نَاشِرًا هَدْيِ اللَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ كَانَ قَرَانًا يَمْشِي، وَشَمْسًا تَضِيءُ، وَقَمَرًا يَنْيرُ، وَنَجْمًا يَهْدِي، اصْطَفَاهُ اللَّهُ مِنْ خِيَارِ الْأَخْيَارِ، لِيَكُونَ حَصْنًا حَصِينًا لِمَنْ أَرَادَ النِّجَاةَ مِنَ النَّارِ، بَلَّغَ الْقُرْآنَ كَمَا أُنْزِلَ، وَجَاهَدَ مِنْ أَجَلِهِ حَتَّى حَكَّمَ، وَرَغَّبَ فِيهِ حَتَّى صَارَ أَفْضَلَ مَرْغُوبٍ، وَأَعْلَى مَطْلُوبٍ، مَنْ يَحْفَظُ جُزْءًا مِنْهُ أَوْ أَجْزَاءَ عَلَى قَوْمِهِ يَسْوُدُّ، وَعَلَى آلِهِ وَصَبْحَهُ الْكَرَامِ، الَّذِينَ أَحْبَبُوا الْقُرْآنَ، وَدَافَعُوا عَنْهُ بِاللِّسَانِ وَالسِّنَانِ، يَنْشُرُونَ آيَاتِهِ بَيْنَ الْعَالَمِينَ، وَيَسْتَنْبِطُونَ هُدَايَاتِهِ الَّتِي صَبَّرَتْهُمْ أَذْلَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعَزَّتْ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَضَرَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَعَمَّنْ سَلَكَ طَرِيقَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أما بعد:

فإنَّ القرآن الكريم هو حبل الله المتين، الذي من تمسك به نجا، ومن دعا إليه اهتدى، أنزله الله موعظةً للمؤمنين، ورحمةً للعالمين، وهدى للناس أجمعين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُلُ مَوْعِظَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

حفظه الله من التغير والتبدل، وقال عنه في محكم التنزيل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

لِحَافِظُونَ﴾ [الحجر، الآية: 9].

بثَّ الله فيه أسرارَه، وأودع فيه حِكْمه وأحكامَه؛ لأن فيه التقديم في موضع، والتأخير في موضع آخر، والتأكيد في موضع وعدمه في موضع آخر، والإضمار في موضع، والإظهار في موضع آخر، والتعميم في موضع، والتخصيص في موضع آخر، والإطلاق في موضع والتقييد في موضع آخر...

فقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة، الآية: 1] ليس هو قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ [الجنات، الآية: 36]، في نفس الدلالة، وإن كانا يشتركان في أصل المعنى، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص، الآية: 20]، ليس معناه كمعنى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس، الآية: 20] وإن كانا يشتركان في نفس الألفاظ.

عكف عليه السابقون واللاحقون فأفنوا فيه أعمارهم، وختموا به حياتهم؛ بعضهم بين معانيه بالأحاديث النبوية، والآثار المروية، وبعضهم بينها بالقواعد اللغوية، والضوابط البلاغية، وبعضهم استعمل القواعد الأصولية والمقاصد الشرعية، وبعضهم انكب على الأحكام الشرعية، والمسائل الفقهية...، وإشاروا جميعهم إشاراتٍ إلى ما يطلق عليه: (الهدايات القرآنية)¹.

فلهم عليها إطلاقات، ولكل منهم فيها إسهامات، تحتاج إلى جمع لشتاتها، وتحذير لما علق بها، ووضع تعريفٍ تُوزن به مخرجاتها، لنسهم في تيسير الاستفادة من كتاب الله العزيز.

من هنا اخترت لأطروحتي في الدكتوراه عنوان: (الهدايات القرآنية وأثرها في مستجدات الواقع المعاصر: سورة النمل والقصص: "دراسة تطبيقية") سائلاً المولى جل في علاه أن يلهمني الرشد، ويسددي في الفهم، ويعيني على ملوغ المراد.

أهمية الموضوع:

يمكن إجمال أهمية البحث في هذا الموضوع فيما يأتي:

- 1- أن فيه جمعاً لما تفرق في كتب التفسير في مجال الهدايات، وضماً لشتاتها في موضع واحد؛ لتستفيد منها الأمة استفادة مثلى.

¹ ينظر: تعريفها في المبحث الأول من التقديم، ص: 18.

2- أنه يعنى باستنباط هدايات جديدة من كتاب الله تعالى الذي لا تنقضي عجائبه وفوائده، وصياغتها بصورة واضحة وميسرة يستفيد منها الجميع في عقائدهم وعبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وفكرهم...

3- أنَّ فيه إبرازًا لجوانب البلاغة والإعجاز، وتوظيف ذلك في خدمة الهدايات القرآنية.

4- أنه يعنى بجعل التفسير يلامس قضايا الواقع، ويضع حلولاً مناسبة لمشكلاته، وفق هدايات القرآن الكريم، لا سيما في زمن التطور العلمي والتقني، وتسارع الاكتشافات البحثية.

5- أنَّ فيه لفتَ الانتباه إلى فحوى النص القرآني، وإرشادَ مبتغيه - استدلالاً أو استنباطاً - إلى التركيز على أصوله الكلية، والإشاراتِ الربانية التي تخدم الإنسانية في جميع العصور.

6- أنه يسعى إلى لفت انتباه الناس عموماً، والباحثين خصوصاً إلى حلول القرآن الكريم لكل مشكلات الحياة، بحيث يظهر نتائج لم تظهر من قبل، أو يجمع شتاتها من كتب التفسير والبلاغة والفقه...

7- أنه يساعد الأمة على التوحد والاجتماع؛ حيث تصبح عاكفة على لب الآيات القرآنية، وتاركة ما عداها مما تختلف فيه الأنظار، وينتج عنه في الغالب الخلاف والشقاق.

أسباب اختيار الموضوع:

ترجع أسباب اختيار الموضوع إلى ما يلي:

1- رغبتى الصادقة في إعمال آليات العلوم وقواعدها، فمنذ أن منَّ الله علي بدراسة العلوم الشرعية وأنا أسعى لأن أمتلك قواعد اللغة عموماً، وقواعد الأصول خصوصاً، لأستثمرها في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ.

2- سعيتي الحثيث ليكون كتاب الله جليسي وأنيسي في حلِّي وترحالي، في حزني وفرحي، في قوة نشاطي وضعفه...، ولا أجد سبيلاً للوصول إلى هديني -خصوصاً في هذه المرحلة من العمر- خيراً من الاشتغال في إطار مشروع علمي يُحدِّد بالزمان والمكان، والرفقة والإشراف، حتى يُسدِّد رأيي،

ويُقوم اعوجاجي، بحيث أصبح في النهاية قادرا على الغوص في كتاب الله لأَنْفَع نفسي أولا، ثم أمتي ثانيا.

3- علمي اليقين بأن واقعنا غارق في مشاكله إلى الأذنين، وأنَّ حلَّها موجود في كتاب الله، يحتاج فقط إلى البحث عنها بطرق صحيحة، وفق قواعد مرعية، فأردت أن أسهم ولو بالقليل في البحث عن هذه الحلول؛ فإنَّ وُفِّقت إلى بعضها فالفضل لله وحده، وإن لم أوفق فأرجو أن أكون قد أسهمت في حلها ولو بالقليل.

4- هناك جهود ضخمة لعلماء الأمة عبر التاريخ في مجال التفسير، لكن بعض تلك الجهود اختلط فيها الصحيح بالسقيم، والحق بالباطل، والقوي بالضعيف، وهذا يتطلب دراسة علمية تأخذ الصحيح وتدع السقيم، تسد الخلل، وتكمل النقص، فأردت أن أسهم في جمع شتاتها، وانتقاء أصوبها، وأقربها إلى روح القرآن ومقاصده.

5- لا يزال علم التفسير في حاجة لمزيد من الدراسات، ومن ذلك بذل الجهود لإبراز جوانب الهدايات القرآنية التي لم تنل حظها في كتب التفسير القديمة منها والحديثة؛ فقد كان جلُّ اهتمام أصحابها منصبًا على بيان المعاني، وإظهار الأحكام الشرعية؛ إلا ما كان من جهود أفراد في باب الهدايات تحتاج إلى تثمين، ومواصلة مسير وفق مشروع علمي مراقب من أهل الاختصاص.

6- حاجة هذا العصر لربط واقعه بمعاني القرآن وهداياته؛ حتى تعود الأمة لمجدها وعزتها كما كانت عليه يوم أن كان القرآن هاديا وشافيا لعللها وأمراضها.

7- الحاجة الملحة إلى رؤية علمية مثلى، تقوم على أصح الطرق في الفهم والاستنباط، وتأخذ من كل منهج واتجاه في التفسير أحسنه، ويتم من خلالها كتابة الهدايات القرآنية؛ لتكون مورداً عذبا للمهتدين بهديه القويم.

8- الرغبة في إنشاء مشروع علمي يسهر عليه مجموعة من العلماء وأهل الغيرة على أمة الإسلام، يرجون من ورائه وضع لبنة لبناء مجتمع على قواعد القرآن الصرفة، وما يشابهها من قواعد السنة المطهرة؛ لأنَّ بهما خرج عمرو بن العاص من مكة التي كان يدافع فيها عن الحجارة إلى مصر التي أصبح يحكم شعبها، ويقود جيشها، وبهما عبر طارق بن زياد الذي كان من البربر الذين يسكنون الجبال، ويعبدون أنواعا من الآلهة إلى الأندلس ليكون من الفاتحين، ويجعل أرض الأندلس من أعظم حضارات المسلمين، بل ربما قد تكون من أعظم الحضارات الإنسانية على الإطلاق.

ويُقاس على هذين العظيمين آلافُ العظماء الذين تركوا للإنسانية نورا من العلوم، اهتمت به في أمور الدنيا والآخرة؛ بل لولاه لما بنت الحضارة الغربية المادية قوتها، ولما وصلت إلى التحكم في رقاب المسلمين!!!

أهداف البحث:

من أهداف البحث التي أتوخى الوصول إليها:

- 1- جمع ما تفرق في كتب التفسير من هدايات، لتكون لبنة أولى لبناء مجتمع سليم قائم على هدي القرآن الكريم.
- 2- إبراز ما في آيات القرآن الكريم من هدايات ومقاصد، وصياغتها بعبارة سهلة، تقرب القرآن الكريم من الجميع، وتجعل فهمه ممكنا لمن لم يتمكن من ناصية العلوم.
- 3- إظهار ما في آيات القرآن الكريم من جوانب الإعجاز والأسرار في ألفاظه، وتراكيبه، ومعانيه؛ ليكون كافيا لهداية من يريد الاهتداء.
- 4- ربط الواقع بمعاني القرآن الكريم، وتفعيل دوره في معالجة مشكلات الفرد والجماعة، والأسرة، والدولة.
- 5- فتح آفاق جديدة في التدبر والاستنباط لمعاني القرآن الكريم ومقاصده.
- 6- الوقوف على هدايات سورتي النمل و القصص للاهتداء بهديهما القويم.
- 7- إظهار مقصدي السورتين، وبيان السر في ترتيب بعضهما خلف بعض، لنشتغل في القادم على المقاصد بصورة أفضل، ونبتكر طرقا جديدة للوصول إليها.
- 8- بيان السبل التي نقضي بها على الجهل والظلم، والسبل التي نتصر بها على أعداء الدعوة انطلاقا من منهج نبي الله سليمان، ونبي الله موسى، حتى يكونا قدوة لمن ملّكهم الله أمر عباده، وبسط لهم في أرضه وبلاده، ولمن يسعى إلى تغيير الواقع وليس له من السلاح إلا العزيمة والرغبة الصادقة مع العلم بطرق الوصول إلى الأهداف.
- 9- إظهار وجه التشابه بين الواقع الذي نعيش فيه، والذي تحدت عنه السورتان إضافة إلى الواقع الذي نزلتا فيه، حتى نخرج بقاعدة -ولو أغلبية- في التنبؤ بما يحصل للأمة إذا سلكت طريق الأنبياء ومن ناصرهم، أو طريق الأعداء ومن أيدهم.

الدراسات السابقة:

يمكن تقسيم الدراسات السابقة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تناول الموضوع بشكل عرضي، إما تصريحاً أو تلميحاً؛ ويدخل في هذا القسم جلُّ كتب التفسير، خصوصاً التي تعني باللغة عموماً، والبلاغة على وجه الخصوص، كالكشاف للزمخشري، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، والبحر المحيط لأبي حيان؛ ونظم الدرر في تناسب الآي والسور للبقاعي...؛ فهذا القسم بمجموعه هو العمدة في هذا البحث؛ لأننا نجد فيه هدايات كثيرات إلا أنها غيرُ منظمة، ولا مطردة، ففي بعض الأحيان نجد عبارة: (تشير)، أو (تفيد)، أو (تدل)... وتحتها نفسُ مضمون الهداية، وفي أحيان أخرى نجد استنباطاً بديعاً إلا أنه يحتاج إلى صياغته بعبارة تجعله موجَّهاً لقارئ القرآن بطريق مباشر، أو جعله قاعدة عامة تدخل تحتها جميع الجزئيات، سواء التي كانت في الزمن الذي تحدث عنه الآية، أو الذي نزلت فيه، أو الذي نعيشه.

فهذا القسم وإن كان بهذه النفاسة إلا أنه لا يغني عن بحثي؛ لأنه أولاً يحتاج إلى جمع لشتاته، فقد نجد في الآية الواحدة هدايات عدة إلا أنها مفرقة على جمع من التفاسير.

القسم الثاني تناول الموضوع بشكل قصدي، فأتى بعبارة (الهداية)، أو (الهدايات)، أو (الهدى)، وما يقرب من هذه المشتقات؛ وما وقفت عليه منه:

أولاً: (الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية¹) للفريق البحثي المكون من الدكتور: طه عابدين، والدكتور ياسين قاري، والدكتور: فخر الدين الزبير؛ فهذا الكتاب يتكون من جزئين، ويحتوي على خمسة فصول، تحدثت في مجملها عن مفهوم الهدايات القرآنية وأنواعها ومجالاتها، وعن حال الناس معها باعتبار الاستماع والتلاوة، والتدبر، والعلم والعمل، والتداوي والاستشفاء، وعن أساليب القرآن في عرض الهدايات، كما تحدثت عن القواعد والضوابط التي تلزم كل من يريد أن يتعامل مع القرآن قصد استخراج هداياته، وعن السبل التي تساعد على فهمها وتنزيلها على أرض الواقع، وعن العوائق التي يمكن أن تعترض طريقها، والآثار المتوقعة إن طبقت أحسن تنزيل.

في كل فصل يأتي بأمثلة من القرآن تُبين كيف كان يتعامل السابقون مع هدي القرآن، ويثبت مشروعية هذا العمل، باعتباره غير جديد في الباب، وإن كان فيه شيء من جدة فإنما هي في التناول، وإضافة ما يمكن إضافته على ما كتبه السابقون واللاحقون.

¹ نشرته مكتبة المتنبي، والنبا العظيم في جزئين سنة 2017.

فالكتاب وإن كان مفيدا في الباب إلا أنه تنظيري أكثر منه تطبيقي، وعامٌ غيرٌ مختص، يستفاد منه في ضبط المفهوم، وفي تنزيل القواعد العلمية على الآيات القرآنية من خلال الأمثلة التي يوردها، ولا يُعني عن بحثي التي هو تطبيقي أكثر منه تنظيري، وخاصٌ بآيات معينات.

ثانيا: (مفهوم الهدى في القرآن الكريم)¹، للدكتور: حبيب مغراوي، قام هذا الكتاب على ثلاثة أبواب، لم تخرج في جملتها عن مفهوم الهدى في القرآن الكريم، فتحدث عن حجم وروده وشكله... في القرآن، وعن مقوماته وعلاقاته باعتباره موصوفا، أو صفة...، وعن امتداداته مع ما قبله وما بعده، باعتباره مضافا، أو مضافا إليه...

فالكتاب جدٌ مفيد في تحديد مفهوم الهدى باعتباره معنى من المعاني، وليس باعتباره علما خارجا من رحم التفسير؛ لذلك فلا يغني عن بحثي الذي يسعى لتحديد المفهوم باعتباره معنى، وباعتباره علما، ثم يحاول تطبيق ذلك على آيات السورتين.

ثالثا: (الهدايات القرآنية في سورة الفاتحة دراسة تطبيقية)² للباحث عادل ضحوي، قسمه قسمين: قسما نظريا تحدث فيه عن اسم السورة وأسباب نزولها، وفضلها على غيرها...، وقسما تطبيقيا تناول فيه هدايات السورة، التي أوصلها إلى 417 هداية.

فالكتاب مهم في الباب؛ لأنه خرج من التجريد إلى التنزيل، ومن التعميم إلى التخصيص؛ إلا أنه لا يفي بالغرض، لكونه أغفل المفهوم والأهمية والخصائص...، وتناول سورة الفاتحة وحدها؛ فغياب المفهوم جعله يُدرج بعض المعاني في سلك الهدايات وهي في الحقيقة ليست منها. وبحثي سيعتني بالمفهوم أكثر، ويضيف إليه الاشتغال على سورتي النمل والقصص، ليكون بذلك مسهما في مشروع علمي، يشمل كل سور القرآن.

رابعا: (السيرة النبوية في ضوء الهدايات القرآنية)³، للدكتور فخر الدين الزبير، تناول فيه الآيات المكيّة المتعلقة بالسيرة النبوية، يعرض فيه للآيات، فينقل بعض ما قيل فيها من معان، ثم يعقبها بما وجد من هدايات، أو بما فتح الله عليه فيها. فلم يخص سورة بعينها، ولا آيات محددة، فكان كتابه في

¹ نشرته جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، سنة: 2009.

² وهو بحث علمي محكم، شارك به صاحبه في المؤتمر القرآني الدولي (مقدس8) ونشره كرسي الهدايات القرآنية وراقي، وفي موقعه

الالكتروني <https://hidayatqurania.org/publication>

³ نشرته مكتبة المتنبي سنة 2019.

النهاية متناولا آيات في سور عدة منها: سورتا النمل القصص، إلا أنه لا يستوعب، ولا ينقل كل ما قيل فيها، وبحثي إن شاء الله سيجمع كل ما وجد، ويضيف ما تسمح به القريحة، وما يفتح الله به على العبد الضعيف، وفق قواعد علمية تراعي معاني اللغة، وخصوصيات القرآن.

القسم الثالث: تناول السورتين بالتحليل، لكن من زاوية أخرى، تبدو قريبة من زاوية الهدايات؛ ومما وقفت عليه في هذا القسم:

أولاً: (خصائص الأسلوب في سورة النمل)¹ للباحث: أحمد بزيو، وهو عبارة عن بحث لنيل شهادة الماجستير من جامعة الجزائر، كلية اللغة العربية وآدابها، تعرض فيه لأساليب البديع في السورة، وأتى بأمثلة منها، وفي بعض الأحيان يأتي بجداول يحصر فيها الأسلوب، ثم انتقل إلى أساليب الاستفهام فذكر أنواعها، وعدّ آياتها، وبين أغراضها، والأسباب الداعية إلى كثرتها وتنوعها، كما عدّ أضرب الخبر، وبين الجمل المؤكدة، وأنواع التوكيد فيها، مع الإتيان بجداول أيضاً تُبين مواضعها، ثم تطرق لأنواع الجمل الشرطية، والموصولية، والمحكية بالقول؛ كل ذلك بتفصيل كبير، وحصر للمواضيع التي تكررت فيها، ثم انتقل إلى التصوير في السورة، فذكر منه الصور البلاغية المتجلية في التشبيه والاستعارة والكناية، كما ذكر دلالات الصور ومصادرها، ثم ختم كتابه بالحديث عن التناسب بين موضوعات السورة، يطرح تساؤلات ويحجب عنها.

فالكتاب بصدق مهم في الباب؛ لأنه يعين الباحث على تلمس الهداية من الآية؛ إلا أنه لا يغني عن بحثي، لأن فيه إبراز الأساليب بطرق جيدة، وليس فيه توظيف لها إلا نادراً؛ فيكون كالمقدمة لبحثي، والمعين على بلوغ مراده.

ثانياً: (الأساليب الإنشائية في سورة النمل دراسة بلاغية تحليلية²)، للباحثة خلود بنت سعد إبراهيم العقيل، وهو كتاب كسابقه يتناول الأساليب، ويُحصى أعدادها - وإن لم يكن بنفس الدقة التي في سابقه - ويذكر أغراضها، وفي بعض الأحيان ينقل إشارات على شكل هدايات؛ إلا أنها قليلة، وغير مستقصية، ولا منتظمة.

فهو - كسابقه - معين على فهم الآيات من أجل استخراج الهدايات، ولا يغني عن هذا البحث الذي يرجى منه الاستقصاء والانتظام.

¹ لم أفق على من نشره، وإنما وجدته بصيغة بصيغة pdf على الشبك العنكبوتية.

² موجود في موقع عين الجامعة، ومواقع أخرى.

ثالثاً: (سورة النمل دراسة تحليلية وموضوعية¹)، للباحث حسن مُجَدِّ البليسي، تحدث فيه عن موضوعاتها في شكل مباحث أو مطالب، كلُّ موضوع يُخصَّص له مبحثاً، أو مطلباً على حسب حجمه، كما تحدث فيه عن التفسير الموضوعي للسورة، وعن المتشابه اللفظي والمشكل فيها؛ يشير إشارات إلى بعض الهدايات، لكن دون أن يسميها هدايات، ولا أن يستقصي القول فيها.

فالكتاب مهم في الباب، بحيث يساعد على تحليل الآيات، وفرز الموضوعات، لكنه لا يكفي في استقصاء الهدايات.

رابعاً: سورة القصص دراسة تحليلية² للدكتور مُجَدِّ مطي، خص فيه السورة بالتحليل، فبنى بحثه على ثمانية فصول، هي عبارة عن دراسة عامة عن السورة، عرَّف فيها بالقصص، وناقش مكيتها ومدى انتهائها، ثم بيَّن المناسبات بينها وبين سورة النمل، وبينها وبين سورة العنكبوت، ثم أسهم في موضوعاتها التي جاءت في فصول، وختم بحثه بدراسة مقارنة بين الواقع الذي نزلت فيه السورة، والواقع الي نعيشه، فشَبَّه أمريكا بفرعون، وأتى بأوجه الشبه بينهما.

فالكتاب مهم في الباب، وقريب من البحث خصوصاً في الفصل الثالث منه الذي يتناول الواقع في ضوء الهدايات، وكذلك يشير في بعض الأحيان إلى الأمور المسكوت عنها، أو التي تُطوى بين الآيات، فيكون معالجا للهدايات من زاوية عامة، وغير مستقصية؛ حيث يضع الآية، وينقل نقلاً أو نقلين عن المفسرين، وبعضهما في بعض الأحيان بكلام لأهل اللغة، ثم يأتي بالفاظ الآية يحللها وفقَّ اللسان العربي؛ لكنه لا يستنبط المعاني الخفية، ويصيغها بعبارة توجيهية مباشرة للمؤمنين، كما أنه لا يستقصي أقوال المفسرين، ولا يتتبع دقائقهم.

الجديد الذي يقدمه هذا البحث:

- 1- هذا الموضوع يعبر عن دراسة نوعية في مجال التفسير، تُفيد مما كتبه المفسرون قديماً وحديثاً؛ وتتوخى إخراج ما يمكن إخراجاً من حكم القرآن وأسراره.
- 2- يضيف هدايات جديدةً يفتحها الله على الباحث بما ملكه من قواعد علمية، وبما بذله من جهد في تدبر كتاب الله.

¹ بحث مقدم لنيل درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بغزة، سنة 2003.

² هو بحث قدمه صاحبه لنيل شهادة الدكتوراه، وهو موجود ضمن كتب المكتبة الشاملة، غير مرقم ولا بيان مكان طبعه أو الجهة التي طبعت.

- 3- يفتح الباب أمام العلماء وطلبة العلم ليستخرجوا من هدايات القرآن ما لم يستخرجه السابقون، ليكون القرآن الكريم هو المبتدأ والمنتهى في طلب العلم.
- 4- يسعى لربط الواقع المعاش بهدي القرآن الكريم، ليُقوم اعوجاجه، ويُصحح أخطائه، ويُرسى دعائم نهضته.

المنهج المتبعم في البحث:

المنهج المتبعم في البحث هو المنهج الاستقرائي الاستنباطي.

ومن الخطوات الإجرائية، التي عازمت على سلكها:

- 1) الالتزام بأحسن طرق التفسير المتجلية في بيان القرآن بالقرآن، وبيان القرآن بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم بما يوافق لغة العرب.
- 2) الاقتصار على الأحاديث والآثار الصحيحة، وتجنب الروايات الضعيفة والموضوعة.
- 3) الرجوع لما كتب في التفسير بمختلف مدارسه واتجاهاته المختلفة، ومحاولة الاستفادة من ذلك بما يتوافق مع قواعد الترجيح والاختيار في جمع وكتابة الهدايات القرآنية.
- 4) تجنب الأقوال الشاذة، والأقوال المرجوحة في التفسير.
- 5) الالتزام بأصول التفسير وقواعده في الاختيار والترجيح والاستنباط.
- 6) تجنب تفرعات علوم العقيدة والفقه واللغة وغيرها في تناول التفسير والهدايات، وعدم الخروج عن دلالة النص القرآني.
- 7) الاعتماد بالدرجة الأولى على لسان العرب الذي نزل به القرآن، فهو باب الدخول إلى كتاب الله بشرط العلم بقواعد الاشتغال به؛ إذ ليس كل ما ثبت في اللغة ثبت في الشرع، فكثير من الألفاظ خرجت عن حقيقتها اللغوية وأخذت حقائق شرعية، وأخرى أُضيفت إليها إضافات، أو قُلص من معناها...
- 8) استثمار قواعد الأصول، والاستفادة قدر الوسع من التفاسير التي تعنى بهذا المنهج، واعتمادُ القراءات القرآنية في استخراج الهدايات.
- 9) الاعتماد في كتابة الآيات على الرسم العثماني، برواية حفص عن عاصم.
- 10) عزو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة، ورقم الآية في متن البحث.
- 11) إذا تكرر ذكر الآية في الصفحة نفسها فإنني أكتفي بعزوها في المرة الأولى.

12) إذا كان الفصل أو المبحث في السورتين أكتفي بتمهيد واحد له يكون في السورة الأولى.

13) تخريج الأحاديث الشريفة تخريجاً علمياً موجزاً، فإذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فإني أكتفي بهما، وإذا كان في غير الصحيحين أو أحدهما، فإني أذكرُ تخريجَه من بقية كتب الحديث المعتمدة، مراعيًا عدم الإطالة، والبعد عن الإكثار في ذكر المصادر التي خرّجته، ولكني أذكرُ طرقًا منها، مع بيان درجة الحديث من خلال ذكر كلام أهل الاختصاص، قدر المستطاع.

14) الترجمة للأعلام الذين يحتاجون إلى ترجمة، بذكر أهمّ ما يعرفهم فقط، ولا أتعرض للأعلام المشتهرة بين الناس، أو التي لديها كتب يتوقف عليها الباحثون، سواء كانوا من اللغويين، أو المحدثين، أو الأصوليين...؛ لأن الترجمة لهم -في نظري- تنقص من قدرهم، ومن لم يعرفهم فالمشكلة فيه، لا في الباحث.

15) ضبط ما يحتاج إلى ضبط بالشكل، بحسب ما يوضح السياق قدر الإمكان.

16) توثيق النصوص المنقولة من مصادرها الأصلية.

17) بالنسبة للأسماء الكاملة للمؤلفين وطبعات كتبهم وتاريخها فلن أذكره في الهوامش، لا في أول إحالة ولا في غيرها، وأجعل ذلك كله في فهرس المصادر والمراجع، وأكتفي هنا فقط بالاسم المشهور، إلا إذا كان يشتهر مع غيره أضيف إليه ما يميزه عنه.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وقسمين، وخاتمة، وفهارس، وتفصيله على الشكل الآتي:

■ المقدمة: وتشمل أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث فيه، وحدوده، والدراسات السابقة عليه، والمنهج المتبع في إنجازه، والخطة المرسومة لبلوغ أهدافه.

■ التمهيد: وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: التعريف بالهدايات القرآنية.
- المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنية.
- المبحث الثالث: منهج العلماء في استخراج الهدايات القرآنية.
- المبحث الرابع: إطلاقات العلماء للهدايات القرآنية، وطرق تناولهم لها.

القسم الأول: الهدايات القرآنية في سورة النمل من الآية (59) إلى آخر السورة

ويتكون من باين:

الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة النمل، ويتكون من فصلين:

■ الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

- المبحث الأول: اسم السورة.
- المبحث الثاني: فضائل السورة.
- المبحث الثالث: أحوال نزول السورة.

■ الفصل الثاني: معاني السورة ومقاصدها.

- المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.
- المبحث الثاني: معاني مفردات سورة النمل من الآية (59) إلى آخر السورة .
- المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة

الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة النمل من الآية (59) إلى آخر

السورة ، وربط ذلك بواقع الأمة، ويتكون من ثلاثة فصول:

■ الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة.

- المبحث الأول: الهدايات الجزئية.
- المبحث الثاني: الهدايات الكلية.

❖ الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.

➤ المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.

➤ المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة .

➤ المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.

❖ الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها.

➤ المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات آيات السورة .

➤ المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة.

➤ المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة.

القسم الثاني: الهدايات القرآنية في سورة القصص إلى الآية (50)

ويتكون من بابين

الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة القصص، ويتكون من فصلين:

❖ الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

➤ المبحث الأول: اسم السورة.

➤ المبحث الثاني: فضائل السورة.

➤ المبحث الثالث: أحوال نزول السورة.

❖ الفصل الثاني: معاني السورة ومقاصدها.

➤ المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.

➤ المبحث الثاني: معاني مفردات السورة.

➤ المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة.

الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة القصص إلى الآية (50) ، وربط

ذلك بواقع الأمة، ويتكون من ثلاثة فصول:

❖ الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة.

➤ المبحث الأول: الهدايات الجزئية.

➤ المبحث الثاني: الهدايات الكلية.

❖ الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.

➤ المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.

- المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة .
- المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.
- الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها.
- المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات آيات السورة .
- المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة.
- المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة.
- الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.
- الفهارس: وتتضمن الآتي:
- - فهرس الآيات القرآنية التي تستخرج منها الهدايات.
- - فهرس الأحاديث والآثار.
- - فهرس المصادر والمراجع.
- - فهرس الموضوعات.

تمهيد:

لكل مقدمة صحيحة نتيجةً مثلها، ولكل شجرة طيبة ثمرة منها؛ والهداية القرآنية ثمرةً لجهود كبيرة وفق قواعد الشرع، وضوابط اللغة؛ من هنا كان لزما علينا البحث عن مفهوم يضبط العمل، ومنهج صحيح ينبغي أن يتبع. وعليه فإني أرى من اللازم البدء بتحديد المفهوم الذي يضبط التصور، ثم ذكر الأهمية الباعثة على البحث والقراءة، ثم رسم المنهج الذي سار عليه العلماء ليوزن به السير، ويعرف من يسير على الجادة، ومن يسير على غيرها، ثم في النهاية ذكر نماذج من أقوالهم الدالة على أن هذا المسلك في التعامل مع القرآن غير جديد في المضمون، وإن كان فيه شيء من الجدة فإنما هي في تناول، أو التأليف. لذا ارتأيت أن أتناوله من خلال أربعة مباحث:

جعلت المبحث الأول: لتحديد المفهوم في اللغة، وللمحاولة رسمه في الاصطلاح حتى يتسنى لي السير على ضوئه.

والمبحث الثاني: لذكر أهمية الهدايات في الماضي والحاضر والمستقبل، حتى تتشوف النفس إلى الاجتهاد في استخراجها وتوظيفها.

والمبحث الثالث: لبيان منهج العلماء في استخراج الهدايات حتى يعرف الباحث أين يضع قدمه، والقارئ كيف يُقَوِّم المقروء.

والمبحث الرابع: لذكر الألفاظ التي كان يعبر بها المفسرون عن الهداية كما هي في الاصطلاح ليعلم أن هذا هذا النوع من التعامل مع القرآن قديم وأن الجدة فيه هي الطريقة في تناول، والجمع للمتفرقات، مع إضافات يفتحها الله على من يشاء.

المبحث الأول: التعريف بالهدايات القرآنية:

يقال: الألفاظ قوالب المعاني، لذا لزم مَنْ يريد الوقوف على حقائق المعاني أن ينظر إلى تصرفات الألفاظ وتقلباتها، وتنوع صيغها ودلالاتها، ليقف على المدار التي ترجع إليه المعاني كُلُّها التي دل عليها اللفظ في سياقات مختلفة، وتراكيب متنوعة، ليحكم في النهاية على المعنى الفلاني بأنه أصلي، والمعاني الفلانية بأنها تبعية، تُفهم بالسياق والقرائن، أو الأحوال والإضافات.

فتصير النتيجة أن هذا اللفظ متى أطلق انصرف إلى ذاك المعنى، ولا يصرف عنه إلى غيره إلا بأدلة خارجية، وقرائن قوية كالسياق أو الموضوع ونحو ذلك.

الهداية في اللغة

إذا كانت اللفظة التي يُراد دراستها قد ذُكرت في القرآن الكريم فلا بد من النظر فيها من جهتين: الأولى: من جهة نطق العرب بها، والثانية: من جهة استعمالها في القرآن؛ فجهة نطق العرب بها تتم بالرجوع إلى المعاجم العربية، وبخاصة التي لم تتأثر بالاصطلاحات الحادثة؛ وجهة استعمالها في القرآن تتم بالنظر إليها في كل موضع ذكرت فيه، مع ملاحظة التأثير والتأثر، أقصد التراكيب القرآنية، فقد نُعطى اللفظة معنى يناسب السياق الذي وردت فيه، أو الموضوع الذي تعالجه الآية أو الآيات، ككونه سببا من أسبابها، أو نتيجة من نتائجها، أو غير ذلك مما هو من علاقات الجوار بين الألفاظ.

من هنا تأتي صعوبة دراسة المصطلح عموما، والقرآني خصوصا، فعلى تحقيق معنى المصطلحات تُبنى الأحكام، فإن كان التصور سديدا تكون الأحكام - التصديقات باصطلاح المناطقة - صحيحة، وإن كان فاسدا تكون كذلك.

وقد نبه على أهمية الاعتناء باللفظة العربية في سائر الفنون عموما، وفي القرآن خصوصا، الراغب¹ في المفردات حيث قال: "إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتصنيف اللب في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبينه، وليس ذلك

¹ هو الحسين بن محمد بن الفضل، أبو القاسم الأصفهاني المعروف بالراغب، أديب من الأدباء، وحكيم من الحكماء، جمع بين العلم والحكمة، من أهل أصبهان، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، من كتبه (محاضرات الأدباء) و (الذريعة إلى مكارم الشريعة) و (المفردات في غريب القرآن - ط) توفي سنة 502 هـ (ينظر: سير أعلام النبلاء: 120/18، والوافي بالوفيات: 29/13، والأعلام للزركلي: 255/2).

نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مَفْزَعُ حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة¹.

فهذا النص من خبير بمفردات القرآن الكريم، ولا شك أن هذه نتيجة من نتائج بحثه فيها؛ وكتابُ المفردات خير شاهد على هذا.

وإذا لم تُعط اللفظة القرآنية حقها من الدراسة - سواء أكان لها مفهوم قرآني خاص كالصلاة والزكاة والحج...²، أم كان لها مفهوم تشترك فيه اللغة والقرآن، إلا أنه زاد عليها قيودا أو معنى خاصا - سَنفهم من الآية خلافَ المقصود، إن لم يكن عكسه تماما؛ وقد نبه على هذا المعنى الفراهي³ بقوله: "لا يخفى أن المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام، وبعضُ الجَهِل بالجزء يُفضي إلى زيادة جَهِلٍ بالمجموع، وإنما يسلم المرء عن الخطأ إذا سدَّ جميع أبوابه، فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن ثم غلق عليه بابُ التدبر، وأشكل عليه فهمُ الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسورة؛ ولو كان الضرر عدمَ الفهم لكان يسيراً، ولكنه أكثرُ وأفظع؛ وذلك بأن المرء قلما يقف على جهله، بل يتجاوز موقفه، فيتوهم من اللفظ ضدَّ ما أريد، فيذهب إلى خلاف الجهة المقصودة."⁴

ثم أتى بيت لامرئ القيس، وذكر بعض أقوال العلماء في بعض ألفاظه ثم قال بعده: "وهكذا ترى الخطأ في كلمة واحدة أنشأ مذهبا باطلاً، وأضلَّ به قوماً عظيماً، وجعل المِلَّةَ الواحدةَ بَدَداً"⁵، ثم

¹ المفردات في غريب القرآن، ص: 55.

² وهو ما يسمى عند علماء الأصول والبلاغة بالحقيقة الشرعية.

³ هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان أبو أحمد، الأنصاري، الفراهي نسبة إلى قريته التي كانت مسقط رأسه، واسمها "قريها"، توجد في الإقليم الشمالي في الهند، ولد في سنة 1280 في أسرة له مكانة علمية واجتماعية، فتربى وترعرع في الرخاء والرفاهية. له (أساليب القرآن)، و(إمعان في أقسام القرآن)، و(التكميل في أصول التأويل)، توفي سنة 1349 هـ ينظر: (مجلة الهند: في الماض-9-10)، والعددان الأول والثاني قد خصصا للتعريف به، وبيان جهوده في شتى المجالات.

⁴ مفردات القرآن للفراهي، ص: 95.

⁵ نفسه، ص: 96.

حصر غايته من تأليفه كتاب المفردات في "الخلاص عن الجهل والشك الناشئين من سوء فهم المفردات؛ أما الجهل فاثنان: الأول: هو الجهل بنفس معنى الكلمة، فنفهم خلاف المراد، والثاني هو الجهل بكيفية وكَمِّه، فيخفى علينا نظم الكلام ودلالة نسقه.

وأما الشك فهو أيضاً اثنان: الأول: في تعيين وجه من وجوه متباينة، فنقف خيارى، أو نقع في الخطأ، والثاني: هو التذبذب في تعيين وجه من وجوه بينها عمومٌ وخصوص.

والخلاص من ذلك بأمرين: الأول: معرفة معنى الكلمة ووجوهه وأحواله؛ والثاني: الاعتصام بنظم الكلام.¹

من هنا كان لزاماً على من يريد الوقوف على حقيقة اللفظة القرآنية أن ينظر إليها كمّاً وكيفاً، إفراداً وتركيباً، وذلك بالنظر في اشتقاقاتها وتنوع دلالاتها، وتعدد أمكنتها، ثم عدّها في سائر المشتقات؛ فدلائلها في الماضي ليست هي نفسها مطلقاً في المضارع، والماضي الأصلي ليس هو الماضي المطاوع، وهكذا حتى يقف الباحث على خيط ناظم لكل المعاني، ويدرك أن بعض الألفاظ قد تختلف دلالتها من جهة إسنادها نفيًا وإثباتًا.

ومصطلح الهدايات القرآنية ترجع جذوره (هدى) إلى القرآن الكريم، وإن لم ترجع إليه صيغته (هداية)، مما يحتم علينا النظر إليه من زاويتين، كما سبق أن قررنا: الأولى: من جهة اللغة للوقوف على المدار، والثانية: من جهة استعمال القرآن الكريم لنرى هل اقتصر القرآن على الدلالة اللغوية، أم أضاف إليها معنى أو معاني تجب مراعاتها عند الفهم والاستنباط.

إذا رجعنا إلى المعاجم سنجد للفظ (هدى) معاني كثيرة مكتسبة من السياق أو القرائن، لكن عند التأمل نجدها ترجع إلى واحد في الحقيقة، أو اثنين بالاعتبار، وقد عبر عنهما ابن فارس² بقوله: "الهاء والdal والحرف المعتل: أصلان: أحدهما: التقدم للإرشاد، والآخر بعثة لطف؛ فالأول قولهم: هديته الطريق هداية، أي تقدمته لأرشده، وكل مُتقدِّم لذلك هاد...".

¹ مفردات القرآن للفراهي، ص: 112.

² أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، وصف بأنه أحد الأئمة الثقات، والحفاظ الأثبات، كان فقيهاً شافعيًا فصار مالكيًا، قال: دخلتني الحمية بهذا البلد يعني، و كان إماماً في علوم شتى خصوصاً في اللغة؛ وله من التصانيف: كتاب المجمل، وكتاب متخير الألفاظ، وكتاب فقه اللغة، وكتاب غريب إعراب القرآن... ينظر (معجم الأدباء: 411/1، وتاريخ دمشق: 5150، وسلم الوصول إلى طبقات الفحول: 1/190).

والأصل الآخر: الهدية: ما أهديت من لطفٍ إلى ذي مودة؛ يقال: أهديت أهدي إهداء¹ فابن فارس رحمه الله ذكر أصلين للفظ كما هي عاداته في الألفاظ، لكن عند التأمل نجد أن أحدهما أصلٌ حقيقي، وهو الذي عبر عنه ب(هديته الطريق)، والآخر اعتباري، وهو ما عبر عنه ب(ما أهديت من لطف)؛ وقد وصفتُ الأول بالحقيقي لأنه جاء بأصل المادة (هدى) دون أي حرف زائد، ووصفتُ الثاني بالاعتباري لأنه أتى بالمادة (هدى) مع حرف زائد هو الهمزة، وعلى هذا يمكن أن نقول إن أصل المادة (هدى) الذي ترجع إليه كل التصريفات هو الإرشاد، وما عداه من المعاني يُفهم من السياق أو القرائن والأحوال، أو يكون من اللوازم كالبيان؛ فإنه لازم للإرشاد لا ينفك عنه بحال، فلا يستقيم عقلاً أن يرشد المرشد دون أن يبين ما يرشد إليه.

ويشهد لهذا قول الراغب: "وخص ما كان دلالة بهديت، وما كان إعطاء بأهديت؛ نحو: أهديت الهدية، وهديت إلى البيت"²، فالأول: ثلاثي، والثاني: رباعي.

يزيد هذا الفهم بياناً قولُ الخليل: "والإهداء: أن تهدي إلى إنسان مديحاً أو هجاء شعراً"³ حيث أتى بمصدر الرباعي (أهدى)، فدل على أن هدى يرجع في أصله إلى الإرشاد الذي يلازمه البيان، والتعليم.. وقد صرح بهذا الجوهر بقوله: "الهدى: الرشاد والدلالة، يؤنث ويذكر"⁴، "والهدى في كلام العرب معناه: الرشاد والبيان، أي فيه كشف لأهل المعرفة ورشد وزيادة بيان وهدى"⁵. ولما كان الهدى يستلزم طرفين: هاد ومهّدي كانت الدلالة مقيدة بلطف ولين،⁶ وعليه يكون اللطف من لوازمها كما هو الشأن بالنسبة للبيان.

هذا هو المدار، "لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلُّها إذا تُؤملت رجعت إلى الإرشاد"⁷، لأن الأصل في الألفاظ العربية عدم الاشتراك، وإذا أضفنا إلى هذه

¹ معجم مقاييس اللغة، مادة: (هدى) : 42/6.

² المفردات في غريب القرآن، ص: 835.

³ العين: 77/4.

⁴ الصحاح: 6/2533.

⁵ الجامع لأحكام القرآن: 1/160.

⁶ ينظر المصدر السابق، ص: 835.

⁷ المحرر الوجيز: 1/73.

القاعدة قول من يقول: إن الاشتراك لا وجود له في اللغة، ستكون دلالتها على الإرشاد حتمية، "ولم يذكر أهل اللغة فيها إلا أنها بمعنى الإرشاد، والأصل عدم الاشتراك"¹.

وعلى ضوء هذا نفهم كثيرا من الكلمات الموجودة في المعاجم العربية، كفلان يهدي بهدي فلان، وفلان يهدي هدي فلان، بمعنى يسير على نهجه وطريقته، ومنه قول النبي ﷺ: (اقتدوا بالذين من بعدي واهدوا بهدي عمار²) أي سيروا على طريقته، فهذا المفهوم أُخذ من الإضافة وليس من أصل اللفظة، وسبق أن أشرنا إلى أن اللفظة يتغير مفهومها حسب السياق والقارئ، أو تُعطى معنى لفظ آخر لدواعٍ بلاغية، فهذه لا نتحدث عنها.

هذا في اللغة، أما في القرآن الكريم فيضاف إلى القرائن والأحوال والسياقات وجوب النظر إلى الذي أسند إليه الهدى، فإن كان هو الله فينبغي أن ننظر إلى المقصد من الآية حتى نعرف هل المراد هو الإرشاد والبيان، أم هو معنى آخر أتى به القرآن؟ بدون هذا التفريق، وبدون النظر إلى المقصد والسياق قد نفهم من الآية عكس المراد، وحينئذ سنجد آية تنقض أخرى، أو حديثا صحيحا يناقض هذه الآية أو تلك، وهذا منتف عن القرآن بدلالة قطعية، وبإجماع المسلمين.

لذا؛ فإني حاولت تلمس المعنى اللغوي والاصطلاحي للهداية من خلال الرجوع إلى أصل الاشتقاق، وتنوع الاستعمال في القرآن الكريم خاصة، والنظر إلى من أسندت إليه بصفة أخص؛ لأن الدراسة متعلقة بالهدايات القرآنية، ولا نجد مُعينا خيرا من القرآن على الوصول إلى المعنى الدقيق.

مادة (هدى) جاءت في القرآن الكريم فعلا واسما، والفعل إما ثلاثي أو مزيد فيه، والاسم إما بالمعنى المصدرى، أو بالمعنى الاسمي (العَلَمي)، والمصدرى: إما بصيغة اسم الفاعل، أو المصدر أو غيرهما؛ وسأقتصر على الفعل فقط لأن الاستقصاء يخرج البحث عن الغرض منه، ولأن الفعل يدل على الحدث الذي يصح أن يكون في الماضي، أو الحال أو المستقبل، ويصح أيضا أن يقوم به الخالق والمخلوق، وهذا كاف لمثل هذه الدراسة حتى تُبنى على أصول متينة إن شاء الله.³

¹ بصائر ذوي التمييز: 312/5.

² رواه الترمذي في السنن: باب مناقب عمار بن ياسر، رقم: 3799، وابن حبان: 109/09، وغيرهما وحسنه الألباني في الصحيحة: 235/3.

³ من أراد المزيد فليرجع إلى كتاب (مفهوم الهدى في القرآن) للدكتور حبيب مغراوي.

ورد الفعل الثلاثي في القرآن بصيغة الماضي في مواضع كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَفَوْا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 213]، [وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١]: وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، ولم أجد لفظ (هدى) مسندا إلى الخلق إلا في هذين الموضعين.

ولو تأملنا هذه الآيات لوجدنا أن الهدي فيها أسند إلى الله ولم يسند إلى الناس، فإسناده إلى الله ظاهر، أما نفي إسناده عن الناس فلا، الآية الأولى: فيها نفي الهدي عنهم لأن الله لم يهديهم، والثانية: فهي صريحة في أن فرعون لم يهد قومه، مع أنه يقول كما حكى عنه الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وجاء بصيغة المضارع مسندا إلى الله على جهة الإثبات في كثير من الآيات، منها قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، وقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، ومسندا إليه على جهة النفي كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وجاء مسندا إلى العباد على جهة الإثبات في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]، ومسندا إلى الخلق على جهة النفي كقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وجاء الخماسي بصيغ مختلفة حصرها واستقصاء القول فيها يخرجنا عن الغرض المقصود من هذه المقدمة.

هذا فيما يتعلق بالفعل، أما الاسم فجاء باعتباره علماً، كقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وقول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ [العلق: ١١]، أي على طريقة سديدة، وجاء باعتباره اسم فاعل على صيغته: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرحمن: ٧]، أو باعتبار الإطلاق كقول الله تعالى: ﴿أَوَّحَدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، أي هادياً يدلني على الطريق.

فتعدد الاشتقاقات، وتنوع الإطلاقات يدل على ثراء في اللفظ يمكن أن يُؤدَّى به معنى بلاغي لا يؤدي بغيره، وإن كان غير موضوع له أصالة، وإنما اقتضاه الجوار، أو الموضوع الذي تعالجه الآيات...، فعلى الدارس لللفظ القرآني أن ينظر إلى كل هذا لعله يجد رابطاً بين جميع المواضيع فيحكم عليه بأنه مدار اللفظ متى أطلق انصرف إليه، وما عداه معان ترجع إليه بطريق أو بأخرى. وقد تتبعنا اشتقاق لفظ الهدى فوجدت منه الماضي المجرد والمزيد، والمضارع المجرد والمزيد، والأمر من الثلاثي والمزيد، واسم الفاعل، واسم المفعول...، لكنني لم أقف على صيغة (هداية) مع أنها مصدر لهُدًى أو اسم مصدر - على رأي الطاهر بن عاشور الذي اعتبر المصدر هو الهُدًى، باعتباره هو القياس في مصدر الثلاثي المعدي¹ - وهذا يطرح سؤالاً ما السر في كثرة لفظ (هدى)، وغياب لفظ (هداية) في كتاب الله؟

الجواب عن هذا السؤال لا يتم إلا عبر معرفة طريقة القرآن في اختيار الألفاظ، وقد عُلم بالتتبع أن اللفظ القرآني يتسم بالدقة والشمول، ولفظ الهدى من هذا القبيل، إذ هو شامل من حيث التنوع، وشامل أيضاً من حيث المعنى، فأما التنوع فلأنه يدل على المعنى الاسمي والمعنى المصدرى، بخلاف لفظ الهداية فإنه لا يدل إلا على المعنى المصدرى، وأما التنوع: فلأنه يدل على الإرشاد إذا أسند إلى البشر، ويدل عليه ويزيد التوفيق والتسديد إذا أسند إلى الله عز وجل، بخلاف لفظ الهداية فإنه يدل على الحدث فقط دون النظر إلى من أسند إليه.

بعد هذه المقدمة نأتي إلى ذكر بعض أقوال العلماء في الهدى وبيان مأخذ كل منهم لنبني عليه التعريف الذي نراه مناسباً.

¹ ينظر التحرير والتنوير: 1/ 188.

إذا رجعنا إلى كلام المفسرين سنجدهم متفقين على أن معنى الهدى هو الدلالة، لكنهم مختلفون في التفصيل؛ فالجمهور على أنه: الدلالة على الخير، سواء وصل المدلول إلى المطلوب أم لم يصل؛ أما الزمخشري ومن سار على دربه كالنسفي، فهو: "الدلالة الموصلة إلى المطلوب"¹.

وهذا الاختلاف مبناه على أمر عقدي، إذ "اختلف علماء الكلام في اعتبار قيد الإيصال إلى الخير في حقيقة الهداية، فالجمهور على عدم اعتباره، وأنها الدلالة على طريق الوصول، سواء حصل الوصول أم لم يحصل، وهو قول الأشاعرة وهو الحق؛ وذهب جماعة منهم الزمخشري إلى أن الهداية: هي الدلالة مع الإيصال، وإلا لما امتازت عن الضلالة، أي حيث كان الله قادرا على أن يوصل من يهديه إلى ما هداه إليه"²، وقد نص على عدم اشتراط الإيصال أبو البقاء الحسيني الكفوي في الكليات صراحة حيث قال: "الهداية هي عند أهل الحق: الدلالة على طريق من شأنه الإيصال، سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء أو لم يحصل"³، وناقشها بشدة الألوسي في تفسيره، وبين مؤاخذات الزمخشري على تعريف الجمهور ورد عليها واحدا واحدا⁴.

والمسألة مبثوثة في علم الكلام، لكن الذي ينبغي التنبيه عليه هنا هو أن لفظ الهدى في القرآن جاء كثيرا في سياق الحديث عن العقيدة خصوصا، أو عن القرآن عموما، باعتباره هاديا إليها، وإلى غيرها مما يصلح العباد في الدنيا والآخرة، فكأن فيه إشعارا إلى أن الهداية التي ينبغي التركيز عليها هي التي تتعلق بالطريق إلى الله تعالى عبر سنة رسول الله ﷺ.

والهدى جاء في القرآن الكريم بمعان متعددة⁵ دل عليها السياق، أو القرائن والأحوال؛ وقد أحصى منها الزركشي في البرهان سبعة عشر معنى، ثم قال بعدها: "وهذا كثير الأنواع"⁶، وهي وإن تعددت إلا أنه لم يقل أحد من أهل العلم إنها قد وضعت لتلك المعاني كلّها حتى صارت مشتركة بينها، بل ترجع إلى بعضها وضعاً، وتدُلُّ على الباقي بالقرائن والأحوال والسياقات.

¹ ينظر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل: 35/1، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: 39/1.

² التحرير والتنوير: 188/1.

³ الكليات، ص: 952.

⁴ ينظر: روح المعاني: 110/1.

⁵ ينظر للتوسع: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية: 38-27/1.

⁶ البرهان في علوم القرآن: 104/1.

وقد اختلف العلماء في العدد الذي ترجع إليه معاني الهدى؛ فمنهم من أرجعها إلى أربعة أصول، الأول: الإلهام الذي يشترك فيه الإنسان والحيوان، والطير والحيتان...، كالتقام الطقل ثدي أمه، ورجوع الطير إلى عشه بعد طيرانه.

الثاني: البيان والإرشاد الذي يخص المكلفين من الإنس والجان.

الثالث: التوفيق والتسديد، الذي يختص به المؤمنون دون غيرهم،

الرابع: تعريف الناس طريقهم في الدار الآخرة¹.

ومنهم من أرجعها إلى أربعة أيضاً، لكن باعتبار آخر، قال بن عاشور رحمه الله: "والهداية أنواع تندرج كثرتها تحت أربعة أجناس مترتبة: الأول: إعطاء القوى المحركة والمدركة التي بها يكون الاهتداء إلى انتظام وجود ذات الإنسان، ويندرج تحتها أنواع تبتدئ من إلهام الصبي التقام الثدي، والبكاء عند الألم، إلى غاية الوجدانيات التي بها يدفع عن نفسه كإدراك هول المهلكات وبشاعة المنافرات، ويجلب مصالحه الوجودية كطلب الطعام والماء وذود الحشرات عنه وحك الجلد واختلاج العين عند مرور ما يؤذي تجاهها، ونهايتها أحوال الفكر وهو حركة النفس في المعقولات، أعني ملاحظة المعقول لتحصيل المجهول في البديهيات، وهي القوة الناطقة التي انفرد بها الإنسان المنتزعة من العلوم المحسوسة.

الثاني: نصب الأدلة الفارقة بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، وهي هداية العلوم النظرية.

الثالث: الهداية إلى ما قد تقصر عنه الأدلة أو يفضي إعمالها في مثله إلى مشقة، وذلك بإرسال

الرسل، وإنزال الكتب، وموازن القسط، وإليها الإشارة بقوله تعالى في شأن الرسل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: 23].

الرابع أقصى أجناس الهداية، وهي كشف الحقائق العليا، وإظهار أسرار المعاني التي حارت فيها ألباب العقلاء إما بواسطة الوحي والإلهام الصحيح أو التجليات، وقد سمى الله تعالى هذا هدى حين أضافه للأنبياء فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]².

¹ ينظر للتوسع في هذا النوع: الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية: 1/138-162.

² التحرير والتنوير: 1/189، 188.

ومنهم من أرجعها إلى أصليين: لكن باعتبارات مختلفة؛ من هؤلاء صاحب أضواء البيان الذي جعها تدور بين معنيين: هما: الهدى العام الذي يعني الإرشاد والبيان، والهدى الخاص الذي يعني حصول المطلوب من الهداية¹.

والذي ظهر لي من خلال التأمل: أن الهداية في القرآن الكريم لها علاقة بالذي أسند إليه الهدى، فإن أسند إلى الله لا يكون بالضرورة نفس الهدى إن أسند إلى الناس، فالذي إلى الناس لا يخرج عن معنى واحد هو الإرشاد والبيان، سواء أكان الذي أسند إليه نبيا أم غيره، وأسند إلى الله يدور بين معنيين ترجع إليهما كل المعاني الأخرى بما فيها الأربعة التي سبقت الإشارة إليها، الأول: الإرشاد، والثاني: التوفيق، فالإرشاد سبب وشرط لحصول الهداية لكن إذا لم يمنع منها مانع، فإن كان المانع عمى البصيرة المترتب على العناد والجحود لم يحصل المطلوب، وإن زال المانع تحصل الهداية، لكن ليس بالإرشاد وحده، وإنما بالتوفيق من القوي القدير، لذا سميت هداية التوفيق، لأنها تفضل زائد من الخالق على الإرشاد والبيان الذي أوجبه على نفسه قبل تعذيب أي أحد من خلقه، حيث قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وعليه فاللفظ يدل على معنيين أحدهما سبب، والآخر نتيجة، فإن كانت النتيجة كان السبب ولا بد، وإن كان السبب فلا تلزم منه النتيجة، لأنها متوقفة على توفر الشروط وانتفاء الموانع، أما توفر الشروط فقد أوجبه الله على نفسه فضلا وكرما، وأما إزالة الموانع فامتت به على البعض دون الآخرين، فالأسباب والمسببات كلها من عند الله، أما الأسباب فقد أعطى الله المكلفين القدرة على بعضها دون بعض، وأما المسببات فاختص بها سبحانه وتعالى².

أما المعاني الأربعة التي ذكرها ابن عاشور وغيره فترجع إلى هذين المعنيين، فالإلهام العام يرجع إلى توفيق الله لخلقه لأجل الحصول على مصالحهم، ولولاه لما عرفوا كيف يعيشون، فالعلاقة بين النوعين علاقة عموم وخصوص، (فهذا الهداية التوفيق) تختص ببعض خلقه، وهم المكلفون الذين بعث إليهم الأنبياء والمرسلين، وهداية (الإلهام) عامة للمكلفين وغيرهم، وعلى هذا يكون التقسيم الرباعي من باب البيان والإيضاح فقط.

¹ ينظر: دفع إيهام آيات الاضطراب، ص: 2.

² للتوسع في التفريق بين الأسباب والمسببات ينظر: الموافقات: 1/ 298 - 405.

أما الذي سُمي بهداية الآخرة فهو نتيجة عن هداية التوفيق التي كانت في الدنيا، والنتيجة متوقفة على المقدمة، فتكون من إطلاق السبب على المسبب.

وفي ضوء هذا الفهم للفظ (هدى) نفهم كثيرا من الآيات الواردة في القرآن، كقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ٥٦﴾ [القصص: ٥٦]، وقول الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]، وقول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ٦٤﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فالتى تعلقت بالناس عموما، والنبين والمرسلين خصوصا ننظر إليها بنظرين: الأول: من جهة إثبات الهداية لهم، فنحملها على الإرشاد؛ لأنه هو الذي يملكونه، والثاني: من جهة نفيها عنهم، فنحملها على التوفيق؛ لأنه ليس في مقدورهم. وكذلك الآيات الواردة في إثبات الهداية لله، ننظر إليها من جهتين: الأولى: من جهة الإثبات، فإن كانت عامة نحملها على الإرشاد والبيان، وإن كانت خاصة بالمؤمنين دون غيرهم نحملها على التوفيق والتسديد؛ والثانية: من جهة النفي، وهذه لا تكون إلا للكافرين أو الظالمين ونحوهم فنحملها على التوفيق فقط؛ لأن هداية الإرشاد ثبتت عمومها بنصوص كثيرة من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

ويشهد لهذا قول النووي: "قال العلماء: لفظ الهدى له معنيان: أحدهما بمعنى الدلالة والإرشاد، وهو الذي يضاف إلى الرسل والقرآن والعباد، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩]، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [قصص: ١٧] أي بينا لهم الطريق ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] ﴿وَهَدَيْنَاهُ الْجَدِينَ﴾ [البلد: ١٠]، والثاني بمعنى اللطف والتوفيق،

والعصمة والتأييد، وهو الذي تفرد الله به ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ¹.

الهداية في الاصطلاح

بعد هذا البيان الذي سبق لمفهوم الهدى في اللغة والقرآن، وكذلك التفريق بين دلالة الهدى والهداية نستطيع أن نعطي تعريفا لمصطلح (الهدايات القرآنية) يكون أقرب إلى الدقة والعلمية، لنبي عليه ما يأتي في البابين الآتين من هذا الكتاب، لكن قبل وضعه وشرحه يحسن بنا أن نذكر أن مصطلح (الهدايات القرآنية) لم يكن معروفا عند العلماء باعتباره علما مستقلا، أو فناً داخل علم التفسير وإن كانوا يشيرون إلى مدلوله بعبارات مختلفة ².

فهم وإن لم يعرفوها تعريفا اصطلاحيا إلا أنهم ذكروا عبارات أخرجتها عن معناها اللغوي قليلا، فابن فورك رحمه الله قال: إن الهداية هي: "الدلالة على طريق الرشد" ³، فتخصيصها بطريق الرشد دون غيره تضيق لمفهومها اللغوي؛ وزادها ضيقا أبو السعود رحمه الله إذ جعل "الهداية هي الدلالة على ما يوصل إلى البغية، لا الدلالة الموصلة إليها قطعاً" ⁴، فنظر إليها نظرة كلامية روعي فيها الفاعل وهو الله عز وجل، وقريب منه كلام ابن عاشور إلا أنه صرح بأن المفهوم الذي أعطاه هو اصطلاح شرعي، حيث قال: "والهداية في اصطلاح الشرع حين تسند إلى الله تعالى هي الدلالة على ما يرضي الله من فعل الخير ويقابلها الضلالة وهي التغيرير" ⁵.

وقد اجتهد الفريق البحثي الذي وضع الدراسة التأصيلية للهدايات القرآنية فعرّفها بأنها: "الدلالة المبيّنة لإرشادات القرآن الكريم، التي توصل لكل خير وتمنع من كل شر" ⁶.

¹ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: 156/3.

² سيأتي ذكر بعضها عند الحديث عن تعبيرات العلماء عن الهدايات القرآنية.

³ تفسير ابن فورك: 199/3.

⁴ تفسير أبي السعود: 166/9.

⁵ التحرير والتنوير: 188/1.

⁶ الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية/44/1.

فهذا التعريف وإن كان يظهر فيه قرب مع تعريف ابن عاشور إلا أنه مختلف عنه؛ فالأول: روعي فيه المعنى، والثاني: روعي فيه المعنى مع العلمية، فكأنه يشير إلى أن الهدايات ينبغي أن تكون علما مستقلا له أصوله ومبادئه.

ومن أبرز النقط التي يظهر فيها الاختلاف هي لفظة "الدلالة المبينة" التي توحى بأنها معنى مُستفاد من الآية -هو المقصودُ الأعظم، يدرك بقواعد صحيحة، ومبادئ ثابتة ذكر البَحْثَة طرفا منها في الدراسة.

فهذا التعريف وإن حاول الخروج عن نطاق التعاريف اللغوية إلا أن لي عليه ملحوظتين: **الأولى:** قيدُ "توصل لكل خير وتمنع من كل شر" حيث أَسَدَ الإيصال إليها دون قيد أو شرط، ونحن قد قررنا أن الهداية في حد ذاتها مرشدة وليست مُوصلةً، والتعريف ينبغي أن يكون دقيقا، لأنه يعطي للباحث تصورا عن بحثه، وللناقد أصولا يحكم بها على أعماله.

الثانية: عدم ذكر قيد يفرق بين الهداية في أصلها التي ضَمَّنَهَا الله كتابه، والتي هي المُخْرَج من القرآن عن طريق الجهد البشري، وهذا هو المقصود بالبحث؛ لأن الأول وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والثاني: محاولة لإبراز هذا الوحي عن طريق أصول علمية، وقواعد منهجية، وضوابط أخلاقية تُصوره في الواقع، ومع هذا فلا يمكن أن يكون المخرَج عينَ الوحي مائة بالمائة؛ لأن الجهد البشري مهما توفرت فيه الشروط لا بد وأن يعتريه النقص.

وقد نظرت إلى التعاريف السابقة وغيرها فاستفدت منها وحاولت أن أصوغ تعريفا أتجاوز فيه ما ظهر لي من نقص في التعريف السابق لينظر فيه النقاد وينووا نقصه، ثم ينظر غيرهم إلى تعاريفهم وهكذا إلى أن نصل إلى تعريف يعتبر أقصى ما يمكن أن يصل إليه الجهد البشري، فقلت إن الهداية القرآنية: هي: "الدلالة القرآنية المرشدة إلى خيري الدنيا والآخرة، المستخرجة عن طريق الجهد البشري"، فالدلالة لفظ عام يشمل كل أنواعها، فيدخل فيها ما كان عن طريق المطابقة أو التضمن أو الالتزام، وما كان بالمنطوق أو المفهوم، وما كان عن طريق الحقيقة وما كان عن طريق المجاز¹،...، و"القرآنية" قيدٌ لإخراج دلالات الحكماء وغيرهم، فمهما بلغت فلن تستطيع أن تهدي الناس في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية؛ و"المرشدة" قيد لبيان أن الهداية لا توصل بنفسها كما سبق أن بينا،

¹ هذا بناء على رأي من جوز المجاز في القرآن.

إنما تبين طريق الحق وطريق الباطل بيانا لا يبقى معه لبس؛ و"خيري الدنيا والآخرة" لتشمل العبادات المحضة كالصلاة والحج...، والعبادات غير المحضة وهي جميع أفعال الناس التي لها ثمرة عاجلة أو آجلة بشرط أن تقترن بها نيات صالحات، و"المستخرجة" قيد لإخراج ماعداها مما هو في كتاب الله ولم نطلع عليه، لأن الحديث هنا عن المعنى الذي يتوصل إليه المتأمل في كتاب الله والذي صاغه في عبارة لغوية تحمله إلى الناس، و"عن طريق الجهد البشري" لإزالة القداسة عنها حتى لا تعطى صفات القرآن الكريم، ولإنزالها لميزان التمحيص والتحليل عبر الأعصر والأزمان.

المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنية.

الهدايات القرآنية تكمن أهميتها في كون القرآن موضوعها، والمنزّل لإشاعتها، فما يليق به من المراتب العلية، وما يتصف به من الصفات السنية يليق بها، وقد تحدث الدكتور طه عابدين حفظه الله عنها مبرزاً مكانتها من حيث موضوعها، وصفاتها، وهدفها، وحاجة الناس إليها، وأثرها على الفرد والمجتمع¹، لكن مع طول تأمل ظهر لي أنه راعى جانباً واحداً هو حقيقتها في ذاتها دون النظر إلى الجانب الآخر الذي هو المُخرَج البشري الذي كانت الدراسة مخصصة لأجله، فصار وصفها في الحقيقة هو وصف القرآن الكريم، فال كلام في النهاية إلى القرآن الكريم، لذلك وصفها بالمستقيمة، والقيمة؛ لأن القرآن الكريم وُصف بهما، والمباركة والمذكّرة لأن القرآن نُعت بهما...؛ وهذا حق لأنه يتعلق بجانب واحد هو هُدي الله الذي جاء به القرآن، وتظهر مراعاته خصوصاً في مطلب صفاتها.

وبناء على التعريف السابق للهدايات القرآنية ظهر لي أن أقسمها إلى قسمين: قسم يتعلق بحقيقتها كما هي في كتاب الله، وهذا تحدث عنه الدكتور بشكل مستفيض؛ وقسم يتعلق بما باعتبارها منتوجاً بشرياً من كتاب الله يزعم صاحبه أنه هدايات من هدايات كتاب الله، وهذا أشار إليه الدكتور حفظه الله وإن لم يصرح بالتفريق، ولعله لم يعتبر شيئاً من المخرج هدايةً إلا ما توفرت فيه الشروط جميعها، ومع هذا سيبقى الإشكال وارداً لاختلاف الأنظار، فقد يعتبر شخصٌ بعض المخرجات هداية، ويعتبرها آخرون خواطر.

لذا سأقتصر على أهمية الهدايات باعتبارها مخرجات، وأترك الكلام عن حقيقتها إلا ما تعذر علي فيه التفريق، فما ثبت للقرآن الكريم من أهمية يثبت لها.

الهدايات القرآنية لها موضوعها الذي يبحث فيه عن عوارضها، وصفاتها التي تميزها عن غيرها، وهدفها الذي ينشده مُنزلها ومستخرجها، وحاجة ماسة إليها من طرف المتعطشين لمائها، وأثر تتركه في البيئة التي حلت فيها، أو الفئة المنزلة إليها؛ فلنخصص كل واحد بمطلب يكشف لنا بعض جوانبه.

¹ ينظر الهدايات القرآنية: 1/72-100.

المطلب الأول: موضوع الهدايات القرآنية

على قدر أهمية الموضوع تكون أهمية العلم الذي يرتبط به، وموضوع الهدايات القرآنية هو القرآن الكريم الذي هو "كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر"¹، وهو الروح الذي تحيا بها القلوب كما تحي بها الأجسام، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهو النور الذي تشرق به الأفئدة كما تشرق الأرض بنور الشمس ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مُّبِينًا﴾ [النساء: 174]...، فأهميتها (باعتبارها منتوجا بشريا) تكمن في ربط مستخرجها والمخرجة إليه بالقرآن الكريم، حتى يشعر الإنسان أن حياته بدون القرآن حفظا وتدبرا وعملا، كحالة جسده مع الروح، وحتى يشعر بأنه يمشي في الظلام الدامس بدون القرآن، لأنه نور العقول، ومِشعل البصيرة. "فالروح في هذه الآية: هو القرآن الكريم وهدى الشريعة، سمّاه الله روحا، لأنه يحيي به البشر والعالم، كما يحيي الجسد بالروح، فهذا على جهة التشبيه"²؛ "وسماه روحا لما يحصل به من الحياة الطيبة، والعلم والقوة، وجعله نورا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان؛ فحيث وُجدت هذه الحياة بهذا الروح وُجدت الإضاءة والاستنارة، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة.

فمن لم يقبل قلبه هذا الروح فهو ميت مظلم، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل"³.

¹ الموافقات: 4/144.

² التفسير الوسيط للزحيلي: 3/2350.

³ التفسير القيم: 3/2350، وينظر مفتاح دار السعادة 1/52.

المطلب الثاني: صفاتها:

في الحقيقة صعب علي هذا المطلب حتى صرت أقدم رجلا وأقدم أخرى لما وجدت من شدة في التفريق بين صفاتها في كتاب الله وبين صفاتها باعتبارها مخرجا بشريا، فخشيت إن وصفتها بصفات القرآن أن أهدم ما بنيت في التعريف، وإن لم أصفها تصبح بلا جدوى، وقد ظهر لي أن أزيل عنها أوصاف القداسة التي ثبتت لكتاب الله، وأحليها بما يليق بها مما لا يوصلها إلى أوصاف القرآن الكريم. ومما ظهر لي أنه يناسبها وصف التذكير، فهي مذكرة للعباد بما أنساهم الشيطان إياه، إذ تكشف الحقائق، وتزيل اللبس عن طريق التركيز على مقاصد القرآن من الآية أو السورة.

ومن صفاتها أنها ميسرة لأنها تيسر على الناس فهم المقصود من القرآن عموما ومن كل سورة خصوصا، ومن كل آية بشكل أخص، لأنها تركز على المقصود من القرآن دون التفاريع التي أدخلها بعض المفسرين كالنحو وما شابهه.

ومن صفاتها أنها موجهة لأنها توجه الناس إلى المعين الذي لا ينضب، وترشدتهم إلى المنهج الصحيح الذي يجب اعتماده مع كتاب الله عز وجل.

المطلب الثالث: غايات الهدايات القرآنية

غايات الهدايات القرآنية من غايات القرآن الكريم، فهنا يتحدد هدف المخرج البشري، مع الحقيقة التي ضمَّنها الله في كتابه، وإن اختلفتا في بلوغه، فالتى في كتاب الله يتحقق المطلوب معها حتماً إلا إن وُجد مانع كالعناد أو عمى البصيرة كما سبق أن قررنا، وأما المخرج البشري: فقد يتحقق معه الغرض إن انتفى المانع، وقد لا يتحقق حتى وإن انتفى، لأن الهدايات التي في كتاب الله سبب تام، توفرت معه شروطه، وأما المخرج البشري: فهو سبب لكن قد لا يجمع شروطه فيتخلف عنه مسببه، فهذا التفريق دقيق لمن تأمله، وعليه نبنى ما بعده.

ومن أكبر غايات الهدايات القرآنية إخراج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال أيضاً: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ [المائدة: ١٦]، يخرجهم من ظلمات الجهل، إلى نور العلم، وظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وظلمات الشك والحيرة إلى نور القطع واليقين¹؛ فالظلمات: لفظ عام يشمل الظلمات الحسية والمعنوية، إلا أن القرائن بينت أن المقصود المعنوية لأن الحسية لها أسبابها، وإذا خرجت الحسية بالقرائن، فتبقى المعنوية على عمومها لتشمل كل ما ينطبق عليه اسم الظلمة.

ومن هذه الغايات: تحقيق مصالح الناس الدينية والدينية، بل تسعى إلى تحصيلها على التمام والكمال، فقد وصف الله هدايات القرآن الكريم بالهدي التي هي أقوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ٩]، فأقوم: صيغة أفعال، تدل على شيئين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخر فيها، فهدايات القرآن لا توصل للحسن فقط بل للأحسن في كل شيء، ومن بلاغة القرآن -وهي جزء من هداياته- أن حُذف المفضل عليه فصارت عامة في كل شيء، فهي الأقوم في العقيدة والعبادة

¹ ينظر: أضواء البيان: 52/7.

والسلوك والأخلاق، والأقوم في التشريع والأحكام، والأقوم في السياسة والاقتصاد، والأقوم فيما يخص الفرد وما يخص الجماعة... فهذه "الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة"¹.

ومن غاياتها تعريفُ الناس بأنفسهم، فالجهل بها هو السبب في مشاكل العالم قديما وحديثا، فمن يجهل نفسه فكيف يعرف ربه؟ ومن يجهل ربه فكيف يعرف طريقه...؟ فالتصورُ الصحيح للنفس ينشئُ تصورا صحيحا للهدف الذي ينبغي التسابق إليه، والتنافسُ من أجل الحصول عليه، فجاءت هدايات القرآن لتُصور للنفس حقيقةَ نشأتها، وطريقةَ تكوينها، ومآل جسدِها وروحها²، وأيضا الهدفَ من وجودها والطريقة التي تنجيها، ثم تُصور تصورا لا مثيل لها التركيبَ العجيب للإنسان الذي حار العقل وسيبقى حائرا ما لم يأو إلى هدايات القرآن، فبيّنت أنه مكون من تراب يحتاج إلى الطعام والشراب، وروحٍ تحتاج إلى ذكر الله، تحي به، وتموت بدونه، إلى غير ذلك مما يحتاج ذكره إلى طول قد يخرجنا عن الغرض المقصود.

ومن غاياتها مهاجمة كل ما يعترض طريق الإنسان من العقائد الفاسدة، والأفكار الهدامة، فضرَبَتْها في مقتلها، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فما يدعي الناس من هدايات إذا قوبلت بهدايات القرآن كَبِيت العنكبوت مع المطر، فأئى لحيط يكاد أن لا يرى بالبصر أن يقاوم المطر النازل من فوقه، فهدايات القرآن سلاح ذو حدين لا يُبقي ولا يذر، ما يحتاجه فقط هو أن يُفتح له الباب للنزال، فترى كل العقائد والأفكار والفلسفات جُثثا هامدة؛ وقد حصل هذا في زمن كان الناس يقرؤون القرآن من أجل الوقوف على هداياته، إذ استطاعوا أن يطوقوا معظم الأرض في فترة يعجز العقل عن تفسيرها، لكن لما دخل السيف إلى غمده إما لعجز مَنْ وُكِّلوا به عن حمله، وإما باعتقاد أن مقاومة الأفكار يمكن أن تتم بدونه، أو أن هداياته قاصرة صلحت لذلك الزمان ولا تصلح لهذا وقع للأمة ما يقطر القلب دما من أجله.

¹ أضواء البيان: 17/3، وله كلام نفيس في الآية يرجع إليه من أراد التفصيل.

² تحدث الدكتور حسن الباش عن هذه النقطة كثيرا في كتابه (الإنسان في ميزان القرآن)، من أراد التفصيل فليرجع إليه.

والدراسات التي اعتنت بالقرآن من هذا الجانب تهدف إلى إعادة إخراج الهداية للناس في قالب لغوي لما عجز كثير منهم عن استيعابها بالتأمل والتذوق كما كان يتذوقها العربي، فنرجو أن نكون ممن ساهم في وضع السفينة على مجراها ليأتي من يقودها إلى بر الأمان.

المطلب الرابع: حاجة الناس إليها:

حاجة الناس للهدايات القرآنية كحاجة الأعمى إلى قائد يقوده، وحاجة الأرض إلى المطر ليرويها فتخرج أزهارها وأنوارها...، كيف لا يحتاج إليها وهي روحه التي يحيا بها!!! ثم كيف لا يحتاجها وهي نوره الذي يبصر به!!! وخير من وصف حاجة الناس إلى هدايات القرآن هو منزل القرآن حيث قسم الناس إلى قسمين لا ثالث لهما فقال: ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّتِينَكُمْ فَمَنِ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۚ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۝﴾ [طه: ١٢٤]، فمن اتبع هدى الله ضَمِنَ له عدم الضلال في الدنيا كلها، لا يضل في مجال الاعتقاد، ولا مجال العبادات، ولا الشرائع والمعاملات... دل على هذا الفعل المنفي (لا يضل) الذي هو في قوة النكرة، فأفاد العموم في الزمان وما يلحق به من كل أنواع الضلال، ثم هو لا يشقى في الآخرة بدخول النار، بل يسعد سعادة لا شقاوة بعدها، دل عليها أيضا الفعل المضارع المنفي الذي هو في قوة النكرة. أما من أظهر استغناؤه عن هدى الله، وغناه عن طريقه فإنه يعيش التعاسة وإن ظهر للناس أنه في قمة السعادة¹، وهذا لا يختص بالفقير دون الغني، ولا بالضعيف دون القوي، بل يشمل كل من أعرض ولو كان من السادة وأصحاب السياسة، فَمَنِ الشرطية دالة على العموم من جهتين، جهة طرق الضلال التي لا تحصى، وجهة الأفراد الذين لا يحصرون، فما إن يخرج المعرض عن هدى الله من طريق مظلم إلا ويدخل في أظلم منه، ولا ينجو من كرب إلا ويمسكه ما هو أشد منه، لأن الضنك لازم له لزوم جلده بلحمه، دلَّ على هذا الاختصاصُ المستفاد من تقديم خبر إنَّ على اسمها، "والضنك: الضيق، يقال: مكان ضنك، أي ضيق، ويستعمل مجازا في عسر الأمور في الحياة"²، "وهو هنا بمعنى عسر الحال من اضطراب البال وتبلبله، والمعنى: أن مجامع همه ومطامح نظره تكون إلى التحايل في إيجاد الأسباب والوسائل لمطالبه، فهو متهالك على الازدياد، خائف على الانتقاص، غير ملتفت إلى الكمالات، ولا مأنوس بما يسعى إليه من الفضائل، يجعله الله في تلك الحالة وهو لا يشعر، وبعضهم يبدو للناس في حالة حسنة ورفاهية عيش ولكن نفسه غير مطمئنة"³

¹ ينظر أضواء البيان: 310/3.

² التحرير والتنوير: 231/16.

³ التحرير والتنوير: 231/16.

والسر في هذا أن مصالح الإنسان إما أن تكون دنيوية أو أخروية، "فأما الدنيوية: فلا يستقل باستدراكها على التفصيل البتة، لا في ابتداء وضعها أولاً، ولا في استدراك ما عسى أن يعرض في طريقها، إما في السوابق، وإما في اللواحق، لأن وضعها أولاً لم يكن إلا بتعليم الله تعالى" ¹ لأن العقل قاصر عن إدراك حقيقة نفسه فكيف يدرك ما يصلحها!!! لذا "لم تجر مصالح الفترات على استقامة؛ لوجود الفتن والهرج، وظهور أوجه الفساد، فلولا أن من الله على الخلق ببعثة الأنبياء، لم تستقم لهم حياة، ولا جرت أحوالهم على كمال مصالحهم، وهذا معلوم بالنظر في أخبار الأولين والآخرين" ² وأما الأخروية فأبعد عن إدراك العقول، لأن العقل وظيفته بناء المعلومات التي وصلت إليه عبر الحواس، والآخرة غيب مطلق فكيف يطمع العقل في اكتشافه فضلاً عن إدراكه ثم الإحاطة بمصالحه ومفاسده!!! ³

وبضدها تتميز الأشياء، فهذا واقعنا خير شاهد علينا، فلم تنعم البشرية بخيرات الله التي في أرضه أو التي في سمائه مثلما تنعمت هذه الأمة؛ السيارات تحملها حيث شاءت، والطائرات تحلق بها حيث اشتهدت؛ تتواصل كما تشاء، وتقرأ ما تشاء، ملايين الكتب، وبلايين المقالات والتدوينات، وعشرات الآلاف من الفلاسفة والمنظرين؛ أما الأطعمة فما كانت تشتهيها فضلاً عن أكلها، يدخل أحدنا الفندق فيجد عشرات الأنواع إن لم تكن المئات من المأكولات والمشروبات، أما اللباس فما عاد يبلى فوق أظهرنا، وبالجملة فلو أردت حصر ما استجد من النعم التي تفضل الله بها علينا دون غيرنا لما استطعت، ومع كل هذا كثر الانتحار كثرةً أفزعت العقلاء، فقد قدرت منظمة الصحة العالمية أن حوالي ثمان مائة ألف منتحر (800000) في سنة 2012 فقط، وأن أعلى معدل للانتحار يوجد في الدول المرتفعة الدخل ⁴، فما السبب يا ترى!!! قد يجدون أسباباً موهومةً فيجتهدون في علاجها، ثم إن قاموا بدراسة أخرى وجدوا العدد قد ارتفع ومع هذا فلا يعترفون -إما لعمى في بصيرتهم، أو لجحود من عقولهم- بأن أهم أسباب الانتحار هو الاعتناء الزائد بحاجات الجسم، مع الإهمال المطلق

¹ الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي: 61/1.

² الاعتصام: 62/2.

³ نفسه: 62/2.

⁴ ينظر: مركز البيان للدراسات والتخطيط

أو النسيان التام لحاجات الروح التي غذاؤها الهدايات القرآنية ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَظْمِينُ الْقُلُوبِ﴾ [الرعد: ٢٨].

أما عن الأمراض الاجتماعية كانتشار ظاهرة أطفال الزنا فيندى لها جبين العاقل، ومما يدل على أنهم قد عجزوا واستسلموا داخليا - وإن أظهروا أنهم ما يزالون يقاومون وأنهم في تحسن - ما حدث سنة 2009 بالمملكة المغربية، وبالضبط في مدينة مراكش، حيث أتى فريق من منظمة الصحة العالمية فجمع الأئمة والخطباء - وكنت واحدا منهم - وقال بالحرف: "أخبروا الناس بخطورة هذه الأمراض؛ فإنهم يسمعون لكم ولا يسمعون لنا" فهم يقصدون أن الناس لا يسمعون لهم لما أخبروهم بضرورة استعمال وسائل منع الحمل، والعازل الطبي، فأرادوا أن يستعملوا الأئمة والخطباء لمحاربة هدى الله بطريق غير مباشر!!!.

وبالجمل فالأئمة غرقت إلى أذنيها في مشاكل لا طاقة لها بها، مما يجعلها متعطشة لهدايات القرآن الكريم أكثر من الظمان في الصحراء؛ لأن الماء يُحيي الأجساد، والهدايات تحيي الأرواح كما سبق أن ذكرنا.

المطلب الخامس أثر الهدايات القرآنية:

كل ما سبق ذكره مقدمة لهذا المطلب، وهو الذي نرجو من هذه الدراسة الفردية، ومن مشروع الهدايات القرآنية بصفة عامة، فأنا أعتبره مشروع الأمة إن توفرت شروطه وانتفت موانعه.

لو أردت بيان أثره بالمقال لما وقَّيته حقه، لذا سأعتمد طريقتين:

الطريقة الأولى: ذكر صور حقيقية لآثار الهدايات القرآنية، ولن أجد خيرا من صور الصحابة والتابعين، فهم المرأة التي ينظر الناس فيها إلى وجوههم ليهذبوا سلوكهم وأخلاقهم؛ فكما يعلم الجميع أن العرب في الجاهلية كانوا في الدرك الأسفل من شعوب الدنيا، الجهل عنواهم، والشرك دينهم، والتخلف شعارهم، والظلم وسيلتهم للعيش، والحرب سلاحهم للبقاء... تُقتل الموءودة حية، ويسود الوجه من البُشرى بها، يتوارى من الناس كأن عارا لحق به...، لكن لما جاءت هدايات الله صاروا سادة الأمم بعدما كانوا من رعاعها، وعلماء الأمة بعدما كانوا من جهالها، وأعدل الأمة بعدما كانوا من أكبر مجرميها، وأرحمها قلوبا بعدما كانت أقسى من الحجارة؛ وهذا لأنهم أدركوا حقيقتها، وشعروا بقيمتها، فكانوا يقرؤون القرآن من أجل الحصول عليها، لا من أجل التغني بألحانه، أو الأكل بكلماته؛ ساعدهم على هذا الفطرة النقية، والبلاغة العربية، ففتحوا أعينهم على معين لا ينضب، فنهلوا من معينه الذي ما زال يجري، وسيبقى إلى أن يقبض الله الأرض ومن عليها.

فمن نظر إلى حال هؤلاء قبل هدايات القرآن الكريم وبعدها وقف بنفسه على الأثر الذي تركه على الفرد والمجتمع.

والطريقة الثانية: طريقة البيان بالألفاظ، وسأقتصر على أثر واحد تتفرع عنه كل الآثار، ألا وهو التعلق بكتاب الله حتى يصير يجري في الإنسان مجرى الدم، فمن يجد في آية واحدة أربعين هداية أو يزيد فهل سيتركه لبحث عن غيره!!! إن هذا لشي عجاب؛ فمن خلال هدايات القرآن لن تبرح الأمة كتاب ربها، ففيه ما لا يدخل تحت العد، ولا يبلغه الحصر ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأ، عام ٨٣]، يدل بالمنطوق والمفهوم، والنص والظاهر، والتضمن والمطابقة والالتزام، والإشارة والفحوى...، إن نظرت إلى آية بنفسها أخذت هدايات، وإن نظرت إليها مع التي قبلها أو التي بعدها أخذت هدايات، وإن نظرت إليها في سياقها أعطتك هدايات، وإن نظرت إليها في سورتها أعطتك هدايات، وإن نظرت إليها في القرآن كله أعطتك هدايات فسبحان من أعجز به خلقه؛ وقد رأيت أن أنقل حديثا عن رسول الله وإن كان فيه مقال من جهة السند، إلا

أنه صحيح من جهة المعنى، ففي سنن الترمذي وغيره "عن الحارث، قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي، فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث، قال: وقد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا إنها ستكون فتنة). فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: 2]، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم"¹.

¹ رواه الترمذي في السنن، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن: 172/5، رقم: 2906، وقال فيه: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال".

المبحث الثالث: منهج العلماء في استخراج الهدايات القرآنية.

هذا المبحث من أنفس مباحث هذا التمهيد لما له من أثر على الداخل للقرآن الكريم قصد استخراج هداياته، لنشرها بين الناس، وتنزيلها على أرض الواقع، حيث يأخذ معه عدة منهجية أصّلها العلماء، وطبقوها على النصوص، وجنّوا بها ثمارا يانعة، فما عليه إلا أن يسلك سبيلهم، وينهج نفس منهجهم، ويرد من عين منبعهم، ليكمل البناء، ويَجْبُرْ النقص، ويُرْمِمَ ما يؤول إلى السقوط، وفي النهاية ينفع نفسه وأمته.

ومع نفاسته إلا أنه لم يأخذ حظه الكامل من البحث والدراسة، وقد أفاد فيه الدكتور فخر الدين الزبير كثيرا: (الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية) بإسهاب، وعدّ سبعة عشر مسلكا سار عليه العلماء في استخراج الهدايات القرآنية، واستشهد على كل مسلک بما يكفي من النقول، فجزاه الله خير الجزاء¹.

وعند التأمل في الطرق التي ذكرها واستدل عليها، ثم النظر في الهدايات القرآنية التي نص عليها في الحزب الذي أعنتني به، ظهر لي أن الدكتور استدل على كل منهج بما يكفي، لإعادة كتابة ما كتب يعد ضربا من العبث²، خصوصا وأن المراجع في هذا تكاد تكون منعدمة، وما وقفت عليه في الجزء المخصص لا يتسوعب كل ماذكر، وحينئذ إما أن أقتصر على البعض، أو أعيد ما كتب، وكلا الأمرين غير صائب، والصواب في نظري أن يذكر كلُّ باحث ما وقف عليه في بحثه من مناهج، لتجمع في النهاية، وتناقش، ثم تحكّم لتصبح عوناً للباحثين في المستقبل؛ وعليه فليعذرني أساتذتي عن عدم إعادة البحث من جديد فيها، وسأكتفي بثلاثة مناهج لم يذكرها الدكتور حفظه الله:

المنهج الأول: الاعتماد على سنة الله الكونية:

والمقصود بها تتبع أفعال الله في خلقه على مر العصور، والأزمنة والأمكنة والأشخاص، للخروج بقاعدة مطردة، يُحكم بها على كل ما يدخل تحتها، بغض النظر عن جنسه أو لونه، أو حتى عقيدته؛ وقد تحدث عنها القرآن كثيرا، وفي مواضيع مختلفة، منها قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ³ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا⁴﴾، [الفتح: 23] فهذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ

¹ ينظر الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية: 503-558.

² قلت هذا لأني انتقدت في التقرير بسبب عدم الكتابة في المناهج من جديد.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَرُ لَمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ [الفتح: 22] الذي يدل على عاقبة المسلمين: "فلو قاتلهم الذين كفروا لهزمهم المسلمون ولم يجدوا نصيرا¹".

وظهور سنة الله في الكون بارز في السورتين خصوصا سورة القصص التي تحكي واقعا مشابها لحال الصحابة مع زعماء مكة وصناديدها؛ حيث كان بنو إسرائيل تحت حكم أعظم الجبابرة، ومع ذلك نصرهم الله، وكذلك كان ضعفاء المسلمين من العبيد والفقراء تحت وصاية زعماء قريش ومع ذلك كانت العاقبة لهم؛ ويمكن أن نمثل لهذا المنهج بما يلي:

قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ "وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل.²" وقال أبو حيان في نفس الآية: "فيه دليل على أن من كان على الحق يحق له أن يثق بالله، فإنه ينصره ولا يخذله³".

وقال إسماعيل مصطفى الخلوئي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ "وفي الآية تنبيه على أن العطية الإلهية تصل إلى العبد وإن طال العهد إذا جاء أوانها، فلطالب الحق أن ينتظر إحسان الله تعالى ولا ييأس منه؛ فإن المحسن لا بد وأن يجازى بالإحسان كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما جزينا موسى وأمه ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم؛ وفيه تنبيه على أنهما كانا محسنين في عملهما، متقين في عنفوان عمرهما، فمن أدخل نفسه في زمرة أهل الإحسان جازاه الله بأحسن الجزاء⁴".

¹ التحرير والتنوير: 181/26.

² الكشف: 383/6.

³ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان: 267/8.

⁴ روح البيان: 389/6.

وقال الشعراوي رحمه الله عن قبول فرعون موسى في قصره: "وفي انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليلًا على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه، والضغط على مراداته"¹.

المنهج الثاني: الصدور من أصول العقيدة الإسلامية.

وأعني به استخراج الهدايات بناء على ما تقرر من العقيدة في حق الله، وحق أنبيائه ورسله، وهذا كثير جدا، يمكن أن نمثل له بما يأتي:

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرُ مَا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ "فإنه يتضمن حمده بما هو من نعوت الكمال وأوصاف الجلال، والأفعال الحميدة، والأسماء الحسنى وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب؛ وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل"².

وقال عبد الكريم الخطيب في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ "تكشف هذه الآية عن الحكمة في إرسال محمد صلوات الله وسلامه عليه، وهو أنه قد سبقته فترة لم يكن فيها رسل، فشاءت إرادة الله أن يختار رسولا يكشف للناس معالم الطريق إلى الحق، وقد ضلوا وانحرفوا عن سواء السبيل"³.

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ "وفي الإخبار عنهم بأنهم قوم: إيماء إلى تمكن صفة العدول عن الحق منهم، حتى كأنها من مقومات قوميتهم كما تقدم غير مرة"⁴.

¹ الخواطر: 10885/17.

التفسير القيم، ص: 421

³ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 352/10.

⁴ التحرير والتنوير: 12/20.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) ﴿١﴾ "إن فيها " النفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن¹."

المنهج الثالث: الاعتماد على وقوف القرآن
الوقف في القرآن هو: "عبارة عن قطع الصوت على الكلمة زمنًا يتنفس فيه عادة بنيّة استئناف القراءة، إما بما يلي الحرف الموقوف عليه إن صلح الابتداء به، أو بما قبله من غير قصد الإعراض عن القراءة، ويكون الوقف في رؤوس الآي، وأواسطها ولا يكون في وسط الكلمة، ولا فيما اتصل رسماً، ولا بدّ من التنفّس معه²."

ولا يكون إلا من عالم بالقراءات، متقن للغة، عارف بمقاصد الكلام؛ روى ابن النحاس عن أبي بكر بن مجاهد أنه كان يقول: "لا يقوم بالتمام إلا نحوي عالم بالقراءات، عالم بالتفسير، عالم بالقصص وتلخيص بعضها من بعض، عالم باللغة التي نزل بها القرآن...³؛ لأن الوقف على كلمة قد يعطى معنى تستنبط منه هدايات، ووصلها بكلمة أخرى، أو كلمات قد يعطى معنى آخر تستنبط منه هدايات أخرى؛ وأمثلة في القرآن كثيرة نذكر منها: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، الآية: 2]، قال ابن عرفة: "ومن الناس من يقف على ﴿لَا رَيْبَ﴾ وكان بعضهم يتعقبه بأن فيه شبه تهيئة العامل للعمل وقطعه عنه، ومنهم من وقف على ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وعادتهم بأنهم يصوّبونه بأنه يبتدئ بقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، (فجعله) خبر مبتدأ مضمّر، أي هو هدى فيكون القرآن كله (هدى) أي هو نفس الهدى، فهو أبلغ ممن جعل الهدى فيه⁴."

¹ الجامع لأحكام القرآن: 170/13.

² النشر في القراءات العشر: 240/1.

³ القطع والائتلاف، ص: 18.

⁴ تفسير ابن عرفة: 42/1.

ومنها كذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: الآية: 4]، فمن قال من الفقهاء: "لا تقبل شهادة القاذف وإن تاب، كان الوقف عنده ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾..." ومن قال تجوز شهادته إذا تاب، كان الكلام عنده متصلاً، والوقف عنده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾¹.

ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأنعام، الآية: 26]، فإذا "وقف على ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ كان المعنى أنها حرمت عليهم هذه المدة، وإذا وقف على ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ كان المعنى أنها محرمة عليهم أبداً، وأنهم يتيهون في الأرض أربعين سنة"².

فمن رام استخراج الهدايات يلزمه حتماً أن يكون عالماً بمواقع الوقف والابتداء حتى لا يقول الله ما لم يقل، أو يستخرج ما يظنه هدايات وزهو في الحقيقة ضلالات.

وبهذه المناهج الثلاثة نكون قد توصلنا إلى عشرين منهاجاً يعتمدونها العلماء في استخراج الهدايات، ولعلَّ الإخوة الباحثين يضيفون عليها مناهج أخرى تغني المكتبة الإسلامية، وتضع إطاراً عاماً للمشتغلين بعلم الهدايات القرآنية، والله أعلم، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

¹ القطع والائتلاف، ص: 18.

² نفسه، ص: 19.

المبحث الرابع: إطلاقات العلماء على الهدايات، وطرق تناولهم لها:
من تتبع كتب التفسير أيقن أن مشروع الهدايات كان حاضرا بقوة عند المسلمين عموما، وعند المفسرين خصوصا، يستخرجونها بقواعد العلم مع قرائحهم، ثم يدونونها في كتبهم، كما هو واضح من كثرة تعبيراتهم عنها، وتنوع ألفاظهم لبيانها. وقد وقفت بحمد الله على أزيد من عشرين لفظا ضمن كتب التفسير في سورتي النمل والقصاص فقط، (في الآيات الذي أبحث عن هداياتها)، إلا أن بعضها أكثر بعض، وأقرب في التدليل على الهداية من بعض؛ وأنا أذكرها جميعها مع التمثيل بمثالين لكل لفظ، أو مثال واحد على الأقل إن لم أجد غيره.

وقبل ذكرها والتمثيل لها يحسن بي أن أنبه على مسألة في غاية الأهمية، وهي: أن هذه الألفاظ ليست في مرتبة واحدة من الذكر، ولا منشرة بنفس القدر؛ فبعضها أكثر ذكرا من بعض، وأوسع انتشارا في كتب العلماء.

ومن المفسرين الذين أكثروا منها، ونوعوا في صيغها الإمام الطاهر بن عاشور، الذي جاء في المرتبة الأولى بين المفسرين كما سيتضح من خلال الأمثلة؛ وليس هذا عجا، فالهدايات تستخرج بتوظيف قواعد التفسير عموما، والقواعد العربية خصوصا، والإمام يكاد يكون متفردا في هذا الباب. ومن ضمن الألفاظ التي وقفت عليها الألفاظ السبعة التي ذكرت في الدراسة التأصيلية¹، إلا واحدا وهو الأخذ فلم أقف عليه في الجزء الذي أدرسه.

والألفاظ التي تكررت بشكل كثير لفظ الدلالة ومشتقاته، ولفظ الإشارة وصيغته، ثم لفظ البيان ومفرداته، حيث أحصيت للأول ثلاثة وعشرين موضعا، وللثاني أربعة عشر موضعا، وللثالث ستة مواضع، وما عدا هذا فالأمر يدور بين المثال الواحد والمثالين إلى الأربعة على الأكثر.

وللأمانة العلمية فإن هذا الإحصاء غير دقيق، خصوصا في الدلالة والإشارة؛ لأن الغرض كان في الأول التمثيل فقط، فلما كثرت علي الأمثلة توقفت عن الحصر؛ ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لأحصيت الجميع حتى نقوم بدراسة تمكننا من معرفة اللفظ الأقرب للدلالة على الهداية، وأسأل الله أن يمن بوقت أكمل فيه هذا العد، لعله يكون لبنة في مشروع الهدايات القرآنية.

أولا: لفظ الدلالة

¹ ينظر الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية: 1/58-70.

ورد هذا المصطلح بالماضي والمضارع والمصدر، والاسم، قال أبو حيان في قول الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٧٩) "فيه دليل على أن من كان على الحق يحق له أن يثق بالله، فإنه ينصره ولا يخذله"¹.

وقال الشعراوي رحمه عن قبول فرعون موسى في قصره: "وفي انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليل على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه، والضغط على مراداته"².

ثانيا: لفظ الإشارة:

قال مصطفى الاستنبولي الخلوئي في قول قوله الله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٧١) "قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ"^(٧٢): "فيه إشارة إلى أن استعجال منكري البعث في طلب العذاب الموعود لهم من غاية جهلهم بحقائق الأمور وإلا فقد ردفهم أنموذج من العذاب الأكبر، وهو العذاب الأدنى من البليات والمحن"³.

وقال الظاهر ابن عاشور: عند قوله تعالى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٧٩) " " في الآية إشارة إلى أن الذي يعلم أن الحق في جانبه حقيق بأن يثق بأن الله مظهر حقه ولو بعد حين"⁴.

ثالثا: البيان:

قال الزمخشري في الآية السابقة: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٧٩) "وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل"⁵، فتأمل أيها القارئ الفطن كيف اختلفت عبارات المفسرين عن الهداية الواحدة، فبعضهم عبر عنها بالدلالة، وبعضهم بالإشارة، وبعضهم بالبيان؛ لهذا فإن التمثيل بآية واحدة ليس اعتباطا، وإنما للإشارة إلى أن اختلاف العبارات لا يؤثر في المعنى.

¹ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان: 267/8.

² الخواطر: 10885/17.

³ روح البيان: 367/6.

⁴ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 33/20.

⁵ الكشف: 383/6.

وقال البقاعي في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ نَاعِيَهُ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾^١ "وهذا وأمثاله بيانٌ من الله تعالى؛ لأنه لا يعلم أحد في السماوات والأرض الغيب إلا هو سبحانه فلا يصح أن يكون غيره إلهاً"^١

رابعاً: الإفادة:

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾^٢ "والإخبار عنهم بالمضارع لإفادة أنهم مستمرّون على شركهم، لم يستنيروا بدليل العقل، ولا أقنعوا بعد التذكير بالدلائل"^٢.

وقال أيضاً عن التعبير ب (طائفة) الموجود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^٣ "فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جارياً على أشخاص معينين لأسباب تقتضي استضعافهم، ككونهم ساعين بالفساد، أو ليسوا أهلاً للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم، بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية؛ وذلك فساد؛ لأنه يقرن الفاضل بالمفضول"^٣.

خامساً: الإشعار:

قال الزحيلي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٤ "والتعبير بقوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾^٤ "يشعر بأن أخت موسى أبصرت أخاها إبصاراً فيه مخادعة لآل فرعون، حتى لا تجعلهم يشعرون بأنها تبحث عنه؛ ويشهد لذلك قوله - تعالى -: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٤ أي: وهم - أي آل فرعون - لا يشعرون أنها أخته تبحث عنه وتتبع أخباره"^٤.

^١ ينظر: نظم الدرر: 251/14.

^٢ التحرير والتنوير: 12/20.

^٣ التحرير والتنوير: 69/20.

^٤ التفسير الوسيط للطنطاوي: 384/10.

وقد حكى القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أقوال بعض المفسرين القاضية بأن موسى ما قال هذا إلا بعدما أصابه الجوع، وبلغ منه مبلغا يكاد غير معتاد "وفي هذا معتبر، وإشعار بهوان الدنيا على الله" ¹.

سادسا: اللطيفة:

قال الزجاج في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ ^{١٥} "هذا موضع فيه لطف، وذلك أنه قيل في الغائب (هذا) والمعنى: وجد فيها رجلين: أحدهما من شيعته وأحدهما من عدوه" ².

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ^٩ "ومن لطائفه في الآية أن المسرة المعنية هي مسرة حاصلة من رأى محاسن الطفل كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: 39] ³."

سابعا: التضمن

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ ^{٥٩} "فإنه يتضمن حمده بما هو من نعوت الكمال وأوصاف الجلال، والأفعال الحميدة، والأسماء الحسنى وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب؛ وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل" ⁴.

وقال ابن عاشور: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ^٩ "ويتضمن قولها: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ

¹ الجامع لأحكام القرآن: 270/13.

² ينظر: معاني القرآن للزجاجي: 136/4.

³ ينظر التحرير والتنوير: 78/20.

التفسير القيم، ص: 421.

نَتَّخِذْهُ وَوَلَدًا ﴿١٠﴾ إزالة ما خامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي بأن هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه؛ لأنه لما انضم في أهلهم وسيكون ربيهم، فإنه يرجى منه نفعهم وأن يكون لهم كالولد. فأقنعت فرعون بقياس على الأحوال المجربة في علاقة التربية والمعاشرة والتبني والإحسان، وإن الخير لا يأتي بالشر. ولذلك وقع بعده الاعتراض بقوله تعالى وهم لا يشعرون "1.

ثامنا: الإعلام:

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ "كَانَ اعْتِرَاضُهَا إِعْلَامًا لِأَهْلِ الْقُرْآنِ بِكَرَامَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِ"2.

وقال البقاعي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ "ولما وعد سبحانه بإمامة بني إسرائيل، وقص القصص حتى ختم بإمامة آل فرعون في الدعاء إلى النار إعلاماً بأن ما كانوا عليه تجب مجانبته ومنابدته ومباعدته"3.

تاسعا: السر:

قال البقاعي في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَنُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرى فرعونَ وَهَمَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٥٦﴾ "والآية من الاحتباك: ذكر الاستضعاف أولاً دليلاً على القوة ثانياً، وإراءة المحذور ثانياً دليلاً على إرادة المحبوب أولاً، وسر ذلك أنه ذكر المسلي والمرجي ترغيباً في الصبر، وانتظام الفرج"4.

وقال عبد الكريم الخطيب في قلب أم موسى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ "إن جوارحها كلها التي ترصدها الأم لطفلها، قد أصبحت أدوات معطلة لا تعمل، وهذا بدوره قد جعل

¹ ينظر التحرير والتنوير: 79/20.

² ينظر: التحرير والتنوير: 91/20.

³ ينظر: نظم الدرر: 300/14.

⁴ نظم الدرر: 243/14.

قلبها - وهو مركز العواطف والمشاعر - كيانا فارغا، لا يستقبل من الطفل ما يصل الأم به، من مشاعر وعواطف، إلا تلك العواطف السلبية.. من قلق، وأسى، ولوعة.. وهذا هو السر في هذا التعبير¹.

وقال أيضا: في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ "إشارة إلى أن أهل الكتاب، عندهم عن هذا الكتاب الدلائل والشواهد التي تدعوهم إلى الإيمان به، وأنهم ما إن يلقونه حتى يؤمنوا به، إذا لم يحجبهم عن هذا الإيمان ما يثور في صدورهم من دخان العصبية، والحسد.. وهذا هو بعض السر في قوله تعالى: «يُؤْمِنُونَ» الذي يدل على توقع حدوث الفعل بدلا من (مؤمنون) الذي يدل على وقوع الحدث فعلا²."

عاشرا: التنبيه:

قال إسماعيل مصطفى الخلوئي في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ "وفي الآية تنبيه على أن العطية الإلهية تصل إلى العبد وإن طال العهد إذا جاء أوانها، فلطالب الحق أن ينتظر إحسان الله تعالى ولا ييأس منه؛ فإن المحسن لا بد وأن يجازى بالإحسان كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما جزينا موسى وأمه ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم؛ وفيه تنبيه على أنهما كانا محسنين في عملهما، متقين في عنفوان عمرهما، فمن أدخل نفسه في زمرة أهل الإحسان جازاه الله بأحسن الجزاء³."

حادي عشر: النكتة:

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلِ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ "وفيه نكتة وهي: أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم، فلذلك عداه ب (من) دون (عن)؛ لأن الفكر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم⁴."

ثاني عشر: الإنباء:

¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 314/10.

² التفسير القرآني للقرآن: 363/10.

³ روح البيان: 389/6.

⁴ ينظر: مفاتيح الغيب: 567/24.

قال أبو السعود في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهُمْ آيَةً﴾ أي "يقتدى بهم في أمور الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين لآخرين" ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لجميع ما كان منتظما في سلك ملك فرعون وقومه وراثته معهودة فيما بينهم، كما ينبئ عنه تعريف الوارثين وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم أئمة مع تقدمها عليه زمانا لانهطاط رتبها عن الإمامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده مع كونه من روادفه¹.

ثالث عشر: الكشف:

قال عبد الكريم الخطيب في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ "تكشف هذه الآية عن الحكمة في إرسال محمد صلوات الله وسلامه عليه، وهو أنه قد سبقته فترة لم يكن فيها رسل، فشاءت إرادة الله أن يختار رسولا يكشف للناس معالم الطريق إلى الحق، وقد ضلوا وانحرفوا عن سواء السبيل"².

رابع عشر: الإيماء:

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ "وفي الإخبار عنهم بأنهم قوم: إيماء إلى تمكن صفة العدول عن الحق منهم، حتى كأنها من مقومات قوميتهم كما تقدم غير مرة"³.

خامس عشر: اللوح:

قال مصطفى الاستنبولي الخلوئي في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾: بعدما أظهر وجه التشابه بين الأنبياء: "هذا هو اللوح للبال في هذا المقام، وهو المناسب لسوابق الآيات العظام"⁴.

¹ إرشاد العقل السليم: 3/7.

² ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 352/10.

³ التحرير والتنوير: 12/20.

⁴ روح البيان: 359/9.

سادس عشر: الرمز:

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨) "والقرآن يدمج في ضمن دلائله الجملة وعقب دليل تكوين النور والظلمة دليلا رمز إليه رمزا، فلم يتناوله المفسرون أو تسمع¹".

سابع عشر: الوشي:

قال سيد قطب في قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ "والوكز: الضرب بجمع اليد، والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف القبطي. مما يشي بقوة موسى وفتوته، ويصور كذلك انفعاله وغضبه ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به..²

ثامن عشر: الفهم:

قال الألوسي في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٣) "وفهم من بيان معنى جوابهما المار أنفا أن جملة (أبونا شيخ كبير) عطف على مقدر، وجوز أن تكون حالا، أي نترك السقي حتى يصدر الرعاء والحال (أبونا شيخ كبير) وأبوهما عند أكثر المفسرين شعيب عليه السلام..³

تاسع عشر: الالتفات:

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَنْتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) "إن فيها " التفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن⁴".

عشرون: الإذن:

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 49/20.

² في ظلال القرآن: 2681/5.

³ ينظر: روح المعاني: 267/10.

⁴ الجامع لأحكام القرآن: 170/13.

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَّاهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ "فذكر الاستغاثة يؤذن بأن الإسرائيلى كان مغلوبا، وأن القبطي اشتد عليه وكان ظالما، إذ لا يجبر أحد على عمل يعمل به.¹

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 89/20.

القسم الأول: الهدايات القرآنية في سورة النمل

من الآية (59) إلى آخر السورة.

لكل سورة ميزة تميزها عن غيرها، وأسوب تفارق به أخواتها، وهداياتٌ توجد فيها ولا توجد في غيرها، لذا يلزم البدء بمقدمات ممهديات تُعرف بالسورة وفضلها، وتحدد مقصدها ومجمل معانيها ليكون الدارس لها على دراية بها تمكنه من الفهم السليم لآياتها ، ومن استخراج هداياتها بطرق صحيحة؛ لذا جعلت تحت هذا القسم بابين، خصصت الأول منهما للمقدمات الممهديات، والثاني للتطبيقات على الهدايات ، وعلى أرض الواقع، فنسأل الله الله التوفيق والسداد.

الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات النمل:

للوصول إلى السطح يلزم المرور عبر الدرج أو السلم، وللوصول إلى المقصد ينبغي البدء بالوسائل، والمصدق الأعظم من هذا البحث هو الوصول إلى الفهم السليم لآيات القرآن عموماً، ولآيات السورة خصوصاً، لتستخرج على ضوئه الهدايات القرآنية؛ لذلك قدمت هذا الباب، وجعلت تحته فصلين، تناولت في الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها، وفي الفصل الثاني: معانيها ومقاصدها :

الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

سمى الله الوحي الذي أنزلَ على أنبيائه ورسله بأسماء معينة ليميز بعضه عن بعض، فسمى الذي أنزل على موسى بالتوراة، والذي أنزل على عيسى بالإنجيل، وأما الذي أنزل على مُحَمَّدٍ ﷺ فوسمه بأسماء كثيرة منها: القرآن والكتاب، والذكر...، وسمى أجزاءه بأسماء معينة، منها الفاتحة، والبقرة، وآل عمران...، بل سمي حتى الجزء المعين بأسماء متعدد، كالفاتحة، والواقية، والسبع المثاني؛ وجعل بمَنِّه وكرمه فضائلَ لبعضها ينالها قارئها ومتدبرها، وأنزل كلا منها في أحوال وظروف معينة، من لم يقف عليها ليخبرها قد يفهم منها عكس المراد، لذا جعلت تحت هذا الفصل ثلاثة مباحث، خصصت الأول لاسم السورة أو أسمائها، والثاني، لفضائها وما جاء من الأجر في قراءتها، والثالث لأحوال نزولها، والظروف الملائمة لها.

المبحث الأول: اسم السورة:

المشهور عن العلماء جواز تسمية السور، وهو الثابت في المصاحف التي بين أيدينا، لكن هناك رأي آخر لبعض العلماء مفاده كراهية تسمية السور بأسماء معينة، فكروها أن يقال: (سورة كذا وكذا)¹، واستحبوا أن يقال: (السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)؛ والظاهر أن ابن كثير رحمه الله يزي هذا الرأي ويعتبره الأصل، وغيره الرخصة التي يؤخذ بها "ولا شك أن هذا أحوط وأولى، ولكن قد صحت الأحاديث بالرخصة في الآخر، وعليه عمل الناس اليوم في ترجمة السور في مصاحفهم، وبالله التوفيق"².

ورأي الجمهور تُسند النصوص الوافرة الصحيحة الصريحة³ في جواز التسمية إن لم تدل على وجوبها⁴؛ أما رأي من كره التسمية فمبني إما على نصوص صحت لكنها غير صريحة، ولا هي واردة لبيان جواز التسمية من عدمها، وإما على نصوص صريحة لكنها ضعيفة لا تقوم الحجة بمثلها⁵، وعلى فرض صحتها؛ فهي محمولة على أنها كانت في مكة حيث كان المشركون يستهزئون بالمسلمين حين يعززون الآيات إلى سور كالفيل، أو النمل، أو العنكبوت...⁶ فلما زال المانع زال الحكم، لأنه يدور وعلته وجودا وعدمها، فيكون حال التسمية كحال السنة النبوية التي نهي عنها النبي عن كتابتها في أول الأمر خوفا من اختلاطها بالقرآن، فلما توفي النبي ﷺ زال المانع وأصبح الإجماع على جوازها. هذا على فرض الصحة وعدم النسخ في حياة النبي ﷺ، وإلا فأسماء السور كانت معلومة حتى في مكة، فجعفر رضي الله لما سأله النجاشي هل معك شيء من القرآن أخبره بأن معه آيات من سورة مريم قرأ عليه بعضها منها.

لكن الإشكال القائم إلى الآن هل هذه الأسماء توقيفية من الشارع الحكيم، أم أنها اجتهاد من الصحابة فمن بعدهم؟

¹ ينظر: تفسير ابن كثير: 77/1.

² ينظر: تفسير ابن كثير: 76/1.

³ ينظر للتوسع تفسير ابن كثير: 76/1، والإتقان 187/1، وأسماء سور القرآن وفضائلها، ص: 80.

⁴ القول بالوجوب من عدمه مبني على أصل التسمية هل هو توقيفي أم اجتهادي؟ وسيأتي التفصيل فيه إن شاء الله.

⁵ ينظر سلسلة الأحاديث الضعيفة: 257/14، رقم: 6608.

⁶ ينظر التحرير والتنوير: 90/1.

الذي نصره الزركشي، والسيوطي وكثير ممن كتب في علوم القرآن من المعاصرين هو توقيفيتها؛ وقد ذهب الدكتور مساعد الطيار إلى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: قسم ثبتت تسميته عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقسم عن الصحابة، وثالث عمن بعدهم¹، إلا أنه لم يصرح هل يقصد أن لكل سورة اسماً واحداً توقيفياً، وما زاد عنه فهو اجتهاد، أم أنه يقصد أن السور الموجودة عندنا الآن بعضها ثابت عن النبي وبعضها عن غيره؟ الظاهر من كلامه الاحتمال الأول لكن يمكن أن يحمل على غيره باعتبار أن بعض السور لم تثبت اسميتها بسند صحيح عن النبي ﷺ.

وقد ظهر لي أن أصل هذا الخلاف مبني على أمور إذا لم تعرف ولم تُحرر سيقى الإشكال قائماً، فالتحقيق في الأسباب يُساعد بشكل كبير على حل الإشكالات العلمية، وإظهار الصواب في الخلافات بين العلماء، ويمكن أن نرجعه إلى الأمور الآتية:

الأول: كون المصاحف كانت أولاً خالية من كل شيء غير القرآن إذ "لم تكن أسماء السور تكتب في المصحف في الحقبة الأولى من تاريخ الإسلام، فكان يترك بين السورتين فراغ قدر سطر واحد، ثم صار هذا الفراغ يشغل بخطين تزين ما بينهما دوائر، أو خطّ متعرج كالسلسلة، أو يُترك ما بينهما خالياً؛ ثم صار الخطاطون يعتنون بزخرفة ما بين السورتين، وصار يكتب في داخل تلك الزخرفة اسم السورة وما يتصل بمكان نزولها وعدد آياتها"²، وقد نص على هذا ابن تيمية صراحة بقوله: "ولهذا أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن، وأن لا يكتب في المصحف غير القرآن، فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير، ولا آمين، ولا غير ذلك، والمصاحف القديمة كتبها أهل العلم على هذه الصفة، وفي المصاحف من قد كتب ناسخها أسماء السور والتخميس والتعشير والوقف والابتداء"³.

الثاني: عدم وجود أسانيد صحيحة لكل سورة على حدة، فلبعضها أسانيد في الصحيحين، ولبعضها أخرى خارجهما، وبعضها ليس له سند صحيح، بغض النظر عن هذا البعض هل قليل أم كثير؟ فوجود سورة واحدة ليس لها سند صحيح كافٍ في نشأة الاختلاف.

¹ ينظر: المحرر في علوم القرآن، ص: 169.

² الباليو جرافية العربية نقلاً عن (محاضرات في علوم القرآن) لغانم قدوري، ص: 88.

³ مجموع الفتاوى: 105/13.

الثالث: وجود أكثر من اسم لبعض السور، سواء كان التعدد عن النبي ﷺ كالفاتحة مثلاً، إذ ثبت عنه تسميتها بفاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأمّ القرآن، والحمد لله...¹، وقد ورد عن الصحابة فمن بعدهم تسميتها بالشافية، والأساس، والرقية...²، وكذلك الشأن بالنسبة للبقرة وبعض السور الأخرى³.

الرابع: ثبوت أسماء لبعض السور عن الصحابة رضي الله عنهم، "فعن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل: سورة التّضير"⁴، وسيأتي مزيد بيان لهذا عند الحديث عن أعداد أسماء سورتي النمل والقصص إن شاء الله.

فلو تأملنا هذه الأسباب لوجدناها تتعلق إما بنفي اسمٍ لسورة ما، أو إثبات أسماء متعددة لسورة ما، وليس فيها نفي للتسمية من أصلها، وفرق بين نفي اسم واحد لسورة معينة وبين الحكم على كل الأسماء بالاجتهاد.

وعند التأمل ظهر لي أن الأسماء قسمان: قسم توقيفي، وقسم اجتهادي، والتوقيفي نوعان: أيضاً:

نوع: ثبت بأسانيد صحيحة عن رسول الله ﷺ، سواء أكان الاسم واحداً أم متعدداً؛ فالفاتحة وأم الكتاب، والسبع المثاني أسماءً توقيفية، وكذلك البقرة، والزهراء، وقس على هذا باقي السور التي ثبتت اسميتها عن رسول الله ﷺ.

ونوع: لم يثبت بسند صحيح عن رسول الله ﷺ إلا أنه لم ينفيه أحد من الصحابة؛ فهذا يحتمل أن يكون شيوعه بين الصحابة في زمن رسول الله أو بعده، فإن كان في زمنه فيكون مما أقره صلى الله عليه وسلم، وإقراره وحى، وإن كان بعده فيكون مجمعا عليه والإجماع حجة، وعلى هذا فكل سور القرآن التي في مصاحفنا توقيفية، لأن أمر التسمية كان معلوماً عند الصحابة، فيستحيل أن ينفيه أحد منهم ولا يُعقَّب عليه، أو لا ينقل إلينا، لما علمنا من حرصهم على السير على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن نهجه تسمية سور القرآن الكريم.

¹ ينظر: أسماء السور وفضائلها، ص: 97.

² ينظر: أسماء السور وفضائلها، ص: 132.

³ أسماء السور وفضائلها، ص: 151.

⁴ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير: 88/55، رقم: 4029.

وما كان منها مما فيه خلاف فيحمل إما على تعدد الأسماء، أو كون المخالف نظر إلى مآل الاسم في زمانه، كما هو الشأن بالنسبة لابن عباس رضي الله عنهما، فيُحمل قوله على أنه سمع من رسول الله اسم (سورة بني النضير)، وهذا هو الظاهر، أو يُحمل على أن الناس قد يفهمون من الحشر غير المقصود؛ "قال الداودي: كأن ابن عباس كره تسميتها سورة الحشر لئلا يُظن أن المراد بالحشر يوم القيامة"¹، وبهذا تطرد المسألة ويزول اللبس.

والقسم الثاني: اجتهادي، وهو غير ما ذكر سابقا، سواء أكان مما ثبت عن الصحابة وكان فيه مخالف، أو مما روي عن التابعين فمن بعدهم من المفسرين وأهل علوم القرآن، فهذا إن بني على معنى لطيف في السورة قبل وإلا فلا، فأسماء السور "إما أن تكون بأوصافها مثل الفاتحة وسورة الحمد، وإما أن تكون بالإضافة لشيء اختصت بذكره، نحو سورة لقمان، وسورة يوسف، وسورة البقرة، وإما بالإضافة لما كان ذكره فيها أوفى، نحو سورة هود وسورة إبراهيم، وإما بالإضافة لكلمات تقع في السورة نحو سورة براءة، وسورة حم عسق، وسورة حم السجدة كما سماها بعض السلف، وسورة فاطر؛ وقد سمو مجموع السور المفتحة بكلمة حم (آل حم)، وربما سمو السورتين بوصف واحد، فقد سمو سورة الكافرون وسورة الإخلاص المقشقتين."²

بعدما أثبتنا أن أسماء السور التي في مصاحفنا الآن توقيفية يأتي سؤال: هل أسماء القرآن أعلام وأوصاف أم أعلام فقط؟ فهل نقيسها على أسماء الله وصفاته، وأسماء القرآن وأوصافه أم لا؟ هذا الأمر يحتاج إلى مزيد بحث وتأمل.

وعلى هذا نقول إن هذه السورة التي ندرسها لها اسمٌ توقيفي، وأسماءٌ اجتهادية؛ فالتوقيفي هو: (النمل)، وإن لم يأتنا بسند صحيح عن رسول الله، لكنه ورد عن ابن عباس كما نقله عنه ابن الضريس في فضائل القرآن³، ولم أجد له مخالفا، فيكون ثابتا بالإجماع. والذي يركي هذا القول أن البخاري في صحيحه⁴، والترمذي في سننه⁵، سمياها به ولم أقف على من تعقبهما، أو قال بغير قولهما.

¹ فتح الباري: 332/7.

² التحرير والتنوير: 91/1.

³ فضائل القرآن، ص: 33.

⁴ 112/6.

⁵ 340/5.

والذي وقفت عليه من أسمائها الاجتهادية (سورة سليمان)، فقد ذكره السيوطي في الإتيقان،¹ إلا أنه لم يذكر من سماها به، وقد وجدت الثعلبي يروي بسنده إلى أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشرُ حسانات بعدد من صدّق بسليمان وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادي: لا إله إلا الله)²

هذا الحديث لم أقف عليه في مصادر الحديث التي اطلعت عليها، وقد ضعفه الفيروزآبادي وغيره من الأحاديث الدالة على فضلها³ إلا أنه لا يلزم من تضعيفه الحديث نفْي الاسم، فقد حكاه كثير من المفسرين، ومن علماء علوم القرآن⁴، وهو سار على ميزان تسمية السور الذي يرجع إلى لفظ غريب فيها، أو نادر الاستعمال، أو كثر دورانه فيها بحيث يلفت إلى معنى ينبغي للفظاء أن ينتبهوا إليه؛ وحديث النمل من الغرابة بمكان، فناسب وضعه علماً لها حتى ينظر في إعجاز الله في نطق المخلوقات وتكوينها، إضافة إلى وروده في أثر آخر وإن كان ضعفه بعض أهل العلم.

وجعلهما ابن مجاهد اسماً واحداً⁵، استناداً إلى حديث رواه ابن ماجة عن أبي الدرداء بلفظ: "سجدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء: الأعراف، والرعد، والنحل، وبني إسرائيل، ومريم، والحج، وسجدة الفرقان، وسليمان سورة النمل، والسجدة وفي ص، وسجدة الحواميم"⁶

وعزا ابن عاشور لابن العربي القول بأنها تسمى سورة الهدد⁷ إلا أنني لم أقف عليه في النسخة التي بين يدي، ولعله وقف على نسخة أخرى، أو نقله بالواسطة، وبعد طول بحث وقفت عليه في

¹ الإتيقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي: 1/194.

² الكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعالبي: 7/188، ونفس الخبر أورده الواحدي في تفسيره: 3/368، وذكره الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف، وعزه لابن مردويه، ولم أحكم عليه بالوضع لأنني لم أقف على حكم عليه به، وليست لي العلم الكافي في علم الحديث حتى أحكم بنفسي. ذكرت هذا لأن اللجنة العلمية نبهتني إلى الحكم عليه بالوضع ولم أفعل احتراماً لعلماء الحديث.

³ ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 1/352.

⁴ ينظر، معترك الأقران: 3/198، والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي: 5/372.

⁵ السبعة في القراءات، ص: 477.

⁶ رواه ابن ماجة: 1/335، رقم: 1056، والبيهقي في السنن الكبرى: 2/444، رقم: 3704، وضعفه الألباني في

ضعيف أبي داود: 2/74.

⁷ التحرير والتنوير: 19/215.

نسخة بتحقيق البيجاوي¹ إلا أنه جعل التسمية بين معقوفتين دون أن يبين هل القول له أو من تصرف النساخ؟.

ونقل السيوطي أنها تسمى ب (طس)²، ولعله أخذه من أثر رواه ابن الضريس عن ابن عباس فيه ترتب السور المكية، إذ جاء فيه: "ثم طس النمل"³

أما وجه تسميتها بالنمل فلأجل "اشتغالها على مناظرة النمل مع سليمان في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُم لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٨١]"⁴، يضاف إلى هذا أن لفظة (النمل) لم تذكر في القرآن إلا في هذا الموضع⁵، فناسب دواعي التسمية التي منها كون اللفظ لم يذكر في غيرها؛ فالنمل في السورة يلفت النظر إلى هذا الخلق العجيب الذي يحرص على بعضه، ويقوم بمصالحه على أتم وجه وأكمله، فكأن في التسمية إشارة إلى أنه ينبغي أن نكون مثله في الحفاظ على بعضنا، وأداء مهامنا على الوجه المطلوب، وتنظيم أمورنا حتى نعلم الأرض التي خلق الله لنا.

ولعل في التسمية إشارة أيضا إلى قدرة الله في خلقه، إذ جعل لكل منه منطقا يعجز غيره عن إدراكه، إلا من خصه الله كالأنبياء والمرسلين، أو من تفضل عليه من الأولياء والصالحين، الذين يعطيهم كرامات تدل على رفعة قدرهم عنده سبحانه وتعالى.

وأما وجه تسميتها بالهدهد فلأنه لم يذكر في غيرها أيضا⁶، ثم هناك مناسبة أخرى وهي علم الهدد بما لم يعلمه نبي الله سليمان، فناسب التسمية المقصود الأعظم من السورة، فصارت كأنها تشير إلى أن الإنسان ينبغي أن يكون مثل الهدد في الدعوة إلى الله، والبحث عن العلم من أجل مرضاته، والدفاع عن حقه بالحجج والبراهين.

¹ الجامع لأحكام القرآن تحقيق البيجاوي: 1444/3.

² الإتيان: 43/1.

³ فضائل القرآن، ص: 33.

⁴ أهداف كل سورة ومقاصدها، ص: 272.

⁵ التحرير والتنوير 215/19.

⁶ ينظر: التحرير والتنوير 215/19.

وأما وجه تسميتها بسليمان فلاجل التفصيل التي وجد فيها عنه وعن ملكه¹، بخلاف غيرها كسبأ التي تحدثت عنه لكنها لم تتطرق إلى كل جوانبه، إنما ركزت على تسخير الله له الجن والريح تخدمه بأمر الله، وعلى وفاته التي بينت أن كل ذلك ليس من قدرته إنما هو من فضل الله، بخلاف هذه السورة التي فصلت في ملكه تفصيلا سيأتي الحديث عن مواضيع السورة إن شاء الله.

وأما من سماها بطس فلكونها ابتدئت به، ك (نون) و(ق).

فظهر من خلال هذا أن كل هذه الأسماء لها مناسبة لما في السورة، وهذا يعني أنها مقبولة وإن لم تأت بسند صحيح عن رسول الله أو بإجماع من صحابته الأبرار، لأنها داخلة تحت الأسماء الاجتهادية التي تقبل إن كانت العلاقة ظاهرة والله أعلم.

¹ ينظر: التحرير والتنوير 215/19.

المبحث الثاني: فضائل السورة

الحديث عن فضائل السورة يُلزمنا بالحديث عن جواز تفضيل القرآن بعضه على بعض من عدمه، لأن فضل السورة جزء من فضل القرآن، والحديث عن الجزء يجب أن يكون ضمن الحديث عن الكل. ثبوت لفظ (أفضل أو أحسن) لبعض السور أو الآيات على بعض مما لا خلاف فيه، من ذلك ما في صحيح البخاري عن أبي قال: قال لي النبي ﷺ: (لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد)، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي: السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته¹؛ ومنه ما في صحيح مسلم عن أبي أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟) قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟) قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255] قال: فضرب في صدري، وقال: (والله ليهنك العلم أبا المنذر)².

ومع وجود نصوص تدل على التفضيل إلا أن العلماء قديما وحديثا اختلفوا في المسألة، فقد ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر الباقلاني³، وابن حبان⁴ إلى أنه لا تفاضل لبعض القرآن على بعض، وصرح بهذا ابن عبد البر في الاستذكار عند حديثه عن سورة الإخلاص التي ثبت أنها تعدل ثلث القرآن حيث قال: "ولسنا نقول في ذاتها أفضل من غيرها، لأن القرآن عندنا كلام الله وصفة من صفاته، ولا يدخل التفاضل في صفاته لدخول النقص في المفضول منها"⁵، وهو الذي ذهب إليه ابن جرير الطبري حيث قال: "غير جائز أن يكون من القرآن شيء خير من شيء، لأن جميعه كلام الله، ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره أن يقال: بعضها أفضل من بعض، وبعضها خير

¹ صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب: 17/6، رقم: 4474.

² صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي: 556/1، رقم: 810.

³ ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: 93/6، البرهان في علوم القرآن: 438/1، والإتقان: 136.

⁴ ينظر: صحيح ابن حبان: 54/3.

⁵ الاستذكار: 215/2.

من بعض"¹ وهو المروي عن مالك رضي الله، فقد نقل عنه يحيى بن يحيى قوله: "تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة، أو تردد دون غيرها"²

وذهب الغزالي والزركشي وابن تيمية والقرطبي وغيرهم إلى القول بالتفضيل مستندين إلى ظواهر النصوص، أما الغزالي فقد كان شديد اللهجة في هذا النقطة حتى قال: "لعلك تقول: قد توجه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض القرآن على بعض، والكل قول الله تعالى، فكيف يفارق بعضها بعضاً؟ وكيف يكون بعضها أشرف من بعض؟ فاعلم: أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآية المداينات، وبين سورة الإخلاص وسورة تبت، وترتأع من اعتقاد الفرق نفسك الجوارء، المستغرقة بالتقليد، فقلّد صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه، فهو الذي أنزل عليه"³، وكذلك الشأن بالنسبة لابن تيمية الذي جعل دلالات النصوص ظاهرة على التفضيل، "وفي الجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة"⁴، وهناك أقوال أخر يرجع إليها في مصادرها.

والذين قالوا بالتفاضل لم أقف على أحد منهم صرح بأن التفاضل يرجع إلى ذات اللفظ، وإن كان الزركشي قال: بأن بعضهم أرجعه إليه، وتبعه على هذا السيوطي⁵، ولعلهما فهما هذا من كلام الغزالي المصرّح بأن آية الكرسي أفضل من آية المداينات، لكن الغزالي رحمه الله لم يقصد هذا، إنما قصد الفضل في الأجر والثواب حيث قال: "وقد دلت الأخبار على شرف بعض الآيات، وعلى تضعيف الأجر في بعض السور المنزلة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (فاتحة الكتاب أفضل القرآن)⁶. وقال صلى الله عليه وسلم: (آية الكرسي سيدة آي القرآن)⁷؛ وقال صلى الله عليه وسلم: (يس قلب

¹ جامع البيان: 484/2.

² ينظر البرهان في علوم القرآن: 438/1، والإتقان: 136.

³ جواهر القرآن، ص: 62.

⁴ مجموع الفتاوى: 57/17.

⁵ البرهان في علوم القرآن: 439/1.

⁶ لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولعله روى بالمعنى حديث أبي السابق.

⁷ الرواية بهذا اللفظ حكم عليها الشيخ الألباني بالوضع، ينظر السلسلة الضعيفة والموضوعة: 206/8.

القرآن)¹، (وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن)². والأخبار الواردة في فضائل قوارع القرآن، بتخصيص بعض الآيات والسور بالفضل وكثرة الثواب في تلاوتها لا تحصى³، وهذا المعنى صرح به أيضا كثير ممن قالوا بالترفضيل.

وهناك من ذهب إلى أن التفضيل يكون في المتعلقة التي تعلق بها الآيات، من هؤلاء ابن تيمية الذي رد على الذين منعوا التفاضل بأنهم نظروا إلى الموضوع من جهة واحدة بقوله: "إنما غلط من قال بالأول لأنه نظر إلى إحدى جهتي الكلام، وهي جهة المتكلم به، وأعرض عن الجهة الأخرى، وهي جهة المتكلم فيه، وكلاهما للكلام به تعلق يحصل به التفاضل والتماثل"⁴

ومنهم من جمع بينهما وهو ظاهر كلام النووي الذي نقله عن العلماء "قالوا: وهو راجع إلى عظم أجر قارئ ذلك وجزيل ثوابه، والمختار جواز قول هذه الآية أو السورة أعظم أو أفضل بمعنى أن الثواب المتعلقة بها أكثر، وهو معنى الحديث والله أعلم، قال العلماء: إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والملك والقدرة والإرادة، وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات والله أعلم".

فظهر من خلال هذا أن التفاضل لا يخرج عن الأجر والثواب، أو المعاني التي تعالجها الألفاظ، أما القول بأن لفظ هذه الآية أفضل من هذه، أو ذاك أبلغ من هذا فلا يليق بكلام الله أصلا فضلا عن أن يختلف فيه العلماء، لأنه يؤدي إلى كون صفة الله يفضل بعضها بعضا، وهذا لا يليق إلا بالملخوق، أما الخالق فله الكمال المطلق في أسمائه وأوصافه وأفعاله.

ولعل المانعين للتفاضل عنوا هذا، وكلام ابن عبد البر ظاهر فيه حيث قال "ولسنا نقول في ذاتها أفضل من غيرها؛ لأن القرآن عندنا كلام الله وصفة من صفاته، ولا يدخل التفاضل في صفاته لدخول النقص في المفضل منها"⁵

¹ رواه أحمد في المسند: 417/33، رقم: 20300، وضعفه الأرئوط، وحكم عليه بالوضع الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة: 312/1.

² صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة (قل هو الله أحد): 556/1، رقم: 811.

³ جواهر القرآن، ص: 63.

⁴ مجموع الفتاوى: 210/17.

⁵ الاستذكار: 215/2.

وخير ما نستدل به كلام ابن حبان، فقد روي في صحيحه عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن)، ثم قال: "معنى هذه اللفظة: أن الله لا يعطي لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب ما يعطي لقارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاهما الفضل على قراءة كلام الله أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة، وعدل منه على غيرها."¹

بعدما ظهر لنا مفهوم التفاضل عند العلماء نأتي إلى التنبيه على أن كثيرا من الأحاديث الواردة في فضل القرآن عموما والسور خصوصا إما أنها ضعيفة أو موضوعة؛ لكن نقلها من طرف بعض المفسرين خصوصا إن كان لهم اشتغال بالحديث يُسهل إذاعتها بين الناس ثقة بهم، وقد تنبه لهذا ابن الجوزي فقال بعد أن نقل حديثا عن أبي ذكر فيه أن رسول الله خصه بفضائل كل سورة: "وقد فرق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره، فذكر عند كل سورة منه ما يخصها، وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك، ولا أعجب منهما لأنهما ليسا من أصحاب الحديث، وإنما عجبت من أبي بكر بن أبي داود كيف فرّق على كتابه الذي صنفه في فضائل القرآن؟ وهو يعلم أنه حديث محال؛ ولكن شرّه جمهور المحدثين، فإن من عادتهم تنفيق حديثهم ولو بالبواطيل، وهذا قبيح منهم لأنه قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من حدث عني حديثا يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين)² وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك.

ثم نقل كلام النقاد في بعض رواته وقال بعده: "وبعد هذا فنفس الحديث يدل على أنه مصنوع، فإنه قد استغفر - يعني استنفد - السور وذكر في كل واحدة ما يناسبها من الثواب بكلام ركيك في نهاية البرودة لا يناسب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد روى في فضائل السور أيضا ميسرة بن عبد ربه.

قال عبد الرحمن بن مهدي: قلت لميسرة من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ كذا فله كذا، قال وضعته أرغب الناس في ه"³

¹ صحيح ابن حبان: 54/3.

² رواه الإمام أحمد في المسند: 122/30، رقم: 18185، وصححه شعيب الأرنؤوط.

³ الموضوعات: 240/1.

أما ما يتعلق بسورة النمل فقد وردت فيها أحاديث عامة تشملها وغيرها، فيرجع الأمر إلى فضل القرآن الكريم على غيره، ووردت أحاديث خاصة.

فمن العامة كونها تعدل بعض كتب الله السابقة فعن واثلة بن الأسقع، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل)¹

وأما الخاصة فهي تدور بين الضعف والوضع، من ذلك كون من قرأها تكتب له الحسنات بقدر من صدق سليمان، أو كذب به، وكذلك هود وشعيب...أخرج الثعلبي عن أبي (مَنْ قرأ طس كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد مَنْ صدَّق سليمان، وكذَّب به، وهود، وشعيب، وإبراهيم، ويخرج من قبره وهو ينادى: لا إله إلاَّ الله)².

وقد حكم السيوطي على الحديث المروي عن ابن عباس في فضل سور القرآن سورة سورة بالوضع، حيث قال: "أما الحديث الطويل في فضائل القرآن سورة فإنه موضوع، كما أخرج الحاكم في المدخل بسنده إلى أبي عمار المروزي أنه قيل لأبي عصمة الجامع: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهِ أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة"³. وفي حديث آخر ضعيف: "يا علي مَنْ قرأ طس النمل أعطاه الله بكلِّ سجدة يسجد بها المؤمنون ثواب المؤمنين كلهم، وله بكلِّ آية ثواب المتوكلين"⁴.

¹ رواه الإمام أحمد في مسنده: 188/28، رقم: 16981، وحسن أسنده الأرنؤوط، وصححه الشيخ الألباني في الصحيح بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة: 469/3.

² أخرجه الثعلبي، في الكشف والبيان: 188/7، وكذلك الواحدي في التفسير الوسيط: 368/3، والزمخشري في الكشف: 390/3، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف: 23/3، لابن مردويه، وكذلك ابن حجر في الكافي الشاف، ص: 126، ولم أقف على من صححه، أو حكم عليه بالوضع، فبقي احتمال الضعف؛ لذلك توقفت فيه.

³ الإتيان في علوم القرآن: 134/4.

⁴ بصائر ذوي التمييز: 352/1.

فظهر من خلال هذا أنه لا يصح حديث عن رسول الله في فضل هذه السورة بعينها على بقية السور، فينبغي التمسك بالأصل وهو التساوي بين آيات القرآن وسوره في الفضل إلا ما أخرجه الدليل فيحمل على الأجر أو المتعلقات كما سبق.

المبحث الثالث: أحوال نزول السورة:

القرآن الكريم بَيَّت فيه ما لا يخضع للعد من أنواع الجواهر والآلئ، وما لا يخطر على البال من الأسرار والحكم، إلا أنه مُعلق لا يدخله إلا من ملك مفتاحه المركَّب من شقين: شقٍّ روحي يتعلق بإقبال القلب عليه بغية النهل من معينه، وشقٍّ علمي يتعلق بالأدوات والآليات التي بها يستطيع من يريد الدخول أن يحفر في أرضه؛ وهذه الأدوات كثيرة جدا ذكرها علماء القرآن والتفسير والأصول وغيرهم، ومن أهمها العلم بالأحوال التي نزل فيها القرآن، سواء تعلقت بالزمان أو المكان أو الأشخاص أو غير ذلك، قال الزركشي في البرهان نقلا عن أبي القاسم النيسابوري: "من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطا وانتهاء، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكّي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكّي، ثم ما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف وما نزل بالحديبية، ثم ما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيعا، وما نزل مفردا؛ ثم الآيات المدنيات في السور المكّية، والآيات المكّية في السور المدنية، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، ثم ما نزل مجملا وما نزل مفسرا، وما نزل مرموزا؛ ثم ما اختلفوا فيه، فقال بعضهم: مدني هذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى"¹.

فهذا النص من النيسابوري ظاهر في تحريم القول في كتاب الله دون هذه المفاتيح؛ لأن من يريد الدخول بدونها كالسارق الذي يكسر الأبواب، أو يهدم الجدران، فيظهر العيوب في القرآن بعدما كان في قمة الجمال، والتناقض بين أخباره وأحكامه بعدما كانت في غاية التناسق في البنيان. والعلم بأحوال السور أهم مساعد على إدراك سير الدعوة الإسلامية من مهدها إلى نضجها حتى يُسلك طريقُ صاحبها إن أُريد جني ثمارها، فالنبي ﷺ جاء ليبليغ الدعوة وطريقته حتى تبقى إلى يوم الدين.

وأحوال الآيات والسور لم تنقل عن النبي ﷺ صراحة، لأنها كانت مشاهدة لمن حضر الوحي، فالإخبار بها من العبث التي يُنزّه عنه العقلاء فضلا عن النبي ﷺ، لكن نقل بعضها من حضر نزول الوحي إلى من بعدهم حتى يستطيعوا من خلالها أن يقفوا على أسرار القرآن كما وقفوا هم عليها.

¹ البرهان في علوم القرآن: 1/192.

وهذه الأحوال أنواع، فمنها ما يتعلق بأسباب النزول؛ وهذا لا سبيلَ إلى إدراكه إلا النقلُ الصحيح، ومنها ما يتعلق بالزمان والمكان وهذا كما يدرك بالنقل الصحيح قد يوقف عليه من خلال النظر الصحيح من أهل القرآن الذين اختلط بدمائهم وعقولهم حتى فتحَ الله عليهم فيه فتحة المبين، فوقفوا على قواعدٍ يؤدي تحكيمها إلى معرفة كون السورة أو الآية مكيةً أو مدنية، وقد يقف الخُلص منهم على معرفة كون الآية المكية أو السورة المكية بعدَ التي قبلها عن طريق الوقوف على مقاصد القرآن عموماً والسورة خصوصاً.

من خلال ما ذكرت يتضح لنا أنه لم تُنقل لنا جميع الأحوال المتعلقة بالسورة وبخاصة ما يتعلق منها بأسباب النزول أو المكي والمدني؛ وما نقل لنا فيه الصحيح والضعيف بل والموضوع أيضاً، فوجب علينا تفعيل أدوات المحدثين، ثم البحثُ في قواعد العلماء السابقين، والاجتهاد في وضع قواعد يمكن من خلالها معرفة الأحوال.

يضاف إلى ما ذكرت أن السور والآيات لم تتوقف جميعها على أسباب النزول، فكثير منها نزل ابتداءً دون سبب خاص، لكن قد يقف البصير بالقرآن على أسباب عامة تجعله يقضي بأن هذه الآية نزلت في زمن كذا أو كذا، لَمَّا اقتضاها أمر كذا وكذا.

وسورة النمل "مكية كلها إجماعاً"¹، ثم اختلف في عدد آياتها، فهي: خمس وتسعون في عد الحجاز، وأربع وتسعون في عد الشام، والبصرة، وثلاث وتسعون في عد الكوفة؛ وأما كلماتها: فهي ألف ومائة وتسع وأربعون، تتكون من أربعة آلاف وسبعمائة وتسع وتسعين²، كما أنها مرتبة مع التي قبلها والتي بعدها كما هي في المصحف الآن؛ قال الفيروزآبادي: "اتفقوا على أن أول السور المكية (اقرأ باسم ربك الذي خلق)... ثم الشعراء، ثم النمل، ثم القصص"³، ونفسُ الترتيب حكاه الزركشي في البرهان⁴، والسيوطي في الإتيان⁵ إلا أنهما لم يذكرَا الاتفاق

¹ مصاعد النظر للبقاعي: 332/2.

² بصائر ذوي التمييز: 348/1.

³ بصائر ذوي التمييز: 98/1.

⁴ البرهان: 193/1.

⁵ الإتيان: 43/1.

ويشهد لهذا الترتيب ما في فضائل القرآن¹ لابن الضريس² عن ابن عباس، وما عند البيهقي³ عن عكرمة، إلا أنهما سمياهن بطسم، وطس، وطسم.

ومع هذا إلا أن البيهقي في دلائل النبوة نقل ما يفيد أنها بعدما وفدت الوفود التي منها وفد نجران، "فعن سلمة بن عبد يشوع، عن أبيه عن جده قال يونس وكان نصرانيا فأسلم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل نجران قبل أن تنزل عليه (طس) سليمان"⁴، نقل هذه الرواية ابن القيم ثم تعقبها بقوله: "وذلك غلط على غلط، فإن هذه السورة مكية باتفاق، وكتابه إلى نجران بعد مرجعه من تبوك"⁵

وسورة النمل عدت الثامنة والأربعين كما في الترتيب السابق، وكما عند حنكة الميداني في معارج التدبر⁶ إلا أن في الشعراء آية تدل على أنها قبل المسد التي عدت خامس سورة نزلت، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: (يا بني فهر، يا بني عدي) - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: (أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟) قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتمنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ۖ وَمَا كَسَبَ ۖ﴾ [المسد: 2]⁷، فمن خلال هذا ندرك أن السورتين من أوائل ما نزل بعدما أمر رسول الله بالجهر بالدعوة.

¹ ص: 33.

² هو الحافظ المسند أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس البجلي الرازي، ولد على رأس المائتين، وسمع القعني ومسلم بن إبراهيم وأبا الوليد الطيالسي ومحمد بن كثير العبدي وطبقتهم، له كتاب: فضائل القرآن. توفي سنة 294 هـ. ينظر: (طبقات الحفاظ: 160)، و(سير أعلام النبلاء: 450/13).

³ ينظر دلائل النبوة: 143/7.

⁴ دلائل النبوة: 385/5.

⁵ زاد المعاد: 561/3.

⁶ معارج التدبر: 5/9.

⁷ صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتك الأقربين: 11/6، رقم: 4770.

فمكية السورة متفق عليها كما سبق أن بينت، لكن يبقى الكلام في الترتيب، فهو وإن كان مهمًّا إلا أنه لا يخرج السورة عن إطارها العام الذي تشترك فيه والصور المكية، كالحديث عن الإيمان والتوحيد والبعثة والجزاء والغيب...¹، ومع هذا فكل سورة تمتاز عن غيرها بطريقة معينة تعالج بها القضايا المشتركة.²

والسورة وإن كانت مكية كما سبق، إلا أنها نزلت بعد الفترة السرية بعدما شاع خبر النبي في مكة، وأظهر المشركون إعراضهم عن آيات الله التي نزلت في السور السابقة كالشعراء التي فيها قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] مما يجعلها تبني على ما أسس من قبل.

وهذه السور الثلاث مترابطة فيما بينها ترابط النتائج بالمقدمات، فسورة الشعراء وصفت حال المشركين مع الآيات البينات، وهذه بينت الطريقة المثلى للاستفادة منها، فركزت على العلم وطرق كسبه واستثماره³؛ والقصص بينت النتيجة - التي يحصل عليها من استفاد من آيات الله الكونية والشرعية عن سلك طريق العلم - المتمثلة في الثقة المطلقة بوعده الله، واليقين الصادق بما عند الله، إضافة إلى تناولهن جميعهن قصة موسى مع فرعون، كل بطريقة معينة، ومن زاوية معينة، فأعطينها صورة كاملة؛ ولعل هذا من أسرار ابتدائهن جميعاً بالحروف المقطعة التي تنتمي إلى الطواسيم، وقد يكون هناك سر من أسرار الله الذي قد يكشفه لمن يشاء من عباده، وقد اجتهد البقاعي رحمه الله فيه فليرجع إليه من أراد المزيد.

ولمعرفة بعض الأحوال التي اكتنفت هذه السورة نحتاج إلى ذكر نبذة يسيرة عن التي قبلها حتى يتضح لنا الربط بينهما، فسورة الشعراء بيّنت حال النبي تجاه إعراض المشركين عن آيات الله رغم أنها برهان ساطع، إذ جاء فيها قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسًا أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ثم تلتها بثلاث وثمانين ومائة آية تتحدث عن الأمم السابقة وحالها مع أنبياء الله.

فبينت في قصة موسى حقيقة السحر وحقيقة المعجزة، وانتصار الحق على الباطل، وخضوع السحرة لله بعدما شاهدوا معجزته، وتجبر فرعون وجنوده على من آمن بموسى من السحرة

¹ ينظر في ظلال القرآن: 5/ 2624.

² ينظر بعض الأمور التي امتزت بها سورة النمل: معارج التدبر: 9/ 19-21.

³ سيأتي تفصيل هذه الطرق عند الحديث عن مقصد السورة.

والمستضعفين، وقدرة الله في فلق البحر للمؤمنين، وإغراقه فيه الكافرين، ثم ثنت بحقيقة دين إبراهيم الذي يزعم المشركون أنهم يدينون الله به، ثم يقوم نوح وإغراق الله لهم، وهكذا سردت قصص الأنبياء السابقين، وفي كل منها تختم بقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الشعراء: ٥٤١، ثم بينت أن هذه الأمور يعلمها بنو إسرائيل فأشارت إلى أنه يجب عليهم أن يطلبوا العلم ليقفوا على الحقائق قبل الإعراض عن الآيات، ثم أشارت إلى الشعراء وأتباعهم، ليعلموا أن ما جاء به ليس من جنس الشعر إنما هو وحي من العليم الحكيم، ثم جاءت سورة النمل مركزة على العلم، وطرق تعلمه واستثماره، قال البقاعي: "ولما ختم التي قبلها بتحقيق أمر القرآن، وأنه من عند الله، ونفي الشبه عنه وتزييف ما كانوا يتكلفونه من تفريق القول فيه بالنسبة إلى السحر والأضغاث والافتراء والشعر، الناشئ كل ذلك عن أحوال الشياطين، وابتدأ هذه بالإشارة إلى أنه من الكلام القديم المسموع المطهر عن وصمة تلحقه من شيء من ذلك، تلاه بوصفه بأنه كما أنه منظوم مجموع لفظاً ومعنى لا فصم فيه ولا خلل، ولا وصم ولا زلل، فهو جامع لأصول الدين ناشر لفروعه"¹

فالسورة جاءت في ظروف تصورها آياتها وإن لم تنقل أخبارها، فقد جاءت بعد تنامي القول بأنه يعلمه بشر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] لتبين لهم أن هذا تخرص لأنهم لو كانوا يعلمون لأدركوا أن الذي عزوا إليه التعليم عبد رومي²، يلزم منه أن يكون القرآن بلسان عجمي وهو بلسان عربي مبين.

ثم رسمت طريقة جميلة في التعليم سآتي إلى تفصيلها عند الحديث عن مقصود السورة، لكن أشير هنا فقط إلى الركائز الكبرى، فالسورة بدأت بتقرير مسائل (هدى ورحمة...) ثم ثنتها بالحديث عن العلم بطرق غير مباشرة لكنها أوقف في النفس من المباشرة، ككون الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم علم من عليم حكيم، وذكر شكر سليمان على نعمة العلم التي اعتبرها من الفضل المبين، ثم بيان علم الهدهد الذي أنقذ أمة من الهلاك إلى غير ذلك مما يأتي مفصلاً في موضعه إن شاء الله.

¹ نظم الدرر 123/14.

² ينظر: جامع البيان: 298 / 17.

فإضافة إلى ما سبق كانت ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج، وهي اتباع الزعماء دون الوقوف على حقيقة أقوالهم، أو اتباعها حمية وعصبية لهم، يدل على هذا ما كان يفعله زعماء قريش باتباعهم، فلما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء: ٤١٢، جمع رسول الله قومه وأخبرهم أنه رسول الله فقام في وجهه أحد زعماء مكة وهو أبو لهب¹ فسبه وأعرض عن دعوته دون علم ولا بينة، ثم صار يُعرض عليه الناس، وكذلك الشأن بالنسبة لأبي طالب الذي أشارت إلى وفاته سورة القصص، فقد كان يعلم صدق النبي ﷺ لكنه اتبع زعماء قومه حمية وعصبية²، ظهر هذا جليا عند لحظة الوفاة إذ احتار بين ما يدعوه إليه رسول الله وما تقره الفطرة، وبين قول أبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، لكن في النهاية غلبت عليه حمية الجاهلية، فمات على الشرك، حزن رسول الله عليه حزنا شديدا، لأنه كان يرجو إيمانه لما علم من راحة عقله، ويقينه في صدقه فيما يقول فنزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]

فهذه الظاهرة تحتاج إلى علاج فجاءت سورة النمل فوضعت الأسس لمحاربتها ثم جاءت سورة القصص ففصلت أركانها بالتركيز على بناء الثقة في الله التي تجعل السادة والعبيد سواء، وكان من أسس معالجة هذه الظاهرة ذكر نماذج من القادة الذين حرصوا على نجاة قومهم من الهلاك، سواء الذي يأتي من غضب الله، أو الذي يأتي من عباد الله بأمر الله، ومن هؤلاء القادة نملة قالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فأبصرت ما يحل بقومهما إن بقوا خارجين عن مساكنهم، فكان فيها إشعار لكفار قريش بأن يفعلوا مثل ما يفعل النمل حتى يحفظوا قومهم من عذاب الله الذي سيحل بهم في الدنيا -وقد حل بكثير منهم هم أنفسهم- أو الذي ينتظرهم يوم القيامة.

ومن القادة أيضا بلقيس ملكة سبأ التي اختارت الاستجابة لنيي الله سليمان، فنجت بهذا قومها من الهلاك، ونفسها من عقاب الله، فكان في هذا إشارة إلى زعماء المشركين عموما وقريش خصوصا بأن يفعلوا مثلها، يفكروا بعقولهم، وينظروا ببصيرتهم إلى تعامل بلقيس مع كتاب سليمان الذي لم تره،

¹ سبق تخريج الحديث.

² ينظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله (إنك لا تهدي من أحببت): 112/6، رقم: 4772.

وينظروا إلى تعاملهم مع كتاب الله الذي جاء به من يعرفون صدقه وأمانته، لعلهم يستيقظون من سباتهم، وينقذون أنفسهم وقومهم من هلاك الدنيا وعقاب الآخرة.

ثم أشارت إلى القدوات الفاسدات وما تفعل بقومها وما يحل بهم جميعا، فذكرت قصة صالح مع قومه ثمود، وبينت أنهم قوم يفسدون ولا يصلحون، وأنهم ظهرت لهم الآيات فأعرضوا عنها فحل بهم ما كانوا يُوعدون، وأنجى الله الذين آمنوا منهم وكانوا يتقون، فكانت فيها إشارة إلى الآيات السابقة في السور قبلها عموما والشعراء خصوصا التي كثر فيها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨] لينتفعوا بها قبل أن يحل بهم ما حل بأصحابها، فالعاقل من يستفيد من عبر غيره، والغبي من يكون عبرة لغيره. ثم ذكرت قصة قوم لوط وما فعل ملؤها بنبيهم عليه السلام، إذ هموا بإخراجه لأنه يسير في طريق الطهارة فأنجاه الله ومن آمن به، وأهلك قومه ومعهم زوجه حتى يعلموا أن الأحساب والأنساب ليس لها مكان عند الله، فكان فيها إشارة إلى ما يفعله المشركون من الدناسة الحسية والمعنوية، إذ كان بعضهم يطوف بالبيت عربانا، بعضهم يأتي الفواحش كما قال جعفر الصادق للنجاشي¹، فإذا لم ينتهوا يوشك أن يحل بهم ما حل بقوم لوط؛ وفيها أيضا إشارة أن علة إخراجه، وهي الطهارة، الموجودة في رسول الله ﷺ مما يعني أن حكمها سترتب عليها، آراء قريش فيه أن يخرجوه ثم اتفقوا في النهاية على أكثر من الإخراج وهو القتل، فأنجى الله رسوله وأهلك معظم الزعماء يوم بدر.

وهذه الظاهرة هي في الحقيقة نتيجة لظاهرة أخرى وهي تفشي الجهل بالله وبالكون والأنفس والآفاق، عاجلتها معظم السور التي قبلها بدءاً من أول آية نزلت لكن سورة النمل عاجلتها بطريق لم يسبق مثلها، بل أزعج أن طريقها لا مثيل لها في حرب الجهل ونشر العلم²، إذ بينت أن الفضل المبين الذي لا يخفى على عاقل هو العلم كما قال تعالى: (حكاية على لسان سليمان عليه السلام) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦] لإشعارهم بأنهم يجب عليهم البحث عن الفخر الحقيقي بدل الفخر بالأنساب والأحساب الذي كان شائعا بينهم، ثم زادت الأمر ترغيبا بكون العلم محبوبا حتى عند الطيور فقد حكى الله على لسان الهدهد قوله: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِط بِهِ

¹ ينظر مسند أحمد: 3/266، رقم: 1740.

² سآبين بعضا منها عند الحديث عن مقصود السورة.

وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ [النمل: ٢٢]، فأشعرتهم بضرورة التعلم حتى يدركوا الآيات التي مرت في الشعراء وفي غيرها.

وبعد هذه الدروس توجهت الآيات للنبي ﷺ وخاطبته بحمد الله الذي من عليه بالنبوة، وأكرمه بالعلم، وتفضل عليه بالحق، ثم السلام على من اصطفاهم الله من خلقه ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]، ثم توجهت إلى الحديث عن لوازم العلم وهي معرفة الله عن طريق آياته الكونية التي يمرون عنها معرضين لتمر بهم على علم الله المطلق الذي لا يحده زمان ولا مكان ولا ظاهر ولا باطن، ولا شهادة ولا غيب... لترجع إلى النبي فتسليه بأن هولاء ماتت قلوبهم فلا تستطيع أن تسمعها نور الوحي (قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْأَصْمَرَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] لترسو عند النذير المبين بما ينتظرهم ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَّهٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وحينها انتهت معركة الحياة مع النفس وإبليس ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ إِمْنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، ثم ختمت ببيان مهمة رسول الله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرِكُمُ أَيْتِيهِ فَتَعَرَّفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣] مذكرة له بحمد الله مرة أخرى

الفصل الثاني: معاني سورة النمل ومقاصدها.

للإحاطة بالسورة لا بد من فهم مفرداتها، والمعنى الإجمالي الذي تدور عليه آياتها، للوصول إلى مقصده ومراميها؛ لذلك قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث، خصصت الأول للمقصد العام منها، والثاني لمعاني مفرداتها، والثالث للمعنى الإجمالي المستفاد من آياتها:

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.

مفتاح فهم الكلام على حقيقته معرفة مقصود صاحبه، إذ به ترجع الفروع إلى أصولها، والمتشابهات إلى محكماتها، والعمومات إلى خصوصاتها، والمطلقات إلى مقيداتها...؛ هذا في سائر كلام الناس فكيف يكون الشأن في كلام رب الناس!!! الذي نزل مفرقا عبر السنين، وموزعا عبر الزمان والمكان، ومعالجا حالات أفراد وجماعات...

ولقد فاز الصحب الكرام رضوان الله عنهم لَمَّا فهموا مقصود كلام رب العالمين، ومغزى كلام سيد المرسلين، فنشروا دين الله على الحقيقة، وبَيَّنُّوا أحكامه على التمام، فلم يُخرجوا أصلا عن فرعِهِ، ولا لفظا عن سياقه، فكانت عقباهم التمكن في الأرض، والفوز بالرضوان.

ولم يكن هذا بسبب علم درسوه، ولا قواعد حفظوها، إنما بالسليقة العربية، والدراية بخطابات العرب، فإذا أشكل عليهم أمرٌ، وظنوا أن ظاهره لا يستقيم سألوا عنه رسول الله ﷺ فبين لهم المقصود، ووضح لهم المراد، كما يشهد بهذا حديث عبد الله بن مسعود في شأن الظلم¹.

ولما تقادم العهد أغفل هذا الملحظ، وأصبح النظر إلى الألفاظ مفرقة، كأنها جزر مترامية الأطراف، فنتج عنه تشوية للدين، واضطراب في الأحكام، وأنزلت بعض الآيات الواردة في الكفار على المؤمنين، فكُفِّر بسبب الذنوب، وقُتِل بسبب الفهم السيئ بعض الصالحين²؛ "وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن فلم يحصل منهم تدبر"³.

ثم يسر الله في جهود مباركة حاولت أن تنظر إلى القرآن كما نظر إليه الصحب الكرام، فأدركت أنه وإن لم يكن شأنه شأن الكتب التي تكون مبنية على فصول وأبواب، إلا إن له وحدة تدور عليها كل ألفاظه، ومقاصد ترجع إليها جميع سوره، من وقف عليها أصاب في الفهم، وأحسن في التنزيل، وليس هذا خاصا بالقرآن كله بل كل سورة لها شخصية مستقلة. قال سيد قطب: "يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو

¹ فعن عبد الله قال لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أيننا لا يظلم نفسه فقال رسول الله ﷺ ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم.

صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه: 114/1، رقم: 144.

² كما هو الشأن بالنسبة لحباب بن الأرت الذي قتله الخوارج، وبقروا بطن زوجته.

³ الموافقات: 3/3.

كان يعيش مع روحٍ حيٍّ مميّز الملامح والسمات والأنفاس!! ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظل موضوعاتها كلّها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو"¹

ويقول أيضا في مقدمة سورة الأعراف: "وهذه القضية الكبيرة! إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة إنّها كلها تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة، ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع، وتحقيق هذه الغاية. إن الشأن في سور القرآن - من هذه الوجهة - كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة.. كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية، وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني.. ولكنهم بعد ذلك نماذج متنوعة أشد التنوع... هكذا عدت أتصور سور القرآن، وهكذا عدت أحسها، وهكذا عدت أتعامل معها، بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها..."².

وعند النظر في هذه الجهود نجد بعضها يجعل موضوعات السور عين مقاصدها كما هو الشأن بالنسبة للفيروز آبادي، والطاهر بن عاشور وغيرهما. فعلى سبيل المثال لما تعرض الفيروزآبادي لسورة النمل قال: "مقصود السورة ومعظم ما تضمنته: بيان شرف القرآن، وما منه نصيب أهل الإيمان، والشكاية من مكر أهل الشرك والعصيان، وإشارة إلى ذكر الوادي المقدس وموسى بن عمران، وذكر داود وسليمان، وفضل الله تعالى عليهما بتعليمهما منطق الطير وسائر الحيوان، وقصة النمل، وذكر الهدد وخبر بلقيس، ورسالة الهدد إليها من سليمان، ومشاورتها أركان الدولة، وبيان أثر الملوك إذا نزلوا في مكان، وإهداء بلقيس إلى سليمان، وتهديده لها، ودعوة آصف لإحضار تحت بلقيس في أسرع زمان، وتغيير حال العرش لتجربتها وإسلامها على يد سليمان..."³

ونفس الأمر يسير عليه ابن عاشور رحمه الله، حيث قال في مطلع سورة النمل: "أول أغراض هذه السورة افتتاحها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمه وعلو معانيه، بما يشير إليه الحرفان المقطعان

¹ في ظلال القرآن: 28/1.

² في ظلال القرآن: 3/ 1243.

³ بصائر ذوي التمييز: 348/1.

في أولها، والتنويه بشأن القرآن، وأنه هدى لمن ييسر الله الاهتداء به دون من جحدوا أنه من عند الله، والتحدي بعلم ما فيه من أخبار الأنبياء، والاعتبار بملك أعظم ملك أوتي نبي؛ وهو ملك داود، وملك سليمان عليهما السلام، وما بلغه من العلم بأحوال الطير، وما بلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة، وأشهر أمة في العرب أوتيت قوة وهي أمة ثمود، والإشارة إلى ملك عظيم من العرب؛ وهو ملك سبأ...¹.

وبعض العلماء يعنون كتابه بما يوحي إلى مقاصد القرآن فإذا به تفسير من التفاسير، أو بيان لموضوعات السور؛ فمن الأول على سبيل المثال كتاب (فتح البيان في مقاصد القرآن) جمع فيه مؤلفه² - كما قال عبد الله الأنصاري -: "صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير النبوي؛ لأنه الحجة المتبعة التي لا يسوغ مخالفتها، ثم تفاسير عظماء الصحابة المختصين برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تفاسير التابعين ومن بعدهم من سلف الأمة وأئمتها المعبرين، ثم أهل اللغة العربية الذين يفسرون كتاب الله جل جلاله باللغة العربية حقيقة ومجازاً إن لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية تراعي النقل عن السلف أو رعاية الأصول المعتمدة أو قواعد اللغة العربية."³

ونفس الأمر سار عليه الدكتور عبدالله محمود شحاتة في كتابه أهداف كل سورة ومقاصدها⁴. وعند التأمل تجد أن بين الموضوع والمقصد فرقا دقيقا؛ فالموضوع هو المعنى العام التي تعالجه السورة، قد يكون واحدا، وقد يتعدد، بينما المقصود شيء واحد كلياً ترجع إليه كل الموضوعات⁵، كما سيتضح من خلال الأمثلة.

¹ التحرير والتنوير: 216/19.

² هو محمد صديق خان الحسيني البخاري القنوجي، من رجال النهضة الإسلامية المجددين. ولد ونشأ في قنوج (بالهند) سنة 1248هـ وترعرع فيها حتى صنف مصنفات منها عدة منها كتابه فتح البيان، وأبجد العلوم، وحسن الأسوة... توفي سنة 1307هـ، ينظر ترجمته: هدية العارفين: 388/2، والأعلام: 167/6.

³ فتح البيان في مقاصد القرآن: 2/1.

⁴ ينظر على سبيل المثال حديثه عن سورتي النمل والقصص، ص: 272، و 277.

⁵ ينظر: دلائل النظام، ص: 62.

وقد عرف الفراهي رحمه الله المقصود بأنه: "جماع مطالب الخطاب، فإليه مجرى الكلام، وهو المحصول والمقصود منه، فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسري فيه كالروح والسر، والكلام شرحة وتفصيله، وإنتاجه وتعليقه، وربما يحسن إخفاؤه، فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه"¹.
ومما يساعد على التفريق بين المقصد والموضوع، العلم بأن المقصد لا تعلق له بالزمان² ولا بالمكان، بخلاف الموضوع الذي قد يتعلق بأحدهما أو بكليهما معاً؛ فالأحكام العملية مثلاً ليست مقصوداً سورة النور، والقصاص التاريخية ليست كذلك مقصوداً سورة القصص، إنما مقصود سورة النور نزاهة وطهارة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها³، ومقصود سورة القصص: هو التواضع لله كما يقول البقاعي أيضاً⁴.

وليس الزمان وحده الفيصل بين المقصد والموضوع بل يمكن التفريق بينهما بمعرفة كون المقصود جامعاً لمطالب السورة، موزعاً بين أجزائها المفرقة، ومواضيعها المختلفة، حتى إن الناظر إليها بتأمل يدرك أنها كلام واحد⁵.

كما أن مقصود الكلام غالباً ما يكون خفياً لا يدرك من أول وهلة، بل لا بد من التأمل في الروابط بين أجزائه لإدراك المقصد أو العمود⁶، قال الفراهي: "وربما يحسن إخفاؤه فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه"⁷، ولعل هذا هو السبب الذي يجعل المفسرين يختلفون في تحديده؛ فيتوصل بعضهم إلى معنى، ويتوصل غيره إلى معنى آخر، كما سنبين عند ذكر مقصودي سورتي النمل والقصاص.

¹ دلائل النظام، ص: 73.

² ينظر: دلائل النظام، ص: 62.

³ ينظر: مصاعد النظر: 310/2.

⁴ ينظر: مصاعد النظر: 338/2، ولي هذا على الكلام ملاحظة ستأتي عند بيان مقصود سورة القصص.

⁵ دلائل النظام، ص: 73.

⁶ بتعبير الفراهي.

⁷ دلائل النظام، ص: 73.

ولفظ المقصد وإن كان هو الغالب إلا أن له مرادفاتٍ أخرى يستعملها العلماء، كمضمون
السورة، ومغزى السورة، وفلك السورة، والوحدة الموضوعية، أو السياقية للسورة، ومحور السورة، وروح
السورة، وشخصية السورة، وغرض السورة...¹.

¹ علم مقاصد السور، ص: 9.

مقصود سورة النمل

قال البقاعي رحمه الله: "ومقصودها: وصف، هذا الكتاب بالكفاية لهداية الخلق أجمعين، بالفصل بين الصراط المستقيم، وطريق الحائرين، والجمع لأصول الدين، لإحاطة علم منزله بالخفي والمبين، وبشارة المؤمنين، ونذارة الكافرين بيوم اجتماع الأولين والآخرين، وكل ذلك يرجع إلى العلم المستلزم للحكمة.

فالمقصود الأعظم منها: إظهار العلم والحكمة، كما كان مقصود التي قبلها: إظهار البطش والنقمة"¹.

ونفس الأمر قرره سيد قطب في الظلال حيث قال: "والتركيز في هذه السورة على العلم: علم الله المطلق بالظاهر والباطن، وعلمه بالغيب خاصة، وآياته الكونية التي يكشفها للناس، والعلم الذي وهبه لداود وسليمان، وتعليم سليمان منطق الطير، وتنويهه بهذا التعليم..."²

بينما ذهب عادل محمد خليل إلى إن مقصدها: "الغاية من التفوق الحضاري"³ والذي يظهر أن لفظ العلم ينبغي أن يقيد بلفظ المكانة، أو الأهمية، أو ما يقاربهما من الألفاظ، فنقول: مقصودها: (مكانة العلم عند الخالق والمخلوق)، أو أهمية العلم في الدعوة وبناء الحضارة، أو قيمة العلم في حياة الفرد والمجتمع، والدليل على هذا "ما للنمل من حسن التدبير، وسداد المذاهب في العيش، ولاسيما ما ذكر عنها سبحانه من صحة القصد في السياسة، وحسن التعبير عن ذلك القصد، وبلاغة التأدية"⁴.

وقد ظهر لي أن قرائن المقصود تظهر في ثلاثة أمور:

الأول: اسم السورة وخاتمتها

سبق أن قررنا أن أسماء السور التي نُقلت بالتواتر تُعتبر توقيفية، وعليه فإن من ورائها معنى، وحكمة قد نعلمها وقد نجهلها، ولعل المعنى في هذه السورة يرجع إلى كون النمل مخلوقا يعرفه جميع

¹ مصاعد النظر: 333/2.

² في ظلال القرآن: 2625 / 5.

³ أول مرة أتدبر القرآن، ص: 131.

⁴ مصاعد النظر: 333/2.

الناس، ويرون طرق تدبيره لعيشه، ودقة نظامه في تكوينه؛ إلا أنهم يجهلون الأسرار الخفية، والألطف الإلهية، فآلمح اسمُ السورة إليها للبحث عنها لأنها تقود العبد إلى الله خاضعا ذليلا.

وقد وردت في القرآن سور سميت بأسماء الحيوانات كالبقرة والأنعام والنحل والعنكبوت... وليس مقصودها العلم؛ لأن هذه السورة تميزت ببيان العلاقة بين النمل والإنسان، إذ قررت أن النمل يشترك والإنسان في كثير من الأمور، كالقيادة وحسن التدبير، وله ذكاء (إلهامي) في التسيير، وأن حياته في القيادة والتدبير كحياة الإنسان، وقد تكون أكثر ذكاء منه، وأن لها لغة تتخاطب بها، قد يدركها بعض من اختصه الله بذلك، ثم ختمت ببيان المعلم الحقيقي وهو الله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فامتازت بهذا عن أخواتها، وعانقت المقصود بكلتي يديها.

الثاني: مقاطع السورة:

لا يكاد ينتقل القارئ من مقطع إلى آخر حتى يجد ذكرا للعلم بلفظه، أو بيانا لفوائده، أو تلميحا إلى الأخطار الناجمة عن فقدانه؛ وها أنا أذكر جزءا منها، وأترك لذكاء القارئ أجزاء أخرى يذكرها من إمعان النظر، وكثرة التدبر.

فبعد المقدمة التي افتتحت بها السورة جاء بيان مصدر علم رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٦﴾ وقرن بين الصفتين العليتين الحكمة والعلم دون غيرها للتمهيد إلى أن العلم هو الذي تدور عليه السورة، وللإشارة إلى أن الحكمة - التي هي وضع الشيء في موضعه -¹ أثر من آثاره.

ثم تلاها امتنانُ الله على داود وسليمان بالعلم، فقال في حقهما: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥﴾ ولم يمتن عليهما بغيره كإلانة الحديد لداود، وتسخير الطير والجمال يسبحن معه، وإعطاء القدرة لسليمان على التحكم في الجن والإنس والحيوان والرياح...؛ لأن العلم هو الأصل في كل ماذكر، فلولاه ما استطاع داود إلانة الحديد، وما استطاع سليمان معرفة منطق الطير.

¹ ينظر: الحدود الأنيقة، ص: 73.

يؤكد هذا اعتراف نبي الله سليمان بأنعم الله التي جعل على رأسها ما آتاه الله من العلم قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦) وأعقبها بذكر سبب نجاة النمل الذي هو علم النملة بما لا يعلم النمل، ولا يعلمه حتى جند سليمان ﴿حَتَّىٰ إِذَا اتُّوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتِ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨)، ولما علم سليمان بقولها، توجه إلى ربه شاكرًا له على أعظم أنعمه - وهي العلم - قائلاً: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩)

ومع هذا العلم الذي تفرد به على كثير من خلق الله لم يكتف، ولم يشعر بأنه بلغ فيه درجة الكمال، بل غاب عنه الهدهد، ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَىٰ الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠) وأخبر جنده بأنه في حل في أمره إذا أتاه بعلم ليس عنده، فقال لهم: ﴿لَا عُدْبَنَهُ وَعَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَدْبَحْنَهُ وَأُولَٰئِكَ يَتَّبِعُ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢١) فما لبث أن أتى الهدهد بعلم ليس عنده، مظهرًا له أن علمه وإن كان واسعًا فإن الله قد يختص بعض خلقه بعلم لا يشركه فيه غيره، قائلاً له: ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (٢٢).

ثم تمضي الآيات في سياقها مشيرة إلى بعض أسباب العلم الذي هو الكتاب المرسل إلى ملكة سبا من سليمان، القائل للهدهد: ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾

ثم ختمت القصة ببيان مخاطر الجهل بالأشياء، فذكرت الملكة وحالها مع الصرح الذي خفيت عنها حقيقته، فكشفت عن ساقها في غير موضع الماء، ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَامْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٤).

ثم انتقلت السورة من التاريخ إلى الحاضر لتظهر بعض أسباب الزيادة في العلم فأشارت إلى الظواهر الكونية، وبينت العلاقات بينها وبين الإنسان، فقررت أنها مطية للعلم بخالقها، ووسيلة للوصول إلى الهدف من وجودها، قال تعالى مقررا حقائق كونية: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ الآيات ، كما أشارت إلى أن الأسئلة التي يطرحها الإنسان لن يجد لها دائما أجوبة مقنعة، بل بعضها يدركه مع الزمن، وبعضها مع تغير الأحوال، وكثير منها يبقى من اختصاص الله دون غيره، فالأول أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ والثاني أشار إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وبينت بلفظ صريح لا يحتمل التأويل أن المصدر الصحيح لتلقي العلم هو كتاب الله الذي يفصل بين المتخالفين قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾

كما أشارت إلى أن المصادر الأخرى - أعني مصادر المعرفة كالحس والعقل... - قد تخطئ وتزجر معلومات خاطئة قد تقلب حياة الناس - كما هو واقع في زماننا، حيث اعتمد كثير من الناس على العقل وحده، أو أضافوا إليه التجربة، وتركوا الوحي في الرفوف - فبينت أن العين قد ترى الشيء المخلوق على صورة فترسم له في الذهن صورة قد تكون مخالفة لحقيقته ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ثم ختمت ببيان المعلم الحقيقي هو الله تعالى الذي قد يسوق العبد إلى العلم بأمور في الزمان والمكان الذين يرضاها الله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا ﴿٨٩﴾﴾. وبهذا تكون خاتمة السورة قد عانقت مقدمتها، والتحمت بهما جميعا أجزاؤها، فظهر المقصود جليا لكل متدبر لكتاب الله.

الثالث: ألفاظ السورة

لا يعني بالضرورة تكرار لفظ بعينه في سورة معينة أن أصل اشتقاقه هو مقصدها، بل لا بد من النظر في السياقات التي ورد فيها، والتأمل في المضافات التي أضيف إليها، لمعرفة هل يساعد المتدبر على تبيان المقصد، أم أنه جاء ليخدم قضية معينة.

والعلم في سورة النمل قد تكرر باشتقاق عدة، وورد في سياقات مختلفة، وذكر مرات بلفظه، وأخرى بمرادفه، أو لوازمه والآثار الناجمة عن تحصيله أو فقدانه، وجاء في مواضع لا يمكن أن يُوضع فيها غيره -بلاغة-، فأعطى دلالة لا خفاء فيها على أن مقصود السورة هو بيان قيمة العلم والآثار المترتبة على تحصيله¹.

من ذلك وروده بصيغة الصفة المشبهة التي تفيد الثبوت والدوام في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^(٦) وجاءت الحكمة مقدمة عليه في هذه السورة لتشعر بأنها أثر من أثاره، ولازم من لوازمه².

ومن ذلك وروده بصيغة الفعل الماضي المبني لما لم يسم فاعله في موضع يصح فيه التصريح بالمعلم الذي هو الله للإشعار - في نظري - بأن العلم محمود من أي جهة أتى، بشرط أن يكون مبنيًا على أصول صحيحة، ويهدف إلى غايات نبيلة؛ ويؤيد هذا ما ورد في الأثر "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها"³

وللإشعار أيضا بأنه سببٌ للتحكم في الخلق، لتسييرهم وفق مراد الله، فبني الله سليمان عليه السلام قال هذا الكلام لإشعار رعيته بأن ما يفعلونه لن يخفى عليه، كما لم يخف عليه منطق الطير الذي هو أبعد نفورا من الإنسان؛ وهذا ما يدفعهم إلى العمل وفق مراده دون التقصير في الواجبات، أو في أداء الحقوق⁴.

¹ سبق أن بينت أن المضاف يمكن أن يتغير لفظه لكن لا يخرج في الجملة عن العلم.

² ينظر: البرهان في علوم القرآن: 247/3.

³ ورد هذا الأثر مرفوعا في سنن ابن ماجه، رقم: 4169، وسنن الترمذي رقم: 2687، وقال عنه: "هذا حديث غريب،

لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإبراهيم بن الفضل المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه"، وقال عنه الأرئوط في سنن ابن

ماجه: "إسناده ضعيف جداً، إبراهيم بن الفضل -وهو المخزومي- متروك"، ومع هذا فإن معناه صحيح؛ فقد تعلم النبي ﷺ

الطريق الصحيح الذي يدل على المدينة من عبد الله بن أريقط، وتعلم كثير من المسلمين الكتابة من مشركي قريش الذين وقعوا

أسرى في غزوة بدر، وهناك أمثلة أخرى تشهد لهذا، يرجع إليها في مواطنها.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 237/19.

ثم إن سليمان عليه السلام ذكر العلم ثم عطف عليه ما أوتي من نعم الله، فكان من عطف العام على الخاص للاهتمام به، والتنويه بقدره، وبيان الفاضل على غيره.

كما أنه ورد ضمنيا في سياق المفاضلة في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾^(١٦) فهذا اسم إشارة إلى ما سبق من العلم، وما أوتي سليمان عليه السلام من نعم الله.

ولم يقتصر الأمر على الإنسان بل تعداه إلى الطير الذي قد يعلم ما لا يعلمه الإنسان، ويفتخر به حتى على من ملكه الله أمره، وأعطاه القدرة على التصرف في أفعاله؛ فهذا الهدهد واجه سليمان عليه السلام -وهو سيده والحاكم عليه بأمر ربه- بقوله: ﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾^(٢٢) فما كان منه إلا الاعتراف بالفضل، وطلب الاستدلال على الدعوى، حيث ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

وفي مشهد يقف المتأمل فيه حيران: مشهد يكون فيه صاحب العلم مقدما على العفريت من الجن الذي قال لنبي الله سليمان متحدثا عن عرش ملكة سبأ ﴿أَنَاءُ اتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾^(٣٩)، لكن لما ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاءُ اتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ترك العفريت، وأقبل على ذي العلم، ليظهر فضله على الملاء أجمعين.

ثم انتقلت السورة من قصة سليمان إلى قصة قوم لوط، وتحدثت عن جرائمهم لكنها اختارت لها ألفاظا تناسب مقصود السورة، كما اختارت لها ألفاظا أخرى تناسب مقصود السور التي ذكرت فيها؛ فعلى سبيل المثال لما ذكرت في سورة الأعراف التي مقصودها "إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السور الماضي من التوحيد والاجتماع على الخير، والوفاء لما قام على وجوبه من الدليل في الأنعام وتحذيره بقوارع الدارين"¹ أتي فيها بلفظة تناسبها وهو الإسراف الموجب للإنذار فقال تعالى على لسان لوط مخاطبا قومه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 81] بينما لما ذكرت في

¹ مصاعد النظر: 130/2.

سورة النمل التي كان مقصودها بيان فضل العلم أتي بلفظة الجهل قال تعالى على لسان لوط عليه السلام: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

ثم واصلت السورة سيرها في التدليل على المقصود حتى وصلت إلى بيان الفيصل في النزاعات، وذكر الحكم على أطراف المخاصمات، وقررت بما يشبه القاعدة العامة التي يندرج تحتها ما لا يحصى من الجزئيات، هذه القاعدة جاءت في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فالغلبة ليست للمال، كما أنها ليست للملك والجاه؛ إنما هي لأصحاب الدليل، الذين يبنون الفروع على الأصول، ويثبتون النتائج على المقدمات.

لم استقص ألفاظ العلم كلها في السورة؛ لأن الغرض الاستدلال على المقصد لا حصر الألفاظ، ولعل ما ذكر فيه كفاية، وللبيب إشارة، والله من يمين على بعض عباده بإدراك بعض أسرار كتابه، اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

المبحث الثاني: معاني مفردات سورة النمل:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمدُ: مصدر حمد، وهو نقيض الذم، والحمدُ: الثناء. والحمدُ والمحمود: الذي كثرت خصاله الحميدة؛ وهو أعمُّ من الشكر؛ لأنه يكون عن نعمة ويكون ابتداءً للمحمود لما فيه من صفات الحمد؛ والشكر لا يكون عن صفة ذاتية، بل عن نعمة وعطاء¹.
والحمد لله: الثناء على الله بالفضيلة، وهو أخصُّ من المدح؛ لأن "المدح يقال: فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يكون منه وفيه بالتسخير، فقد يُمدح الإنسان بطول قامته وصباحته وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه؛ والحمد يكون في الثاني دون الأول"²
والمعنى قل يا مُحَمَّدُ الثناء على الله بما يليق به من الجلال والجمال؛ لأنه نجى الرسل من أقوامهم ونصرهم على أعدائهم، ورفع درجاتهم، وأهلك الظالمين من أعدائهم³.

﴿الَّذِينَ أَصْطَفَى﴾ اصطفى: أصله (صفا)، وهو خلاف الكدر⁴، والصِّفاء: خُلوص الشيء من الشُّوب، ومنه: الصفا: للحجارة الصافية؛ والاصطفاء: تناول صفو الشيء، كما أن الاختيار: تناول خيره، والاجتباء: تناول جبايته.
واصطفاه الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافيا عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتَّعَرَّ ذلك من الأول⁵.
والمقصود بالمصطفين هنا: "الذين اجتباهم لنبيِّه مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فجعلهم أصحابه ووزرائه على الدِّين الذي بعثه بالدعاء إليه دون المشركين به، الجاحدين نبوة نبيه"⁶.

¹ ينظر: العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: 189/3، والصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري: 466/2، ومقاييس اللغة لابن فارس: 100/2، وتاج العروس للزبيدي: 38/8.

² المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني، ص: 256.

³ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري: 482/19، والتحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور: 6/20.

⁴ ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس: 292/3.

⁵ ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص: 487.

⁶ جامع البيان: 482/19.

وقال ابن عطية: "يعني بعباده (الذين اصطفى) الصحابة، واللفظُ يعمُّ الملائكة والأنبياء والصحابة والصالحين"¹، وهؤلاء "هم أعلى الطبقات وأكرمها على الإطلاق. وهم المرسلون، فأكرم الخلق على الله، وأخصهم بالزلفى لديه: هم رُسُلُه. وهم المصطفون من عباده، الذين سلم عليهم في العالمين"²، واختارهم لتبليغ رسالته، وإقامة الحجة على خلقه.³

﴿حَدَّايَقَ ذَاتَ بَهَجَةٍ﴾ الحقائق: جمع حديقة، وهي الأرض ذات الأشجار، وقيل: البستان الذي عليه حائط. وجذرهما الثلاثي: (حَدَق) التي تعني الإحاطة بالشيء، وتُسمَّى السوادُ الذي في العين حَدَقَةً؛ لأنه يحيط بالصبي⁴، وسميت بهذا الاسم: "لأنهم كانوا يحدقون بها حائطاً يمنع الداخل إليها صوناً للعنب؛ لأنه ليس كالنخل الذي يعسر اجتناء ثمره لارتفاع شجره، فهي بمعنى: مُحَدِّقٌ بها. ولا تطلق الحديقة إلا على ذلك"⁵.

و(البهجة): الحسنُ والنضرة، يُقال: نباتٌ بهيج، أي ناضر حسن، والمعنى: أَمَّنْ أُنبتَ لكم بسبب الماء أشجاراً مختلفة ألوانها، ومتنوعة ثمارها حتى صارت "(ذات بهجة) أي بهاءٍ وحسنٍ ورونق، وبشرٍ بها، وسرورٍ على تقارب أصولها مع اختلاف أنواعها، وتباين طعومها وأشكالها، ومقاديرها وألوانها"⁶.

﴿قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾: العدلُ: خلافُ الجور، ورجل عدلٌ: أي رضا ومقنع في الشهادة؛ وقال الفراء: العدل بالفتح: ما عادل الشيء من غير جنسه، والعدل بالكسر: المثل⁷.

¹ التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: 105/2.

² التفسير القيم، لابن قيم الجوزية ص: 419.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 8/20.

⁴ ينظر: مقاييس اللغة: 33/2، والنهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين ابن الأثير: 354/1، والمفردات في غريب

القرآن، ص: 223.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 11/20.

⁶ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي: 187/14.

⁷ ينظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري: 1761/5.

والعدل ضربان: "مطلق: يقتضي العقل حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخا، ولا يوصف بالاعتداء بوجه، نحو: الإحسان إلى من أحسن إليك، وكف الأذية عمن كف أذاه عنك. وعدلٌ يُعرف كونه عدلا بالشرع، ويمكن أن يكون منسوخا في بعض الأزمنة، كالقصاص وأروش الجنایات، وأصل مال المرتد. ولذلك قال: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة/ 194] ، وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى/ 40] ، فسمي اعتداءً وسيئة، وهذا النحو هو المعنى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: 90]"¹

وقد يطلق على معنى الاعوجاج والانحراف، فيقال: عدل وانعدل أي: انعرج²

والآية يصح حملها على الإطلاقين فيكون المقصود أنهم يعدلون عن الحق فينعرجون إلى الباطل، أو يعدلون بالله فيجعلون آلهتهم متساوية معه، وينسبون إليها ما ينسبون إليه³.

﴿وَجَعَلَهَا رَوَاسِي﴾ الرواسي: جمع راسية، وفعلها رسا، قال ابن فارس: "الراء والسين والحرف المعتل: أصل يدل على ثبات. تقول رسا الشيء يَرسو، إذا ثَبَت، والله جل ثناؤه أرسى الجبال، أي أثبتها، وجبل راس: ثابت"⁴، وتقول العرب: "رست السفينة ترسوا رسوا، أي وقفت على البر"⁵

والمعنى من تفضل عليكم بالأرض التي تمشون عليها فجعلها قرارا حتى تستقروا عليها؟، ومن جعل فيها أنهارا تنقل المياه إلى الحدائق والجنان؟ ومن ثَبَّتْها بجبال ثوابت تمنعها أن تميل بأهلها وتضطرب؟⁶ فسيقولون: الله. وهذا يقيم عليهم الحجة.

¹ المفردات في غريب القرآن للراغب، ص: 552.

² مقاييس اللغة: 246/4-247.

³ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: 258/8، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب: 5454/8.

⁴ مقاييس اللغة: 394/2.

⁵ الصحاح: 2356/6، والأنجر: مرساة السفينة، وهو اسم عراقي.

⁶ جامع البيان: 484/19، والهداية إلى بلوغ النهاية: 2356/8، وحقائق الروح والريحان في روائع علوم القرآن لمحمد

الأمين الهري: 14/21.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾^{١٣} الحَجَزُ في اللغة: المنع؛ والحَجَزُ بين شيئين: الحَوْلُ بينهما، تقول: حَجَزْتُ بين الرجلين إذا منعت كل واحد منهما من صاحبه، بأن جعلت بينهما فاصلا، وسميت الحجاز حجازا لأنها فصلت بين نَجْدٍ والغور¹، وقيل لكونها حاجزا بين الشام والبادية².

قال ابن كثير: أي "جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا، أي: مانعا يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو: هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس. والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالا تَسْقَى الحيوانَ والنباتَ والثمارَ منها، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون مأوها ملحا أجاجا، لئلا يفسد الهواءُ بريحتها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾^{٥٣} [الفرقان: 53].

﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾^{٦٣} وفي قراءة أخرى ﴿نشرا بين يدي رحمته﴾^٣ النَّشْرُ في اللغة: يدل على فتّ الشيء وتشعبه، ومنه نَشَرَتِ الأرضُ إذا أصابها الريح فأنبتت³؛ ونَشَرَ الثوبَ والسحاب، والحديث أي بسطه⁴. والنشْرُ من الرياح: الطيبة اللينة الهبوبُ التي تنشر السحاب⁵.

ويطلق النسر على "الكلاء إذا ييس ثم أصابه مطر في دبر الصيف فاخضر"⁶.

¹ ينظر: مقاييس اللغة: 2/139، والصحاح: 3/872.

² ينظر المفردات في غريب القرآن، ص: 221.

³ ينظر: مقاييس اللغة: 5/430.

⁴ المفردات، ص: 508.

⁵ جامع البيان: 12/490.

⁶ الصحاح: 2/427.

والمعنى من يتفضل عليكم بالرياح الملقحة؟ التي تنشر السحاب وتجمعها بين يدي رحمة الله التي هي المطر، من تسمية المسبب باسم السبب¹، فيكون الجواب : الله؛ لأنه استفهامٌ تقريرى يُراد منه تثبيتُ الأمر حتى يُنطلق منه إلى آخر يكون مقدمة لنتائج يُراد الوصول إليها.

﴿بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾ عَمُونَ: جمع عم، والعَمَى: ذهاب البصر، تقول عَمِيَ الرجلُ إذا ذهب بصره، وعَمِيَ عليه الأمرُ التبس عليه، ورجلٌ عَمٌ، إذا كان أعمى القلب².
قال الراغب: "العمى: يقال: في افتقاد البصر والبصيرة، ويقال في الأول: أعمى، وفي الثاني: أعمى وعمٌ، وعلى الأول قوله: ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: 2] ، وعلى الثاني ما ورد من ذم العمى في القرآن نحو قوله: ﴿صُمُّبُكُمُ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرِجُونَ﴾ [البقرة: 18].

والمعنى أنهم عمون عن الآخرة، فلا يدرون الحساب الذي فيها، ولا العقاب الذي ينتظرهم عند العودة إليها³. وهذا في الدنيا؛ لأنهم إذا بُعثوا وعابنوا الحقائق يوم القيامة، رأوا كل ما وُعدوا به رأي عين⁴.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير: جمع أسطار، والأسطار: جمع سطر، فيكون هذا من قبيل جمع الجمع، والسطر في اللغة: "الصف من الكتابة، ومن الشجر المغروس، ومن القوم الوقوف؛ وسَطَّرَ فلان كذا: أي كتب سطرا سطرا، قال تعالى: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1]⁵.

¹ ينظر: الهداية: 5234/8، ونظم الدرر: 193/14.

² ينظر: الصحاح: 2439/6، ومقاييس اللغة: 134/4.

³ تفسير القرآن العزيز لابن زمنين: 309/3.

⁴ الهداية إلى بلوغ النهاية: 5457/8، وتفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي: 208/6.

⁵ المفردات، ص: 409.

وقيل: الأساطير: الأباطيل، الواحدُ أسطورة، بالضم، وإسطارة بالكسر¹، وقال ابن جرير: "قالوا: ما هذا الوعد إلا ما سطرَّ الأولون من الأكاذيب في كتبهم، فأثبتوه فيها وتحدثوا به من غير أن يكون له صحة"، وقال صديق خان: "أي ما هذا إلا أكاذيب الأولين التي سطورها في الكتب؛ جمع أسطورة كأحدوثة، والأساطير: الأباطيل والترهات والكذب، وقيل جمع أسطار وهو جمع سطر، والأول أوفق، والمعنى لم نر هذا الوعد شيئاً، وإنا رأينا أساطير الأولين"²

﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ قال الجوهري: "المكر: الاحتيال والخديعة"³، وقال الليث: "احتيال في خفية"⁴. وقال الراغب: "المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكرٌ محمود، وذلك أن يتحرى بذلك فعلٌ جميل، وعلى ذلك قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران/ 54]، ومذمومٌ، وهو أن يتحرى به فعلٌ قبيح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر/ 43]"⁵

وقال ابن الأثير: "مكر الله: إيقاعُ بلائه بأعدائه دون أوليائه، وقيل: هو استدراج العبد بالطاعات، فيتوهم أنها مقبولة وهي مردودة."⁶

وقال ابن منظور: "قال أهل العلم بالتأويل: المكر من الله تعالى جزاءً، سمي باسم مكر المُجَازَى كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، فالثانية ليست بسيئة في الحقيقة، ولكنها سميت سيئةً لازدواج الكلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]، فالأول: ظلم، والثاني: ليس بظلم، ولكنه سمي باسم

¹ الصحاح: 2/684.

² فتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان 9/143.

³ الصحاح: 2/219.

⁴ تاج العروس من جواهر القاموس لأبي الفيض محمد مرتضى الزبيدي: 14/147.

⁵ المفردات، ص: 772.

⁶ النهاية في غريب الحديث: 4/349.

الذنب لِيُعلمَ أنه عقابٌ عليه وجزاءٌ به، وَيَجْري مَجْرى هذا القول قولُه تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142]¹.

والمعنى: "لا تحزن يا مُحَمَّد على هؤلاء المكذِبين وعدمِ إيمانهم، فإنك لو علمت ما فيهم من الشر وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأسَ ولم تحزن، ولا يَضُقُّ صدرك ولا تقلق نفسك بمكرهم؛ فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم"².

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٢)

قال الجوهري: "الردف: المرتد، وهو الذي يركب خلف الراكب؛ وأردفته أنا، إذا أركبته معك"³، وقال ابن فارس: "الراء والبدال والفاء أصلٌ واحد مطرَّد يدل على اتباع الشيء؛ فالترادف: التتابع، والرديف: الذي يرادفك. وسميت العجيزة ردفاً من ذلك"⁴؛ وقال الراغب: "والرادف: المتأخر، والمردف: المتقدم الذي أردف غيره، قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (٩) [الأنفال: 9]"⁵.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي﴾ قال الراغب: "القص: تتبع الأثر، يُقال: قصصت أثره، والقصص: الأثر. قال تعالى: ﴿فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٦٤) [الكهف: 64]"⁶، والقصة: الأمر والحديث⁷.

¹ لسان العرب لجمال الدين بن منظور الأنصاري: 183/5.

² تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، ص: 609.

³ الصحاح: 4/1363.

⁴ مقاييس اللغة: 2/503.

⁵ المفردات، ص: 349.

⁶ المفردات، ص: 671.

⁷ الصحاح: 3/1051.

وقال ابن جرير: " يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك يا محمد يقصّ على بني إسرائيل الحقّ، في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمر عيسى، فقالت اليهود فيه ما قالت، وقالت النصارى فيه ما قالت، وتبرأ لاختلافهم فيه هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وغير ذلك من الأمور التي اختلفوا فيها، فقال جلّ ثناؤه لهم: إن هذا القرآن يقصّ عليكم الحق فيما اختلفتم فيه فاتبعوه، وأقروا لما فيه، فإنه يقص عليكم بالحق، ويهديكم إلى سبيل الرشاد"¹

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: 17] قال ابن

فارس: "وزعته عن الأمر: كففته، قال الله سبحانه: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٨٣)، أي يُجْبَسُ أولهم على آخرهم. وجمع الوازع وَزَعَةً، وفي بعض الكلام: (ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن)، أي إن الناس للسلطان أخوف"²

قال الرازي: "أما قوله: فهم يوزعون معناه: يُجْبَسُ أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيككبكبوا في النار؛ وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه، كما وُصفت جنود سليمان بذلك"³، فإن قيل: "وغير المكذبين أيضا يحشرون؟ قلنا: الحشر الذي يساق فيه إلى النار إنما يكون للمكذبين"⁴، فهو حشر خاص بعد حشر جميع الخلق المذكور⁵.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَّهٍ

دَاخِرِينَ﴾^(٨٧)

¹ جامع البيان: 494/19.

² مقاييس اللغة: 106/6، وينظر: المفردات، ص: 868.

³ مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي: 573/24.

⁴ تفسير السمعاني لأبي المظفر السمعاني: 116/4.

⁵ التحرير والتنوير: 40/20.

الصُّورُ: القرن، وقيل: القرن الذي كهيئة البوق¹ ينفخ فيه إسرافيل النفخة الأولى للفناء، والثانية للإنشاء، ولا يعلم كنه هذه النفخة إلا الله²، وقيل: إنه جمع صُورَة، كما الصوف جمع صُوفَة³، ومن قال: بهذا أبو عبيدة، وكلامه وإن كان محتملا من جهة اللغة، إلا أنه مردود بما هو ظاهر من الكتاب، وما هو مصرح به في السنة⁴.

﴿فَفَزَعَ﴾ الفزع: الذعر؛ قال ابن فارس: الفاء والزاي والعين أصلان صحيحان: أحدهما: الذعر، والآخر: الإغاثة.

فأما الأول فالفزع، يقال فزع يفزع فزعا، إذا ذعر...

والأصل الآخر: الفزع: الإغاثة؛ قال رسول الله ﷺ: (إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع)⁵؛ يقولون: أفزعته إذ رعبته، وأفزعته، إذا أغثته. وفزعت إليه فأفزعني، أي لجأت إليه فزعا فأغاثني.⁶

والفزع في الأصل: "مصدّر"، وربما جُمع على أفزاع، تقول منه: فزعت إليك وفزعت منك، ولا تقل فزعتك⁷

وقال الراغب: "الفزع: انقباضٌ ونفَارٌ يعتري الإنسان من الشيء المُخيف، وهو من جنس الجزع، ولا يقال: فزعت من الله، كما يقال: خفت منه"⁸.

والمعنى أنه إذا نفخ الصور: وسمع الناس ذلك الصوت، وهو في الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون. وعبر بالماضي للدلالة على تحققه ووقوعه، إلا أن الله يُكرم بعض خلقه فلا يفزعون، قال الرازي: "فالمراد إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة. قالوا: هم جبريل وميكائيل

¹ جامع البيان: 502/19.

² ينظر: التحرير والتنزيل: 308/7.

³ ينظر: مفاتيح الغيب: 28/13.

⁴ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر القرطبي: 20/7.

⁵ الحديث تتناقله كتب الغريب ولم أقف عليه في مصادر الحديث التي بين يدي، وقد عزاه الخطابي في غريب الحديث إلى

الواقدي، ينظر: غريب الحديث: 682/1.

⁶ معج مقاييس اللغة: 501/4.

⁷ الصحاح: 1258/3.

⁸ المفردات، ص: 635.

وإسرافيل، وملئ الموت، وقيل: الشهداء، وعن الضحاك: الحورُ وخزنةُ النار وحملة العرش¹، وقيل "وهؤلاء المستثنون هم عبادُ الله الذين آمنوا به واستقاموا على طريقه المستقيم.. كما يقول سبحانه فيهم: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾» (103: الأنبياء)²

﴿وَكُلُّ أُمَّةٍ دَاخِرِينَ﴾^{٨٧} "الدخور: الصَّغَارُ والذُّلُّ؛ يقال: دَخَرَ الرجل بالفتح فهو داخر"³
وقال ابن فارس: "الدال والخاء والراء أصل يدل على الذُّلُّ؛ يقال دَخَرَ الرجل، وهو داخر، إذا ذل؛ وأدخَرَه غيره: أذله"⁴، والداخر: الذليل المهان.⁵
قال الراغب: "قال تعالى: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾^{٤٨} [النحل / 48] ، أي: أذلاء، يقال: أدخَرته فدخَر، أي: أذللته فذلَّ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^{٦٠} [غافر / 60]"⁶.

¹ مفاتيح الغيب: 574/24.

² التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم يونس الخطيب: 297/10.

³ الصحاح: 652/2.

⁴ مقاييس اللغة: 333/2.

⁵ النهاية في غريب الحديث: 107/2.

⁶ المفردات، ص: 309.

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هداياتها.

ابتدئت هذه السورة بالأحرف المقطعة بالإشارة إلى القرآن الذي أتى بلغة العرب فأعجزهم، ولم يستطيعوا مجاراته، أو الإتيان بمثله، أو سورة منه رغم فصاحتهم، وتمايم بلاغتهم، واشتملت "على خمس قصص؛ الأولى: قصة موسى مع فرعون، الثانية: قصة النمل، الثالثة: قصة بلقيس، الرابعة: قصة صالح مع قومه، الخامسة: قصة لوط مع قومه، وما بقي منها حكم ومواعظ"¹.

وقد بينت هذه السورة أن القرآن هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة معذبون أسوأ العذاب و في الآخرة هم الأخسرون.

وتحدثت عن قصة موسى وأهله عند رجوعه من مدين إلى مصر بعد هجرته إليها، فذكرت أنه رأى ناراً وذهب إليها ليأتي أهله بقبس منها، فما إن وصل إلى مكانها حتى سمع نداءً يقول: ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ^{١٠} إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ^{١١} وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ^{١٢}﴾.

ثم تحدثت عما جرى بينه وبين فرعون وقومه على سبيل الإجمال، فذكرت أنهم جحدوا آياته، وزعموها سحرًا، فأفسدوا حياتهم، وأساءوا عاقبتهم، وصاروا عبرة لمن يأتي بعدهم.

وتحدثت عن داود وسليمان فأخبرت أن الله آتاها علمًا فضلها به على كثير من عباده المؤمنين، وأن سليمان شكر ربه الذي ورثه أباه في النبوة والملك، وعلمه منطق الطير وأعطاهما طرفا من كل شيء.

وذكرت أنه - تعالى - جمع لسلمان جنودًا من الجن والإنس والطير، فلما أتوا على وادي النمل قالت غملة لجماعتها أمرة ومحذرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^{١٨} فضحك سليمان لقولها، ودعا ربه أن يعينه على شكر نعمته التي أنعمها عليه وعلى والديه، ويوفقه لصالح العمل الذي يرضيه، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين.

¹ حقائق الروح والريحان: 371/20.

وذكرت أنه تفقد الطير التي جعلها الله من جنوده، فلم يجد الهدهد ضمنها، فعجب لتخلفه عن موقعه، وتوعده بالتأديب الشديد، ما لم يأتيه بعذر مقبول يقتضي تخلفه، فلم يطل غيابه حتى جاء قائلاً له: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

فلما فرغ من حديثه العجيب قال له سليمان: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وبعث معه رسالة إلى ملكة سبأ، وأمره بمراقبتها بعد وصول خطابه إليها، ليعلم منه كيف تتصرف عندما يحدق بها الخطر، فحمل كتابه وألقاه إليها، فجمعت أشراف قومها قائلة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ﴿٣٢﴾ فردوا عليها قائلين: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ فلما أحست منهم الميل إلى القتال دفاعاً عن البلاد ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أُذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ ورأت المصالحة بإرسال هدية إلى سليمان - عليه السلام - لترى أثرها عنده، فلما وصل الرسول بهديتها ردها سليمان إليها، وأخبرها بأن الله أعطاه خيراً مما أعطاه، ولم يقبل منها سوى الاستسلام، حتى لا يأتيهم بجنود لا قبل لهم بها، فيخرجوا من بلادهم أذلة صاغرين.

ثم طلب من جلسائه أن يحضروا لها عرشها قبل أن تأتيه مسلمة، فكان أسرعهم من عنده علم من الكتاب، حيث جاء به قبل أن يترد إليه طرفه، فشكر الله قائلاً: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، ثم طلب من أتباعه أن يُنْكِرُوهُ لها لتغيير هيئته، وليعرف مقدار فطنتها، فلما رآته علمت أنه عرشها إلا أنها لم تجزم وإنما قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾.

بعد هذا قيل لها: ادخلي القصر، فلما دخلته رأت صحنه فاعتقدته ماء، وكشفت عن ساقها، فقيل لها: إن ما تظنينه ماءً هو صرح أملس من زجاج، حينئذ قالت معترفة بخطئها في عبادة الشمس قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم حكى السورة قصة هود مع نبيه صالح وكفرهم... وتأمرهم على قتله، وأن الله عاقبهم على مكرهم بإهلاكهم أجمعين وأنجى صالحاً ومن معه من المؤمنين.

وذكرت قصة قوم لوط، الذين كانوا يأتون الذكران من دون النساء، وبينت لومهم إياهم على هذه الفاحشة النكراء، ما كان جوابهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (٥٦) فَأَنجَاهُ اللَّهُ وَأَهْلَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وأهلك سواهم من الكافرين وفيهم امرأته.

ثم ناقشت المشركين وقارنت بين معبوداتهم الضعيفة وبين الله الواحد القهار، وبدأت المناقشة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) وبينت آثار قدرة الله ونعمه: فذكرت أنه خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأَنْبَتَ به حقائق ذات بهجة، وأنه جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً دون أن يكون مع الله إله في خلق هذه الكائنات والنعم العظيمة.

ثم أعقبت ذلك ببيان كثير من النعم الجليلة التي لم يُنعم بها سوى الله، وساءلتهم في كل ذلك منكراً عليهم شركهم: ﴿أَأَلَّهُ مَعَ اللَّهِ؟﴾ (٦٠).

ثم عابت عليهم شكهم في الآخرة وقولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ (٦١) وزعمهم أن أمر الآخرة من أساطير الأولين، وأمرتهم بالسير في الأرض للنظر في عاقبة أمثالهم من المشركين: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٩).

ودعت نبيه - ﷺ - إلى عدم الاهتمام بإعراضهم، فذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٧٠) وتوعدتهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٢) وبقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٤).

ثم بينت أن هذا القرآن يقص علي بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون، وأمرت النبي بالتوكل على الله بقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩) وبينت أن خصومه يشبهون الصم العمى، فما هو بسمعهم ولا هاديهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨١).

وذكرت أنه إذا قرب وقوع القول عليهم - وهو ما وعدوه من البعث والعذاب - أخرج الله دابة من الأرض تكلمهم، وتكون حجة عليهم؛ لأن الناس صاروا بآيات الله لا يوقنون.

ثم بينت أنه يوم ينفخ في الصور يفرح أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ممن يثبتهم الله يومئذ، وأن الجبال في هذا اليوم تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، وأن أصحاب الحسنات يجازون يومئذ بخير منها، وأصحاب السيئات من الكفار يكون على وجوههم في النار.

ثم ختمت السورة ببيان أن الله - تعالى - أمر نبيه أن يعبد رب هذه البلدة التي حرّمها وهي مكة، وله كل شيء، وأمره أن يكون من المسلمين وأن يتلو القرآن، وأن يقول لقومه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ أَيْتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾¹.

¹ ينظر: التفسير الوسيط (مجمع البحوث) للجنة من العلماء: 7/1645-1648، وفي ظلال القرآن: 5/2624-2626، والتفسير الوسيط لطنطاوي: 40/265-267، وتفسير المراغي: 19/120، وحقائق الروح والريحان: 20/374-376.

الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة النمل من الآية (59) إلى آخر السورة:

كل ما سبق كالمقدمة لما يأتي، فما وُجد التنظير إلا للتطبيق، ولا يكون التطبيق إلا بتحديد الخطوات، وترتيب المراحل. وأول خطوة يلزم القيام بها في مشروع الهدايات هي الدخول إلى غمار القرآن الكريم بالقواعد التي سبق ذكرها، وبغيرها مما نص عليه علماء التفسير، وعلماء الصول للبحث عن الهدايات بين ثنايا الآيات، وأمّهات التفسير، وكتب العلماء، ثم فحصها واختيار الصحيح منها الذي يتوافق مع التعريف، ويقبله النظم الحكيم، ثم تأتي المقارنة بينها لإظهار التناسب بينها، وبيان ما يختص به بعضها، للوصول في النهاية إلى تفعيلها في أرض الواقع، وانتظار ثمارها في حينها.

وقد قسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول، تناولت في الفصل الأول الهدايات الجزئية والكلية، وفي الفصل الثاني المقصد الذي تدور عليه آيات السورة، وفي الفصل الثالث حاولت ربط الهدايات بواقع الأمة، فالله المستعان، وعليه التكلان.

الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة.

من تأمل معاني السور وهداياتها يدرك أن منها ما يمكن أن يكون قاعدة عامة تندرج تحتها مآث، أو آلاف الجزئيات، بحيث لو سار الناس عليها لحققوا أهدافا عدة، وتفادوا مشاكل كثيرة، ومنها ما يكون متعلقا بجزئيات من جزئيات الدين، أو خاصا بمجال دون مجال، أو أشخاص دون أشخاص...، فاصطلح على الأول بالهدايات الكلية، وعلى الثاني بالهدايات الجزئية، شأن هذا شأن الحديث النبوي الذي منه ما يعالج قضية معينة، أو قضايا محصورة، ومنه ما يعم جميع مجالات الحياة، أو تندرج تحته الأهداف العظمى للإسلام؛ واصطلح عليه بجوامع الكلم، وألفت فيه مؤلفات عدة؛ كجامع العلوم والحكم لابن رجب الجنبلي، وجوامع الدعاء لخالد بن عبد الرحمن الخريسي وغيرهما.

لذا ارتأنا في هذه الدراسة أن نقسم هذا الفصل إلى قسمين: قسم نخصه للهدايات الجزئية، وقسم نخصه للهدايات الكلية، ونسأل الله التوفيق والسداد في استخراجهما، والعمل بهما ثم تنزيهما على أرض الواقع.

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة.

القرآن الكريم كتابٌ لا تنقضي عجائبه، ولا تنفدُ معانيه، ولا تُعد أو تُحصر هداياته، يدل بالمنطوق والمفهوم، والمطابقة والتضمن والالتزام، والتصريح والكناية...، من دلالاته ما هو ظاهرٌ يدركه كلُّ عربي، ومنها ما هو خفي تحتاج إلى التأمل والتدبر، وإعمال الفكر وإجالة الخاطر، يُرسخ هداياته في الناس بطرق عدة، حيث يأتي بها صريحةً في مكان، ومشاراً إليها في مكان، وموحى بها في ثالث وكذا، تتكامل الآيات ولا تتقاطع، تنسجم ولا تتناقض؛ وهذا ما يجعل المتدبر لآياته، الفاتح قلبه لهداياته يجزم بأنه تنزيلٌ من رب العالمين.

وقد رام هذا البحث -الذي هو ضمن مشروع- استقصاء هدايات القرآن الكريم (في الحزب التاسع والثلاثين الذي تضمه سورتا النمل والقصص) قدرَ الوسع، يجمع كل ما في بطون كتب التفسير وغيرها، ويضيف ما فتح الله على صاحبه من هدايات، فلا يتقيد بالخفي دون الظاهر، أو المفهوم دون المنطوق، بل يضمُّ كل ما ينطبق عليه تعريف الهداية، وإن كان التركيز بشكل أكبر على المعاني الدقيقة، والإشارات الخفية.

ومما هو معلوم أن القرآن الكريم يأتي بالمعنى الواحد بأساليب مختلفة، وطرقٍ شتى، في مواضيع متعددة، كما هو ظاهر من تكرار القصص¹، فقد جاءت مبسوبة في موضع، وموجزة في آخر، ومقتصرة منها على ما يخدم المقصد في ثالث، وهكذا، فسبحان من أنزل هذا الكتاب الذي تحار فيه العقول، وتمتلئ بمحبته القلوب.

وللإشارة فالهدايات القرآنية -باعتبار حقيقتها دون مصطلحها- موجودةٌ في القرآن الكريم منذ أن أنزله الله تعالى، أدركها الصحابةُ والتابعون، وتأملها العلماء والمتدبرون، وتناقلها الفقهاء والمفسرون، إلا أنهم لم يخصصوها بهذا الاسم، ولم يدونها بهذه الطريقة إنما كانوا يرمزون إليها رمزا، أو يشيرون إليها إشارةً للتنبيه عليها فقط، وإلا فهي راسخة في أذهانهم، عاملةٌ بها قلوبهم، مقشعةٌ منها جلودهم. لذا فإني أبحث في كتب التفسير وغيرها؛ فإن وجدتُ إشارةً -ولو خفيفة- صُغت الهداية ثم أحلتُ، وهذا هو الغالب، وقد أتأمل الآية فيفتح الباري علي بما يشاء فأصوغها دون إحالة.

¹ ينظر: التحرير والتنوير عند حديثه عن قصص القرآن في المقدمة السابعة: 69/1.

وإن أحلت على مصدر فلا يعني أنه مختص بأصل الهداية، فقد يكون مختصاً بها وقد لا يكون؛ والغرض من الإحالة هو أن يرجع إليه الباحث للمقارنة، والوقوف على أصل الهداية، لأن كتب التفسير - كما هو معلوم - ينقل لا يحقها عن سابقها، إما بإحالة وإما بدونها.

ومما يجدر التنبيه عليه أن بعض الهدايات قد تظهر بادي الأمر بعيدة عن الآية، لكن عند التأمل، وإعمال الفكر، وتتبع الروابط تظهر العلاقة بينهما. وغالبا ما أبين وجه الهداية من الآية، إما بالتصريح كأن أقول: (وجه الهداية)، أو بذكر ألفاظ توحى بالتعليل - كأن أقول: لأن كذا، أو فالله ذكر كذا وكذا، أو شيء من هذا القبيل -، وقد لا أستطيع التعليل فأترك المعنى للباحثين لعل الله يفتح عليهم ببيان الوجه من الآية.

وللأمانة العلمية فإن جل ما في البحث منقول عن أهل هذا الشأن من المفسرين وغيرهم، فما فيه إحالة، فأصل المعنى لمن أحلت عليه، والصياغة من العبد الضعيف، لذا لزم الباحث أن يرجع إلى المصادر التي أحيل عليها ليقارن بينها وبين المعنى الذي صُغته في قالب هداية، ثم يحاكمي ولا يحاكم من نقلت عنهم؛ لأن كلامهم قد يكون في سياق فأخذه وأعممه بناء على الأشباه والنظائر، أو اعتمادا على الأصول العامة للشريعة، فما كان من صواب فالفضل لله وحده، وما كان من خطأ فمني، وليس لمن نقلت عنهم فيه نصيب، وأسأل الله التوفيق والسداد.

الآية التاسعة والخمسون، قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾

﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

- (1) البدء بحمد الله والصلاة والسلام على رُسل الله يفتح قلوب السامعين للكلام، فيثمر بإذن الله¹، يؤخذ هذا من أمر الله رسوله بحمده، والسلام على رسله لتعلم قريش أنه لا يريد التكبر عليها، أو التنقيص من قدرها، إنما يريد أن يُبلغها رسالة ربها، ءفتفتح آذانها وقلوبها.
- (2) المناظرة الناجحة هي التي يبدأ فيها المناظر بالثناء على الله الذي هداه إلى الحق²، ليُعلم نفسه أن هداية مناظره إنما تكون بتوفيق الله تعالى، لا بقوة علمه، ولا بنباهة عقله؛ ووجه هذه الهداية أن الله أمر نبيه قبل البدء في المناظرة بحمده والثناء عليه.
- (3) من أدب المناظرة البدء بالثناء على الله، ثم السلام على رُسل الله، ثم الشروع في الموضوع مباشرة³، ووجه الهداية ظاهر من ترتيب الآية.
- (4) من شروط الداعية إلى الله تَعَلُّم علم المناظرة، إذ به يُقنع المدعو بوحداية الله، أو يُفحِّمه ويُسكِّته⁴، ووجه هذه الهداية الانطلاق من المسلّم به وهو ضعف الأصنام، وقوة الخالق.
- (5) النظر في اللوازم العقلية يُوصل إلى الحقائق الكونية التي توصل إلى مُكوِّنها ومدبرها سبحانه وتعالى⁵، هذا؛ لأن الآية انطلقت من كثرة الشركاء الدالة على ضعف كلٍّ منهم على حدة، والضعف علامة الخلق، والخلق دليل على الخالق، والخالق يجب أن يتصرف في خلقه وحده، فيلزم من هذا كله إفراده بالعبادة.
- (6) أهل القرآن يلحّثهم من الله سلام في العاجل، وسلام في الآجل⁶؛ أما العاجل: فلكونهم هم المصطفين كما دل عليه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

¹ ينظر الكشف: 3/375.

² ينظر: معارج التفكير، ودقائق التدبر لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني: 9/127.

³ نفسه: 9/127.

⁴ نفسه: 9/126.

⁵ ينظر معارج التفكير، ودقائق التدبر: 9/126.

⁶ ينظر تفسير التستري، ص: 116.

لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

﴿فاطر: 32﴾، وأما الآجل: فلما ورد في حقهم من الفضائل التي يصعب حصرها في هذا المقام، أكتفي بحديث واحد يُلَخِّصُ لنا قدر صاحب القرآن عند الله، فقد جاء في صحيح مسلم¹ عن عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث، لقي عمر بعُصفان²، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبنى، قال: ومن ابن أبنى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين³).

7) رسالة الله لا يحملها إلا المصطفون من عباده رُسلا أو أنبياء، ويلحق بهم العلماء والدعاة، باعتبارهم ورثة لهم⁴ كما دل عليه قول النبي ﷺ: (إن العلماء ورثة الأنبياء)⁵

8) يُستحسن الدعاء بالسلام والخير للعلماء والدعاة المصلحين؛ لأنهم منارات الهدى، ومصابيح الدجى التي تستضيء الأمة بنورها؛ دليل هذا أمر الله بعبادته بالسلام على المصطفين من عباده دون تحديدهم، فيدخل العلماء ضمنهم بدلالة العموم (عباده)، ودلالة الحديث المتقدم في وراثة العلماء إرث النبوة⁶.

9) يستحسن للداعية إلى الله إذا كان في مقام مناظرة أهل الكفر والشرك المبادرة إلى طرح الأسئلة⁷ التي تخلخل الأذهان، وتزعزع أركان الموروث عن الآباء والأجداد؛ دليل هذا بدء الله خطاب

¹ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعمل به: 559/1، رقم: 817.

² عسفان بضم العين المهملة وسكون السين المهملة أيضاً على وزن فُعْلان، بلدة تاريخية عامرة، تقع شمال مكة على ثمانين كيلاً، على المحجة إلى المدينة المنورة، يلتقي فيها واديان: وادي فيدة، ووادي الصغو، فيها آبار عذبة قديمة محصنة .. منها بئر التفلة تشبه في عذوبتها بئر الجعرانة، (معالم مكة التاريخية والأثرية، ص: 188).

³ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعمل به: 559/1، رقم: 817.

⁴ ينظر: معارج التفكير، ودقائق التدبر: 127/9.

⁵ أورده البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، بدون إسناد، أو تعليق جازم: 24/1، والإمام أحمد في المسند: 46/36، رقم: 21715، وحسن إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط، وكذلك العلامة الألباني في مشكاة المصابيح: 74/1.

⁶ ينظر: التحرير والتنوير: 8/20.

⁷ ينظر: معارج التفكير، ودقائق التدبر: 128/9.

المشركين بالسؤال عمن اتصف بالخيرية، أربُّ العالمين أم آلهُ المشركين، فبطلت الآلهة لضعفها، وثبت الواحد الديان؛ لأنه متصف بالجلال والكمال.

(10) سيبقى الناس يسلمون على الأنبياء إلى قيام الساعة؛ دليل هذا العدول عن نصب المفعول المطلق إلى رفعه للدلالة على الثبوت واللزوم¹.

(11) للمصطفين من عباد الله سواء كانوا أنبياء أو رسلا أو أولياء الأمن التام في الدنيا والآخرة²، يُستشف هذا من لفظ (على) الدال على العلو المجازي، فكأنهم تحته وهو فوقهم، ولفظ (سلام) الخالي عن التقييد، أفاد الدنيا والآخرة.

(12) من النعم التي يجب على أمة سيدنا مُحَمَّد ﷺ شكرها عدمُ الهلاك الجماعي المؤدي إلى الاستئصال³؛ يُستشف هذا من أمر الله نبيه ﷺ بحمده بعدما قصَّ عليه هلاك من قبله.

(13) عند الثناء على الله ينبغي اختيار الألفاظ الدالة على الكمال، أفاد هذا لفظُ الجلالة (الله) الذي هو علم دالٌّ على جميع صفات الكمال⁴.

(14) من أحسن ما يسعى إليه المؤمن هو الوصول إلى مرتبة العبودية؛ لأن الله أضاف المتَّصفين بها إلى نفسه، بقوله: (عباده) ليشرفهم، ويعظمهم، ويُعلي من شأنهم حتى تتشوف النفوس إلى مرتبتهم؛ وأكَّد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَصْطَفَى﴾⁵.

(15) يجوز تسفيه عقول المشركين ومَن على شاكلتهم مِمَّن اتبعوا الهوى ودَعَوْا إليه؛ هذا إذا كان التسفيه يدعوهم إلى مراجعة أعمالهم، أو يجعلهم منبوزين عند أتباعهم، فمن يرتكب فاحشة اللواط مثلاً، أو يدعُو إليها، أو يجتهدُ في سن قوانينٍ تقرُّها يُقرَّعُ بأنه خالف حتى نظام الحيوان؛ يستفاد هذا من تبكيت الله عبَاد الأصنام الذين كانوا يجتهدون في تثبيتها في أذهان الناس وعقولهم، إذ أتى بلفظ (خير) الدالّ على التفضيل في الأصل، في مكان لا يقول فيه أحد بالتفضيل⁶.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 7/20.

² نفسه: 7/20.

³ ينظر: مفاتيح الغيب: 562/24.

⁴ ينظر نظم الدرر: 184/14.

⁵ ينظر نظم الدرر: 184/14.

⁶ ينظر: إرشاد العقل السليم: 293/6، وفتح القدير: 168/4.

16) لا بأس في إقرار المخطئ على خطئه، والتسليم له به على أن يُجعل رأيه مقدمةً لنتائج تلزمها؛ يُستفاد هذا من إثبات الخيرية للأصنام -على رأي بعض المفسرين- مع أنها شرٌّ محضٌ بإجماع العقلاء، ليلزموا بأن الله خيرٌ منها، وهذا يحتم عليهم التمسك بالأخير¹ وترك الأقل منه².

17) لا تثبت العقيدة إلا بالأدلة النقلية أو العقلية، أو هما معاً؛ لأن أمرها خطيرٌ، وشرّها مستطير، فإذا اعتقد المرء صحة شيء أو ضعفه بناءً على التقليد الأعمى، سيُغيره كلما تغير مُعتقدُ المقلد؛ يستشف هذا من سياق الآية، فقد جاءت لتقرير التوحيد، ودحض الشرك، بالأدلة والبراهين كما هو صريح قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ﴾³.

18) عند مناظرة المشركين ينبغي طرح الأسئلة التي يمكن أن يُجيب عنها كلُّ فرد منهم⁴، لتكون مقدمةً لإلزامهم جميعاً بمضمون أجوبتهم حتى تقوم عليهم الحجة؛ دلّ على هذا الاستفهام التقريري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الذي يكون جوابه من الجميع: الله خير من أصنامنا.

19) الله ﷻ مباينٌ لجميع خلقه في أسمائه وأوصافه وأفعاله⁵، يُستشف هذا من لفظ التفضيل (خير) الخارج عن بابه -على رأي بعض المفسرين- للدلالة على أنه لا قدر مشترك بين الخالق والمخلوق.

20) النعمة على الأخ في الله عموماً وفي الدعوة خصوصاً، نعمةٌ على أخيه أيضاً⁶؛ يستشف هذا من أمر الله نبيه ﷺ بحمده على إهلاك أعداء أنبياء الله ورسله، فكأنَّ هذه النعمة نعمةً على رسول الله ﷺ.

¹ جاء اسم التفضيل من خير على وزن أفعل كما في قول الشاعر: بلال خير الناس وابن الأخير. ينظر شرح مقامات الحريري: 93/1.

² ينظر: البحر المحيط: 256/8.

³ ينظر: أيسر التفاسير: 37/4.

⁴ التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب: 262/10.

⁵ ينظر: البحر المحيط: 256/8.

⁶ ينظر: روح البيان: 360/6.

(21) كل من قام بالدعوة إلى الله على طريق الأنبياء، سيكون له أعداء لا محالة، إلا أن الله سيهلكهم ولو بعد حين، فما عليه إلا الصبر، واليقين في وعد الله¹؛ ووجه هذه الهداية ما حدث لقريش مع رسول الله ﷺ.

(22) يستحب للعلماء أن يثنوا على من سبقوهم، لأنهم مهّدوا لهم الطريق، وذللّوا الصعاب، وبينوا السبل الكفيلة لنجاح الدعوة، وأيضاً لأن الله جعلهم عبرةً لهم يتأسون بهم؛ يُستشف هذا من أمر الله رسوله بالسلام على الأنبياء والمرسلين السابقين.

(23) نجاة الرسل ومن اتبعهم، وهلاك الكفار ومن والاهم سنة ثابتة لا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة؛ يُستشف هذا من أمر الله رسوله بحمده على إهلاك أعداء الأنبياء، وقد أهلك الله أيضاً أعداء سيدنا محمد ﷺ في بدر وغيرها.

(24) ينبغي تذكير الناس بحمد الله بين الفينة والأخرى حتى لو كانوا من أهل العلم والفضل والصلاح، ووجه الهداية أمر الله سيدّ الحامدين مُحمّداً ﷺ بحمده.

(25) لا يكون الحمد إلا لله تعالى، ف(ال) في (الحمد) دالةٌ على استغراق جميع المحامد، واللام في (الله) دالةٌ على الحصر والتخصيص، فصارت النتيجة: كلُّ المحامد خاصةٌ بالله تعالى؛ وما كان منها للمخلوق فعلى جهة التبعية وليس بالأصالة، لأن أصل النعم كلّها من الله.

(62) يجوز تفضيل بعض الصحابة على بعض مع الإقرار بأنهم جميعهم خيرٌ هذه الأمة بعد نبيها ﷺ؛ فالله تعالى أثبت الاصطفاء لعباده، وأعظم المصطفين الأنبياء والمرسلين، وهؤلاء ثبت التفاضل بينهم بقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: 153].

(27) يستحسن أن لا يُذكر أهل الباطل بأسمائهم في الأماكن المقدسة، فالله تعالى لما ذكر معبودات المشركين ذكرهم بالاسم الموصل - الذي هو: (ما) في قوله تعالى: (أما تشركون) - تجهيلاً لهم، وتنقيصاً من قدرهم.

(28) الاصطفاء نتيجةٌ يلزم أن تكون لها أسباب، وأهم أسبابها التعرفُ على الله محبةً وطاعة.

¹ نفسه: 360/6.

(29) من الأدب عند الشروع في الأمور المهمة البدء بحمد الله أولاً، لأنه هو المتفضل بها، ثم السلام على رسل الله ثانياً لأنهم بينوا السبل التي تحققها؛ يستشف هذا من نظم الآية الكريمة.

(30) تشير الآية إلى أنه لا أحد يعلم أنه وليُّ الله فضلاً عن كونه يعلم ولاية غيره؛ لأن الولاية اصطفاءً، والاصطفاء أثبتته الله لنفسه، وأكّد هذا المعنى بالاسم الموصول المفيد للإبهام.

(31) يُسلّم على المصطفين ربُّ العالمين، وملائكته، وأنبيأؤه ورسله، ومن لا ندري من خلقه، هذا؛ لأن الآية ذكرت السلام عليهم دون تحديد من يسلم عليهم فأفادت العموم، لأن حذف المعمول من بين أغراضه الدلالة على العموم، كقول الله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1].

(32) الأنبياء والرسل، والعلماء والدعاة هم خيارُ الخيار، يستشف هذا من لفظ (اصطفى) على وزن (افتعل) الذي من بين معانيه الدلالة على المبالغة.

(33) في الآية إشارة إلى طريقة جميلة في الدعوة إلى الله، وهي توجيه الخطاب إلى السيد أو الفاضل على أن يتبعه أتباعه، أو المفضلون عنه، دل على هذا أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالحمد والسلام مع أن جميع عباده مطالبون بحمده والسلام على رسله.

(34) في الآية إشارة إلى أن النبوة فضل من الله، وكذلك ماكان من جنسها كالعلم وحسن الخلق ونحو ذلك، دل على هذا فعل (اصطفى) المبني للمعلوم المفيد بأن الاصطفاء من الله.

(35) في الآية إشارة إلى أن كل الناس عبيد لله إما اختياراً أو اضطراراً، فمن عبده اختياراً فهو المصطفى المكرم، ومن عبده اضطراراً فهو المنبوذ المهان؛ دل على هذا لفظ (العباد) المضاف إلى الله، فقد جرت عادة القرآن على إطلاق لفظ العباد على المختارين كما في هذه الآية وفي قوله تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وإطلاق لفظ العبيد على الجميع كما في قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

(36) في الآية إشارة إلى أن معبودات الناس كثيرة، فلا تنحصر في المعروف عند العرب كالأصنام ونحوها، فقد يكون المعبود مالا، وقد يكون جاهاً، وقد يكون هوى...؛ دل على هذا عدم التقييد بما كان عند العرب.

(37) في الآية إشارة إلى أن شرك الناس سيبقى إلى أن يشاء الله، فلا يموت بهدم الأصنام في جزيرة العرب، ولا في قلوب عابديها، ولا بإقامة الأنبياء الحجة على العباد؛ دل على هذا الفعل المضارع (يشركون).

(38) في الآية إشارة إلى أن المعبودات تتغير بتغير الأزمان، وتبدل الأشخاص، فقد يتفق جميع الناس أو على الأقل معظمهم على أن الصنم المعبود عند قوم ما، إنما هو حجارة لا تنفع ولا تضر، ومع ذلك يتخذون معبودا آخر ينسبون له ما كان ينسبه من كان قبلهم إلى صنمه؛ دل على هذا إطلاق الشرك، والإتيان بالمضارع؛ ويؤيد هذا واقعنا المعاصر؛ فالناس في الغالب مقتنعون بأن هوبل مثلا إنما هو صخرة لا تنفع ولا تضر، لكن بعضهم جعل الإله هو السبب الذي يقوم به، فلا يؤمن بتأثير المسبب الحقيقي، وبعضهم جعل الإله دولةً معينة، فلا يؤمن بقوة الله التي لا يقف أمامها أي قوة وهكذا.

الآية: الستون، قال تعالى: ﴿أَمْنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ

يَعْدِلُونَ ﴿

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(39) تشير الآية إلى حقيقة كونية وهي أن السماوات سبعٌ متطابقة يغلف الخارج منها الداخل، وأنها جميعاً قد تمايزت عن السماء الدخانية الأولى، في بدء خلق الكون، وأن الأرضين سبعٌ متطابقة كذلك يغلفُ الخارج منها الداخل، وأنها قد تمايزت عن الأرض الابتدائية التي نحيا عليها؛ يؤكد هذا ذكر الأرض دوماً في كتاب الله مفردة إلا في موضع واحد، بينما ذكرت السماء بلفظ الجمع والإفراد¹.

(40) في جمع الله السماوات وإفراد الأرض إشارةً إلى أن السماوات لا يمكن للإنسان أن يحيط بها ولو بلغ في العلم مداه، ولا يطلع على عددها أو كنهها إلا بإخبارٍ من العليم الحكيم، بينما يمكن له أن يعلم الأرضين السبع في يوم من الأيام؛ لذلك اكتفى بذكرها بالإفراد في أربعمئة واحد وستين موضعاً في القرآن².

(41) في الآية دليل على أن أفعال العباد كلها خيرها وشرها من خلق الله³، هذا؛ لأن الأرض مخلوقة والإنسان مركَّبٌ منها، والمركَّب من المخلوق مخلوق قطعاً.

(42) عند التفكير في شيء ما يجب التفكير أولاً في مقره؛ يُستشف هذا من بدء الله آياته الكونية بذكر السماوات التي هي مقر الملائكة، ثم الأرض التي هي مقر الإنسان⁴.

¹ ينظر السماء في القرآن للدكتور زغلول النجار، ص: 148.

² نفسه، ص: 148.

³ ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: 2906/9.

⁴ ينظر البحر المحيط: 258/8.

(43) النعم لها أصول وفروع، والله هو الخالق لها جميعها؛ وفي هذا رد على المشركين الذين ينسبون بعض الأمور الصغيرة إلى آلهتهم مع أنهم يُقرون بأن الأمور العظيمة كخلق السماوات والأرض لله وحده¹.

(44) لا يشك عاقل في كون السماوات والأرض من خلق الله، إنما تكون الشبه فيما سببه الإنسان، كالشجرة يَعرسها فيسقيها فتنبث، فيُتوهم أنها من فعله؛ لذا التفتت الآيات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم لتقطع هذه الشبهة، وتثبت أن الجميع من عند الله².

(45) لا تثبت الدعوى إلا إذا أقام عليها صاحبها بيناتٍ، ولم يقم أحدٌ بمعارضتها؛ ووجه هذه الهداية أن الله أثبت لنفسه الخلق، وقَدَّم عليه البراهين، وطلب من المخالفين معارضته فلما لم يفعلوا ثَبَّتِ القضية؛ لذا لما سئلوا عَمَّن خلق السماوات والأرض قالوا: خلقهما الله³.

(46) في الآية إشارة إلى الاعتناء بالجمال، وتربية الحس الذوقي، فعبارة (بَهجة) تشير إلى كل ما يُدخل السرور على النفوس، ويُريِّها على الذوق الجمالي⁴.

(47) في الآية دليل على خطأ بعض النظريات السابقة - والتي ما زال لها أنصار إلى يومنا هذا - القائلة بأن مصدر المياه الموجودة في الأرض خزاناتٌ تحتها، أو تحت الجبال...، ووجه خطأ النظرية لفظ (أنزل) الدالّ على كون الماء من أعلى وليس من أسفل، ولفظُ (مِن) المبيّنة للمصدر الذي هو السماء⁵.

(48) في جمع الله السماوات وإفراد الأرض إشارة إلى أن السموات لا يمكن للإنسان أن يحيط بها ولو بلغوا في العلم مداه، ولا يطلع على عددها أو كنهها إلا بإخبار من العلم الحكيم، بينما يمكن له أن يعلم الأرضين السبع في يوم من الأيام، لذلك اكتفى بذكرها بالإفراد في أربعمئة واحد وستين موضعاً في القرآن⁶.

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 562/2.

² ينظر تفسير البضاوي: 168، ومفاتيح الغيب: 562/2.

³ ينظر الخواطر للشعراوي: 10812/17.

⁴ نفسه: 10812/17.

⁵ ينظر تفسير الآيات الكونية للدكتور زغلول النجار: 220/4، وموقع جامعة الإيمان، مقال بعنوان: (أصل الماء) نشر يوم

الثلاثاء 22 يناير 2013 http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1674

⁶ نفسه، ص: 148.

(49) لا يوجد إنسان يشك في كون السماء والأرض من خلق الله، لكن قد يشك في الأشياء التي يكون للإنسان دخل فيها كالنبات والزرع، لذا ذكر الله السماوات والأرض بضمير الغائب، فلم أتى إلى النبات عدل إلى ضمير التكلم ليشير بأن النبات أيضا من عنده، وأن الإنسان إنما يقوم بالأسباب، أما البذرة والماء، والتربة فمن خلق الله، وقد بين هذا في موضع آخر صراحة فقال ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: 63].

(50) من علامات البليغ أنه يأتي بألفاظ جامعاتٍ، تدل على معاني متعددة تصلح جميعها لأن تكون من مقصوده؛ يستشف هذا من لفظ (يعدلون) الذي يدل على المساواة بين شيئين أو أشياء، وعلى الجور والانحراف، والمعنيان صالحان لأن يكونا من مقصود الله تعالى، فهم جعلوا الله مساويا يتصرف معه في الكون، وأيضا عدلوا عن طريق الحق وانحرفوا إلى طريق الغي والضلال.

(51) تشير الآية إلى أن الإنسان ينبغي أن لا يخشى ضيق الرزق على أبنائه ومن يعول، لأن الله بين أن حياة الإنسان قائمة على الله، فكيف يخشى على أبنائه مع أنه لا يملك حتى مقومات نفسه؟¹

(52) يجوز تبكيك من يقر بشيء قولاً ويخالفه فعلاً، أو من يعترف بشيء للخالق أو للمخلوق قولاً، ثم يصرفه إلى غيره فعلاً، هذا؛ لأن الله بكّت كفار قريش بالاستفهام التقريري بقوله تعالى: ﴿أَأَلِهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ مع أنهم يقولون بجميع ما ذكر أنه لله².

(53) ثمرات الظاهر غذاء النفوس وثمرات الباطن غذاء القلوب³، ذلك أن الله امتنّ على عباده بالأرض وما فيها، والسماء وما أنزل منها، وكلّ هذا يساعد على حياة النفوس، أما التأمل فيها واستشعار عظمة الخالق من خلالها، فيغذي القلب، فيحيي حياة السعداء.

(54) الداعية الناجح في دعوته هو الذي يبدأ في تعريف العباد بربهم قبل الأمور الأخرى؛ لأن الله بدأ بنفسه فعرفها لعباده، ثم ذكر ما يحتاجه الناس من ماء وحدائق...⁴.

¹ ينظر التحرير والتنوير: 10/20.

² ينظر روح المعاني: 216/10.

³ ينظر لطائف الإشارات للقشيري: 43/3.

⁴ ينظر: زهرة التفاسير لحمد أبي زهرة: 5470/10.

(55) في تعبير الله عز وجل ب(بھجة) -التي هي من الكماليات- إشارة إلى أن الذي تكفل بالكماليات سيتكلف بالضروريات من باب أولى¹، فلا يخافن أمرؤ من ضياع شيء يحتاج إليه، سواء أكان هينا عليه أم عظيما.

(56) في الدعوة إلى الله ينبغي البدء بالدليل الظاهر² فالأظهر وهكذا؛ لأن الله بين في الآية التي قبل هذه الفرق بين رب العالمين وما يزعمون من الآلهة، وبدأ هذه بدليل أوضح منه وهو الخلق والتدبير، وهذا يجعل الداعية مقيما للحجة على العباد حتى لا يجدوا عذرا عند الله.

(57) من لم يشكر نعم الله يستحق التوبيخ والتقريع؛ يستشف هذا من تعريض الله بالمشركون بقوله: (لكم)³.

(58) قد يكون العدول عن المخاطب أقوى في ردعه وتبكيته من مواجهته وتعيينه عند خطابه، يشعر بهذا عدول الله عن ضمير الخطاب في قوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ إلى ضمير الغيبة بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾⁴، إذ كان يقتضي ظاهر الكلام أن يقول: (بل أنتم قوم تعدلون)، والعدول عن الظاهر لا يكون إلا لنكته.

(59) السماء خلقت مختلف عن الأرض، والماء خلق مختلف عن السماء... فاتخاذ هذه الأجناس وتوأومها دليل على أن مدبرها واحد هو الله تعالى⁵.

(60) في الآية دليل على إثبات المعاد؛ لأن الذي خلق يستطيع أن يعيد ما خلق بعد أن يفنى من باب أولى⁶؛ وقد جاء التصريح بهذا المعنى في آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ وَقَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 88-89].

¹ ينظر الخواطر للشعراوي: 10813/17.

² ينظر: زهرة التفاسير: 5470/10.

³ ينظر التحرير والتنوير: 10/20.

⁴ ينظر الكشف: 376/3.

⁵ ينظر تفسير الماتريدي: 126.

⁶ ينظر نظرم الدرر: 186/14.

- (61) أول الذنوب العدول عن الحق، ثم تلحقه المصائب والطوام؛ لذا قدمه الله على غيره¹، فهو في الحقيقة نتيجة لسبب الجهل بالله، وسبب لكل معاصي الله سبحانه وتعالى.
- (62) ينبغي البدء بدليل الخلق عند نقاش الملحد، فنسأله عَمَّنْ خَلَق؟ فإن قال: إن غير الله يخلق، نطالبه ببيان هذا الخالق ومخلوقه، وإن عجز -وهو قطعاً يعجز- لزمه الاعتراف والخضوع للخالق الذي هو رب العالمين؛ ووجه الهداية تقديم لفظ (خلق) على سائر ما يأتي من عند الله.
- (63) الخلق دليل الألوهية، فهي لازمة من لوازمه، فمن ادعاها يلزمه أن يثبت لنا ما خُلق، ووجه الهداية البدء بالخلق في معرض إثبات ألوهية الله تعالى.
- (64) في الآية ردٌّ على غلاة الفلاسفة القائلين بقدم الكون، بدليل لفظ (خَلَق) الوارد بصيغة الماضي التي تفيد بأصل وضعها الحدوث.
- (65) العلو أفضل من الدنو؛ ووجه الهداية تقديم الله السموات على الأرض في الذكر، وإن كانت الواو لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً في أصل وضعها اللغوي، إلا أنها تُفيد معنى ونكتةً في كلام الباري ﷻ.
- (66) يجوز الامتنان على (الغير)² إذا كان يؤدي إلى تحريك ضميره ليصل إلى المقصود، نأخذ هذا من امتنان الله على خلقه بنعمه من أجل أن يُؤخِّدوه ولا يشركوا به شيئاً.
- (67) الأصل في الامتنان: ذكرُّ الأصول دون الفروع؛ لأنها أوقع في النفس، وأخصر في الاستدلال، وكلما كان الدليل قصيراً مركّزاً كان وقعُه في النفس قوياً؛ ووجه الهداية ذكرُّ الله السموات التي هي مصدر الأمطار، والأرض التي هي مصدر الطعام.
- (68) الحسنُ مطلوب من المؤمن في كل أموره، في تدينه وعبادته، وأخلاقه، وسلوكه، ولباسه...، ووجهُ الهداية امتنان الله على عباده بالحدائق الجميلة (بهجة).
- (69) عدولُ المكلفين (الإنس والجن) عن الحق إلى الباطل، أو جعلهم مخلوقاً عديلاً لله تعالى قديمٌ، وسيبقى إلى قيام الساعة؛ ووجه هذه الهداية ضميرُ الغيبة (هم) الذي يشمل كل غائب سواء أكان قبل النبي ﷺ، أم أتى بعده، ويؤكد هذا المعنى الفعلُ المضارع (يعدلون) الدالُّ على التجدد والاستمرار.

¹ ينظر: حدائق الروح والريحان: 20/21.

² بعض اللغويين أنكروا هذه الصيغة؛ لأنَّ غَيْرُ من الألفاظ الملازمة للإضافة، لكن وضعتها جرياً على المعتاد.

(70) يجب على المسلمين إن أرادوا العزة والتمكين في الأرض أن يقوموا بأسبابها أولاً، ثم يعتمدوا على الله أولاً وأخيراً، دليل هذا أن الله جعل الماء سبباً — كما يدل عليه لفظ (به) — للحدائق، وكان بإمكانه أن يُنبِتها بدونه، ليشير إلى أنه قادر على تمكين المسلمين من الأرض دون الأسباب، لكن قضى بأن تكون المسببات مرتبطة بأسبابها.

(71) تشير الآية إلى أن البشر عاجزون على أن ينبتوا شجرةً واحدة ولو بلغوا في العلم مداه؛ ذلك أن الله نفى عنهم الإنبات بالنكرة المنسبكة من أن وصلتها (أن تنبتوا) ليدل على أن هذا العجز يعم الزمان والمكان والأشخاص؛ وأكد هذا المعنى الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

(72) تشير الآية إلى أن الماء أصل الجمال؛ لأن الله أخرج به الحدائق الجميلة التي تسر الناظرين، والفرع إذا كان جميلاً فإن أصله يكون مصدر الجمال.

(73) في الماء الذي هو سبب والحدائق التي هي مسبب معجزة من أعظم معجزات الله الدالة على وجوده وتفرد الخلق والتدبير¹، الذين يلزم عنهما التفرد بالعبادة، تتمثل هذه المعجزة في الماء الواحد الذي أخرج منه حدائق مختلفة الأشكال والألوان والأحجام والطعوم؛ لذا جاء الماء بصيغة اسم الجنس الإفرادي، وجاءت الحدائق بصيغة الجمع؛ يؤكد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿الْمَرْتَرَانِ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [قاطر: 27]

(74) تشير الآية إلى أن كل ما في الأرض مباح للإنسان ما لم يرد نهي عنه؛ ووجه الهداية لأم التعليل - في (لكم) - التي جاءت في معرض الامتنان، ولا يمتن الله إلا بمباح؛ فلما كان الماء مباحاً فكل ما يأتي منه فهو مباح له لزوماً، إلا ما فيه ضرر عليه فنهاه عنه لمصلحته.

(75) العدول عن الله إلى غيره، أو جعل عديل له لا يكون من فرد واحد، بل لابد أن يكون من جمع يساعد بعضهم بعضاً؛ لأن هذا الفعل تأباه الفطر السليمة، وترفضه العقول النيرة مما يجعل الفرد الواحد غير قادر على إظهاره؛ ووجه الهداية تعبير الله تعالى ب (قوم) الدالة على جماعة غير محددة بعدد.

¹ ينظر: روح المعاني: 216/10.

وأكد هذا المعنى في آيات كثيرة، منها ما في هذه السورة كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةً رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النما: 48]، ومنها ما في غيرها كقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنِّي لَأَلِزْتُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: 60].

(76) الأصل ألا تدنس الأماكن المقدسة، ولا تلوث الألسن الطاهرة بالأقوال الباطلة، والعقائد المنحرفة، والأشخاص الفاسدين، هذا؛ لأن الله لم يصرح بذكر آلهة المشركين مع أن الآيات جاءت لتفنيدها؛ إذ الأصل في الكلام (أمن خلق السماوات والأرض باعترافكم أحق بالعبادة أم هبل واللات والعزى... التي تعبدون من دون الله، أو تشركون بها مع الله).

(77) من أهم الوسائل المساعدة على إقامة الحجة تنويع الأدلة عند محاورة المشرك، أو الملحد... مع التركيز أكثر على ماله صلة به، فالله تعالى مزج في الآية السابقة بين المعجزة الحاصلة من السماء والأرض، وخص في الآية الموالية الأرض؛ لأن الإنسان أكثر صلة بها من السماء.

(78) الماء أساس الحياة، ولا يمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال، يشهد له ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30]، ودليل الأهمية تكراره في القرآن الكريم، إذ ورد في تسعة وأربعين موضعاً، في ثلاثة وثلاثين منها منكراً، والباقي معرفاً.

(79) من أعظم النعم التي امتن الله بها على عباده الماء، لذا قدّمه في الذكر، ويشهد لهذا طلب أهل النار إياه من أهل الجنة ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ [الأعراف: 50].

(80) الشيء الواحد قد يكون نعمة على قوم ونقمة على آخرين، ومن هذا الشيء الماء الذي أهلك الله بوجوده أقواماً وعذب بجرمانه آخرين؛ وخير مثال ما حدث في غزوة بدر؛ فقد أنزل الله الماء على معسكر المسلمين فتبنت أقدامهم، وعلى معسكر المشركين فأوحد أقدامهم.

(81) من أعظم الأدلة على ضعف الإنسان أنه لم يستطع أن يوجد الماء مع أنه بلغ من التطور التكنولوجي مرتبة لم يستطع عقله تفسيرها؛ لأن مصدره السماء، والسماء لا يتصرف فيها إلا الله، وهذا المعنى يصدقه الواقع، فكم من الدول تضطر لمعالجة مياه البحر، أو المياه العادمة مع أنها تعلم مكوناته وجزئياته.

(82) من أسباب العدول عن الله إلى غيره الجهل به، فقول الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ أتى بعد قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾^(٦٠) ليشير إلى أن علة العدول، هي جهلهم برهم؛ يؤكد هذا تقديم الصحابة أرواحهم وأموالهم رخيصة لما عرفوا عظمة رهم، وبخل الملائ من قريش بأموالهم وأنفسهم لما جهلوا قوة رهم وسعة ملكه وخزائنه.

(83) من أعظم الآيات الدالة على وجود الله وتفردّه بالخلق والتدبير وجود الماء لذا أمرنا بالتفكر فيه في آيات عديدة، منها قول الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١٦٤) [البقرة: 164]

(84) في الآية إشارة إلى فضل العلو على ضده، ذلك أن الله قدمه في الذكر في سياق الامتنان، والتقديم في لغة العرب لا يكون إلا لحكمة.

(85) في الآية إشارة إلى جواز إضافة الشيء الذي يعُثم نفعه إلى بعض دون بعض، إذا كان نفعه في ذلك البعض أظهر، أو أن منافع الآخرين ترجع في الجملة إليه؛ ذلك أن الله تعالى أضاف إنزال الماء إلى الإنسان مع أنه تنفع به سائر المخلوقات؛ لأن انتفاعها به يرجع إلى انتفاع الإنسان، فيأكل النبات الذي يخرج من الأرض، والبهائم التي ترعى على عشبه...

(86) في الآية إشارة إلى أن الناس سيقون عاجزين عن إنبات الشجر إلى قيام الساعة؛ ذلك أن الله نفى عنهم إنباتها، وأتى بالفعل المضارع الدال على التجدد، فأشعر أن صفة العجز تتجدد من كل قوم، وإن بلغوا في التطور مداه.

(87) في الآية إشارة إلى أن بعض الناس قد يبلغ بهم الأمر إلى اعتقاد فعل ما يختص به الله كإنبات الشجر ونحو ذلك؛ ذلك أن الله تعالى أكد النفي ب (كان) لينسف هذا الاعتقاد، ويزيل هذا الوهم.

(88) في الآية إشارة إلى أن الاستمتاع بالطيبات، والابتهاج بالجمال لا ينافي العبودية لله، دليل هذا ذكر الله الحقائق، ووصفها بالبهجة في سياق الامتنان.

(89) في الآية إشارة إلى أن العدول عن الحق يكون في الأصل من الرجال ثم تتبعهم النساء، ذلك أن الله تعالى أتى بلفظ القوم الذي يطلق في الأصل على الرجال دون النساء، كما في قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْحَرُونَهُمْ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ الحجرات: ١١، ولا يطلق على الجميع إلا لحكمة منها التغليب.

(90) في الآية إشارة إلى أن الله ﷻ لا ينبغي أن يوصف بأي صفة من صفات الجماد، ولا من صفات غير العقلاء¹؛ ذلك أن الله ذكر نفسه ب (من) التي تستعمل في العقلاء، ولم يذكر نفسه ب(ما) التي تستعمل في غيرهم.

(91) في الآية إشارة إلى أن دور الإنسان في هذه الحياة إنما هو القيام بالأسباب، وتبقى النتائج إلى رب العالمين؛ ذلك أن الله تعالى نفى عن عباده إنبات الشجر مع أنهم هم من يقومون بغرسه.

(92) في الآية إشارة إلى أن الله فضل الإنسان مؤمنا كان أو كافرا على كثير من مخلوقاته، حيث سخر له السماء، وأوجد له الأرض مع أنهما أعظم منه، ولا يردان أمره كما هو صريح في قول الله تعالى ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١٠].

(93) في الآية إشارة إلى أن ذكر الشيء المعلوم عند العامة لا يعد عيبا إذا كان الغرض منه إيصال رسالة، أو تحقيق هدف؛ ذلك أن الله صرح بمكان نزول الماء مع أنه معلوم عند المؤمن والكافر، والعالم والجاهل.

(94) في الآية إشارة إلى أن الدنيا تسير وفق سنن كونية لا تحابي أحدا، من سار عليها وصل إلى مراده حتى لو كان من الكافرين، ومن أعرض عنها أخفق في هدفه حتى لو كان من المؤمنين؛ دل على هذا ذكر الله السبب الذي هو الماء، والمسبب الذي هو النبات؛ وقد كان في مقدور الله أن ينبت بلا ماء، ويوجد بلا أسباب.

(95) لا أحد من غير الله تعالى يستطيع أن يخلق ولو بعوضة؛ ووجه الهداية (أم) المنقطعة التي بمعنى بل، فأفادت الإضراب عن الكلام السابق، وانتقلت إلى كلام جديد تقرر فيه الخلق، وقد جاء

¹ الأجدد أن يقال (العالم) بدل العاقل؛ لأن الله يوصف بالعلم ولا يوصف بالعقل؛ وما ذكرته إنما هو اصطلاح اللغويين.

التصريح بهذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ
اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ﴾ [الحج: 73].

الآية الواحدة والستون، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ

لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِيَّاهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

96) من أفضل طرق الإقناع تنويع الاستدلال، فتارة يحسن الإتيان بالدليل مع الامتنان، وتارة يحسن الإتيان به مجردا عنه¹، فالله تعالى استدل في الآية السابقة على وحدانيته ممتنا على عباده بقوله: (خلق لكم)، بينما في الآية التالية أتى بالأدلة مجردة.

97) من رحمة الله بالخلق أن جعل لهم الأرض قارة مع أنها ساجدة في الحقيقة، إذ عدم قرارها يجعل حياتهم مضطربة².

98) عند محاورة المنكر لوحانية الله، أو لوجوده أصلا ينبغي الانتقال معه من تبكيت إلى آخر، حتى يرى رأيته أحقر ما يكون، فالله تعالى في هذه الآيات يسألهم سؤالا تقريريا يُبَكِّتُهُمْ به³، ثم يضرب عنه إلى غيره حتى صَوَّرَ حالهم بصورة بشعة تنفر منها الفطر السليمة، وتأبأها العقول النيرة.

99) خير الأمور أوسطها، دل على هذا لفظ (الأرض) التي جعلها الله مكونة من تراب وصخور تتخللها مياه الأنهار والعيون، فلو جعلها صخورا فقط لتألم الإنسان من صخورها، ولو جعلها مياهها فقط لغرق الناس والحيوان في بحورها⁴.

100) لولا الجبال لما استقرت حياة الناس، فهي المتحكمة بأمر الله في عملية المناخ، والمساعدة على تنقل المياه بين ربوع الأرض⁵.

101) خطاب الله المتعلق بالكون معجز، وفي نفس الوقت مناسب للسابقين واللاحقين، إذ أخبر الله ﷻ أنه جعل الأرض قرارا، وهذا القرار له لوازم أخرى ككونها لو غيرت عن مكانها، أو فُقد

¹ ينظر التحرير والتنوير: 13/20.

² نفسه: 13/20.

³ إرشاد العقل السليم: 294/6.

⁴ ينظر مفاتيح الغيب: 564/24.

⁵ ينظر معارج التدبر: 133/9.

شيء من عناصرها لاختلت الحياة، ففهم منها السابقون النعمة، وبقي النص مفتوحاً للأجيال القادمة¹

(102) في الأنهار آيةٌ عظيمة من آيات الله، إذ لو أمسكها الله عن الجري لتجمع الماء حتى يَغمرَ كلَّ الأرض أو معظمها مما يؤدي إلى تعذر الحياة على سطحها²؛ ووجه الهداية أن ذَكَرَ الأنهار جاء في معرض الامتنان، والله لا يمتن إلا بنعمة.

(103) من عجائب قدرة الله أنَّ الحياة لا تتشكل إلا من الأرض وما حولها من خلق الله، فلا تغني الأرض عن السماء، ولا تغني السماء عنها، ولا تُغني الشمس عن القمر، ولا هو عنها؛ فالنبات يحتاج إلى تربة تذهب فيها جذوره، وماءٍ تتكون منه فروعه، ونورٍ لينمو ويتعرَّع³.

(104) من عجائب قدرة الله أن الأرض واحدة، والماء الذي ينزل عليها واحد، إلا أنه يُنبِت نوعاً من النبات في موضع منها لا ينبت في موضع آخر، وينبت في الثاني نوعاً قد لا ينبت في الأول؛ وهذا لتجد البشرية ما يناسبها، فمن الناس من يناسبهم القمح، ومنهم من يناسبه التمر، وهكذا، فسبحان الله العليم الحكيم⁴.

(105) تشير الآية إلى أن من مظاهر قدرة الله الأرض التي تنتج الضدَّ من الضد، فالأرواث الكريهة، والفضلات المطروحة، تقبلها فتخرج بها أزهاراً ذات ألوان جميلة، وروائح فائحة⁵.

(106) من رحمة الله بالناس أن جعل لهم الجبال التي فيها معظم خيراته، فمعظم المعادن النافعة للإنسان مركوزة فيها⁶.

¹ ينظر في ظلال القرآن: 5/2657.

² نظم الدرر: 14/189.

³ ينظر الخواطر للشعراوي: 17/10820.

⁴ نفسه: 17/10820.

⁵ نفسه: 17/10820.

⁶ ينظر معارج التدبر: 9/133.

(107) خلق الجبال آية دالة على الله، لأنها تتحكم في حياة الإنسان فتغير مسيره، وتحدد أنماط تنقله، وأماكن إقامته؛ وكلُّ هذا يدل ضعفه أمامها مع أنها خاضعة لخالقها سبحانه وتعالى.¹

(108) في الجبال خزانات مائية تغذي الجداول والأنهار، وتسقى الحرت والزرع في وقت الجفاف.²

(109) من دلائل إعجاز الله وجود الماء المالح مع العذب، مع أنه لا يختلط أحدهما بالآخر، فقد يُخرج الله من قعر البحر الماء العذب.³

(110) في تدفق مياه الأنهار في البحار آية عظيمة من آيات الله، ونعمةٌ كبرى من نعمه، إذ جعل بينهما حاجزا لا يطغى المالح على الحلو فيفسدُه، ولا الحلو على المالح فيُغيِّرُه، مما كان سببا في قتل الحيتان الذي يعيش عليها كثير من الناس.⁴

(111) الغبي الحقيقي هو الذي يطلب من صنمه، أو ضريحه شيئا ما؛ لأنه يسأل أمورا تحتاج إلى عقل وتفكير ممن لاعقل لهم ولا تمييز، ذلك أن الله أتى بِمَن الدالة على العاقل⁵ مع أن المشركين يعترفون بأن آلهتهم ليست من جنس العقلاء كما حكى الله على لسان قوم إبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْت مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 65].

(112) الاستقرار النفسي والعقلي أساسُ العيش بسعادة، فالله تعالى جعل الأرض قرارا لتكون عليها الحياة.

(113) الأرض التي عليها الحياة هي أرضنا التي نعيش عليها، وما عداها من الأرضين في حكم المسكوت عنه؛ ووجه هذه الهداية (أل) العهديَّة الذهنية التي تشير إلى الأرض المعهودة عند الناس، بدليل ما ذكر بعدها من الأنهار، والحاجز بين البحرين.

¹ ينظر: معارج التدبر: 133/9.

² نفسه: 133/9.

³ ينظر: الخواطر للشعراوي: 10819/17.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 2657/5.

⁵ يستحسن العلماء تسميتها بالعالم تأدبا مع الله تعالى الموصوف بالعلم وليس بالعقل، لكن عبرت بما كان يعبر عنه العرب حتى تصل الفكرة.

(114) لا تستقيم حياة الناس إلا بتوطيد أواصر المحبة، وتبادل المنافع...، فالأرض الجامدة يصل نفع بعضها إلى بعض عن طريق الأنهار لكي ينفع الجزء الذي انفجرت منه العيون، أو هبطت عليه الثلوج الجزء الجاف والحار؛ فإذا كان هذا في الجماد فينبغي أن يكون في الأحياء العقلاء من باب أولى.

(115) في الآية إشارة إلى ضعف قدرة الإنسان على تفسير الظواهر التي تحيط به مهما بلغ من العلم، ذلك أن الأنهار تجري بماء العيون، وماء العيون نفسها تأتي من الجبال.

(116) في الآية إشارة إلى أن للأرض هيئة ثابتة لا تتغير بتغير الزمان، ولا بتجدد الأقوام؛ ذلك أن الله تعالى أتى بالفعل الماضي (جعل) المشعر بأن استقر الأرض ثم تم وانتهى.

(117) في الآية إشارة إلى أن بعض الناس قد يتوصل إلى حقائق كونية؛ لأن الله تعالى نفى العلم عن الأكثرية، ولم ينفعه عن الجميع.

الآية الثانية والستون قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(118) إجابة الله دعوة عباده، قد تكون مباشرة، وقد تكون بعد أجل¹؛ لأن الله عَمَم في المضطرين وأبهم في الزمان والمكان لحكمة، فقد تكون الاستجابة في الحال سبباً لضياح المصالح، أو لحصول المفاسد، والله سبحانه حكيم لا يضع شيئاً إلا في موضعه المناسب.

(119) في الآية إشارة إلى أن الاعتناء بالأرض بما يعود على المسلم في دينه أو دنياه لا يعد من النقائص، ولا من ضعف علاقة العبد ربه؛ ذلك أن الله ذكر الخلافة في الأرض في باب الامتنان، ولا يمتن إلا بما هو مباح أو فوقه.

(120) في الآية إشارة إلى أن الخلافة في الأرض لا تكون بالعقل ولا بالبقرية، وإنما بتوفيق الله تعالى؛ هذا لأن الله أسند الخلافة إليه ولم يسندها إلى أسباب العباد.

(121) فطرة الإنسان قد تموت، أو تضعف بالعوامل الخارجية، فإذا استنفد الإنسان الأسباب ولم تنفعه تحرك فطرته وانبعثت فيها الروح من جديد، فالمضطّر قد يكون كافراً بالله، منكراً لوجوده في الرخاء، لكن عند الشدة لا يلجأ إلا إليه²، فيتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]

(122) استجابة الله دعاء عباده ليس بالضرورة أن تكون مطابقة للجواب؛ فالعبد يسأل ما تحبه نفسه ولا يعلم مصلحته، ولا قدرها ولا زمان وقوعها، والجواب يكون من الله الحكيم الذي يعلم السر وأخفى³.

¹ ينظر مفاتيح الغيب: 565/24.

² ينظر في ظلال القرآن: 2658/5.

³ ينظر: روح المعاني: 218/10.

(123) الإنسان مهما عظم ملكه، وجلَّ سلطانه، واشتدت قوته لا بد أن يلجأ يوماً إلى الله تعالى¹، يستشف هذا من (إذا) الدالة على التحقق والوقوع، ويشهد له كثير من نصوص القرآن كقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:15] والخطاب عام يلزم منه إثبات الضعف المحوج إلى القوي.

(124) تفيد الآية أن الذي يناله وعدُّ الله المتمثل في الإجابة هو الذي تخلص من حوله وقوته وحول كل مخلوق حتى يرى نفسه ليس له حسنة ترجى، ولم يعد يرى ناصراً غير الله تعالى.²

(125) المؤمن الذي عرف ربه لا يستعظم عليه شيئاً، لأن قدرة الله لا حدود لها³، ووجه هذه الهداية أن المضطرين أنواع، والاضطرار درجات، وقد بين الله أنه سيجيئهم جميعهم، فلزم أن تكون له القدرة المطلقة.

(126) إجابة الدعوة تكون بالأقوال، وكشف السوء يكون بالأفعال، ووجه الهداية تفريق الله بين إجابة الدعوة، وكشف السوء.⁴

(127) تشير الآية إلى أن الإنسان ينبغي أن يعمل ويأخذ بالأسباب ثم يتوكل على الله، ويعلم علم اليقين أن الأسباب لا تؤثر بذاتها، إنما هي قانون جعله الله ليسيّر الناس عليه.⁵

(128) من دعا فلم يستجب له فليعلم أنه غير مضطر.⁶

(129) في الآية تفرغ لمشركي قريش ومن سار على دربهم إلى يوم الدين، ذلك أنهم لجأوا إلى معبوداتهم عدة مرات فلم تجبهم، ومع ذلك هم مصرون عليها، ولجأوا إلى الله مرة واحدة مضطرين فأجابهم، ومع ذلك يكفرون به.⁷

¹ نفسه: 218/10.

² ينظر: قوت القلوب في معالجة المحبوب: 9/2.

³ ينظر مفاتيح الغيب: 565/24.

⁴ ينظر روح البيان: 362/6.

⁵ ينظر الخواطر للشعراوي: 10822/17.

⁶ نفسه: 10822/17.

⁷ ينظر معارج التدبر: 137/9.

(130) من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه يستجيب لعباده حتى الكفار منهم إذا أخلصوا له في الدعاء؛ ووجه هذه الهداية تعميم المضطرين¹، يؤكد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوس: 22].

(131) في الآية دعوة من الله لعباده إلى اللجوء إليه للتأكد من صدق ما أخبر؛ ذلك أن الله أتى بالمضارع الدال على الاستقبال ليشير إلى أن من أنكر ما حكاه القرآن عن المضطرين ينبغي أن يجرب هو أيضاً، ثم يحكم بعد ذلك بنفسه².

(132) العبرة ليست بالعلم بل بما يحدثه من أثر؛ فالمشرك إذا وقف مع نفسه وقفة تأمل أدرك أن معبوداته لا تنفعه ولا تضره، إلا أن هذا الإدراك لم يطبق على أرض الواقع فكان كأنه غير موجود³.

(133) يجب التركيز في الدعوة إلى الله على البعث والنشور؛ لأنه هو الذي وقع فيه الخلل عند كثير من الناس فلزم عنه خلل في الحياة كلها؛ فالمشركون لم يكونوا ينكرون الخلق بل كان عندهم شك في البعث، لذا جعل الله إثبات الخلق مقدمة لإثبات البعث والحساب⁴.

(134) في الآية إشارة إلى أن الإنسان من عادته النسيان إذا حلَّ به الأمن، وزال عنه الخوف والاضطرار، وقد أُكِّدت هذه الهداية في آيات كثيرة منها: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: 12].

¹ ينظر الكشف: 377/3.

² ينظر: نفسه: 137/9.

³ ينظر: نفسه: 138/9.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 2660/5.

(135) في الآية إشارة إلى أن الله فطر العباد على الإيمان به، والاعتراف بقوته وقهره، وأن ما يقع لهم من جحود وإنكار إنما يكون بسبب العناد وهو الأكثر، أو بسبب السهو والنسيان، فإذا حلت بهم مصيبة تذكروا فرفعوا أيديهم إلى الله وحده.¹

(136) في الآية تلميح إلى أن الله يجيب المضطر سواء تعلق سؤاله بدفع مكروه، أو بطلب محبوب؛ إلا أن دفع المكروه هو الذي يُذكر بالله أكثر من طلب المحبوب، لذلك خصه الله بالذكر.²

(137) في الآية إشارة إلى أن الإنسان مسلط على الأرض وما فيها رغم ضعفه وقوتها؛ وفي هذا تذكير له بنعم الله عليه، دل على هذا الاستخلاف الذي يلزم منه التمكن.³

(138) تفيد أن كل أمة ستفنى مهما علت قوتها لتأتي بعدها أمة أخرى إلى أن يرث الله الأرض من عليها.⁴

(139) وراثة الإنسان مكان غيره نعمة عظيمة قل أن يُنتبه إليها؛ لذا ناسب أن يختم الله الآية بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أن الإنسان إذا زال عنه اضطرابه نسي نعم الله عليه كما

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8].

(140) ما تضمنته هذه الآيات من عرض لقوة الله وسعة ملكه وضعف الإنسان، وضيق مُلكه يَهْدِي كل من يبحث عن الحق ولو كان من أعشى الملحدین والمشرکین؛ دليل هذا ما حدث لعكرمة ابن أبي جهل لما ركب البحر وجاءتهم ریح عاصف، ضلت عنه آلهته وقال: "اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد مُحَمَّدٍ ﷺ فلأجدنه رءوفا رحیما. فخرجوا من البحر، فخرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ﷺ.⁵

¹ ينظر: نظم الدرر: 191/14.

² ينظر: نظم الدرر: 191/14.

³ نفسه: 191/14.

⁴ نفسه: 191/14.

⁵ أضواء البيان: 174/3.

(141) تمكين الله للمسلمين سيبقى إلى قيام الساعة؛ دليل هذا الفعل المضارع (ويجعلكم) الدالُّ على التجدد والاستمرار؛ وقد تأكد هذا عبر القرون الماضية كما تدل عليه كتب التاريخ، فكم من مرة ضعفت الأمة حتى أضحت تُعطي الجزية للنصارى - كما حدث بالأندلس - ثم أعادها الله إلى التمكن من الأرض.

(142) مستحيل أن يُقنع الإنسان نفسه بعدم وجود الله فضلا عن إقناع غيره؛ لأن الله أثبت لعباده الضعف الملجئ إليه في كل حين، فكيف ينكر شخص ربًّا لا يستغني عنه بحال من الأحوال؛ وقد أكَّد هذا المعنى قولُ الله تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: 14]، وقوله في شأن مشركي قريش: ﴿قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَمْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33]

(143) في الآية أعظم دليل على أن الله وحده هو المتصرف في الكون كله الذي منه الإنسان، إذ فيها أن الإنسان لا يستطيع حتى أن يوقف نسله فضلا عن إيجاد مثله، فالتعبير ب (يُجعلكم) دليل على أن الله هو الذي وضع في الإنسان الغريزة الجنسية التي يتولد عنه النسل، ليخلف بعضه بعضا إلى ما شاء الله.

(144) في الآية إشارة إلى إثبات الجزاء، لأن الإعادة إن كانت لغير سبب عبث، والعبث ينزه عنه العقلاء، فكيف يجوز في حق العليم الحكيم.

(145) في الآية إشارة إلى أن الناس يعلمون جميعا أنه لا يجب المضطر إلا الله؛ لأن الآية جاءت في سياق التقرير.

(146) في الآية إشارة إلى أن كل المخاطبين قد تنطبق عليهم صفات الضرورة (المضطر)؛ لأن الله تعالى عرفه بالألف واللام مع أن الأصل في الكلام، التنكير ولا يعدل عنه إلى التعريف إلا لعل، ولعل ما قلناه هو العلة.

(147) في الآية إشارة إلى أن الله تعالى يكشف سوء كيفما كان شأنه، ومهما بلغ قدره؛ ذلك أن الله تعالى ذكره بالألف واللام فأشعر بالعموم.

- (148) في الآية إشارة إلى أن إجابة الله للمضطّر متحققة لا محالة؛ ذلك أن الله تعالى أتى ب (إذا) الدالة على التحقق والوقوع في حصول الجواب، ولم يأت ب (إن) الدالة على الشك فيه.
- (149) في الآية إشارة إلى أن العقل يقضي بعبادة من يُغيث الناس، ويصرف عنهم المكروه إذا لجؤوا إليه؛ ذلك أن الله تعالى انطلق من إقرارهم بإجابة الدعاء لإلزامهم بعبادته وحده لا شريك له.
- (150) في الآية إشارة إلى أن هناك فرقا بين حال الضرورة ووجود السوء؛ ذلك أن الله فرق بينهما بالعطف الذي يدل في أصله على التغاير.
- (151) في الآية إشارة إلى أن الذي يجب المضطر لا يكون إلا واحدا فطرة وواقعا؛ دليل هذا ذكر الله من يجب المضطر بصيغة المفرد مع أنهم كان يدعون آلهة عدة.
- (152) في الآية إشارة إلى أن الإنسان في الغالب يلجأ إلى الله في حال الضرورة، فإذا زالت رجع إلى عاداته القديمة؛ ذلك أن الله بدأ الآية بذكر الاضطراب، وختمها بحال الإنسان التي هي النسيان.
- (153) في الآية إشارة إلى أن المعية (مع) لا تفيد بالزوم التوافق المكاني ولا الزماني، وإنما تدل على الوجود فقط؛ ذلك أن الله أتى بالاستفهام التقريري لينكر وجود الإله معه أصلا، لا أن ينكر مكانه، أو زمانا معينة لوجوده.
- (154) في الآية إشارة إلى أن بعض الناس قد يمنعه الكبر من التوجه إلى الله حتى في حالة الشدائد؛ ذلك أن الله تعالى قيد إجابة دعوة المضطرين بدعوتهم إياه، فأشعر أنه لا يستجيب لغيرهم، فأفاد بالزوم أنهم لم يلجؤوا إليه.
- (155) إجابة الله دعوة عباده مستمرة إلى قيام الساعة إذا توفرت شروطها وانتفت موانعها؛ ذلك أن الله عبر بالمضارع الدال على الحال والاستقبال.
- (156) في الآية إشارة إلى أسلوب جميل في الإقناع، وهو ذكر حالات الضعف بالعموم، وذكر النعم بالخصوص، أو ذكر النقائص بالغائب، والفضائل بالحضور؛ لأن الله لما ذكر الاضطراب أتى بالغائب، ولما ذكر الخلافة في الأرض أتى بالمخاطب.
- (157) في الآية إشارة إلى أن الذي يغشاه السوء قد لا يلجأ إلى الله، فتتسبب الأسباب المادية، أو القدرات الشخصية اللجوء إلى رب العالمين؛ دليل هذا تفريق الله بين المضطر وصاحب السوء، فأثبت للأول الدعاء، ولم يثبت للثاني.

158) في الآية إشارة إلى أن كثيرا من سوء يكشفه الله دون أن ندري؛ لأن الله قد يكشفه بدون دعاء فيكون كسائر الأمور الأخرى.

الآية الثالثة والستون، قال تعالى: ﴿أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَرَّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ

بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

159) العلم هبة من الله يهبه لمن يشاء من عباده؛ دليل هذا أن الكون ينظر إليه الجميع، العرب والعجم، والصغير والكبير... فيمنُّ الله على بعض هؤلاء فيدرك أسرار الكون عن طريق النظر في النجوم فيتخذها دليلاً له في سفره¹، بينما غيرهم لا يدرك شيئاً منه.

160) تشير الآية إلى إعمال العقل لاكتساب العلوم التجريبية، فقد ينظر الإنسان إلى شيء عن غير قصد أو عن طريق الخطأ فيفتح الله عليه، فكثير من الأمور التي ننتفع بها الآن اكتسبها الإنسان عن طريق التجربة². تُستشف هذه الهداية من قوله تعالى: ﴿يَهْدِيكُمْ﴾ ولم يكن قد أنزل عليهم كتاباً فيه هذه العلوم، فدل على أن الإنسان مطالب بالتجربة والله يتولى النتائج.

161) في طبخ الإنسان بعض المأكولات، وأكل بعضها بدون طبخ دليلٌ على قدرة الله تعالى، حيث ألهم عباده إلى استعمال خيراته، وإلا فماذا يعمل الإنسان في هذه الحياة دون إلهام من الله؟³.

162) الداعية الناجح هو الذي ينوع الأدلة، ويعدُّ الأساليب حتى ينتفع بدعوته جميع الناس، فمن الأدلة ما تناسب عموم الناس، ومنها ما يعطى نتائجه مع بعض دون بعض، أو يعطيها كاملة مع قوم ولا يعطيها كاملة مع آخرين؛ فدليلُ الخلق وإنزال المطر يناسب جميع الناس، والحرث والزرع يناسب البدوي أكثر من غيره، وخلق الإنسان وتكوينه يناسب الطبيب أكثر من غيره وهكذا؛ يستشف هذا من بدء الله تعالى بخلق السماء والأرض وإنزال الرزق، ثم تثنيته بالمضطر ومن أصابه سوء، ثم بما يتعلق بالمسافرين في البر والبحر، وهكذا.

163) في الآية إشارة إلى أن في البحر ظلمات لا ظلاماً واحداً، قد يدركها المختصون بعلم البحار، أو الذين يكثرون من العيش فوقه؛ دل هذا هذا جمع ظلمات.

¹ ينظر الخواطر للشعراوي: 10825/17.

² نفسه: 10819/17.

³ نفسه: 10826/17.

164) في الآية إشارة إلى أن نعمة الهداية في الظلام -وأحرة نعمة الهداية في العقيدة- يحتاج إليها العبد أكثر من غيرها؛ دليل ذلك أن الله قدمها في سياق التقرير فدل على مكانتها.

165) في الآية إشارة إلى أن تكرار لفظ الجلالة في مواقع التقرير أودع للنفوس، وأشد قوة في التأثير؛ ذلك أن الله تعالى أظهره في موقع الإضمار.

166) في الآية إشارة إلى أن كل الآلهة التي يعبدونها المشركون متصفة بالنقص، ومنعوتة بالعجز؛ ذلك أن الله نزل نفسه عما تتصف به آلهى المشركين، فدل على كماله بالمنطوق، وعلى نقصها بالمفهوم.

167) في الآية إشارة إلى أن تعالى متعال عما أشرك به العرب قديما وما يشرك به الناس في زماننا أو الأزمان الغابرة؛ ذلك أن الله قال (يشركون) ولم أشركوا، أو أشركتم ليفيد بأن متعال مع تجدد آلهة المشركين.

168) في الآية إشارة إلى أن تقديم الأمر الغالب على الناس أنفع في الإنقاذ من غيره؛ ذلك أن الله قدم ظلمات البر على ظلمات البحر لأن أغلب الناس لا يعرفون إلا ظلمات البر مع أن أغلب الأرض إنما هو من الماء.

169) في الآية إشارة إلى أن النظر إلى المضافات إلى الله بحسب سياقها لا بمطلق القاعدة المشهورة التي أصلها ابن تيمية بقوله: " والفرق بين البابين أن المضاف إذا كان معنى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائما به وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب وإن كان المضاف عينا قائمة بنفسها كعيسى وجبريل وأرواح بني آدم امتنع ان تكون صفة لله تعالى لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره¹؛ لأن الرحمة معنى لا تقوم بنفسها ومع ذلك لا يمكن حملها في الآية على الله؛ لأن السياق يحتم أن يكون المقصود بها الغيث المخلوق.

170) في الآية إشارة إلى أن التبشير بالشيء قبل قدومه نافع للأمة، ومساعد للنفوس على تجاوز الصعاب؛ دل على هذا القراءة التي فيها ﴿بُشْرًا﴾، إذ بمقدور الله أن ينزل الغيث دون أن تسبقه مقدماته.

¹ درء تعارض العقل والنقل: 265/7.

(171) في الآية إشارة إلى أن الإنسان سيبقى محتاجا إلى الله ليهديه في ظلمات البر والبحر حتى لو بلغ من العلم مداه؛ ذلك أن الله تعالى عبر عن هدايته بالفعل المضارع المفيد للتجدد والاستمرار، وعرض هذا في سياق التقرير فأشعر أنه يعم جميع الأزمنة والأمكنة.

(172) في الآية إشارة إلى أن الرياح أنواع، بعضها من الجنوب وبعضها من الشمال ...، دليل هذا جمعُ الرياح.

(173) في الآية إشارة إلى أن الله لا يجب عليه شيء إلا ما أوجبه على نفسه؛ ذلك أنه تعالى سمى المطر الذي تتوقف عليه حياة العباد رحمة؛ والرحمة لا تكون إلا من متفضل.

(174) في الآية دليل على أن الله تعالى قد يطلق بعض صفاته على بعض مخلوقاته التي تكون أثرا عن تلك الصفات؛ ذلك أن الله تعالى أطلق الرحمة التي هي صفة من صفاته على المطر الذي هو مخلوق من مخلوقاته.

الآية الرابعة والستون، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ

أَئِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

(175) في الآية إشارة إلى أن الداعية الذي يريد أن يقنع مَنْ لا يؤمن بالله واليوم الآخر يحسن به البدء معه بنعم الله عليه في الدنيا ليرق قلبه، ثم يتبعه بنعم الله التي تلحقه يوم القيامة حتى ترغب نفسه، دليل هذا مناسبة الآية لما قبلها، فالله في السابقة عدد نعم الدنيا، وفي الثانية ذكر أصل النعم وهو الإعادة التي يلزم عنها النعم¹.

(176) من هدي القرآن أنه ينتقل مع الكافرين من تبكيت إلى آخر حتى يُلزمهم بما يقرون به داخليا، ويُنكرونه أمام الناس. دليل هذا (أم) المنقطعة التي تضرب عن الكلام السابق، وتقرر الكلام اللاحق².

(177) لا أحد ادَّعى أو ادَّعى له أنه يخلق الخلق، بل الجميع متفق على أن الخالق الواحد هو الرب الغيبي الذي تثبته البراهين العقلية قبل الآيات الشرعية. دَلَّ على هذا الاستفهام التقريري الذي أجبرهم -ويُجبر مَنْ بعدهم- على الجواب بأن الله هو الإله الذي لا ينبغي أن يُشرك معه غيره في العبادة³.

(178) في الآية إشارة إلى أن الداعية إذا كان يحتاج عن حقيقة من الحقائق يحسن به أن يُخاطب المناظر خطاب المقر بها إذا كانت أسباب معرفتها متوفرة عنده. فالله تعالى خاطب المنكرين للبعث خطاب المقرين به في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾⁴.

(179) الرزق من السماء والأرض حقيقة لا يستطيع أن ينكرها إنسان، والبدء والإعادة حقيقة⁵ لا يستطيع أن ينكرها عاقل، لذا جمع الله بينهما في آية واحدة، وقَدَّم البدء والإعادة على الرزق ليشير أن هذه الحقيقة أوضح من الأخرى فتأملوا فيها.

¹ ينظر مفاتيح الغيب: 567/24.

² حقائق الروح والريحان:

³ ينظر معارج التدبر: 143/9، وفي ظلال القرآن: 2660/5.

⁴ ينظر: الكشف: 377/3.

⁵ ينظر: في ظلال القرآن: 2660/5.

(180) إثبات الخلق لله يلزم منه إثبات الإعادة قطعاً، لأن إثبات الأصعب لشيء يلزم منه قطعاً إثبات ما هو أهون منه، وهذه حقيقة لا ينكرها عاقل في الكون، فمن صنع جهازاً - والصانع لا يملك المواد التي يركّب منها مصنوعه - يقدر حتماً على إعادته، بل وعلى صنع ما هو أصعب منه¹.

(181) من أعظم الآيات الدالة على تدبير الله عملية الرزق، إذ الإنسان لا يملك أن يرزق نفسه بنفسه فضلاً على أن يرزق غيره؛ لأن الرزق نتيجة لأسباب ليس له منها نصيب، فالزرع يحتاج إلى البذرة التي لا يقدر الإنسان على إنشائها، ووجود المطر الذي لا يقدر على إنزاله، والحرارة التي لا يقدر على حجبها أو إيجادها...²

(182) في الآية إشارة إلى أن الله متصف بالإرادة³، ذلك أنه أثبت له الإيجاد والإعدام؛ وهذان لا يكونان إلا عن إرادة تامة.

(183) من ادعى شيئاً فليطالب بالدليل، فالمشركون لما ادعوا عدم إمكان البعث طالبهم الله بالبرهان على قولهم⁴ مع أنه يعلم أنهم لا برهان لهم، ليفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويكشف عورتهم لأتباعهم حتى لا يغتروا بتقليدهم.

(184) في الآية إفحام لمنكري البعث؛ ذلك أنهم يقرون بالعقاب على الجرائم، ويضعون عقوباتٍ عليها، حتى إنهم ما تركوا مخالفةً إلا وَضَعُوا لها عقوبة تناسب حجمها⁵، ثم هم يقرون بأن الخالق هو الله، ويقرون أيضاً بأن كثيراً من الناس ظَلَمُوا ثم ماتوا قبل أن يأخذوا جزاءهم، أو ظَلَمُوا ثم ماتوا قبل أن يأخذوا حقوقهم؛ فهنا إما أن يقولوا نحن خير من الخالق، لأننا اهتدينا إلى قانون الجزاء، أو يعترفون بأن اهتدأهم إليه فضل من الله، فليزعمهم ضمنا القول بالجزاء الأخروي.

(185) المؤمن الذي يدعو إلى دين ربه ينبغي أن يكون قويا محاججا، يجيب عن الأسئلة، وفي نفس الوقت يطرح الأسئلة المعجزة، ويطلب الجواب عنها ليظهر حجم خصمه أمام أتباعه ومناصريه، فكثير من الأتباع اغتروا بقيمة المتبوع لا بـجُججه؛ لذا بين الله تعالى في الآيات السابقات

¹ ينظر: معارج التدبر: 143/9.

² نفسه: 144/9.

³ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 486/19.

⁴ ينظر: حدائق الروح والريحان: 20/21.

⁵ ينظر الخواطر للشعراوي: 10826/17.

وغيرها عظمتَه، وأجاب عن أسئلة المشركين واليهود المتعلقة بالهلال والروح...، وهنا قدم البراهين على وحدانية ثم طالِبهم بالبرهان على ما يدعون¹.

186) الرزق غير مقصور على الطعام والشراب واللباس كما يعتقد كثير من الناس، بل يشمل كل ما تقوم به الحياة، سواء أكان ظاهراً أم خفياً، وسواء علِمه الإنسان أو جهله. فالله تعالى ذكر الرزق دون أن يحدده، فدل على أنه أنواعٌ لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى؛ وفي هذا أيضاً إعجاز من الله تعالى.²

187) الرزق في حد ذاته له علاقة ببدء الإنسان وإعادته، فعلاقته بالبدء ظاهرة، لأن إنشاء شجرة مثلاً كإيجاد إنسان، وأما علاقته بالإعادة التي تكون في الآخرة فتتجلى في الجزء الذي هو رزق أيضاً.³

188) المناظر الناجح هو الذي يرد خصمه دوماً إلى الحقائق التي لا يمكن أن ينكرها، بغرض الانطلاق منها إلى حقائق أخرى لتصبح بدورها مقدمات لنتائج أخرى وهكذا، ولا يتركه يسبح كما يشاء، أو يتطلق مما يشاء، فالله تعالى رد المشركين إلى حقيقة الخلق، وحقيقة الرزق وانطلق منها إلى إثبات الوحدة.⁴

189) إيجاد الله للإنسان نعمة عظيمة تستوجب الشكر، وتماؤها التكفل برزقه، وأسباب معيشتة⁵، دليل هذا امتنان الله بالخلق والرزق على عباده، والله لا يمتن إلا بنعمة.

190) في الآية إشارة إلى أن الإنسان لا يصل إلى هذه الحقائق إلا بالتفكير في الموجودات، والتدبر في الآيات لذا قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁶.

191) في الآية إشارة إلى أن تقليد الآباء والكبراء فيما يتعلق بالله ورُسله والبعث والحساب مذموم؛ لأن الله ذم المنكرين للبعث لأنهم لا برهان لهم على ما يدعون، إنما قالوا كما قال آباؤهم

¹ ينظر معارج التدبر: 144/9.

² ينظر: في ظلال القرآن: 2660/5، وفي نظم الدرر: 200/14.

³ ينظر: في ظلال القرآن: 2660/5.

⁴ نفسه: 2660/5.

⁵ ينظر: البحر المحيط: 259/8.

⁶ نفسه: 259/8.

وأجدادهم السابقون فقال عز من قائل: ﴿قُلْ هَانُوا بَرَهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ، والمقصود أنكم لا برهان لكم؛ وقد دل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ مَا كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان 21]

(192) من علامات الألوهية العلم المطلق الذي يشمل الغيب والشهادة، والقدرة المطلقة التي تجعل الإله يفعل ما يريد؛ وهذا لا يتصف به إلا الله باعترافيهم، فيلزمهم أن يثبتوا له الألوهية وحده.¹

(193) الشك في المعاد لا يكون إلا بالشك في كمال القدرة، أو كمال العلم؛ لذا بين كمال قدرته بقوله: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وكمال علمه بقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ، لأن العلم يتميز كل جسد عن غيره، وبالقدرة يكون التجميع. قال الرازي: "فإذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات، وعالما بكل المعلومات، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره، وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة إليها وإذا ثبت إمكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر".²

(194) في الآية إشارة إلى أن الرزق من الله وحده، لكن يجب على الخلق القيام بأسبابه، فالله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، يستطيع أن يرزق عباده بقوله (كن فيكون) دون حاجة إلى السماء أو الأرض، لكن جعلهما مصدرا للرزق تعليما للعباد بأن المسبب واقف على السبب، وإن كانا جميعا من عند الله.³

(195) في الآية رد على الزاعمين العيش على غير كوكب الأرض، لأن فيها بيان مصدري الرزق الذين هما السماء والأرض، والرزق يشمل السبب والمسبب، والظاهر والخفي، والمأكول وغيره...، وهذه العناصر لا تتوفر جميعا في الكواكب التي ادعوا أنهم قد وصلوا إليها، فيكون قولهم دليلا على بطلان ادعائهم.

(196) في الآية رد على الملحدين وأنصارهم، القائلين بأن الطبيعة هي التي تتصرف، إذ نطالبهم بإثبات الكلام للطبيعة، ثم بإثبات قولها لهم: إنها هي من تفعل هذا، فإذا لم يستطيعوا إثبات هذا

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 567/24.

² نفسه: 569/24.

³ روح البيان: 363/6.

للطبيعة فلماذا أنكروا إثبات التصرف لله مع أنه تكلم وقال إن الخلق خلقي، والتدبير في الكون تدبري؟؟؟

197) في الآية رد على القائلين بأن في بعض مخلوقات الله عيباً في الحلقة كالعين مثلاً¹؛ ذلك أن العرب قد تطلق عبارة (يبدئ ويعيد) كنايةً على الإلتقان والدقة².

198) تدل الآية على سعة فضل الله، ووفور نعمائه؛ ذلك أنه أنعم علينا بالخلق أولاً، ثم بالرزق ثانياً، وكان بمقدوره أن يتركنا لحالنا بعد أن خلقنا، ولا يُعاب عليه لا عقلاً ولا نقلاً³.

199) في الآية إشارة إلى جواز التهمك بالمخالف إن كان ينكر الأدلة الصريحة؛ ذلك أن الله قال للمشركين (قل هاتوا برهانكم) مع أنهم لا يملكونه قطعاً⁴.

200) في الآية إشارة إلى طريقة إلقاء الخصم إلى الاعتراف بالحق، وإظهاره صغيراً أمام أتباعه، وذلك بمطالبته بأي دليل يستند إليه، مع أن المحاور يعلم أنه لا دليل عنده إطلاقاً⁵.

201) لا يشترط في البرهان أن يكون نقلياً أو عقلياً⁶، بل الذي يحقق المطلوب يجب الاعتماد عليه؛ لأن الله عممه والعام يبقى على عمومته حتى يأتي ما يخصه.

202) عملية خلق الإنسان وإعادته، كخروج النبات من الأرض بعد يُيسه؛ فالإنسان وُجد أولاً ثم تناسل من أب وأم، وكذلك النبات حُلِق أولاً بذرة ثم تكاثر عن طريق المياه؛ يُشتف هذا من قرن الرزق مع بدء الإنسان وإعادته⁷.

203) خلق الله لا حصر له ولا حد، فقد حُلِق في الماضي، ويخلق في هذه اللحظات، وسيخلق في ما يأتي من الأزمان ما شاء سبحانه وتعالى، لأنه أتى في هذه الآية بالمضارع (يبدأ الخلق) الدالّ

¹ مثل عدنان إبراهيم، ومن يسير في طريقهم.

² ينظر: البحر المحيط: 259/8.

³ نفسه: 259/8.

⁴ ينظر: روح المعاني: 219/10.

⁵ نفسه: 219/10.

⁶ ينظر: محاسن التأويل: 502/7.

⁷ ينظر الخواطر للشعراوي: 10831/17.

على التجدد والاستمرار، وأتى في مواضع أخرى بالماضي الدالّ على تحقّق الخلق ووقوعه¹، فحصل من الجميع تعميم الخلق في الأزمان.

(204) في الآية دليل على أن للدنيا نهايةً معلومة وإن طالّت، لأن الإعادة لا تكون إلا بعد نهاية².

(205) في الآية إشارة إلى أن المناظر يجب أن يكون سؤاله دقيقاً، بحيث لا يترك أي احتمال يُعكّر دليله، فالله تعالى أتى باستفهامين: حتى يزول توهم كون رزق الله لا يكون إلا بعد الإعادة، وتوهم كون آلهتهم هي التي ترزقهم في الدنيا، فلو غُطف قوله: ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ على قوله: (ثم يعيده) لأوهم أن الرزق لا يكون إلا بعد الإعادة، وهو يريد أن يقرره قبلها.³

(206) في الآية إشارة إلى أن الملحد حينما يُطالب بدليل على البعث إنما يناقض نفسه؛ لأنه لا يستطيع هو نفسه أن يثبت عدم الإمكان بدليل⁴.

(207) في الآيات إشارة إلى طرق الإقناع وذلك بأن يبدأ المناظر بالأدلة المتفق عليها والتي تكون قريبة من المناظر، ثم يرتقي معه في سلمها حتى يُعجزه فيقيم عليه الحجة، فحينئذ يسلم أو يكابر⁵.

(208) خلق الله لا يمكن أن يعده أي مخلوق، سواء أكان فرداً أم جماعة؛ ذلك أن خلقه مستمر في الزمان والمكان، والمستمر لا يحصر.

(209) رزق الله واسع لا حصر له، ولا يدري الإنسان من أين يأتيه؛ لأن الله تعالى حصر الرزق فيه ثم بين مصدره، وسكت عن طُرقه ليبين للعباد أنه يرزقهم من حيث لا يحتسبون، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2].

(210) في الآية دليل على فضل العلم وشرفه، وأنه يجعل الإنسان مستقيماً في دنياه بسبب النور الذي يحصل له؛ يشير إلى هذا تعقيب الله على المشركين بأنهم لا يعلمون، إذ يفيد بمفهوم المخالفة أنهم لو كانوا يعلمون ما فعلوا ما يفعلون.

¹ ينظر: زهرة التفاسير: 5474/10.

² ينظر: التحرير والتنوير: 18/20.

³ نفسه: 18/20.

⁴ نفسه: 18/20.

⁵ ينظر نفسه: 18/20.

(211) في الآية إشارة إلى أن المشركين المنكرين للبعث يشكون في صدق أنفسهم؛ لذلك أتى الله ب (إن) الدالة على الشك، ولم يأت ب (إذا) الدالة على التحقق.

(212) تفيد الآية أنَّ بين بدء الخلق وإعادته فاصلاً، قد يطول وقد يقصر، لأن التعبير ب (ثم) يدل على التراخي الذي يُقدر حسب السياق، والمقام؛ فقولنا بعث الله موسى، ثم عيسى، ثم مُحمداً صلى الله وسلم عليهم أجمعين يدل على وجود فاصل زمني طويل، أما قولنا: صليْتُ الجمعة ثم ذهبتُ إلى عملي فيدل على أن الفاصل بين الصلاة والعمل قصير جداً.

(213) في الآية إشارة إلى صحة قاعدة من قواعد البلاغة، وهي خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، ذلك أن الله خاطب المشركين خطاب خالي الذهن مع أنهم شاكون في البعث، أو منكرون له، والسر في هذا والله أعلم أن ما تقدم من الأدلة كاف وزيادة للإقرار به، ومن جملة هذه الأدلة الإقرار بالخلق الذي يلزم عنه الإقرار بالإعادة؛ لأنها أهون.

(214) في الآية إشارة إلى أن خلق الله مستمر لم يتوقف ولن يتوقف إلا إذا شاء الله؛ دليل هذا الفعل المضارع (يبدأ) المشعر بالتجدد والاستمرار.

(215) في الآية إشارة إلى أن توجيه الخطاب إلى أشرف القوم ليوجهه بدوره إلى باقي الأفراد قد يكون أجدى في تحقيق المراد؛ ذلك أن الله تعالى طلب من نبيه ﷺ أن يطلب من باقي الناس الإتيان بالبرهان إن كانوا صادقين في دعواهم؛ وقد كان بالإمكان أن يقول الله تعالى (هاتوا برهانكم).

(216) في الآية دعوة إلى التأمل في مخلوقات الله للوصول إلى تعظيم الله؛ ذلك أن الله بيّن مكان الرزق الذي هو السماء والأرض للنظر في كيفية نزول المطر، وخروج النبات؛ وهذا يجعل العبد مندهشاً من صنع الله.

(217) في الآية إشارة إلى أن الذي يحاد الله ورسوله يشك في صحة حججه قبل الإتيان بها؛ دليل الله تعالى أتى بأن الشرطية الدالة على الشك في المشروط، ولم يأتي بإذا الدالة على اليقين.

(218) في الآية دعوة للعباد بأن يطمئنوا، ويسلموا أمر الحياة إلى الله؛ ذلك أن الله تعالى جمع بين بدء الخلق ورزقه ليشعر العباد بأنه كما أتى بهم دون إشعار سيرزقهم كذلك دون إشعار.

(219) في الآية إشارة إلى أن رزق العباد يتجدد في الأوقات والأمكنة؛ لأن الله تعالى أتى بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

(220) في الآية إشارة إلى طريقة جميلة في الإقناع تتجلى في توجيه الخطاب إلى العموم بمن فيهم الذين لا هم في العير ولا في النفير - كما يقال - حتى لا يبقى عذر، ولا يجد من قامت عليه الحجة مفراً؛ دليل هذا توجيه الخطاب إلى عموم الذين يعارضون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن المعلوم أن فيهم الرعاع الذين يتبعون السادة في الصواب والخطأ.

(221) في الآية إشارة إلى أن الحجة التي لها قيمة هي التي تكون من ابتكار صاحبها، أو ممن أقام الأدلة على صحتها؛ أما التي تكون لشخص آخر، فقد يقال لصاحبها: اذهب وأحضر من أتى لنناقشه فيها؛ دليل هذا إضافة البرهان إلى أصحابه؛ وقد كان يمكن أن يقول الله ﷻ (هاتوا برهاناً إن كنتم صادقين).

(222) في الآية إشارة إلى أن الخلق يختلف عن الرزق وإن كان الجميع من الله؛ لأن الخلق لا يكون إلا من عدم، بينما الرزق قد يكون كذلك، وقد يكون ناتجاً عن غيره؛ دليل هذا عطف الرزق على الخلق، والعطف يقتضي في الأصل المغايرة.

(223) في الآية ربط للعباد بالسما - ولعل الظاهر أن المقصود بها رب المساء - أكثر من ربطهم بالأرض؛ لأن الله قدم رزق السماء على الأرض، والتقديم لا يكون إلا لغاية.

(224) في الآية دعوة للعباد بأن يعتمدوا على مسبب الأسباب أكثر من اعتمادهم على الأسباب؛ لأن الله قدم السماء التي يأتي منها الرزق بدون أسباب من العباد على الأرض التي يكون الرزق فيها غالباً بأسباب منهم.

(225) في الآية إشارة إلى أن الذي يدعي شيئاً مما يختص به الله ينبغي أن يطالب بالبينة عليه - ولن يقدر - ذلك أن الله لما ذكر الرزق عقبه بمطالبة المشركين بالبرهان، فأشعر أن هذا عام، والله أعلم.

(226) في الآية إشارة إلى أن الذي قدر على فعل الشيء مرة قد يقدر عليه مرات أخرى؛ ذلك أن الله ذكر بدء الخلق بالفعل المضارع ليشعرنا بأنه كما خلقنا فهو يخلق مثلنا أو غيرنا.

(227) في الآية إشارة إلى أن المخلوقات إنما ترجع إلى الله؛ ذلك أن الله تعالى عبر عن الخلق بالمصدر (الخلق) المحلى بالألف واللام، فأشعر أن كل ما يطلق عليه خلق فمبدأه من الله.

(228) في الآية إشارة إلى جواز إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ ذلك أن الله تعالى ذكر بدأ الخلق والمقصود أنه يبدأ وينهي، لا أنه يبدأ ويكمله غيره.

الآية الخامسة والستون، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٦٥﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(229) لا غيب عند الله؛ لأن الغيب ما غاب ولم تُنصّب عليه قرائن تدل عليه¹، والله لا تخفى عليه خافية كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٦٦﴾ [يونس: 61].

(230) لا يجوز أن يقول الإنسان: إن الله لا يعلم الغيب قاصداً أن الله لا يغيّب عنه شيء؛ لأن الله أثبت له جريا على المتعارف عليه عند الناس، فيلزم أن يتأدّب مع الله.²

(231) تدل الآية على أن وجود الله في السماوات والأرض مستحيل؛ لأن الله نفى الغيب عمّن فيهما، وأثبت له، فدل لزوماً على أنه غير داخل فيهما.³

(232) في الآية إشارة إلى أن بعض العباد قد يعلم بعض الغيوب؛ لأن الغيب عام، ومدلول العام كليّ يشمل كل فرد من أفرادها، فكأن الآية تقرر أن المغيبات كثيرة جداً، والذي يعلمها جميعها هو الله تعالى، فدلّت بمفهوم المخالفة أن غير الله قد يعلم بعضها عن طريق تعليم الله له، يؤكد هذا المعنى قوله الله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يُسَلِّكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ ﴿٢٧﴾ [الجن: 26-27].

وقد صرح بهذا ابن حجر الهيتمي بقوله: "وعلى كل فالخواص يجوز أن يعلموا الغيب في قضية أو قضايا كما وقع لكثير منهم واشتهر، والذي اختص به تعالى إنما هو علم الجميع"⁴

¹ ينظر: روح المعاني: 219/10.

² نفسه: 221/10.

³ ينظر: الكشف: 378/3، والبحر المحيط: 261/8.

⁴ الإعلام بقواطع الإسلام، ص: 114.

(233) تفيد الآية أن ما يقوله الكهان والعرافون ليس من جنس الغيب إنما من التوهم والظن والتخمين، فقد يقولون كلاماً يوافق قدر الله، فيظنُّه بعض الجهال غيباً وهو ليس كذلك؛ ووجه الهداية أن الله نفى عنهم علم الغيب، ولم ينف عنهم الظن والتخمين¹.

(234) في الآية إشارة إلى أن القارئ لكتاب الله أو المفسر له ينبغي أن يكون له إلمام بلسان العرب، وذوق رفيع لأساليبهم، حتى يستطيع فهمه فهماً صحيحاً، هذا؛ لأن الله أتى ب ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فلو فهمت على ظاهرها فيما أن نقول: إن الله داخل في السماء والأرض، وإما أن نحملها على الضعيف من اللغة -إذا اعتبرنا (الله) مرفوعاً على البدل في الاستثناء المنقطع-، وحتى لا نقع في هذا ولا ذاك لزمنا معرفة أساليب العرب في كلامهم، والتي منها إطلاق الخاص وإرادة العام، وعلى لسانهم جاء القرآن الكريم، كأنه قال: (لا أحد يعلم الغيب إلا الله)².

(235) لا يستجيب للطلب إلا الذي يعلم الطالب ومطلوبه، والعلم يستلزم العقل، فتكون النتيجة: كل ما لا يعقل لا تصح مناداته؛ لأن الله أتى ب (مَنْ) الدالة على العاقل في حق المخلوق.³

(236) الآخرة وإن كانت غيباً إلا أنها تشهد لها الفطر السوية، والعقول النيرة، والبداهة الإنسانية؛ هذا؛ لأن حياة الإنسان في الدنيا لا تستقيم إلا بالإقرار بالآخرة، والنظر إلى ما فيها من ثواب للصالحين وعقاب للطالحين⁴؛ يستشف هذا من تأخير الله علم الغيب الذي منه الآخرة عن الأدلة العقلية والكونية الدالة عليه سبحانه وتعالى.

(237) لا يعلم من في السماوات والأرض شيئاً من الغيب إلا من مَنَّ الله عليهم ببعضه؛ لأنهم مظلوفون وكل مظلوف يُحيط به ظرفه، فتكون النتيجة أنهم محجوبون عن الغيب⁵.

¹ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: 106/2.

² ينظر: نفسه: 106/2.

³ ينظر: نظم الدرر: 201/14.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 2661/5.

⁵ ينظر: نظم الدرر: 201/14.

(238) الغيب المنفي علمه عن الخلق هو الكامل، أما الذي يغيب عن الأنظار - ويسمى الغيب النسبي - فيمكن أن يعلمه الناس عن طريق التجربة أو القرائن أو العلم الحديث¹، لأن الغيب إذا أطلق في الشرع انصرف إلى الحقيقة الشرعية.

(239) الله سبحانه وتعالى مبين لخلقه، لكنه معهم بعلمه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:4]، وهذا تدل عليه الآية بناء على رأي من جوز دلالة اللفظ على الحقيقة والمجاز.²

(240) في الآية إشارة إلى حاجة العباد وفقرهم، ذلك أنهم مظلوفون في السماء والأرض، وكل مظلوف محتاج إلى ظرفه، فلزم ترك العباد الفقراء والتوجه إلى رب العباد.³

(241) في الآية إشارة لطيفة إلى طريقة إقناع الخصم وتصحيح المفاهيم الخاطئة عنده، وهي الانتقال إلى جزء من الدليل لا يمكن أن يجادل فيه، ببيان هذا أن الغيب لما كان مفهومه الشرعي هو الذي غاب عن الأنظار، ولم يستطع الإنسان الإحاطة به، فقد يجادل المشركون فيه، ويقولون بأنه قد يعلمه بعض الناس كالكهان والسحرة والعرافين؛ فحتى لا يقولوا هذا انتقل الله معهم إلى غيب لا يمكن لأحد أن يدعيه وهو الغيب المتعلق بالبعث والنشور.⁴

(242) أخفى الله سبحانه وتعالى الغيب على عباده حتى لا يأمنوا مكره⁵، بل يبقون بين خوف ورجاء.

(243) من مصلحة العباد إخفاء علم الغيب عنهم، فلو علموه لما ناموا، ولا قضوا مصالحهم⁶، فكيف ينام من يعلم أنه ستكون نهايته دهسا في الطرقات، أو أنه سيعيش آخر عمره بين المصحات، فالحمد لله على فضله وإحسانه.

¹ ينظر: نظم الدرر: 201/14.

² ينظر: نفسه: 201/14.

³ ينظر: نفسه: 201/14.

⁴ ينظر: نفسه: 201/14.

⁵ ينظر: الكشف: 379/3.

⁶ ينظر: في ظلال القرآن: 2661/5.

(244) في الآية إشارة إلى تمام عدل الله تعالى¹، ذلك أنه تعالى ذكر في الآية السابقة إعادة الموتى، والإعادة تستلزم الثواب أو العقاب، وهذان لا يحصلان إلا إذا كان المعيد يعلم الغيب لكي لا يختلط عليه الظالم بالمظلوم، والصالح بالطالح...

(245) يلزم ترك ظاهر الألفاظ في بعض الأحيان، والاستعانة بالإجماع أو القياس أو قرائن الحال والمقال، ومقاصد الشريعة وأصولها؛ فالآية فيها استثناء، والمستثنى يكون ضمن المستثنى منه إذا كان الاستثناء متصلاً²، فلو طبقنا هذه القاعدة لقلنا بالحلول والاتحاد، وهذا باطل بالإجماع³.

(246) تفيد الآية أن الإنسان لا يشعر بالموت إلا عندما يأتيه⁴؛ لأن فيها التعبير بالبعث الذي هو نتيجة للموت، ولازم له.

(247) البعث من أخص خواص ما يتعلق بكل فرد من الإنسان، فإذا ثبت جهله به قطعاً فهو لما يتعلق بغيره من المخلوقات أجهل، وإذا ثبت جهل الإنسان الذي مكّنه الله من أدوات اكتساب العلم فغيره من المخلوقات أجهل⁵، فالآية فيها ارتقاء بليغ يصور لنا ضعف الإنسان المطلق، وعجزه الكامل.

(248) عدم معرفة العباد بزمان البعث من أهم أسباب تكاسلهم عن العمل الصالح الذي ينجيهم من الهلاك في الدنيا والآخرة⁶

(249) تفيد الآية أن النبوة منصبٌ يُؤثقه الله مَنْ يشاء من عباده، ولا علاقة لها بعلم الساعة من قريب أو بعيد، فقد سأل بعض المشركين رسول الله عن علمها فأُنزل الله هذه الآية⁷.

¹ ينظر مفاتيح الغيب: 567/24.

² هذا بناء على رأي بعض المفسرين الذين قالوا إن الاستثناء متصل.

³ ينظر مفاتيح الغيب: 567/24.

⁴ ينظر الخواطر للشعراوي: 10836/17.

⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 269/10.

⁶ تفسير السعدي، ص: 608.

⁷ ينظر: التحرير والتنوير: 19/20.

(250) إذا تعلق الحديث بأمر العقيدة ينبغي أن يكون واضحاً لا لبس فيه، فيُشرح ما يحتاج إلى شرح، ويُبين ما يحتاج إلى بيان؛ فقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾¹ في قوة قولنا: (لا أحد يعلم الغيب إلا الله) لكن أظن في الكلام لنفي أي احتمال.¹

(251) ينبغي للمسلم أن يُنزه الله عن كل ما لا يليق به من المشابهة أو الحلول، وإن صادف نصاً يؤهم خلاف هذا أرجعه إلى النصوص المحكمات كقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾² [الشورى: 11]، فظاهر هذه الآية حلول الله في المكان؛ لأن المستثنى يكون بدلاً من المستثنى منه، ولو حملناه على هذا المعنى لحكمنا على الله بأنه في كل مكان.²

(252) الغيب مراتب، ومن أقواها علم وقت الساعة، فالله نفى عن المشركين علم الغيب مطلقاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم نفى عنهم علم غيب الساعة خاصة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾³، فصار كقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ﴾ [القدر: 4].

(253) عدم العلم بزمان وقوع الشيء لا يلزم منه نفي وقوعه⁴، فالله تعالى عاب على المشركين ووبخهم لأنهم أنكروا البعث لكونهم لم يعلموا وقته بالضبط.

(254) تشير الآية إلى أن الغيب لا حدود له، يستشف هذا من تعميمه - على رأي بعض المفسرين-، والتعميم كما يدل على كثرة المغيبات، يدل كذلك على حقيقتها، ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]؛ لأن العلم هو إدراك المعلوم، وإن كان قليلاً يلزم منه أن يكون المجهول أكثر حقيقة ونوعاً.

¹ نفسه: 19/20.

² نفسه: 20/20.

³ ينظر: البحر الحيط: 261/8.

⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 272/10.

(255) من رحمة الله بالعباد أنه أخفى عليهم الغيب حتى يعيشوا مطمئنين، إذ لو علموه لعاشوا حياة النكد؛ ذلك أن الإنسان إذا علم أنه سيصيبه شيء ما سيحمل همّه وإن كان لا يأتي إلا بعد سنين عددا، وهذا يجعله يفقد لذة الحياة.

(256) تفيد الآية أن علم الساعة لا يمكن أن يطلع عليه البشر ولو تظاهروا مع الجن، أو ملكوا جميع أدوات العلم؛ لأن الله نفى شعورهم بها -فضلا عن علمهم- ، وأتى بالمضارع للدلالة على استغراق جميع الأزمنة والأمكنة والأحوال؛ هذا لأن الفعل يُنزل منزلة النكرة، والنكرة في سياق النفي تعم.

(257) تفيد الآية أن المشركين كانوا يستعجلون عذابا كثيرا، لكن من رحمة الله بهم لم يُنزل عليهم جميعه؛ دل على هذا لفظ (بعض)، الدال على جزء من العذاب، ولفظ: (الذي) الدال على الإبهام.

(258) في الآية إشارة إلى أن الداعية الناجح هو الذي يختار من أسماء الله ما يفي بالغرض، ولا يعتمد إلى الاسم الذي يناسب المعنى إلا بعد النظر في العرض منه؛ ذلك أن تعالى أتى بلفظ الجلالة ولم يأت بالعليم، أو الخبير -مع أن الظاهر أنهما يوافقان الآية- لأن الغرض -والله أعلم- هو إثبات الأولوية، لا ثبات الصفات.

(259) في الآية إشارة إلى أن علم الإنسان قليل ولو بلغ أعلى الدرجات؛ ذلك أن الله نفى عنهم العلم بموتهم، ثم بعثهم، مع أنه يتعلق بذواتهم.

(260) في الآية إشارة إلى أن كل معاني الإدراك بالبعث تنتفي عن الإنسان، ذلك أن الله تعالى عبر عن عدم علمهم بنفي الشعور الذي هو أقل معاني الإدراك، فدل لزوما أن كل ماعداه منتف عن العباد.

(261) في الآية إشارة إلى أن الإنسان لا دخل له في البعث، لا من قريب ولا من بعيد؛ ذلك أن الله تعالى بنى الفعل لما لم يسم فاعله فأشعرنا بأن الأمر موكل إليه.

(262) في الآية إشارة إلى أن العاقل قد يكتفي بالفعل عن الفاعل، ذلك أن تعالى أثبت حقيقة هي البعث، ولم يسند لها لنفسه -مع أنه معلوم أنه مختص بهذا-.

الآية السادسة والستون، قال تعالى: ﴿بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا

عَمُونَ ﴿٦٦﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

263) يحسن الانتقال أثناء المناظرة العلمية من فكرة إلى أخرى مرتبطة بها، لتصير نتيجة لها، أو لازماً من لوازمها؛ يشهد لهذا لفظ (بل) الدالّ على الإضراب الانتقالي، إذ انتقلت الآية من بيان عدم علمهم بالغيب مطلقاً، إلى بيان حالهم مع أمر غيبي أشدّ منه هو يوم القيامة¹، فكأن الله يقول لهم: إذا كنتم لا تعلمون ببعض المغيبات التي علّمْتُها بعض أنبيائي، أو أخبرْتُ بها بعض ملائكتي، فأنتم أشدُّ جهلاً بقيام الساعة.

264) العمى الحقيقي هو عمى البصيرة؛ لأن العمى وإن كان يطلق على فقد البصر، وعدم الإدراك بالبصيرة، إلا أنه عند المقارنة بينهما يصير عمى البصر كأنه غير موجود. وعلى هذا جاء قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46].

265) الجهل بحقائق الأشياء كالعمى عن رؤيتها، لأن سبب الجهل انعدام نور العلم، وانعدام الرؤية سببه فقد البصر.

266) تشير الآية إلى أن علم المشركين في الآخرة يشترك فيه علماؤهم وجهالهم فلا مزية لأحد منهم على الآخر؛ دل على هذا لفظ (ادارك) الذي هو على صيغة (افتعل) التي من معانيها المشاركة²، فتقول مثل: اختصم زيد وعمر؛ يعني أن الخصام وقع منهما معا.

267) القيامة وإن كانت من الغيب المطلق الذي لا يطلع عليه إلا الله، إلا أن الله بسط للعباد أسباب العلم بها، فكانت كالحاضر الذي يُعلم³، فما أخبر به النبي ﷺ من علاماتها -التي ظهر معظمها- يجعل المؤمن ينتظرها كأنها تقع اليوم أو غدا.

¹ ينظر معارج التفكير: 148/9.

² ينظر تفسير القرطبي: 227/13.

³ ينظر الكشف: 379/3.

268) تفيد الآية جواز التهكم بمن أتيحت له أسباب الحصول على شيء ثم لم يحصل عليه عنادا ومكابرة؛ ذلك أن الله تهكّم بالمشركين الذين مكّنهم من الأدلة النقلية والعقلية التي تؤهلهم للعلم بيوم الدين ، بقوله: ﴿بَلْ أَدَارِكْ﴾¹.

269) العلم وسيلة وليس غايةً، فإن نفع فيها ونعمت، وإلا فوجوده وعدمه سياتي².

270) تفيد الآية أن أدلة قيام الناس من قبورهم للحساب والجزاء متظافرة يُقوي بعضها بعضاً³، بحيث لو نظر إليها الذي يريد الهداية لهدته إلى الحق المبين.

271) في الآية إشارة إلى عظمة الله وضعف الناس؛ ذلك أن الله نفى عنهم علم الغيب مع ما يملكون من أدوات علمية مكنتهم من الوصول إلى أمور لم تكن تخطر لهم على البال أصلاً، ومع ذلك ظلوا عاجزين عنها وسيبقوا عاجزين إلى يوم القيامة⁴.

272) تفيد الآية اضطراب المشركين وتششت أذهانهم؛ ذلك أنهم يُنفون البعث والجزاء من أصله كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِابَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ ويقرّون بشفاعة أصنامهم كما أخبر تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿١٨﴾ [يونس: 18]، وهذه الهداية مأخوذة من وجه واحد من معنى (ادارك)⁵.

273) ما عند المشركين من العلم (تسامحاً في الإطلاق) في شأن البعث لم يَنُتِج عن تمحيص الأدلة وتحقيق الأقوال، إنما عن تقليد اللّاحقين للسابقين، يشهد لهذا قول الله فيهم: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ ، [الزخرف: 22]، وهذه الهداية مأخوذة من الوجه الثاني من معنى (ادارك)⁶.

¹ ينظر الكشاف: 379/3.

² ينظر: موسوعة التفسير بالمأثور: 585/18.

³ ينظر: زهرة التفاسير: 5477/10.

⁴ ينظر: حقائق الروح والريحان: 22/21.

⁵ ينظر التحرير والتنوير: 21/20.

⁶ ينظر نفسه: 21/20.

(274) أمر الساعة لم يكن جديدا عند العرب، بل كان شائعا يُنقل جيلا عن جيل، إلا أنه لما دخلته الأهواء سبب للمشركين اضطرابا فيه¹.

(275) الغائب عن المشركين هو التفاصيل عن اليوم الآخر، أما وجود أصل النبأ عنه فقد كان موجودا².

(276) ما عند المشركين من اضطراب في يوم القيامة حاصل مما نقلوه عن آبائهم وأجدادهم في شائها، ومن صوارف أشغلتهم عن النظر في أدلتها، إذ ألهتهم زينة الحياة الدنيا حتى سولت لهم نفوسهم أنهم ماكتون فيها أبد الآبدن³.

(277) من أسباب اضطراب الناس في الدنيا البعث والجزاء، أشار إلى هذا المعنى التعليل المفهوم من حرف (في) الذي من بين معانيه السببية⁴.

(278) أسباب الشيء قد تُنزل منزلة الشيء نفسه، فالله وصفهم بالعلم بالآخرة مع أنهم جهال بها؛ لأنهم لما توفرت لديهم أسباب العلم بها صاروا كالعالمين بها، وإن لم يعلموا فعلا⁵. وهذا المعنى اعتمده الأصوليون والفقهاء في الفقيه، إذ جعلوا الذي يستطيع أن ينشئ حكما جديدا من نصوص الشريعة عالما بالفقه وإن لم يدركه بالفعل، ووصفوه بأنه فقيه بالقوة.

(279) الذين يشركون بالله تحوط بهم الحيرة والشك فيما يتعلق بيوم القيامة، ولا يستطيعون التخلص منهما بحال⁶؛ يستشف هذا من لفظ (في) الدال على الظرفية، كأنهم مُسَوِّرون بسور لا يمكن تجاوزه.

(280) شك المشركين في البعث والحساب سيقى إلى يوم القيامة، ذلك أن الله أتى بالجملة الاسمية (هم في شك) الدالة على الثبوت واللزوم⁷.

¹ ينظر معارج التفكير: 148/9.

² ينظر: نفسه: 149/9.

³ ينظر: نفسه: 150/9.

⁴ ينظر نفسه: 22/20.

⁵ ينظر: روح البيان: 365/6.

⁶ ينظر: زهرة التفاسير: 5477/10.

⁷ ينظر التحرير والتنوير: 22/20.

281) الكفار والمشركون كأنهم محاطون بأسوار من الشكوك لا يستطيعون تجاوزها إلى العلم بحقيقة الحقيقة بسبب الطبع الذي لحق قلوبهم كما دل عليه قوله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]، دل على هذه الهداية لفظ (في) الدال على الظرفية المجازية¹.

282) من أفضل أنواع الوصف الارتقاء من الثابت إلى الأثبت في حق الموصوف أو الموصوفين؛ ذلك أن الله وصف الكفار بعلم أضافه إليهم، على سبيل التهكم، ثم أثبت لهم الحيرة والاضطراب في أمرها، ثم انتهى إلى وصفهم بالعمى عنها².

283) العلم بمثابة العينين اللتين ينظر بهما الشخص، فكلما كانتا قويتين كانت نجاة الشخص من المخاطر متحققة، ذلك أن الله وصف عدم علمهم بالعمى كناية عن جهلهم بما يتعلق بالآخرة³.

284) تفيد الآية أن تشبيه المعقولات بالمحسوسات مفيد جدا في تحقيق الإقناع، فالله شبه العلم المعقول بالعمى المحسوس ليصور للناس حالهم بأبشع صورة حتى يتفادوها⁴.

285) لما كان العمى الحقيقي هو عمى القلب كان الذي لا ينظر بعين البصيرة أعمى وإن كان ينظر بكلّي عينيّه، والناظر ببصيرته بصيرا وإن كان فاقد العينين⁵؛ وعبد الله ابن أم مكتوم خير مثال على هذا.

286) من أسباب معصية الله الجهل به؛ قال سهل بن عبد الله التستري "ما عصى الله أحدٌ بمعصية أشد من الجهل"⁶؛ لأن الجهل بالله سببٌ للاستهانة بعقابه، لذا لا يخشى الله حقّ الخشية إلا العلماء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].

¹ ينظر التحرير والتنوير: 22/20.

² ينظر نفسه: 23/20.

³ ينظر التحرير والتنوير: 22/20.

⁴ ينظر: نفسه: 22/20.

⁵ ينظر: روح البيان: 365/6.

⁶ ينظر: نفسه: 366/6.

(287) تفيد الآية أن الإنسان ينبغي أن يغتنم الفرص التي تُتاح له، فقد تذهب ولا يستطيع إرجاعها، فالله تعالى بيّن - على بعض الأوجه في قراءة (بل ادارك) - أن المشركين آمنوا في الآخرة بما كانوا يُوعدون به في الدنيا لكن لم ينفعهم إيمانهم.¹

(288) المشركون عمون عن الآخرة وما فيها من الحقائق فقط، أما عن أمور الدنيا فيعلمون كثيرا منها²، دلّ على هذا تقديم الجار والمجرور (منها) على عامله (عمون)، ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم:7]، وأيضا الواقع المعاصر، فإن الذين بلغوا في علم الدنيا مبلغا يعجز العقل عن تفسيره معظمهم من الكفار.

(289) الشك في الآخرة ليس ناتجا عن قلة الأدلة، أو ضعف البراهين، إنما للنفور الذي في القلوب؛ ف(من) متعلّق بمحذوف يقدر ب(النفور)، دلّ عليه السياق، وشهدت له نصوص أخرى، كقوله تعالى: ﴿أَنسَجِدُ لِمَا تُأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:60].

(290) العلم يُمدح أو يذم باعتبار غايته، فإن أوصل إلى النجاح فهو محمود، وإن أوصل إلى ضده فهو مذموم، دليل هذا: إضافة العلم إليهم، والإضافة يُحدّد معناها بحسب السياق والقرائن والأحوال، ويشهد لهذه الهداية قول الله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة:102].

(291) الذي لا ينتفع الناس بعلمه ينبغي أن لا يُذكر اسمه في المجالس المحترمة، والأماكن المقدسة صونا لها عن التنجس بلفظه، ذلك أن الله قال (علمهم) ولم يقل علم المشركين أو الكافرين، بخلاف أسمائه وصفاته، فقد يظهرها في مقام الظاهر فيه الإضمار كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال:69].

(292) تفيد الآية أن المسلم ينبغي أن ينظر إلى ما أخبر الله به من وعد ووعد في يوم القيامة كأنه أمرٌ حصل وانتهى، ذلك أن الله عبر عن حصول علمهم بيوم القيامة بالفعل الماضي الدال على حصول الشيء وتحققه لما لم يحصل بعد تنزيلا له منزلة الحاصل؛ ولهذا شواهد كثيرة في القرآن الكريم

¹ ينظر جامع البيان: 489/19.

² ينظر: زهرة التفاسير: 5477/10.

كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ﴾ [الزمر: 73]، وقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ [النحل: 1].

293) شدة العناد والتكذيب تؤدي إلى فقد البصيرة، حتى يصير الناظر بعينه غير ناظر ببصيرته، فالمشركون من قريش وغيرها اتاهم النبي ﷺ بآيات بينات شاهدات على وحدانية الله تعالى إلا أنهم لما جابهوها بالإعراض بالغ في وصفهم بالعمى بقوله: (عمون)¹

294) تفيد الآية أن في الآخرة زمانا ومكانا إلا أنهما يختلفان عن زماني ومكاني الدنيا؛ هذا لأن الله أتى ب (في) الدالة على الظرفية؛ ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝﴾ [إبراهيم: 48]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾ [الحج: 22].

295) شك المشركين متفاوت يُوجب على الداعية معرفة قدره ليزيله بما يناسبه، دليل هذا النكرة (شك) التي تدل على مطلق الماهية، ويبقى الناس مختلفون في الأجزاء.

296) تفيد الآية أن عمى المشركين عن يوم القيامة مؤكَّد لا شك فيه، دل عليه الجملة الاسمية (هم في شك)، والإضراب ب (بل).

297) عندما يصبح القلب عمى يزول منه الخوف، فيقدم صاحبه على المعاصي، ويستحل الشهوات، ويكذب بالأخبار الصادقات، فتكون نتيجته خسران الدنيا والآخرة².

298) " في الآية الكريمة ثلاثة مفاهيم لموقف واحد.. هو موقف المشركين من يوم القيامة.. فالمشركون وإن كانوا على موقف واحد من إنكارهم للبعث، فإنهم في إنكارهم ليسوا على صورة واحدة.. إذ يكاد يكون لكل منكر للبعث تصوُّر خاص به، ومفهوم استقلّ به، وأقام إنكاره للبعث عليه"³

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 23/20.

² تفسير الكريم الرحمن، ص: 608.

³ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 10/275.

(299) الذي "لا يؤمن بعالم الغيب، لا يهديه عقله وعلمه إلى الإيمان بيوم القيامة.. وهؤلاء هم العلماء الذين يحتكمون إلى العقل وحده، وعلى الحجب الاستدلالية التي ينقض بعضها بعضاً"¹.

(300) في الآية إشارة إلى أن الذي تلهيه الدنيا وملذاتها يُصبح من الغافلين عن يوم القيامة، فإذا استمر على حاله أصبح كأنه أعمى بالنسبة إليها، فلا ينظر إلى حججها، ولا يبحث عن أدلتها²، ووجه الهداية تعبير الله (بعمون).

(301) الإنسان مطبوع "على نقائص موجبة لطغيانه، ومبالغته في العلو في جميع شأنه، ولا يوهن تلك النقائص منه إلا الخوف من عرضه على ديانته"³، دليل هذا تقديم الجار والمجرور (منها) على عامله (عمون).

(302) تشير الآية إلى أن الإنسان مُسَيَّر لا يمكن أن يخرج عن قدرة الله؛ لأن فيها إشارة إلى كون العلم يهجم عليه في الوقت المناسب، وهذا العلم هو الذي يصطلح عليه المناطقة بالعلم الضروري؛ إلا أنهم يقصدون العلم الحاصل في الدنيا، والآية تشير إلى علم يحصل في الآخرة.

¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 10/ 275.

² ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 10/ 276.

³ نظم الدرر: 14/ 204.

الآية السابعة والستون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا آيِنًا

لَمُخْرَجُونَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

305) المنكرون للبعث لا يقدمون أيّ دليل علمي على عدم بعثهم، إنما يُظهرون تعجبات

فقط.¹

306) القرآن الكريم كتاب ينصف الجميع، ذلك أنه لما ذكر نفى المشركين للبعث وشكّهم في

وقوعه، أتى بأدلتهم² (شبههم) ليبين لنا طريق التعامل مع الخصم.

307) المشركون يستبعدون الرجوع إلى الدار الآخرة بسبب كون أجسادهم اختلطت بالتراب فلم

تعد تتميز عنه، أو بسبب فنائها بأي وسيلة كانت، كالتّي أكلتها السباع، أو الحيتان أو أحرقت النيران، ووجه الهداية إطلاق الخروج دون تقيده بقيد فدل على أن المعاني كلّها مرادة.³

308) في الآية دليل على صحة قاعدة نحوية، وهي الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه إذا

كان ضميراً مرفوعاً بأي فاصل، والفصل بينهما هنا بخبر كان.⁴

309) من الكفار من يزعم أنه يعلم الغيب، ومنهم من لا يزعم هذا الزعم، لذا ناسب أن

تعطف هذه الجملة على التي قبلها.⁵

310) من بين أسباب إنكار البعث الاعتماد على المحسوسات وحدها⁶، فلما لم ير الكفار شيئاً

عاد إلى أصله أنكروا أن يعودوا هم إلى أصلهم، وهذا الدليل هو المعتمد الآن عند جمهور الملاحدة والمنكرين للبعث.

¹ ينظر: معارج التفكير: 151/9.

² ينظر: البحر المحيط: 265/8.

³ ينظر: الكشف: 380/3.

⁴ ينظر: البحر المحيط: 265/8.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 24/20.

⁶ ينظر: زهرة التفاسير: 5478/10.

311) تشير الآية أن من طبيعة الإنسان أن يتحدث عن غيره، وينزله منزلة نفسه، بحيث يصير الذي يسري على نفسه يسري على غيره أو العكس؛ يستشف هذا من تعبير المنكرين للبعث ب (إننا) ليشملهم الحكم هم وآبائهم السابقين¹.

312) علة إنكار البعث الكفر بالله، وليس عدم كفاية الأدلة عليه، دليل هذا الاسم الموصول (الذين) الذي يؤمى إلى أن علة مقاتلهم ما أفادته الصلة من كونهم كافرين².

313) تطاول الزمان يجعل الناس ينكرون الحقائق؛ فالكفار أنكروا البعث لأنهم وُعدوا به من لدن آدم عليه السلام ولم يقع لحد الساعة، لذا تساءلوا متعجبين كيف يُبعثون ولم يبعث أحد من آبائهم وأجدادهم؟³.

314) النفس البشرية عزيزة على صاحبها، فكل مسرف في المعاصي يريد أن يؤمن نفسه، ولا سبيل له إلا أن ينكر البعث الذي يأتي بعده العذاب، أو يمتنحها بأنه غير موجود أصلاً حتى يخفف عنها⁴، دليل هذا أن كل صالح يمتنح نفسه بالبعث ليريحها من مصائب الدنيا، وكل طالح ينكره أو يتجاهله ليريحها من آلام التفكير فيه.

315) المنكرون للبعث لا ينظرون إلا إلى ما يترتب عليه من العذاب فقط، أما الثواب فعندهم في حكم المعدوم، لذا نجد من أعذارهم كيف يكتب الله علي المعصية ثم يعاقبني عليها؟، ولا نجد من أقوالهم لماذا يكتب الله علي الطاعة ثم يُثبني عليها؟⁵.

316) الإيمان بالبعث والرسول قرينان لا ينفكان، فمن كذب الرسل سيكذب بالبعث من باب أولى؛ لأن الخبر عنه لا يأتي إلا من جهتهم، ومن كذب بالبعث سيكذب الرسل لزوماً لأنه من جملة أخبارهم⁶.

¹ ينظر: البحر المحيط: 265/8.

² ينظر: التحرير والتنوير: 24/20.

³ ينظر الخواطر للشعراوي: 10837/17.

⁴ نفسه: 10837/17.

⁵ نفسه: 10838/17.

⁶ نفسه: 10838/17.

(317) تفيد الآية أن كفار قريش كانت عقائدهم مختلفة ومضطربة، فيؤمنون بالله رباً وخالقاً كما قال تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: 61]، وينكرونه فعلاً، فيجعلون ما يقع في هذا الكون من قبيل الصدفة كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24]؛ ووجه هذه الهداية من الآية: قولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ فأفاد ظاهره أن صيرورتهم تراباً ليست لله، إذ لو كان كذلك - في تطبيقاتهم - لقالوا (حوّلنا الخالق تراباً)، كما قالوا (لُخرجون) باسم المفعول.

(318) في الآية إشارة إلى أن علة استبعاد العودة هي الكفر لا الحقائق العلمية، أو الشواهد البرهانية؛ دليل هذا صلة الموصول؛ إذ قد تقرر في علمي البيان والأصول أن بناء الحكم على المشتق يفيد أن ما منه الاشتقاق هو علة الحكم.

(319) في الآية إشارة إلى أن الكفر طارئ على بني آدم لا أنه أصل فيه؛ ذلك أن الله تعالى عبر عن كفرهم بالفعل الماضي الدال على الحدوث.

(320) في الآية إشارة إلى أن الإيمان بالموت حقيقة لا ينكرها أي إنسان؛ ذلك أن الكافرين يقرون بالموت، ويتساءلون عن إمكانية بعثهم من جديد.

(321) في الآية إشارة إلى أن الكافرين ومن يسير في طريقهم يسعون دائماً إلى تغيير النقاش بطرح الأسئلة البعيدة؛ ذلك أن كفار قريش تحولوا من إقامة الحجة على صدقهم في دعواهم إلى طرح الأسئلة على إعادة الخروج من جديد.

الآية الثامنة والستون، قال تعالى: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا آسَاطِيرُ

الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

من الهدايا التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

323) الدين جزء لا يتجزأ، فإن ذهب بعضه وبقي شيء منه فلا ينفع صاحبه، فالمشركون في مكة كانت لهم بقايا من دين إبراهيم إلا أنها لم تنفعهم، دل على هذا قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا﴾¹، والوعيد بيوم الدين لا يكون إلا من الأنبياء.

324) تدل الآية على أن المشركين كانت لهم بقايا من الدين، لأنهم أقرروا بإخبارهم بالبعث.

325) تدل الآية على أن المشركين يشهدون للأنبياء السابقين بأنهم بلغوهم الرسالة، دليل هذا تأكيد وعدهم من الأنبياء ب (قد).

326) تشير الآية إلى أن المشركين كانت لهم عداوة مع أشخاص الأنبياء حيث اعتبروهم أقل مرتبة منهم مما يجعلهم غير مستحقين لمنصب النبوة في زعمهم، دل على هذا إقرارهم بالتبليغ، مع عدم التصريح بأسماء الأنبياء أو منصبهم، إذ (وعدنا) ولم يقولوا وعدنا الأنبياء، أو وعدنا إبراهيم...؛ ويشهد لهذا قول الله تعالى حكاية عن كفار قريش: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:31].

327) غاية ما يعتمد عليه المنكرون للبعث -وهو ليس دليلاً علمياً- هو أن البعث لم يحصل، إذ لم يخرج أحد من آبائهم أو أجداهم من قبره ليقول لهم إن الله بعثني².

328) من بين الأسباب التي تجعل الإنسان ينكر البعث الجهل بمقدار علم الله، إذ يتخيل المنكر أن بعض أجزائه قد تخفى عن الله تعالى، مما يجعله مستبعداً العودة إلى الحياة مرة أخرى³.

329) كفار قريش لهم إنكار وراء إنكار، وجحود وراء جحود، دل على هذا تكريرهم الاستفهام فقالوا ﴿أَءَاذُكُنَا﴾ ثم ﴿أَيُّنَا الْمُخْرَجُونَ﴾⁴.

¹ ينظر: زهرة التفاسير: 5479/10.

² ينظر: معارج التفكير: 151/9.

³ ينظر: نفسه: 151/9.

⁴ ينظر: الكشف: 380/3.

(330) كفار قريش كانوا يميلون إلى تسفيهه وتجهيل معتقد البعث والجزاء، فهم صاغوا الإنكار في قالب الاستفهام للإشارة إلى التسفيه والتعجيز¹.

(331) ليس من الحكمة مخاطبة منكري البعث بالآيات الدالة على عقاب الكافرين، وثواب المؤمنين في الآخرة، بل تجب مخاطبتهم بالأدلة القطعية الدالة على الجزاء، ثم إتباعها بآيات الثواب والعقاب؛ لأن الذي ينكر البعث ينكر لزوما ما يترتب عليه. نفهم هذا من انتقال الله من الحديث عن إنكار الكفار للبعث إلى الحديث عن الأدلة المحسوسة الدالة عليه².

(332) تفيد الآية أن المشركين ينسون أنفسهم يوم القيامة، ويهتمون بالبعث وحده، يفهم هذا من تقديمه على أنفسهم إذ قالوا: - كما حكى الله عنهم - ﴿لَقَدْ وَعَدْنَاكَ هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ بينما قالوا في آية أخرى: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَاكَ نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 83]³.

(333) من بلاغة القرآن الكريم أنه إن أعاد المعنى لداعٍ من الدواعي تَفَنَّنَ فيه، وأتى بنكت تجعل القارئ يستلذ الكلام ويستعذبه⁴، يستشف هذا من إعادة (لقد وعدنا) الآية مع تقديم وتأخير في بعض ألفاظها.

(334) من كرم رسول الله ﷺ على ربه أنه جَمَعَ له بين إزالة الغم الناتج عن كفرهم، وإزالة الخوف من جانبهم⁵.

(335) كل من ادعى من الكفار التسامح، أو تقبَّل معتقدات غيره فدعواه كاذبة، فالله تعالى أشار إلى أن كفار قريش كانوا يستهزئون باعتقاد رسول الله والمسلمين؛ وقد بيَّنَّا أن علة الإنكار هي الكفر، وهو موجود في السابقين واللاحقين؛ يشهد لهذا قول الله في بني إسرائيل ﴿حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109].

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 24/20.

² ينظر: معارج التفكير: 152/9.

³ ينظر: الكشف: 380/3.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 26/20.

⁵ مفاتيح الغيب: 569/24.

(336) الجهل يوقع الإنسان في مطبات عظام، إذ جعل المشركين غير مميزين بين المنقول عن السابقين، وما تشهد له البراهين، فقاوسوا حجج القرآن وبراهينه الساطعة، وأدلته القاطعة، على ما نقل عن آبائهم وأجدادهم مما تنكره العقول النيرة، وترفضه الفطر السليمة.

(337) في الآية إشارة إلى أن الإنسان ينطلق من نفسه حين يحكم على غيره، فالمشركون لما كانوا منكبين للبعث، أو شاكين فيه خاطبوا أنبياءهم ورسلهم خطاب المنكر مع أن أنبياءهم يعرفون أنهم وُعدوا من طرف الأنبياء السابقين، ووجه هذه الهداية، تأكيد الجملة بقدر واللام، مع أن المقام مقام خالي الذهن.

(338) تفيد الآية أن الكذب في الأخبار موجود منذ القدم، ذلك أن المشركين كثيرا ما كانوا يحتجون بهذا فلم يُنكر الله عليهم أصل الإطلاق، إنما يبين لهم أن القرآن ليس من جنس الأساطير، وإنما هو حقائق ربانية، وأنوار إيمانية؛ لذا جاءت الآية التالية آمرة بالسير في الأرض للنظر في عاقبة الأمم السابقة التي أخبر عن حالها مع أنبيائها ورسلها، كأنه يقول لهم: انظروا فيها وتأملوا في آثارها، وقارنوه بما تجدونه في هذا الكتاب، لتروا هل فيه اختلاف أو تناقض بين مضموناته كما هو الشأن بالنسبة للأساطير.

(339) من عادة المشركين أنهم يقلبون الذي لهم عليهم استهزاء وتكبرا؛ ذلك أنهم عبروا بالوعد (وُعدنا) في مكان الوعيد استهزاء بالرسل الذين أوعدهم بما في النار من خزي ونكال.

(340) لا ينظر المشركون إلى الحقائق العلمية، والأحكام الربانية التي عاجلت واقعهم، إنما ينظرون فقط إلى الأخبار المتعلقة بالبعث والحساب مما قيل لآبائهم وأجدادهم؛ لذلك أدرجوا كل ما جاء في القرآن ضمن الخرافات التي يتناقلها اللاحقون عن السابقين. يفهم هذا من الحصر والقصر المستفاد من (النفي والاثبات).

(341) وعيد القرآن يُؤثر على نفوس الكافرين، فيجعلهم يظهرون تعظيمه دون أن يشعروا، ووجه هذه الهداية أنهم أتوا باسم الإشارة (هذا) مرتين للدلالة على تعظيمه في نفوسهم، وأن أخباره بلغت منهم مبلغا عظيما.

(342) في الآية إشارة إلى أن الكافرين يعتقدون في داخلهم أنهم غير مصدقين، أو أن المسلمين يشكون في صحة أقوالهم؛ ذلك أن كفار قريش أكدوا للمسلمين وعدهم ووعد آبائهم من طرف الأنبياء والمرسلين، مع أن المسلمين لا يشكون في كذا، فضلا عن أن ينكروا.

(343) في الآية إشارة إلى أن المشركين ومن يسير على منوالهم من أهل الكفر لا يواجهون الحجة بالحجة، وإنما يسلكون سبيل الإنكار المجرد؛ ذلك أنهم لم يقدموا أدلة تثبت كذب النبي صلى الله عليه وسلم، أو تناقض القرآن، وإنما قالوا: ما هو إلا كالحكايات التي ينقلها الناس جيلا عن جيل.

(344) في الآية إشارة إلى أن أهل الشرك ومن يسير على منوالهم من أهل الكفر يظهرون أنهم يعتقدون اعتقادا جازما لا يخالطه شك بأن هذا القرآن إنما هو كلام بشر، حتى لا يطمع أهل الإيمان في مناقشتهم، أو مناظرتهم؛ دل على هذا استعمالهم حرف (إن) الدال على تأكيد النفي.

(345) في الآية إشارة إلى أن أهل الكفر يتحاشون التصريح بأسماء وصفات أهل الفضل من الأنبياء خشية أن يبحث الناس عنهم، فيعرفون حقيقة دعوتهم؛ دل على هذا عدم تصريح الكفار بمن وعدهم، وحكاية القول ببناء الفعل للمجهول.

الآية التاسعة والستون، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُجْرِمِينَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(346) من أعظم أسباب الإعراض عن آيات الله حبُّ الدنيا والرياسة والجاه، وعدم الانقياد للغير، لذا كان من المناسب أن يأمرهم الله بالسير في الأرض للنظر إلى ما فعلت الدنيا والجاه والأنانية بأصحابها¹.

(347) في عقاب الله تعالى للكافرين والمجرمين في الدنيا دليل على قانون الجزاء الذي يسري على الآخرة كما هو في الدنيا، لذا قال تعالى للمكذبين ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾².

(348) السير الذي يدل على يوم البعث هو السير الذي يراد منه البحث عن الحقائق، لا مطلق السير؛ لأن الله تعالى قيده بالنظر، والقيّد لا بد أن يراعى في المقيّد، لذا نرى في زماننا كثيرا ممن يجوبون الأرض طولا وعرضا غير مؤمنين بالجزاء، والسبب أنهم ساروا للمتعة وليس للتعلم³.

(349) النظر المفيد هو الذي يكون بأمرين: بالعين الباصرة التي تدل السائر على آثار من سبقوه، والعين البصيرة التي ترشده إلى العبر والحكم⁴.

(350) السير في الأرض كلّها نافع للمتدبرين، والسير إلى أماكن المكذبين للرسول أنفع لأنه يعطي إشارة إلى أن ما حل بالسابقين سيحل باللاحقين لا محالة⁵.

(351) في الآية إشارة إلى أن المسلمين ينبغي أن يتركوا جميع الذنوب والمعاصي؛ لأنها سبب في عقاب الله، ووجه الهداية أن الله أتى بلفظ (المجرمين) بدل الكافرين ليبين أن العقاب لا يختص بالكفار فقط⁶، بل يشمل كل من اتصف بصفة الإجرام التي منها الكفر بالله.

¹ ينظر مفاتيح الغيب: 569/24.

² ينظر: معارج التفكير: 153/9.

³ نفسه: 153/9.

⁴ نفسه: 154/9.

⁵ روح البيان: 388/6.

⁶ ينظر: الكشف: 381/3، ومفاتيح الغيب: 569/24.

(352) "القرآن يوجه الناس إلى البحث عن السنن المطردة، وتَدَبُّرِ خطواتها حتى يعيشوا حياة متصلة الأوشاج، متسعة الآفاق، غير متحجرة ولا مغلقة ولا ضيقة ولا منقطعة"¹، فالله تعالى لما أتى بالآيات الدالة على عظمة قدرته، أتبعها بالأمر في السير في الأرض ليدرك الناس أن ما حل بمن قبلهم يمكن أن يحل بهم، لأن قدرة الله ليس لها حدود.

(353) إذا كان الأمر متعلقا بالاعتقاد يجب الرجوع عن الغي إلى الهدى بعد ظهور الحق مباشرة، ووجه هذه الفاء (فانظروا) الدالة على الترتب والتعقيب².

(354) في الآية إشارة إلى أن عذاب الحجاب أشد من عذاب الجحيم، فقد قال تعالى في حق الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15] فقدم الحجاب على العذاب بيان شدته³، ووجه الهداية من الآية أن الله ذكر عاقبة المجرمين، فشملت عاقبتهم في الدنيا، وعاقبتهم في الآخرة.

(355) سنة الله ثابتة لا تتغير، متى تطابقت الأمثال، واقتضت الحكمة الثواب أو العقاب⁴، لأنه قد تُتحد الأسباب ويشاء الله أن تتخلف المسببات، كما هو الشأن بالنسبة لأمة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مع باقي الأمم، إذ خصها الله بنعمة عدم قطع الدابر، بخلاف الأمم السابقة استجابة لدعوة رسول الله ﷺ.

(356) للنظر في القرآن لا بد من العلم بمصطلحاته، وإلا سنَقُولُه مالم يُقْلَه، ونَحْمِلُ ألفاظَه على غير محاملها؛ ووجه الهداية أن الله استعمل المجرمين في كثير من الآيات للدلالة على الكافرين⁵، فمن لم يفهم هذا الاصطلاح سيستنتج منه تكفير مرتكب الكبيرة⁶.

(357) النظرة العميقة إلى آثار السابقين تؤدي مباشرة إلى الاعتبار والاتعاظ، فالله تعالى أتى بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، ليشير إلى هذا المعنى⁷.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 2663/5.

² ينظر: نظم الدرر: 207/14.

³ ومفاتيح الغيب: 570/24.

⁴ ينظر: جامع البيان: 491/19، ومعارج التفكر: 154/9.

⁵ ينظر: معارج التفكر: 155/9.

⁶ ينظر جامع البيان: 491/19.

⁷ ينظر: زهرة التفاسير: 5480/10.

(358) في الآية إشارة إلى أن هذا القرآن من عند الله، وليس لمحمد فيه شيء، ذلك أن الله قال له : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ فقالها كما أوحاها الله تعالى إليه، إذ لو كان من عنده لما أتى ب (قل).

(359) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله ينبغي أن يطلب من المنكرين للبعث السير في الأرض للنظر في عاقبة الأمم السابقة؛ ووجه هذه الهداية أن خطاب الله لرسوله خطاب لأمتة، وبخاصة من يقوم مقامه في الدعوة والتبليغ.

(360) مهمة الرسل والأنبياء ومن يقوم مقامهم من العلماء والدعاة تبليغ شرع الله كما أمر، أما أن يتَّبِعَهُم الناس أو لا فليس من مهمتهم¹؛ دل على هذا أمر الله رسوله ﷺ بعدم الحزن على كفر قريش ومن حولها به، وأكد قول الله أيضا: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة:99].

(361) لا يعاقب الله أحدا إلا إذا أتى بأسباب العقاب؛ لأن الله عدل لا يظلم أحدا؛ دل على هذا لفظ (عاقبة) الذي يستشف منه أن العقاب تأخر عن العمل.

(362) في الآية إشارة إلى أن الذي يحدث به الاتعاظ والاعتبار هو قطع المسافات الطوال لا مجرد الانتقال من مكان إلى مكان؛ دل على هذا التعبير بالسير -الذي يدل على التحول من مكان إلى مكان بعيد عنه- بدل المشي الذي يدل على مجرد الانتقال.

(363) في الآية إشارة إلى أن السير في الأرض قد يكون من المندوبات في حق المسلمين؛ لأنه يؤدي إلى زيادة الصلة بالله، وما كان كذلك فأقل درجاته الندب؛ دليل هذا فعل الأمر (سيروا).

(364) في الآية إشارة إلى أن النظر ينبغي أن يكون عقب السير مباشرة، بحيث إذا شرع في الخروج يتأمل حال الأرض، وعاقبة أهلها؛ ذلك أن الله تعالى عطف النظر على السير بالفاء المشعرة بالتعقيب.

(365) في الآية إشارة إلى أن الله ينوع العقاب، وأنه يعاقب من جنس العمل؛ دليل هذا لفظ (كيف) المشعر بالطريقة التي حصل بها العقاب.

(366) في الآية إشارة إلى أن النظر ينبغي أن يكون إلى النهايات لا إلى البدايات؛ ذلك أن الله تعالى قال: انظروا إلى العاقبة، ولم يقل: انظروا إلى حالهم قبل الهلاك.

¹ ينظر الخواطر للشعراوي: 10839/17.

(367) في الآية إشارة إلى أن العقاب لا يقتصر على الكافرين ومن على منوالهم من المنافقين والملحدين، بل قد يكون حتى للمؤمنين الذين كثر فيهم الخبث، دليل هذا التعبير بالمجرمين، الشمال لمن أجرم في حق الله بالكفر والحجود، ولمن أجرم في حق نفسه وعباد الله.

(368) في الآية إشارة إلى أن المجرم يلقي جزاءه حتما في الدنيا، إما بالطريق التي يموت عليها، وإما بالوضع التي يعيش عليها في حياته؛ ذلك أن الله تعالى أتى ب (أل) في المجرمين فشملت كل من اتصف بصفة الإجرام.

الآية السبعون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(370) تفيد الآية أن الله يتولى رسوله فيمنعه من مكر الكافرين¹.

(371) تفيد الآية أن بعض الناس لا يستحقون الحزن المفرط عليهم²، أو حمل الهم من أجلهم، كالذين يقابلون الأدلة بالإعراض، واللين بالشدة، يدل على هذا نهي الله رسوله ﷺ عن الحزن على المشركين الذين استهزئوا برسالته، وكفروا بنبوته رغم سطوع البراهين وقطعية الأدلة، وهذا النهي جاء في كثير من الآيات منها ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿٨﴾ [فاطر:8].

(372) مكر الكافرين والمجرمين لا يعود إلا عليهم³؛ لأن الله طمأن رسوله ﷺ بأن مكرهم لا يضره، ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [البقرة:9].

(373) تفيد الآية أن الداعية إلى الله ينبغي أن لا يبالغ في الحزن على الذين أعرضوا عنه مهما علا شأنهم، فالله تعالى نهي رسوله عن الحزن الشديد على الذين أعرضوا عنه مطلقاً⁴، وفيهم السادة وأهل الرأي.

(374) تفيد الآية أن الإنسان بطبعه يحزن حينما يرى غيره يقع في الهلاك، هو يدبر لنجاته، والآخر يدبر لقتله⁵.

(375) تفيد الآية أن شفقة النبي بالأمة كلها كبيرة جداً، فلما ذكر الله في الآية السابقة عقاب الأمم الماضية خاف ﷺ على أمته من الهلاك، فربط الله على قلبه بهذا التشجيع، وألقى في روعه

¹ ينظر: ينظر: الكشاف:3/381، ومعارج التفكير:9/163.

² ينظر: معارج التفكير:9/156.

³ ينظر: البحر المحيط:8/265.

⁴ ينظر: معارج التفكير:9/159.

⁵ نفسه:9/159.

رباطة الجأش بقوله ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾¹، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ (مثلي ومثلكم كمثلي رجل أوقد ناراً... الحديث)².

376) الداعية إلى الله ينبغي أن لا يحزن على المعرضين عن دعوته - إن لم يكن التقصير منه-، ولا يخاف من بأسهم؛ لأنه يقوم مقام النبي كما يقول الشاطبي³، والنبي قد ضمن الله له الحماية، وأمره بعدم الحزن عليهم⁴.

377) من أعظم النعم على العبد أن يأتيه خبر من الله بأنه حاميهِ ورادُّ عنه كيد أعدائه، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٧٠) كناية على أن مكْرهم ضعيف أمام تدبير الله للنبي ﷺ⁵.

378) تشير الآية إلى تجنب أسباب الشيء حتى لا يحصل؛ ذلك أن فيها النهي عن الحزن الذي لا يدخل ضمن قدرة المكلف، والمقصود النهي عن أسبابه، فصار من إطلاق المسبب وإرادة السبب⁶.

379) تشير الآية إلى أن كفار قريش لم يقتصر أمرهم على مجرد التكذيب، بل تعداه إلى نصب الحبائل، وابتغاء الغوائل للمؤمنين، دليلٌ هذا أن الله جمع لرسوله صلى الله عليه بين نهيه عن الحزن عنهم، وبين طمأننته من مكْرهم⁷.

380) في الآية إشارة إلى أن الحزن يؤدي إلى الموت إن كثر⁸، يؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾، وأيضاً النهي لا يكون إلا على أمر ليست فيه مصلحة.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 26/20.

² سبق تخريجه

³ ينظر الموافقات: 253/5.

⁴ ينظر مفاتيح الغيب: 569/24.

⁵ ينظر: جامع البيان: 491/19، ومعارج التفكير: 163/9.

⁶ ينظر: روح البيان: 367/6.

⁷ ينظر: نظم الدرر: 208/14.

⁸ ينظر: معارج التفكير: 156/9.

(381) الحزن المنهي عنه هو المميث، أما الذي تقتضيه الطبيعة البشرية فغير داخل تحت النهي، يدل على هذا الآية الأخرى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ وأيضاً قوله صلى الله عليه وسلم (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبحن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي)¹

(382) في الآية إشارة إلى أن الحزن من الأمور المقدور عليها، التي يتحكم الإنسان في وجودها وعدمها، وقتلتها وكثرتها؛ دليل هذا نهي الله نبيه ﷺ على الحزن، والنهي لا يكون إلا في الأمور المقدور عليها.

(383) في الآية إشارة إلى أن الذي بُلِّغ الرسالة على وجهها، أو ظهرت له الأدلة الواضحة لا ينبغي الحزن عليه، ذلك أن الله تعالى نهي نبيه ﷺ عن الحزن على المشركين بعدما أمرهم بالسير في الأرض قصد النظر في عاقبة المجرمين.

(384) في الآية إشارة إلى أن الداعية الرباني هو الذي يتأثر لحال أمته، فيرى مصيرهم كأنه مصيره، ذلك أن النبي ﷺ كان يتأثر لقومه كثيرا، ويقول عن الذي مات كافرا: إنها نفس تفلتت مني.

(385) في الآية إشارة إلى أن أصحاب القلوب المريضة يقابلون الإحسان بالإساءة، بل يضيفون إليها المكر بالمحسنين، ذلك أن الله تعالى بيّن مكر المشركين بالنبي ﷺ الذي كان أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم.

(386) في الآية إشارة إلى أن المشركين ومن على منوالهم يبحثون دائما على ثغرات للمسلمين قصد إيصال الأذى إليهم؛ دليل ذلك تعبير الله عن مكر المشركين بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار.

(387) في الآية إشارة إلى أن الإحاطة بمكر المشركين من الأمور الصعبة إن لم تكن من الأمور المستحيلة؛ ذلك أن الله تعالى ذكر المشركين ب (ما) الدالة على الإبهام.

¹ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب شفقة النبي ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم: 1790/4، رقم:

(388) في الآية إشارة إلى تفاوت الدعاة إلى الله في حمل همّ الدعوة، فبعضهم يجتهد في الدعوة ويحمل همّ قومه، لكنه لا يعبأ كثيرا بحال المدعوين، وبعضهم يحمل همهم لدرجة نسيان نفسه مقابلهم؛ دل على هذا تفريق الله تعالى بين الحزن والضيق.

(389) في الآية دعوة للدعاة إلى الله بأن لا يخافوا من مكر أعدائهم، بل يعتقدون أن الله معهم يكفيهم شرهم، ويقيهم من بأسهم.

الآية الواحدة والسبعون، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١)

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

391) من أهم ما يعتمد عليه المنكرون للبعث، عدمُ تحديد يوم القيامة، لذا يشوشون به على أفراد المسلمين وجماعتهم¹.

392) مطالبة المشركين للمسلمين بتحديد زمن يوم القيامة كانت متكررة في أزمان متعددة، وأماكن متفرقة، دلّ على هذا الفعل المضارعُ الدال على التجدد والاستمرار².

393) المشركون لا يقطعون بكذب الأنبياء وأتباعهم في إثبات يوم البعث، إنما يشكون في صدقهم فقط، دليل هذا حرف (إن) الشرطية الدالة على الشك، بخلاف إذا الدالة على الوقوع³.

394) في الآية "إشارة الى أن استعجال منكري البعث في طلب العذاب الموعود لهم من غاية جهلهم بحقائق الأمور، وإلا فقد ردّفهم أنموذجٌ من العذاب الأكبر وهو العذاب الأدنى من البليات والمحن"⁴

395) الذي يطالب بالعذاب ويلح عليه يلحقه بعضه عقب طلبه⁵، فالآية وإن كانت متعلقة بالمشركين في زمن رسول الله ﷺ، إلا أنها تشمل غيرهم عن طريق القياس، لأن الله لا يفرق بين متماثلين، ولا يجمع بين متفرقين⁶، ويؤكد هذا الفعل المضارعُ في (يكون) و(تستعجلون).

396) من علامات الاستهزاء جعلُ الذي يكون على الشخص له، يستشف هذا من جعل المشركين (الوعد) الذي يكون في الخير، مكانَ الوعيد الذي يكون في العذاب والعقاب⁷.

¹ ينظر: معارج التفكير: 164/9.

² نفسه: 164/9.

³ نفسه: 165/9.

⁴ روح البيان: 367/6.

⁵ ينظر: الكشف: 381/3.

⁶ ينظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين: 248/2.

⁷ ينظر: نظم الدرر: 210/14.

793 المتعنت يصعب إقناعه، أو يستحيل، فالمشركون لما احتجوا على إنكار البعث بعدم إخراج الأولين، أمرهم الله بالسير في الأرض للنظر إلى مآل المجرمين، فما كان منهم إلا الاستهزاء كما حكى الله عنهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾¹.

398 وعد الحكيم قسمان: قسم مؤقت بزمان معلوم، فإذا حل ينبغي أن يفعل، وآخر غير مؤقت، إلا أنه معلوم لعلام الغيوب²

399 تشير الآية إلى أن أنبياء الله وعدوا المشركين بالنصرة والتمكين في الدنيا، والفوز بالنعيم في الآخرة إن اتبعوهم، وساروا على هديهم، وأوعدهم بالخزي في الدنيا، والنكال في الآخرة إن أعرضوا عنهم، وعصوا أوامرهم؛ يستشف هذا من قولهم (وعدنا) وهم يقصدون أوعدنا، فكأن الله طمس بصيرتهم فنطقوا بغير ما يريدون³.

400 تفيد الآية أن المؤمنين لا يسألون عن وقت قيام الساعة⁴، إنما ينتظرونها ليستريحوا من مشقات الدنيا التي لا يخلوا منها إنسان، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:4]، والإنسان عام يصدق على كل أفراد؛ ووجه هذه الهداية تخصيص الكافرين بالسؤال، فمفهوم المخالفة أن المؤمنين لا يسألون عنها.

401 سؤال المشركين والملحدين عن يوم القيامة ليس سؤال معرفة، إنما سؤال استهزاء وتعجيز⁵؛ دل عليه قول أمثالهم (فاتنا بما تعدنا).

402 تفيد الآية أن المؤمن لا يسأل إلا إذا كان محتاجا إلى السؤال، وكان وراء الجواب فائدة، سواء كانت دنيوية أو أخروية؛ لأن الآية جاءت في معرض ذم المشركين؛ يؤكد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: 111]، وقول

¹ ينظر: زهرة التفاسير: 5480/10.

² ينظر: التبيان في تفسير القرآن: 114/8.

³ ينظر الخواطر للشعراوي: 10839/17.

⁴ تفسير ابن أبي حاتم: 2917/9.

⁵ ينظر: المحرر الوجيز: 269/4.

النبي ﷺ: (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)¹.

403) تفيد الآية أن رسول الله ﷺ لم يكن يعلم كل الغيب بدليل قول الله (قل)²

404) اعتماد المشركين والملحدين في نفي البعث على عدم معرفة وقته بالتحديد من طرف المسلمين سيبقى مستمرا إلى يوم القيامة، قد تتغير العبارات لكن يبقى المضمون واحدا، دل على هذا الفعل المضارع. فالآية وإن كانت مصورة لحال قريش ومن حولهم، فإنها عامة بدليل اعتماد آبائهم وأجدادهم عليه.

405) سؤال المشركين والملحدين عن وقت قيام الساعة سيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، دليل هذا الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

406) المشركون كان يُنزلون أتباع رسول الله ﷺ منزلته، فما يصفون به رسول الله يصفون به صحابته الأبرار، دل هذا ضمير الجمع في (كنتم)، وكان بإمكانهم أن يقولوا (إن كنت صادقا).

407) في الآية إشارة إلى أن عادة أهل الشرك سؤال المسلمين عن يوم البعث؛ ذلك أن الله تعالى ذكر قولهم بالجمع (يقولون) المشعر بأن هذه صفة أهل الشرك، لا أنها حالة فرد من أفرادهم.

408) في الآية إشارة إلى أن أهل الشرك سار عندهم يوم القيامة من كثرة تذكيرهم به، أو تذكيرهم له كأنه شيء محسوس يرى بالعين المجردة؛ ذلك أنهم أتوا باسم الإشارة (هذا) المشعر بأنه في أذهانهم كالحقيقة الماثلة أمامهم.

409) في الآية إشارة إلى أن أهل الشرك ينزلون النبي وأصحابه، أو الداعية وأتباعه في منزلة واحدة، فيخاطبهم خطابا واحدا، أو يُسقطون عليهم حكما عاما؛ ذلك أنهم قالوا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦١)، والمخاطب لهم في الأصل هو النبي ﷺ.

410) في الآية إشارة إلى أن المشركين في زمن النبي ﷺ قامت عليهم الحجة، حيث أخبرهم عن يوم البعث، وقدم إليهم الأدلة، وأخبرهم من قبله الأنبياء السابقون، وقدموا إليهم الأدلة؛ دليل هذا تعريفهم للوعد بالألف واللام العهديتين.

¹ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر: 975/2، رقم 1337.

² ينظر: التحرير والتنوير: 27/20.

411) في الآية إشارة إلى أن المشركين يجزمون بأن الأنبياء صادقون، لكنهم يظهرون لهم أنهم شاكون في صدقهم؛ ذلك أنهم أتوا (بإن) الدالة على الشك بدل (إذا) الدالة على اليقين، مع أن الله تعالى أخبر عنهم بأنهم لا يكذبون النبي ﷺ كما في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام، الآية: 33].

412) في الآية إشارة إلى أن أهل الشرك يحاولون التخفيف عن أنفسهم، عند نقاش المسلمين، فيختارون من الألفاظ ما يطيب خاطرهم، ويتركون ما يهيج أعصابهم؛ ذلك أنهم وعدوا بالجنة إن أسلموا، وأُوعدوا بالنار إن أصرروا على الكفر، فاختاروا الوعد، وتركوا الوعيد.

الآية الثانية والسبعون، قال تعالى: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

413) كل من استعجل عقوبة الله ستصيبه في الدنيا إما جميعها أو جزء منها، لأن التعبير بالفعل الماضي (ردف) يدل على التحقق النسبي، وكذلك تأكيد الخبر باللام في (لكم)¹، يضاف إلى هذا سنن الله في الأقوام الماضية².

414) مصطلحات القرآن تخالف مصطلحات العرب، لذا لزم كل من يبحث فيه أن يعرف خصائصه وأساليبه، فكلمة (عسى) تفيد في اللغة الرجاء لكنها في القرآن تدل على التحقيق³.

415) قرب الثواب أو العقاب من الله لمن يستحقهما قرب نسبي، فكل ما ليس له حد من السنوات فهو قريب⁴.

416) خطاب الملوك والزعماء لأقوامهم المتعلق بالوعد والوعيد يُخالف خطاب الناس لبعضهم، فقد يأتون بكلام يدل على معنى في المعارف عند الناس لكن لا يقصدونه، إنما يقصدون أمراً يليق بجنابهم، وعلى هذا يجري كلام الله في الوعد والوعيد؛ دل على هذا إتيان الله ب(عسى) التي تدل على الرجاء في مكان تحقق الوقوع⁵.

417) تشير الآية إلى صحة رأي تبناه كثير من اللغويين، وهو التضمن أي: تضمين فعل معنى فعل آخر، ثم يُعدَّى بحرفه⁶، لأن ردف فعل متعد ضمّن معنى (قرب) - على رأي - فعُدّي باللام.

418) تأخير العقوبة (التأخير النسبي) قد يجعل الناس منكبين لها من أصلها، دل على هذا لفظ تستعجلون⁷.

419) في الآية إشارة إلى مكانة رسول الله ﷺ عند الله، ذلك؛ لأن الله لم يعط قومه إلا بعض الذي يستعجلون، إذ قُتل بعض زعمائهم في الغزوات، وذهب بعض أموالهم غنائم للمسلمين، أو

¹ ينظر: الكشاف: 381/3.

² ينظر: معارج التفكير: 165/9.

³ ينظر الخواطر للشعراوي: 10840/17.

⁴ ينظر: معارج التفكير: 166/9.

⁵ ينظر: الكشاف: 381/3.

⁶ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: 107/2، والبحر المحيط: 265/8.

⁷ ينظر: معارج التفكير: 166/9.

ذهبت بسبب القحط والجفاف...، ولم يستأصلهم كما استأصل الذين قبلهم كقوم نوح وعاد وشمود...، يؤكد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأأنفال: 33] والحديث (دعوت الله أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها)¹.

420) تشير الآية إلى أن "العاقل من ينظر في عواقب أموره، ويبنئها على أسوأ التقادير، فيعدُّ لما يتوهمه من البلاء ما يكون فيه الخلاص كما فعلت بلقيس رضي الله عنها من الانقياد الموجب للأمان لما غلب على ظنها أن الإباء يوجب الهوان، لا كما فعل قوم صالح من الآبار²، التي أعانت على الدمار، وغيرهم من الفراعنة"³.

421) في الآية إشارة لكفار قريش ومن على طريقهم بأن يؤمنوا بكل ما أخبر الله به عن طريق رسوله ﷺ مما يتعلق بالغيب عموماً، وغيب القيامة خصوصاً؛ ذلك أن فيها إخباراً بأن عقاب الله سيكون رديفاً لهم وقد وقع بالفعل، فأهلك معظم سادتهم في بدر، فكأنه يقول لهم يجب عليكم أن تؤمنوا بالبعث الذي أخبرتكم عنه ولم يقع بعد كما آمنتم الآن بعقاب سادتكم الذي أخبرتكم عنه قبيل سنوات قليلات⁴.

422) في الآية إشارة إلى بعض أساليب الإقناع في الدعوة إلى الله، كأن يجيب الدعاة السائلين عن موعد الساعة بأنها قريبة منهم، وأن العقاب فيها ينتظرهم، فيكون الجواب مقنعاً، وفي نفس الوقت مخزياً؛ ذلك أن المشركين سألوا عن موعد الساعة، فأجابهم الله بأن الذي يتوقعونه قريب منهم.

423) في الآية إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وآله لا يعلم الغيب، وإنما يبلغ عن الله ما أوحاه إليه؛ ذلك أن المشركين سألوا عن موعد الساعة، فجاء الجواب ب (قل) المشعر بأن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء.

¹ صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض: 4/2216، رقم: 2890.

² كذا في النسخ التي وقفت عليها

³ نظم الدرر: 14/211.

⁴ ينظر: الخواطر: 17/10840.

(424) في الآية إشارة إلى أن ما ينتظر الناس من عقاب وجزاء قريبٌ منهم قرب الراكب خلف الدابة من صاحبه؛ ذلك أن الله تعالى أتى بلفظ (ردف) المشعرِ بأن ما ينتظرهم كالراكب خلف الدابة مع صاحبه.

(425) في الآية إشارة إلى أن المشركين يستعجلون ما وعدهم به الأنبياء والمرسلون، ومن ينوب عليهم من الدعاة والعلماء الربانيين؛ دليل هذا صريح العبارة.

(426) في الآية إشارة إلى أن من أهم وسائل الإقناع، أو التقريع والتبكيث جعلُ المحاور في صلب النقاش، فلا يتحدث الداعية عن قوم مجردين، بل يجعل محاوره هو موضوع النقاش، فيقول له مثلاً سيكون العقاب رديفك، أو ستكون من المقبوحين؛ دليل هذا قول الله تعالى (لكم).

(427) في الآية إشارة إلى أن الداعية لا ينبغي أن يجزم بما ينتظره المدعوون من أهل الشرك ونحوهم، بل يأتي بعبارة توحى بتحقيق المراد دون أن تجزم؛ دليل هذا لفظ عسى الدلُّ على الرجاء.

(428) في الآية إشارة إلى أن رحمة الله لا حدود لها؛ ذلك أنه لم يعاقب الكافرين، وأعداءه من المشركين بكل ما استعجلوه؛ وإنما يمهّلهم لعلهم يتوبوا، أو يعاقبهم ببعض الذي يستعجلون، ويترك البعض الآخر؛ دليل هذا لفظ (بعض).

(429) في الآية إشارة إلى أن العاقل لا يسأل عن يوم القيامة، وإنما يسأل عما ينتظره فيها؛ ذلك أن المشركين سألوا عن وقتها، فأجابهم الله ببعض الذي ينتظرهم فيها.

(430) في الآية إشارة إلى العقاب الذي أعده الله لأعدائه لا يستثني أحداً، ولا يختار الأشراف دون الأتباع، أو الدعاة إلى الضلال دون المدعوين؛ ذلك أن الله تعالى فرق في العبارة بين المنتظر من العقاب، والقوم المعاقبين؛ فأتى بلفظ البعض في المنتظر، وب (لكم) في المعاقبين.

(431) في الآية إشارة إلى أن الحِلْم عند الجزاء من صفات الكمال؛ ذلك أن الله تعالى عاقبهم ببعض الذي استعجلوه، وترك البعض الآخر، ولا يكون هذا إلا من صافت الكمال.

الآية الثالثة والسبعون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

يَشْكُرُونَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(432) مما يدل على عموم فضل الله وإحسانه إيمهاله للكافرين والمجرمين من عباده، فقد دل العقل على أن المجرم العالم بجرمه يستحق العقاب فوراً، لكن من رحمة الله أنه يتركه أياماً وربما سنين وأعواماً لعله يتوب ويستغفر، فإن فعل محي عنه كل ما مضى، وأدخله دار أوليائه وأحبابه¹.

(433) يحسن بالداعية إذا أتى بكلام يترك تساؤلات في الذهن أن يستدرك عليه بيان شافٍ كافٍ، فالله تعالى لما قرر في الآية السابقة أن بعض العذاب سيلحق بالمشركون قد يتبادر إلى ذهنهم لم أحره ونحن منذ مدة ننكره؟ فجاء البيان بأن تأخيره من فضل الله عليكم لعلكم تتوبون، وليس من عجزه عنكم، أو جهله بما تعملون².

(434) على المؤمن الذي يدعو إلى ربه أن يوجه خطابه لمن يدعوهم بأسلوب المقتنع بما يقول لا بأسلوب المتلجلج غير الواثق بما يدعو إليه؛ ذلك أن الله وجه الخطاب في هذه الآية للمؤمنين الذين لا يشكون في فضل الله عليهم ولا يُنكرونه مؤكداً بأنّ ولام الابتداء، ليُعلمهم طريقة إقناع الآخرين³.

(435) في الآية إشارة إلى أن من شكر الله الإخلاص له في العبادة⁴؛ لأن الله ذكر عباده بنعمه - التي منها إيماله لهم في العقوبة - ليعلموا أنه المتفضل عليهم وحده لا شريك له فيخلصوا له في العبادة.

(436) قد يكون تعجيل بعض العذاب في الدنيا رحمة من الله وفضلاً منه؛ لأنه قد يجعله ينتبه فيعرف فضل الله عليه فيشكره سبحانه وتعالى⁵.

¹ ينظر: معارج التفكير: 166/9.

² ينظر: التحرير والتنوير: 27/20.

³ ينظر: معارج التفكير: 167/9.

⁴ جامع البيان: 493/19.

⁵ ينظر: روح البيان: 367/6.

(437) مما يدل على ضعف علم الإنسان أنه لا يدري الإنسان هل ما يصيبه خير أو شر،¹ فقد يعتقد شيئا ما خيرا له، وهو في الحقيقة شر له لما يظهر من المصلحة العاجلة، والعكس صحيح؛ ووجه الهداية من الآية أن قریشا لم تكن تعلم أن الخير في تأخير عقوبتها، مما جعلها تطالب بتعجيلها.

(438) صاحب الفضل العظيم هو الله ﷻ وحده لا شريك له؛ ذلك أن في الآية التعبير ب (لذو فضل) للدلالة على أن الفضل من كرمه، ثم نكره فدل على كونه عظيما²، وقد جاء التعبير عن هذا المعنى صراحة في قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 174].

(439) في الآية إشارة إلى عظم رحمة الله بعباده؛ ذلك أنه أوعدهم وقادراً على تنفيذ وعيده ومع ذلك أخره عنهم؛ لأنه يريد لهم الرحمة بدل العذاب³، وقد جاء هذا المعنى صريحا في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء 27]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ﴾ [الزمر: 7].

(440) فضل الله تعالى عام يشمل المؤمنين وغيرهم⁴، فالله تعالى تعالى أتى بلفظ (الناس) لينبه الجميع إلى نعمائه عليهم ليزداد المؤمنون شكرا له، وليرجع الكافرون عن كفرهم به.

(441) لا يُنظر إلى الكافر أو المشرك نظرة ازدراء أو احتقار، بل ينبغي دعوته بالحسنى، وسؤال الله الهداية له، ولا يُتَحَسَّر على عدم عقاب الله له على إجرامه، وإفراطه في معاداة ربه وأوليائه، فقد يتفضل الباري عليه بإمهاله حتى يتوب ويخدم الإسلام خدمة لا يستطيع أن يقوم بها غيره. وقد تأكد هذا في زمن رسول الله ﷺ، إذ قد منَّ الله على خالد بن الوليد، وعكرمة ابن أبي جهل الذين قَتَلَا كثيرا من المسلمين فأخبرهم حتى استعملهم في خدمة الإسلام والمسلمين⁵.

(442) فضل الله على الجميع لا ينبغي أن ينكره أحد؛ لأن الله أكد به (إِنَّ) ليزيل كل الشكوك والوساوس⁶.

¹ ينظر: روح البيان: 367/6.

² ينظر: التحرير والتنوير: 28/20.

³ نفسه: 27/20.

⁴ نفسه: 27/20.

⁵ ينظر الخواطر للشعراوي: 10841/17.

⁶ ينظر: زهرة التفاسير: 5482/10.

(443) تشير الآية إلى أن في الناس من يشكر الله على نعمه، يُفهم هذا من دليل المخالفة، فإذا كان أكثر الناس لا يشكرون لزم أن يكون بعضهم من الشاكرين، وإلا لم يعد للكلام معنى.

(444) للنبي ﷺ مكانة كبيرة عند ربه دل عليها ما في الآية السابقة من ضمان الحماية له، وما في هذه الآية من التشريف والتكريم، إذ أضيف الربُّ إليه للتشريف والتعظيم، لما في لفظ (الرب) من معنى الحنو والرحمة، والاعتناء.

(445) فضل الله عام على الناس جميعهم سابقهم ولا حقهم، وهذا سبب كاف ليتعرفوا عليه ثم يشكروه على نعمه¹.

(446) في الآية إشارة إلى أن التعريف بصفات الرب سبحانه وتعالى عند نقاش المشركين أدعى لقبولهم رسالة الإسلام؛ ذلك أن الله تعالى بيّن فضله على جميع الناس بمن فيهم المشركون الذين يعبدون غيره، ويؤذون أوليائه.

(447) عدم معرفة الإنسان قدرَ النعم يدفعه إلى استعجال العقوبة، دليل هذا ما وقع لمشركي قريش والأمم التي قبلها، إذ إنهم لما لم يعرفوا نعمة الله المتمثلة في الإمهال سارعوا إلى استعجال العذاب.

(448) في الآية إشارة إلى بعض الناس قد يشك في صدق النبي، أو في ضعف قدرة الله، فيخطر بباله سؤال من قبيل كيف يخبرنا النبي صلى الله عليه عليه بالنصرة على الكافرين مع أنهم هم المنتصرون علينا كما هو الحال في واقعنا؟ ولماذا لم يعاقب الله المعتصبين وقتلة الأطفال المجرمين مع أنه هو القوي العزيز؟ لذا أكد الله تعالى بأن ما يفعله من إمهال للمجرمين إنما هو فضل منه لعلهم يرجعون إليه.

(449) في الآية إشارة إلى أن الله تعالى لم يخلق عباده أصلا للعذاب، وإنما ليعبدوه في الدنيا، وينعموا في الآخرة؛ دليل هذا أنه سبحانه وتعالى أخبر أنه صاحب فضل عليهم، بتركهم دون عقاب على كل الذي فعلوه.

(450) في الآية إشارة إلى أن ما يفعله الله بالعباد إنما هو من مصالحهم؛ ذلك أتى بلفظ الرب المشعر بالعناية والتربية.

(451) في الآية إشارة إلى أن أكثر الناس لا يقابل النعمة بالشكر، وإنما يقابلها بالكفر والجحود؛ ذلك أن الله بين فضله على الناس، وبين في المقابل أن أكثر الناس لا يشكرون.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 27/20.

452) في الآية إشارة إلى أن ترك الشخص على معاصيه، أو عدم تعجيل ما تمناه من العقاب نعمة في أصلها تستوجب الشكر، ولا تعتبر نقمة أو عقاباً إلا إذا تمالى العبد في غيه؛ ذلك أن الله تعالى ذكر في الآية السابقة عدم إتيانهم بكل ما استعجلوه، وبين في هذه الآية أن أكثر الناس لا يشكرون.

453) في الآية إشارة إلى أن قلة الشكر، أو عدمه تتجدة مع تجدد النعم، فلا تقتصر على نعمة دون نعمة؛ دليل هذا الفعل المضارع المشعر بالتجدد والاستمرار.

الآية الرابعة والسبعون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٤﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

454) في الآية إشارة إلى أن الذي في صدور الكافرين كثير جدا، ففيها مكرهم وتديبرهم، وفيها حقدهم وكرهيتهم، وفيها الرغبة في التخلص من النبي ودعوته، وفيها تكبرهم وتعاضمهم عن آيات الله وحججه...، وكل هذا يعلمه الله¹.

455) علم الله شامل للجزئيات والكلديات، وفي هذا رد على بعض الفلاسفة² الذين يحصرون علمه في الكلديات فقط³.

456) من إعجاز القرآن الكريم أنه يجيب عن الأسئلة قبل أن يطرحها المشركون أو غيرهم، فالآية السابقة بيّنت فضل الله على جميع عباده، الذين منهم المشركون المضمرون العداوة لله ورسوله وللمؤمنين وهذا يطرح سؤالاً ضمنياً، لماذا لم يعاقبهم الله مع أنه يعلمه ما في صدورهم؟ فجاءت الآية التالية فوضحت أن إمهالهم لحكمة لا تعلمونها، الله وحده من يعلمها⁴.

457) في الآية إشارة إلى أن ما تكنه الصدور علّة لما تعلنه وهو أفعال الجوارح⁵، ووجه هذه الهداية تقديم ما تكنه على ما تعلنه، والتقديم دليل على الاهتمام.

458) في الآية إشارة إلى الله سيعاقب كل من عادى رسول الله ﷺ أو الذين ساروا على دربه من العلماء والدعاة، يفهم هذا؛ من إخبار الله بأنه يعلم ما في صدورهم، والمقصود أنه سيجزيهم عما فيها⁶.

459) في الآية إشارة إلى أن الذي يعلنه المشركون أمام المسلمين كثير جدا، يفهم هذا من لفظ (ما) الدال على العموم والإبهام.

¹ ينظر: معارج التفكير: 168/9.

² ينظر: مجموع الفتاوى: 595/12.

³ ينظر: معارج التفكير: 168/9.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 28/20.

⁵ مفاتيح الغيب: 570/24.

⁶ ينظر: جامع البيان: 493/19، والكشاف: 382/3.

(460) في الآية إشارة إلى أن المؤمنين ينبغي لهم أن يهتموا بما في صدورهم فيصلحونه لأن الله يطلع عليه وسيجزئهم عنه، يفهم هذا من تقديم السر على الإعلان.

(461) في الآية إشارة إلى أن العباد قد يساورهم الشك في علم الله ما في قلوبهم، أو قد يصيبهم من الغفلة ما ينزل منزلة الشك؛ دل على هذا تأكيد الله عز وجل المعنى بمؤكدتين.

(462) في الآية إشارة إلى أن الله رحيم بالعباد، يتجاوز عن بعضهم لما يخفون في صدورهم، ذلك أن الله تعالى أتى بلفظ الرب - بدل لفظ الجلالة أو اسم آخر من أسماء القوة - المشعر بالرعاية، والموحي بأن الله لا يتعامل مع الإنسان وفق أخطائه، وإنما كما يتعامل الأب مع أخطاء أبنائه، والله المثل الأعلى.

(463) في الآية إشارة إلى أن الله قد يفضح ما تكنه الصدور، ويكشف ما فيها من أمراض، سواء عن طريق الاختيار، أو طريق الاضطرار، كأن تخرج السرية مع كلام عام، أو مع مزحة ونحو ذلك؛ دل على هذا إسناد الله الفعل في الأول إلى الصدور، وفي الثاني إلى الناس، والله أعلم.

(464) في الآية دعوة للمؤمنين بزيادة القرب من الله، وللكافرين بالإقبال عليه، وترك العناد المؤدي إلى إغضابه؛ دل على هذا إضافة لفظ الرب للعبد المشعراً بالتكريم.

(465) في الآية إشارة إلى أن كل ما يتجدد من مكنونات الصدور يعلمه الله؛ دل على هذا الفعل المضارع الدل على التجدد والاستمرار.

(466) في الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعية أن يظهر اعتزازه بربه عند دعوة الكافرين، أو مناظرتهم، دليل هذا إضافة لفظ الرب إلى النبي ﷺ أولاً، وإلى كل فرد من أمته تبعاً، مع أن السياق يقتضي أن يضاف إلى الكافرين، فيكون (ربكم).

الآية الخامسة والسبعون، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

- 468) ما يعلمه الله من السر والعلن مدون في كتاب مبين لا غموض فيه ولا خفاء.¹
- 469) كتاب الله الذي فيه ما يفعله خلقه إلى قيام الساعة لا يقاس على كتب الدنيا حتى لا يقال: ما حجمه؟ وما مقداره؟ وكم عدد صفحاته؟، فكما لا يقاس الله على خلقه، لا يقاس ما استأثر به على خلقه، وقد ظهر في هذا العصر ما يركي هذا الرأي، فالقرص الواحد الذي لا يزن عشرة جرامات يحمل الملايين من المعلومات.²
- 470) لا يوجد في الكون شيء يغيب عن الله، ففي قول الله (غائبة) مبالغة —على رأي بعض المفسرين— في الغيب، كأنه قال: لا يوجد شيء دقيق إلا في كتاب ظاهر تقرأه الملائكة؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية.³
- 471) في الآية نفي احتمال وجود أي شيء يغيب عن الله تعالى مهما صغر حجمه، يدل على هذا جرُّ (غائبة) بمن الزائدة للصلة، وزيادتها تجعل العموم قطعياً لا يحتمل التخصيص.⁴
- 472) اللوح المحفوظ عظيم قدره، عال شأنه؛ لذا أتى به الله منكرًا.
- 473) من شدة وضوح ما في اللوح المحفوظ صار كأنه هو الكاشف عن الحقائق، دليل هذا أن لفظ (مبين) الذي هو اسم فاعل من أبان المتعدي.
- 474) في الآية إشارة إلى أن الخفاء كما يقع في الأرض يقع في السماء، دل على هذا صريح العبارة.
- 475) في الآية إشارة إلى أن ما يفعله الإنسان، أو يخفيه في كتاب محفوظ له سياج يحميه، فلا يمكن أن يتسلل إليه العابثون ليزيلوا ما شأوا، ويزيدوا ما شأوا؛ دل على هذا الظرفية (في) الموحية بأن في الكتاب مظروف، له سياج يحيط به.

¹ ينظر: معارج التفكير: 168/9.

² ينظر: نفسه: 169/9.

³ ينظر: الكشف: 382/3، ومعارج التفكير: 168/9.

⁴ ينظر الخواطر للشعراوي: 10841/17.

الآية السادسة والسبعون، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

476) بنو إسرائيل يهودا كانوا أو نصارى ليسوا على رأي واحد، بل لهم رأيان أو أكثر، قد يكون الحق مع أحدهما وقد لا يكون مع واحد منهم؛ ذلك أن الله ذكر لفظ (بنو إسرائيل) ولفظ (أكثر) فأشعر بأن هذا يشمل اليهود والنصارى، وأن خلافهم كثير ذكر القرآن أكثره ولم يذكر جميعه¹.

477) التوراة والإنجيل الموجودان بين أيدي الناس اليوم ليسا من عند الله؛ لأنهما مما وقع فيه الاختلاف، وكل كتاب يقع فيه الاختلاف فليس من عند الله قطعا، وإن نسب إليه زورا وبهتانا، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾؛ ووجه هذه الهداية هو أن القرآن جاء ليقضي بين الناس بالحق فيما اختلفت فيه اليهود والنصارى، والقاضي بالحق لا يختلف فيه.

478) في الآية إشارة إلى أن بني إسرائيل متناحرون في عيسى، يُبغض بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا، والحسم في خلافهم موجود في القرآن الكريم؛ ذلك أن الله ذكر اختلافهم، وبين أن القرآن يقص بعضه والقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلوم أن الحسم فيه وحده².

479) كل ما في القرآن الكريم هو من آثار علم الله تعالى، ففيه العلم الحق الذي إن أراد الله بعباده خيرا فتح أفهامهم له عن طريق مراتب الدلالة؛ دل على هذا مناسبة الآية لما قبلها، فالأولى تتحدث عن الغيب، والقرآن يقص بعض هذا الغيب³.

¹ ينظر: معارج التفكير: 173/9.

² ينظر: الكشف: 382/3.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 30/20.

(480) في الآية إشارة إلى الاعتناء بأصول مراتب الدلالة المبسطة في علم العربية وعلم أصول الفقه¹، لأن الله بين أن هذا القرآن يقص على بني على إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ، مع أنه كتاب صغير الحجم، مما يعني أن كثيرا من معانيه تُستنبط عن طريق علم العربية وأصول الفقه.

(481) النقل من لغة إلى أخرى سببٌ من أسباب ضياع كتب بني إسرائيل²، فقد يكون اللفظ يؤدي معنى معيَّنا، لكن في سياق الآية يُراد منه معنى آخر، فإن ترجم فقد يُغفل عن المعنى الذي يُقصد بالسياق ويُعتمد على المعنى الحرفي ، فإن نقل إلى لغة ثالثة سيزداد المعنى بعدا، ليصل إلى درجة ضياع المعنى الأصلي، ثم يدخل التحريف والتزوير.

(482) تفيد الآية أن كتاب الله محفوظ لا يُخاف عليه من عوامل الزمن، ولا من فعل الأشخاص؛ لأن الله بين أنه يَقضي به بني إسرائيل، ولا يكون هكذا إلا إذا سلم من التحريف والتبديل؛ فهذا المعنى دُلَّ عليه عن طريق اللزوم.

(483) لا يجوز نقل القرآن من العربية إلى غيرها باعتباره قرآنا - أما لو ترجم معناه على أنه تفسير له فلا إشكال - لأن نقله من لغة إلى أخرى قد يفقد بعض معانيه، فإن نقل من الثانية إلى الثالثة سيزداد بعدا، وهكذا حتى لا يبقى منه شيء بفعل تدخل الأهواء، وتحكم الأذواق، كما حصل لكتب بني إسرائيل.

(484) القرآن الكريم يركز على المفيد للعباد؛ لذا قصَّ على بني إسرائيل أكثر المسائل التي يختلفون فيها، وسكتَ عن بعض المختلف فيه لكونه ليست له فائدة تذكر، كاختلافهم في عدد من ركب السفينة...³

(485) تفيد الآية أن بني إسرائيل كانوا يعقدون اجتماعات حول المسيح ابن مريم، إلا أنهم لا يخرجون بنتيجة، بل يَحتمونها بلعن بعضهم بعضا، وتفسيق بعضهم لبعض.⁴

¹ نفسه: 30/20.

² نفسه: 30/20.

³ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 30/20، ومعارج التفكير: 174/9.

⁴ ينظر: البحر المحيط: 267/8.

486) تفيد الآية أن اختلاف اليهود والنصارى لا يختص بطائفة منهم دون أخرى، بل يشمل جميعهم¹، دل على العموم المستفاد من قوله تعالى: ﴿بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾، والأصل: حمل القرآن على ظاهره ما لم يمنع منه مانع.

487) في الآية إشارة إلى أن كل عاقل من اليهود والنصارى أو غيرهم ينبغي أن يتبع ما في القرآن²؛ لأنه جاء بالحق، وفصل بين المختلفين بالعدل، وكل من كانت هذه صفته لزم عقلا اتباعه.

488) القرآن عظيم شأنه، عالٍ قدره، ذلك أن الله أشار إليه إشارة المحسوس حتى ينتبه إليه الناس، وكان من الممكن أن يقول: (إن القرآن يقص).

489) مما كانت بنو إسرائيل تختلف فيه ما تعلق ببلقيس ملكة سبأ، ففي بعض كتبهم أنها أتت سليمان راغبة، ثم تركته وقفلت إلى بلدتها على شركها، فكانت هذه السورة مبيّنة الحق فيها، فناسب أن يذكر الله فيها أن القرآن يقص على بني إسرائيل ما اختلفوا فيه³.

490) في الآية إشارة إلى أن هذا القرآن من عند الله وليس فيه تدخل من سيدنا رسول الله ﷺ ولا من غيره؛ لأنه يقص على بني إسرائيل أكثر ما يختلفون فيه، مع أنه جاء به أمي لم يسبق له أن تعلم، ولم يعرف عنه أنه جالس العلماء⁴.

491) القرآن جُمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يضع منه شيء، ولن يضع في المستقبل، لأنه مجموع منذ أن نزل، أما الجمع البكري والعثماني فهو تأكيد للجمع الرباني، لأن لفظ (القرآن) مشتق من قرأ - على رأي - التي تعني الجمع بمادتها⁵، يضاف إلى هذا لفظة الجمع - كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 17] - التي تفيد أمرين: الجمع في الصدور، والجمع في السطور.

¹ نفسه: 267/8.

² ينظر: جامع البيان: 494/19.

³ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 31/20.

⁴ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان: 267/8.

⁵ أشار إلى هذا المعنى الدكتور طه عبد الرحمن في كلمة له في المؤتمر الرابع للقراءات القرآنية بالمغرب.

(492) القرآن الكريم كما له فضل على بني إسرائيل وأمة سيدنا مُحَمَّد ﷺ له فضل على الأنبياء والمرسلين، إذ طَهَّرَ ساحتهم مما رماهم به اليهود والنصارى مما ينقص قدرهم عند الخاصة والعامة¹، دليل هذه الهداية إخبارُ الله عن كتابه بأنه يقص عن بني إسرائيل خلافتهم التي منها اختلافهم في أنبيائهم.

(493) في الآية إشارة إلى وجه من أوجه إعجاز القرآن وهو القصص التي توارثها بنو إسرائيل، وقرووها في كتبهم، فأخبرهم النبي ﷺ بوجه الحق فيها، وبين لهم اختلافهم في بعضها مع أنه لم يقرأ يوما كتبهم، ولا تعلم أصلا لغتهم، ولم يلتق قط بعالم من علمائهم، ففي هذا حجة كافية لمن كان يريد الحق ويبحث عنه².

(494) في الآية إشارة إلى أن كتاب الله يأتي بأخبارهم تباعا الخبرَ تلو الخبر حتى يفضحهم ويزيل الشبه عن أتباعهم؛ دليل هذا لفظ (يقص) الذي يدل على التبع.

(495) في الآية إشارة إلى أنه ينبغي التركيز على الفئة الأكثر احتياجا للدعوة من غيرها؛ ذلك أن القرآن الكريم يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون.

(496) في الآية إشارة إلى أن اليهود والنصارى سيختلفون بعد نزول نزول القرآن، وسيتجدد لهم الاختلاف في كل وقت وحين؛ ذلك أن الله تعالى ذكر اختلافهم بالفعل المضارع المشعر بالتجدد، ولم يذكره بالاسم المشعر بالثبوت.

(497) في الآية إشارة إلى أن نقاش اليهود والنصارى ينبغي أن يكون مختلفا عن غيرهم من الكافرين، بحيث يناقشون بالقرآن الصرف، بينما قد يناقش غيرهم من الملحدين ونحوهم بمضمون القرآن الذي تستنتجه العقول؛ ذلك أن الله لما ذكر اختلاف بني إسرائيل أرشد إلى القرآن الذي يبين المختلف فيه.

(498) في الآية إشارة إلى أن الأصل ينبغي الحفاظ عليه، سواء كان نسباً أو غيره؛ ذلك أن الله تعالى عزا اليهود والنصارى إلى أبيهم يعقوب عليه السلام، ولم يذكرهم بلفظ اليهود والنصارى؛ وفي هذا رد على بعض (الحضارات) الغربية التي تسعى إلى طمس الأصول، وجعل الإنسان بلا هوية زعما منها أن هذا يؤدي إلى عدم التمييز.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 2664/5.

² ينظر: البحر المحيط: 267/8.

499) في الآية إشارة إلى أن تذكير الشخص بأصله قد يعينه على الرجوع إلى الحق، أو التخلي عن الباطل المتلبس به؛ ذلك أن الله ذكر اليهود والنصارى بأبيهم يعقوب النبي الكريم، لعلهم يرجعون إلى هديه، ومنهجه في دعوته.

500) في الآية إشارة إلى أن القرآن عظيم الشأن جليل القدر؛ دل على هذا لفظ الإشارة المشعر بالتعظيم.

501) في الآية إشارة إلى أن هذا القرآن سيبقى إلى قيام الساعة، يذكر الغافلين، ويهدي الحائرين، ويعلم الجاهلين...، ذلك أن الله تعالى ذكر قصّه بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار، ولا يكون هذا إلا إذا بقي القرآن إلى أن يشاء الله.

502) في الآية إشارة إلى أن بعض الاختلاف قد لا يؤثر على الأمم، ولا يحدث خلافاً في بنيتها، بل قد يكون من أسباب مقوماتها؛ ذلك أن الله تعالى قص على بني إسرائيل أكثر الأشياء المختلف فيها، وترك أشياء أخرى، ولو كانت تؤثر لذكرها؛ لأنه ما ترك شيئاً فيه نفع للأمم إلا وذكره.

الآية السابعة والسبعون، قال تعالى: ﴿وَيَٰئِهٖ وَلَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^١

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

503) التمسك بالقرآن يقي من الاختلاف المؤدي إلى الهلاك؛ لأنه هدى، ومن جملة هدايته توحيد الأمة الإسلامية¹.

504) الرحمة صفة من صفات الله تليق بجلاله، تستلزم الإنعام والإكرام والإحسان، ومن آثارها العفو والغفران، وبيان للدين لجميع العباد².

505) القرآن الكريم كما أنه هدى للمؤمنين فإنه هدى لغيرهم من اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم³.

506) استحق القرآن الكريم الهداية لأن فيه من الأدلة العقلية والبراهين القطعية على وحدانية الله ما ليس في غيره من الكتب، وفيه من الأحكام الشرعية المطابقة للعقول والفطر السليمة ما ليس في غيره من الشرائع، ومبرأ من كل عيب ونقص مما يوجد في كل الكتب، وأن الخلق أجمعين لم يستطيعوا الإتيان بسورة منه فضلا عن الإتيان بمثله⁴.

507) القرآن الكريم هدى لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، ورحمة للمؤمنين فقط؛ لأن الآية قُيدت بقيد الإيمان الذي يدفعهم إلى العمل بما فيه⁵، ففيها وصفٌ عُلق على حكم، فصار الوصف علة الحكم؛ هذا لأنه تقرر في الأصول أن الحكم الذي يرتبط بمشتق يكون ما منه الاشتقاق علة الحكم⁶.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 5/2665.

² ينظر: معارج التفكير: 9/175.

³ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 20/30.

⁴ ينظر: مفاتيح الغيب: 24/571.

⁵ ينظر: معارج التفكير: 9/175، والخواطر: 19/10846.

⁶ يفيد ظاهر الآية أن القرآن رحمة للمؤمنين والكافرين معا كما أنه هدى لهما بالاتفاق، يدل على هذا أن القيد الذي يأتي بعد وصفين يرجع إليهما معا، لكن هذا الظاهر غير مراد -والله أعلم- لوجود آيات أخرى تدل على أنه وقر، أو أنه عليهم عمو...، لذا قلنا إنه هدى هداية إرشاد، ورحمة بمن آمن به وعمل بما فيه من أحكام. والله أعلم

(508) من مظاهر هدي القرآن الكريم أنه يُعرف الحق والباطل، ويبين المسافة الفاصلة بينهما حتى لا يختلط الأمر على سالك الطريق، ثم يُبين سبل الخروج لمن وقع في الباطل، فهو كالطبيب الذي يبين سبل الوقاية، ثم يصف الدواء المناسب لمن أصيب بالمرض¹.

(509) الذين لا ينتفعون بهدي القرآن، ولا تصلهم رحمته كالذين يضعون واقيا على أعينهم حتى لا يروا النور، أو يدخلون الكهوف والمغارات حتى تمر القوافل التي تُوسع العطايا لكل السائلين²، ذلك أن هداه كالنور الذي ينير جميع الأماكن، والشمس التي تظهر للعالمين.

(510) رحمة القرآن بالمؤمنين تمثلت في هديه إياهم حتى فازوا في الدين بصلاح نفوسهم، واستقامة أعمالهم، واجتماع كلمتهم، وفي الآخرة بدخول جنة ربهم³.

(511) القرآن الكريم كما أنه رحمة للمؤمنين فكذلك هو رحمة للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وعليه فهو رحمة للعالمين عامة، وللمؤمنين خاصة⁴، كما أن الله رحمانٌ بجميع الناس عامة، ورحيم بالمؤمنين خاصة.

(512) في الآية إشارة إلى أن المشركين كانوا يشكون في هداية القرآن الكريم في زمن رسول الله ﷺ، وأن هذا الشك سيستمر مع المشركين عبر الأزمنة، ولن يفارقهم في جميع الأمكنة؛ دليل هذا إخبار الله بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، وتأكيده الخبر ب (إِنَّ) و (اللام) ليزول هذا الشك، ويُقطع دابره إلى يوم القيامة.

¹ ينظر: معارج التفكير: 176/9.

² نفسه: 176/9.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 31/20.

⁴ نفسه: 31/20.

الآية الثامنة والسبعون، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

513) الصادق مع الله في دعوته يكفيه ربه مكر أعدائه، فيقضي على فريق منهم بالموت، ويُشغل آخرين بأنفسهم، ويزرع الفرقة بين من تبقى منهم¹، فالله تعالى يبين أنه يقضي بينهم بحكمه لكنه لم يحدد نوع القضاء، فيشمل ما ذكرت وما لم أذكر.

514) لا أحد يمنع الله من القضاء؛ لأنه هو القوي، ولا أحد يجد عيباً أو نقصاً فيه؛ لأنه من العليم الحكيم².

515) إذا ضمن الله للدعاة إليه الفصل بين أعدائه لزمهم أن يعتمدوا عليه وحده، ويتخلوا عن كل ما سواه، فلا يطمعون فيما عند الناس من أموال، ولا يخافون مما عندهم من قوة³.

516) قضاء القاضي لا يؤدي دوره المطلوب إلا إذا اتصف بصفتين: الأولى: الحكمة التي تقتضي وضع كل شيء في موضعه، والقوة التي تقتضي تنفيذ الأحكام؛ دل على هذا تذييل الله قضاءه بصفتي العزة والحكمة⁴.

517) القضاء بين الناس لا يكون إلا لله رب العالمين، ولا دخل فيه لأحد من خلقه بمن فيهم رسول الله ﷺ؛ دليل هذا إسناد القضاء إلى الله مرتين: أما الأولى ففي (يقضي) إذ أسند إلى الضمير المستتر العائد على الله، وأما الثانية: فإسناد مضمون الجملة الثانية إلى الاسم الظاهر (ربك).

518) الناس في القرآن في الجملة فريقان: فريق مهتد به، موقن بما فيه، وفريق معرض عنه، متهم له، والفريقان متدافعان متناحran إلى يوم القيمة، وسيقضي الله بينهما بحكمه، فيبين الحق من المبطل، دل على هذا لفظة (يقضي)، و(بين)، والقضاء لا يكون إلا بين مختلفين⁵.

¹ ينظر: معارج التفكير: 176/9.

² نفسه: 177/9.

³ نفسه: 177/9.

⁴ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان: 267/8.

⁵ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 32/20.

519) من أفضل طرق إقناع الكفار ذكر فضل الله عليهم، ثم عدله فيهم¹، فالله تعالى بين في الآية السابقة عموم فضله لكل الناس، وبَيَّن في هذه أنه يقضي بينهم بالعدل؛ وبهذا يحصل التوازن بين الخوف والرجاء، فإذا سمع المرء فضل الله رجا مغفرته، وإذا سمع عدله خاف عقابه.

520) تفيد الآية أن المؤمنين كانوا يستبطنون النصر على المشركين، فجاءت الآية لتطمئنهم، وتبين لهم أن الله لا تخفى عليه خافية، وأن قضاءه آت لا محالة.

521) المتصف بالعزة وحدها أو العلم وحده قد يُفسد أكثر مما يصلح، فقد تدفعه عزته إلى ظلم الناس، أو يجعله علمه مضيقاً لحقوقهم؛ دلَّ هذا وصفُ الله نفسه في هذا المقام بالعزة والعلم، فيُعز من يستحق العزة، ويذل من يستحق الذل، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]².

522) قضاء الله بين عباده كله حكمة، ولا يستطيع أحد أن يعارضه، أو يبين النقص فيه؛ دل هذا وصف الله بالحكمة والعزة.

523) قضاء الله بين المخالفين للدعاة -الذين يقومون مقام رسول الله ﷺ- ثابت إلى يوم القيامة، من هنا وجب على الداعية ألا يخاف من مكر أعدائه؛ ووجه الهداية إتيان الله بالمضارع ليطمئن كل داع إليه بأنه قاض بين أعدائه فلا يكثرث لأمرهم.

524) العزيز لا يصانع، والعليم لا يفوته حق، والله قد وصف نفسه بهما.³

525) في الآية إشارة إلى كرم رسول الله ﷺ على الله، لأن الله أتى ب (ربك) للدلالة على أنه يرعاه ويكلؤه ويحفظه؛ ويفهم أيضا من الإضافة الدالة على التشريف والتكريم.

526) تفيد الآية وجوب توقير رسول الله وتعظيم قدره ؛، لأن الله شرفه بالإضافة الدالة على الرفعة وعلو المنزلة، وقد جاء هذا المعنى صريحا في قول الله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ .

¹ بنظر: نظم الدرر: 213/14.

² ينظر: الخواطر: 10847/17.

³ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 33/20.

(527) في الآية إشارة إلى أن القضاء بين الناس يحتاج إلى قوة؛ ذلك أن الله تعالى لما ذكر قضاءه بين الناس ذلّل الآية بذكر قوته التي تمكنه من القضاء بين العباد.

(528) في الآية إشارة إلى أن القضاء لا يتولاه إلا أهل العلم الذين لديهم قوة تحميهم؛ ذلك أن الله تعالى ختم الآية بذكر صفتيه القوة والعلم.

(529) في الآية إشارة إلى أن الناس عادة ما يريدون الانتقام من القضاة، الذين يعتبرونهم أعداء لهم بسبب أخذ حقوق العباد منهم؛ ذلك أن الله لما ذكر القضاء عقبه بذكر قوته، فتكون القوة بهذا الاعتبار هي علة القضاء.

(530) في الآية إشارة إلى أن قوة الله معلومة لا تخفى على المشركين ولا على غيرهم؛ ذلك أن الله تعالى أتى بها معرفة (العزیز)؛ والأصل في الخطاب أن يكون نكرة، ولا يعدل عنها إلا لعله، ومن العلل كون الاسم معلوماً.

(531) في الآية إشارة إلى أن القوة الكاملة لله، والعلم الكامل لله؛ فلا أحد يشركه فيهما، لا نبي مقرب، ولا ملك مرسل؛ ذلك أن الله عرّف الجزئيين، أعني: المبتدأ والخبر، فأفاد الحصر كما هو معلوم لدى البيانين.

(532) في الآية إشارة إلى أن الله تعالى رحيم بعباده حتى أثناء القضاء بينهم؛ ذلك أنه تعالى اختار من بين صفاته صفة الربوبية التي تشعر بالعناية والرعاية.

(533) في الآية إشارة إلى أن أهل الشرك ومن على منوالهم تخلّو ذاكرتهم من القضاء فيما بينهم، فصاروا أشبه بمن يشك فيه أو ينكره؛ دليل ذلك تأكيد الله قضاءه بينهم، والتأكيد لا يكون إلا لفائدة.

(534) في الآية إشارة إلى أن حكم الله واحد لا معقب له ولا نقض، ذلك أن الله تعالى أتى به مفرداً ولم يأت به جمعا، فأشعر بأنه غير متعدد؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد، الآية: 41].

(535) في الآية إشارة إلى أن القاضي ينبغي أن يكون رحيماً بمن يقضي فيهم، فلا يصدر من الأحكام إلا ما يصلح الأحوال، ويحقق الأهداف؛ ذلك أن الله تعالى أتى بلفظ الرب دون غيره من أسمائه وصفاته ليشعرنا بأن حكمه فينا سيكون بما يناسب حالنا.

536) في الآية إشارة إلى أن قضاء الله بين عباده سيكون في القادم؛ ذلك أن الله تعالى أتى بالفعل المضارع الدال على الحال أصالة، وعلى الاستقبال مجازاً.

الآية التاسعة والسبعون، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩)

(537) كل ما جاء به النبي ﷺ حق واضح لا غبار عليه، لا يحتاج في معرفته إلى تكلف، أو مزيد تأمل، بل يحتاج فقط إلى إلقاء السمع، وتطهير القلب لأن الله وصفه ب (المُبِين) الدالّ على أنه مبين للناس كل ما يحتاجونه، سواء تعلق الأمر بالعقائد أو العبادات أو الأخلاق والمعاملات...¹.
(538) صاحب الحق ينبغي له الوثوق بصنع الله ونصرته، لأن صاحب الحق لا يخذله الله²، دل على هذا التعليل المفهوم من (إن)، لأنها إن أنت بعد أمر أو نهي أفادته كما يقول الأصوليون.

(539) في الآية إشارة إلى أن رسول الله ﷺ كان يَغِيظُهُ ما يلقاه من المشركين، فأمره الله بالاعتماد عليه، وتركهم؛ لأنهم ميؤوسٌ منهم³.

(540) من أراد الحق فليتبّع سيدنا محمدًا ﷺ؛ لأن الحق معه وحده -وقد كان مع أنبياء الله قبله، إلا أن شرعه نسخ كل الشرائع- دون سواه، هذا؛ لأن الله بين أنه ﷺ جمع كل الحق حتى كأنه فوق الحق كما يفهم من لفظ (على) الدالّ على العلو المجازي، و(الألف واللام) في الحق الدالة على الاستغراق.

(541) انتصار الحق وأهله سنة كونية، كما أن تعاقب الليل والنهار سنة كونية، فكما لا يشك عاقل -فضلا عن عالم- في كون الشمس تعقب الظلام، فكذلك ينبغي أن لا يشك مسلمٌ في كون النصر حليفه ولو بعد حين⁴، يشير إلى هذا أمرُ الله رسوله بالتوكل عليه، والاعتماد عليه في النصر والتمكين.

(542) المطلوب من المؤمن أن يضاعف التوكل حتى يتصور أنه لم يَقم بأي سبب من الأسباب، فالله تعالى أتى بلفظ (توكل) الذي على صيغة (تَفَعَّل) للدلالة على المبالغة في التوكل⁵.

¹ ينظر: معارج التفكير: 177/9.

² ينظر: الكشف: 383/3،

³ ينظر: الكشف: 383/3، والبحر المحيط لأبي حيان: 267/8.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 2665/5.

⁵ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 33/20.

543) تدل الآية على شهادة الله "لرسوله بالعظمة الكاملة المنزهة عن كل نقص، لما دل عليه حرف (على) من التمكن، وما دل عليه اسم (الحق) من معنى جامع لحقائق الأشياء، وما دل عليه وصف (مبين) من الوضوح والنهوض".¹

544) تدل الآية على أن الله متصف بالكمال، فالإتيان باسم الجلالة (الله) دون غيره يشعر بهذا المعنى.²

545) "في الآية إشارة إلى أن الذي يعلم أن الحق في جانبه حقيق بأن يتق بأن الله مظهر حقه ولو بعد حين".³

546) من عرف سعة علم الله، وعموم فضله، وعظمة قدرته سيتوكل عليه حتما؛ لذلك جاء الأمر بالتوكل عليه بعد ذكر فضله وسعة علمه، وكمال قدرته.⁴

547) التوكل على الله يجب أن يكون في كل صغيرة وكبيرة، في أمور الدنيا وأمر الآخرة، فالله تعالى أمر بالتوكل ولم يذكر متعلقه، فدلّ على التعميم في الزمان والمكان، والأحوال، والأغراض...

548) التوكل على الله أساس النجاح في الدعوة وغيرها، هذا؛ لأن الله أمر نبيه ﷺ به وهو سيد المتوكلين، وقصته مع أبي بكر في الغار، وأثناء الهجرة خير شاهد، ففي الغار قال لأبي بكر لما وقفت عليهما قريش (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما⁵)، وأما أثناء الهجرة فقد كان يقرأ القرآن غير مبال بمن يلحقه واثقا في ربه، بينما أبو بكر -وهو من هو في التوكل- كان يذهب يمنةً وشمالا، وقبله وخلفه خوفا على رسول الله ﷺ من أعدائه.

549) التوكل على الله قيمة إسلامية يُطالب به الناس عموما، والدعاة إلى الله خصوصا؛ ذلك أن الخطاب الموجه إلى رسول الله موجة إليهم بالتبع، باعتبارهم ورثته وحملة رسالته.

550) الداعية الصادق، والعالم الرباني لا يضجر من أمر الناس له بأمر يقوم بها، كتقوى الله، أو التوكل عليه، أو الإخلاص إليه؛ لأن هذه الأمور أمر بها رسول الله ﷺ وهو خير من حققها في

¹ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 33/20.

² نفسه: 33/20.

³ نفسه: 34/20.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 213/14.

⁵ صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم: 4/5، رقم: 3653، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر: 1858/4، رقم: 2381.

الدنيا، فكما أمر بالتوكل على الله هنا وفي أماكن أخرى أمر بتقوى الله في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1].

551) في الآية إشارة إلى أن أمر الفاضل، أو العابد بما يقوم به أصلاً لا ينقص من قدره، ولا يدل على تقصيره، ذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بالتوكل عليه، وهو سيد المتوكلين.

552) في الآية إشارة إلى أن التوكل على شيء يعد عبادة له؛ فمن توكل على شخص فقد عبده على قدر توكله، ومن توكل على نفسه فقد عبدها على قدر توكله عليها؛ ذلك أن الله أتى باسم الجلالة (الله) الدل على التأله والتعبد، فأشعر بهذا المعنى والله أعلم.

553) في الآية إشارة إلى أن كل من سار على نهج النبي ﷺ يرى الحق كما يرى الطريق الصاعد على جبل مرتفع؛ فلا يخفى عيله شيء من معالمها؛ ذلك أن الله تعالى أتى ب (على) الدل على الاستعلاء، فأشعر أن النبي ﷺ متحكم فيه، ومتمكن منه كما يتمكن الذي يعلو شيئاً منه.

الآية الثمانون، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٨٠﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(554) الذي يغرق في شهواته وملذاته حتى يُحجب عن رؤية الحق ميّت في الحقيقة، وإن كان يمشي بين الأحياء¹، كما قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميتٍ " " إنما الميت ميت الأحياء²

(555) الداعية إلى الله الذي يبذل قصارى جهده لتبليغ رسالة ربه معذورٌ أمام الله، وعدمُ إيمان الناس بدعوته لا يعني أن فيها نقصاً، فقد بيّن الله أن رسوله ﷺ على الحق المبين، ومع ذلك لم يهتد جميعُ الناس بهديه، لذلك جاءت الآية معللة ب (إن)³.

(556) للقرآن أثران: أثر من جهة معانيه؛ وهذا يُدركه كل عاقل سواء أكان عربياً أم عجمياً، والثاني من جهة لفظه؛ وهذا يدركه العربي مباشرة، ويدركه غيره إذا كان من أهل النظر والتفكير؛ فالعاقل إذا رأى أهل لغة عجزوا عن معارضة نص من نصوصها استنتج أنه معجز⁴، فالمشركون شبهوا بالمتى بالنظر إلى الأثر الأول، وشبهوا بالصم بالنظر إلى الأثر الثاني.

(557) في تكرير الله الفعل (تسمع) إشارةً إلى أن المشركين العرب صمّ؛ لأنهم لم ينتفعوا بأثره اللفظي، وغير العرب موتى لأنهم لم ينتفعوا بأثره المعنوي⁵.

(558) موتى القلوب لا يستطيع الداعية إقناعهم كلّهم، أو إقناع بعضهم، لأن الله عبر (بالموتى) محلياً بالألف واللام لإفادة العموم، ومدلول العام كليّ كما يقول الأصوليون، يعني أن الحكم يتعلق بكل فرد من أفرادهِ.

¹ ينظر: الكشف: 383/3، ومعارج التفكير: 178/9.

² البيان والتبيين: 116/1.

³ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 34/20.

⁴ نفسه: 35/20.

⁵ نفسه: 35/20.

(559) الأصم قد يسمع بعض الكلام بالصراخ ويستفيد بقيته بحركة الشفتين، فإذا ولى مدبرا انتفت هذه الأسباب، فلا يسمع صوتا، ولا يرى شفتين، وهذا هو السر في تقييد الصم بالإدبار، فالضمير في (ولوا) عائد على الصم دون الموتى¹.

(560) قد يُكرّر الله شيئا ما، ويعيده بألفاظ مختلفة لتقريره في الأذهان؛ لذا كرر حال المشركين، فوصفهم بالصم، والموتى، والعمي لتشنيع حالهم؛ وهذا من أرقى درجات البلاغة.²

(561) شبه الله حال المشركين "بالموتى في انتفاء إدراك المعاني الذي يتمتع به العقلاء، وبالصم في انتفاء إدراك بلاغة الكلام الذي يضطلع به بلغاء العرب، وشبهوا ثالثا بالعمي في انتفاء التمييز بين طريق الهدى وطريق الضلال من حيث إنهم لم يتبعوا هدي دين الإسلام. والغاية واحدة وهي انتفاء اتباعهم الإسلام"³

(562) في الآية إشارة إلى أن كفار قريش كانوا يفرون من سماع كلام رسول الله ﷺ خوفا من تصديقه، والإيمان برسالته، تنفيذا لوصية ملئهم وكبرائهم الذين قالوا لهم: - كما حكى الله عنهم - ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصت: 26]⁴؛ ووجه هذه الهداية لفظ (ولوا) مدبرين) الذي صور حالهم مع رسول الله ﷺ أثناء دعوته.

(563) في الآية إشارة إلى قوة قلب النبي ﷺ في إبلاغ الدين، دلّ على هذا قطع الله تعالى عنه إمكانية إسلام الذين ماتت قلوبهم⁵، ولولا هذا لظل ﷺ يدعوهم إلى أن يلقي الله. وتعامله ﷺ مع سادة قريش لما جاءه عبد الله بن أم مكتوم خير شاهد.

(564) من مفاتيح القرآن الكريم التي تُوضح مُبهمات، وتُحل مُشكلاته، النظرُ إلى متقابلاته، فقد يأتي بلفظ إن حُمِل على ظاهره يُعطي معنى غير مقصود أصلا، أو يكون مقصودا لكن بالتبع لا بالأصالة، فإذا نظر إلى ما يقابل الآية اتضح المراد جليا كما في هذه الآية، فإن عبارة الموتى تدل

¹ نفسه: 35/20.

² ينظر: التحرير والتنوير: 36/20.

³ نفسه: 36/20.

⁴ ينظر: الخواطر: 17/10849.

⁵ ينظر: مفاتيح الغيب: 24/571.

بظاها على من فارقت الروح جسده، لكن الآية التالية المقابلة لهذه بينت أن الموتى المقصود هنا بالأصالة هو موت القلب وإن شملت موت الجسد فيكون بالتبع.

وقد أكد هذا المعنى بآيات أخرى منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى

يَبْعَثُ اللَّهُ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: 36]¹.

565) المشركون الذين طبع الله على قلوبهم - سواء أكانوا عربا أم عجماء - يعرضون عن سماع كلام الله، إما كلياً بالأذن والقلب، أو جزئياً بحيث تسمع الأذن ولا يسمع القلب، دل على هذا لفظ (إذا) الدالّ على الوقوع.

566) هداية النبي ﷺ لأمته - أعنى هداية الإرشاد - ثابتة في مكة والمدينة وما زالت إلى الآن، وستبقى إلى قيام الساعة؛ ووجه الهداية أنه جاء في بعض القراءات (بهادي العمي)، وفي بعضها ب (تهدى العمي)، فاسم الفاعل يدل على الحال، والفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال، فحصل من مجموع القراءتين هديته ﷺ في الماضي والحاضر، ويفهم هذا أيضاً من مفهوم المخالفة، فلما نفى عنه هدي العمي والصمّ والموتى فقد أثبت له هدي من عداها.

567) لن ينتفع الصم والبكم والموتى من هدي النبي ﷺ بعد وفاته كما لم ينتفعوا به في حياته، فقد نفى الله عنه الهداية باسم الفاعل وبالفعل المضارع، فاستغرقت الماضي والحاضر، إضافة إلى العموم المستفاد من النكرة في سياق النفي، أو الفعل الذي هو في قوة النكرة.

568) في الآية إشارة إلى أن كفار قريش ومن على منوالهم لم يكونوا يتحركون بإرادتهم، أو يُفكرون بعقولهم، إنما بإرادة أسيادهم، وعقول كبرائهم، دل على هذا لفظ الموتى الذي هو كناية عن موت ضمائرهم، فكما أن الميت لا يتحرك من مكان إلى آخر إلا بغيره، فكذلك هؤلاء أمام أسيادهم ووجوههم لا يتحولون عن أفكارهم إلا بإرادتهم.

وقد أكد هذا المعنى حالة العرب في الخصام والوثام، في الحرب والسلام، فما يقول الأسياد إنه محبوب فهو محبوب ولو اجتمعت فيه كل النقائص، وما يقولون إنه مذموم فهو مذموم ولو أحاطت به كل صفات الحمد، لذا فلا غرابة من أن نجد شاعرهم يقول:

¹ ينظر: أضواء البيان: 125/6.

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنَّ غَوْتَ " غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشُدْ غَزِيَّةٌ أُرْشِدُ¹

(569) على الداعية إلى الله أن يحافظ على طاقته، فلا يضيّعها فيمن لا يستحقها، بل يصرّفها إلى من يحتاجها، ويبحث عنها، فالله في هذه الآية أشار إلى نبيه ﷺ بأنه وإن ظل دهره يدعوهم فلن يهتدوا أبداً،² ودلت نصوص أخرى على هذا المعنى كقول الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى:9]، وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذْ أَبَدًا﴾ [الكهف: 57].

(570) تشير الآية إلى أن العبرة بالنتائج وليس بالوسائل، فالذي يسمع البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة ثم لا يُغيرها اهتماماً كالذي به صمم وإن كان يسمع بأذنيه، لأن العبرة بالنتيجة وليس بالآلة، فلما لم تحصل النتيجة كانت الآلة في حكم المعدوم.³

(571) إنفاق الجهود والطاقات فيمن علم منهم عدم الاستجابة قد يدخل ضمن التبذير المنهي عنه، والذي لا يليق بأهل العقل والرشد المجاهدين في سبيل الله.⁴

(572) الذي لا تصرف الطاقات إليه هو الأصم الذي ولى مدبراً، أما من كان به صمم لكنه يُقبل ولو إقبالا يسيراً فينبغي أن يُجْتَهد في إسماعه الحقّ المبين، لأن عبارة ﴿إِذَا وَلَوْ أَمْدَبِينَ﴾ قيد لازم⁵، ثم إن الله أتى ب (إذا) الدالة على التحقق والوقوع ولم يأت ب (إن) الدالة على الشك ليبين بوضوح الذين يجب الإعراض عنهم.

(573) الذي لا يتعظ بمواعظ القرآن، ولا يستنير قلبه بهديه ميّت وإن كان يمشي بين الأحياء⁶، فلا ينبغي الاشتغال به وحشد الأدلة له من غيره؛ دل على هذا تعقيب الله أدلة القرآن ببيان أنهم موتى.

(574) لن يستطيع أحد أن يقنع المعاندين لله ورسوله ﷺ، والجاحدين للحقائق الدالة عليه مهما أوتي من بلاغة الكلام، وسداد المنطق؛ لأن رسول الله ﷺ أخبره الله بأن لن يستطيع إقناع

¹ البيت لدريد بن الصمة، ينظر: جمهرة أشعار العرب، ص: 468.

² ينظر: معارج التفكير: 179/9.

³ نفسه: 178/9.

⁴ نفسه: 179/9.

⁵ نفسه: 179/9.

⁶ ينظر: البحر المحيط لأبي حيان: 267/8، وفي ظلال القرآن: 2666/5.

الجاحدين مهما حاول معهم؛ لأن الآية فيها عموم مطلق مستفاد من الفعل ولا النافية؛ لأن الفعل في قوة النكرة، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم كما سبق أن أشرنا.

(575) في الآية إشارة إلى أن ميت القلب لا يمكن أن يسمع دعوة النبي ﷺ، سواء أكانت منه أو ممن ينوب عنه من الدعاة إلى دينه؛ ذلك أن الله تعالى أتى بالفعل المضارع المشعر بالتجدد والاستمرار؛ فأفاد أن عدم سماع موتى القلوب متجدد مع الزمان والمكان.

(576) في الآية إشارة إلى أن كون الحق مع الداعية شيء، وأن إسماع الموتى شيء آخر، فلا تلازم بينهما؛ ذلك أن الله تعالى لم يعطف هذه الجملة على سابقتها، مع أنهما مبتدئتان بحرف التأكيد.

(577) في الآية إشارة إلى أن بلوغ درجة عليا من العلم الديني لا تمكن صاحبها من إحياء قلبه؛ ذلك أن الله نفى عن النبي ﷺ إسماع الموتى مع أنهم كانوا يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا كما نص تعالى في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم، الآية 7].

(578) في الآية إشارة إلى أن ميت القلب إن أصغى إلى الدعاة، أو تأمل في نصوص الدعوة قد يحيى قلبه، ويكون من السعداء؛ ذلك أن الله تعالى نفى عن النبي ﷺ إسماع الموتى إذا تحقق إدبارهم كما يدل عليه حرف (إذا)، فأفاد بالمفهوم أنه يمكن إسماعهم إذا لم يولوا مدبرين.

(579) في الآية إشارة إلى ما يؤيد رأي عايشة رضي الله عنها المتعلق بعدم إسماع النبي صلى الله عليه وآله الموتى بدر الذين رُموا في القليب؛ ذلك أن الله تعالى عرف الموتى بالألف واللام المحتملة لأن تكون جنسية استغراقية.

(580) في الآية إشارة إلى أن الداعية قد يحتاج إلى تأكيد المعنى الذي يريد إيصاله وإن كان في نظره أنه ظاهر لا يحتاج إلى تأكيد؛ ذلك أن الله تعالى أكد تولي المشركين بالحال المؤكدة (مدبرين) مع أن كلمة (ولوا) كافية في بيان المعنى.

(581) في الآية إشارة إلى أن صناديد الشرك يغلقون كل المنافذ التي توصل إليهم الحق، فلا كلام الله يسمعون، ولا إلى حجج الأنبياء ومن يقوم مقامهم يلتفتون؛ ذلك أن الله تعالى بين حال المشركين مع دعوة النبي ﷺ بأنهم يفرون مسرعين ومدبرين، وهذا كناية عن عدم رغبتهم المطلقة فيما يدعو إليه

الآية الواحدة والثمانون، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ يُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ

بِعَايَتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

583) آية الحياة الشعور، وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور¹، وليست آية الحياة وجود الروح، وآية السمع والبصر وجود الأذن والعين؛ لأن وجود هذه يعطي حياة جسدية، ووجود تلك يعطي حياة قلبية قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46].

584) شرط الوصول إلى الشيء وجود الاستعداد له، فلما كان المشركون غير مستعدين لقبول الحق لم يكن في قدرة رسول الله إيصاله إليهم فضلا عن غيره، ومثل الحق سائر المطالب².

585) تفيد الآيتان "أن الناس قسمان: منهم من طبع الله على قلبه وعلم أنه لا يؤمن حتى يعاجله الهلاك، ومنهم من كتب الله له السعادة فيؤمن سريعا أو بطيئا قبل الوفاة"³.

586) في الآية إشارة إلى أن هداية الآيات الكونية مرتبطة بالآيات الشرعية التي تعتبر متممة لها، إذ ينظر الناظر إلى الآيات الكونية فتدله على خالقها الواحد، إلا أنها لن تبين له صفاته، وما يليق بجلاله، لذا ناسب أن يثبت الله السمع لمن يؤمن بآياته، فكأن الله يقول: إنك يا محمد لا تسمع إلا من شاهد الآيات الكونية فاطمأن إلى خالقها إلا أنه مازال يبحث عن صفاته وما يليق به فسيجد عندك الحق المبين فيرداك سمعه وقلبه⁴.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 2666/5.

² ينظر: معارج التفكير: 180/9.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 38/20.

⁴ ينظر: الخواطر: 10850/17.

الآية الثانية والثمانون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ

تُكَلِّمُهُم أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢)

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

587) في الآية إشارة إلى أن إظهار العظمة والقوة عند خطاب المشركين أمر مطلوب ومرغوب فيه؛ ذلك أن الله تعالى أتى بنون العظمة المشعرة بالقوة والجبروت.

588) في الآية إشارة على أن أمر الدابة مما اختص الله به، أو أظهره لبعض أنبيائه ورسله، فجنسها وطبيعة شكلها، مما يعد من الأمور الغيبة؛ ذلك أن الله تعالى أتى بها نكرة؛ ولو كانت معلومة لأتى بها معرفة.

589) في الآية إشارة إلى أن الاعتناء بتفاصيل المعيّبات عند إقامة الحجة على المعاندين ليس بالأمر المطلوب دائماً؛ فقد يكون المطلوب ذكر الشيء، أو ذكره مع بيان أهم صفاته، وترك باقى التفاصيل لقادم الأيام؛ ذلك أن الله تعالى ذكر الدابة، ولم يحدد جنسها ولا لونها، ولا المكان الذي تخرج منه؛ لأن هذا كاف في تحقيق المراد.

590) في الآية إشارة إلى أن أمر الدابة مفروغ منه، فلا ينتظر إلا إبان خروجه؛ ذلك أن الله تعالى أتى بجواب (إذا) ماضياً فأشعر أن هذا محقق لا محالة.

591) في الآية إشارة إلى أن الظن في آيات الله لا يجعل صاحبه من المصدقين، بل لا بد من اليقين الجازم؛ ذلك أن الله تعالى عاب عليهم عدم يقينهم، فأشعرنا بأن كل مراتب الإدراك التي دونه في حكم العدم.

592) في الآية إشارة إلى أن الدابة تُكلم جمعاً من الناس، فلا تقتصر على فرد واحد، أو أفراد محصورة؛ ذلك أن الله أطلق كلامها، ولم يقيده بعدد، ولا جنس فأشعرنا بأن الخطاب ليس خاصاً.

593) في الآية إشارة إلى أن المكذبين للرسول ومن يقوم مقامهم لا يلتفتون أصلاً إلى الآيات، فهم مصممون على التكذيب حتى لو حقق لهم الأنبياء كل ما طلبوا؛ ذلك أن الله تعالى أتى بالآيات جمعاً، فأشعر أنهم لم يكذبوا بواحدة ويصدقوا غيرها، بل هم يكذبون مطلقاً.

594) في الآية إشارة إلى أن الإنسان يمكن له أن يفهم خطاب بعض الكائنات الأخرى، ذلك أن الله تعالى أخبر أن الدابة تكلم الذين تخرج في زمانهم، ولا يكون الكلام إلا إذا كان الفهم؛ ويؤيد هذا قصة نبي الله سليمان مع الجن، ومع الطير وغير ذلك.

595) في الآية إشارة إلى أن خروج الدابة لمحض مصالح العباد، ذلك أن الله تعالى أتى باللام المشعرة بالاختصاص.

596) وعد الله لا يتخلف، فما أخبر بأنه سيقع في المستقبل سيقع حتما كما قدره دون زيادة ولا نقصان¹، دليل هذا لفظ (إذا) الدال على التحقق والوقوع.

597) الخطاب يكون واحدا إذا اتحد محله، فما يُخاطب به الكفار في الزمان الماضي هو ما ينبغي أن يخاطبوا به في الزمان اللاحق، فالله تعالى خاطب المشركين في زمن رسول الله ﷺ بقوله ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ والمقصود من يأتي بعدهم؛ لأنهم هم سيموتون قبل قيام الساعة².

598) من آيات الله الله العظمى الدالة على قيام الساعة خروج دابة كدواب الأرض في صفاتها إلا أنها ناطقة دونهم³.

599) العذاب الذي ينتظر الكفار شديد؛ لأن مادة (وقع) لا تقال إلا في الشدائد والمكاره، كقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: 1] ، "وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ وقع جاء في العذاب والشدائد"⁴.

600) أمر الدابة وما يرافقها من أهوال تباغت الناس كأنه نزل من عل⁵؛ وفي هذا إشارة إلى المؤمنين بأن يستعدوا لها؛ لأنهم لا يدرون زمانها؛ استشف هذا من لفظ (وقع) الذي يدل في أصله على نزول شيء من عل لا يستطيع الإنسان دفعه، وكذلك لفظ (على) الدل على الاستعلاء.

601) في الآية إشارة إلى رفع العلم، وذهاب العلماء، ورفع القرآن كما ورد عن ابن مسعود⁶، ووجه الهداية من الآية أنها أخبرت عن علامات الساعة الكبرى التي إذا حلت لا تقبل توبة التائبين، وهذا يستلزم ذهاب القرآن لأن وجوده يلزم منه اتباع من آمن به.

¹ ينظر: معارج التفكير: 181/9.

² نفسه: 183/9.

³ نفسه: 182/9.

⁴ المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني، ص: 880.

⁵ ينظر: معارج التفكير: 181/9.

⁶ ينظر: البحر المحيط: 268/8.

602) من سار على درب من سبقه، وافتخر به، وانتمى إليه، يُخاطب بخطابه، ويُوعده بوعيده، فالله تعالى قال مخاطبا كفار قريش ومن على طريقهم: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ ، وهو إنما سيقع على غيرهم لا عليهم قطعا، لكن بما أن هذا (الغير¹) يسير على طريقهم خاطبهم وكأنهم هم الذين تقع عليهم².

603) الدابة التي وعد الله بخروجها تكلم الناس فيفهمون كلامها، وتجرحهم فيتألمون من جرحها، استفيد هذا من (تكلمهم)، و(تكلمهم) الواردين في القراءات الصحيحة ، وقد سأل "أبو الحوراء ابن عباس: تكلم أو تكلم؟ فقال: كل ذلك تفعل، تكلم المؤمن وتكلم الكافر"³.

604) تفيد الآية أن آيات الله كثيرة، فمنها الكونية، ومنها النفسية، ومنها البيانية -وهي التي في كتاب الله-، ومنها الجزئية التي تثيب الصالحين، وتعاقب الطالحين، دليل هذا جمع الآية وإضافتها إلى الله (آياتنا)⁴.

605) كتاب الله تعالى يهتم بالأصول العامة فيقعدُها ويرسُحُها ويتركُ الجزئيات للسنة النبوية، أو للقرائح الذهنية، أو للأحداث الواقعية، فالله تعالى أخبر أنه سيُخرج دابةً قُربَ قيام الساعة ولم يذكر مكان خروجها، ولا صفاتها، ولا الآيات التي ترافقها سباقا ولحاقا؛ ومثل الدابة كثير من أصول العبادات، ومن الأخبار الواقعات كغلب الروم للفرس...

606) المطلوب من العباد اليقين بما أخبر الله به سواء تعلق به سبحانه، أو بوعدده ووعيده، أو بأخباره التي وقعت أو التي تأتي في الزمان القادم، فالله تعالى لما وصف الناس بأنهم لا يوقنون كان وصفه ذمًا لهم، فيكون اليقين والجزم بما أخبر به مدحاً بدليل المخالفة.

607) إذا وقع القول يُغلق باب التوبة، ويُفتح باب المهلكات، ويتتابع العذاب⁵، وفي هذا إشارة إلى البدار بالتوبة قبل هذا الأجل المعلوم عند الله، المجهول عند الناس، وقد بين الله في آية أخرى هذا

¹ غيرُ من الألفاظ الملازمة للإضافة، فتحليلتها بالألف واللام غير فصيح، وما قمت به جريا على المعتاد لذلك وضعتها بين قوسين.

² ينظر: معارج التفكير: 182/9.

³ ينظر: البحر المحيط: 269/6.

⁴ ينظر: معارج التفكير: 186/9.

⁵ نفسه: 182/9.

بقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 157]، وكذلك بين النبي صلى الله عليه بقوله: «إن أول الآيات خروجا، طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على إثرها قريبا»¹ وقوله: (بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة)².

608) إعراض الإنسان عن سماع كلام الله قد يؤدي به إلى سماع أتفه الكلام، فالمشركون الذين أعرضوا عن سماعه سيلجئهم الله في آخر الزمان إلى سماع كلام الدابة تبكيها لهم، وتحقيرا لشأنهم، فكأن الله يقول لهم: أنتم لم ترغبوا في سماع أشرف كلام، ومن أطيب إنسان، فاسمعوا كلام البهيم³.

609) من بدائع القرآن الكريم في عرض هداياته أنه يقابل بين الضدين، أو بين أمرين غريبين، فقد بين أن الإنسان الناطق فطرة لا ينطق بعضه قهرا، والدواب غير الناطقة فطرة ينطق بعضها فضلا من الله وكرما⁴، وهذا ما يجعل العاقل حائرا في قدرة الله.

610) لا يقرأ القرآن الكريم عاقل إلا كانت حالته بعد قراءته أحسن من حاله قبلها، فالله تعالى أخبر أن المجرمين والكافرين يُمنعون من النطق وهم الآن ينطقون، وأن الدابة يمنحها الله النطق والدواب الآن لا ينطقون⁵، وهذا ما يدفع الإنسان إلى الوقوف حائرا أمام قدرته.

611) الدابة التي وعد الله بخروجها قرب قيام الساعة أمرها عظيم وهولها كبير⁶، دل على هذا تنكيرها.

612) تشير الآية إلى أن المشركين الذين يدركون زمان خروج الدابة يسمعون كلامها فيفهمونه جيدا¹ عقوبة لهم؛ لأنهم لما لم يفهموا كلام أظهر البشر، فهموا كلام الحيوانات، وهذا غاية في الذم.

¹ صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال وكفه بالأرض: 2260/4، رقم: 2941.

² صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال: 2267/4، رقم: 2947.

³ ينظر: ينظر: التحرير والتنوير: 39/20.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 2667/5.

⁵ نفسه: 2668/5.

⁶ ينظر نظم الدرر: 216/14.

(613) من نعم الله العظيمة على الإنسان في الدنيا حرية الاختيار، إلا أنه لا يعرفها إلا عند فقدانها؛ لذا جاءت الآية لُتُنَبِّهَ عليها بذكر ضدها، وهي حبس المجرمين والكافرين في مكان لا يستطيعون الخروج منه، ولا التنقل إلى غيره.

(614) وعد الله لعباده أو وعيده لهم سيقع لا محالة في زمانه المعلوم عند الله وإن كان مجهولا بين الناس، يفهم هذا من (إذا) الدالة على التحقق الوقوع.

(615) كل ما أخبر الله به أنه سيقع في المستقبل سيقع، سواء عقَّله الإنسان أو نسيه، استوعبه أم لم يستوعبه، سواء أكان محبوبا أم مكروها؛ هذا لأن الله أخبر بأمور فَنَسِيهَا المَشْرُكُونَ ثم حلت بهم، وهذا يسري على كل ما أخبر به الله ولم يقع بعد.

(616) إذا أراد الله أمرا هيا له أسبابه علمها الإنسان أو جهلها، فإذا حل أجله أخرجه سبحانه وتعالى؛ يُسْتَشْف هذا من لفظ (أخرجنا) الدال على وجود الدابة في تلك اللحظة، ولو كانت غير موجودة لقال: (لقد: خلقنا) كما قال مثله في السماء والأرض وغير ذلك.

(617) إعجاز القرآن الكريم لا يقف عند نظمه، ولا مضمونه، ولا أخباره، بل يتعداه ليشمل أموراً أخرى لم يهتم بها المعتنون بكتاب الله، ومنها التناسق بين أجزاء السور في مسألة معينة، كهذه السورة التي تناسقت في الحوارات، إذ جمعت حوارات النمل والطير والجن والدابة².

(618) علة خروج الدابة هي تكذيب الكفار لرسول الله، وإنكارهم لمعجزاته؛ دليل هذا كسر همزة (إن) الذي أفاد التعليل³.

(619) في الآية إشارة إلى أن كل آيات الله عظيمة القدر، عالية الشأن هادية للعقل، موافقة للفطرة، يستوي فيها المسموع والمرئي؛ دل على هذا الإضافة التي تكررت مرتين في الآيتين (آياتنا) و(آياتي)، وكما لا يخفى أن من معاني الإضافة التشريف والتعظيم والتهويل...⁴.

الآية الثالثة والثمانون، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ

يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

¹ نفسه: 216/14.

² ينظر: في ظلال القرآن: 2667/5.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 39/20.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 219/14.

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(620) يوم المحشر مترامية أطرافه، كثيرة أعداده، كلٌّ من سمع به خاف من عقابه، لذا قال تعالى: (يوزعون) وقال (فوجاً)¹.

(621) يوم القيامة له برنامج معين عدَّ قبل خلق الخلق، وليس الأمر فيه مرتجلاً، إذ فيه البعث ثم الجمع ثم السؤال ثم الجزاء².

(622) في الآية إشارة إلى تعقل الأشياء والبحث عن حثياتها قبل الحكم عليها³.

(623) الناس في الدنيا مختلفون في الصفات والخصائص، وهذا يحتم عليهم النظر إلى بعضهم من أجل الاستفادة، أو تصحيح الأخطاء، فالتعبير بالأمة -التي تعني جماعة معينة ذات خصائص- يشير إلى التدبر والتفكير، وقد قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2].

(624) أئمة الكفر وسادة النفاق، وأعدائهم من الجنود المخلصين، والأتباع المدافعين يكون لهم في أرض المحشر موقعٌ يخصهم ويناسبُ جرمهم⁴؛ لأن الله قال: (من كل أمة)، فأفاد التبعض إما ب (من) الأولى، على رأي الزمخشري، أو من (فوجاً) على رأي حنكة الميداني وغيره.

(625) الناس يوم القيامة يُصَفون صفوفاً مرتبةً على قدر أعمالهم في الدنيا، سواء أكانت صالحة أم طالحة؛ دل على هذا لفظ (فوجاً)، ويشهد له قول الله تعالى: ﴿وَعَرِضُوهَا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: 48].

(626) لا يمكن لأي فصيل أن يخرج عن جماعته ليذهب إلى غيرها، ولا لطائفة أن تنفصل عن نفسها وتذهب إلى غيرها، فهم محبوسون في مكان معين وقف قدر محتم⁵.

(627) التكذيب المستمر لكل آيات الله هو الذي تتحدث عنه الآية، فالتعبير بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار يشير إلى أن هؤلاء كذبوا ثم كذبوا حتى صار التكذيب لازماً لهم⁶.

¹ ينظر: الكشف: 385/3.

² ينظر: معارج التفكير: 187/9.

³ نفسه: 187/9.

⁴ ينظر: أضواء البيان: 142/6، ومعارج التفكير: 188/9.

⁵ ينظر: معارج التفكير: 188/9.

⁶ معارج التفكير: 188/9.

(628) في إتيان الله بنون العظمة في (نحشر) إشارةً إلى أن العدَدَ المحشور سيكون خارجاً عن الطاقة البشرية، وهذا لا يناسبه إلا القوة المطلقة فعبر بنون الجمع ليعين أن له قدرة لا تعجز عن جمع هذا العدد الهائل من الناس.

(629) يجب على الإنسان أيا كان - سواء كان صاحب رسالة، أو دعوة، أو صاحب أمانة عامة، أو مكلفاً بنفسه فقط - أن يضع في ذاكرته أنه سيأتي إلى ربه ليجازى على أعماله الصالحة والطالحة.

الآية الرابعة والثمانون، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ قَالُوا كَذَّبْتُم بِآيَاتِنَا وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَنَّمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

631) تكذيب الإنسان لخبر ما دون الاطلاع على حيثياته، أو البحث عن حججه وبراهينه، يعرضه للخسران¹؛ ووجه الهداية توبيخ الله للمكذبين لآياته دون بينة ولا برهان.

632) مجيء الكافرين للحساب بين يدي الله مقطوعٌ به، فلا يردّه عقل، ولا تأباه فطرة؛ لذا عبر الله ب (إذا) الدالة على التحقق ولم يعبر ب (إن) الدالة على الشك.

633) إثبات الحقائق وإلزام الناس بها عن طريق أسلوب الاستفهام أدقُّ من إثباتها عن طريق الخبر²، فالله قال لهم ﴿أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِنَا﴾ وهو يعلم أنهم قد كذبوا، وهم أيضاً يعلمون أنهم كذّبوا، فكان هذا أشدَّ تبكيتاً لهم مما لو قال: "كذبتُم برسلي ووعدني ووعدني".

634) ما يحكي الله من أحداث عن المحشر، أو من صفات تتعلق بأهل الجنة أو النار بصيغة الماضي الدال على التحقق إنما هو لتقرير المعنى في النفوس وليس للدلالة على أنه واقع بالفعل؛ لأن الله أتى ب(إذا) التي هي ظرف لما يستقبل من الزمن، فإذا جاء الفعل الماضي بعدها فإنه يقلب مستقبلاً في المعنى.

635) من السفه رد أمر دون الإحاطة بحيثياته، دليل هذا تبكيت الله المشركين لأنهم ردوا الخبر دون أن يدققوا في حججه، أو يتأملوا في أدلته³، وأتى بلفظ الإحاطة الذي يعني إدراك كل الجوانب —بخلاف المعرفة— ليعلمنا كيف نتعامل مع الأخبار.

¹ ينظر: الكشف: 385/3.

² ينظر: نظم الدرر: 220/14، ومعارج التفكير: 188/9.

³ ينظر: نظم الدرر: 219/14.

الآية الخامسة والثمانون، قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٨٥﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(637) أمر القيامة ينبغي أن لا يشك فيه عاقل، وهو وإن لم يحصل بعد فهو كالحاصل، ففي التعبير بالماضي (فزع) الدالّ على الوقوع إشارة إلى أن المسألة مفروغ منها لا تحتاج إلى نقاش كما لا يحتاج الماضي إلى نقاش أيضاً¹. وهذا الأسلوب ليس غريباً عن لغة الغرب ولا عن القرآن، بل استعمل في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ﴿١﴾ [النحل: 1]، وقوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [يس: 51].

(638) لا يعاقب الله أحداً من عباده لمجرد أنه عبد، بل يعاقبه بسبب ظلمه التي اقترفتها يده بما منحه الله من قدرة على الفعل والترك، واختيار الأحسن أو الأسوأ؛ دل على هذا الباء الدالة على السببية²، وأيضاً وجود مشتق (ظلموا) مُقتَرَنٌ بحكم وهو الوقوع، وهذا الذي يسميه علماء الأصول بمسلك الإيماء.

(639) حرص السنة الكفار وتعذر نطقهم جاء مباشرة عقب وقوع القول عليهم³؛ دل على هذا الفاء الدالة على الترتيب والعقيب.

(640) في الآية إشارة إلى أن نطق أيدي الكفار وأرجلهم في الآخرة⁴؛ فالتعبير بأنهم لا ينطقون يشير أن الله هو الذي ينطق هو جوارحهم، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ [يس: 65].

(641) ينبغي للناس أن ينظروا إلى يوم القيامة كأنهم يعيشون فيه، ويشاهدون أهواله وشدائده، ففراءة (أتوه) بصيغة الماضي تدل على أن الناس في القيامة يشاهدون أهوالها

(642) في الآية إشارة إلى أن ما يصيب الناس يوم القيامة إنما هو بسبب أعمالهم؛ ذلك أن الله بين أن وقع القول عليهم إنما هو بسبب ظلمهم.

¹ ينظر: الكشف: 385/3.

² ينظر: معارج التفكير: 191/9.

³ نفسه: 191/9.

⁴ ينظر: نفسه: 191/9.

(643) في الآية إشارة إلى أن الآخرة ليس فيها ظلم، ذلك أن الله أتى بالظلم على صيغة الماضي فأشعرنا بأنه مقتصر على الدنيا.

(644) في الآية إشارة إلى أن الظلم سببٌ لنزول العقاب؛ دليل هذا بناء الحكم عليه، الذي يسميه الأصوليون الإماماء.

(645) في الآية إشارة إلى أن العباد يتذكرون يوم القيامة ما فعلوه في الدنيا، سواء تذكروه قبل الإشهاد عليهم أو بعده؛ دليل هذا سكوتهم وعدم معارضتهم لحكم الله.

(646) في الآية إشارة إلى أن ما يصيب الناس يوم القيامة لا يستطيعون التخلص منه، دليل هذا حرف الاستعلاء المشعرُ بأن القول فوقهم وهم تحته؛ وهذا دليل على أنهم لا مفر لهم منه.

(647) في الآية إشارة إلى أن النطق نعمة من الله تستوجب الشكر؛ ذلك أن الله عطّلها عليهم في الآخرة كما هو ظاهر في هذه الآية، وفي آيات أخرى.

(648) في الآية إشارة إلى أن ما أُوعِد به الكفار سيتحقق لا محالة، ذلك أن الله أتى بالماضي في موضع المضارع فأشعرنا أن هذا مفروغ منه.

(649) في الآية إشارة إلى أن عدم النطق غير مقتصر على فرد بعينه، أو أفراد معينين، بل يشمل كل من يقع عليهم القول؛ ذلك أن الله تعالى حكم عليهم جميعهم بعدم النطق.

(650) في الآية إشارة إلى أن الكافرين لا يصيبهم إلا ما أوعده في الدنيا، وما علموه عن طريق الأنبياء والمرسلين؛ ذلك أن الله تعالى أتى بالقول معرفة، فأشعرنا أنه معلوم عندهم، ولو كان مجهولاً لأتى به نكرة كما هي عادة العرب في الخطاب.

الآية السادسة والستون، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَ كُنُوفِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا

إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(652) من مظاهر رحمة الله وجود الليل للراحة والسكن حتى ينام الدماغ وتستريح الجوارح، ووجود النهار كاشفا لهم عن حقائق الأشياء حتى يقاتل الجسد، وتحرك الجوارح.¹

(653) في جعل الليل والنهار على هذه الحالة آيات متعددة ومتنوعات "دالات على شمول علم الله وعظيم قدرته، وكمال حكمته وعنايته بعباده، وإتقانه العجيب في تدبيراته لكونه"²

(654) الليل والنهار وإن كانت فيه آيات بينات إلا أنه لا يستفيد منها إلا من لديهم الاستعداد للإيمان إذا جاءتهم أدلة فيها إقناع³، يستشف هذا من لفظ (يؤمنون) الذي يعتبر علة كما دل عليه مسلك الإيماء في مسالك العلة.

(655) المؤمن تسكن نفسه ويطمئن قلبه، لأن الإيمان في اللغة هو التصديق بقضية حتى يطمئن قلبه إليها⁴

(656) وجود الليل وحده يجعل الحياة متعذرة، وكذلك وجود النهار وحده، فهما صنوان متكاملان يخدمان الإنسان حتى يعيش حياة مستقرة، ولا يقف على هذا إلا المتدبرون.⁵

(657) من أعظم الآيات الدالة على الحشر ما يقع للناس كل يوم، إذ يحشرون إلى بيوتهم حشرا، كما يدفعون إلى بيوتهم دفعا، وينامون نوما يشبه موتهم، ويستيقظون منه سراحا إلى أعمالهم كما يخرجون من قبورهم سراحا للنظر في كتبهم، لذا قال تعالى ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَ كُنُوفِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦) بعدما قص علينا أحوالهم لينبهنا إلى حالهم بعد موتهم كحالكم بعد نومكم فتأملوا.

¹ ينظر: معارج التفكير: 192/9.

² نفسه: 193/9.

³ نفسه: 193/9.

⁴ نفسه: 194/9.

⁵ ينظر: في ظلال القرآن: 2668/5.

(658) في الآية إشارة إلى أن المقصود هو سكون الناس وراحتهم وليس تعبهم ومشقتهم، ذلك أن الله أتى في الشق الأول من الآية ب (ليسكنوا فيه) بلام التعليل، وفي الشق الثاني ب (مبصرًا) ليبين أنه وسيلة إلى جلب المنافع المؤدية إلى السكن¹.

(659) في الآية إشارة إلى أن المسلم يجعل حياته كلها وسيلة إلى الآخرة وليست غاية في حد ذاتها، ذلك أن الله أتى بهذه الآية في سياق الاستدلال على البعث والنشور، وبين أن النهار وسيلة إلى السكن وليس غاية ليشير إلى أن الحياة كذلك وسيلة إلى الدار الآخرة وليست غاية، ولهذا المعنى شواهد كثيرة من القرآن والسنة.

(660) الداعية الناجح هو الذي ينوع الأدلة ويعدها حتى يقتنع المدعو دون ملل ولا ضجر، فالله تعالى ذكر آيات الخلق والزرع والبدء والإعادة...، ثم انتقل إلى بيان عقابه، وتعداد فضائله ثم أعاد مرة أخرى إلى الآيات الكونية عودة خفيفة اقتصر فيها على المهم ثم رجع إلى مقدمات الساعة.

(661) في الآية إشارة إلى أن نظام الكون المتعلق بالليل والنهار، وما يجري فيهما من نوم ويقظة قد تم وفرغ منه؛ دليل هذا لفظ (جعلنا) الماضي المشعر بأن هذا قد تم وفرغ منه.

(662) في الآية إشارة إلى أن عمى البصيرة قد يصيب حتى بعض العلماء الذين يبلغون من العلم مبلغا عظيما يمكنهم من اختراع آيات تنفع البشرية ولا يمكنهم من رؤية الآيات الكونية التي قد تظهر لأقل منهم بمآت الدرجات؛ دليل هذا ختم الله الآية بلفظ الايمان.

(663) في الآية إشارة إلى أن حجب الضوء عن النهار لا يمكن بحال من الأحوال، ذلك أن الله تعالى فرق بين الليل والنهار في التعبير، فقال عن الليل (ليسكنوا فيه) وعن النهار (مبصرًا) بذاته.

(664) في الآية إشارة إلى أن سكن العبد في الليل يرجع إليه، فقد يسكن وقد لا يسكن؛ دليل هذا إسناد الفعل إلى العباد في الليل، بخلاف النهار.

(665) في الآية إشارة إلى أن الكفر حجاب يمنع من رؤية الأشياء كما هي، حيث إن الكافر قد يرى كل شيء ينفعه في الدنيا، وتغيب عنه أبسط الأشياء التي تنفعه في الآخرة؛ والواقع خير شاهد على هذا؛ فكثير من العلماء المخترعين لم يهتدوا إلى السنن الكونية الدالة قطعاً على حكمة صانعها سبحانه وتعالى.

¹ ينظر نظم الدرر: 222/14.

666) في الآية إشارة إلى أن خلق الكون على هذا النظام البديع له فوائد ترجع إلى الناس في دنياهم، كالراحة والسكينة ونحو ذلك؛ وفوائد ترجع عليهم في دينهم حيث يتوصلون إلى عظمة الخالق، فيتقوى إيمانهم، ويزداد شوقهم للقاء ربهم، وهذا سيدفعهم حتما إلى الاجتهاد في مرضاته؛ دليل هذا جمع الله في الآية بين الانتفاع الدنيوي المتعلق بالسكن، والانتفاع الأخرى المتعلق بالإيمان.

667) في الآية إشارة إلى أن اجتماع العلماء المؤمنين على دراسة ظاهرة كونية كالليل والنهار مثلا قد يؤدي إلى كشف حقائق لا تظهر لعالم واحد، أو حتى عالين فأكثر؛ أشار إلى هذا لفظ (قوم).

668) في الآية إشارة إلى مذهب الملحد، والمنكرين للصانع الحكيم، القائلين بأن هذا الكون صدفة، ليس له نظام يجمعه، ولا حكمة في صنعه؛ ذلك أن الله تعالى أكد وجود الآيات بمؤكدتين، والتأكيد لا يكون إلا للشاك أو المنكر، أو من ينزل منزلتهما.

669) في الآية إشارة إلى أن الذي ينتفع أكثر هم الذين يجددون إيمانهم كلما ظهرت لهم آية دالة على الله؛ دليل هذا المضارع (يؤمنون) المشعر بالتجدد والاستمرار.

670) في الآية إشارة إلى أن من أساليب الدعوة الناجحة البدء مع المدعويين من الأشياء التي لا يمكن لهم إنكارها، قصد التوصل بها إلى حقائق أخرى لازمة لها؛ ذلك أن الله تعالى انطلق من إقرارهم بالليل للسكن، والنهار للإبصار للوصول إلى مدبر حكيم لهذا الكون.

671) في الآية إشارة إلى أن العقلاء يعترفون بأن جعل الكون على هذا النظام البديع لا يمكن أن يكون إلا من قوي قادر لا يعجزه شيء؛ دليل هذا الإتيان بنون العظمة في (أنا).

672) في الآية إشارة إلى أن وجود الطاقات الكهربائية ونحوها لا يمكن أن يغير من نظام الكون شيئا؛ بحيث يجعل النهار للراحة، والليل للعمل؛ ذلك أن الله قرر أن الليل للسكن، والمقصود النوم والراحة، والنهار للإبصار والمقصود الكد والعمل، ولا يمكن أن يتغير ما قدره الله بحال من الأحوال.

673) في الآية إشارة إلى أن جعل الكون على هذا النظام البديع الذي منه الليل والنهار إنما هو لمصلحة الإنسان؛ دليل هذا لام التعليل في (ليسكنوا).

674) في الآية إشارة إلى فضل الله على العباد، حيث أعطاهم ما يناسبهم دون طلب منهم، ولا توسل؛ دليل هذا صريح العبارة.

(675) في الآية إشارة إلى أن آيات الله في الليل والنهار ليست ظاهرة لكل الناس، بل لابد من البحث عنها، والتنقيب عن أماكنها؛ دليل هذا لفظ (في) الدالُّ على الظرفية، المشعر بأن الآيات مظلوفة تحتاج لمن يفتح الظرف ليراها.

(676) في الآية إشارة إلى أن في الليل والنهار آيات عدة، قد يظهر بعضها للمتأملين دون علم بحقائق الكون، وبعضها لفئة من الباحثين دون فئة، وبعضها للمختصين دون غيرهم، وقد يبقى بعضها سرا من أسرار الله؛ دليل هذا لفظ آيات المشعر بأن عددها كثير.

(677) في الآية إشارة إلى أن ما أودعه الله من نظام في هذا الكون الذي منه الليل والنهار عظيم الشأن، جليل القدر، يحتاج إلى إعطائه من النظر مايكفي؛ دليل هذا الإشارة إليه بالبعيد (ذلك) المشعرة بعلو قدره.

الآية الثامنة والثمانون، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ

الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(679) مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب: من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها، وإجرائه

لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه، فيكافئهم على حسب ذلك.¹

(680) صنع الله عظيم الشأن، رفيع القدر، ليس فيه خلل، ولا يعتريه نقص، فما أضافه الله

لنفسه إلا لهذا وزيادة، فعلى كل عاقل أن يعتبر بهذا²

(681) في الآية إشارة إلى أن البصر قد يزيغ فلا يرى الأشياء على حقيقتها؛ ذلك أنها أخبرت

أنَّ الرَّائِي يَرَى الْجِبَالَ فِيظُنُّهَا سَاكِنَةً وهي في حقيقتها متحركة.³

(682) فيها إشارة إلى كمال عدل الله وحلمه؛ لأنَّ خبره الله بعباده يلزم عنها معرفة ما يفعلون

من خير أو شر، فيجازي عامل الخير خيراً، وفاعل الشر شراً⁴، وهذا هو تمام العدل. وأما الحلم

فلأنه يرى عصيان عباده له في الليل والنهار فيتَّركهم إلى يوم المعاد.

(683) تشير الآية إلى أن مكافأة المحسنين على إحسانهم ومعاقبة المجرمين على سيئاتهم من إتقان

الصنع، وإحكام الأشياء؛ لأنها تحدثت عن يوم القيامة فبينت النفع في الصور، وجزاء من أتى

بالحسنات أو السيئات، وأشارت إلى أن هذا من صنع الله المُتَقَنِّ.⁵

(684) صنع الله عظيم الشأن جليل القدر، لا خلل فيها ولا نقص، ليس بمقدور المخلوقين إنسا

أو جنا أن يوجدوا مثله، أو يُقاربوا صنعه؛ دلَّ على هذا إضافة الصنع لله، وإتقانه منه جل في

علاه.⁶

¹ ينظر: الكشف: 3/387.

² نفسه: 3/388.

³ ينظر: جامع البيان: 19/506.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 19/506.

⁵ ينظر: الكشف: 3/307.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 3/307.

(685) تشير الآية إلى أن "الأجسام الكبار إذا تحركت حركةً سريعةً على نهجٍ واحد في السمات والكيفية ظلَّ الناظرُ إليها أنها واقفة مع أنها تمرُّ مراراً حينئذٍ"¹.

(686) في قول الله تعالى: ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ إيدان "بالقرب المرجي للرضا، المرهب من الإبعاد، المقرون بالسخط، وبالغية المؤذنة بالإعراض الموقع في الخيبة"²

(687) في قول الله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ "عبارة عما ذكر من النفخ في الصور، وما ترتب عليه جميعاً فُصِدَ به التنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل، وتحويل أمرها، والإيدان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يدعو إليها داعية، أو يكون لها عاقبة، بل هي من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتعبة للغايات الجميلة التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق، ومبادئ الإبداع على الوجه المتين والمنهج الرصين"³.

(688) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾: تعليل لكون ما ذكر صنعاً محكماً له تعالى لبيان أن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها وبيان كیفياتها، على ما هي عليه من الحسن والسوء، وترتيب أجزئتها عليها بعد بعثهم وحشرهم"⁴.

(689) في الآية استدعاء لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في هذا الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة. وهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزةً من الجانب العلمي يُدركها أهل العلم، كما كان معجزة للبلغاء من جانبه النظمي"⁵.

(690) في الآية تحذير للكافرين والعاصين المذنبين من عقاب الله الديني والأخروي؛ ذلك أن الله لما بيّن فيها إتقانه لخلقه، وإحكامه لصنعه ذيلها ببيان خبرته بكل ما يقع في الكون، ليعلم العاصون أنهم تحت نظره، وغير بعيدين عن عقابه"⁶.

¹ مفاتيح الغيب: 574/24.

² ينظر: نظم الدرر: 225/14.

³ ينظر: إرشاد العقل السليم: 305/7.

⁴ البحر المديد: 225/4.

⁵ التحرير والتنوير: 48/20.

⁶ المصدر السابق: 51/20.

691) في الآية دعوة إلى البحث والتنقيب عن أسرار الكون التي تدفع صاحبها إلى الإيمان بالله إن كان كافراً، أو ترسيخ إيمانه وتقويته إن كان مؤمناً؛ لأنها أخبرت عن حقيقة علمية -على رأي بعض المفسرين المعاصرين- وهو تحرك الجبال تبعاً للأرض مع أنها تظهر للعين المجردة أنها جامدة¹.

692) في الآية تخويف من الهول الرهيب الذي يحدث يوم الفزع الأكبر، الذي يجعل الجبال الراسيات تتلاشى حتى تصير مثل السحاب؛ وهذا كاف لأهل العقول لأن يستيقظوا من سباتهم، ليراجعوا حساباتهم مع ربهم؛ هذا بناء على جعل مرور الجبال يقع يوم القيامة².

693) تشير الآية إلى أن الحكم على الأشياء يحتاج وضعاً معيناً، وأدوات معينة، فإذا لم يُحدّد الوضع، أو توجد الأدوات سيكون الحكم خاطئاً؛ لأن الله بيّن أن الجبال تمر مر السحاب، والناس لا يدرون سيرها لأنهم يدورون معها وليسوا خارجين عنها، فلو خرجوا عنها لرأوها على حقيقتها، وكذلك الشأن إذا اكتسبوا أدوات رؤيتها؛ هذا بناء على كون دوران الجبال في الدنيا وليس في الآخرة³.

694) تشير الآية إلى أن صنّع الله لا يدعو إلى التعجب، وإنما يدعو إلى الذعر والرعب، والخضوع والحب؛ لأن صنّع الله مخالف لصنع البشر، وإذا كان كذلك فصنع الخالق ليس كصنع المخلوق⁴.

695) تشير الآية إلى لطيفة ربانية، وحقيقة واقعية، وهي أن الإنسان كما صدق بهذه الحقيقة - يعني دوران الأرض مع الجبال - يلزمه أن يصدق بحقيقة أخرى وهي: أن يوم القيامة آتٍ لا محالة، وأن الناس فيه فريقان: فريق أتى بالחסنات فهو في الأمن الدائم، وفريق أتى بالسيئات فهو في الخسران المبين⁵.

696) في الآية تنبيه للعصاة والمذنبين بأن يراقبوا ربهم الذي لا يغيب عنهم ولا تخفى عليه أعمالهم، لأن

¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 299/10، والتحرير والتنوير: 48/20.

² ينظر: في ظلال القرآن: 2669/5.

³ ينظر: الخواطر: 10858/17.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 10858/17.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 10860/17.

- (697) وصف الخبرة يعني العلم التام الملازم للمصاحبة¹.
- (698) في الآية تقرير للأذهان الشاردة، وتنبؤ للقلوب الغافلة إلى ما تلقاه من أهوال يوم القيامة حتى تستعد لها؛ ذلك أنها بينت أن الشيء الثابت في نظر الناس متحرك في حقيقة أمره.
- (699) تشير الآية إلى أن صنع الله معروف ومعلوم للقاصي والداني، فلا يختلط أمره على من نظر إليه، وتأمل في حقائقه؛ لأن الله أتى به معرفا ليُشعرنا بأنه إن قُورن مع صنع غيره سيمتاز عنه عند أول وهلة.
- (700) تشير الآية إلى أن أفعال الله كلها جليلة القدر، عظيمة الشأن، تامة الأحكام، جديرة بالنظر والتأمل؛ ذلك أن الله أضافها إلى نفسه تشريفا لها، وتعظيما لشأنها، وتنبها للغافلين عن النظر إليها.
- (701) تشير الآية إلى أن خلق الله لا يوجد فيه نقص ولا خلل، وشرعه لا يوجد فيها عيب ولا قصر، فقد أتقن كل شيء وأحكمه، وفصل كل شرع وبيّنه؛ لأن (كل) من ألفاظ العموم الشاملة للمخلوقات، والشرعيات.
- (702) تشير الآية إلى أن الله سيظهر لنا من صنعه المتقن ما لم يُظهر لغيرنا، وأن له من مخلوقاته المتقنة الصنع ما ليس في علمنا، لأن لفظ (شيء) يشمل الموجود والمعدوم، والحاضر والغائب، والمعلوم والمجهول....
- (703) تشير الآية إلى أن اعتقاد الناس الخاطئ قد يتكرر ويتجدد مرة بعد أخرى، ولا يزول إلا بتوفيق الله الذي يُظهر الحقائق، ويكشف الزيف والريب عن الأشياء؛ لأن الله ذكر ظن الناس الخاطئ بصيغة المضارع المشعرة بالتجدد والاستمرار.
- (704) تشير الآية إلى أن الله خلق الخلق ليعبدوه، وليخضعوا لأمره ونهيه اختيارا كما هم خاضعون إليه اضطرارا؛ لأن فيها اضافة الصنع لله الدالة على العبودية والخضوع.
- (705) في الآية إشارة إلى أن العباد عليهم أن يحبوا الله ويُعظموه، لأن (الله) مشتق على الراجح من (أله) الدال على الحب.

¹ ينظر: معارج التفكير: 199/9.

706) في الآية إشارة إلى أن الله أَتَقَنَّ كل خلقه وتمَّ الفراغُ منه، يستوي في هذا الذي خرج إلى الوجود والذي لم يحن أجله؛ لأن الفعل الماضي (أتقن) يدلُّ على الفراغ من الشيء والانتهاء منه.

707) في الآية إشارة إلى أن العباد مختارون في أفعالهم، إن شاءوا أمضوها وإن شاءوا تركوها؛ لأن الله نسب الفعل إليهم، ولا يكون هذا إلا إذا كانوا فاعلين على الاختيار.

708) في الآية إشارة إلى أن حركة الجبال دائمة لم تنقطع ولن تنقطع، يراها كل من تمكن من شروط رؤيتها، وحاز المؤهلات العلمية الكافية لها؛ دليل هذا التعبير بالمضارع المشعر بأن هذا متجدد مع الأشخاص والأمكنة والأزمان؛ هذا بناء على رأي من جعل الحركة في الدنيا.

709) في الآية إشارة إلى أن حركة الجبال لا تختص بنوع دون نوع، ولا بمكان دون مكان، ولا بحجم دون حجم، فهي عامة في كل ما يطلق عليه اسم (جبل)؛ دليل هذا الألف واللام في المشعرتان بالعموم والشمول.

710) في الآية إشارة إلى أن الإحكام في المصنوعات ليس راجعا لذاتها، وإنما لفعل الله فيها؛ دليل هذا أن الله تعالى أتى بالمصدر (صنع) في مكان اسم المفعول (المصنوع).

711) في الآية إشارة إلى أن النظر إلى المصنوع ينبغي أن يتوصل به إلى الصنع الذي هو فعل الله الذي يوصل بدوره إلى تعظيم الله وإجلاله؛ ذلك أن الله أتى بالفعل في موضع اسم المفعول.

712) في الآية إشارة إلى أن الذي صنع هذا الكون على هذا النظام البديع إنما هو إله واحد هو الله رب العالمين؛ ذلك أن الله لم يأت بلفظ الخالق، أو القوي مثلا للإشعار بأن الإله الذي صنع هذا يسمى ب (الله) المعبود في الأرض والسماء.

713) في الآية إشارة إلى أن الله متصف بالخبرة الذي تخالف خبرة المخلوقين، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

714) في الآية إشارة إلى أنه ينبغي لكل عاقل نظر إلى الحقائق العلمية، والآيات الكونية أن يعبد الله، ويخضع لشرعه وحكمه؛ دليل هذا لفظ الجلالة (الله).

715) في الآية إشارة إلى أن المقصود من النظر إلى الآيات الكونية هو توحيد الله في العبادة، ونبذ الشرك والأصنام، وليس المقصد هو الوقوف على خالقها فحسب، لأن هذا قلَّ من ينكره من الناس.

716) في الآية إشارة إلى أن كل ما يكتشفه الناس مع تطور العلم سيجدونه محكم الصنع، بديع الإتقان؛ دليل هذا التعبير ب (شيء) المشعر بأن ما يعلمه الناس متقن، وكذلك ما يجهلونه.

717) في الآية إشارة إلى أن تشبيه الحقائق العلمية لمن لا يدركها، أو لا يدركها على التفصيل بأمور محسوسة أدعى لاستيعابها، وتحقيق المراد منها؛ دليل هذا تشبيه الله مرور الأرض الذي لا يدركه كل الناس بمرور السحاب الذي لا يخفى على أحد.

الآية التاسعة والثمانون، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾

من الهدايا التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(718) تشير الآية إلى أن التوحيد يُسمى حسنةً، والشرك يُسمى سيئةً، لأن الله أخبر أن من أتى بالحسنة فله كلُّ الخير، ومن جاء بالسيئة فيُكب على وجهه في النار.¹

(719) في الآية تحبيبٌ وتشويق للناس إلى العمل الصالح؛ لأنها بيّنت أن العمل ينقضي والثواب دائم، والعامل يُفضل ما يدوم وإن كان قليلاً على ما يفنى وإن كان كثيراً، فكيف به إذا كان الدائم كثيراً جميلاً، والفاني قليلاً قبيحاً.²

(720) تشير الآية إلى أن الذي يُسيطر على النفس في يوم القيامة ويُقلّتها كثيراً هو الخوف من العقاب، فيصيرُ الذهن مشغولاً به غير مبال بغيره؛ ووجه الهداية إضافة الفرع إلى اليوم، كما في قراءة نافع وابن كثير وغيرهما.³

(721) تشير الآية إلى أن فرع يوم القيامة لا يكتنفه الوصف⁴، ولا يتصوره العقل لشدته وهوله؛ ووجه الهداية هو تنكير الفرع كما في القراءة الأخرى؛ والتنكير من معانيه في اللغة كما هو معلوم التفخيم والتعظيم.

(722) تشير الآية إلى أن التوحيد والإخلاص أكملُّ الحسنات، وأعلىها درجةً؛ لأن الحسنة هنا لا تعم، إنما قصد به فردٌ من أفرادها، وهذا الفرد لا يكون إلا التوحيد والإخلاص؛ لأنه هو الذي يُنجي من الفرع يوم القيامة، بخلاف غيره من الحسنات.⁵

(723) تشير الآية إلى أن المؤمنين المخلصين لله يأمنون من الفرع يوم القيامة، وإن كانوا يفرعون في الدنيا؛ لأن الله أثبت الفرع للجميع بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي

¹ ينظر: جامع البيان: 506/19.

² ينظر: الكشف: 387/3.

³ ينظر: المصدر السابق: 388/3.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 388/3.

⁵ مفاتيح الغيب: 575/24.

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴿٦٦﴾، ونَفَى الْفَرْعَ هُنَا عَمَّنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ؛ وَالْفَرْعُ كَمَا يَقَعُ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الْعِقَابِ يَقَعُ مِنَ الْهَيْبَةِ¹.

(724) "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ اسْتَشْنَى اللَّهَ مِنَ الْفَرْعِ وَالْهَوْلِ، فَلْيَكُنْ قَلْبُهُ مَعْمُورًا بِاللَّهِ، لَيْسَ فِيهِ غَيْرُ مَوْلَاهُ، وَلَا مَقْصُودَ لَهُ فِي الدَّارَيْنِ إِلَّا اللَّهُ، وَظَاهِرُهُ مَعْمُورًا بِطَاعَةِ اللَّهِ، مَتَمَسِّكًا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، هَوَاهُ تَابِعٌ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، لَا شَهْوَةَ لَهُ إِلَّا مَا يَقْضِي عَلَيْهِ مَوْلَاهُ، فَبِهَذَا يَنْخَرِطُ فِي سَبِيلِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمُ الْحَسَنَى، لَا يَحْزَنُهُمْ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ، وَهُمْ فِيهَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ"²

(725) تَشِيرُ الْآيَةُ إِلَى أَنَّ مَصْدَرَ الْخَيْرِ كُلِّهِ هُوَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، فَمَنْ أَتَى بِهَا عَلَى حَقِّهَا فَلَهُ الْخَيْرُ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّجَاةُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا فَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ³.

(726) تَشِيرُ الْآيَةُ إِلَى أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَحْصِلُ بِهَا الْعَبْدُ عَلَى خَيْرَيْنِ: خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَخَيْرٍ فِي الْآخِرَةِ⁴، فَأَمَّا الَّذِي فِي الدُّنْيَا فَهُوَ السَّعَادَةُ، وَالطَّمَأْنِينَةُ النَّفْسِيَّةُ، وَأَمَّا الَّذِي فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ النَّجَاةُ مِنَ الْفَرْعِ، وَدُخُولُ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ جَزَاءَيْنِ لِمَنْ أَتَى بِهَا، وَعَطَفَ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ لِيُشْعَرَ عَلَى أَنَّهُمَا مُخْتَلِفَانِ وَلَيْسَا شَيْئًا وَاحِدًا. وَيُؤَكِّدُ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 67]

(727) فِي ذِكْرِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَمَا تَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْفَرْعِ "التَّنْبِيْهُ عَلَى عَظَمِ شَأْنِ تِلْكَ الْأَفَاعِيلِ وَتَهْوِيلِ أَمْرِهَا، وَالْإِيذَانُ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِطَرِيقِ إِخْلَالِ نِظَامِ الْعَالَمِ وَإِفْسَادِ أَحْوَالِ الْكَائِنَاتِ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعَوْا إِلَيْهَا دَاعِيَةً أَوْ يَكُونَ لَهَا عَاقِبَةٌ بَلْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ بَدَائِعِ صَنِيعِ اللَّهِ تَعَالَى الْمَبْنِيَّةِ عَلَى أَسَاسِ الْحِكْمَةِ الْمُسْتَتَبِعَةِ لِلْغَايَاتِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي لِأَجْلِهَا رُتِبَتْ مَقَدِّمَاتُ الْخَلْقِ وَمُبَادِئُ

¹ المصدر السابق: 575/24.

² البحر المديد: 225/4.

³ ينظر: المصدر السابق: 274/8.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 274/8.

الإبداع على الوجه المتين والمنهج الرصين كما يُعرب عنه قوله تعالى (الذى أَتَقَرَّنَ كُلَّ شَيْءٍ) أي أحكم خلقه وسوؤه على ما تقتضيه الحكمة¹

(728) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ "تعليل" لكون ما ذكر صنعا مُحكما له تعالى بيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يدعوا إلى إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وجعل السموات والأرض والجبال على وفق ما نطق به التنزيل ليتحققوا بمشاهدة ذلك أن وعد حق لا ريب فيه"²

(729) تشير الآية إلى أنه لا يعبد غير الله، ولا يُعظم المخلوقات على الله إلا منكوس الفطرة؛ لأن المشركين نُكسوا على وجوههم التي هي أشرف ما لديهم، ثم قيل لهم: هذا هو الجزاء الذي تستحقون.³

(730) تشير الآية إلى أن ثواب الله خير من عمل العمل؛ لأنه "جلّ ذكره يُعطي من الثواب فضلاً لا يستحقه العبد بعمله، زيادة منه وتفضلاً وإحساناً"⁴.

(731) في الآية عرضٌ لمحصل الدعوة النبوية، وهو أن الناس قسمان: قسم فتح قلبه للنبي صلى الله عليه وسلم، وأرعى سمعه لهديه، ففاز بالحسنة، وقسم طبع الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة فهلك بالسيئة.⁵

(732) تشير الآية إلى أن الأمن فقط في يوم الفرع الأكبر كافٍ في الجزاء "وما يأتي بعده فهو فضل من الله ومنّة. ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة، بل أمّتهم يوم يفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله".⁶

¹ إرشاد العقل السليم: 305/6.

² المصدر السابق: 305/6.

³ ينظر: نظم الدرر: 226/14.

⁴ الهداية إلى بلوغ النهاية: 5477/8.

⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 301/10.

⁶ ينظر: في ظلال القرآن: 2669/5.

733 تشير الآية إلى أن (لا إله إلا الله) هي أساس كل الحسنات، فمن أتى بها وحسناتٍ أخرى عُدَّت عليه، وأُثِيبَ على الجميع، ومن ضيعها وأتى بغيرها من الحسنات رُدَّت على وجهه، وعُوقِبَ عقابَ من أتى خاوي الوفاض؛ لأنها كالأساس للبنیان، والجذر للأشجار،

734 تشير الآية إلى أنه لا فرق عند الله بين عربي وعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين غني وفقير، ولا بين امرأة ورجل إن أتوا بنفس الأعمال، فالميزان الذي تُوزن به أعمالهم واحد، والجزاء الذي ينالونه واحد؛ لأنَّ الله أتى باسم الشرط الذي يَعُمُّ كل ما ذكر.

735 تشير الآية إلى أن العبرة بالأعمال لا بالذوات؛ ذلك أنها ركزت على الحسنة التي هي لا إله إلا الله، وتركت فاعلها الذي قد يكون متقدما أو متأخرا، وذكرها أو أنثى، وصغيرا أو كبيرا...

736 تشير الآية إلى أن من جاء بالحسنة فلا يأخذ منها أحد شيئا، لا أحبائه ولا أعداؤه؛ لأنَّ اللّام في (له) مشعرة بالاختصاص، ويؤكدُها قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7].

737 تشير الآية إلى أن قبيل أهل الحسنات مُختلفون عن قبيل أهل السيئات، وأن بينهما حاجزا وفاصلا يمنع اجتماعهما كما يمنع حاجز البحرين التقاءهما؛ لأن الله فرق بينهما في آياته، فجاء بأهل الحسنات في آية، وأهل السيئات في آية أخرى، والتفريق لا بد له من حكمة، ولعل ما قلْتُ يقارنُها.

738 تشير الآية إلى أن أهل الإيمان يَأْمَنُونَ يوم القيامة أَمْنًا دائما لا يشوبه فرع ولا خوف؛ لأن الله بَيَّنَّ أَمْنَهُم بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت وال لزوم.

739 تشير الآية إلى أن فَرْعُ القيامة ليس كأَي فرع في الدنيا، إنما هو فرع يُغَيِّرُ كُلَّ شيء، فرعٌ يجعل الإنسانَ يَفِرُّ من أبيه وأخيه وأمه وصاحبته وبنيه؛ دَلَّ على هذا تقديمُ المعمول الذي هو ﴿مَنْ فَرَعَ﴾ على عامله الذي هو ﴿ءَامِنُونَ﴾.

740 تشير الآية إلى أن الحسنة النافعة هي التي يعملها العبد في الدنيا وتَبْقَى معه إلى أن يلقى ربَّه، أما التي يعملها ويُبْطِلُها بالشرك ونحوه، أو المِرِّ وقبيله فلا عبرة بها؛ لأن الباء في ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ مشعرة بمصاحبتهَا له إلى يوم الحساب.

(741) تشير الآية إلى أن فعل الحسنات والسيئات أمرٌ اختياريٌّ داخلٌ تحت قدرة العبد على جهة التفصيل وإن كان في النهاية لا يخرج عن قدرة الله على جهة الإجمال؛ لأن الفعل (جاء) يدل على الاختيار.

(742) تشير الآية إلى أن الجنة وإن كانت بفضل الله إلا أن لها أسباباً تؤدي إليها، وطرقاً توصل إلى بابها، وهي: فعل الطاعات، بامتنالِ المأمورات، واجتنابِ المنهيات؛ لأن فيها ترتب شرط على مشروط، فالشرط هو فعل الحسنات، والمشروط هو الجزاء من رب البريات بجنة عرضها الأرض والسموات.

(743) في الآية إشارة إلى الحسنة يؤتى بها، وتصير كأنها ملك لصاحبها، يدافع بها، دليل هذا صريح العبارة.

الآية التسعون، قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(745) تحث الآية على الاعتناء بحفظ ماء الوجه، والسعي إلى الرفع من مكانتها، وعدم إخضاعها إلا الله الواحد الأحد؛ فالتعبير بالكب في النار مشعر بأنها خضعت لغير الله في الدنيا، وترقعت عن الخضوع له فعوقبت بالكب في النار¹.

(746) تشير الآية أن الكفار والمكذبين بالله ورسله سيعاملون معاملة قاسية تلحق بجرمهم، فيُدفعون إلى النار -دون شفقة ولا رحمة- منكوسين أعلاهم على أسفلهم جزاءً لهم على نكسهم فطرهم في دنياهم².

(747) تشير الآية إلى أن الله يَفضل على المؤمنين ويُعاقب الكافرين والعصاة المجرمين على قدر أعمالهم دون زيادة ولا نقصان؛ لأنه بيّن في الآية السابقة أنه يَفضلُ على من جاء بالحسنة بإعطائه خيراً منها، وذكر في هذه أنه يكب في النار من جاء بالسّيئة على وجهه³، ويشهد لهذا قولُ النبي ﷺ (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة)⁴.

(748) "في أفراد الضمير لأهل الإحسان وأهل السوء أولاً، ثم عوده جمعاً عليهما ثانياً- في هذا إشارة إلى أن لكل إنسان حسابَه وجزاءَه، فهم- محسنون ومسيئون- محاسبون، فردا فرداً.. ثم يلتقي أهل الإحسان بأهل الإحسان، ويلتقي أهل السوء بأهل السوء"⁵.

¹ ينظر: البحر المحيط: 275/8.

² ينظر: المفردات، ص: 665، ومقاييس اللغة: 124/، والبحر المحيط: 274/8.

³ الهداية: 5477/8.

⁴ صحيح البخاري، كتاب الرقاق باب من همَّ بحسنة أو سيئة: 103/8، رقم: 6491، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان باب

إذا همَّ العبد بحسنة كتبت: 118/1، رقم: 130.

⁵ التفسير القرآني للقرآن: 302/10.

(749) تشير الآية إلى أن ليس كل سيئة يَفْزَعُ صاحبها يوم العرض على الله، أو يُكَبُّ في النار على وجهه، إنما يفعل هذا السيئة الكاملة التي بلغت المنتهى في السوء وهي الكفر بالله والشرك به، أو التي يداوم عليها صاحبها، وَيَسْتَهِينُ بعقاب الله عليها¹.

(750) في الآية ردُّ على الذين يَقُولُونَ: كيف يعاقب الله عبدا كَفَرَ به أربعين سنة -مثلا- بعقابٍ دائمٍ أبد الآبدين؛ لأنها يَبَيِّنُ أن ما ينالونه إنما هو جزاءٌ لما عملوه في الدنيا، والجزاء يكون على قدر العمل².

(751) تشير الآية إلى استحباب توبيخ العصاة والمذنبين عند عقابهم، فيقال لهم: هذا ما جنيتم على أنفسكم حتى يَرَعَوْا في المستقبل، ويتعظَّ مَنْ يسير على طريقتهم.

(752) تشير الآية إلى أن العبرة بالجزاء لا بالمُجازي، فالذي يُخْزِي القوم الكافرين هو العقاب والنكال الذي يلحقهم بغض النظر عن عاقب ونكَل وهو الله قطعاً؛ يستشف هذا من بناء الفعل للمفعول.

(753) في الآية إشارة إلى أن الله سيُكْرِم أوليائه وأحبابه عند لقياءه، بدخولهم الجنة راضين مطمئنين فرحين مستبشرين؛ لأنها دلت على الحالة التي عليها أهل البغي والكفران بمنطوقها، ورمزت إلى الحالة التي يكون عليها أهل الطاعة والإيمان بمفهومها.

(754) في الآية تنبيهٌ للعلماء والدعاة والمشتغلين بالتبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ بأنهم لن يستطيعوا إقناع جميع الناس بالهدى الذي معهم؛ لأنها بينت أن الناس فريقان: فريق جاء بالحسنة وفريق جاء بالسيئة، وكلاهما ممن دعا رسولُ الله ﷺ؛ وإذا كان رسول الله لم يستطع إقناع الجميع فمن دونه من باب أولى.

(755) في الآية تلميح إلى أن فضل الحسنة يَرْجِع إلى صاحبها وحده، وأن فعل السيئة يشملُه ويشمل كل مَنْ تَبِعَه، فمن فعل حسنة فانتفع بها غيره فيرجع جميع الأجر إليه دون أن ينقص من أجور من تبعه شيئاً، ومن فعل سيئة فعمل بها غيره فالجميع يشترك في العقاب؛ لأن الله لما ذكر الحسنة قال: (فله) بضمير المفرد، ولما ذكر السيئة قال: ﴿فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ بضمير الجمع.

¹ ينظر: معارج التدبر: 201/9.

² ينظر: المصدر السابق: 202/9.

756) تشير الآية إلى أن الجزاء على الحسنات قريب حتى كأنه ملاصق لفعلها؛ دل على هذا الفاء الرابطة.

757) في الآية إشارة إلى أن العبرة بالفعل لا بالفاعل، ذلك أن الله تعالى ذكر الفعل الذي هو الكب في النار، وترك الفاعل الذي هو الملائكة بأمر الله كما جاء في آيات أخرى صريحة.

758) في الآية إشارة إلى أن الجزاء على العمل ليس خاصا بمن جاء بالسيئة، وإنما يشمل من جاء بها، ومن جاء بالحسنة؛ ذلك أن الله تعالى عدل عن الغيبة إلى الخطاب ليشعر بأن هذا عام.

759) في الآية إشارة إلى أن الجزاء إنما عن الأعمال التي تقع في الدنيا؛ دليل هذا لفظ (كنتم) الدال على الماضي.

760) في الآية إشارة إلى أن الجزاء يكون على العمل الذي قام به صاحبه، وعلى الذي ترك له أصوله، كالبرير يحفرها، والعلم يعلمه، والابن الصالح يدعو له ونحو ذلك؛ ذلك أن الله تعالى قال: (تعلمون) الدال على تجدد العمل، ولم يقل (عملتم) الدال على الانتهاء منه.

761) في الآية إشارة إلى أن الذين يؤتون بالسيئة المقصود بها الكفر يدخلون جهنم ولا يستطيعون الخروج منها؛ ذلك أن الله تعالى أتى ب (في) الدالة على الظرفية، ولم يأت ب (على) الدالة على الاستعلاء.

762) في الآية إشارة على أنه لا ظلم عند الله، فلا يعاقب شخص بسبب ذنب شخص آخر، ذلك أن الله تعالى أتى بإنما الدالة على حصر الجزاء.

الآية الواحدة والتسعون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا
وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٩١)

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

764) في الآية إشارة إلى فضل مكة ورفعة قدرها وعلو منزلتها عند الله؛ ذلك أن الله أضافها إليه تعظيماً لشأنها وتنويعاً بقدرها¹؛ ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: (ما أطيبك من بلدة وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك، ما سكنت غيرك)².

765) تشير الآية إلى إن مكة بلدة حرمها الله، فلا يَنْتَهِك حرمتها إلا ظالم، ولا يَسْفِك الدَمَ فيها إلا فاجر، ولا يَسْتَهين بقدرها إلا جاهل؛ لأن الله وصفها بالحرمة التي هي أكد أوصافها وأخصها على الإطلاق³.

766) "في قوله: ﴿حَرَّمَهَا﴾ تنبيهٌ بنعمته على قريش، إذ جعل بلدَهم آمناً من الغارات والفتن التي تكون في بلاد العرب، وأهلك من أرادها بسوء"⁴.

767) في الآية "من الرمز إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها ألا يرى أنهم مع كونها محرمةً من أن تنتهك حرمتها باختلاء خلاها، وعضد شجرها، وتنفيذ صيدها، وإرادة الإلحاد فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاطي أفجر أفراد الفجور وأشنع آحاد الإلحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الأوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله أنى يؤفكون"⁵.

768) تشير الآية إلى أن كل ما في الوجود لله تعالى⁶ لا يشركه فيه غيره، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن ولي صالح، أو فاجر طالح؛ لأن الله قدّم الخبر على المبتدأ فأشعر بالتخصيص، وأتى باللام الدالة على الملك فأفادت التفرد والوحدانية.

¹ ينظر: الكشف: 389/3.

² رواه الإمام أحمد في مسنده: 13/31، رقم: 18717، والترمذي في سننه: 208/6، رقم: 3926، وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، والحاكم في المستدرک: 661/1، رقم: 1787، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

³ ينظر: ينظر: الكشف: 389/3.

⁴ ينظر: البحر المحیط: 275/8.

⁵ إرشاد العقل السليم: 306/6.

⁶ ينظر: البحر المديد: 227/4.

(769) تشير الآية إلى أن الداعية إلى الله يجب عليه أن يبين للناس ما يكفيهم في دينهم ودنياهم، ويجمع لهم من الأدلة ما يقنعهم للدخول في دين ربهم، ثم يتخلى عنهم قائلاً لهم: إني عابدٌ ما دعوتكم إلى عبادته، ومنيبٌ إلى من لا يخيب من رجع إليه¹؛ هذا لأن الله أمر رسوله صلى الله عليه بآن يقول لقريش بعدما بين لهم الآيات: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَاهُ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ^ط﴾.

(770) تشير الآية إلى أن لمكة اعتناءً خاصاً بها جعلها تمتاز عن سائر بقاع الأرض؛ ذلك أن الله أضافها إليه مرتين: مرةً على جهة الخصوص، ومرةً على جهة العموم، فقول الله تعالى: ﴿وَلَهُ^ط كُلُّ شَيْءٍ^ط﴾ تدخل فيه مكة مع أنه خصها بالربوبية في الجملة التي قبل هذه².

(771) تشير الآية إلى أن المسلم الحقيقي هو الذي يستسلم لشرع الله، ويخضع لعظمته جلّ في علاه، فما نهاه عنه تركه، وما أمره به فعله، وما رغبه فيه أحبه، وما نفّر منه كرهه³؛ لأن لفظ (المسلمين) يدلّ على الاستسلام والخضوع لله رب العالمين.

(772) في قوله تعالى: ﴿حَرَّمَاهُ^ط﴾ تعديداً نعمته على قريش في رفع الله تعالى عن بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب⁴.

(773) في الآية إشارة إلى أن ذكر الأصول الثلاثة التي هي المبدأ والمعاد والنبوة يدفع العباد إلى توحيد الله والإخلاص له؛ لأن الآيات قبلها ذكرت بدء الخلق، ومعاده، والنبوة المخبرة عن تفاصيله، مما يجعل الخلق يخاف العقاب، ويرجو الإحسان والثواب، فيسأل من نعبداً؟ ولمن نلجأ؟ فجاءت هذه فبينت أن العبادة حقٌّ للواحد الأحد⁵.

(774) في الآية إشارة إلى الدعاة بأن لا يتمادوا في مجادلة من قامت عليهم الحجة، ولا يسايروهم في كلام يؤدي إلى الخصام والشجار، ولا يبالغون في نفى ما اتهموا به، أو طُلبوا بتحصيله

¹ ينظر: المصدر السابق: 226/4.

² ينظر: البحر المحيط: 276/8.

³ ينظر: المصدر السابق: 276/8.

⁴ المحرر الوجيز: 274/4.

⁵ ينظر: نظم الدرر: 226/14.

وليس في مقدورهم؛ دليل هذا الحصرُ الصوري الذي بيّن أن رسول الله ﷺ ليس له قدرة على تلبية كل طلباتهم، إنما أمرُ بالعبادة وتبليغ الرسالة وقد فعل¹.

(775) في الآية تعريض بما تُكنه قريش بُجاه رسول الله ﷺ، وما يُخططون له من إخراجهِ وأصحابهِ؛ لأن ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ مشعرٌ بأنها ملكه، وأنهم لقلّة حياءهم، وجهلهم بعظمة ربهم يُخططون لإخراج رسوله منها²؛ ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في آخر السورة التي بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: 85].

(776) في الآية تعريض بغباء قريش، وتوبيخ وتقريع لزعمائهم الذين يعبدون أصناماً لم تجعل بلادهم آمنة، ولا خيرات الله إليها آتية، وتركوا عبادة ربهم الذي أطعمهم من جوع، وأمّنهم من خوف³.

(777) تشير الآية إلى أن التعظيم والتشريف ينال مكة وما حولها من الحرم؛ لأن الله عدل عن ذكرها بالعلم (مكة) إلى ذكرها بالبلدة -بهاء التأنيث- التي تعني طائفة معينة من الأرض معلومة محوذة⁴.

(778) تشير الآية إلى أن مكة وما حولها وما فيها من ساكنٍ ودابةٍ وشجرٍ وطيرٍ كلهم مرعيون محميون⁵.

(779) في الآية إشارة إلى أن "التحريم يكون كاملاً للمحرّم ويكون نقصاً على اختلاف اعتبار سبب التحريم وصفته، فتحريم المكان والزمان مزية وتفضيل، وتحريم الفواحش والميتة والدم والخمر تحقير لها، والمحرمات للنسل والرضاع والصهر زيادة في الحرمة، فتحريم المكان: منع ما يضر بالحال فيه، وتحريم الزمان، كتحريم الأشهر الحرم: منع ما فيه ضرر للموجودين فيه"⁶.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 55/20.

² ينظر: المصدر السابق: 56/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 56/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 56/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 56/20.

⁶ التحرير والتنوير: 56/20.

780) "تكرير (أمرت) في قوله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ للإشارة إلى الاختلاف بين الأمرين، فإن الأول أمرٌ يعملُه في خاصة نفسه وهو أمرٌ إلهام، إذ عصمهُ الله من عبادة الأصنام من قبل الرسالة؛ والأمر الثاني: أمرٌ يقتضي الرسالة وقد شمل دعوة الخلق إلى التوحيد. ولهذه النكتة لم يُكرّر (أمرت) في قوله ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ لأن كلاً من الإسلام والتلاوة من شؤون الرسالة.¹

781) "وفي قوله أن أكون من المسلمين تنويهٌ بهذه الأمة إذ جعل الله رسوله من آحادها، وذلك نكتةٌ عن العدول عن أن يقول: أن أكون مسلماً"²

782) في قول الله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ - إشارةٌ إلى أن الدين الذي يدين به النبي ليس ديناً خاصاً به وحده، ولا مقصوراً عليه وحده، وإنما هو دينٌ كلٌّ من يؤمن بالله.. فهو واحد من المسلمين، وإن كان سيد المسلمين وإمامهم³

783) في الآية اهتمام بالنبي ﷺ، واعتناءً بمقامه المنيف من ربه؛ لأن فيها ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ وليس فيها أمرٌ أن أعبد الله، لأن الربَّ مشعرٌ بالترية والرعاية والاعتناء بخلاف الإله فإنه مشعرٌ بالتكليف والتطويق.⁴

784) تشير الآية إلى أن أنجع الوسائل لحماية البشرية من الفساد، وضمان استمرار النوع الإنساني هي تحريم القتال في أماكن معينة، وأزمة معينة؛ لأن تحريم مكان مكة، والأشهر الحرم نتج عنه حفظ الجنس العربي من الانقراض؛ فتحريم المكان حفظ قريشا، وتحريم الأشهر الحرم حفظ غيرهم من الفناء.⁵

785) في تحريم الله البلدة المعينة تلميح إلى بعض وسائل الإقناع بالإسلام، وهي التذكير بنعمة الله على العبد؛ ذلك أن الشخص حينما يذوق لذة السلام والأمن والأمان، وينظر إلى مُقاتله فيراه تامَّ القوة، كامل الاستعداد، فيتساءل من الذي حرم عليه قتالي وهو قادر علي؟ فيجانب

¹ المصدر السابق: 57/20.

² المصدر السابق: 57/20.

³ التفسير القرآني: 303/10.

⁴ ينظر: الخواطر: 10863/17.

⁵ ينظر: الخواطر: 10863/17.

بأنه الرب الرحيم الحليم الذي يرعى مصالح عباده خيرا من رعايتهم لها، فيلين قلبه، وتتوق نفسه إلى الإسلام¹.

786 تشير الآية إلى أن تحريم مكة وما حولها ليس اعتباطا، إنما ليشيع الاصطفاء الزمان والمكان والأشخاص والملائكة، وهذا الاصطفاء قُصد به النفع العام وليس المكلفين فقط؛ فالاصطفاء من الملائكة نتج عنه تبليغ الوحي، واصطفاء الأنبياء والمرسلين نتج عنه الإيمان والتوحيد، واصطفاء المكان نتج عنه حفظ الأرواح والدماء...².

787 في الآية إشارة إلى أن القوانين لا تؤدي أكلها ولا تنتج ثمارها إلا إذا كان الداعون إليها أول المطبقين لها، والمتزمين بمضامينها؛ لأن النبي ﷺ -وهو سيد الدعاة- قال لكفار قريش وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَ هَاهُنَا كُلَّ شَيْءٍ﴾³.

788 في الآية تعريض بتناقض قريش الذين كانوا يعتقدون حرمة البلد الحرام، ويُعذبون ضعاف المسلمين فيه، وتعليم للعلماء الذين يدعون إلى الله، بأن يقولوا للمشركين والملحدين طَبَّقُوا مَا تدعون إليه من العدل، والنظر والتفكير⁴.

789 في الآية تنبيه للذين يفتخرون بالإسلام، ويتباهون به أمام الأمم، ثم لا يطبقون أحكامه، ولا يقفون عند حدوده بأن فيهم شبيها بكفار قريش الذين كانوا يفتخرون بالكعبة، ويُعظمون حرمتها، ويُعلنون أن تعظيمها من رب العالمين⁵، ثم لا يطبقون ما جاء عن الله من التوحيد، وترك الشرك والفسق والفواحش⁶.

790 تشير الآية إلى حلم الله بأهل قريش ومن يسكن أرضهم بعدهم ممن يعملون المعاصي عليها، ويشركون بالله فوقها، ومع ذلك أمدَّهم بخيراته، وفتح عليهم من نعمائه؛ دليل هذا لفظ الرب الوارد في الآية المشعر بتربية الله لهم فردا فردا، وجماعة جماعة، وزمانا بعد زمان.

¹ ينظر: المصدر السابق: 17/10864.

² ينظر: المصدر السابق: 17/10864.

³ ينظر: معارج التدبر: 9/203.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 9/203.

⁵ يشهد لهذا قول عبد المطلب: -لما هجم أبرهة على الكعبة- إن للبيت ربا يحميه. ينظر: تفسير ابن كثير: 8/485.

⁶ ينظر: معارج التدبر: 9/203.

791) في الآية إشارة إلى أن المؤمن عليه تجديدُ إيمانه بالله، وخضوعه لشرعه في الصباح والمساء، في الصيف والشتاء، في السراء والضراء؛ ذلك أن الله أمر نبيه ﷺ بإعلان استسلامه له، وتجديد خضوعه له بالفعل المضارع الدالّ على التجدد والاستمرار.

792) في الآية رد على غلاة الصوفية القائلين بأن العبدَ ينتقل من مرحلة إلى أخرى حتى يسقط عنه التكليف، ويُصبح مِمَّنْ يَحْدِثُهُ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ، أو عَنْ سِرِّهِ...؛ لأنها بَيَّنَّتْ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم -وهو أكمل الخلق عبادة- أُمِرَ بالبقاء على العبادة حتى يلقي الله، كما يُشعر بهذا الفعل المضارع.

793) في الآية تنبيهٌ للعلماء والدعاة إلى الله بأنهم سَيَنَالُهُمْ سُوءٌ، وَيَصِيبُهُمْ مَكْرُوهٌ مِمَّنْ يُحْسِنُونَ إِلَيْهِمْ، وَيَحْمِلُهُمُ اللَّهُمَّ مِنْ أَجْلِهِمْ، فَيُقَابِلُونَ إِحْسَانَهُمْ بِالْإِسَاءَةِ، وَهُمْ بِعَدَمِ الْمُبَالَاةِ؛ لأن فيها تعريضا بكفار قريش الذين مَنَّ الله عليهم بحرمة بلدتهم، وأكرمهم بجلب الرزق إلى بيوتهم، وتفضل عليهم بتوفير القبائل وتعظيمها لشأنهم، ثم أشركوا به غيره، وآذوا بجوار بيته نبيه ورسوله ﷺ، فإذا به العلماء والدعاة أهونُ من إذاية الرُّسل والأنبياء.

794) تشير الآية إلى تأكيد لزوم جماعة المسلمين، وأنه لا يكفي الإنسان أن يعبد الله ويعتزل الناس؛ يُستشف هذا من تكرير أمر رسول الله ﷺ، وكان بالإمكان العطفُ دون تكرير لفظ (أمرت).

795) في الآية رسالةٌ إلى العلماء والدعاة إلى الله بأن يلتزموا شرع الله في أقوالهم وأفعالهم حتى ينجحوا في دعوتهم، وَيَدُلُّوا النَّاسَ عَلَى رَبِّهِمْ؛ لأن المستمعَ إلى الداعية إذا رآه يخالف ما يدعو إليه سَيَقُولُ: لو كان ما يدعو إليه حقا لسبقني إليه؛ ولذا أمر الله رسوله ﷺ - على سبيل التذكير لأمته، وإلا فهو الذي يقوم الليل حتى تتفطر قدماه الشريفتان - بأن يُطبق ما يقولُ ليقنعَ المشركون بدعوته.

796) تشير الآية إلى أن التحريم لله وحده لا شريك له، وما جاء من التحريم عن الأنبياء والمرسلين فإنما على سبيل البلاغ والبيان.

797) في الآية إشارة إلى صحة قاعدة من قواعد البلاغيين، التي تقول: الحصر قد يكون حقيقيا، وقد يكون إضافيا؛ حيث جاء حصر أمر الرسول ﷺ بأن يكون عابدا لله وحده، وهو قد أمر بالتبشير والإنذار ونحو ذلك، فالحصر هنا إضافي، أي فيما يتعلق بالعبادة.

798) في الآية إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم عبد من عباد الله، يمثل أمره، ويخضع لشرعه، وليس له من الأمر شيء؛ ذلك أنه أخبرنا أنه مأمور، وهذا من صفات العبيد؛ وفي هذا رد على الذين يطلبون منه المدد، أو أشياء تختص بالله رب العالمين.

799) في الآية إشارة إلى أن العبد ينبغي أن يجدد عبادته لله في كل وقت وحين، فقد تفرّ النفس، أو تضعف الهمة، فينبغي تجديد النشاط، وبعثُ الهمم؛ دليل هذا المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

800) في الآية إشارة إلى أن الله يحفظ مكة ويكلؤها؛ ذلك أنه تعالى أتى بلفظ الرب المشعر بالناية والرعاية، وقد حفظها من كيد أبرهة بعدما تحلى عنها من كان يقتات بها، وحفظ أهلها بأن أتاها برزقهم من مكان.

801) في الآية إشارة إلى أن تحريم مكة كان قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم؛ دليل هذا الفعل الماضي (حرمها)، ويؤيد هذا ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.

802) في الآية إشارة إلى أن هذا ملك لله وحده، لا يشترك معه فيه نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا إله مزعوم؛ ذلك أن الله تعالى قدم الخبر على المبتدأ فأشعر بالحصص.

803) في الآية إشارة إلى أن الانتساب إلى المسلمين مفخرة ينبغي التباهي بها، أمام أعداء الإسلام؛ ذلك أن النبي ﷺ -الذي جاء بالإسلام- أمر بأن يكون من المسلمين، ولا يؤمر بهذا إلا لأن الانتساب إلى الإسلام مفخرة.

804) في الآية إشارة إلى أن العبد ينبغي أن يعد نفسه واحدا من المسلمين، لا أن يعدّها من أفضلهم، أو أرفعهم قدرا؛ ذلك أن النبي ﷺ وهو من هو أمر بأن يكون منهم، ولم يؤمر بأن يكون أرفع منهم، مع أنه ﷺ أرفعهم بل أرفع سيد ولد آدم على الإطلاق.

805) في الآية إشارة إلى صحة قاعدة نحوية، وهي حذف القول وإبقاء مقوله؛ ذلك أن الله قال (أمرت) والمعنى قل لهم يا محمد: إنما أمرت.

806) في الآية إشارة إلى أن تحريم مكة على جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، فلا تنتهك حرمتها من أي كان، ذلك أن الله أطلق التحريم، ولم يقيدّه بزمان ولا مكان.

(807) في الآية دليل على صحة حذف حرف الجر وإبقاء عمله، ذلك أن أَمَرَ يتعدى إلى المفعول الثاني بحرف الجر، فنقول مثلاً أمرته بالقراءة، أو بإقامة الصلاة، وهنا تعدى إلى المفعول الثاني الذي هو المصدر المنسبك من أن وصلتها دون وجود حرف الجر.

الآية الثانية والتسعون، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ

ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

809 تشير الآية إلى أن من أراد أن يقف على أسرار القرآن، ويلتذ بمختلف طعوماته فليداوم على قراءته، ولا يتركه إلا لحق من حقوق الله، أو من حقوق العباد؛ لأن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بتلاوته بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار¹.

810 تشير الآية: إلى أن "تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الإرشاد، فيكون ذلك تنبيها على كفايته في الهداية والإرشاد من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى"²

811 تشير الآية إلى أن تلاوة القرآن آناء الله وأطراف النهار سبب للاهتداء بهديه³، لأنه حينئذ تصبح آياته نازلة على القلب كما ينزل الماء على الصخر فيحدث حفرا فيها، فتأثير القرآن في القلب من باب أولى

812 في الآية تحريض على الاهتداء، وترغيب في سلك طريقه؛ لأنها بينت أن من اهتدى فلن يشترك معه أحد في هديه، ولن يتقاسم معه أحد ما يربحه من هدايه، أشعر بهذا اللام الدالة على الاختصاص⁴.

813 في الآية إشارة إلى أن "حظ النبي ﷺ من دعوة المعرضين الضالين أن يبلغهم الإنذار، فلا يطمعوا أن يحمله إعراضهم على أن يلح عليهم قبول دعوته"⁵.

814 تشير الآية إلى أن من بحث عن الهداية وسلك سبلها سيصل إليها بإذن الله، لأن ﴿أَهْتَدَى﴾ يدل على وصول طالب الهداية إليها، ومن ثم يزيده الله هدى كما قال:

﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾⁶ [مُحَمَّد: 17].

¹ ينظر: إرشاد العقل السليم: 306/6.

² ينظر: المصدر السابق: 306/6.

³ المحرر الوجيز: 274/4.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 57/20.

⁵ المصدر السابق: 57/20.

⁶ ينظر: الخواطر: 10865/17.

(815) تشير الآية إلى أن الاهتداء والضلال يتسبب فيهما الإنسان فيُنسبان إليه فعلا، ويُنسبان إلى الله خلقا وتقديرا؛ لأن الله بَنَى الفعل فيهما إلى الإنسان، فأشعرَ بناؤه أنهما يُوجدان عن طريق كسبه.

(816) تشير الآية إلى أن وظيفة النذارة ليست مقصورةً على رسول الله ﷺ فقد سبقه أنبياء ومرسلون، وكان معه صحابةٌ بارون، وجاء بعده علماءٌ مخلصون ناصحون؛ لأن قول الله ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ يُشعر بأن المنذرين كثيرٌ، ورسولُ الله ﷺ من جملتهم؛ ويؤيد هذا ما جاء عن الأنبياء السابقين من التصريح بالإنذار.

(817) تشير الآية إلى تغليب جانبِ النذارة على جانب البشارة لِمَنْ أدمنوا على المعاصي، وألفوا الفواحش حتى صاروا من حماتها وأنصارها؛ لأن الآية قَصَرَتْ وظيفة رسول الله عليه وسلم على النذارة مع أنه جاء أيضا بالبشارة كما هو صريحٌ في كثير من الآيات كقول الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 19].

(818) تشير الآية إلى أن الاهتداء يحتاج إلى جهد من العبد، وتوفيقٍ من ربه؛ لأن (اهتدى) على وزن افعل مشعرٌ بالجهد والمشاركة.

(819) تشير الآية إلى أن الأصل في الإنسان أن يكون على الهدى، وأن الضلال طارئٌ وحادثٌ، لأن فعلَ (ضَلَّ) يدل على حدوث الضلال، وليس عندنا إلا طريقتان: طريق المهتدين، وطريق الضالين، فلزم من حدوث الضلال وجود الهدى قبله، ويشهد لهذا قول الله تعالى ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]، وقول النبي ﷺ عن ربه: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا¹)

¹ صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار: 1197/4، رقم:

820 تشير الآية إلى أن لفظ القرآن يُطلق على كل ما نزل على مُحَمَّد ﷺ، ونقل بالتواتر قلَّ أو كثر، فالآية تُسمى قرآنا، والآيتان تسميان قرآنا، وكذلك الآيات والسورة والسور؛ لأن الله أمر رسوله ﷺ أن يتلو القرآن، والمتلُّو قد يكون جزءا أو جزأين، وآية أو آيتين أو ثلاث...

821 تشير الآية إلى أن تلاوة القرآن الكريم من أعظم العبادات؛ لأن الله أمر نبيه ﷺ بعبادته عموما، ثم أمره بعبادة خاصة، وهي قراءة القرآن، فصار من عطف الخاص على العام، المفيد مزيدَ اهتمام، وكبيرَ عناية.

822 في الآية تحريض على قراءة كل القرآن، فلا يُقتصر على آيات تعد من أفضل آيه، أو شفاء من الأمراض النفسية والعصبية ونحو ذلك؛ ذلك أن الله أمر نبيه بقراءة القرآن، فيصدق على كل جزء منه أنه من المأمور بقراءته.

823 في الآية إشارة إلى أن أمر الذي يكثر من قراءة القرآن بقراءته لا يعد نقصا ولا عيبا، بل ولا دليلا على قلة الاهتمام به؛ فالنبي ﷺ كان يقوم به حتى تتفطر قدماه الشريفتان، ومع ذلك أمره الله بقراءته.

824 في الآية إشارة إلى أن قراءة القرآن بصفة الإسلام أكثر نفعاً من قراءته بدونها، فالمسلم الذي يقرأه وهو يعلم أنه كتاب ربه الذي جمع كل خير، ليس كغيره الذي يقرؤه ويبحث عن أخطائه، وفي أحسن الأحوال يقرؤه لعله يجد فيه ضالته؛ دليل هذا تقديم الأمر بالكون من المسلمين على الأمر بقراءة القرآن.

825 في الآية لطيفة بليغة، وهي أن الاهتداء لا تكون ثمرته آنية، فقد تتحقق بعد أيام، وقد لا تتحقق إلا في الآخرة؛ ذلك أن الله تعالى فرق بين الثمرة، وبين بلوغ الهداية في التعبير؛ فأتى في بلوغها بالفعل الماضي، وفي ثمرتها بالفعل المضارع.

826 في الآية إشارة إلى أن بلوغ الهداية يحتاج إلى جهد ومشقة، كأن يُعمل النظر في الآيات الكونية، أو يتدبر الآيات الشرعية؛ دليل هذا لفظ (اهتدى) الذي هو على وزن افتعل المشعر بالجهد والمشقة.

827 في الآية إشارة إلى أن الذي يبلغ الهداية إنما ينفع نفسه فقط، ولا يعود شيء من ذلك على غيره، ذلك أن الله تعالى حصر الاتهداء على النفس.

(828) في الآية دعوة للدعاة إلى الله بأداء الرسالة على الوجه المطلوب وترك نتائجها إلى الله، فليسوا مكلفين بها؛ فمن يدعو في مسجد مثلاً بالتي هي أحسن ومع ذلك يقل مريدوه، فلا ينبغي أن يحزن، أو يضجر؛ ذلك أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: من ضل فقل له ليس من وظيفتي أن تهتدي، وغاماً وظيفتي أن أُنذرك.

(829) في الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يغلب جانب الإنذار على جانب التبشير إذا كان الإنسان أقرب إلى الهلاك؛ ذلك أن الله تعالى أمر نبيه بأن يكون من المُنذرين إذا رأى الناس على ضلال، مع أنه أمره بأن يكون من المبشرين كذلك.

(830) في الآية إشارة إلى أن المطلوب من العباد قراءة القرآن، والعمل بأحكامه، لا قراءته فقط؛ ذلك أن فعل تَلَا يدل على معنيين: القراءة، والاتباع، وحيث لا قرينة تحدد أحدهما ينبغي حمله على كليهما.

الآية الثالثة والتسعون، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

831) في الآية تهديد لقريش ومن يسير على دربهم بأن الله سيُرِيهم آياته الشاهدة على وحدانيته، والناطقة بربوبيته، ثم يعاقبهم بعقابه إن لم يهتدوا بهديه، ويسلكوا طريق أنبيائه ورسله¹.

832) في الآية إشارة إلى أنه "إذا فرغ الواعظ من وعظه وتذكيره، أو: العالم من تدرسه وتعليمه، أقبل على عبادة ربه، إما عبادة الجوارح الظاهرة، من صلاة وذكر وتلاوة، أو عبادة القلوب، كتفكر واعتبار، أو استخراج علوم وحكم ودُرر"²

833) قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ "كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذليل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبئ عنه إضافة الرب إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم وتخصيص الخطاب أولاً به ﷺ وتعميمه ثانياً للكفرة تغليبا أي وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات فيجازي كلا منكم بعمله لا محالة وقرئ عما يعملون على الغيبة فهو وعيد محض"³

834) تشير الآية إلى أن ما أوعده الله به المكذبين لرسوله، والمعرضين عن آياته قريب، فما عليهم إلا الاستعداد له، والترقب لنزوله؛ دلّ على هذا السيئ الدالة على التنفيس⁴.

835) في الآية إشارة إلى أن مكة معلّم من معالم الحق، وقبلة من قبلات المسلمين، وأنها أكرم وأعظم ما يشار إليه بالأيدي مما على الأرض⁵.

836) في "قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ وعيدٌ بعد وعيد للمشرّكين والضّالّين، وأن ما عملوا من سوء هو مسجّل عليهم، في علم الله، وسيُحاسَبون عليه.. فليس ما يعملونه

¹ ينظر: الكشف: 389/3.

² البحر المديد: 228/4.

³ ينظر: إرشاد العقل السليم: 307/6.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 58/20.

⁵ ينظر: التفسير القرآني: 303/10.

بغائب على الله، وليس الله سبحانه وتعالى بغافل عنهم.. بل سيأخذهم بما كسبوا.. ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.¹

837 تشير الآية إلى أن آيات الله الشاهدة على وحدانيته تتجدد في كل وقت وحين، وتتنوع حسب الزمان والمكان والأشخاص؛ لأن فيها إراءة بالفعل المضارع المشعر بأنه يُري قريشا ومن يأتي بعدهم ممن يسلك سبيلهم ما يقنعهم إلى يوم الدين.²

838 تشير الآية إلى أن الله يُري العباد آياته في أنفسهم وفي الكون أجمع حتى يقيم عليهم الحجة³؛ لأن الإراءة في الآية حُذف مفعولها، فلم يُحدد فيها المرئي ولا زمانه ولا مكانه ولا نوعه... فعمَّ كل هذا كما هو معلوم عند أهل البلاغة.

839 تشير الآية إلى أن الله يُري عباده من الآيات ما يكفي لإقامة الحجة عليهم؛ لأن جمع الآيات مشعر بأنه يريهم آيةً تلو أخرى، متعددة في الحجم والنوع والزمان والمكان حتى تقوم عليهم الحجة.

840 في الآية تنبيهٌ للغافلين، وتذكيرٌ للناس أجمعين بأن الأعمال مهما صغر حجمها فهي مسجلة عند الله، ومهما عظم قدرها فلن ينقص أجرها عند الله، ذلك أن الله أتى بما الموصولة الدالة العموم؛ ويؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7].

841 في الآية إشارة إلى أن إراءة الله لعباده بعض آياته الشاهدة على وحدانيته قريبة، قد تكون عقب نزول الآية؛ ذلك أن الله تعالى بالسين الدالة على القرب، ولم يأت بسوف الدالة على البعد.

842 في الآية إشارة إلى أن الوقوف على بعض آيات الله نعمة تستوجب الشكر؛ ذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بحمده على إراءة الآيات.

843 في الآية إشارة إلى أن الناس سيقفون على آيات أخبر عنها القرآن تقع زمن نزوله، أو بعده، فيتيقنون أنها هي التي أخبرهم عنها القرآن؛ دليل هذا صريح العبارة.

¹ التفسير القرآني: 303/10.

² ينظر: نظم الدرر: 230/14.

³ ينظر: الخواطر: 10866.

844) في الآية إشارة إلى أن حمد الذي يُرشد إلى آيات الله الكونية أو الشرعية لا يعد عيباً، ولا طعناً في عقيدة الحامد؛ ذلك أن الله تعالى جعل الحمد هو المبتدأ، والجار والمجرور هو الخبر فأشعر أن الحمد خير مختص بالله تعالى في هذه المسألة.

845) في الآية إشارة إلى أن بعض أعمالنا تستوجب العقوبة في الحين، لكن الله تعالى يرحمنا، ويعطينا فسحة من الوقت لعلنا نتهدي؛ دليل هذا لفظ الرب المشعر بال العناية والرعاية.

846) في الآية إشارة إلى أن الناس سيعملون في المستقبل أعمالاً تغضب الله، وأنها كذلك لا تخفى على الله؛ دليل هذا الفعل المضارع (تعملون).

847) في الآية إشارة إلى أن الناس قد يشعرون بسبب حلم الله بهم أن الله غافل عنهم، لا يطلع على جرمهم؛ دليل هذا تأكيد النفي بحرف الجر.

848) في الآية إشارة إلى أن ما يظهره الله من الآيات عظيم الشأن جليل القدر، يحتاج إلى الوقوف عنده، للتأمل في ملكوت الله؛ ذلك أن الله تعالى أضاف الآيات إليه، فأشعرنا بعظمتها وعلو مكانتها.

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في آيات سورة النمل.

لا يخفى على أي باحث في الشريعة عموماً، وفي القرآن خصوصاً أن مسألة الهدايات بنوعيتها لم تكن عند القدماء تنظيراً، وإن كانت عندهم الإشارات إليها تطبيقاً؛ لذا فلا غرو أن يقل العزو إلى المراجع، ويُعتمد الذهن والقريحة، ويكثر التدبر والتأمل لإظهارها، والتدليل على صحتها. وقد ظهر لي أن الهدايات الكلية تنقسم إلى ثلاثة أقسام: هدايات كلية تكون مدار السورة، وهدايات كلية تستخرج من مقاطع السورة، وهدايات كلية تستخرج من آيات متفرقات في السورة، أو منها ومن سور أخرى.

أولاً: الهدايات الكلية التي تدور عليها السورة:

من نظر إلى السورة يقتنع بأنها تدور حول العلم- كما سبق أن قررْتُ في المقصد- الذي يعتبر اللبنة الأولى لبناء الأمم، وإنشاء الحضارات؛ فمن أخذه من بابه، ووظفه في مسالكه سعد في نفسه، وبنى مجد أمته، ومن أخذه من غير مهيعه، أو وظفه في غير موضعه- كمن يتعلمون العلم الشرعي للوصول به إلى أغراض شخصية، أو يتعلمون العلم البحثي لتدمير المجتمعات، ونشر الفتن والבלابل...- رجعَ عليه بالخسران، وعلى أمته بالهلاك.

وقبل ذكر الهداية الكلية التي تدور عليها السورة لا بد من بيان الفرق بينها وبين المقصد الذي تدور عليه السورة أيضاً. وقد ظهر لي -والله أعلم- أن المقصد يتجه إلى الشيء للعناية به، والهداية تتجه إليه لبيان نوعه من جنسه، أو وسائل الوصول إليه، أو إلى طرق استثماره واستغلاله، أو حتى الإشارة إلى المعينات التي تقف في طريقه...؛ وعليه فإن المقصد يميل إلى الإجمال، والهداية الكلية تميل إلى البسط.

كما أن المقصد يكون واحداً -في نظري-، والهداية الكلية التي تدور عليها السورة قد تكون واحدة وقد تتعدد؛ لأن متعلقاتها كثيرة، فقد تتعلق به -كما سبق- من جهة بيان نوعه، أو سبل الوصول عليه...

وكما فرقنا بين الهداية والمقصد يحسن بنا أيضاً أن نفرق بين الهداية الكلية وموضوع السورة؛ فكل منهما قد يتحد وقد يتعدد، إلا أن الموضوع هو المعنى العام الذي تدور عليه الآيات¹، والهداية الكلية

¹ سيأتي التفريق بين الموضوع والمقصد عند الحديث مقصد سورة النمل.

هي تفعيل ذلك المعنى، أو بيان أثره على الفرد والمجتمع؛ ولعل المثال يوضع الإشكال؛ فموسى عليه السلام نتناوله من جهتين: من جهة التفسير الموضوعي، ومن جهة الهدايات الكلية، فتناوله من جهة التفسير يكون بحصر السور التي ذكر فيها، وعدد المرات التي تكرر فيها، ثم بيان عناية الله به في صغره، ومنهجه في دعوته...؛ فيبقى المفسر يدور مع المعنى العام لا يتجاوزه إلى غيره¹. وتناوله من جهة الهدايات الكلية يكون بجمع قصته، وقصص غيره من الأنبياء والمرسلين، أو من الكفرة والفاجرين لاستخراج العبر منها، لتنزيلها على أرض الواقع، أو لعلاج ظاهرة تشبه الظاهرة التي عاجتها السورة، سواء أكان الشبه كلياً، أو جزئياً. وغالباً ما يُنظر إلى الهدايات الكلية من سورة واحدة²، وإلى التفسير الموضوعي من جميع سور القرآن، والأوفق حتى في الهدايات أن يكون النظر إليها من جميع السور لا من حيث المعنى الواحد، إنما من القواسم المشتركة. والله أعلم.

¹ ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص: 15، والتفسير الموضوعي 2 (جامعة المدينة)، ص: 390.

² هذا هو المتاح الآن؛ لأن تناول الهدايات من جميع السور يحتاج إلى جعل الهدايات الجزئية للقرآن كله أمام العين للنظر في القواسم المشتركة لاستخراج الهدايات الكلية، وهذا غير متاح لا من حيث الزمن المخصص، ولا من حيث خروج الهدايات الجزئية كلها إلى أرض الواقع.

وقد ظهر والله أعلم أن السورة تدور في مجملها حول هدايتين كليتين:

الأولى: العلم المطلوب شرعاً، والمرغوب طبعاً هو الذي يهدي الضلال، ويُرشد الحياري، ويُقيم الحضارات، ويُنِي العقول، ثم يبقى أثره في الدنيا، ويكون جزاؤه في الأخرى؛ ويمكن الاستدلال على هذه الهداية بمجموعة من الأمور، منها على سبيل المثال:

﴿التنويه بالآيات الشرعية، التي جاء بها القرآن الكريم، وبيان الغاية منها، كما في قول الله تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾، وهذه الغاية تصح على كلا الاعتبارين: أعني اعتبار ﴿هُدًى﴾ حالاً، أو اعتبارها خبراً لمبتدأ محذوف¹.

﴿بيان المصدر الصحيح التي يُتلقى منه العلم وهو القرآن الكريم المنزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿التنصيص على أن أدلة القرآن ناصعة، ودلالاتها واضحة وضوح الشمس في وسط النهار، لا يُنكرها، إلا جاحد، أو صاحب هوى، قال تعالى في حق الرافضين لدعوة النبي ﷺ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾، فالآية وإن كانت في شأن فرعون وقومه، إلا أن الوحي له مصدر واحد هو رب العالمين، يؤكد هذا قول الله تعالى في شأن مشركي قريش ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِءَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33].

﴿إعطاء نماذج ممن أخذوا العلم من مصدره، واستعملوه في موضعه؛ فسلیمان عليه السلام الذي علمه الله عن طريق الوحي طريقة التحكم في الإنس والجن والطير... لم يغفل يوماً عن رعيته، ولم يعدل بما آتاه الله غيره، فتفقد الهدهد الضعيف، ورد على الملكة هديتها...؛ والهدهد الذي علمه الله عن طريق الإلهام أنكر عبادة الأصنام، وذهب إلى من علم أن له القدرة على مخاطبة المشركين، أو منازلتهم إن أصروا على الشرك، وأخبره قائلاً: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِءَ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ

¹ ينظر: إعراب القرآن وبيانه: 162/7.

يَقِينِ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾

◀ بيان الأثر الذي يحدثه العلم في الدعوة، وفي بناء العمران؛ فالذي عنده علم من الكتاب

أسهم في هداية ملكة سبأ بسبب نقل عرشها عن مكانه، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ ﴿٢٦﴾ وجنود سلمان بنوا صرحاً أظهرها به تقدم حضارة من يسير على منهج الله.¹

◀ بيان حال العلماء مع القضايا المعروضة عليهم، فلا يمارون ولا يدارون، لا يقلدون، ولا

يزدرون، يدورون مع الحجة حيث دارت، كانت لهم أو عليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾

هذه بعض الشواهد على صحة هذه الهداية، وهناك شواهد أخرى يدركها التالي لكتاب الله، أو المتدبر لمعانيه، تركتها خشية الإطالة.

الثانية قدرة الله ليس لها حدود، فما تعلقت به من جانب الوجود وُجد ولو وقف أمامه الإنس والجن، وما تعلقت به من جانب العدم لن يقع ولو ساعد على إخراجه الإنس والجن، فكثير من آي السورة يقرر هذه الهداية بأسلوب أو بآخر، ويمكن أن أذكر من القرائن ما يأتي:

¹ ينظر التحرير والتنوير: 275/19.

﴿ إخضاع الإنس والجن والطير لسليمان عليه السلام، وتعليمه منطقته، وطرق التواصل معه من دون معلّم، ولا سابقة تدريب؛ فالكُلُّ يخدمه، والجميع يخشاه، حتى النمل، فإذا كانت هذه قدرة مخلوق أعطاها له خالقه، فكف هي إذن قدرة الخالق!!! ﴾

﴿ بيان عقابه لأعنى الأمم، وأشدّها قوة في الزمن الغابر -قوم ثمود الذين جابوا الصخر بالودي-، إذ أهلكهم الله، فلم تغن عنهم قوتهم شيئا، ولم ينصر بعضهم بعضا، قال تعالى بعدما حكى حال المشركين في الآخرة ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴾ ﴿٦٩﴾ بينما نصر عباده المتقين، وجعلهم مثالا للآخرين.

﴿ بيان التدبير الحكيم، والخلق المحكم، فالسما والارض العظيمتان لم تعترضا على أمره بل ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴾ ﴿١١﴾ [فصلت: 11] بعدما قال لهما: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، والبحران: العذب الزلال، والملح الأجاج افترقا مع أنهما مجتمعان في مكان واحد، ويشتركان في كثير من الخصائص، قال تعالى مقررا هذه الحقيقة: ﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، والخلق -بما فيه الإنسان- يبدؤه الله ويعيده دون أن يعترض، أو يقدم تبريرات... كل هذا لتقرر قدرة الله المطلقة التي لا يدركها عقل، ولا يصل إليها وهم.

﴿ بيان قدرته في جعل البهيم متكلمة يسمع ويحيب، فالدابة العجماء تصبح متكلمة ﴾ ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴾ ﴿٨٢﴾، والنمل يُضحي واعظا ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴾ ﴿١٨﴾ والهدهد يطير في السماء داعيا، ثم يرجع قائلا: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ

دُونَ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾، والجن المعروف عليه الخفة يصبح خاضعا لعبد من عباد الله، ينفذ أمره دون اعتراض، ويدخل ضمن جنده طائعا أو كارها، والصخر الأصم يخرج ناقة، فسبحان العظيم الجبار.

﴿ بيان قدرة الإنسان المحدودة التي إن نظر إليها بعين البصيرة يضحك من نفسه، فعيناه التي يظن أنهما الكاشفتان عن الحقيقة لم يريا الأشياء العظيمة على حقيقتها ﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿٤٢﴾ فما بالهما بالأشياء الدقيقة؛ فالجبال الشامخات تمر مر السحاب مع أن الإنسان يراها ثابتات، إلى غير ذلك من الأدلة، ولعل ما ذكرناه فيه كفاية، والله المعين، والفتاح لمن يشاء من عاده الفتح المبين، اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

ثانيا: الهدايات الكلية التي تدل عليها مقاطع السورة:

القرآن الكريم وإن لم يكن شأنه شأن الكتب في الأبواب والفصول، إلا أنه يعالج القضايا والإشكالات خيرا مما تعالجها الكتب التي هي من تأليف البشر، فالقرآن الكريم ينظر إليها من كل الزوايا، ويضع لها هدايات كلية، تُوصل كل من وقف عليها إلى الصواب، وتُقرِّبه من مراد الله على الحقيقة. ومن الهدايات الكلية التي يمكن أخذها من هذه السورة:

(1) الاستمسك بكتاب الله سبب للسعادة في الدنيا، والفوز في الآخرة، والتمسك بغيره سبب للشقاوة في الدنيا، والخسران في الآخرة؛ ذلك أن السورة ابتدأت بذكر آيات الله المنزلة على محمد بن عبد الله، الهادية لخلق الله، ثم عطف عليها حال أعداء الله في الدنيا وفي الآخرة، فدل على حال المعرضين بصريح العبارة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٤٤﴾ وعلى حال المقبلين بالإشارة.

(2) من الأمور الحسنة التي ينبغي الاهتمام بها التعاون على العلم، والرغبة في توريثه، وتوظيفه فيما ينبغي أن يوظف فيه؛ فالآيات الكريمات ابتدئت بذكر نبي الله داود، ثم عطف عليه ابنه

سليمان، وبَيَّنَتْ أن الوراثة الحقيقية التي ينبغي أن يَطْمَح إليها كل فرد هي العلم النافع، كما أشارت إلى الآثار التي يَخْلُفها العلم على المتعلِّم وعلى الأمة كلها، بل وعلى غيرها من الإنسان والحيوان

(3) من الواجبات -على الكفاية أو الأعيان- على الأمة أفرادا وجماعات محاربة الشرك بكل الوسائل، فيُحارب بالبحث عن أهله لهدايتهم، واستعمال العلم لإقناعهم، وإن اقتضى الحال فباستعمال القوة لكسر شوكتهم، أو استعمال الحيل لاصطيادهم؛ فالهددُ بحث وتيقن ثم أخبر مَنْ يقدر على الدعوة، ونبيُّ الله سليمانُ استعمل الكتابة للإقناع؛ ثم هَدَّد بالقوة والعتاد، كما أنه استعمل الحيل -إن صح التعبير- فأدخلها صرحا لم يسبق لها أن رأت مثله حتى تعلم أن قدرته أقوى من قدرتها، وأن علمه يقوق علمها، فكانت النتيجة أن أسلمت إلى ربها، وأنقذت شعبها.

(4) يجب على الدعاة العلم بأنهم لن يستطيعوا هداية جميع الناس، وأنهم لن يعيشوا حياة الترف والتنعم كما تحلوا لهم نفوسهم، بل سيُرد كثير من الناس الدعوة في وجوههم، ويتألبون عليهم، فيجتمع عليهم القريب والبعيد، والصديق والعدو، ويجعلونهم مرمى أقواسهم، كل واحد ينال منهم على قدر إتقانه، ودقة قوسه إلا أن النهاية ستكون لهم، والخراب والخسران لأعدائهم؛ فبني الله صالح لبي رغبات قومه، ومع ذلك تطيَّروا به، وتجمعوا على قتله وأهله معه، وفي النهاية عقروا ناقته، فكانت النتيجة أن دمرهم الله، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

(5) التشاور بين الناس عموما، وبين الراعي والرعية خصوصا سبب رئيس من أسباب النجاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة؛ فملكته سبأ لم تتخذ أي قرار بشأن كتاب سليمان إلا بعدما عرضت الأمر على الملأ، قائلة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ فكانت النتيجة التوصل إلى قرار كفيل بمعرفة المرسل، ودوافعه الأساسية، مما نتج عنه إسلامها لله، وإنقاذ شعبها من الهلاك.

وقد أكد هذا المعنى في السورة نفسها، وفي غيرها من سور القرآن، وسيرة النبي العدنان؛ ففي السورة نجد نبي الله سليمان يعرض أمر العرش على رعيته ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ

أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ، وفي سورة آل عمران نجد قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ﴿١٥٩﴾ (آل عمران: 159)، وأما في السنة فالوقائع أكثر من أن تحصى؛ ففي غزوة بدر أخذ المشورة من المهاجرين والأنصار، وأخذها من الحباب بن المنذر، وفي غزوة أحد أخذها من سكان المدينة كلهم بمن فيهم المنافقون¹، وسار على هذا المنوال في صلح الحديبية وفي غيره من شؤون أمته عليه الصلاة والسلام.

(6) يجب على الداعية إلى الله العلم بأن الدعوة واجبة: إما وجوب الكفايات، أو وجوب الأعيان، فلا يجوز له الضجر من كلام أعدائه، ولا الرجوع عند كثرة خصومه، فهو منصور بإذن الله، وأعداؤه خاسرون بقدرته الله، فكلامه سيف باتر، وكلامهم خزف مطلي؛ فالآيات الكريمات تُقرر أداء نبي الله صالح عليه السلام لواجبه، وتمرد قومه على دعوته، واتهامه له بالطهارة -التي هي شرف له ولأتباعه-، ومع ذلك لم يضجر، ولم يتوقف بل واصل السير غير مبال بكرهم، فكانت عاقبته النجاة في الدنيا، والفوز في الآخرة، وعاقبة أعدائه الدمار في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

(7) الإيمان بالله فطرة في الإنسان لا يستطيع التخلص منها ولو ظل يحارب نفسه ألف سنة، فالسماء والأرض خلقتان عظيمتان لا يستطيع الإنسان أن يثبت إيجادهما لنفسه، ولا إلى ما راه بين عينه، وجريان الأنهار بين الجبال، ووجود حواجز بين البحار لا يستطيع أن يجد لها تفسيراً إلا التسليم للمدير الوحيد الذي هو رب هو رب العالمين جل في علاه.

(8) الأعمال كلها مجزي عنها، إما في الدنيا أو في الآخرة، لذا كان الاستعداد لها من أفعال العقلاء، والنظر في عواقبها من تصرفات الحكماء؛ فالآيات الكريمات [68-88] تُرشد إلى النظر في أفعال الأمم الغابرة، وتقرر حال أصحابها يوم القيامة.

¹ أقصد بهذا أنه سمع لكلامهم، وإن لم يأخذ برأيهم كما هو معلوم عن عد الله بن أبي. ينظر: سيرة بن هشام: 63/2.

ثالثاً: الهدايات الكلية التي جاءت منشورة بين أجزاء السورة

من الهدايات التي يمكن أخذها من أجزاء السورة:

(1) **الحرص تمام الحرص على إقناع الناس** ، وذلك باستعمال كل الوسائل، وسلك جميع السبل، واستثمار كل المهارات، والاستعانة بكل الأطراف؛ فالغرض وصول المعلومة كما هي لتقوم بها الحجة، وليس الغرض الإحاطة بها، فنبى الله سليمان استعمال الكتاب، واستعمل التهديد، واستعمل القوة والحيل لإقناع ملكة سبأ بالإسلام، فكان ما أراد عليه السلام.

(2) **الابتكار في طرق الكشف عن المشركين**، إذ لم يقتصر على المعهود من طرق الكشف بل استعملت كل الآليات؛ فنبى الله سليمان عليه السلام علمه الله منطق كثير من الكائنات، ومع ذلك خفي عليه شرك ملكة سبأ وقومها، فسخر الله له الهدهد لمعرفة حقيقتها، وليرشدنا نحن إلى الابتكار في طرق الكشف حتى لا نفتصر على ما تبلغه أرجلنا، أو تراه أعيننا، أو تسمعه آذاننا؛ فالواجب استعمال الوسائل الحديثة من تصوير، وغيرها لمعرفة من يشرك الله حتى نركب الصعب والذلول لدعوته إلى التوحيد.

(3) **تنويع الاستدلال**، فلا يقتصر على نمط بعينه، ولا على أسلوب معين، فمن يحسن معه الوعظ مع الامتنان نَعظه ونمّنه عليه، ومن يناسبه التنكيل والتخويف نخوفه وننكل به، ومن يصلح له الترغيب والتحبیب نرغبه ونتحبب إليه؛ فالله تبارك وتعالى (في هذه السورة) امتن على عباده بالخلق والرزق، ودكّرهم بما حل بالمشركين أمثالهم من النكال، وتحبّب إليهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، وخاطب أهل العقول بما يناسبهم، وأهل البدو بما يوافقهم...؛ كل هذا ليجد كل فرد ما يناسبه، ولينقطع عنه العذر عند ربه، فلا يلقي اللومة على أنبياء الله ورسله، ومن سلك سبيلهم من الدعاة إليه.

(4) **الاعتناء بوسائل التعلم والتعلم**، والابتكار في طرق إيصال المعرفة لتقوم الحجة على الخلق، كما ينبغي التفريق بين المصادر التي تخطئ وتصيب، والمصادر التي لا تخطئ؛ فالآيات الشرعية مصدر صحيح لا يخطئ الهدف ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

وغيرها من المصادر رغم ماله من أهمية إلا أنه قد يزيغ عن الهدف؛ فملكة سبأ رغم رجاحة عقلها لما رأت الصرح بعينها ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ والناس ينظرون إلى الجبال فيعتقدون أنها ثابتة وهي تجري ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾¹

(5) اعتماد المناظرة في تقرير الحقائق، فالاستفهامات التقريرية يراد من خلالها إقامة الحجة، وإظهار ضعف حجة المشرك أمام أتباعه.

(6) ينبغي التركيز في الدعوة على الأمور المهمة وتقديمها على غيرها، إن اقتضى الأمر ذلك، فالبعث والنشور مثلا من أكثر الحقائق التي ينكرها الناس، حتى إننا نجد الرجل يؤمن بالله ربا، وينكر أو يشك في اليوم الآخر؛ لذلك ركزت الآيات الكريمات في السورة عليه، فتارة قررته بأسلوب المناظرة ﴿أَمَّنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْفُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦٤) وتارة ببيان عاقبة من سبق ﴿بَلْ أَذَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾^(٦٦)، وتارة ببيان الحال التي يصير إليها المشركون وكل الناس ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٨٣)، وهكذا تمضي السورة في تقرير هذه الهداية.

(7) من الشكليات المساعدة على الإقناع: البدء بحمد الله أولا، والثناء على رسله الله ثانيا، ليأتي تقرير الحقائق بعد ذلك؛ كما سبق أن بيناه في الهدايات الجزية. والله أعلم وصلى الله وسلم على سيد المرسلين.

¹ بناء على رأي من ذهب إلى أن هذه الحقائق في الدنيا، ينظر: أضواء البيان: 506/19.

الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها

نزل القرآن الكريم منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة، تنزل الآية فيقول النبي ﷺ لكتاب الوحي ضعوا هذه الآية في سورة كذا وكذا، بين آية كذا وكذا، حتى تناسب سابقتها ولاحقتها، وتختص بخصائص في الأسلوب والتناول تميزها عن غيرها من باقي سور القرآن، وهذا ما جعل العرب الذين هم أهل الفصاحة والبلاغة يخضعون لأسلوبه، ويعترفون بإعجازه.

وقد تناولت هذا الفصل من خلال ثلاثة مباحث: خصصت الأول للمناسبات المتعلقة بالهدايات، والثاني لخصائصها، والثالث لأسلوبها التي عرضت به هداياتها

المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات السورة:

يقال: كلام العقلاء منزّه عن العبث ويقصد به أنهم يضعون له هدفا واضحا، ويسلكون لتحقيقه طرقا معينة، ويرتبون بعضه مع بعض كما ترتب الغازل غزلها، فتضع لونا في الأعلى، ولونا في الأسفل، وثالثا متوسطا بينهما، ورابعا موزعا على الجميع وهكذا؛ ولا تضع ما اتفق لها من الألوان، بل تختار التقارب بينها، والتواءم عند تركيبها، بحيث إذا نظر إلى نسجها أي ناظر سيقول: إن نسجك في قمة الجمال، وألوانك في تمام الإبداع!!!

فإذا هذا كلام العقلاء، ونسج النساء، فكيف يكون الأمر بكلام رب البريات الذي جعله معجزة خالدة، ومحيرا لأولي الأبواب من البلغاء، ومقنعا لأولي النهى والعقلاء.

لذا لن أطيل في الحديث عن أهمية البحث في المناسبات بين السور عموما، وبين آيات السورة خصوصا، وسأكتفي بنصين للإمام الرازي، ونص للإمام الزركشي لإظهار مكانة هذا العلم بين سائر علوم القرآن؛ قال الرازي مبرزا التناسب بين المؤمنين المذكورين في أول سورة البقرة، والمذكورين في آخرها: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته"¹، وقال أيضا عند حديث عن وجه المناسبة في تقديم الأمر بالأمانة على الأمر بالحكم بين الناس بالعدل: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"².

وقال الزركشي مبينا فضلها "واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول"³.

¹ مفاتيح الغيب: 106/7.

² مفاتيح الغيب: 110/10.

³ البرهان: 32/1.

تعريف علم المناسبات:

ترجع المناسبة في اللغة إلى المقاربة والمشكلة، والاتصال بين شيئين متقاربين، ومنه فلان يناسب فلانا، أي يدانيه ويقاربه، ومنه النسب بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، لكونهما يلتقيان في الصلب أو الرحم¹.

وهي في الاصطلاح غير بعيدة عن معناها اللغوي، فعرفها البقاعي بأنها: "علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال، لما اقتضاه الحال"² وعرفها أبو بكر بن العربي بأنها ارتباط أي القرآن ببعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المعاني³.

وقد ذكر العلماء أن أول من تكلم في علم المناسبات هو أبو بكر النيسابوري، لكن عند التحقيق نجد أن هذا العلم قديم عند العرب قدم نطقهم، فقد كان سليقة كما كانت قواعد اللغة والأصول سليقة؛ وفي هذا يقول البقاعي رحمه الله: "وقد كان أفاضل السلف يعرفون هذا، بما في سليقتهم من أفانين العربية، ودقيق مناهج الفكر البشرية، ولطيف أساليب النوازع العقلية، ثم تناقص العلم حتى انعجم على الناس، وصار إلى حد الغرابة كغيره من الفنون، قال أبو عبيد في كتاب "الفضائل": حدثنا معاذ، عن عوف، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه قال: إذا حدثت عن الله حديثاً، فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده. وروى عبد الرزاق عن ابن عيينة، عن الأعمش، عن إبراهيم، قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذا، فليسأله عما قبلها"⁴.

¹ ينظر: مقاييس اللغة: 423/5، والمفردات، ص: 801.

² مصاعد النظر: 142/1.

³ البرهان في علوم القرآن: 36/1.

⁴ مصاعد النظر: 153/1.

ولعل أهم مثال يؤكد هذا ما ذكره جمعٌ من المفسرين عن الأصمعي أنه كان يقرأ سورة المائدة فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38] قرأها (والله غفور رحيم) فسمعه أعرابي فقال له: أعد الآية، فأعادها ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: الآن أصبت¹.

أولاً: مناسبة سورة النمل لخاتمة سورة الشعراء

سبقت الإشارة إلى أن سورة النمل جاءت عقب سورة الشعراء، فهي إذن "تمضي على نسقها في الأداء : مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع، ويؤكد، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة، ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم، للعبرة والتدبر في سنن الله وسنن الدعوات"².

والسورتان وإن كان مقصدهما واحداً، إلا أنهما يشتركان في موضوعات خامدةٍ للمقاصد، فسورة الشعراء عرضت لموضوع القرآن، وذكرت أقوال المشركين فيه، وردت عليهم كذبهم، وبينت الفرق بينه وبين شعر شعرائهم، وكذلك سورة النمل أيضاً قد عرضت له لكن من جهة أخرى³، وهي أنه هدى لا ضلال فيه بحال من الأحوال، قال تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ لأنه متلقى من الله الحكيم العليم ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ وهذا بخلاف غيره من الكتب التي قد يكون فيها شيء من الحق ممزوجاً بباطل أو أباطيل تجعلها في حكم العدم.

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 357/11، واللباب في علوم الكتاب: 332/7.

² في ظلال القرآن: 2624/5.

³ ينظر: جواهر البيان في تناسب القرآن، ص: 73.

وكما بينت سورة الشعراء حقيقة القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٦﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: 192-196]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: 110-212]، فإن سورة النمل أثنت عليه بما يليق به؛ قال ابن الزبير الغرناطي: "لما أوضح في سورة الشعراء عظيم رحمته بالكتاب وبيان ما تضمنه مما فضح به الأعداء أو رحم به الأولياء وبراءته من أن تتصور الشياطين عليه، وباهر آياته الداعية من اهتدى بها إليه، فتميز بعظيم آياته كونه فرقانا قاطعا ونورا ساطعا، أتبع ذلك سبحانه ذلك مدحة وثناء، وذكر من شملته رحمته به تخصيصا واعتناء فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ أي الحاصل عنها مجموع تلك الأنوار آيات القرآن ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾" ¹ كما أنها كالتتمة لها في ذكر بقية القرون، إذ زاد فيها سبحانه ذكر داود وسليمان، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في الشعراء ²

وقريب من هذا ما ذكره البقاعي في الدرر ³، فليرجع إليه من أراد التفصيل.

ومن المناسبات أيضا حديث كل منهما عن جانب من قصة موسى، فسورة الشعراء ركزت على الحوار الذي دار بينه وبين فرعون من جهة، وبينه وبين السحرة من جهة أخرى، وختمت بانتصاره على السحرة الذين أسلموا، وعلى فرعون الذي أغرق في اليم، بينما سورة النمل ركزت على ما أجمل في الشعراء من النداء، وطريقة تأثير الآيات، ولم تذكر مما جرى لموسى مع فرعون إلا جحوده، والإحالة على عاقبته، فكان بينهما تمام الاتصال، وهذا من أعلى أوجه التناسب.

¹ البرهان في تناسب القرآن، ص: 265.

² أسرار التنزيل للسيوطي، ص: 121.

³ 123/14.

ومن أوجه التناسب بينهما كذلك أن سورة الشعراء أظهرت أتباع الشعراء وبينت هيمهم في كل واد، وخوضهم في كل موضوع، ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: 224-226]، وأن سورة النمل ذكرت أتباع الأنبياء، وبينت أهم صفاتهم ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وهذه المناسبة وإن لم أجد من ذكرها، فأرى أنها جديرة بالذكر، إذ المناسبة كما تكون بين الشيء ومثله تكون بين الشيء وضده، وكما يقال بضدها تتميز الأشياء.

فلما أظهرت سورة الشعراء أتباع الشعراء، وقول الشعراء تشوفت النفس لمعرفة أتباع الأنبياء، وقول الأنبياء، فجاءت سورة النمل للحسم في المسألة، وإلقاء الضوء على الصورة، فظهرت الأركان، والخطوط المرسومة بينها بالبنان.

فسبحان العليم الحكيم الذي وضع في كتابه من الأسرار ما لو اجتمع الإنس والجن على أن يحيطوا به لخرجوا بما يخرج به منطار الطير من البحر!!

ثانياً مناسبة السورة لخاتمها:

بدأت السورة بالحديث عن القرآن، ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وختمت بالحديث عن القرآن أيضاً، ﴿وَأَن تَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾¹

وقد ظهر لي والله أعلم أن هناك مناسبة أخرى، وهي أن القرآن الذي مدح في أول السورة لا يراد منه الحفظ أو التعليم فقط، وإنما المراد توظيفه فيما أراد منزله وهو عبادته جل في علاه، فمن عبده كما أمره القرآن فقد اهتدى، ومن عبده لا كما أمره القرآن أو لم يعبده أصلاً مع أنه يحفظ القرآن،

¹ مراصد المطالع، ص: 58، وجواهر القرآن في تناسب القرآن، ص: 73.

ويدرس علومه فقد ضل وغوى؛ دليل هذا الجمع بين الأمر بالقراءة والأمر بالعبادة، مع تقديم العبادة على العبادة على القراءة للأشعار بأنها هي المقصودة، وأن القراءة إنما هي وسلية إليها، فمن قرأ ولم يعبد كان كمن تعلم السباحة ولم يسبح، أو عنده آليت النجارة ولم يصنع.

ثالثاً: مناسبة سورة النمل لخاتمها

لما كانت السور الثلاث نزلت عقب بعضها كما هي في المصحف ناسب أن يكون حديثها جميعاً عن القرآن، لذلك ختمت السابقة بقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾، وبدأت هذه بـ ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقد ذكر ابن الزبير الثقفي كلاماً بديعاً في وجه المناسبة بينهما، حيث قال: "لما تضمن قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٩]، إلى آخر السورة من التخويف والترهيب والإنذار والتهديد ما انجر معه الإشعار بأنه عليه السلام سيملك مكة ويفتحها تعالى عليه، ويدل عتاة قريش ومتمرديهم، ويعز أتباع رسوله عليه السلام ومن استضعفته قريش من المؤمنين، أتبع سبحانه ذلك بما قصه على نبيه من نظير ما أشار إليه في قصة بني إسرائيل وابتداء امتحانهم بفرعون واستيلائه عليهم وفتكه بهم إلى أن أعزهم الله وأظهرهم على عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم، ولهذا أشار تعالى في كلا القصتين بقوله في الأولى: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، وبقوله في الثانية: ﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، ثم قص ابتداء أمر فرعون واستعصامه بقتل ذكور الأولاد، ثم لم يغن ذلك عنه من قدر الله شيئاً، ففي حاله عبرة لمن وفق للاعتبار، ودليل أنه سبحانه أنه المنفرد بملكه يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء لا ينزعه نازع ولا يمنعه عما يشاء مانع"¹.

كذلك لما ذكرت الشعراء قول فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، إلى ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 18-21]، وحكت النمل ما جرى ماجرى لموسى

¹ البرهان في تناسب سور القرآن، 138.

أثناء عودته، وكان كل منهما يتناول القصة باقتضاب، ومن بعض الجوانب ناسب أن تأتي سورة القصص لتفصل في مسألة تربية موسى ورحلته وعودته¹.

ومن أساليب القرآن التي تتنوع حسب الدواعي والموضوعات التناوب، فتارة يأتي بالإجمال ثم يفصل، وتارة بالتفصيل ثم يجمال، ونفس الأمر حدث هنا حيث أوجز "في هذه السورة ما فصل في السورة المتقدمة من إهلاك قوم صالح وقوم لوط، ومن بيان مصير من جاء بالحسنة، ومن جاء بالسيئة"². ومن المناسبات التي ظهرت لي حديث كل منهما عن الملك الذي كان في الأولى نعمة عظيمة، وفي الثانية فتنه كبرى، فالذي يقرأ قصة نبي الله داود وسليمان عليهما السلام يتعجب لحالهما، ويتساءل: كيف لهذين النبيين لم يتأثرا بالملك ولم يلهمهما عن أهدافهما الكبرى مع أن الملوك عادة ما يفسدون في الأرض كما قال تعالى حكاية عن ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فجاءت سورة القصص لتوضح الصورة وتعطي مثالا لمن بلغ به الملك غاية الفساد والإفساد، ليخرج القارئ بنتيجة واحدة وهي أن رعاية الله هي التي تلعب الدور الكامل، فمن كان الله معه فلن يؤثر عليه الملك والمال حتى لو خضعت له الإنس والجان، ومن تخلى الله عنه فسيكون فريسة للشيطان، يسلك به سبل الغواية حتى يوصله إلى دار الهلاك.

وهناك مناسبة أخرى أملت ظروف الزمان التي نزلت فيها كل من السورتين، فقد نزلتا في الفترة المكية، وامتد نزولهما إلى زمن الفتنة الذي قتل فيه كثير من الصحابة، وحُوصِر فيه النبي ﷺ ومن آمن به أو ناصره - حتى لو لم يؤمن به - في شعب أبي طالب، فبينت الأولى أن الله يسخر ما يشاء لمن يشاء، فلا قوة فوق قوته، ولا راد لقضائه، فجاءت الثانية بمثال حي وهو قصة فرعون الذي بلغ به الجبروت مبلغا أوصله إلى ادعاء الربوبية، ومنازلة رب البريه، حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَظْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي

¹ ينظر: أسرار ترتيب القرآن، ص: 122.

² التفسير المنير للزحيلي: 52/20، وينظر: روح المعاني: 252/10.

لَا ظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ فكانت عاقبته الدمار، ومآل ملكه الزوال، ودوره وقصوره إلى المستضعفين من العباد، لتقول لقريش بلسان الحال: أنتم أهون من فرعون وجنوده، وأقل منهم عدة وعتادا، فإن استمررتم على هذه الحال ستهلكون، ويَرِث أرضكم المستضعفون، وتكونون عبرة للمعتبرين، وتقول أيضا للمؤمنين: لم تبلغوا من الذل والهوان ما بلغ بنو إسرائيل زمن فرعون، فإن صبرتم ستهزمون المشركين، وتصبحون الحاكمين لأرضهم.

رابعا: المناسبة بين موضوعات السورة

لما ذكر الله الفريقين: أعني فريق الضلالة وفريق الهداية، ناسب أن يردفهما بقصص تجلت فيه عاقبة التصديق بما عند الله، وعاقبة التكذيب بما جاءت به رسل الله¹.

"واقتصر في هذه السورة على هذه القصص لما بينها من عظيم التناسب المناسب لمقصود السورة، فابتدىء بقصة أطبق فيها الأبعاد على الكفران فأهلكوا، والأقارب على الإيمان فأنجوا، وثنى بقصة أجمع فيها الأبعاد على الإيمان، لم يتخلف منهم إنسان، وثالث بأخرى حصل بين الأقارب فيها الفرقان، باقتسام الكفر والإيمان، وختم بقصة تمالأ الأبعاد فيها على العصيان، وأصروا على الكفران، فابتلعتهم الأرض ثم غطوا بالماء كما بلغ الأولين الماء فكان فيه التواء"².

ولما كانت خسارة الكافرين في الدارين إما بسبب ما تلقوه من كتب محرفة، مما ورثوه عن الآباء والأجداد دون علم ولا روية، ناسب أن يذكر بعده سر تميز النبي ﷺ ومَن يسير على دعوته، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾³ ليشعرهم بأن العبرة ليست في شخص مُحَمَّد ﷺ، ولا في شخص أصحابه الأبرار وإنما في الوحي الذي هو نور يزيل الظلمات، ويكشف الشبهات ويهدي الحيارى، فمن تمسك به اهتدى ونجا، ومن ألقاه وراء ظهره ضل واعتدى³.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 2624/5.

² نظم الدرر: 130/14.

³ ينظر: المصدر السابق: 128/14.

ولما كان تلقي رسول الله ﷺ للوحي خارجاً عن المعتاد، وقابلاً للإنكار في بيئة أمية لا تعلم إلا ما علمها أهل الكتاب، ناسب أن يذكر بعده قصة نبي الله موسى، ويختار منها الجزء الذي يناسب المقام، وهو تلقيه للوحي، ورعاية الله له، ثم نجاته، وهلاك أعدائه، ليظهر اشتراكهما في المصدر الذي هو رب العالمين، ويزداد الرسول ﷺ يقيناً في أن الله يراعاه، وأنه حليفه كما كان حليف موسى عليه السلام، وأن النصر في الأخير سيكون له ولمن آمن به، والهلاك والخسران سيكونان للأعدائه، ومن حالفهم أو ناصرهم.

وختمت السورة بذكر سبب العقاب المتمثل في الجحود بعد ظهور الأدلة، وقيام الحجة: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ١٢ ﴿ليشعر القارئ بأن مشركي مكة لم يمنعهم من اتباعهم إلا العناد الذي منع فرعون وجنوده، وإلا فهم موقنون بأنه صادق أمين، ورسول من رب العالمين، قال تعالى مبيناً حالهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَمْحَدُونَ﴾ ٣٣﴾ [الأنعام: 33]، وموضحاً سبب رفضهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، ليشعر الرسول ومن آمن معه بأن خصومة قريش ليست مع القرآن وإنما لأن الذي أتى به رجل لا يرضونه.

ثم أردف قصة موسى بقصة داود وسليمان عليهما السلام لكونهم يشتركون في وصف النبوة، والدعوة إلى تحكيم شرع الله¹.

¹ ينظر: روح المعاني: 195/10.

وخص الله هذين النبيين دون غيرهما من أنبيائه ليبرهن على أن المقصود بالوحي هو العمل به¹، فمن أراد العلا فعليه بالوحي، ومن أراد التحكم فعليه بالوحي، فمن تمسك به استوى عنده الفقر والغنى، والعبودية والملك...

ثم أتبع القصتين بقصة قوم ثمود وقوم لوط ليظهر قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ بجلاء، فالقصص الأربعة: إنما سيقّت لتقرير هذا المعنى وتثنيته².

ولما انتهى من القصص التي خدمت كل واحدة منها جانباً من جوانب المقصود³، تشوّفت النفس إلى معرفة حال الذين بعث فيهم النبي ﷺ، هل سيكون حالهم كحال فرعون وجنوده الذين عارضوا موسى؟ أم كملكة سبأ التي اهتدت بعدما ظهر لها صدق سليمان؟ أم كحال قوم صالح وقوم لوط الذين أهلكهم الله؟ فجاءت الطمأنينة من الله بقوله تعالى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾، أي الحمد لله الذي القوي الجبار الذي أهلك أعداء الأنبياء⁴، وهذا يعطي لمحمد صلى الله عليه وسلم قوة، ويزيده ثباتاً، والحمد لله أيضاً الذي لم يفعل بأمة محمد ﷺ ما فعل بأقوام الأنبياء السابقين، وهذا يعطيه أماناً واطمئناناً⁵.

ولما امتازت أمة محمد ﷺ عن بقية الأمم في المعاملة لم تكتف السورة بالقصص مع أن فيها كفاية، وإنما أضافت إليها أدلة حسية وعقلية لتقوم عليها الحجة، وينقطع عذرها عند الله، قال الزحيلي: " بعد أن أتمّ الله تعالى الكلام في إثبات المبدأ والمعاد بالأدلة الكونية، الحسية والعقلية، أعقب ذلك بإثبات النبوة

¹ ينظر: نظم الدرر: 139/14.

² ينظر: روح المعاني: 214/10، وفي ظلال القرآن: 2624/5.

³ ينظر: المصدر السابق: 2624/5.

⁴ غالب من وقفت على بياضهم لوجه المناسبة بين القصص الأربعة، وبين الأمر بالحمد ينصون على أن الله أمر نبيه بمحمد

على إهلاك أعداء الأنبياء والمرسلين، فيجعلون الحمد منصبا على ما قبله دون ما بعده. ينظر على سبيل المثال: التفسير المنير

للزحيلي: 10/20.

⁵ ينظر: مفاتيح الغيب: 562/24.

بأدلة أعظمها القرآن الكريم المشتمل على المعجزات، وإذا كان معجزا دل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يدعيه¹.

ثم جاء المقطع الأخير الذي تناول بعض أشرار الساعة، وشيئا من أهوال يوم القيامة، مصورا حالهم إن بقوا مصرين على كفرهم وعناهم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمَ أَنَّ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾، ليكون الربط بين الواقع والمستقبل، فمن يقرأ الآيات التي تضمن مشاهد كونية سيقنع لا محالة - إن كان يبحث عن الحق - بوحداية الله، ويعمل على هذا المعتقد حتى يلقاه.

وبما أن الشيطان قد يسول له، وينسيه المصير النهائي جاءت بعض العلامات الدالة على قربهِ، وبعضُ المشاهد الدالة على شدة أهواله، ليعيد النظر في أحواله؛ فيخرج موقنا بالله، مستعدا للقاءهِ، عارفا بما يلاقيه بعد موته.

¹ التفسير المنير للزحيلي: 28/20.

المبحث الثاني: خصائص الهدايات القرآنية

امتاز القرآن الكريم على باقي الكلام بخصائص في الأسلوب والتناول والموضوعات...، وامتازت كذلك بعض سوره عن بعض في العرض أو الوصف، أو الأحداث والمجريات، فأوقف العرب عن مجاراته-وهم ملاك الفصاحة في ذلك الزمان- ودفعهم إلى الاعتراف بالعجز عن الدخول إلى حلبته، فضلا عن وضع الرهان لمنازلته؛ لأن ألفاظه من جنس ألفاظهم، وجمله وفق قواعد كلامهم، إلا أن تركيبه للمفردات لم يعهد عند فحول شعرائهم، ونظمه للجمل لم يشرف به عظماء خطبائهم؛ فيأتي بالفظ المألوف عند العرب فيضعه في موضع يدل على المعنى من جهات عدة، حتى لا يعدم الناظر إليه من فائدة، ويخاطب كل قوم بما يليق بهم دون أن يغفل الأقسام الآخرين؛ فداخل خطاب العقل توجد العطفة، وبين ثنايا خطاب الوعد يوجد الوعيد، فيأتي بقصة في موضع يكفي من نظر إليها فيه أن ترتسم صورتها في ذهنه، فإذا نظر إليها في موضع آخر يكون كأنه لم يقرأها من قبل¹!!!

مفهوم الخصائص:

شاع عند كثير من المعاصرين أن الخصائص جمع خاصية، وهذا غير صحيح؛ والصحيح أن الخصائص جمع خصيصة، وهي الصفة التي تميز الشيء عن غيره، يقال: خصه بكذا، واختصه به إذا أفرده دون غيره.²

وخصائص القرآن هي الصفات التي تميزه عن غيره؛ وهذا يشمل جهتين: جهة الإثبات، وجهة النفي، فأما جهة الإثبات فكأن توجد فيه صفات ولا توجد في غيره كالشمول، والكمال ونحوهما، وأما جهة النفي فكأن تنتفي عنه صفة، أو صفات وتوجد في غيره كالركاكة والتناقض ونحوهما. وقد ألفت في هذا الباب عدة كتب بعضها معنون بالخصائص³، وبعضها بالإعجاز، وبعضها بالنظم، ولم أقف حسب اطلاعي القاصر على كتاب زعم صاحبه الإحاطة بكل خصائص القرآن. غاية ما في الأمر أن

¹ يستحسن النظر في المقدمة السابعة من التحرير والتنوير فقد أتى فيها المؤلف بما يشفي الغليل.

² ينظر: تاج العروس: 555/17، ومعجم الصواب اللغوي: 351/1.

³ كخصائص التعبير القرآني لفهد بن الرومي، وخصائص التعبير القرآني أيضا لفوزي البخيت

يذكر ما فتح الله عليه، ويترك المجال مفتوحاً لمن يأتي بعده، ويقف على ما لم يقف هو عليه، ولا العلماء الذين سبقوه.

الخصائص العامة للقرآن الكريم

خصائص القرآن كما سبق أن ذكرت كثيرة أكتفي منها بخمسة أراها الأولى في هذا المقام:

أولاً: الاقتصاد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى

فيستعمل سبحانه وتعالى: ألفاظاً تحتل معاني عدة قد تصل إلى أربع أو خمس معاني للفظ الواحد، وهذا من البلاغة التامة حتى لا تتكرر الآية بمعنى واحد في كل مرة، وإنما يؤتى بها بلفظ معين يتسع لكل المعاني المقصودة¹.

قال الشيخ عبد الله دراز رحمه الله مبيناً هذه الخصيصة: "نهایتان كل من حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضربتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحدهما:

فالذي يعتمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً، ذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلاً، فيكون سبيله سبيل من يقول في باب الحاجة: "صدقوا، أو كذبوا" وفي باب الوصف "حسن، أو قبيح" وفي باب الإخبار: "كان أو لم يكن" وفي باب الطلب: "افعل، أو لا تفعل" لا زائد على ذلك. وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق، ووسائل التقريب والتشيت، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان، حتى يخرج ثوباً متقلصاً يقصر عن غايته، أو هيكلًا من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب، ورب حرف واحد ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه، ويكشف شمس فصاحته، ورب اختصار يطوي الكلام طياً يزهق روحه ويعمي طريقه؛ ويرد إيجازه عيًّا وإلغازًا.

¹ مستفاد من محاضرات فاضل السامرائي.

والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره؛ وإبراز كل دقائقه "بقدر ما يحيط به علمه وما يؤديه إليه إلهامه" لا يجد له بدءاً من أن يمد في نفسه مدّاً؛ لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة. فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك لا يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه، ويبطئ بك في الوصول إلى غايته، فتحس بقوة نشاطك وباعته إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال¹.

ثم يسري به الكلام شرحاً وبياناً: إلى أن يقول: "إن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغائتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شئت من القرآن، تجد بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقدير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية: نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه. ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جملة، وأوضاع جملة من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأدائه. وبالجملة ترى - كما يقول الباقلاني: "محاسن متوالية، وبدائع تترا²".

ثانياً: خطاب العامة والخاصة في آن واحد

فإذ قرأه الأمي يستفيد منه، وإذا قرأه المختص يستفيد منه، "وهاتان غائتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك - إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى؛ كما تخاطب

¹ النبأ العظيم، ص: 143.

² المصدر السابق، ص: 143.

الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوق والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم¹

ثالثاً: إمتاع العقل والعاطفة

فينتقل بينهما برباط أدق من الشعر، وأخفى من ذيب النمل، فما يشعر الذي يتأمل الأدلة العقلية حتى يجد نفسه مأسوراً بما يوافق العاطفة، وما يشعر الذي يلتذ بالعاطفة - كالحور في القصور، والأنهار في الجنات - حتى يجد عقله قد تحرك وبدأ في العمل، فما يضع المصحف، أو ينتهي من القراءة حتى يجد عقله وعاطفته قد ارتويا؛ وانظر على سبيل المثال إلى قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢) تجد عجباً عجاباً، فالمضطر ذكر دون تحديد عينه، وهذا يُشعر كل شخص بأنه المعنى بالكلام، ويتخيل أنه في أعماق محيط يغشاه الموج من كل مكان، وفي أي لحظة يجد نفسه بين الحيتان، ولا يخطر بباله إلا رب السماوات والأرض الذي يأمر البحر بالسكون فيسكن، والرياح بالتوقف فتقف، وفي هذه الحال يخاطب الله عقله، ويقرر ما سكن في نفسه فيقول له: ﴿أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢).

فهل يستطيع بلغاء الأرض أجمعين أن يؤلفوا نصاً كهذا، خاطب العقل والوجدان، والفرد والجماعة، والغائب والحاضر، وصور المشكلة وبين حلها كل هذا في آية واحدة!!! اللهم لا وألف لا، فسبحان الله رب العالمين.

¹ النبا العظيم، ص: 147، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 163/1.

وهذا بخلاف كلام الناس الذي يصدر من الحكماء والشعراء، فأما "الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاءً لعقلك، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبسون لما فيها من جفاف وعري ونبو عن الطباع؛ وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك، وتحريك أوتار الشعور من نفسك، فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غيًّا أو رشدًا؛ وأن يكون حقيقة أو تخيلاً، فتراهم جادين وهم هازلون، يستبكون وإن كانوا لا يكونون، ويُطربون وإن كانوا لا يطربون"¹.

رابعاً: الإجمال والبيان:

ف نجد الآية الواحدة مجملة لكثير من المعاني، وفي نفس الوقت بينة واضحة لكل متأمل، بخلاف كلام الناس الذين إذا أرادوا بيان أغراضهم حددوها حتى تصبح غير قابلة لأي تأويل: أو أجملوها حتى تصبح قريبة من الإلباس، ويصير كلامهم أقرب إلى الرموز التي تحتاج إلى شفرات لفكها².

ويظهر هذا جلياً في كلام العلماء الذي يعد في أعلى الدرجات مقارنة بغيرهم، حيث نجد بعضهم ألف الطوال، ودفن فيها دررًا وجواهر، وأودع فيها من الكنوز النفائس، بعضها منقول عن أشياخه وأستاذته، وبعضها مستنبط بقريحته، ودوام نظره، إلا أنها تزكت في الرفوف، ونبت عنها النفوس لما فيها الطول الذي يسبب الملل، ويصرف النفس عن المحبوب، فقام علماء آخرون بتلخيصها في مختصرات، أوجزوا فيها العبارة، وضمنوا بالأحرف فضلاً عن الكلمات، فصار كلامهم رموزاً، أو كالرموز، فقام فريق ثالث فشرح المختصرات وبين مرادها، ثم جاء رابع فحشى على الشروح، وتعقب شراحها، واضاف ما أغفلوه وما كان ينبغي أن يغفل؛ وهذا كاف في التدليل على الفرق بين كلام الله وبين كلام أفصح خلق الله.

¹ النبأ العظيم: ص: 148.

² ينظر: المصدر السابق: ص: 151.

أما كلام الله ففيه آيات لو جعل لها ماء البحر مدادا، وشجر البر أقلاما، لنفد البحر، وتكسرت الأقلام، ورجع طالب الإحاطة بالخبيبة والخسران؛ لأنه رام المستحيل، وقصد ما ليس له به طاقة؛ وفي المقابل فيه آيات آخر حصرت المراد، وكفت في الغرض، فلا يُفهم منها إلا ما أراد الله؛ لأن المقصود بيان حكم من الأحكام، أو توقيف الناس على معنى من المعاني.

خامسا: تصوير المعنى

لا يستطيع أي يليغ مهما علا كعبه أن يصور في أذهان المتلقين ما ارستم في ذهنه على التمام والكمال حتى لو عكف على كتب البلاغة حتى يشيب الرأس، ويحدودب الظهر؛ لأن ما في الذهن معانٍ تحتاج إلى قوالب تحملها، وبلغ يضعها فيها بتمامها مع الدقة في إلقائها حتى يخيل إلى السامع أنه يشاهد صورة تعبر بنفسها دون حاجة لمن يلقيها؛ وإن استطاع شاعر فحل، أو خطيب مفلق أن يصلها فإنما يكون ذلك في بيت شعري أو بيتين، وفي أفصى الأحوال في جملة أو جملتين، أما أن يكون هذا طردا في كل كلامه فمستحيل؛ وهذا بخلاف القرآن الذي فيه التصوير قاعدة مطردة؛ قال سيد قطب: "إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل، القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال"¹.

ولكيف مثالا -ومعظم القرآن على هذا النسق- قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝﴾ [الحج: 11]، فالآية نزلت بالمدينة عل رأي كثير من المفسرين، تشبه حال المؤلف قلوبهم -على قول- بحال من يمشي على حرف، سواء أكان حرف جبل، أم حرف واد، فهو بين السقوط في سفح الجبل، أو الغرق في الماء، وبين الرجوع إلى وسط الطريق، فإن وجد فيها

¹ التصوير الفني في القرآن الكريم، ص: 9.

خيرات رجع، وإن عثر سقط في الماء، أو سفح الجبل؛ فيا له من تصوير، ويا له من إبداع، فما أظن أحد تخطر بباله هذه الصورة البديعة فضلا عن تصويرها في الأذهان كما صورها القرآن!!!

الخصائص الخاصة بسورة النمل:

لم أقف خلال بحثي المتواضع عن مراجع تناولت خصائص هذه السورة كما يدل عليه المصطلح، وقد ظهر لي أنها تختص بما يأتي:

أولاً: اختصت من بين أختيها (الطواسين) بالاختصار على حرفين فقط؛ ولعل الحكمة ترجع إلى كون المقصود منها: " إظهار العلم الحكمة، دون البطش والنقمة، فلم يقتض الحال ذكر الميم¹".

ثانياً: اختصت بذكر قصة نبي الله سليمان مع ملكة سبأ، وفصلتها تفصيلاً لا يوجد في غيرها؛ إذ بينت الداعي إلى معرفة معبوداتها، والمفاوضات التي تمت بين الملكة وقادتها، وحكم سليمان على هديته، ومآل عاقبتها...

ثالثاً: اختصت بالتنصيص على منطق الطير، وأرشدت إلى أن إدراكه داخل في دائرة الممكنات، وليس من قبيل المستحيلات؛ ذلك أن الطير رأى وعلم، ثم نقل الخبر وتعجب، ثم أدى الرسالة بكل أمانة؛ وفي جميع الأحوال كان يسمع ما يطلب منه، ويطلب ما يحتاج إليه؛ فكان في قصته إشارة إلى الانفتاح على عالمه، للاستفادة من خدماته، والتعرف على بعض أسرار الله في خلقه.

رابعاً: اختصت بالتنصيص على أن اجتماع جميع المخلوقات من الأمور الممكنة، فصورت بذلك حقيقة من حقائق الآخرة؛ فالجنُّ والانس والطير وغير كذلك من المخلوقات التي سحرها الله لنبيه سليمان، وأعطاه القدرة على التصرف فيها كانت تجلس بجوار بعضها كما يدل عليه لفظ الحشر، دون أن يأكل القوي منها الضعيف، أو يعتدي الانس منها على الجن، أو يتمرد الجن على الإنس؛

¹ نظم الدرر: 123/14.

كل هذا ليقنع العباد بأن التحكم في كل المخلوقات إنما هو لله تعالى، الذي إذا أراد أن تخضع بعض مخلوقاته لبعض خضعت دون اعتراض، أو مراجعة كلام.

خامسا: اختصت بذكر النمل، وبينت أنه أمة مجتمعة، لها قائد يقودها، ويرعى مصالحها، تُصغي إلى أقواله، وتنفذ توجيهاته، أمة تعرف البشر وأفعالهم، والأنبياء وصفاتهم، كما بينت قدرة الله في خلقه، حيث يعطي من يشاء قدرات يستطيع أن يعرف بها أحوال المخلوقات، ليكون شكره له أتم، وعبادته له أصح وأوفى.

سادسا: اختصت بذكر البسملة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فهي وإن ذكرت في غيرها من السور، إلا أن هذا الذكر كان في البدء فقط، مما جعل العلماء يختلفون في قرآنيته من عدمه، أما هنا فإنهم متفقون على أنها آية من القرآن.

سادسا: اختصت بالإشارة إلى بعض الطرق التي يستفيد منه الخلق في التواصل، كالاستعانة بالطير لقضاء الحاجات خصوصا في تبليغ الرسائل، فالمعهود أن هذه المهمة يقوم بها نوع من أنواع الحمام يسمى الحمام الزاجل، لكن ليس في معهودهم أن الهدهد قد قام بأخطر من هذا المهمة، فما على المسلمين إلا الانفتاح على خلق الله لمعرفة من يخدمهم، ويقضي أغراضهم.

وهذا يتناسب مع موضوع السورة الذي ذكرناه، فالعلم نعمة كبرى يجب على الناس تحصيلها، ثم توظيفها فيما يرضي الله، وينفع الخلق.

سابعا: اختصت بذكر بعض علامات الساعة الكبرى، وهي خروج الدابة كما هو ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢)، فكان في السورة شاهد على سنة النبي ﷺ، ومؤكد للأخبار التي حدث بها أصحابه ﷺ؛ فقد جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمرو، قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه

بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول الآيات خروجا، طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على إثرها قريبا¹).

هذا ما ظهر لي والعلم عند الله.

¹ صحيح مسلم، كتاب أشراط الساعة، باب خروج الدجال: 2260/4، رقم: 2941.

المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض الهدايات

لما أراد الله تعالى أن يقيم الحجة على خلقه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم وحيه، وخاطبهم باللسان الذي به ينطقون، وعلى أغراضهم يعبرون؛ ليفهموه تمام الفهم، ولا تبقى لهم حجة، ولا يقبل منهم عذر إذا لم يستجيبوا لله وللرسل، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:4]، قال الإمام الطبري: "فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل

على نبينا محمد - ﷺ - لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائمة"¹.

من هنا كان فيه "الإيجاز والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والإكثار، والترداد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر، وعن الكناية والمراد منه المصرح، وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف والمراد الصفة، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر، وتأخير ما هو في المعنى مقدم، والاكتفاء ببعض من بعض، وبما يظهر عما يحذف، وإظهار ما حظه الحذف - أن يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ من ذلك، في كل ذلك له نظير، وله مثلاً وشبيهة"².

وقد جرت عادة الله أن يؤيد الرسل بمعجزات من جنس ما تميزت به أقوامهم، ليظهر لهم فضلهم على ما عندهم، وليعلموا أن ما جاؤوا به فوق قدراتهم ليدعنوا لله، ويطيعوا رسله، ويطبقوا شرعه. ولما كانت العرب من الأمم التي بلغت الشأو في التخاطب - حتى جعلت مواسم وأسواقا لإظهار ما تتميز به كل قبيلة عن غيرها، ولتكريم من برع من شعرائها، بتعليق قصيدته على أستار الكعبة - جعل الله معجزة رسوله ﷺ قرآنا يتلى بلسانها، يُخاطبهم بما لم يخطر على بال شعرائهم، ولم يبلغه كُمل فصحاءهم، فما كان منهم إلا أن اعترفوا بفضله عليهم، ومباينته لما جادت به قرائح شعرائهم

¹ جامع البيان: 12/1.

² المصدر السابق: 12/1.

وخطبائهم، وحكموا عليه بأنه يعلو ولا يعلى عليه. جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، (أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم؛ إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: ليعطوكه؛ فإنك أتيت مُجِدًّا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكِر له، أو أنك كاره له قال: وماذا أقول "فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوةً، وإن عليه لطلاوةً، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته)¹!!!

وما قوله هذا إلا اعتراف منه بأن طريقة القرآن في مخاطبة العقول والوجدان تختلف عما عهدته العرب في خطابها، وما ألفته الشعراء في قصائدها، فحقَّ له التميز والتفرد، وحق لمن جاء به أن يكون صادقاً في القول، مبلِّغاً بأمانة، ليس له مما جاء به شيء ولو حرفاً واحداً؛ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

لذا لزم الباحثين في الشريعة عموماً، وفي الدراسات القرآنية خصوصاً البحث عما تميز به القرآن في الأسلوب عن معهود العرب؛ لأن معظم الناس صاروا عجماء - وإن كانوا ينطقون بلغة العرب، أو لديهم بقايا من ألفاظها - محتاجين إلى التعرف أولاً على أساليب العرب في الخطاب - وهذا والله الحمد قام جمع من الباحثين في اللغة العربية -، ثم التعرف على ما تميز به القرآن عنها ليظهر لهم إعجازه، ولتقوم عليهم حجته.

والأساليب التي جاء بها القرآن الكريم هي نفسها التي كانت تستعملها العرب في الخطاب، إلا أن القرآن أضاف إليها إضافات لم يكن في مقدور العرب إضافتها، قال الدكتور عيسى متقي زادة: "والقرآن الكريم يعرض علينا أساليب شتى استخدمها من أجل تحقيق أهدافه، فالحوار والمناقشة

¹ رواه الحاكم في المستدرک تحت رقم : 3929، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

والجدل، وأسلوب القصة، والترغيب والترهيب، والموعظة والقدوة وأسلوب الكناية والتمثيل والاستفهام، ومخاطبة العقل والوجدان ومخاطبة الفطرة، وأسلوب القوة والتهديد بالانتقام والعذاب.. تعبر عن تعدد الأساليب وتنوع الوسائل. إن المنهج القرآني لم يحدّد أسلوباً خاصاً ومعيناً وثابتاً من أجل الوصول إلى الأهداف وبلوغ الغايات، ولم تتوقف الأساليب القرآنية عند صيغةٍ معيّنة. إن ميزة الأساليب القرآنية أنها إبداعيةٌ ومتطورةٌ، فهذه الأساليب تتغير وتتبدل حسب الظروف والأوضاع¹.

مفهوم الأساليب:

الأساليب جمع أسلوب ويعنى في اللغة: الفن، والوجه، والمذهب، والطريقة؛ فيقال : أخذ فلان في أساليب من القول، أي في فنون منه، وفلان سلك أسلوب فلان: أي طريقته، ومذهبه في الكلام². ويعنى به في الدراسات القرآنية، طريقة القرآن التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه³، فحسبك "أن تأخذ قطعة منه في الموعظة والترغيب، أو الزجر والتأديب، أو نحو ذلك مما يستفيض فيه الكلام الإنساني، فتقرنها إلى قطعة مثلها من كلام أبلغ الناس بياناً، وأفصحهم عربية لترى فرق ما بين أثر المعنى الواحد في كلتا القطعتين، ولتقع على مقدار ما بين الطبقة الإنسانية في السعة والتمكن، فإن هذا أمر لا تصف العبارة منه، وإذا وصفت لا تبلغ من صفته، ثم لا دليل عليه لمن يريد أن يستدل إلا الحسن"⁴.

من أساليب السورة في عرض الهدايات:

يختار القرآن من طرائق العرب ما يوافق الزمان والمكان، وما يلائم الأفراد والمجتمعات، وما يفى بالغرض دون زيادة ولا نقصان؛ فاللفظ لفظ عربي، وتوظيفه يخالف توظيف العرب، لأنه يختار من أدوات

¹ أساليب البيان في القرآن الكريم ، لعيسى متقي زادة، مجلة الكلمة، العدد: 44.

² ينظر: الصحاح: 149/1، وينظر تاج العروس: 71/3، ومعجم اللغة العربية المعاصرة: 1089/2.

³ خصائص القرآن لفهد بن الرومي 18، والأساليب القرآنية في معالجة مشكلات المسلمين في عهد النبوة، ص: 17.

⁴ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ص: 143.

الاستفهام الاسم في موضع لو وضع فيه الحرف لكان فصيحاً، لكنه لا يكون معجزاً، ويختار من أسماء الاستفهام اسماً في موضع لو وضع فيه غيره لكان الكلام بليغاً لكنه لا يكون مُحِيراً؛ بل قد يكون الموضوع المتحدث عنه واحداً، ومع ذلك يضع أداة من أدوات الاستفهام في موضع ويضع غيرها في الموضع الآخر، لكون السياق يناسب هذا دون ذاك؛ وخذ على سبيل المثال قوله تعالى في شأن إبراهيم وقومه : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 52]، وقوله في سورة الشعراء ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء: 70] وقوله في مريم: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: 42]، فالموضوع واحد، والقصة واحدة، لكن لكل أسلوب معنى خاص يناسب مقصد السورة، وسياق القصة. وبسط الكلام في سبب الاختلاف في العبارات يخرج البحث عن قصده، فالغرض التمثيل وليس التحليل، ومن أراد مزيداً من الأمثلة فليرجع إلى مناهل العرفان، في مبحث خصائص أسلوب القرآن¹.

وهذا لا يعني أن له طريقة واحدة في جميع السور، أو أسلوباً واحداً في علاج القضايا، بل يتحكم في الأسلوب السياق، والموضوع، والمخاطبون... فتكون السور مكية، وتتفق جميعها في القضايا الكبرى، ويكون أسلوب هذه مخالفاً لأسلوب تلك، تبعاً لمقصدتهما، أو الحالة النفسية للمتحدث عنهم فيها؛ فعلى سبيل المثال تناولت سورتا النمل والقصص ما جرى لموسى مع فرعون، حتى إن الساذج يظن أن في القرآن تكراراً، وفي مضامينه حشواً وإخلالاً، فإذا الأمر إعجازاً، وبلاغةً يطير العقل عند الوقوف على بعض أسرارها، فيقع التسليم لهذا الكتاب، وترفع له الراية البيضاء. وبالمثال يتضح الإشكال:

فلما كان مقصود سورة النمل إظهار العلم، وبيان مكانة القرآن، وردت قصة موسى في إطار العز، ونطاق القوة، ومعرض التكريم، فجاءت بألفاظ تصور أحداثها ليست كالألفاظ التي صورتها في سورة القصص، ففي النمل نجد قول موسى عن النار التي رآها: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا

¹ مناهل العرفان: 309/2-330.

سَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ بينما نجد في القصص قوله عنها: ﴿لَعَلَّآئَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ لأنه في سورة النمل في حالة قوة، وشدة عزم، فكان المناسب أن يأتي بألفاظ قاطعة في معناها، وفي القصص في حالة الخوف والقلق فكان المناسب أن يأتي بألفاظ تدل على الترجي، ولا تقطع في معناها، ونجد كذلك حديث سورة النمل عن آيات موسى التي سيحاجج بها فرعون مختلفا عن حديث سورة القصص عنها، إذ جاء في النمل قوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وفي القصص ﴿فَإِنَّكَ بُرْهَنَانِ مِّن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ لأن القوة يناسبها الحجاج، والشرف يناسبه كثرة الآيات، ونفس الأمر نجده عن المرسل إليهم، إذ ورد في شأنهم في النمل: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ وفي القصص ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ لأن جو التكريم يناسبه توسيع دائرة التبليغ، كما كان جو التكريم يناسبه كثرة الآيات¹.

إذا تقرر هذا نقول: إن أسلوب سورة النمل في عرض القضايا لا تناسبه صفحات ضمن بحث محصور بالوقت والمنهج؛ لأن العلم يفرض على الدارس النظر في جميع سور القرآن ليحصر فيها الأسماء الموصولة، وما أتى منها للعاقل، وما أتى لغيره، ما أتى منها خاصا، وما أتى عاما²، ثم يسبرها في كل سورة، لعله يدرك بعض السر في كل منها، ثم يقوم كذلك بحصر أدوات الإسلام، وعد أسماءها وحروفها، وبيان ما يدل منها على التصور، وما يدل على التصديق، ثم يقارن بين السور والمواضيع لعله يقف على السر في وضع كل منها فيما وضع فيه. وما قلناه عن الأسماء الموصولة وأدوات الاستفهام نقوله عن التمني والترجي، وأسلوب الأمر، وأسلوب النهي...، ثم في الجمل الخبرية، والجمل الانشائية، وما أتى منها في صورة الإنشاء ومعناه الخبر، وما أتى منها في سورة الخبر ومعناه الإنشاء،

¹ ينظر للتوسع: لمسات بيانية، ص: 71-91.

² يقصد علماء النحو بهذا المصطلح الأسماء الموصولة التي تدل على المذكر أو المؤنث، مفردا أو جمعا كالذي والتي، والذين واللاتي، والأسماء الموصولة التي تصلح للعموم كمن، وما، وأل.

ثم يقارن بين المواضع داخل كل سورة بعدها يحق له أن يقول: امتازت هذه السورة عن تلك بهذا الأسلوب، أو هذه الأساليب، وامتازت تلك بهذا الأسلوب أو تلك الأساليب، وما عدا هذا فلا يعدو أن يكون تمثيلاً لبعض أساليب القرآن داخل هذه السورة أو تلك.

وحتى مع هذا الجهد الكبير فلا ينبغي الادعاء بالوقوف على كل أسرار القرآن؛ إذ الوقوف عنها دليلٌ على إمكان محاكاتها؛ وهذا يبطل الإعجاز القائم إلى يوم الدين، قال الزرقاني في مناهل العرفان: "أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر، ولكنهم بعد أن طال بهم المطاف، وبعد أن دميت أقدامهم، وحفيت أقدامهم، لم يزدوا على أن قدموا إلينا قِلاً من كثره، وقطرة من بحر، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء، وأن ما خفي عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه، وأنهم لم يزدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين، أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب"¹.

وبناء على هذا فإنني أذكر نماذج من الأساليب التي وردت في السورة، لا أعني بها الحصر أو الاستقصاء، ولا أنها مختصةٌ بها دون سواها، كما لا أعني أنها أكثر من غيرها استعمالاً لهذا الأسلوب أو ذاك.

¹ 309/2.

أساليب السورة في عرض الهدايات

أولاً: استعمال الجمل القصيرة في تقرير المعاني، فهي تسير على نسق السور المكية في هذا الأسلوب، ومع ذلك فهي تختلف عن سورة القصص التي هي مكية أيضاً، ونزلت عقبها. فالناظر إلى صفحات سورة النمل في المصحف يجدها ثمان صفحات ونصفاً¹، مع أن عدد آياتها ثلاث وستون آية، بينما عدد صفحات سورة القصص أحد عشر صفحة، وآياتها ثمانية وثمانون آية؛ وهذا الاختلاف ليس على مستوى الصفحات والآيات فقط، بل حتى في عدد الكلمات، فكلمات سورة النمل ألف ومائة وتسعة وأربعون كلمة²، بينما كلمات سورة القصص ألف وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة³.

وهذه الجمل القصيرة "ذات وقع معين في الأذن والنفس، تبعث على الرهبة والخشية وتشعر بمعنى الجلال والجبروت"⁴.

ثانياً: غلبة الجمل الخبرية على الجمل الإنشائية حتى إنه لم يرد من الآية الواحدة، إلى الآية التاسعة أمرٌ ولا نهي، ولا ترجٍ ولا استفهام، وحتى الأوامر التي جاءت بعد الآية السابعة إنما على سبيل الحكاية، وليس على سبيل الإلزام بمضمونها، فعلى سبيل المثال: نجد في قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ﴿وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ ﴿أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾ ﴿أَوَامِرَ لَهَا لَمْ تُوَجَّهْ إِلَيْنَا﴾ قصد التكليف بمضمونها، وإنما حُكِيت لنا على أنها مما وقع في التاريخ لموسى، أو لسليمان عليهما السلام، إلا ما كان من قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، فإن الخطاب فيه

¹ رواية ورش عن نافع، طبعة دار ابن كثير، الطبعة الأولى.

² ينظر الكشف والبيان: 188/7.

³ ينظر المصدر السابق: 232/7.

⁴ من روائع القرآن، ص: 86.

للولاحد، والمقصود به العموم؛ لأن الضمير وإن وضع في الأصل لمعين فإنه قد يخرج عن هذا الأصل، ويخاطب به العموم، كما قال صاحب الجواهر:

والأصل في المخاطب التعيين**والترك للشمول مستبين¹.

وتمضي السورة على هذا النسق إلى أن تتغير وتصير الأوامر فيها موجهة للنبي ﷺ بالأصالة، ولمن يقوم مقامه بالنيابة، وغلب على هذه الأوامر لفظ (قل) كما في قوله: تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وقوله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقوله: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٢)، وقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣).

وهذا التغير في الأمر -أي من الحكاية إلى الخطاب- ليس عبثاً، وإنما لكون الجزء الأول من السورة يقرر العقيدة عن طريق الخبر (القصة)، لأن النفوس إليها أميل، فإذا ما روت، ووصل الماء إلى جذورها، جاءت الأوامر المباشرة، فوجدت المحلّ مهياً لقبولها، فنمت أغصانها، وساخت في الأرض جذورها، فاستحقت التنويه والتكريم والتشريف المضمن في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغَاظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩) فسبحان العليم الحكيم.

¹ شرح الجواهر المكنون للسملالي، ص: 65.

واللافت في السورة أن الأوامر فيها متنوعة، فبعضها لمن يعقل، وهو الغالب، وبعضها لمن لا يعقل لكنه بخطاب من يعقل، كقول الله تعالى حكاية عن النملة: ﴿أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾ ﴿١٨﴾ قال الزجاج: "جاء لفظ ادخلوا كلفظ ما يعقل، يقال للناس: ادخلوا وكذلك للملائكة والجن، وكذلك دخلوا، فإذا ذكرت النمل قلت: قد دخلن ودخلت، وكذلك سائر ما لا يعقل، إلا أن النمل ههنا أجري مجرى الآدميين حين نطق، كما ينطق الآدميون¹".

وأغراض هذه الأوامر لا يتسع لها هذا البحث، فليرجع إليها في مظانها. هذا ما يتعلق بالأمر، وأما النهي فلم يرد إلا خمس مرات في أربعة مواضع، الأول في قوله تعالى: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسَلُونَ﴾ ﴿١٠﴾ والثاني في قوله تعالى: ﴿لَا يَحِطَمَنَّ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ﴾ ﴿٧٠﴾ بناء على كون لا ناهية، لأن من العلماء من عدها نافية، والثالث في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾ والرابع والخامس في قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿٧٠﴾.

وهذا ما يؤكد أن أسلوب السورة تقريرى، يرجى من خلاله بالدرجة الأولى غرس العقيدة بطريق غير مباشر.

ثالثا: كثرة المؤكدات

فعلى سبيل المثال من الآية الرابعة إلى الآية الثانية عشرة ورد التأكيد ب (إن) سبع مرات، كما ورد التأكيد بالنون في معظم كلام نبي الله سليمان، فعلى سبيل المثال نجد في قوله تعالى: ﴿لَا عُدْبَنَهُ وَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢١﴾ ثلاثة تأكيدات، كما نجد في قوله تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ وَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ تأكيدين، إضافة إلى مؤكدات أخرى ك قد، واللام، وغيرها؛ وكل هذا يؤكد ما قلناه عن السورة من أنها يغلب عليها أسلوب التقرير.

رابعا: أسلوب الحوار

¹ معاني القرآن: 4/112.

من معاني الحوار في اللغة المراجعة¹، ويمكن أن يكون منه قول الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: 37]، "والمحاورة : مراجعة الكلام بين متكلمين"²؛ ومن أمثلته في السورة قول سليمان عليه السلام ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ورد الهدهد عليه بعدما وصله الخبر ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِءَ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ﴿٢٢﴾، وهكذا تسير السورة في باقي أجزاء القصة، وقصتي قوم صالح، وقوم لوط.

خامسا: أسلوب التفخيم والتعظيم

ويقصد به الخطاب الذي يرفع من شأن قوم، ويُعلى من مكانتهم لعلمهم يساعدون على تحقيق هدف، أو الترفع عن خلق ذميم، فالتعظيم في مجمله يرجع إلى عظمة الشيء في عينك³. ومن أمثلته في السورة قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ حيث أضيفت "الآيات إلى القرآن، والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم؛ لأنّ المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه؛ فإن قلت: لم نكر الكتاب المبين؟ قلت: لِيُبَيِّنَ بالتذكير فيكون أفخم له"⁴. ومن أمثلته أيضا قول الملكة كما حكى الله عنها: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُؤُاِئِيَّ الْقِيَّ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿٢٩﴾ وكررت هذا مرتين لأجل "استعطافهم وتطبيب نفوسهم ليمالئوها، ويقوموا معها قاطعةً أمراً فاصلة⁵". ومن أمثلته أيضا: قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ ﴿٣٤﴾، فالتنوين والتذكير "لتعظيم العلم الذي أوتياه وتكثيره، كأنه قال: علماً أي علم، وهو كذلك؛ فإن علمهما كان مما يستغرب ويستعظم، ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات"⁶.

¹ ينظر: مقاييس اللغة: 215/2.

² التحرير والتنوير: 319/15.

³ ينظر مقاييس اللغة: 355/4.

⁴ الكشف: 346/3.

⁵ المصدر السابق: 364/3.

⁶ حقائق الروح والريحان: 444/20.

ويمكن أن نمثل له أيضا بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ على قراءة الجمهور التي ورد فيها لفظ (الذي) وصفا لله تعالى؛ قال الألوسي: "وقراءة الجمهور أبلغ في التعظيم، ففي الكشف أن إجراء الوصف على الرب تعالى شأنه، تعظيم لشأن الوصف ولشأن ما يتعلق به الوصف وزيادة اختصاص له بمن أجرى عليه الوصف على سبيل الإدماج¹.

سادسا: أسلوب التشويق:

ويعنى به توجيه الخطاب مع إخفاء عنصر من عناصره، حتى تشتاق إليه النفس، وتتوق إلى معرفته، فإذا ألقى إليها تمسكت به، وجعلته منها في المنزلة اللائقة به².

ويمكن أن نمثل له بقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ فالذي يقرأ هذه الآية يتشوف إلى آثار هذا التلقي، فكأنها "بساط وتمهيد، لما يريد أن يسوق بعدها من الأقايص، وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه³"، فلما جاء قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ كان "كأنه قال على أثر ذلك: خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى⁴".

ويمكن أن نمثل له أيضا بقول الله تعالى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ على قراءة من خفف (أمن)، قال الألوسي: "وقرأ الأعمش (أمن) بالتخفيف على أن الهمزة للاستفهام، ومن بدل من الاسم الجليل، وتقديم صلي الإنزال على مفعوله لما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر⁵".

سابعا: أسلوب الإطناب:

¹ روح المعاني: 248/10.

² ينظر: مقاييس اللغة: 229/3.

³ الكشف: 349/3.

⁴ المصدر السابق: 349/3.

⁵ روح المعاني: 216/10.

يدور معنى الإطناب في اللغة حول "الإطالة والإكثار والطول والكثرة والزيادة عن المعتاد... وفي اصطلاح البلاغيين كون الكلام زائدا عما يمكن أن يؤدي به من المعاني في معتاد الفصحاء، لفائدة تقصد¹".

ومن أمثلته في السورة قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ حيث كرر في الآية "تشبيه المشركين في إعراضهم عن الحق بأن شبهوا في ذلك بالعمي بعد أن شبهوا بالموتى وبالصم على طريقة الاستعارة إطنابا في تشنيع حالهم الموصوفة على ما هو المعروف عند البلغاء في تكرير التشبيه كما تقدم²".

ومن أمثلته أيضا قول الله تعالى : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ "وإذ قد كانت المخلوقات لا يعدون أن يكونوا من أهل السموات أو من أهل الأرض لانحصار عوالم الموجودات في ذلك كان قوله : ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ﴾ في قوة لا يعلم أحد الغيب، ولكن أطنب الكلام لقصد التنصيص على تعميم المخلوقات كلها؛ فإن مقام علم العقيدة مقام بيان يناسبه الإطناب³".

ثامنا: أسلوب التوكيد

يقصد به مجيء اللفظ لتقرير المعنى الحاصب قبله، ويكون لفظيا ومعنويا، فالمعنوي يكون بالاسم ويكون بالحرف، والحرفي أنواع: منه ما يكون في النفي ومنه ما يكون في الإثبات⁴.

فأما اللفظي فيمكن أن نمثل له بقول الله تعالى : ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قال السمين الحلبي: قوله : ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (هم) الثاني تكرير للأول على سبيل التوكيد اللفظي⁵.

وأما المعنوي فكثير فيها، نذكر منه قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مُدْبِرِينَ﴾، فالآية فيها جواب عن سؤال مقدر خطر ببال السامع عقب قوله تعالى ﴿فَتَوَكَّلْ

¹ البلاغة العربية: 60/2.

² التحرير والتنوير: 36/20.

³ المصدر السابق: 19/20.

⁴ ينظر: المدايات القرآنية: دراسة تأصيلية: 304/1-306، وشرح الجواهر المكنون للتلمساني، ص: 52.

⁵ الدر المصون: 570/8.

عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٣٤﴾ مفاده أنك إذا كنت على الحق فلماذا لم يتبعك قومك؟ ويمكن أن يكون تعليلا للأمر بالتوكيد، وعليه يكون موقع "حرف التوكيد فيه كموقعه في التعليل بالجملة التي قبله. وهذا عذرٌ للرسول ﷺ وتسلية له¹".

تاسعا: اسلوب الإيضاح بعد الإبهام:

وهو أن يلقي الخطاب مجملا فتتشوف النفس إلى معرفة معانيه، فيأتي بعد الإيضاح فيستقر المعنى في النفس، ويتمكن منها، ومن أمثلته في السورة قوله تعالى ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فبورك تفسير للنداء، إذ المعنى: "نودي أن بورك من في النار، وأن ألق عصاك: كلاهما تفسير لنودي²".

ومن أمثلته أيضا قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَأْيُهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ وَمِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤٠﴾﴾ فكأنها أرادت أن تصفه لهم لتتشوف النفس وتسال عن مصدره، فقالت: ﴿إِنَّهُ وَمِنْ سُلَيْمَانَ﴾ فازداد شوق النفس، وتطلعت إلى بيان مضمونه، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٤٠﴾﴾³.

ومما يمكن أن نمثل له أيضا بقول الله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ فالقارئ الذي يقرأ هذا الجزء تذهب نفسه كل مذهب، ويخطر بباله احتمالات عدة، فكان قوله تعالى ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كاشفا للحال، وشافيا للنفس.

عاشرا: أسلوب الحذف:

عرفه الرماني بقوله: "الحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال، أو فحوى الكلام⁴".

¹ التحرير والتنوير: 34/20.

² الكشف: 350/3.

³ ينظر: المصدر السابق: 363/3.

⁴ النكت في إعجاز القرآن، ص: 76.

ومن أمثلته في السورة قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^١، فأتى بالواو في مكان ظاهره الإتيان بالفاء، فتساءل: "أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك: أعطيته فشكر، ومنعته فصبر؟ قلت: بلى، ولكن عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إتياء العلم، وشيء من مواجهه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال: ولقد آتيناهما علماً فعملنا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه، والفضيلة ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾"^١.

ومن أمثلته أيضاً: قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^٢ ف ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ "يحتمل أن يكون جواباً للأمر، وأن يكون نهيًا بدلاً من الأمر، والذي جَوَّز أن يكون بدلاً منه: أنه في معنى: لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم، على طريقة: لا أرينك هاهنا"^٢. ومن أمثلته كذلك: قول الله تعالى ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾^٣ ففي الكلام "حذف تقديره كأنه هو، وقال سليمان عند ذلك ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾"^٣.

حادي عشر: أسلوب اتحاد اللفظ واختلاف المعنى:

يكون ذلك بأن يوجد لفظان متشابهان، يرجع أحدهما إلى مدلول، ويرجع الآخر إلى مدلول آخر، ومن أمثلته في السورة قول الله تعالى عن عرشه: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وقوله تعالى عن عرض عرش بلقيس حكاية عن الهدهد: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، ففي الآيتين معا ذكر للعرش، ووصف له بالعظمة، لكن شتان بين العرشين، وشتان بين الوصفين، فالأول عرش الله الخالق، والثاني عرش الملكة المخلوق، فالأول تقارن عظمته بين جميع مخلوقات الله، والثاني تقارن عظمته بعروش المخلوقين؛ قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم؟ قلت:

^١ الكشاف: 352/3.

^٢ المصدر السابق: 352/3.

^٣ المحرر الوجيز: 161/4.

بين الوصفين بون عظيم، لأنّ وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السماوات والأرض¹. وهذا الاتحاد في اللفظ، والاختلاف في المعنى ليس مقصوراً على المخالفة بين الخالق والمخلوق كما مثلنا، بل يوجد حتى بين المخلوقين، فنبى الله سليمان قال كما حكى الله عنه ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ^ط﴾، والهدهد قال عن ملكة سبا ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ "فإن قلت: كيف قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع قول سليمان ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ^ط﴾ كأنه سوى بينهما؟ قلت: بينهما فرق بين؛ لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من الله، وهو تعليم منطق الطير، فرجع أولاً إلى ما أوتي من النبوة والحكمة وأسباب الدين، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فيبين الكلامين بون بعيد²."

ثاني عشر: أسوب الاستعارة:

"الاستعارة في اللغة: طلبُ شيءٍ ما للانتفاع به زمناً ما دون مقابل، على أن يرُدّه المستعير إلى المُعِير عند انتهاء المدّة الممنوحة له، أو عند الطلب.

الاستعارة في اصطلاح البيانين: استعمال لفظٍ ما في غير ما وُضِعَ له في اصطلاح به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب"³.

ومن أمثله في السورة قول الله تعالى ﴿قَالَتْ نَمَلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ "فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم، ولذلك أُجْزُوا مجراهم حيث جعلت هي قائلة، وما عداها من النمل مقولاً له، فيكون الكلام خارجاً⁴ مخرج الاستعارة التمثيلية، ويجوز أن يكون فيه استعارة مكنية"⁵.

ومن أمثله أيضاً قول الله تعالى حكاية على لسان الملكة: ﴿قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٣٢)، فالفتوى: هي "الجواب في الحادثة، اشتقت على طريق

¹ الكشف: 362/3.

² المصدر السابق: 361/3.

³ البلاغة العربية لحبنكة الميداني: 229/2.

⁴ في طبعة دار الكتب العلمية، وطبعة إحياء التراث العربي: 177/19 "فيكوف الكلام خارج"، والصواب ما أثبتته.

⁵ روح المعاني: 171/10.

الاستعارة من الفتى في السن؛ والمراد بالفتوى هاهنا: الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتدبير¹.

ومما يمكن أن نمثل أيضا قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا أُولُواْ مُدْبِرِينَ﴾ فالموتى والصم: "مستعاران للقوم الذين لا يقبلون القول الحق، ويكابرون من يقوله لهم؛ شبهوا بالموتى على طريقة الاستعارة في انتفاء فهمهم معاني القرآن، وشبهوا بالصم كذلك في انتفاء أثر بلاغة ألفاظه عن نفوسهم"².

وتكمن أهمية هذا الأسلوب في تصوير الأشياء المعقولة، وجعلها كالمحسوسة، حتى يخيل للناظر إليها كأنها يراها بعينه، وهذا يعطي للمعنى المراد إيصاله قوة وجمالا.

ثالث عشر: التقديم والتأخير:

"وهو ضربان: الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو آخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى، والثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو آخر لما تغير المعنى"³ ومن أمثلته في السورة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَوْلَ عَنْهُمْ فَأَنْظِرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ فالآية على رأي بعض العلماء ليست على ظاهرها، وإنما "على التقديم والتأخير، والتقدير فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم؛ لأن التولي عنهم بعد الجواب"⁴.

وقد عد الشوكاني رحمه الله قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ من باب التقديم والتأخير أيضا: حيث قال: "وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ قال: تكبرا، وقد استيقنتها أنفسهم، وهذا من التقديم والتأخير"⁵.

رابع عشر: أسلوب الالتفات:

¹ الكشف: 364/3.

² التحرير والتنوير: 35/20.

³ المثل السائر: 35/2.

⁴ التفسير الوسيط للواحدي: 376/3.

⁵ فتح القدير: 128/4.

من أحسن من وقفت على تعريفه للالتفات، وبسطه القول عنه الإمام ابن الأثير، حيث قال عنه: "وهذا النوع وما يليه¹: هو خلاصة علم البيان التي حولها يُدندن، وإليها تستند البلاغة، وعنهما يُعنعن؛ وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه ينتقل فيه عن صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصلاً.

ويسمى أيضاً شجاعة العربية، وإنما سمي بذلك؛ لأن الشجاعة: هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتوَرَّد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات².

ومن أمثلته في السورة قول الله تعالى ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ﴾ قال الألوسي: "والالتفات إلى التكلم بنون العظمة لتأكيد اختصاص الفعل بحكم المقابلة بذاته تعالى، والإيذان بأن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال، مع ما لها من الحسن البار، والبهاء الرائع، بماء واحد أمرٌ عظيم لا يكاد يقدر عليه إلا هو وحده عز وجل³".

ومن أغراضه البلاغية في الآية تشديد التبكيت والإلزام على الكفرة⁴.

ومن أمثلته كذلك في الآية: قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ لَهْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿ فبعدهما "ذكر منته عليهم، خاطبهم بذلك، ثم لما ذكر ذمهم، عدل من الخطاب إلى الغيبة فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ إما التفاتاً، وإما إخباراً للرسول صلى الله عليه وسلم بحالهم، أي يعدلون عن الحق، أو يعدلون به غيره، أي يجعلون له عديلاً ومثيلاً⁵".

¹ يقصد توكيد الضمير، ينظر المثل السائر: 151/2.

² المثل السائر: 135/2.

³ روح المعاني: 216/10.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 215/10.

⁵ البحر المحیط: 258/8.

خامس عشر: أسلوب المقابلة:

يقصد بالمقابلة: "إيراد الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة، أو المخالفة"¹. قال يقوت الحموي: "المقابلة: أدخلها جماعة في المطابقة، وهو غير صحيح، فإن المقابلة أعم من المطابقة، وهي التنظير بين شيئين فأكثر، وبين ما يخالف وما يوافق"². وهي نوعان، مقابلة في اللفظ، ومقابلة في المعنى، فأما المقابلة في اللفظ فلم أقف عليها في السورة، وأما المقابلة في المعنى فيمكن أن نمثل لها بقول الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ "فالمكر من الله تعالى: العذاب، جعله الله عز وجل مقابلةً لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته"³.

سادس عشر: أسلوب الطباق:

ويسمى المطابقة، والتكافؤ والتضاد، وهو في اللغة: وضع طبق على طبق، كوضع غطاء القدر من كفنا على فم القدر حتى يغطيه بإحكام، ومنه إطباق بطن الكف على بطن الكف ... هو الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، ولو إيهاما"⁴. ويمكن أن نمثل له بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^٥، فالحسنة جاءت مقابل السيئة.

ومن أمثلته أيضا: قوله الله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرْنَا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَجِي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^٦

سابع عشر: جناس التصريف:

عرفه أبو حيان بقوله: "وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف"⁵، ويعد "من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ، بشرط أن يجيء مطبوعا، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام، يحفظ معه صحة المعنى وسداده"⁶.

¹ الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص: 337.

² خزانة الأدب: 129/1.

³ الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص: 337.

⁴ البلاغة العربية: 377/2.

⁵ البحر المحيط: 64/7.

⁶ الكشف: 360/3.

ومن أمثلته في السورة قوله تعالى ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ حيث جاءت الكلمتان على صيغة واحدة (فَعَلٍ) ، واختلفتا في حرف واحد، لذلك "جاء هاهنا زائداً على الصحة فحُسن وبدع لفظاً ومعنى؛ ألا ترى أنه لو وضع مكان ﴿بِنَبَإٍ﴾ بخبر، لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصح، لما في النبأ، من الزيادة التي يطابقها وصف الحال"¹.

ثامن عشر: أسلوب التتميم:

عرفه أبو هلال العسكري بأنه: هو "أن توفّي المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة؛ ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره"².

ومن أمثلته في السورة قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾^(٤٨)، فقد تم المعنى عند قوله ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، وفهم أن فسادهم منشور، لكن قد يتبادر إلى الذهن إصلاحهم في بعض الأحيان، أو على الأقل إصلاح بعضهم حتى لو كان واحداً، ولدفع هذا التوهم عطف "﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على ﴿يُفْسِدُونَ﴾ احتراساً للدلالة على أنهم تمحضوا للإفساد، ولم يكونوا ممن خلطوا إفساداً بإصلاح"³.

تاسع عشر: براعة الاستهلال:

فتكون بالبداية بما يكون فيه إلماح إلى المقصود الأول من النص الأدبي، وإبداع يجذب الانتباه، ويأسر المتلقي سامعاً أو قارئاً، مع حسن سبك، وعدوبة لفظ، وصحة معنى"⁴.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ "فإنه كان هذا الحمد براعة استهلال لما سيلقيه من البراهين والدلائل على الوحدانية، والعلم والقدرة التي سيذكرها"⁵.

عشرون: أسلوب الاحتباك:

¹ الكشف: 360/3.

² الصناعتين، ص: 389.

³ التحرير والتنوير: 282/20.

⁴ البلاغة العربية: 559/2.

⁵ حقائق الروح والريحان / 44/21.

وهو "أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابلة في الأواخر، ويحذف من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلة في الأوائل. ومأخذ هذه التسمية من الحبك، وهو الشد والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبك الثوب هو سد ما بين خيوطه من الفرج وشده وإحكامه إحكاما يمنع عنه الخلل، مع الحسن والرونق"¹.

ومن أمثلته في السورة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوفِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ إذ التقدير: "ألم يروا أنا جعلنا الليل مظلمًا لتسكنوا فيه، والنهار مبصرًا لتبتغوا فيه من فضله، فحذف من الأول نقيض ما ذكر في الثاني، ومن الثاني نقيض ما ذكره في الأول"².

واحد وعشرون: أسلوب الاحتراس:

وهو "أن يأتي المتكلم بكلام يتوجه عليه فيه دخل فيتفطن إليه، فيأتي بما يخلصه من ذلك"³. ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ فإنه لما أضاف ربوبيته إلى البلدة، أتبعها بقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ احتراسًا "لئلا يتوهم من إضافة ربوبيته إلى البلدة اقتصارًا ملكه عليها، ليعلم أن تلك الإضافة لتشريف المضاف إليه، لا لتعريف المضاف بتعيين مظهر ملكه"⁴.

هذا ما يمكن قوله في أساليب السورة مع اختصار شديد، واقتصار منها على المفيد، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

¹ البلاغة العربية: 54/2.

² تفسير ابن عرفة: 362/3.

³ خزنة الأدب: 486/2.

⁴ التحرير والتنوير: 57/20.

الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات آيات السورة، وأثر ذلك عليها.

لتنزيل شيء ما على أرض الواقع لا بد من التخطيط له أولاً، وقبل التخطيط يلزم فهم الواقع فهما سليماً، واستجلاءً حيثياته، والظروف المحيطة به، ثم بعد هذا ينبغي تصور الأهداف الكبرى، ووضع الخطوط الغريضة للوصول إليها؛ هذا في سائر المشاريع النافعة، فكيف يكون الأمر مع مشروع الهدايات القرآنية الذي يقوم عليه أمر الدنيا والآخرة!!!

وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث، تناولت في الأول واقع الأمة في ضوء الهدايات الكلية المستخرجة من السورة، وفي الثاني سبل تنزيلها على أرض الواقع، وفي الثالث التوقعات التي يمكن أن تقع رجاء توظيفها وحسن استثمارها.

المبحث الأول: واقع الفرد والمجتمع من هدايات آيات السورة

لا يخفى على ذي نظر في تاريخ المسلمين دور القرآن في الحياة اليومية، والنظم الاجتماعية والاقتصادية، لأنهم فتحوا له عيين، ونظروا فيه بأذنين، وعلّقوا عليه كل آمالهم، ورجوا فيه حلّ كل مشاكلهم، فكان لهم ما أرادوا وزيادةً، فأصبحوا إخوة متحابين بعد أن كانوا أعداءً متناحرين، وصارت لديهم قوةٌ مكنتهم من دوس أرض الجبابة والمتكبرين، وجعلت عروشهم وكنوزهم غنيمة للمسلمين¹، وظلّوا على هذا الحال إلى أن ظن بعض المسلمين أن ما عند الفلاسفة قد يُعوض ما في القرآن، فانكبوا على علومهم ترجمة وتفسيراً، وإضافة واستدراكاً حتى صارت بعضُ قواعدهم حاكمة على الوحيين، فما وافقها فهو الحق المبين، وما خالفها يرد أو يؤول!!! فبدأت الخسارة تلاحق المسلمين شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح حالهم على ما نراه!!!.

وكما يقال: معظم النار من مستصغر الشرر، فقد بدأ الاهتمام في أول الأمر بكتب الطب والعلوم أكثر من كتب الفلسفة وغيرها، ويُعد خالد بن يزيد أولّ من قام بهذا كما يذكر بن النديم²، ثم توسع الأمر إلى أن طُرحت إشكالاتٌ فلسفية على عامة الأمة وخاصتها، فانبرى لحلها جماعة من الفضلاء بدافع الغيرة، وحبّ الأمة، لكن سبحان الله شاء الله أن يعلّق بهم شيء من علم اليونان، فكان الشرارة الأولى لجعل القوانين حاكمة على كتاب الله في الفهم والتفسير، بعد أن كان هو الحاكم عليها³، فصار الاحتكام إلى القواعد مقدماً على الاحتكام إلى أساليب القرآن، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى رد قراءات متواترة، أو توجيه آيات وحملها على مالا تحتمله لتسلم القاعدة، ويُطرد حكمها، فنتج عن كل هذا فرق يرد بعضها على بعض، فأهدرت الطاقات، وضاعت الجهود في ما لا نفع فيه، بل فيما فيه الضرر الذي لا ينكر.

¹ ينظر على سبيل المثال الغنائم التي حصل عليها المسلمون من كسرى في عهد عمر رضي الله.

² ينظر الفهرست، ص: 300.

³ للشيخ الطاهر ابن عاشور نظرات في الباب، إذ يبين في كثير من الأحيان أن القرآن خالف هذه القاعدة أو تلك، ويرد على بعض المفسرين سعوا في التوفيق بين القواعد اللغوية والمنطقية وأسلوب القرآن؛ وهذا جهد مشكور يحتاج إلى دراسة مستقلة.

وهذا لا يعني أن هذا السلوك مع القرآن كان عاما، إنما يشير إلى الانحراف الذي حصل، وإلا فقد بقيت أمة على العهد، تُنّافح من أجل أن يكون القرآن حاكما على القواعد، ورادًا لكل ما خالف قطعيّاته من نتائج العقول¹، وما قرره الفلاسفة ومن تابعهم من علماء المسلمين.

لكن اللافت للنظر هو واقعنا مع القرآن عموما، ومع هداياته خصوصا، إذ صار القرآن مزخرفا بزخارف تُبهر العيون، وموضوعا في الرفوف لا يُفتح إلا في رمضان، أو مناسبات الموت والولائم والأعراس، أو للتغني به، واختار أجمل أصوات قرائه،² كما أن أحكامه جعلت عُضين، بعضها يُعلن ويُرفع من شأنه، كالسلام والتعائش، وبعضها يُسكت عنه، وينهى عن الحديث عنه كالحُدود والقصاص، وحالات التعامل مع اليهود والنصارى والمُشركين!!!

صحيح أن هناك جهودا مشكورة من علماء ربانيين، ومؤسساتٍ تحمل همّ هذا الدين، لكن ما قلّته هو الطابع الغالب، فبلدي -الذي هو المغرب- على سبيل المثال لا يُقام فيه حد من حدود الله، ولا يُقتص فيه لأحد من خلق الله كما جاء في شرع الله، ولا تُحكم فيه القواعد الفقهية في باب الأموال إلا نذرا يسيرا في بعض الجزئيات، أما التعامل بالربا، والانفتاح على الغرب في لباسه ومعيشتة فلا يخفى على أحد!!!.

وليس المغرب وحده من يسير على هذا النمط بل غالب دول المسلمين شرقا وغربا، ولا ينكر هذا إلا جاهل أو مكابر، فيألي الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!!

وسأقف وقفات مع الهدايات الكلية التي سبق استخراجها، لنرى واقع أمتنا معها، ولنقدّم أفكارا لتنزيلها على أرض الواقع، ويبقى تأثيرها رهين بصواب الأفكار المطروحة، واجتماع شروط التأثير مع انتفاء موانعه.

¹ مآقره العقل إن أتى من بابه فلا يمكن أن يخالف الوحي كما قال الغزالي: "وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول" (ينظر الاقتصاد في الاعتقاد، ص: 2).

² لا أقصد أن التجويد مذموم، أو أن التباري لاختيار أجمل الأصوات مرفوض، لأن التجويد فرض لا زم، وحسن الصوت مما دعت إليه الشريعة في نصوصها المعلومة كالمعلقة بأبي موسى الأشعري وغيره، إنما أقصد أن الاهتمام بالقرآن صار من جهة واحدة هي الألفاظ، حتى رأينا قراء لا يفقهون منه شيئا، أو يقومون بأفعال تنافي قيمه وآدابه، يتفاخرون بأصواتهم، ويرسلون المقاطع المصورة إلى غيرهم، ليمدحهم، ويثنوا على صنيعهم... وليقس مالم يقل، كما قال ابن مالك.

أولاً: واقع الأمة مع هداية : "العلم المطلوب شرعاً، والمرغوب طبعاً هو الذي يهدي الضلال، ويُرشد الحيارى، ويُقيم الحضارات، ويُنبي العقول، ثم يبقى أثره في الدنيا، ويكونُ جزاؤه في الآخرة".

لا شك أن واقع المسلمين يختلف من بيئة إلى أخرى، ومن شعب إلى آخر، لكن الحقيقة التي لا ينكرها أحد هي أن معظم دول المسلمين، وكذا شعوبهم اهتموا بالعلم الوظيفي الخبزي أكثر من اهتمامهم بالعلم الذي يشكل العقول، ويغرس القيم، ويُنبي الحضارات، إذ نجد معظم الدول تقول: يجب أن يتوافق التعليم مع سوق الشغل، فلا تُنفق الأموال على علم لا يرجع على اقتصادها بالازدهار¹، وسأمثل بمثالين حتى تتضح الصورة:

المثال الأول من الشرق، ونأخذه من دولة الإمارات التي قال عن سياستها الدكتور أحمد بالهول الفلاسي وزير الدولة لشؤون التعليم العالي: "إن عمليات الدمج بين الوزارتين للتعليم العام والعالي أفرزت دمج إدارتي الإرشاد الأكاديمي، وتتولى توجيه الطلبة في جميع المراحل الدراسية نحو التخصصات المستقبلية التي يحتاجها سوق العمل"²، فالنص واضح لا يحتمل التأويل، إذ يدل صراحة على توجيه الطلبة لما يحقق الازدهار في الاقتصاد، مع الإغفال التام عن توجيههم لما يحقق الطمأنينة للقلوب، ونشر الهدى بين الناس!!!

والمثال الثاني نأخذه من المغرب الذي كان سابقاً أرض العلماء والمصلحين أمثال القاضي عياض والسهيلي، وابن عبد البر... فصار الآن يجتهد ليخرج لنا أناساً لا يعرفون من العلم إلا مقدار ما يحقق الخبز!!! قال السيد أمزازي وزير التربية والتعليم العالي في المغرب: "إن البكالوريوس يعد الشهادة الجامعية الأكثر انتشاراً والأكثر اعتماداً بالعالم، وهي استجابة لتوقعات المجتمع وسوق العمل ووسيلة لتعزيز مهارات الطلاب"³.

¹ فعلى سبيل المثال يعتبر وزير التعليم العالي في المغرب لحسن الداودي الشعب الأدبية مما يساعد على البطالة، ويخرج لنا من يصبح عالة على المجتمع، ينظر جريدة العرب: <https://alarab.co.uk/>

² جريدة البيان بتاريخ 27 فبراير 2017 <https://www.albayan.ae/across-the-uae/news-2017-and-reports/2017-02-27-1.2870885>

³ جريدة الصحراء، <http://www.assahraa.ma/web/2020/147120>

هكذا إذن صار سوق الشغل عند أمة القرآن هو الموجة لسياستها، والحاكم على قراراتها، ولم يعد إصلاح نفسها همّها الأكبر، ولا قيادتها للأمم تفكيرها الأعظم كما كان تفكير من سبقها من الأسلاف رضوان الله عليهم.

هذا على مستوى السياسات العامة، أما الأفراد فقل أن يشذ عنهم أحد، ويُسخر طاقته وجهده للتعلّم قصد التعليم، والفهم قصد التفهيم، ومعرفة الحقائق الشرعية والكونية قصد بناء الحضارة الإسلامية، فلأسف يأتي في نهاية كل سنة عشرات من الطلبة يسألون عن هذه الشعبة أو تلك، هل فيها مستقبل؟ هل هي مطلوبة في سوق الشغل، ونادرا ما يأتي فرد أو فردان فيسأل: مارأيك في الشعبة الفلانية؟ هل تنفع معها مهاراتي؟ هل يسايرها مستواي العلمي؟ وهل أستطيع أن أقدم فيها إضافات إلى أمّتي؟

لذلك صار عندنا قراء أميون في نفس الوقت، فما إن يأخذ أحدنا الشهادة حتى يطير بها فرحا، ويسلك الصعب والذلول ليجد بها عملا، فإذا وجده توقفت حركته، وخمدت نار معرفته، وتلاشت معلوماته، حتى يصير أشبه بالأمي منه بالقارئ، فمن دخل الإدارة تصبح معلوماته منحصرة في إدخال رقم بطاقة الهوية، وتقديم ورقة الازدياد أو الوفاة ونحوها، ومن دخل مجال التعليم يحفظ الدروس حتى يصبح أشبه بالتلميذ المجتهد منه بالأستاذ!!؛ هذا واقع مؤسف، لكنه حقيقي، يدمي قلوب الغيورين على أمة (اقرا)، أمة يُخاطب نبيها ب ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، أمة يقطع بعض أفرادها مئات الأميال للتأكد من معلومة (حديث نبوي) هي أصلا عنده¹، فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

¹ ذكر الخطيب البغدادي نماذج ممن رحلوا إلى مصر والشام لطلب حديث واحد قد يكونوا قد سمعوه من رسول الله لكن يريدون التأكد، من ذلك ما روى بسنده في الرحلة في طلب الحديث ص: 118 (خرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر، وهو بمصر يسأله عن حديث، سمعه من، رسول الله ﷺ، فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مخلد الأنصاري، وهو أمير مصر فأخبر به فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغير عقبة فابعث من يدلني على منزله...)

ثانياً: واقم الأمة مع هداية: "الاستمساك بكتاب الله ..."

لا يستطيع المنصف أن يصدر حكماً عاماً على علاقة المسلمين بكتاب الله، لكن يستطيع أن يقول: إن واقع المسلمين مع كتاب الله لا يُرضي!!، وحالهم معه يختلف من فرد إلى فرد، ومن بيئة إلى أخرى، كما يمكن له أن يقول: إن حالهم معه الآن أفضل من حالهم معه في أواسط القرن العشرين، حيث ظهرت المدارس الفكرية أمثال الاشتراكية، والعلمانية ونحوهما، وتأثر بها جمع غفير ممن درسوا في مدارس المستعمرين الذين كان همهم الأكبر إبقاء ثقافتهم بعد رحيلهم، وقد نجحوا إلى حد بعيد، لكن والله الحمد شرارة القرآن لا تنطفئ، فما أن تجد من يهيجها حتى تهيج؛ لأن الله ضمن الحفظ لكتابه كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، ومن جملة حفظه وجود دعاة صالحين مصلحين صرفوا كل جهودهم لخدمته، وردّ الناس إلى هديه، وقد نجحوا إلى حد لا بأس به والله الحمد، ونسأل الله المزيد.

هذا واقع الغيورين، لكن هناك واقع آخر، هو واقع غير المباليين، أو الراغبين في الصور دون الحقائق، فغيرُ المباليين لا يلتفتون إلى جهود الصالحين، ولا يهتمهم ما يقع للمسلمين، يكفيهم ملء بطونهم، وقضاء شهوات فروجهم؛ فهؤلاء لا هم في العير ولا في النفير، والراغبون في الصور همهم جمع القرآن في الصدور، وقراءته بأجمل الأصوات، وقد يتجاوز الهم هذا إلى طلب العيش من ورائه، والوصول إلى الترف على أحرفه؛ فهؤلاء وإن كان ما يفعلونه لا نرضاه، إلا أن في فعلهم خيراً، إذ قد يقتدي بهم من يريد الإصلاح، ويسير على طريقهم من يحب القرآن لكونه كلام الله، وحامل شرعه إلى عباده.

ويلحق هؤلاء من يُحب أن تكون سور القرآن في بيته، معلقة على جدرانها، أو زينة في سيارته، أو يفتتح بها مجالسه العامة منها والخاصة.

وبالجملة فالحمد لله بدأت الأمة ترجع إلى هدي القرآن في مشرق الأرض ومغربها، فما تحتاج إلا إلى مزيد من الجهود، وصرف كثير من الطاقات، وترك الأمور الهامشية، فنحن في معركة عرفنا سبل النصر فيها، وبدأنا في جمع عُذَّتْها، فما علينا إلا المواصلة، وإني أرجو أن يكون هذا المشروع فاتحة خير على الأمة كلها، ويشهد الله أني ما دخلته إلا لخدمة كتاب الله، فقد كنت أهيئ أطروحة في أصول

الفقه لتعلقي الشديد بهذا العلم، وليقيني أن هذا العلم يخدم في النهاية كتاب الله¹، لكن لما رأيت المشروع سعدت به أيما سعادة، بل وسجدت لله شكرا أن وفقني لخدمة كتابه، ولما دخلت بذلت ما في وسعي ويشهد الله على ذلك، قد تعتريني فترات ضعف، فيظهر العمل في صورة غير لائقة، لكن همتي لم تضعف، وعزيمتي لم تتوان، وإنما زادت، وصوّرت في ذهني طريقا للعمل في الهدايات، سأقترحه على اللجنة في حينه إن شاء الله.

وفي الجملة فعلاقة المسلمين بكتاب الله بدأت تتحسن، وهي تسير نحو الأفضل، تحتاج فقط إلى مخلصين صادقي النية، وعلماء ربانيين يرشدون إلى الهدف.

ثالثا: واقع الأمة مع هداية: "قدرة الله ليس لها حدود، فما تعلق به من جانب الوجود وُجد ولو وقف أمامه الإنس والجن، ...".

بكل صراحة تعاني الأمة من هذا الجانب عناء شديدا، أفرادا ودولا، مؤسسات وحكومات، فعلى سبيل المثال يبلغ عدد سكان المسلمين اليوم في العالم قرابة المليار وثمان مائة مليون نسمة، ومع ذلك يخشون من إسرائيل التي تمنعهم من الصلاة في ثالث الحرمين، كما أن معظم الدول الإسلامية تقيم تحالفات مع قوى غربية، بعضها مع أمريكا، وبعضها مع روسيا، وبعضها مع فرنسا وهكذا، فيقتل أطفالها، وتُغصب نساؤها، وتؤخذ أرضها، فلا تجد إلا الذهاب إلى مجلس الأمن الذي تحكمه القوة ولا شيء غير القوة، يحكمه الفيتو الذي حول لدول عظمى الخروج عن قواعدها التي منها ما يسمى بالديمقراطية.

فأمة الاسلام كانت تُسيّر الجيوش من المغرب إلى الأندلس قاطعة البحار، وسالكة القفار واثقة في نصر القوي الجبار، لا تبالي بقلّة أعدادها، ولا بقوة أعدائها²، صارت الآن تخشى هذه القوة أو تلك، فلو كانت لها الثقة المطلقة في قدرة الله لما تحالفت مع من يُهين مقدساتها، ويدوس بأقدامه على حرماها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

¹ من أراد المثال على نفع هذا العلم للقرآن فليُنظر إلى أضواء البيان للشنقيطي، ودفع إيهام الاضطراب له أيضا، وكذلك إلى تفسير العثيمين رحمه الله، وإلى غير هذا مما أُلّف قديما وحديثا في القرآن من الأصوليين.

² ستأتي الأمثلة عند الحديث عن سبل تنزيل الهدايات، في المبحث التالي.

هذا بالنسبة للدول، أما الأفراد فحدث ولا حرج، فنجد الواحد منا لا يثق إلا بما بين يديه من أموال، أو جاه، ينظر إلى السنة بمقياس راتبه، وما يجنيه من منصبه، فلا يتزوج حتى يعتقد أنه ضمن رزقا له ولزوجته، ولا يضيف ولدا إلا إذا أضيف دخل جديد إلى راتبه، فغابت عنهم قدرة الله في إطعام الطير دون حرث ولا زرع، وإطعام النمل دون سقي ولا حصاد، فالمسلمون (في الجملة) أصبح عندهم الإسلام بلا روح، يقرؤون القرآن في الصلاة وينتظرون متى ينتهي الإمام ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رابعا: واقع الأمة مع هداية "التعاون على العلم، والسعي لتوريثه..."

واقع الأمة مع هذه الهداية مؤلم، ومدم للقلوب قبل العيون، فهذا العالم له رؤاه الخاصة، وذاك العالم له أيضا رؤاه الخاصة؛ هذا يُدَّعِ ذاك، وذاك يفسق هذا!!! أتباع هذا يدعون الفرقة الناجية، وأتباع ذاك يدخلونهم في الفرق الهالكة!!!.

لم يجلسوا للمناقشة، ولم يسمعوا للمسوغات، ولم يلتفتوا إلى وجهات النظر، فكل فرقة تنظر إلى نفسها وأدلتها، فتري نفسها الأكمل عقلا وعلماء، وأدلتها الأقطع سنداً ومعنى، فخالفوا بذلك نهج القرآن، وعمل الأصحاب، فنهج القرآن هو ترك هوى النفوس، والتجرد للدليل، وتقبُّله سواء أكان للنفس أم عليها ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾؛ لأن الرد لا يكون إلا إذا تجرد الراد عن هوى نفسه، وأرجع الناظر التخطئة والتصويب إلى ربه، وإلى المبعوث بشرعه ﷺ، فلا يُتصور منهما حيف، ولا ميل لطرف على طرف¹؛ وهذا هو عمل الأصحاب والتابعين، ومن تبعهم بإحسان، فقد أورد ابن عبد البر عن يحيى بن سعيد قال: (ما برح المستفتون يستفتون فيحلُّ هذا ويحرم هذا، فلا يرى المحرم أن المحلل هلك لتحليله، ولا يرى المحلل أن المحرم هلك لتحريمه)².

ومع هذا الاختلاف الذي لم يقتصر على المباحات والمندوبات، بل تعداه إلى المحرمات لم يتركوا الهدف المشترك ليوصلوا سهامهم إلى بعضهم، ولم يخرجوا عن الأدب باتهام بعضهم، إنما كانوا يقبلون

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 5/92-102.

² جامع بيان العلم وفضله: 2/902.

الآراء، وينظرون في الاستدلالات، حتى إن اقتضى الحال الإنكار على بعضهم أنكروا عليه بأدب كما هو الشأن بالنسبة لعائشة رضي الله عنها مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، إذ بلغها قوله: أن النبي ﷺ "وقف على قلب بدر فقال: (هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً) ثم قال: (إنهم الآن يسمعون ما أقول)، فذكر لعائشة، فقالت: إنما قال النبي ﷺ: (إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق) ثم قرأت ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ﴾ [النمل: 80] حتى قرأت الآية¹.

وهذا بخلاف واقعنا للأسف الذي نجد فيه التطاحن على جلسة الاستراحة، أو تحية المسجد يوم الجمعة أثناء الخطبة، فهذا يتهم ذاك بترك السنة، وذاك يتهم هذا بالخروج عن مألوف الأمة، وهكذا، فيألي الله المشتكى.

وحتى لا نحيف ينبغي أن نقول: إن هذا العمل ليس عاما عند جميع العلماء، وإنما أفراد قلة هم الذين يتعصبون لمذاهبهم، أو لشييوخهم، أما جماهير العلماء يعتبرون مثل الأحكام السابقة من الفروع الذي يسوغ فيها الاجتهاد، ويكون فيها للعالم أجر أو أجران.

فالمشكلة العويصة التي أرقّت الغيورين على هذا الدين تمثلت في الأتباع الجهال، الذين لا يعرفون مكانة العلماء، ولا يحترمون الحرمات، فيتجرؤون على سب العالم الفلاني، وطعن العالم الفلاني، دون حشمة ولا حياء، ولا اعترافٍ بالجميل -وهو كثير- في خدمة دين الله، فيقوم أتباع العالم المسبوب، أو المطعون في نفسه فيردون الصاع صاعين، ويلصقون به من الألقاب ما يستحي المسلم العاقل عن إلصاقها بمن يخالفه في الدين والمنهج، ويقوم الآخرون فيتهمون نياتهم، ويشككون حتى في إسلامهم، بل قد يصل الأمر إلى التدليس، ونقل الأخبار الزائفة إلى شييوخهم ليحققوا على العالم الفلاني وأتباعه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!!.

وبهذا هدرت كثير من الجهود، وضاعت كثير من الأوقات، فصار العلماء في جل بلدان العالم الإسلامي -وهذا مؤلم- في الذيل داخل مجتمعاتهم، إذ لم يعودوا محتاجين إلى تقعيداتهم المستمدة من أصول الشريعة، ولا إلى آرائهم في السياسة الشرعية، غاية الأمر أن يُطلب منهم النظر في قضايا

¹ صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل: 4/1462، رقم: 3760

الأموات، ومسائل الوضوء، والحيض والنفاس¹!!! أما القوانين المنظمة لحركة المرور، أو العمل داخل القطاعات، أو الأحكام المختصة بمجالات البيوع، وقطاع الأبنك فيأتون إليها بالخبراء في المجال، لا يهمهم إن كان لديهم وازع ديني، أو لا ، ولا يعنيه أن يكون لديهم مسكة علم من الشريعة أو لا؟ الذي يهمهم هو الربح ثم الربح!!!

قد تكون حال بعض الدول مختلفة نسبيا عن هذا، لكن الإطار العام للعلماء في جميع دول العالم الإسلامي لا يخرج عما قلت، فلا تستشير وزارات الخارجية مثلا علماء الأمة في الاتفاقيات بين الدول الكافرة، ولا تطلب رأيهم في الأفعال الناجمة عن هذه الاتفاقيات، هل هي موافقة للشريعة أم لا؟ ولا تطلب وزارات الإعلام رأي الفقهاء في هذا الفلم أو ذاك، هل مضامينه توافق المنهج الإسلامي أم لا؟ وليقس على مايل يقل!!!.

وهذا ما يجعل العالم الرباني يشعر بالاحتقار داخل بلده، ومن أهل وطنه، ومع ذلك لا يستطيع أن يفعل شيئا؛ لأنه يرى نفسه وحيدا؛ فالعالم الفلاني، والشيخ الفلاني، والدكتور الفلاني الذين يمكن أن يآزروه حتى يُغير الواقع علاقته معهم ليست على ما يرام، وهم أيضا يتألمون كما يتألم، إلا أن كل واحد يشعر بأنه وحيد!!! فالقاعدة الفرعونية اليهودية (فرق تسد) لم تستثن العلماء عن الساسة، فكما نفعت مع الساسة يظنون أنها تنفع من العلماء، وقد صدق ظنهم للأسف إلى حد بعيد!!!.

خامسا: واقع الأمة مه هداية "من الواجبات - على الكفاية أو الأعيان - على الأمة أفرادا وجماعات محاربة الشراك بكل الوسائل".

من نظر إلى واقع الأمة الآن وواقعها في بدايات القرن العشرين مثلا يظهر له الفرق جليا، فقد هجرت كثير من معابد الشرك، وأصبحت أخرى بلا رعاة، وثالثة بلا روح، يسترزق بها من يحميها ومن يدعو إليها، ويعلم يقينا أن الناس يعلمون قطعاً أنها أحجار أو أجسام لموتى لا تنفع ولا تضر؛ وهذا من بركة القرآن، ومن جهود المصلحين من أمة محمد ﷺ.

¹ لا يعني هذا تهميش مثل هذه الأحكام كما يفعل بعض الزنادقة، وإنما يعني ترك العلماء في زاوية ضيقة منعزلة عن الواقع، حتى يخيّل إلى الناس أن الدين ليس فيه إلا الحيض والنفاس!!!

صحيح لا تزال مظاهر الشرك في البلدان الإسلامية، تُرعى من طرف الدول، أو ممن يريدون تخدير عقول الأمة لكن على العموم تأثيرها يضعف يوما بعد يوم.

لكن هناك تقصير من جهة أخرى، في شرك آخر، هو شرك النفس مع الله، أو شرك العبادة في توزيع أرزاق الله، فقد أصبح كثير من هذه الأمة يعلق رزقه ورزق عياله على فلان الفلاني أو المؤسسة الفلانية، حتى إن طلبوا منه ما لا يرضاه ديناً وعقلاً فعله خوفاً من ضياع الرزق!!!

هذا التصرف قد لا يخطر ببال كثير من الناس، ولا يعدونه من أنواع الشرك، وهو من الشرك الصريح الذي حاربه القرآن بالتصريح والإشارات.

سادساً: واقع الأمة مع هداية "التشاور بين الناس عموماً، ..."

نأسف كثيراً لواقع الأمة في هذا الجانب، إذ عوّضت الشورى بالديمقراطية، والعلماء بالفساق والفجار، فبعد أن كان لها مجلس شورى يضم أعقل العلماء، وأعلم الخبراء، وأزكى الأتقياء صار لديها برلمان يتجه إليه في الغالب أكبر الماكرين، وأعتى المجرمين!!!

فصار المسلم في بلده يُطبّق عليه قانون الغرب بدعوى الأغلبية، وصارت المسلمة في بلدها مرغمة على قوانين ما أنزل الله بها من سلطان بدعوى الديمقراطية، فصرنا في الحقيقة غرباء في أوطاننا.

وهذا نتيجة لغياب الشورى في التدبير، أو لوجود مجلس شورى يضم من لا يستحق أن يُسأل في الأمور التافهة، فضلاً أن يستشار في أمور العامة، إذ نجد فيه فلان بن فلان اليهودي، وفلان بن فلان الممثل المنحل... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا في الأمور العامة، أما الأمور الخاصة فحدث ولا حرج؛ فلما أن يركب أحدنا مطية أفكاره، معتقداً أنها الحق المطلق وما عداها الضلال المبين، أو يستشير من يسير معه في هواه، لا يهمه أن يكون متصفاً بصفات المشير أم لا؛ وقلّ أن يخرج بعض الأفراد عن هذا الإطار، فيستشيرون مع أهل العلم، ومن لديهم خبرات في المجال، لأن الآلة الإعلامية كبرت الصغير، وصغرت الكبير، عظمت الحقير، وحقرت العظيم، فاختلف التوازن، واختلت معه الموزونات!!!

سابعاً: واقع الأمة مع هداية " يجب على الداعية إلى الله العلم بأن الدعوة واجبة: إما وجوب الكفايات، أو وجوب الأعيان"

يمكن أن نقول إن واقع الأمة في هذا يختلف من فرد إلى آخر، فبعض أهل العلم أدركوا هذا الواجب - كفاثيا أو عينيا في حقهم-، وقاموا بما يلزمهم، وبعضهم تبع الدنيا، فجرته إلى برائين الشهوات، فما استيقظ حتى وجد نفسه بين العدو من أمامه والعدو من ورائه، عدو السلطة الذي إن خرج عنه يفعل به ما يشاء، وعدو الفقر والحرمان الذي يُرجعه إلى حالته الأولى، أعنى حالة التهميش وشدة الحاجة، فيبيع دينه بعرض من الدنيا قليل!!!.

ثامناً: واقع الأمة مع هداية: "الحرص تمام الحرص على إقناع الناس، وذلك باستعمال كل الوسائل، وسلك جميع السبل، واستثمار كل المهارات، والاستعانة بكل الأطراف"

الحمد لله نرى جهودا مخلصه في هذا المجال، تضحي بوقتها ومالها من أجل أن يصل هدى الله للعالمين، إلا أنها غير كافية في زمن كثر فيه دعاة النار، فتجد شيخا أو مؤسسة تدعو إلى الله، وتجد مئات الأفراد، وعشرات المؤسسات في مقابله تدعو إلى النار، فنوره يشبه شمعة في الظلام الحالك!!!

ورغم ضعف هذا النور، وقوة الظلام إلا إن الأعداء يربعون منه، ويسعون بما يملكون لإطفائه، ؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أن بقايا نور القرآن ينشأ عنها جيل متشبع بالقرآن، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:8].

لكن في المقابل نجد كثيرا ممن يتصدون للدعوة لا يهمهم أن يقتنع فلان أو لا يقتنع، أن يظهر له الحق أو لا يظهر، همهم فقط الراتب الشهري، فلو أمكنهم الحصول عليه دون الذهاب إلى العمل أصلا لفعلوا؛ لذلك نرى طلابا يشكون من أساتذة لا يفهمونهم الدروس، ومصلين يشكون من خطباء لا يبلغونهم الرسالة في الخطبة؛ فالمدرسون ينظرون إلى دروس مبنوثة هنا وهناك يقدمونها إلى الطلبة دون مراعاة ظروفهم، ومستوى تعلمهم، والخطباء يبحثون في المواقع، وكتب الخطب المنبرية ليقرؤون ما يجدون على الناس، لا يهمهم أن تصح عقيدتهم أو لا، ولا يعينهم أن يتغير سلوكهم أم لا!!! هذا واقع لا أعتقد أنه لا يختلف فيه اثنان، لأنه صار حديث الناس، وفاكهة المجالس.

وهذا بخلاف رسول الله ﷺ الذي كان يغتم كثيرا لعدم اهتداء قومه بهديه مع أنه يعلم علم اليقين أن أدلته لا لبس فيها، وأن حججه قاطعة، وقد وصل به الأمر إلى ترك الجواب عن أسئلة أصحابه لما ظهر له اقتراب المشركين من قبول دعوته كما حكى الله عنه في سورة عبس ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ ٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۚ ٣ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۚ ٤ أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى ۚ ٥ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ ٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ۚ ٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ ٨ وَهُوَ يَخْشَى ۚ ٩ فَانْتَ عَنْهُ نَلْهَى ۚ ١٠ ۝

تاسعا: واقع الأمة مع هداية "الابتكار في طرق الكشف عن المشركين"

للإنصاف هناك جهود مخصصة لكنها لا تكفي، إذ استعمل جمع من العلماء، وعدد كبير من المؤسسات الوسائل التقنية لمعرفة واقع الناس، ومن ثم خطابهم بما يليق بهم من الحجج، وتوظيف ما يليق بهم من الهدايات، لكنها في الغالب أساليب نمطية، فوسائل الاتصال صارت في زماننا من العادات، يوظفها الصغير والكبير، الأمي والعالم...

لذا أرى التقصير كثيرا في التواجد داخل المؤسسات الصناعية والتجارية، وبين فضاءات الأسواق والضيعات الفلاحية، فقل أن تجد داعية بين هؤلاء، يعرف عقائدهم، وما تميل إليه نفوسهم ليقدم الهداية في الوقت المناسب، والحال المناسب. وقد عشت تجربة لا بأس بها في هذا المجال، إذ كنت أعمل داخل الحقول، وبين العمال بجوار آلات المصانع، فأسمع وأرى، أسمع الكلام الفاحش، وأرى المنكرات جهارا نهارا، وقل أن أجد من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، مع أن قلوب هؤلاء العمال فيها خير كثير، وخوف من الله كبير، لكن جهلهم بحقيقة ما يفعلون، وعقاب الله على أفعالهم، والآثار السيئة في الدنيا والآخرة على جرائمهم جعلتهم يقومون بما نعلم ويعلم الجميع. فالخلل إذن فينا معشر الدعاة، إذ اقتصرنا على المساجد، أو فضاءات الجامعات، بينما المطلوب منا بذل الجهد لمعرفة أماكن المشركين، وطرق إيصال الهداية لهم، كما كان يفعل السلف الصالح.

هذا مثال وليقس عليه باقي الأمثلة، فالفنادق والمقاهي ودور الضيافة... تعاني أيضا من نفس الإشكال، غياب الدعاة إلى الله إلا نادرا.

عاشرا: واقع الأمة مع هداية: (تنويع الاستدلال...)

في الحقيقة نجد قصورا واضحا في هذا المجال، فالخطب المنبرية، والدروس الوعظية، والملتقيات العلمية، يغلب عليها جانب الوعظ، ويقل فيها جانب الاستدلال، وبناء الأمور على الحجاج كما هي طريقة القرآن. فعلى سبيل المثال نجد خطباء المساجد يتحدثون عن الصبر مستدلين بقصة أيوب، وحال يونس في بطن الحوت...وقلَّ أن تجد خطيبا يتحدث عن الصبر انطلاقا من الواقع، فيمثل بفلان العالم الذي عانى الفقر، وأذيق سوء العذاب، وفي الأخير رفع الله قدره، وأعلى شأنه، أو فلانة الفلانية، الذي أكرهت على ترك حجابها، وهُددت بالطرد من مدرستها، فاختارت رضى الله، وصبرت على الحاجة، وقلة ذات اليد فأكرمها الله بأبناء صالحين، وبنات صالحات، فيهم العالم والعالمه، والداعي والداعية، والصالح والصالحة...

أو يتحدثون عن قدرة الله في بيئة يغلب على رواد المسجد فيها الاهتمام بالعلم البحت، فيذكرون الآيات الشرعية كقول الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:20] أو يمثلون بأحداث تاريخية كالقاء إبراهيم في النار دون أن يحرق، ودخول موسى البحر دون أن يغرق...-وهذا استدلال جيد- ولا يشيرون إلى قدرة الله في جعل القلب يشتغل في الليل والنهار دون أن يتعب، أو يتوقف، وإلى قدرته في إخراج الثمار المتنوعة من تراب واحد، وماء واحد ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَوَّزَةٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبَّهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:4] وما أشبه هذا من الآيات الكونية الشاهدة على قدرة الله وتفرد بالملك والتدبير، اللازم عنها توحيدها في التوجه والعبادة.

وهذا لا يعني التقليل من شأن الأمثلة السابقة، أو الخط من قيمة تأثيرها، لكن لكل مقام مقال، فالمسجد الذي فيه من يستخدم العقل ويقتنع بالاستدلال، أو يتأثر بالتجربة وواقع الحال، أو يغلب على أهله الاهتمام بعلم الفلك، أو قضايا العلوم بصفة عامة لا تجدي معه الاستدلالات النمطية، وإنما التي تناسب عقله، وما تميل إليه نفسه.

ففي الجملة تحتاج الأمة إلى دعاة يعرفون من يخاطبون، وبأي أسلوب يتكلمون حتى تكون ثمارهم يانعة، وأهدافهم محققة.

حادي عشر: واقم الأمة مع هداية: "الاعتناء بوسائل العلم والتعلم، والابتكار في طرق إيصال المعرفة لتقوم الحجة على الخلق، كما ينبغي التفريق بين المصادر التي تخطئ وتصيب، والمصادر التي لا تخطئ".

في الحقيقة هناك جهود مشكورة إلا أنها غير كافية، فالتعليم وإن انتقل من الحلقة في المسجد إلى المجموعات الافتراضية عبر وسائل التواصل، إلا أن هناك قصورا في طرق العرض، فتجد غالب الدعاة يتحدث وكأنه في المسجد، يخاطب فئة معينة، تركت كل شيء وأقبلت على العلم الشرعي!!! والواقع خلاف ذلك، فالعالم الافتراضي يشبه المال الذي يرغب فيه صاحبه ويرغب فيه السارق أيضا، فإن بقي على طرق الحفظ المعتادة علم مكانه السارق فأخذه بيسر وقلة مشقة، وإن استعمل صاحبه تمويهها، أو غير له حرزا بقي ماله موفورا.

هذا المثال يشبه إلى حد بعيد واقع العلماء مع الناس، فالأصل أن الناس يميلون إليهم، يلتذون بسماع كلامهم، يحزنون لغيابهم، أو فراقهم، لكن هذا الأصل عارضه مانع قوي: هو وجود دعاة إلى جهنم يستعملون أحسن الصور، وأعذب الألفاظ، وأنجح الطرق لصرف قلوب الناس إليهم، فتجد أحدهم -أعني دعاة جهنم- يستعمل تقنيات الصوت، ولمعان الصورة، ومشوقات في العرض والخاتمة...، بينما نجد معظم الدعاة يسرون على طريقة واحدة هي الإلقاء؛ وقريب من الكلام نقوله عن هداية "اعتماد المناظرة في تقرير الحقائق" فالعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص، فالمناظرة أسلوب من أساليب الإقناع، فالأصل أن تدمع مع الهداية السابقة، لكن فصلتها لما لها من أثر على المناظر وأتباعه، فانهزامه يعني انهزام الآلاف أو حتى الملايين من أنصاره.

ثاني عشر: واقم الأمة مع هداية "التركيز في الدعوة على الأمور المهمة وتقديمها على غيرها".

نقول بكل أسف إن واقع الأمة مع هذه الهداية في الجملة مؤسف، ومدم للقلب قبل العين؛ فنجد كثيرا من طلبة العلم أو حتى من العلماء في مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها يناقشون أمورا فُرغ منها، وقتلت بحثا، ولم تكسب منه الأمة ثمرة، وإنما أكلت حنظلا!!! نجدهم يناقشون استوى على العرش، وينزل ربنا كل ليلة، ويضع قدمه في النار فتقول قط قط!!! ويتركون تعليم الناس القرآن، ويبيان أهم الأحكام، حتى أصبح عندنا شباب أجراً على الخوض في ذات الله من أعلم العلماء، وأقبح في الوصف من الحطيئة وباقي الشعراء!!!

والعجب أنك إن سألته هو أيضا عن فرائض الوضوء، وشروط الصلاة يقول هاه هاه لا أدري!!!

نعم هذه حقيقة قد جربتها بنفسي، إذ يسر الله لي الإمامة بالناس قبل أزيد من عشر سنوات، فكنت ألقى عليهم سيرة النبي ﷺ، وأعلمهم بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالوضوء والصلاة، فإذا بي أكتشف أن معظمهم لا يقرأ الفاتحة قراءة صحيحة، وإن قرأها فاللحن الجلي في السور القصار من الأمور المعتادة!!!

نتحدث في الخلاف العالي ونترك الأساس الذي هو معرفة الأحكام أولا، فيكون حالنا كقول أحدهم "فلان في سعيه كالراقم على الماء"!!¹.

هذا لا يعني التقليل من شأن العقيدة، وبيان آثارها، وإنما التركيز على ما تحتاجه الأمة، لصرف الجهد نحوه، أما تلك الأمور فأثرها ضعيف على الأمة إن لم يكن عكسيا، لذلك لم يهتم به النبي ﷺ ولا الصحابة الكرام، وإنما اهتم من جاء بعدهم لأسباب، وقد زالت فينبغي أن يزول.

وفي المقابل نجد جهودا مخلصة في الباب، عرفت القصد، وأدركت السبل، فصارت بتؤدة، وخاطبت بلين، ركزت على جانب مهم فكان لها الأثر البالغ عليه، ومن هؤلاء ما قام به الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله الذي خص المسجد بحلقات متواصلة يبين فيها معنى كتاب الله، ويخاطب فيها الناس بما يحتاجون، وخص جزءا من وقته للكتابة في مسائل غير بعيدة عن كتاب الله فانتفع به خلق كثير من عباد الله، فنسأل أن يرحمه، ويجزي كل عامل لأجل كتاب الله خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

¹ ينظر نهاية الأرب: 41/7.

المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة

مما رسخه القرآن في نفوس الناس جميعهم أن الكون لله، والتدبير لله، فلا تأثير للأسباب في المسببات إلا بإذنه، ولا نجاح للدعاة في الدعوة إلا بتوقيفه، هذا ليتخلى الناس عن قدراتهم، ويتجردوا عن شهواتهم، ويقوموا بما يجب عليهم من الأسباب، ويتركوا المسببات إلى صاحبها؛ وعليه فما نذكره من سبل لتحقيق الهدايات على أرض الواقع إنما هو بيان للأسباب فقط، وتبقى الشروط محتاجة إلى من يوفرها، والموانع باحثة عمن يزيلها، وفوق كل هذا تبقى إرادة الله تعمل عملها.

لذا فأول خطوة يجب القيام هي الاعتماد على الله الاعتماد المطلق، مع الجزم بأن الأسباب لا تنتج وحدها، إنما إنتاجها سنة كونية قد تتعطل إذا شاء ربها؛ ومن هذه الأسباب ما نذكره لتحقيق الهدايات على أرض الواقع.

بعد هذا لا بد أن نتفق على قاعدة لا أظن أن يختلف فيها مسلمان، هي: أن أفضل من نزل هدايات القرآن على أرض الواقع هو الرسول ﷺ وصحابته الأبرار، ثم التابعون لهم بإحسان؛ فأى سبيل اقترحت لتنزيل الهدايات على أرض الواقع وليس لها أصل في عمل النبي أو الصحابة والتابعين فهي باطلة، وما يظهر من صحتها إنما يشبه السراب الذي يظنه الظمآن ماء، فإذا وصل إليه وجد الأرض قاعا صفصفا!!!

لذا فإني سأجتهد بعون الله على ربط كل طريق أذكرها بمثال سبقتها، قد يكون مطابقا، وقد يكون جزئيا، المهم ألا تخرج الاقتراحات عن منهج النبي ﷺ وأصحابه.

أولا: اليقين باننا أمة لن تموت أبدا؛ لأن لدينا روحا تسري في عروق كل واحد منا هذه الروح هي القرآن ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى 52] الذي تكفل الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾، فقد مرت الأمة من أزمت جعلت كثيرا من أفرادها يشكون في حياتها مرة أخرى، ثم اقشعرت السحابة، ونبض القلب، وصارت أقوى مما كانت عليه، والأمثلة من التاريخ كثيرة أكتفي منها بمثالين يردان كل شاك في عودة الأمة إلى رشده، فيقتنع بأن الأمر يحتاج فقط إلى سنوات من الأسباب حتى يتحقق قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴿[النور: 55].

المثال الأول من الأندلس الفردوس المفقود- الذي رفع الله فيه راية الإسلام، وأذل فيه قادة الشرك وأهل العصيان- الذي أصاب فيه المسلمين الضعف والهوان بسبب التناحر على الملك، والتسابق على الدنيا في القرن الخامس -وبخاصة في النصف الأخير منه- حتى وصلوا لدرجة أن يعطوا الجزية للنصارى مقابل حمايتهم، بعد كانوا يأخذونها منهم!!! وظلوا على هذه الحال إلى أن يسر الله في عقلاء من العلماء، وأهل الحكمة اجتمعوا وساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له "ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها¹" فكتب إلى يوسف بن تاشفين في المغرب الأقصى، وطلب منه نصرة المسلمين، وشكى إليه حالهم فما كان منه إلا أن هيا جنودا وصلت مع الجند الذي أرسله اجتمع من الأندلس إلى قرابة ثلاثين ألف جندي، بينما يقدر عدد جيش النصارى بحوالي مئتي ألف مقاتل، لكن جيش المسلمين معه الإيمان والعزيمة، وجيش الكفر معه القوة المزعومة، والغرور المصاحب للإعجاب بالنفس، فما كان من هذا الجيش الغيور إلا أن قضى على جيش النصارى، ورد للأندلس مجدها المفقود².

المثال الثاني: من أرض العراق، أرض الخلافة والعلماء التي سقطت بأيدي التتار سنة ستمائة وستة وخمسين 656، وأصبح حال المسلمين يحزن العدو قبل الصديق، حيث أصيب المسلمون برزية لم يسبق أن أصيبوا بمثلها حتى قال عنها ابن الأثير: "فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمني لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا... هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، إلى الآن، لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها³".

¹ الكامل في التاريخ: 445/8.

² ينظر القصة: في الكامل في التاريخ: 445/8، ونفح الطيب 4/360.

³ الكامل في التاريخ: 333/10.

هذه المصيبة جعلت المسلمين كالقطيع تؤخذ منه الواحدة للذبح، وتنتظر الأخرى دورها، قال ابن الأثير واصفا بعض الأحوال: "ثم إنهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ثمانى عشرة وستمائة ووضعوا فيهم السيف، فلم يبقوا على صغير ولا كبير، ولا امرأة، حتى إنهم كانوا يشقون بطون الحبالى، ويقتلون الأجنة، وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلوها، وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة، فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم إليه يدا¹"

وفي الأخير عاد الإسلام إلى مجده، ورجعت القدس إلى أهلها، وعلت رايته على جميع الرايات إلى أن قام الاستعمار الماكر بتقسيم الشعوب، ورسم الحدود، فجعل المسلمين كالثيران الثلاثة، يُضرب بعضهم ببعض!!!، وإنا لنأمل إن شاء أن يعود المجد لأمتنا قريبا، وسيعود حتما لأن الله يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55].

سبل تنزيل هداية: "العلم المطلوب شرعا..."

من السبل التي أقترحها:

أولا تركيز الدعاة على إقناع الناس بأن العلم محبوب لذاته، لما ينال صاحبه من نور يكشف له الحفريات، ولما يلحقه من عزٍّ في الدنيا والآخرة يرفع له الدرجات، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]، ومن كان هذا شأنه فمن العيب الخط من قيمته ليصبح وسيلة إلى أكل الخبز الذي أعطاه الله للطير في الجو دون أن تحرث ولا أن تزرع؛ فالنبي ﷺ لما تحول إلى المدينة حث على العلم، ورغب في تعليمه، حتى إنه طلب من المشركين الذين وقعوا أسرى عنده في بدر أن

¹ الكامل في التاريخ: 352/10.

يُعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين مقابل فدائه¹، ولم يكن الهدف من هذا التعليم الحصول على المناصب، أو الجلوس على الكراسي، وإنما قراءة القرآن ليفهم، ثم تبنى به حضارة الأمة.

ثانياً: تذكير الناس بعظماء الإسلام الذين حُلِّدت أسماءهم، وبقيت آثارهم بسبب العلم الذي لم يطلبوه للجاه ولا للمال، وإنما ليكون لوجه الله، ونافعاً لخلق الله؛ فرفع الله قدرهم، وأعلى مكانتهم، وبقي علمهم صدقة جارية ينتفع بها من أتى بعدهم.

ثالثاً: تذكير المسؤولين عن مجال التعليم بواجبهم تجاه الله، وتجاه أمتهم، حتى يختاروا أفضل المناهج، ويسلكوا أيسر السبل للتعلُّم والتعليم؛ فمن هؤلاء المسؤولين أتى المسلمين شرٌّ مستطير، ووبال عظيم، إذ حوَّلوا عقول الأمة المبدعة إلى آلات صانعات، وحلَّم أفرادها الذي كان هو السيطرة على الأرض، ونشر هدي الله فيها إلى قضاء الشهوات!!!

رابعاً: انخراط الفضلاء من العلماء في تدبير الشأن العام الذي منه التعليم، فالحياءُ مبنية على التدافع، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251]، فإذا لم ينخرط الصالحون في التدبير سينخرط فيه المفسدون لا محالة، وحينئذ يهلكون الحرث والنسل، وهذا ما حصل بالفعل في زماننا؛ إذ انزوى كثير من العلماء داخل المكتبات وتركوا الفجار يعبثون بعقول الأمة وخيراتهم!!!؛ لذا وجب تذكير أهل العلم أن التدبير من الواجبات الكفائية التي قد تتحول إلى واجبات عينية؛ فمن رأى من نفسه القدرة على التسيير، وعلم أو غلب على ظنه أن هذا الواجب لن يقوم به غيره، أو يقوم به لكن ليس على الوجه المطلوب وجب عليه البدأ، وإلا سيكون مسؤولاً أمام الله؛ فقد ذكر علماء الأصول أن غلبة الظن في توجه الواجب الكفائي، أو سقوطه كافية، قال الشيخ عبد الله بن الحاج في المراقي:

وغالب الظن في الإسقاط كفى** وفي التوجه لدى من عرفا².

¹ ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: 20/2.

² نشر البنود: 196/1.

خامسا سلوك طريق التحبيب للعلم لا طريق التنفير، فمعظم مدارسنا وجامعاتنا تنفر من العلم إما بعرضه في صورة غير صورته الحقيقية، أو سلك السبيل الذي يعطي الشهادات، ولا ينتج الكفاءات، وهذا كالاختبارات التي تكون في آخر السنة أو وسطها، فيصير الطالب يقرأ العلم ليس حبا فيه، وإنما ليحصل به على شهادة، ليتوسل بها إلى الوظيفة!!! وهذا خلل كبير في أمتنا.

سادسا: تقديم العلم الشرعي على العلم البحتي، والرفع من قيمته وقيمة أصحابه حتى يتوجه إليه النبغاء والأذكىاء، وأهل القوة من العقلاء، ويستطيعوا بعد تملكهم له الدفاع عنه في المؤسسات العامة والخاصة، وعبر وسائل الاتصال؛ لأن العلم إذ توجه إليه من هُم أهله سيدافعون عن تفعيله في المجتمع لجني ثمرته، وإظهار فضل أصحابه؛ فعلى سبيل المثال لما أعطي لعلم الطب والهندسة قيمة في المجتمع توجه إليه الأذكىاء، فلما أصبحوا قوةً كونوا جمعيات ودافعوا عن حقوقهم - وإن كانت للأسف دنيوية - وأعلوا من قيمة علمهم؛ فأصبح حلم الطلبة الدخول إلى مدارسهم للتعليم، وإلى معاهده للتعليم؛ وهذا ما يحصل إن شاء الله إن وقع التشجيع على العلم الشرعي وتم الرفع من قدر أصحابه.

سبل تنزيل هداية: "قدرة الله ليس لها حدود،..."

هذه الهداية تتكرر في معظم السور وبخاصة المكية منها، فما نكاد نقرأ سورة إلا ونجد الإشارة إليها من قريب أو بعيد؛ لأنها من الأصول الكبرى التي تُبنى عليها الأمة، وتكون تصورهما العام للكون والحياة، فهي من باب العقيدة التي ظل رسول الله مركزا عليها طول الفترة المكية وفي زمن من الفترة المدنية؛ ومن أهم السبل لتحقيق هذه الهداية في الواقع ما يلي:

أولا: جعل العقيدة أولا، فلا كلام في الفقه، ولا في التفسير ولا غيرهما من أبواب الشريعة قبل أن تستقر العقيدة في النفوس؛ فهي الأصل، وغيرها الفرع، ومن الحماقة طلب الأغصان دون غرس الأصول

لكن الذي ينبغي التنبيه إليه هنا - وهو من الأهمية بمكان - هو أن العقيدة التي يجب التركيز عليها هي العقيدة التربوية، وليست العقيدة الكلامية؛ فمن تتبع سور القرآن مكيها ومدنيها سيقنع لا محالة بقيمة العقيدة التربوية التي يراد منها الأثر على القلوب لا التشديق بالكلام الذي يقسي القلب، ويجعل العبد أكثر جرأة على الله!!! ومن أراد البرهان فلينظر إلى العوام الذين يكثرون من سماع

القرآن، وإلى أهل الجدل الذين يديمون النظر في كتب أهل الكلام، وسيجد العاميُّ يُعظم حرّات الله، ويؤدي الفرائض والوجبات، مع الخوف من عقاب الله، ورجاء ماعنده، ويجد الذي يدرس العقيدة الكلامية - كغالب أهل زماننا - يناقش الجوهر والعرض، والصفة والموصوف، والواجب والممكن... وقد لا يصلي، وإن صلى فقد لا يخشع، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!!

لذلك إن أردنا أن تعود أمتنا إلى سابق مجدها فلا نخاطبها قط بالعقيدة الكلامية، وإن كان ولا بد فليكن خطابنا محصوراً في فئة معينة من طلبة العلم قصد رد الشبهات، ومواجهة الملحدّين.

ثانياً: التذكير بمسيبات جاءت بدون أسبابها كالنصر في غزوة بدر مثلاً، وبأسباب وجدت ولم تنتج عنها مسبباتها كنجاة إبراهيم من الإحراق، وموسى من الغرق، حتى تستقر في النفوس قدرة الله التي ليس لها حدود، فإن استقرت أتى النصر لا محالة ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [١٣٦]

آل عمران: 126 ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17].

ثالثاً: لفت عقول الناس إلى الآيات الكونية التي تشهد لله بالقدرة والعظمة في كل وقت وحين، فسماء بلا عمد، ونجومٌ تدور بلا كلل... كل هذا كفيل ألا يبقى في القلب مكان للشك في قدرة الله؛ لذلك كان التركيز عليها في القرآن الكريم كثيراً ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [القرة: 164].

رابعاً: التركيز على ما يراه الناس بأعينهم ويسمعونه بأذانهم كالتحولات التي تحدث لهم، والتقلبات التي تصاحبهم، فمن يُذكر بين الفينة والأخرى بأصل نشأته الذي هو الماء، وحال خروجه التي هي الضعف، ومرحلة نضجه التي هي القوة، ثم نهايته التي هي التراب سترسخ في نفسه عظمة الله، ويؤمن

تمام اليقين بأن ما سوى الله مدبر، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا؛ فإذا وصل المسلمون إلى هذا المستوى أعاد الله لهم ما فقدوا وزادهم من فضله.

سبل تنزيل هداية الاستمسك بكتاب الله سبب للسعادة في الدنيا، والفوز في الآخرة، والتمسك بغيره سبب للشقاوة في الدنيا، والخسران في الآخرة.

لتنزيل هذه الهداية يلزم اتباع الخطوات الآتية:

أولا التعريف بالله، وبيان فضله وإحسانه، فعلى قدر صاحب الكتاب يكون الإقبال على الكتاب، فلو عُثر على كتاب للإمام مالك مثلا لأقبل عليه جميع العلماء دراسةً واستنباطا لعلمهم بقدر صاحبه، ورسوخ قدمه في العلم، وتجرد نيته عن الهوى، وصدق إخلاصه في نفع الناس، فكيف لو عرف الناس قدرَ الله ﷻ، وعظمة فضله عليهم!!!

ولهذا كان التعريف بالله أول شيء قام به النبي ﷺ فعن جندب بن عبد الله، (قال: كنا مع النبي ﷺ - ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانا¹).

ثانيا: بيان أثر القرآن على الأفراد والجماعات، وذلك بالاستدلال من نصوص القرآن، ومن واقع الصحابة ومن تبعهم بإحسان على ما أحدث من تغيير جذري بينهم، إذ ألف بين قلوبهم بعد سنين من التناحر، وحبَّب بعضهم إلى بعض بعد عقود من التباغض ﴿لَوَأْنَفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63].

سبل تنزيل هداية: "التشاور بين الناس..."

لا يمكن أن أتحدث عن كل سبلها، ولا حتى عن معظمها، لعدم مناسبة المقام، وضيق الوقت، لذلك سأكتفي بثلاثة أمثلة اعتبرها الأساس في جعل الشورى قاعدة أساسية في حياة المسلمين.

¹ سنن ابن ماجه، أبواب السنة، باب في الإيمان: 42/1، وقال الأرئوط: إسناده صحيح .

أولاً نشرة سيرة النبي ﷺ بين العامة والخاصة؛ لأن فيها عشرات النماذج على التشاور في الأمور العامة والخاصة، تُستشار فيها النساء كما يُستشار فيها الرجال، ويُستشار فيها العبيد¹ كما يستشار فيها الأحرار؛ فهي كفيلة بغرس هذا السلوك في التدبير في قلب كل مؤمن فضلاً عن العلماء والمصلحين.

ثانياً: تذكير الأئمة والولاة بالآيات التي تحث على الشورى، وتبين أهميتها في تدبير الشأن العام، وبخاصة قول الله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:5] لكي يدرك المسؤولون أن الشورى لا غنى عنها بحال من الأحوال حتى لو بلغ الوالي أو الراعي الذروة في الذكاء، والقمة في الحكمة، إذ لو أمكن الاستغناء عنها لاستغنى عنها سيد الخلق المسدّد بالوحي عليه الصلاة والسلام.

ثالثاً: بيان الآثار التي خلفتها الشورى على الفرد والمجتمع، سواء التي حدثت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو التي حدثت في زمن الصحابة والتابعين، لأنّ ثمرة الشيء من أهم البواعث على تحصيله؛ لذلك نجد العلماء يذكرون أول ما يذكرون في مقدمات العلم الثمرة المرجوة من دراسته، حتى يتهيأ الطالب للوصول إليها.

سبل تنزيل هداية: "الاهتمام بالتعاون على العلم، والرغبة في توريثه، وتوظيفه فيما ينبغي أن يوظف فيه"

أولاً: تربية النشء على العلم، وغرس القيم النبيلة في نفوسهم كالتعاون على البر والإحسان، ومن أجل صور البر: التعاون على العلم، فيقومون ببناء المراكز، والبحث عن الطلبة النجباء، وتوفير كل وسائل الراحة التي تساعد على التعليم.

ثانياً: الاجتهاد في بناء المراكز المشتركة التي تضم خيرة العلماء، وأفاضل الباحثين، فمن شأن هذا العمل أن يقلص الهوية، ويضعف الخلاف، ويوحد الجهد، ويبين الهدف، فتعاون علماء المسلمين يعطي نتيجة حتمية هو تعاون العوام، واشتغال علماء المسلمين فرادى يعطي نتيجة حتمية أيضاً هي تفرق العوام.

¹ أقصد من سبق أن اتصفوا بهذا الوصف، ولا يلزم أن يكون متصفين به أثناء الشورى كما هو الشأن بالنسبة لسلمان الفارسي في غزوة الأحزاب.

ثالثاً: إظهار الأمور المشتركة، وغض الطرف عن مسائل الاختلاف، فالمتفق عليه أضعاف أضعاف المختلف فيه؛ هذا مع أن القصد واحد، والمصدر واحد، والعدو واحد؛ فإذا أمكن تعاون الغرب، واتحادهم مع أنه لهم عشرت الديانات، ومئات اللغات واللهجات... فتعاون المسلمين أيسر وأسهل، ونفع بعضهم لبعض أهون وأضعف؛ لأن المسلم الذي يعين أخاه يعتقد أنه يعين نفسه، (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) وهذا ما لا يوجد عند غير المسلمين

المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة
لا يخفى على عاقل درس تاريخ العرب قبل مجيء القرآن وبعد مجيئه الأثر الذي أحدثه القرآن في عقائدهم وسلوكاتهم، لذا فالحديث عن أثر هدايات القرآن تحصيل حاصل، تبقى مسألة الجزئيات هي التي نتحدث عنها في هذا المبحث.

وقد جرت سنة الله أنه متى وجدت الأسباب كاملة، وتوفرت الشروط تامة، وانتفت الموانع قاطبة يأتي الأثر مباشرة، ليس لذاته وإنما لكون الله تعالى جعله عقب أسبابه، فإذا استخرجت هدايات القرآن بالطريق الصحيح، ونشرت بين الناس حتى ارتووا من معينها سيصبح حال الأمة في هذا الزمان كحالها في الزمن الماضي، إذ الذي غير أهل الزمان الماضي موجود بيننا بل أوفر مما كان قبل، يحتاج فقط إلى تفعيله، وإلى رجال لحمل رسالته.

ومن الآثار التي تترتب على تطبيق الهدايات التي سبق ذكرها على واقع الأمة إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع ما يأتي

أولاً بناء حضارة إنسانية متوازنة، تراعي متطلبات الروح كما تراعي متطلبات الجسد، تحقق الرفاهية للعبيد كما تحققها للأسياد، تبني العقول كما تبني الأراضي، ومن أراد الدليل فعليه بقراءة التاريخ الذي لا يرحم، وسيجد كثيرا من العبيد صاروا أحرار، وجمعا من الرعاع صاروا أسيادا، ونفرا من الفقراء صاروا أغنياء.

فجميع الدول التي ترعم أنها بنت حضارة إنسانية نجد عندها ميل إلى جهة واحدة، وغالبا ما تكون الجسد لذلك تنقضي بسرعة كما ينقضي الجسد يوما فيوما، أما الحضارة التي يبنها الإنسان فإنها متوازنة تراعي الروح كما تراعي الجسد، تراعي الدنيا كما تراعي الآخرة، لذلك دامت واستمرت إلى أن قطع أعداؤها الصلة بينها وبين القرآن، فأصبحت على ما نرى.

ثانياً: خروج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فالتعلم الصحيح ينير العقل، ويزكي النفس، ويهذب السلوك، فيعرف به الإنسان رأسه من رجليه، وحقه من حق غيره، وربه ومن هو مثله؛ فلما وجدت هذه الهدايات ومثيلائها الطريق إلى الصحابة، جعلتهم يكسرون الأصنام بأيديهم كما فعل الصحابة بالعزى واللات ومناة...، ويحملون الطعام على أكتافهم لإطعام الأرامل

واليتامى كما فعل عمر مع المرأة التي يبكي صبياتها¹، ويعدلون حتى لو كان أحد المتحاكمين من أئمة الصحابة وكبرائها²...، كما جعلتهم يفتحون المجال ليعيش وسطهم من ليس على ملتهم، ويجد بينهم من التقدير والاحترام ما لا يجده حتى عند أهل ملته، فقد احترموا اليهود والنصارى، وتعاملوا معهم بالحسنى، بل وصل بهم الأمر إلى أن أعطوهم من الأموال ما يكفيهم وعيالهم، كما فعل عمر مع اليهودي الذي وجده يسأل الناس ليعيش³، والأمثلة تكاد تعز عن الحصر، فالغرض لفت الانتباه فقط، وإلا فإن هذا يكاد يكون من المعلوم بالضرورة.

ثالثا: يعود الحكم إلى كتاب الله، وترجع إليه هيئته التي أخذت من النفوس!!!، وهذا أكبر أثر يحصل للأمة من تطبيق الهدايات، فبمجرد أن يعود الناس إلى هدايات القرآن تبدأ الأمور في الرجوع واحدة تلو الأخرى.

فالقرآن الكريم جمع الله فيه كل ما يحتاجه العباد، فما داموا يبحثون فيه سيجدون ما يحتاجون، ويلقون فيه من الحلول لكل مشاكلهم الحاضرة والمستجدة ما لا يخطر على بالهم.

رابعا: أن ترجع الهيبة إلى المسلمين بعدما افتقدوها سنين طويلة، فقد سبق أن بينت أن حرمان المسلمين تنتهك، ودماءهم تسفك، ونساءهم يغتصب...؛ كل هذا بسبب ابتعادهم عن هدايات القرآن، وبخاصة المتعلقة منها بزرع الثقة في الله في القلوب، فما إن ترجع إلى المسلمين الثقة في نصر الله، وقدرته على إهلاك أعدائه حتى ترجع إليهم المهابة، ويتملك قلوب أعداءهم الخوف والفرع، ففي زمن المعتصم بالله -وقد قل التمسك بهدي القرآن، ولم يعد كما كان من قبل- لما استنصرته امرأة بقولها: وامعتصماه " فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك! ونهض من ساعته، وصاح في قصره: النفير النفير"⁴، ولما وصله كتاب من ملك الروم يتهدده فقال للكاتب اقلب الورقة، واكتب "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت خطابك والجواب ما ترى لا ما

¹ ينظر قصته في فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل: 290/1.

² ينظر قصة علي رضي الله عنه واليهودي الذي وجدت عنده درع علي، ومع ذلك قضى القاضي لصالح اليهود لعدم وجود البينة عند سيدنا علي رضي الله عنه مع أنه يعلم علم اليقين أنه صادق (السنن الكبرى: 230/10).

³ ينظر قصته في كتاب الخراج، ص: 139.

⁴ الكامل في التاريخ: 38/6.

تسمع وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار¹، ثم هيا جيشه ونكى بالعدو نكاية عظيمة قال عنها الشاعر قصيدة جاء في مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ** في حده الحد بين الجد واللعب

وفي خاتمتها:

فبين أيامك اللائي نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب².

خامسا: ترجع لذة العيش إلى المسلمين التي افتقدوها بسبب التيه في المناهج، والضلال في الأهواء، فقد سعد به المسلمون أيما سعادة، حتى قال أحدهم نحن في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف.

ولم تكن هذه السعادة وليدة المال، ولا الجاه؛ وإنما وليدة القرآن مصداقا لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]، وهل العمل الذي أحياهم حياة طيبة إلا العمل بالقرآن!!

وعمل القرآن هذا العمل يتجدد كلما وجدت أسبابه وتوفرت شروطه، وانتفت موانعه إلى قيام الساعة كما يدل عليه الفعل المضارع (فلنحيينه)، وكما يؤكد قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾، فاقشعرار الجلود الذي يكون بجزالة ألفاظه، وعمق معانيه، يتبعه لينها الناتج عن الاستيعاب التام³.

¹ سمط النجوم: 450/3.

² ينظر: المصدر السابق: 451/3-454..

³ ينظر التحرير والتنوير: 388/23.

سادسا: تقوى لحمة العلماء، ويشد بعضهم بيد بعض، ويكونون قوة تهاجم كل القوى، فما إن يتفقدون على رأي حتى ينفذه المسؤولون، أحبه أم كرهوه؛ لأنهم يعلمون قوتهم، وتأثيرهم في على قلوب الناس وعقولهم، وبالتالي صلح حال الراعي والرعية.

سابعا: حل جميع المشكلات، وتجاوز جميع الصعاب حتى التي يظهر أن حلها من المستحيلات، فترسيخ الشورى في النفوس يعطى قوة وعزيمة لجميع الأفراد لكي يدلوا بما عندهم، لأنهم يشعرون بأنهم جزء من الأمة لا عالة عليها، أو أنهم في هامشها، فإذا اعترضت المسلمين مشكلة سياسية، أو عسكرية، أو اقتصادية... يقدم كل طرف ما عنده من الخبرات، وقد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، فيكون عند المغمور ما ليس عند غيره، فسلمان الفارسي لم يكن من السادة العظماء، ولا من أهل المشورة والرأي بين قومه، لكن لما فتح له النبي ﷺ الباب لتقديم ما عنده أعطى حلا للمسلمين أنقذهم به من الهلاك، وجعل دهاء العرب حيارى في الحل الذي اقترح.

فإن فُتح هذا الباب في وجه أمتنا سنجد به علاج كل مشاكلنا المتعلقة بالحدود، والمتعلقة بالتعلم والتعليم، والمتعلقة بالسياسة والاقتصاد...؛ وحينئذ تُحقق الأمة كل ما تطمح إليه، فتعلو ولا يعلى عليها، وتسود ولا يسود عليها، كما كانت في السابق.

وفي الجملة فآثار هدايات القرآن على واقعنا المعاصر، هي نفسها التي كانت عند الصحابة والتابعين، فهم بشر ونحن بشر، والقرآن الذي نزل عليهم فغير حياتهم هو الذي بين أيدينا، لكن للأسف لم تتغير حياتنا!!! ليس لكون القرآن تغير، وإنما لكوننا نحن الذين تغيرنا فقلبنا ظهرنا للقرآن، وتنكبنا عن هديه، وأردنا العزة في غيره فأذلنا الله.

القسم الثاني : الهدايات القرآنية في سورة

القصص من الآية (1) إلى الآية (50)

سورة القصص من السور المئين التي نزلت في مكة، وبالضبط في الأيام العvisية التي مر منها النبي صلى الله عليه وأصحابه، حيث مات عنه أبو طالب، وزوجه خديجة ؑ، فكانت بالنسبة إليه خصوصاً، وإلى سائر المسلمين عموماً بمثابة خارطة طريق لسم سنة الله في الكون عموماً، وفي الظالمين وأعوانهم خصوصاً، فتحدثت عن أعتى جبابرة الأرض في زمانه، وربما على وجه الأرض، وعلى أنصاره وجنوده الذين شايعوه على الظلم، وأيدوه في قتل الأبرياء من الأطفال ومن لا حول لهم ولا قوة، فبينت الحالة التي كانوا عليها من النعم، والنهاية المأساوية التي ختم الله بها حياتهم، لتكون عبرة لكل من يأتي بعدهم إلى يوم الدين.

فكانت حال نزولها شبيهاً بحال الذين تحدثت عنهم، فالرعماء من قريش ومن غيرهم كانوا يعيشون على ظهر العبيد، يشرعون من القوانين ما يحفظ مكانتهم الاجتماعية والسياسية وإن أدى هذا إلى مخالفة الفطر الربانية. وهذا ما جعلهم يعتدون على كل من خالفهم في الرأي، أو أراد الخروج عن معتقداتهم الباطلة، فعذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم، ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى حصار حتى الأشراف الذين أيدوا المسلمين، لينتهي في النهاية إلى محاولة قتل قائد الدعوة، ونبي الأمة مُحَمَّد ﷺ !!!

فكانت بهذا جديرة بالدراسة والتحليل، قصد الوقوف على بعض أسرارها المبتوتة في تفاسير العلماء، وأمّهات الكتب في شتى المجالات، مع ما يفتح الله به على الدارسين الذين يصحبونها أكثر من سنتين؛ وقد تم تقسيم دراستها إلى بابينك باب يكون كالمقدمة لها، والمفتاح الذي يحل مغالقيها، وباب للدراسة التطبيقية لكل آياتها قصد استخراج هداياتها لتنزل على أرض الواقع، وتعطي تصوراً عاماً لما تؤول 'ليه أوضاع المسلمين في القادم بإذن الله.

الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة القصص

للقوف على هدايات السورة -أو بالتعبير الدقيق على أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان منها- نحتاج إلى استيعاب مضمونها، ومعرفة ما تميزت به غيرها، والفضائل التي وردت في قراءتها، والمقصد العام الذي ترجع إليه كل آياتها، وتدور عليه كل محاورها، لتكون الهدايات صحيحة في ذاتها، وقابلة للتنزيل على أرض الواقع لتعطي ثمرتها كما أعطتها للصحابة ومن بعدهم الذين وقفوا عليها بالسليقة العربية، دون حاجة إلى ضوابط لغوية، أو قواعد فقهية وأصولية.

وقد تناولتها من خلال فصلين: خصصت الأول منهما للتعريف باسمها، والحديث عن الآثار الواردة في فضلها، والأحوال التي نزلت فيها آياتها، وخصصت الثاني للمقصد العام الذي تدور عليه آياتها، والمعاني المتعلقة ببعض ألفاظها، والثالث للمعنى الإجمالي المستفاد من مجموعها.

الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

سبقت الإشارة إلى أسماء السور وفضلها وأهميتها، وأحوال نزولها عند الحديث عن سورة النمل فليرجع إليه من أراد التفصيل؛ وقد تناولت في هذا الفصل كسابقه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول اسم سورة القصص

سبق أن تحدثنا عن أسماء السور باعتبار التوقيف من عدمه، وخلصنا إلى أن أسماء السور الموجودة في مصاحفنا اليوم أسماء توقيفية.

وسورة بالقصص لها اسم توقيفي واسمان اجتهداين، فأما التوقيفي: فالقصص، وإن لم يثبت بسند صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه مشهور عند السابقين ولاحقين، فقد نقله ابن الضريس عن ابن عباس في فضائل القرآن¹، ولا نعلم أحدا من الصحابة خالفه فيه، حتى قال ابن عاشور: ولا يعرف لها غيره².

لكنني وجدت لها اسمين آخرين اجتهداين؛ فأما الأول فهو (طسم)، سماها به السخاوي في جمال القراء³ دون أن يذكر له سندا عن رسول الله ﷺ أو عن غيره من الصحابة؛ ولعله سماها به لكونها ابتدئت به، كما سميت بعض السورة بما ابتدئت؛ يؤيد هذا أنها قيدها بالقصص فقال: "طسم القصص".

وفي مرويات الإمام أحمد في التفسير⁴ ما يفيد أنها كانت تسمى بهذا الاسم حتى في زمن الصحابة.

ومن أسمائها الاجتهادية (موسى)، كما جاء في حاشية الجمل المعروفة بالفتوحات الإلهية⁵ دون ذكر سند له، أو عزو إلى مصدر؛ وعلى هذا فيكون شاذاً؛ لأنه لا مناسبة بينه وبين السورة، فلفظ موسى ذكر في كثير منها دون أن تسمى واحدة سورة به، ومن شرط التسمية الاجتهادية أن تكون لها مناسبة مع في السورة.

ووجه تسميتها بالقصص وجود لفظ القصص فيها عند قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ مَجُوتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، واختصت به دون باقي السور التي ذكر كآل عمران والأعراف ويوسف لأن هذه السورة متقدمة عنهن، "فالقصاص الذي

¹ ص: 33.

² التحرير والتنوير: 61/20.

³ ص: 217.

⁴ 229/3.

⁵ 333/2.

أضيفت إليه السورة هو قصص موسى الذي قصه على شعيب عليهما السلام فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها. فلما حكي في السورة ما قصه موسى كانت هاته السورة ذات قصص لحكاية قصص، فكان القصص متوغلا فيها. وجاء لفظ القصص في سورة يوسف ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة¹؛ فهي السورة الوحيدة التي قص فيها موسى عن نفسه سبب خروجه من مصر²، وقدمه إلى مدين، فكان مناسبا أن تسمى به دون غيرها³.

والقصص الأثر، والأخبار المتتبعة⁴، وجاء في الآية معرّفا بالألف العهدية التي تشير إل ما ذكر سابقا من حاله مع الرجل الذي ناداه، والقبطي الذي قتله؛ ولعل السبب في هذا القصّ منه على شعيب هو أن العادة كانت جارية بسؤال الضيف عن سبب خروجه وقدمه⁵

¹ نفسه: 61/20.

² إلى القرآن الكريم لمحمد شلتوت، ص: 103.

³ التحرير والتنوير: 61/20.

⁴ المفردات للراغب، ص: 671.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 104/20.

المبحث الثاني فضائل السورة

لم أقف على حديث صحيح في فضلها بعينها، فيبقى لها فضل القرآن العام، وما رواه الثعلبي وغيره عن أبي أن رسول الله ﷺ قال: (من قرأ طسم القصص أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بموسى وكذب به، ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً)¹ فموضوع؛ قال الشربيني: "وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من قوله ﷺ: (من قرأ سورة طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صدق بموسى وكذب ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً، حديث موضوع.²

وقد سبقت الإشارة من كلام ابن الجوزي أن أكثر الأحاديث الدالة على فضل السور موضوع، فينبغي الاحتياط في الباب.

¹ الكشف والبيان للثعلبي 332/7، والكشاف: 437/3، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: 187/4.

² السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير 122/3.

المبحث الثالث: أحوال نزول سورة القصص

ذكرنا في أحوال نزول سورة النمل أن الشعراء والنمل والقصص نزلن مرتبات على الشكل الحالي، وأنهن مع بعضهن كالأسباب مع النتائج، وأنهن نزلن في الفترة الجهرية إلى غير ذلك مما سبق تقريره. واختلف فيها فقال جمهور التابعين هي مكية كلها، وقيل: إن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [II قصص: 58] نزل بين مكة والمدينة بالحجفة¹.

ومع هذا فلكل سورة أحوال تخصها، فسورة القصص نزلت في فترة حرجة جدا، اختلت فيها الموازين فجاءت "لتضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، ولتبين أن هناك قوة واحدة مؤثرة في الكون ألا وهي قوة الله وحده وأن هناك قيمة واحدة في الكون هي قيمة الإيمان. وجاءت السورة لتقرر حقيقة مهمة ثابتة على مرّ العصور أن النصر لا يأتي بالضرورة مع الكثرة والقوة وأن النصر يأتي بأمر الله وحده فهو الناصر الذي ينصر عباده، فمن كانت معه قوة الله فلا خوف عليه ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع قوى الكون"²

فهي وإن لم تُنقل لنا أحوال نزولها بالسند الصحيح إلا أننا ندرك يقينا أن بعضها نزل في فترة حصار النبي ﷺ وصحبه ومن آزره في شعب أبي طالب، وبعضها نزل في عام الحزن الذي توفي فيه أبو طالب وخديجة ﷺ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]، لأن أبا طالب لم يمت إلا بعد فك الحصار؛ وبعضها نزل بعدما خرج النبي ﷺ إلى الطائف لدعوتهم إلى الإسلام فواجهوه بالسب والشتم وتسليط الصبيان والسفهاء عليه...³ فلم يجد إلا الله فتوجه إليه بالدعاء المشهور (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي"⁴

¹ ينظر: تفسير البغوي: 3/521، والجامع لأحكام القرآن: 13/247، واللباب في علوم الكتاب: 15/212، والتحرير

والتنوير: 61/20.

² في ظلال القرآن: 5/2671-2672.

³ ينظر سيرة ابن هشام: 1/419.

⁴ سيرة ابن هشام: 1/420.

فكان في السورة ما يشير إلى تخلى زوج فرعون عن موسى بعدما كانت تدافع عنه أول أمر حين قالت: ﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [قصص: ٩]، وكذلك إلى تخلى عمه أبي طالب عن نصرته بعدما عادى قريشا من أجله، إلا أن آسية تخلت عن موسى كرها خوفا من بطش زوجها، وأبا طالب تخلى عن النبي ﷺ لأن المنية وافته، فكان فيها درس للنبي ﷺ وأمته من بعده بأن يعلموا أن الله هو الذي ييسر لهم من يحميهم، فيجب عليهم التعلق به تعلقا مطلقا، واعتبار الحامي أو المساند هدية منه سبحانه وتعالى.

وقد صرح النبي ﷺ بالحنّة التي حلت له في هذه الفترة لما سألته عائشة رضي الله عنها: "هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: " لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبي إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا¹

فجاءت سورة القصص لتعالج هذا الوضع بأسس متينة وأسلوب بديع، إذ جاء في مطلعها ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [قصص: ٤]، فأشارت بهذا المطلع إلى قريش ومن على نهجهم بأنهم لن يبلغوا ما بلغ فرعون من الجبروت والطغيان الذي لم يقف حتى وصل به الأمر إلى قتل الذكور من الأطفال، واستعباد آبائهم، ومع هذا فلم تمنعه قوته من الله الذي أهلكه وقصم ظهره، وأورث المستضعفين ملكه، فكأن الله يقول لهم: هلاككم بالنسبة إلي أهون من هلاكه، ففرعون سلطت عليه عبيده، والمستضعفين من قومه، وأنتم سأسلط عليكم المسلمين الأقوياء مقارنة مع قوم فرعون، فهلاككم على أيديهم غير مستبعد.

¹ صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين: 115/4، رقم: 3231.

ثم أشارت أن المتجبر من العباد مهما علا فقد يربي بيده من يكون سبب حتفه، ففرعون الذي كان يقتل الأطفال خوفا من هلاك ملكه شاء الله أن يربي بنفسه وفي قصره، وحضن زوجه من كان هلاكه على يديه، بل شاء الله أيضا أن يُذله حتى في تربيته، إذ حرم على موسى المراضع فظل يبحث له عنهن خارج قصره تنفيذا لأمر زوجه؛ وهذا لتعلم قريش أنهم لن يستطيعوا فعل أي شيء بمن تولاه الله، وضمن له بلاغ وحيه ورسالته.

ثم التفتت إلى الضعفاء والعبيد فبينت لهم أنهم في حمى الله، لن يتخلى عليهم كما لم يتخل عن رضيع في اليم؛ فكان في الآيات الكريمات إخبار بما حدث لموسى وأمه، وإشارة إلى العبيد والضعفاء الذين آمنوا برسول الله بأن الله يرعاهم ويدبر أمورهم، فما عليهم إلا أن يصبروا حتى يأتي اليوم الموعود؛ الذي يمكنهم فيه من مكة، كما مكن المستضعفين في الأرض زمن فرعون من ملكه وقصره.

وزاد هذا الأمر بيانا بأن قريشا نفسها لولا حماية الله لها لما كانت على الحال التي هي عليه، فقد برروا عدم اتباعهم للرسول ﷺ بخوفهم من أعداء رسول الله ﷺ بقولهم كما حكى الله عنهم ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ تَخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [II قصص: ٧٥] فرد الله عليه بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ إِمْنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [II قصص: ٧٥]

وفي هذه الفترة كان النبي ﷺ قد يئس من قريش فشرع يطوف على القبائل في الحج ويعرض عليهم دعوته حتى ينصروه وإياها، فكان كثير منهم يستهزئ به أو يطلب منه مقابلا لنصرته كأن يجعل له الأمر من بعده، فيرد عليه بقوله: "إن الأمر لله يوتيهِ من يشاء، وظل على هذا الحال حتى يسر الله له في نفر من يثرب، فعرض عليهم دعوته فقبلوها وقالوا: هذا هو النبي الذي توعدكم يهود، فهلّموا نؤمن به حتى لا يسبقكم إليه يهود؛ ثم واعدوه السنة المقبلة فتمت بيعة العقبة الصغرى ثم الكبرى في التي بعدها فأشعرت بفراق رسول الله ﷺ مكة الحبيبة على قلبه فأُنزل الله عليه ﴿إِنَّ الَّذِي

فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [II قصص: ٥٨]

فلما كانت هذه الأحوال شبيهة بحال موسى عليه السلام الذي خرج من مصر التي ترعرع فيها، وتوجه مدين التي يسر الله له فيها رجلا صالحا أكرم مثواه، وزوجه إحدى بنتيه، أنزل الله عليه آيات تقص نبا موسى أثناء خروجه وبعد عودته، فكان فيها إشارة للنبي ﷺ بأنه سيخرج من مكة، ويسر

الله من يحميه ودعوته، وينصره وشريعته، ليعود إلى موطنه فاتحاً حاكماً؛ وقد حصل بالفعل ما أشارت إليه الآيات الكريمات في السورة، فقد يسر الله له الأنصار، فلم يعطوه بناهم فقط، إنما بذلوا مهجهم وأموالهم في سبيل دعوته، وتحكيم شريعته، فما هي إلا سنوات حتى قال له سعد به معاذ: "فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد"¹

ولما كان المال من أكبر أسباب الطغيان كان له نصيب من هذه السورة، فتحدث عن قارون وقومه الذين انقسموا قسمين، قسم فرح بما عنده، وتمنى أن يصبح مثله، وقسم حذر من مغبة فعلته، فكان في السورة العلاج للمشكل وأسبابه، إذ بينت أن الطغيان عاقبته الهلاك، وأن المال وسيلة للعيش لا ينبغي أن ينسي الإنسان مصيره المحتوم، وإلا سيكون مصيره مصير قارون.

ثم لما كان المال في الغالب ينشأ عن العلم الذي دعت إليه سورة النمل كان له نصيب في هذه الصورة، فقد يظن ظان أن العلم ممدوح على كل حال، فكان في هذه السورة تفصيل ما أجمل في النمل؛ فالعلم المطلوب هو الذي يؤدي بصاحبه إلى الله، ثم نفع نفسه وإخوانه.

ثم ختمت بحقيقة الدنيا كلها ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨)

[ال قصص: ٨٨] لتبين للناس ما لذي ينبغي أن يكون أكبر همهم وهو التعلق بالله تعالى لنيل رضاه، وصلى الله وسلم على حبيبه ومصطفاه.

¹ سيرة ابن هشام: 1/516.

الفصل الثاني: معاني السورة ومقاصدها.

لكل سورة محور تدور عليه، ومرجع تؤول إليه، من عرفه سيدرك كثيرا من الأسرار التي غابت عن غيره، ويتنبط كثيرا من الأحكام التي فاتت غيره، وخير معين له على عليه معنى السورة الإجمالي، ومعاني مفرداتها الصعبة التي تنطوي على معان قد لا يدركها كل الناس لذا دعلت تحت هذا الفصل ثلاثة مباحث، خصصت الأول منها للحديث عن مقصد السورة، والثاني للحديث عن معاني مفرداتها، والثالث عن المعنى الإجمالي التي يؤخذ من مجموع آياتها، فالله المستعان، وعليه التكلان.

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.

قال الفيز آبادي: "مقصود السورة: بيان ظلم فرعون بنى إسرائيل، وولادة موسى، ومحبة آسية له، وردّ موسى على أمّه، وحديث القبطي، والإسرائيلي، وهجرة موسى من مصر إلى مَدِين، وسقيّيه لبنات شعيب، واستئجار شعيب موسى، وخروج موسى من مَدِين، وظهور آثار النبوة، واليد البيضاء، وقلب العصا، وإمدادُ الله تعالى له بأخيه هارون، وحيلة هامان في معارضة موسى، وإخبار الله تعالى عمّا جرى في الطُّور..."¹

وقال ابن عاشور: "أغراضها: اشتملت هذه السورة على التنويه بشأن القرآن والتعريض بأن بلغاء المشركين عاجزون عن الإتيان بسورة مثله، وعلى تفصيل ما أجمل في سورة الشعراء [18، 19] من قول فرعون لموسى ألم نريك فينا وليداً إلى قوله وأنت من الكافرين ففصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون."²

وما ذكره الفيزآبادي وابن عاشور إنما هو حديث عن الموضوعات لا عن المقصد، وقد سبقت الإشارة إلى الفرق بينهما عند الحديث عن مقصد سورة النمل.

وقال البقاعي رحمه الله: "ومقصودها: التواضع لله، المستلزمُ لرد الأمر كله إليه، الناشئ عن الإيمان بالآخرة، الناشئ عن الإيمان بنبوة مُحَمَّد - ﷺ - الثابتة بإعجاز القرآن، المظهر للخفايا، على لسان من لم يتعلم قط من أحد من الخلق، المنتج لعلو المتصف به.

وذلك هو المأخوذ من تسميتها بالقصص، الذي حكم لأجله شعيب بعلو الكليم - عليهما السلام - على من ناوأه، وقمعه لمن عاداه، فكان المآل وفق ما قال"³

وقال سيد قطب: "نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون، هي قيمة الإيمان. فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجرداً من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا

¹ بصائر ذوي التمييز 353/1.

² التحرير والتنوير: 62/20.

³ مصاعد النظر: 338/2.

طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً.¹

وقال سيد طنطاوي: "والخلاصة، أن سورة القصص على رأس السور المكية، التي حضت المؤمنين على الثبات والصبر، وسأقت لهم من أخبار السابقين، ما يزيدهم إيماناً على إيمانهم. وبقينا على يقينهم، بأن الله - تعالى - سيجعل العاقبة لهم..²

والذي استخلصته من تأمل السورة، ومن كلام العلماء في مقصدها أن المقصد هو زرع الثقة في الله، الدافعة إلى مقاومة الظالمين باطمئنان تام، واعتبارهم كالأحجار الموجودة على الأرض التي لا تؤثر إلا بإرادة الله؛ ويمكن ان نستدل على هذا المقصد بثلاثة أمور:

الأول اسم السورة وخاتمتها

سبق أن ذكرت أن السورة نزلت في نهاية الفترة المكية، وبداية الفترة المدنية - حتى إن بعض آياتها نزلت والنبي ﷺ في طريقه إلى مكة - فناسب أن يذكر الله فيها قصة شبيهة بقصة نبينا محمد ﷺ؛ ذلك أن موسى عاش في بيئة ظالمة سعت بما تملك للتخلص منه لكن الله نجاه منها، ومحمد ﷺ عاش أيضاً في بيئة ظالمة حاولت التقليل من شأنه، والنيل من كرامته حتى وصلت إلى الحسم في قتله إلا أن أخبره بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: 30]، فحجاً بقدرة الله التي بقيت دليلاً لكل ذي بصيرة على أن العباد لن يستطيعوا فعل أي شيء به إذا أراد الله غيره؛ من هنا ناسب أن تسمى بالقصص دون غيرها ممن قصت نبأ الأنبياء والأمم السابقة.

والحديث عن اسم السورة لا يتم بمعزل عن مقدمتها وخاتمتها؛ لأنهما يساعدان على بيان وجه التسمية، والمقصود منها. فإذا تأملنا قول الله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾﴾ وخاصة ضمير الخطاب، وقارناه بقول الله أيضاً ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ خرجنا بنتيجة حتمية

¹ في ظلال القرآن: 5/ 2674.

² التفسير الوسيط: 10/ 372.

وهي أن الله تعالى يريد أن يبين لنبيه ﷺ أنه في حفظه ورعايته، وأن قوة قريش وجبروتها لا يمكن أن تنال منه شيئا كما لم تنل قوة فرعون وجبروته -وهي أعلى طبعا - من موسى عليه السلام.

فاذا أضيف إلى المقدمة الخاتمة التي منها قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ المقرر أن نتيجة محمد ﷺ ستكون كنتيجة موسى عليه السلام -في كونهما أخرجوا من بلديتهما، ثم رجعا إليهما وصارا يتصرفان فيها كما يتصرف فيهما الظلمة إلا أن تصرفهم كان وفق العدل والحكمة- زاد يقيننا أن مقصدها هو زرع الثقة بالله، واعتبار غيره في حكم العدم.

الثاني: مقاطع السورة

بعد أن أخبر الله نبيه ﷺ بأنه سيتلو عليه ما حدث لموسى مع فرعون قررت السورة بشكل قاطع علو فرعون وتجبره في الأرض حتى صار قلبه أشد قسوة من الحجارة، فلم يرحم الضعفاء لضعفهم، ولا الأطفال لبراءتهم بل ذبح الأطفال، واستحي النساء ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومع هذا حالت قدرة الله بينه وبين موسى الذي أراد الله نجاته، كما حلت بينه وبين بني إسرائيل الذين أراد الله لهم التمكين في الأرض ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾

ثم تمضي السورة ممثلة بأمثلة (هي أيضا من مقاطع السورة) تظهر فيها انتصار أهل الحق وهم في قمة الضعف، وخسران أهل الباطل وهم في تمام القوة والتجبر؛ فذكرت أم موسى الضعيفة التي عجزت قوى الشر كُلُّها، عن معرفة ما في بطنها، وحيل بينها وبين الوصول إلى مولودها، سواء في مرحلة الحمل أو عند لحظة الوضع، بل ربه في كنفهم، وأطعمتهم من خيراتهم، ونالت عطف قلوبهم... كل هذا بعد أن أوحى إليها بأن ولدها قد تكفل الله به، وسييسر له من يريه خيرا من تربية أمه، ثم يرده إليها ليس كسائر الناس بل من أولي العزم من الرسل ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ فما يشعر القارئ بنفسه حتى يشعر بثقة مطلقة لحدود لها في رب العالمين.

ولم تلبث أن صورت وعد الله لأُم موسى آتيا كلمح البصر، وعبرت عنه بالفاء المشعرة بأن وعد الله قريب من الإنسان أكثر من حبل الوريد ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّعَيْنَهَا وَلَا نَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

ثم أعقبت هذا بالنتيجة الحتمية التي تعطيها الثقة في الله، وهي اعتبار ما عداه في حكم العدم، فذكرت محاربة موسى للظلم والظالمين، دون مبالاة بجبروت فرعون وجنوده، كما ذكرت نجائه بقدرة رب العالمين، مع أنه مطلوب في صغره وبعد كبره، فجاءه رجل غريب (كما تدل عليه النكرة) لم يعرفه، ولم يطلب مساعدته، ليقرر الله في نفسه أن من كان معه فستفتح له أبوابٌ لم تخطر على البال أصلاً.

ثم انتقلت السورة لترسم صورة أخرى من رعاية الله، فبينت أن موسى وجد من يكفيه مؤنة البطن والسكن، ومن يسد له شهوة الفرج، مع أنه غريب، ومن أعدائه مطلوب.

كما بينت أنه أثناء رجوعه وجد نفسه في مكان مظلم، وفي أرض فلاة، دون هاد يهديه، ولا حارس يحميه إذ بالله يطمئنه، ويبين له أن الأمان حليفه؛ لأنه في حماه، ومن كان في حماه فينبغي أن يكون مطمئن القلب، ساكن النفس، لا يخشى غيره، ولا يرجو سواه.

ثم تمضي السورة مبينة حاله لما كُلف بالمسؤولية، وخاف ضياعها على يديه، جاءه التطمين من الله بقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (٣٥) ثم تمضي السورة لتحسم في عاقبة من وقف في طريق الذين تولاهم الله بعبارة جامعة، وبأسلوب بياني يشد القلوب شداً، فلم تذكر التفاصيل التي حدثت، ولم تشر إلى مكر الظالمين وأعدائهم، إنما جمعت قصة موسى مع فرعون وجنوده في أربع كلمات ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠)، وأنت بالفاء المشعرة بأن هذا حصل بسرعة كسرعة البرق ...

وبعدما انتهت السورة من قصة موسى وفرعون انتقلت إلى حال النبي ﷺ وحال كفار قريش معه، فبينت أن بعضهم كان يرفض الإسلام خوفاً من مخالفة العرب، معتقدين أن أذاهم سيكون كالأذى

الذي تسببه الجوارح لصيدها¹، بسبب اتباعه قائلين: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ فأجابهم الله بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) فإذا كان هذا حال المقيمين على الشرك به، فكيف يكون الحال بمن هم على التوحيد!!!

ثم رجعت السورة إلى قصة أخرى، لتعالج نفس الأمر -وهو الثقة في الله- لكن بأسلوب آخر، فأتت بقارون الذي اغتر بماله، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قائلًا: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ وَعَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (٧٨) مما جعل كثيرا من أتباعه يغترون به قائلين: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٩).

فرد عليهم الذين عرفوا الله حق المعرفة، وعلموا أن وعده لن يتخلف أبدا، وقالوا لهم ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ثم لم تلبث السورة حتى ذكرت النتيجة في الحين - كما هو الشأن بالنسبة لفرعون - ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٨١).

ثم ختمت بزرع الثقة في رسول الله ﷺ الذي لم يشك يوما في تحقق وعد الله² فأكدت له أنه سيرجع إلى مكة التي أخرجته منها كفار قريش ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ كما أمرته بصريح العبارة بأن لا يخشى العقبات الموجودة في طريقه ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بِعَدَاةٍ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧).

وهذا تكون مقاطع السورة قد عانقت بعضها وزرعت الثقة في قلوب كل من تدبرها، ووقف على أسرارها، فاللهم اجعلنا منهم بمنك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

¹ ينظر: نظم الدرر: 320/14.

² يكفي مثالا ما حدث له في الغار لما وقف عليه الطالبون من قريش، وارتعدت فرائص أبي بكر طمأنه بقوله: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) (صحيح البخاري، رقم: 3653)، وكذلك لما لحق به سراقه طالبا رأسه أو صديقه طمأنه -بعدما أيقن أنه لن يصل إليه- بقوله: كيف بك يا سراقه إذا لبست سوارى كسرى

الثالث أَلْفَاظُ السُّورَةِ.

لا يكاد ينتقل القارئ من حدث إلى آخر، أو يدلف من قصة إلى أخرى حتى يجد النهي عن الخوف، أو الإخبار عن تولي الله لمن يشاء من عباده، أو بيان أن ولاء الله خير من ولاء غيره، أو النهي عن النظر إلى غيره، أو الإخبار عن تفرد بالتدبير، وفناء ماسواه؛ فأم موسى نهاها الله عن الخوف من غيره، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧﴾ وأخبرها بأن ابنها في حماه، وأنه سيرجع إليها لما يشاء مولاه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧﴾ ثم أخبرت السورة عن تحقق وعد الله للمرأة الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة، وعن سكون قلبها المفطور ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾ كما أخبرت عن حال قلبها لما تولاه الله، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّىٰ قَلْبَهَا لَتَكُونِ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ١٥﴾

ثم انتقلت إلى موسى عليه السلام فبينت أنه لما خاف من أعدائه لجأ إلى ربه، موقنا أنه لا نجاة له إلا به ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢١﴾ كما بينت أن من تولاه الله يهيئ له من يعينه، ويزرع الطمأنينة في قلبه حتى يذهب عنه روعه، فأخبرت أن موسى عليه السلام وجد رجلا صالحا أكرمته، وأعانه على قضاء حاجته قائلا له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢٥﴾

ثم واصلت الحديث عنه، فصورت حاله أثناء الوحدة، وفي حال الغربة واشتداد الظلمة؛ وكلها عوامل تدعوا إلى الخوف فإذا به يسمع مولاه يناجيه: ﴿يَكُومُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينَ ٣١﴾.

ولما رأى من السحرة ما أدهشه، وخاف أن يغتر الناس بسحرهم فيتركوا دعوته، وطريق نجاتهم جاءت الثقة من ربه، مبشرةً بنصره ونصر من آمن به، فقال له ربه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ مَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم تحولت السورة إلى واقع الناس في زمن النبي ﷺ، فبينت بعض أسباب إغراض المشركين عن هديه وذكرت منها خشيتهم من الأشداء الأقوياء، حيث قالوا: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا﴾ ثم زرعت الثقة في قلوبهم مبينة أن الذي حماهم وهم على الشرك به سيحميمهم إن ساروا في طريق نبيه ﷺ ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ إِمْنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ختمت بالفاظ ترع الثقة في قلب كل مؤمن، حيث جاء فيها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ﴾ كل هذا ليوقن العبد أنه إن كان مع الله فهو المنصور وإن كان وحده، وإن أراد الله به خيرا فلن يستطيع الإنس أو الجن أن يمنعه منه.

وهكذا ظهر بجلاء مقصد السورة الذي يجعل القارئ لها -ولغيرها أيضا- يشعر بخيط ناظم لكل أطرافها، فلا يقف من القراءة إلا لما يشعر أنه قد جمع كل الأطراف.

المبحث الثاني: معاني مفردات سورة القصص

﴿طَسَمَ﴾ هي من الكلمات التي لم ينقل عن رسول الله ﷺ فيها شيء، لذا اختلف فيها المفسرون، وعلماء البيان، فقال بعضهم: هي فواتح افتتح الله بها سور كتابه، ولا يعلم سرها إلا هو، وقال بعضهم: هي أسماء للسور، وقيل: هي قسم أقسم الله به؛ لأنها اسم من أسمائه، وقيل: إنها كلمات كل حرف منها معنى غير المعنى الذي للحرف للآخر، وهناك أقوال أخرى ليس هنا مقام بسطها، وبيان مقبولها من مردودها.¹

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ قال الراغب: "الشَّيَاعُ: الانتشار والتقوية؛ يقال: شاع الخبر، أي: كثر وقوي، وشاع القوم: انتشروا وكثروا، وشيعت النار بالخطب: قويته؛ والشيعَةُ: مَنْ يتقوى بهم الإنسان ويتشرون عنه؛ ومنه قيل للشجاع: مَشِيعٌ، يقال: شيعَةُ وشيع وأشياع، قال تعالى: ﴿وَلِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات / 83]، ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص / 15]"² ومن الباب قولهم في ذلك: له سهم شائع، إذا كان غير مقسوم.³

وشيعَةُ الرجل: أنصاره وأولياؤه "وأصلُ الشيعة: الفرقةُ من الناس، وتقعُ على الواحد والاثنين والجمع، والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، ومعنى واحدٍ. وقد غلبَ هذا الاسم على كل من يزعم أنه يتولى عليًا عليه السلام وأهل بيته، حتى صار لهم اسمًا خاصًا"⁴، والشَّيْع: الفرق.⁵ ومن ذلك "الشَّيْعَة - بالكسر - القوم الذين يجتمعون على الأمر. قال الأزهري: ومعنى الشيعة: الذين يتبع بعضهم بعضا، وليس كلُّهم متفقين"⁶.

¹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري: 210/1، وتفسير الماتوردي: 370/1، وتفسير القرآن العظيم: 156/1.

² المفردات، ص: 470.

³ الصحاح: 1240/3، ومقاييس اللغة: 235/3.

⁴ النهاية في غريب الحديث: 519/2.

⁵ تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب لأبي حيان الأندلسي، ص: 188.

⁶ المعجم الاشتقاقي المؤصل، للدكتور: محمد حسن جبل: 1141/2، وتحذيب اللغة: 41/3.

والمعنى: أن فرعون جعل أهل مصر فرقا متفرقين يذبح طائفة منهم ويستحيي طائفة، ويعذب طائفة، ويستعبد طائفة¹، حتى أصبحوا "يُشيعونه على ما يريد ويُطيعونه، لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه"²، وكان هذا بسبب زرعه العداوة بينهم³، حتى أصبح يضرب بعضهم بعضا، ويشي بعضهم ببعض مما جعلهم ضعفاء أمامه؛ وهذه سنة كل طاغية يريد الاستحواذ على قومه. وما فعله الاستعمار الغربي بالمجتمعات المسلمة عنا ببعيد.⁴

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ [القصص:7] الوحي: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقته إلى غيرك، تقول أوحى فلان إلى فلان تعني: أشار إليه، وحمل عليه قول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:11]⁵؛ والوحي: علمٌ تُلقيه إلى غيرك في خفاء أو غيره، "فكل ما ألقته إلى غيرك حتى علمه فهو وحيٌ كيف كان"⁶.

وأصل الوحي: "الإشارة السريعة؛ ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:11]، فقد قيل: إنه رمز. وقيل: أشار، وقيل: كتب، وعلى هذه الوجوه جاء قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَٰطِطِينَ ۖ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنُّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجِدَ لَكُمْ

¹ جامع البيان: 513/19.

² الكشف عن حقائق غوامض التنزيل لمحمود بن عمر الزمخشري: 391/3.

³ ينظر: مفاتيح الغيب: 578/24.

⁴ ينظر: حدائق الروح والريحان: 94/21.

⁵ ينظر: الصحاح: 2520/6.

⁶ مقاييس اللغة: 93/6.

﴿[الأنعام: 121] أي وحيهم بسبب الوسواس المشار إليه بقوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾﴾ [الناس: 4]¹

﴿فَالْتَقَطَهُ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يقال: لَقَطَ الشيء والتَقَطَهُ: أخذه من الأرض "وأصله من اللقطة، وهو ما وُجد ضالاً فأُخذ، والعرب تقول لِمَا وردت عليه فجأة، من غير طلب له ولا إرادة: أصبته التقاطاً، ولقيت فلاناً التقاطاً"²، ومنه قوله: ﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: 10] أي: يجده من غير أن يحتسبه³.

قال ابن فارس: وقد "يكون عن إرادة وقصد أيضاً"⁴.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِزْيٌ﴾ الحزن: الخشونة والشدّة؛ قال ابن فارس: "الحاء والزاي والنون أصلٌ واحد، وهو خشونة الشيء وشدّة فيه؛ فمن ذلك الحزن، وهو ما غلظ من الأرض"⁵ وهذه الشدة والخشونة كما تكون في الأرض تكون في النفس لما يحصل فيها من الغم والكرب⁶، كما حصل لآل فرعون⁷؛ ولم يكن قصدهم هذا وإنما ليكون قرّة عين، فإذا به صار حزناً لهم، وسبب تعاستهم⁸؛ فاللألم لأم العاقبة والصيرورة⁹.

¹ ينظر: المفردات، ص: 858.

² جامع البيان: 521/19.

³ الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي: 5/1699.

⁴ مقاييس اللغة: 5/262.

⁵ نفسه: 2/54.

⁶ ينظر: المفردات، ص: 231.

⁷ ينظر: جامع البيان: 521/19.

⁸ ينظر: معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج: 2/280.

⁹ ينظر: الكشف: 5/145.

قال مكّي ابن أبي طالب: والمعنى: "أنه لما كان في علم الله أن يكون لهم عدواً وحزناً، صاروا كأنهم إنما التقطوه لكي يصير لهم عدواً وحزناً، فصاروا كأنهم التقطوه لذلك، وإن لم يقصدوا ذلك؛ إنما آل أمرهم إلى أن كان لهم عدواً وحزناً، صاروا كأنهم التقطوه لذلك."¹

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

الجنب: البعد والناحية²، تقول هذا من ذلك الجنب، أي ناحيته، وقعد فلان جنباً، إذا اعتزل الناس، وابتعد عنهم، ويقال: إن الجنب الذي يجامع أهله مشتق من هذا؛ لأنه يبعد عما يقرب منه غيره من الصلاة والمسجد وغير ذلك.³

والجنب: هو "الذي يجب عليه الغسل بالجماع وخروج المني؛ ويقع على الواحد، والاثنين، والجميع، والمؤنث، بلفظ واحد...، والجنباء: الاسم، وهي في الأصل: البعد؛ وسمي الإنسان جنباً لأنه نُهي أن يقرب مواضع الصلاة ما لم يتطهر، وقيل لمجانبة الناس حتى يغتسل"⁴.

والمعنى: أن أم موسى قالت لأختها مريم: "تتبعي أثره، وتسمعي خبره، وانظري أين وقع؟ وإلى من صار؟ فتتبعته فأبصرته من مكان بعيد اختفاءً من الناس، والحال أنهم لا يشعرون أنها تقصه، وتتعرف حاله، وأنها أخته، وتطلبه وتبصره"⁵.

¹ الهداية إلى بلوغ النهاية: 8/5489.

² مقاييس اللغة: 1/205.

³ نفسه: 1/483.

⁴ النهاية في غريب الحديث: 1/302.

⁵ حقائق الروح والريحان: 21/112، وينظر: جامع البيان: 19/531.

﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ۝٥٠﴾ الوَكْزُ: الطعنُ والنخسُ¹. قال الأصمعي: "وَكَزَهُ مثْلُ نَكَزَهُ، أي ضربه ودفعه؛ ويقال: وكزه أيضا: ضربه بجمع يده على ذقنه"²، ويقال: الوكز: الضرب في الصدر، أو الدفع بأطراف الأصابع³. والمعنى: أن موسى عليه السلام ضرب القبطي بيده فمات "وكان هذا قتلَ خطأ صادفَ الوكْزَ مقاتِلَ القبطي، ولم يُرد موسى قتله"⁴.

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ۝٧٧﴾ الظهير: النصير والمعين، قال ابن فارس: "الظاء والهاء والراء أصل صحيح واحد يدل على قوة وبروز؛ من ذلك: ظَهَرَ الشيءُ يَظْهَرُ ظهوراً فهو ظاهر، إذا انكشف وبرَزَ. ولذلك سمي وقتُ الظهر والظهيرة، وهو أظهر أوقات النهار وأضوؤها. والأصل فيه كَلَّهَ ظَهْرُ الإنسان، وهو خلاف بطنه، وهو يجمع البروز والقوة... والظهيرُ: المعين، كأنه أَسَدَ ظَهْرَهُ إلى ظهرك"⁵.

وقد دل هذا النظم على أن موسى عليه السلام "أراد أن يجعل عدمَ مظاهرته للمجرمين جزاءً على نعمة الحكمة والعلم، بأن جعل شكرَ تلك النعمة الانتصارَ للحق وتغييرَ الباطل؛ لأنه إذا لم يغيّر الباطلَ والمنكرَ وأقرّهما فقد صانع فاعلّهما، والمصانعةُ: مظاهرة. ومما يؤيد هذا التفسير أن موسى لما أصبح من الغد فوجد الرجل الذي استصرخه في أمسه يستصرخه على قبطي آخر أراد أن يبطش بالقبطي وفاء بوعده ربّه إذ قال ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ۝٧٧﴾؛ لأن القبطي مشرك بالله والإسرائيلي موحد"⁶.

¹ النهاية في غريب الحديث: 219/5، ومقاييس اللغة: 139/6، وتاج العروس: 375/15، والمفردات، ص: 882.

² الصحاح: 901/3.

³ حقائق الروح والريحان: 118/21.

⁴ التحرير والتنوير: 90/20.

⁵ مقاييس اللغة: 471/3.

⁶ التحرير والتنوير: 93/20.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ قال الراغب: "الْقَصَى: البعد، والقَصِي: البعيد. يقال: قَصوت عنه، وأقصيت: أبعدت، والمكان الأقصى، والناحية القصوى، ومنه قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص/20]، وقوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء/1] يعني: بيت المقدس، فسَمَّاهُ الأقصى اعتباراً بمكان المخاطبين به من النبي وأصحابه¹.
وقال الهروي: "وفي الحديث: (فكنت إذا رأيته في الطريق تقصيتها)² أي صرت في أقصاها، يقال: تقصَّيتُ الأمر واستقصيته أي بلغت أقصاه"³.

والمعنى: أن رجلاً من القبط كان يَكتم إيمانه لَمَّا علم ما تَأمرَ عليه الملأُ من قتل موسى أسرعَ إليه من أطراف المدينة ليخبره بما يُدبرُ له؛ لأنه كان معجباً به، "والظاهر أن أقصى المدينة: هو ناحية قصور فرعون وقومه؛ فإن عادة الملوك السكنى في أطراف المُدن توقياً من الثورات والغارات لتكون مساكنهم أسعدَ بخروجهم عند الخوف. وقد قيل: الأطراف منازل الأشراف... وبهذا يظهر وجه ذكر المكان الذي جاء منه الرجل، وأن الرجل كان يعرف موسى"⁴.

﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرُّونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الملأُ: "جماعة من الناس يجتمعون ليتشاوروا ويتحدثوا"⁵؛ سُمُّوا ملأً "لأنهم مليئون بما يراد منهم، وقيل: لأن هيبته تملأ الصدور"⁶، والملأُ تقال أيضاً: للرؤساء؛ سموا بذلك لأنهم ملأوا بما يحتاج إليه، وقيل: هم: أشراف القوم ووجوههم ورؤسائهم ومقدّموهم الذين

¹ المفردات، ص: 673.

² ذكره الزمخشري في الفائق في غريب الحديث: 24/4، وابن الأثير في النهاية: 75/4.

³ الغريبين في القرآن والحديث: 1554/5.

⁴ التحرير والتنوير: 95/20.

⁵ العين: 346/8.

⁶ شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان بن سعيد الحميري اليمني: 6367/9.

يُرجع إلى قولهم¹. وفي الحديث: (هل تدري فيم يختصم المملأ الأعلى؟)² يريد الملائكة المقربين³، وقد يطلق لفظ المملأ على التشاور، فيقال: "كان هذا عن مملأ منكم"⁴ أي تشاور بينكم. قال الراغب: المملأ: "جماعة يجتمعون على رأي، فيملأون العيون رواء ومنظرا، والنفوس بهاء وجلالا"⁵، يقال: "فلان ملأ العيون. أي: معظّم عند من رآه، كأنه مملأ عينه من رؤيته، ومنه: قيل شاب ملى العين، والمملأ: الخلق المملوء جمالا"⁶. والمقصود أن أهل دولة فرعون وأولي أمرها يتشاورون في قتلك، فخرج حتى لا يُنفذوا فيك رأيهم. "وهذا يقتضي أن القضية رُفعت إلى فرعون. وفي سفر الخروج في الإصحاح الثاني: (فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى)⁷.

﴿يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ قال الراغب: "والائتمار: قبول الأمر، ويقال للتشاور: ائتمار لقبول بعضهم أمر بعض فيما أشار به. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَلَمَلًا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:20]"⁸. قال ابن قتيبة: "قال أبو عبيدة: (يتشاورون فيك ليقتلوك)"⁹، وقال الأزهري: "يقال: ائتمر القوم، وتآمروا، إذا أمر بعضهم بعضا، كما يقال: اقتتل القوم وتقاتلوا، واختصموا وتخاصموا."¹⁰

¹ لسان العرب:1/159.

² مسند الإمام أحمد:5/437، رقم: 3483، والترمذي:5/218، رقم: 3233. وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل:3/147.

³ لسان العرب:1/159.

⁴ متن اللغة لأحمد رضا:5/335.

⁵ المفردات، ص:776.

⁶ نفسه، ص:776.

⁷ التحرير والتنوير:20/95.

⁸ المفردات، ص:89.

⁹ غريب القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ص:331-330، تحقيق أحمد صقر.

¹⁰ تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري:15/211.

والمعنى: "وجاء رجل مؤمن من آل فرعون، يُخفي إيمانه عن فرعون وآله لأسباب، هو بها عليم، يُسرّعُ لِلْحَاقِ بِمُوسَى، إشفافًا وخوفًا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله، وقال: يا موسى إن الملك وبطانته وأشراف دولته يُدبرون لك المكائد، وَيَنْصَبُونَ لك الحبائل، يريدون أن يقتلوك، فالبدارَ البدارَ، والهربَ الهرب، قبل أن يقبضوا عليك، وينفذوا ما دبروه، ويقتلوك فأخرج من المدينة مسرعًا، وإني لك لناصح أمين"¹.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ﴾ قال الراغب: "الْوُرُودُ أصله: قصدُ الماء، ثم يُستعمل في غيره. يقال: وردت الماء أُرِدَ ورودا، فأنا وارد، والماءُ مورودٌ، وقد أوردت الإبل الماء. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ﴾ [القصص: 23] والورد: الماء المرشح للورود"² والمقصود هنا أنه وصل إلى ديار مدين. قال ابن عاشور: "يدل قوله: (لَمَّا وَرَدَ ماء مدين) أنه بلغ أرضَ مدين، وذلك حين وردَ ماءهم. والورود هنا معناه الوصول والبلوغ، كقوله تعالى ﴿وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71].

والمراد بالماء: موضعُ الماء؛ وماءُ القوم هو الذي تُعرف به ديارهم؛ لأن القبائل كانت تَقطن عند المياه، وكانوا يُكَنِّونَ عن أرض القبيلة بماء بني فلان، فالمعنى: ولما ورد، أي عندما بلغ بلادَ مدين. ويناسب الغريب إذا جاء ديارَ قوم أن يقصد الماء؛ لأنه مجتمعُ الناس، فهناك يتعرف لمن يصاحبه ويضيفه.³

ومدين: مدينة على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي مدينة قوم شعيب سميت بمدينَ بن إبراهيم، عليه السلام.⁴

¹ حقائق الروح والريحان: 145/21.

² المفردات، ص: 865.

³ التحرير والتنوير: 98/20.

⁴ ينظر: معجم البلدان لشهاب الدين ياقوت الحموي 77/5.

﴿أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ الذود: السوق، والطرء، والدفع¹؛ قال السجستاني: "تذودان: تَكْفَان غنمهما. وَأَكْثَرُ مَا تَسْتَعْمَلُ فِي الْغَنَمِ وَالْإِبِلِ"²، والذود من الإبل: العشرة³، ورجلٌ ذائد وذواد، أي حامي الحقيقة دَقَّاعٌ"⁴

وقد جمع هذا المعاني ابنُ فارس بقوله: "الذال والواو والذال أصلان: أحدهما تنحية الشيء عن الشيء، والآخر جماعة الإبل؛ ومحتمل أن يكون البابان راجعين إلى أصل واحد"⁵. والمعنى: أن موسى لما وصل ماء مدين وجد امرأتين مبتعدتين عن الساقين، تمنعان إبلًا⁶؛ وإنما كانتا تذودان، لأنّ على الماء من هو أقوى منهما، فلا يتمكنان من السقي. وقيل: كانتا تكرهان المزاحمة على الماء. وقيل: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم، وقيل: تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما⁷.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ الخُطْبُ: سبب الأمر، تقول: ما خطبك؟ أي: ما أمرك؟⁸ ويقال: هذا خطبٌ جليل: أي أمر جليل، وهذا خطب يسير: أي أمر يسير، والجمع: خطوب⁹. قال الراغب: "الخطب: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِي﴾ [طه: 95] ، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: 31]"¹⁰

¹ تاج العروس: 74/8.

² غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب لمحمد بن عزيز السجستاني، ص: 151

³ المفردات، ص: 335.

⁴ الصحاح: 471/2.

⁵ مقاييس اللغة: 365/2.

⁶ التحرير والتنوير: 99/20.

⁷ الكشف: 400/3.

⁸ تهذيب اللغة: 111/7، وينظر: العين: 226/4.

⁹ شمس العلوم: 1837/3.

¹⁰ المفردات، ص: 286.

قال الزمخشري: "ما حَطْبُكُما ما شَأْنُكُما؟ وحقيقته: ما مخطوبكما؟ أي: مطلوبكما من الذِّيد، فسُمِّي المخطوب حَطْبًا، كما سُمي المشئون شَأْنًا في قولك: ما شَأْنُكَ؟ يقال: شَأْنْتُ شَأْنَهُ، أي قصدت قصده"¹.

﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾^{٢٣}: قال ابن فارس: "الصاد والذال والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على خلاف الورد، والآخر صدر الإنسان وغيره. فالأول: قولهم: صَدَرَ عن الماء، وصدر عن البلاد، إذا كان وَرَدَهَا ثم شَخَصَ عنها...، وأما الآخر: فالصدرُ للإنسان، والجمع: صدور، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^{٤٦} [الحج: 46]².

قال الراغب: "الصدرُ: الجارحة. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾^{٢٥} [طه: 25]، وجمعه: صدور... ثم استعير لمقدّم الشيء كصدر القناة، وصدر المجلس، والكتاب، والكلام"³. قال ابن قتيبة: هو "رجوع المسافر من مقصده، والشارية من الورد."⁴

﴿الرِّعَاءُ﴾^{٢٤}: قال الراغب: "الرعي في الأصل: حفظُ الحيوان، إما بغدائه الحافظ لحياته، وإما بِذَبِّ العدو عنه. يقال: رعيته، أي: حفظته، وأرعيته: جعلت له ما يرعى. والرعي: ما يرعاه، والمرعى: موضع الرعي، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾^{٥٤} [طه: 54]⁵.

¹ الكشاف: 401/3.

² مقاييس اللغة: 337/3.

³ المفردات، ص: 477.

⁴ النهاية في غريب الحديث: 15/3.

⁵ المفردات، ص: 357.

وفعله رعى فتارة يأتي لازما، وتارة متعديا، فيقال: رعى إبله، ورعت الإبل؛ والراعي الوالي والحافظ، ومنه في رعاية الله، أي في حفظه.¹

والرعاء: جمع راع على غير قياس؛ لأن فاعلاً - الوصف المعتل اللام، كقاضٍ - قياسه فُعلة، كفضاة وزمارة، خلافاً للزمخشري² في قوله: إنه جمع راع على فعال قياس، كصيام وقيام³. والمعنى: أن المرأتين أجابتا نبي الله موسى "بأنهما كرهتا أن تسقيا في حين اكتظاظ المكان بالرعاء، وأنها تستمران على عدم السقي كما اقتضاه التعبير بالمضارع إلى أن ينصرف الرعاء"⁴.

﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ سبق الحديث عن معنى (قَصَّ)، في اللغة، وهنا أنقل بعض ما قيل في معناها هنا. قال الهروي: "﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: وحدته حديثه مع فرعون وآله، في كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد، وتآمرهم على قتله، وهربه منهم بعد الذي علمه. والقصاص مصدر، سمي به المفعول كالعلل؛ أي: المخصوص، يعني: أخبره بجميع ما اتفق له، من عند قتله القبطي إلى عند وصوله إلى ماء مدين"⁵.

﴿عَآءِ اَنَسٍ مِّنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أنست من الأنس وهو الظهور؛ قال الراغب: "الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش. قالوا: الإنس: خلاف الجن، وسموا لظهورهم. يقال: أنست الشيء: إذا رأيته. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ اَنَسَ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: 6]. ويقال: أنست الشيء: إذا سمعته"⁶.

¹ شمس العلوم: 2547/4.

² الكشف: 401/3.

³ حقائق الروح والريحان: 180/19.

⁴ التحرير والتنوير: 100/20.

⁵ حقائق الروح والريحان: 151/21.

⁶ المفردات، ص: 145.

وَأَنسَهُ: نقيض أوحشه¹، وسمي الإنس إنسيين لأنهم يُرون فيؤنسونه، والجنُّ جنا لأنهم مجنونون عن رؤية الناس متوارون عنهم²

والمعنى أن موسى عليه السلام لما كان راجعا من مدينَ أحسَّ وأبصر من جانب الجبل الذي اسمه الطور نارا³

قال ابن كثير: "قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خُفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلَّك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلا فجعل كلما أوري زنده لا يضيء شيئا، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك [إذ] (آنس من جانب الطور نارا) أي: رأى نارا تضيء له على بعد"⁴

﴿أَوْجَذَوْهُ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٢٩) الجذوة: الجمرة الملتهبة والجميع جذئ وجذئ⁵، قال الراغب: "الجدوة والجدوة: الذي يبقى من الحطب بعد الالتهاب، والجمع: جذئ. قال عز وجل: ﴿أَوْجَذَوْهُ مِنَ النَّارِ﴾ [القصص: 29]"⁶، وقيل إنها الخشبة التي يُشعل فيها النار⁷، وبعضهم خصَّها بما ليس لها لهب، قال أبو حيان: الجدوة: "قطعة غليظة من الحطب فيها نار لا لهب لها."⁸ وقال أبو عبيدة: "الجدوة مثل الجذمة، وهي القطعة الغليظة من الخشب، كان في طرفها نار أو لم يكن"⁹، والآية الكريمة تنصر هذا القول، لأن الله عز وجل قيدها بكونها: من النار¹⁰.

¹ ينظر: شمس العلوم: 342/1.

² تاج العروس: 408/15.

³ الهداية إلى بلوغ النهاية: 5525/8.

⁴ تفسير القرآن العظيم: 234/6.

⁵ مجمل اللغة لا بن فارس، ص: 181.

⁶ المفردات، ص: 190.

⁷ الغريبين في القرآن والحديث: 327/1.

⁸ تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، ص: 91.

⁹ الصحاح: 2300/6.

¹⁰ حقائق الروح والريحان: 159/21.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٢٩) تصطلون: على وزن تَفْتَعِلُونَ من الصلي؛ وأصل الكلمة: صَلَى، زيدت عليها تاء الافتعال، ثم قُلبت طاءً لوقوع حرف من الأحرف الإطباق قبلها، يقال: اصطليْتُ النارَ وبالنار، استدفأت بها¹.

وقد أرجع ابن فارس أصلَ الكلمة إلى أمرين فقال: "الصاد واللام والحرف المعتل أصلان: أحدهما النار وما أشبهها من الحمى، والآخر جنس من العبادة. فأما الأول: فقولهم: صليت العود بالنار... وأما الثاني: فالصلاة وهي الدعاء"².

والمعنى: أن موسى عليه السلام رأى ناراً ملتهبة فأخبر أهله بأنه يريد الذهاب إليها لعله يجد من يُرشده إلى الطريق لأنه قد ضلَّها، أو يأخذُ معه ناراً يستدفئون بها.³ وفي الآية إشارة إلى أن النار لم تكن مادية لأنه رآها ولم يرها أهله⁴.

﴿شَاطِئِ الْوَادِئِ﴾^(٣٠) الشاطئ: الجانب؛ وشاطئ الوادي جانبه، قال تعالى ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِئِ﴾ [القصص: 30] ، وشطء النخل والزرع فروعه التي تخرج من جانبه، ومنه قول الله عز وجل: ﴿كَرَّعَ أَخْرَجَ شَطْءَهُ﴾ [الفتح: 29]، ويقال: شاطأتُ فلانا: ماشيته في شاطئ الوادي.⁵ وقد أرجعها ابن فارس إلى كلمتين، فقال: "الشين والطاء والهمزة فيه كلمتان: إحداها الشطء: شطء النبات، وهو ما خرج من حول الأصل، والجمعُ أشطاء. وقد شَطَّأتِ الشجرة. قال الله جل

¹ ينظر: لسان العرب: 468/14 والمجموع المغيث في غربي القرآن والحديث لمحمد بن عمر الاصبهاني: 288/2.

² مقاييس اللغة: 300/3.

³ جامع البيان: 428/19 وزهرة التفاسير: 5434/10.

⁴ الخواطر للشيخ الشعراوي: 18/10913.

⁵ المفردات، ص: 455.

ثناؤه: ﴿كَرَّرَ أَخْرَجَ شَطْطَهُ﴾^١. والأصل شاطئ الوادي: جانبه. وشاطأ الرجل: مشيت على شاطئ ومشى هو على الشاطئ الآخر. وهما متباينتان.¹

﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾^٢ قال الراغب: "الجناح: جناح الطائر، يقال: جنح الطائر، أي: كسر جناحه، قال تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام/ 38] ، وسمي جانباً الشيء جناحيه، فقليل: جناحاً السفينة، وجناحاً العسكر، وجناحاً الوادي، وجناحاً الإنسان لجأنيته، قال عز وجل: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾^٣ ، أي: جانبك، عبارة عن اليد، لكون الجناح كاليد، ولذلك قيل لجناحي الطائر يده.²

والجنوح: الميل، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾³.

" وسمي الجناحان جناحين لميلهما في الشقين. والجناح: الإثم، سمي بذلك لميله عن طريق الحق"⁴

﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾^٥ قال الخليل: "الردء مهموز، وتقول: ردأت فلانا بكذا أو كذا أي جعلته قوة له وعماداً، كالحائط تردؤه برء من بناء تلزقه به، وأردأته أي أعنته وصرت له رء أي معينا. والردوء: الأعوان، وترادأوا أي تعاونوا. وقد أردأ هذا الأمر على غيره أي زاد، يهمز ويلين"⁵.
قال الراغب: "الردء: الذي يتبع غيره معينا له. قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: 34]"⁶

¹ مقاييس اللغة: 3/130، وحدائق الروح والريحان: 19/181.

² المفردات، ص: 207.

³ شمس العلوم: 2/1189.

⁴ مقاييس اللغة: 1/481.

⁵ العين: 8/67.

⁶ المفردات، ص: 350.

وقال الجوهري: "رَدُّ الشئ، يردُّ رداءة، فهو ردئ، أي: فاسد. وأردأته: أفسدته. وأردأته أيضا بمعنى: أعتته. تقول: أردأته بنفسي، إذا كنت له رداء، وهو العون."¹

والمعنى: أرسل معي أخي هارونَ نبيًّا يكون عونًا لي على الدعوة، ومقويًّا لي أمام فرعون "بأن يُلخص بفصاحته ما قلته وبَيَّنَّته، ويقيم الأدلة عليه حتى يصير كالشمس وضوحاً، فيكون - مع تصديقه لي بنفسه - سبباً في تصديق غيره لي"²

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ العَضُدُ: الساعد، وهو من المرفق إلى الكتف، والعَضُدُ: المعين، تقول: عضدته أعضده بالضم: أعتته، والعَضد القطع، تقول: عضدت الشجر أعضده بالكسر، أي قطعته بالمعضد³

وعَضُدُ الرجل: أنصاره وأعوانه. والاعتضاد: التقوي والاستعانة⁴.

وقد جعله ابن فارس حقيقة في الجارحة مجازاً في غيرها، فقال رحمه الله: "العين والضاد والذال أصل صحيح يدل على عضو من الأعضاء؛ يُستعار في موضع القوة والمعين. فالعضد: ما بين المرفق إلى الكتف، يقال عضد وعضد، وهما عضدان، والجمع أعضاد. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51]. قال ابن الأعرابي: عضُد الرجل: قومه وعشيرته⁵.

﴿الطَّلِينَ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ قال الخليل: "الصرح: بيتٌ منفرد يُبنى ضخماً طويلاً في السماء، ويُجمع الصروح"⁶ والصریح من الخيل والرجال: المحض الحسب، وجمعه: صرحاء، وجمع الخيل: الصرائح. وصریح النصح: محضه"

¹ الصحاح: 52/1.

² نظم الدرر: 284/14.

³ ينظر: الصحاح: 509/2.

⁴ تهذيب اللغة: 288/1.

⁵ مقاييس اللغة: 348/4.

⁶ كذا فيما وقفت عليه من طبقات العين، ولعل الصواب (يجمع على الصروح)، ينظر: العين: 314-315.

قال الأزهري: "الصرح في اللغة: القصر، والصَّحْنُ، يقال: هذه صَرْحَةُ الدار وقارَعْتُها أي ساحتها. وقال بعض المفسرين: الصرْحُ: بلاط اتخذ لها من قوارير. وقال الليثُ: الصرْحُ: بيت واحد يبنى منفردا ضخما طويلا في السماء، وجمعه صروح. قال: والصريح: المحض الخالص من كل شيء"¹

والمعنى: أن فرعون أمر وزيره هامانَ ومديرَ رعيته ومشيرَ دولته أن يوقدَ له على الطين، ليتخذ له آجرا لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع، وقيل إنه بنى هذا الصرح الذي لم يُر في الدنيا بناءً أعلى منه، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيبَ موسى فيما زعمه من دعوى إلهٍ غيرِ فرعون².

﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ﴾ الثواءُ الإقامة، يقال: ثوى بالمكان: أقام به، وثوى كَمْضَى بمضى مَضَاءً وَمَضِيًّا، فيقال ثوى يثوي ثواءً، وثوى يثوي ثويا، ويقال: ثويت البصرة، وثويت بالبصرة. وأثويت بالمكان لغة في ثويت. والثوى، على فاعيل: الضيف. وأبو مثوى الرجلُ: صاحب منزله.³

قال الخليل: "الثواء: طول المقام، وقد ثوى يثوي ثواءً. ويقال للمقتول: قد ثوى. ويقال للغريب المقيم ببلدة: هو ثاويها، والمثوى: الموضع. وأثويته: حبسته عندي. والثوي: بيت في جوف بيت، وقيل: هو البيت المهيأ للضيف. والثوي: الضيف نفسه"⁴.

قال ابن كثير: "أي وما كنت مقيما في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا، حين أخبرت عن نبينا شعيب، وما قال لقومه، وما ردوا عليه، ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾" أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك للناس رسولا"⁵.

¹ تهذيب اللغة: 4/139.

² ينظر جامع البيان: 19/580،

² المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي: 4/288 تفسير القرآن العظيم: 6/238.

² المحرر الوجيز: 4/288

³ ينظر: الصحاح: 6/2296.

⁴ العين: 8/252، وينظر: جهرة اللغة لابن دريد الأزدي: 1/230، وتهذيب اللغة: 15/120.

⁵ تفسير القرآن العظيم: 6/240.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ قال الخليل: "القبحُ والقباحة: نقيض الحسن، عام في كل شيء. وقبحه الله: نحاه عن كل خير وقوله تعالى: ﴿هُم مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي المنحين عن كل خير. قال زائدة: المقبوح الممقوت"¹
ابن فارس: "ومما شذ عن الأصل وأحسبه من الكلام الذي ذهب من كان يحسنه، قولهم كسر قبيح، وهو عظم الساعد، النصف الذي يلي المرفق."²
هذا ما ظهر لي من الألفاظ التي تحتاج إلى شرح وبيان، فإن وفقت فالفضل لله وحده، وإن أخطأت فاستغفر الله وأتوب إليه.

¹ العين: 53/3، والصحاح: 394/1.

² مقاييس اللغة: 45/5.

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هداياتها.

من تأمل السورة يجد كيانها يقوم" على قصة موسى وفرعون في البدء، وقصة قارون مع قومه - قوم موسى - في الختام..¹

وقد اشتملت هذه السورة المباركة على التنويه بآيات القرآن المبين، وعلى تفصيل ما أجمل في سورة الشعراء "من قول فرعون لموسى ﴿الْمُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ إلى قوله ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (الشعراء: 19)، ففصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون².

كما اشتملت على حكاية ما حدث لقوم موسى من فرعون، حيث كان يذبح أبناءهم ويستبقي بناتهم، وأنه - تعالى - شاء إنقاذهم من هذه المحنة؛ فنجى موسى من القتل، وألهم أمه أن تصنع له تابوتًا، وتلقيه في النيل ليجو، وليعود إليها لتربيته في حضنها، وليكون رسولا فيما بعد إلى قومه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فامتثلت أمر ربها، فساقته المياه إلى قصر فرعون، فالتقطه آله ليكون لهم عدوًا وحزنًا، وليخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون وأعدائه، ويجعل هلاكه وجنوده على يد من رباه في كنفه.

وقد رزق الله زوج فرعون حبه، ففرحت به فرحا شديدا، وخاطبت زوجها قائلة: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ معللة رأيها بقولها: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾

وشاء الله أن يرفض كل المراضع ليرجع إلى أمه كما وعدها الله، ولتقر عينها ويطمن قلبها، ولتكون قصتها عبرة لمن يأتي بعدها.

ولما بلغ أشده آتاه الله حكما وعلمًا، وجعل من همه إنصاف بني إسرائيل، ودفع أذى القبط عنهم، حيث دخل: ﴿الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ

¹ في ظلال القرآن: 2674/5.

² التحرير والتنوير: 62/20.

عَلَيْهِ قَالَهُ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ واستغفر ربه من ذلك قائلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

فلما شاع خبره، وقرّر ملاً فرعون قتله جاءه ﴿رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ فخرج منها متجهاً إلى مدين:، فلما ورد ماءها، وسقى للمراتين: ﴿تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ فجاءته إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وانتهى أمره مع أبيها إلى الزواج من إحدى ابنتيه على أن يكون أجيراً عنده ثماني سنين، فإن أتم عشرًا فمن عنده، فلما قضى الأجل وسار بأهله رأى نارا بجانب الطور وكانت امرأته بحاجة إلى الاستدفاء بالنار لشدة البرد ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَكُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾﴾ وهنا شرفه الله بالرسالة إلى فرعون وملئه فرد قائلا: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٧﴾﴾ وطلب من الله أن يشرك معه أخاه في رسالته ليكون عوناً له فإنه أفصح منه لساناً، فاستجاب له ربه قائلا: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ مَا يُغْلِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

فلما جاء إلى فرعون بالرسالة أعرض واستكبر، وخاطب جنده في استعلاء واستهزاء وطلب منهم بناء صرح يصل به إلى السماء، لمنازلة رب العالمين، فكانت عاقبته الغرق: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ وَفَبَذَلْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم بين الله تعالى ما لهذه القصة من الدلالة على نبوة محمد ﷺ فقال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم عابّت هذه السورة عليهم أنهم لما جاءهم القرآن الحق من عند الله معجزة لنبيهم محمد، سألوه أن يأتيهم بكتاب من السماء جملة واحدة، كما جاء موسى قومه بالتوراة جملة واحدة، فأفحمهم الله

بأنهم كفروا بما أوتي موسى من قبل قائلين: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ مُّؤْتُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ فلا هم لهم إلاّ المكابرة والعناد، ثم بينت أن بعض أهل الكتاب لما ثلّبي عليهم آمنوا به قائلين: {إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا} وأنهم إذا سمعوا لغوهم فيه أعرضوا عنه، ثم نعت عليهم شركهم، وذكرت أن الله تعالى أمر نبيه أن يستخبرهم عن يأتيتهم بضياء يبصرون فيه إن جعل الله عليهم الليل مستمرًا وسرمداً إلى يوم القيامة، أو يأتيتهم بليل يسكنون فيه إن جعل عليهم النهار كذلك؟ وأنه - تعالى - هو الذي تفضل عليهم برحمته فجعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليبتغوا فيه من فضله ولعلهم يشكرون وأنه سوف يناديهم يوم القيامة فيسألهم: {أَيَّنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} وأن الحق سوف يظهر لله عليهم، بشهادتهم على أنفسهم.

ثم حكى قصة قارون، فبينت أنه من قوم موسى، فلما أغناه الله بغى عليهم، وطغى وأعرض عن الآخرة، وزعم أن ما أوتيته على علم عنده، فلم يسند الفضل فيه لرب العالمين، فخسف الله به وبداره الأرض، وما نفعه ماله ولا كبرياؤه ولا أتباعه، ثم ذكرت أن الدار الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين.

ثم تحدثت عن فضل الله وعدله في قضائه يوم القيامة، وذكرت أن ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٥٤﴾. ثم ختمت السورة بدعاء كل مكلف إلى توحيد الله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٨﴾¹.

وصلى الله وسلم على سيد الأنبياء وإمام المرسلين.

¹ ينظر: التفسير الوسيط (مجمع البحوث): 1730/7-1732، وفي ظلال القرآن: 2673/5-2675، والتفسير الوسيط للطنطاوي: 369/10-372، والتحرير والنوير: 63/20.

الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة القصص من الآية [01] إلى الآية [50]، وربط ذلك بواقع الأمة.

تمهيد:

سبق القول أن سورة القصص من السور التي تحكي واقعا مشابها للواقع الذي نزلت فيه زمن النبي صلى الله عليه، فإن دُرست دراسةً جيدة، واستُخرجت منها الهدايات بطرق صحيحة فإنها ستسهم في حل مشاكل الأمة بشكل كبير؛ لأن واقعا غير بعيد عن الواقع الذي تحدثت عنه، ولا الواقع الذي نزلت فيه أيضا.

ولتكون الصورة واضحة عنها نحتاج إلى إلى الوقوف على كل آية لا تستخرج آياتها، لتجمع كل الايات، ويرى من منها يتعلق بجزئية معينة، أو يختص ببعض دون بعض، ومن منها يكون بمثابة قاعدة عامة تنطبق على جز جزئيات أفرادها، ثم ننظر في العلاقات بينها لنرى المناسبات، والخصائص التي تميزت بها غيرها، والأساليب التي أدت بها، لنخلص في النهاية إلى تنزيهاها على أرض الواقع، ورسم الملامح العامة التي تكون عليها الأمة إن طبقت وفق السبل التي رسمت.

لذا تناولت هذا الباب من خلال ثلاثة فصول، خصصت الأول منها للهدايات بنوعيتها أعني الجزئية والكلية، والثاني للمناسبات، والخصائص والأساليب، والثالث لواقع الأمة في ضوء هداياتها، والآثار المترتبة على تنزيهاها.

الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في آيات السورة.

شأن الهدايات القرآنية شأن الأحاديث النبوية التي منها ما يعطي معنى خاصا، ومنها ما يكون معناه عاما كما سبق أن قررت في سورة النمل، وقد قسمت هذا الفصل كسابقه إلى مبحثين: مبحث للهدايات الجزئية، ومبحث للهدايات الكلية.

المبحث الأول: الهدايات الجزئية في آيات السورة.

الآية الأولى، قال تعالى: ﴿طَسَّرَ ١﴾

سبقَت الإشارة إلى أن الحروف المقطعة مما اختلف فيه أهل العلم، فرآها بعضهم معقولةً المعنى، وهؤلاء اختلفوا، فبعضهم اعتبرها مقسماً بها، وبعضهم قال: إنها أسماءٌ للسور... ورآها بعضهم سرّاً من أسرار الله، لا سبيل إلى إدراكه، امتحنَ به أوليائه، وأعجزَ به خلقه، وأقام به الحجة على فصحاء العرب وبلغائهم؛ وهذا الرأي هو الذي تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب¹، لكون الأول غير مبني على أصول علمية لغوية، ولا أصولية، ولا عن روايات صحيحة عن النبي ﷺ، وإنما عن اجتهد بشري قابل للصواب والخطأ.

وإذا كان الأمر هكذا فإني تركتها، واكتفيت بما قال فيها بعض أهل العلم من كونها حروفاً أعجز الله بها العرب عن الإتيان بكتاب مركب من مثل أحرفها، يجمع بين الكمال في البلاغة، والعدل في الأحكام، والصدق في الأخبار...؛ لأن الهداية مبنية على تعقل المعنى؛ والمعنى هنا غير مدرك، فتعين السكوت، وتفويض الأمر لله تعالى.

¹ سبق الحديث عنها عند مفردات السورة.

الآية الثانية قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها منها:

(1) في الآية إشارة إلى أن القرآن الكريم مبين للناس أنه من عند الله، وليس من أقوال محمد صلى الله عليه وسلم¹، ومبين أيضا أنه لا لبس فيه ولا خفاء؛ ذلك أن الله وصفه بالمبين الذي هو اسم فاعل من أبان بمعنى أظهر، أو بمعنى ظهر.

(2) في الآية إشارة إلى أن كتاب الله مبين أن نبوة محمد ﷺ حق لا يقدر على الإتيان بمثلها أحد².

(3) في إتيان الله بلفظ الكتاب بدل القرآن إشارة إلى أن ما أوحاه الله إلى نبيه ﷺ جمع فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان من المواعظ والقصاص والأوامر والنواهي، وما تفرق في غيره من المقاصد التي نزلت على الأنبياء والمرسلين³.

(4) في الآية إشارة إلى أن آيات هذه السورة مبينة للحق من الباطل، والحلال من الحرام، والمخرج من الشبهات⁴، هذا؛ لأن الله أطلق البيان ولم يقيده، والأصل في المطلق أن يبقى على إطلاقه حتى يأتي قيد يقيده، فكل ما يحتاج إلى بيان، أو يدخل ضمن المبين، فالآية صالحة للدلالة عليه.

(5) في الآية إشارة إلى أن القرآن الكريم أعظم معجزات النبي ﷺ؛ ذلك أن الله أضافه إليه باعتباره مخبرا عنه⁵؛ والمضاف يعظم قدره بعظم قدر المضاف إليه.

(6) في الآية إشارة إلى أن القرآن سيكمل ويكون على شكل كتاب، والواجب على المسلمين أن يضموا بعضه إلى بعض حتى يصير على شكله، وإن لم ينزل على هيئته⁶.

(7) في الآية إشارة إلى أن الإنسان قد يبحث عن مسألة معينة في جميع المصادر فيكمل ويكمل دون أن يشفي غليله، أو يجد ضالته، فإذا رجع إلى القرآن الكريم وجدها ظاهرة بينة⁷.

¹ ينظر: جامع البيان: 512/19.

² معاني القرآن للزجاج: 131/4.

³ ينظر: بصائر ذوي التمييز: 329/4.

⁴ ينظر: مفاتيح الغيب: 577/24.

⁵ ينظر: البحر المحيط: 285/8.

⁶ ينظر: معارج التدبر: 340/9.

⁷ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 9.

(8) في الآية إشارة إلى أن من أراد أن يتعرف على الله فعليه بالآيات الموجودة في كتابه؛ لأنها جليلة القدر، رفيعة المنزلة، لا تُقَارَن، ولا تضاهى بأية آية أخرى؛ دل على هذا الإشارة إليها بالبعيد ﴿تِلْكَ﴾.

(9) في الآية إشارة إلى أن كل ما يأتي من عند الله فيه مصلحة للعباد في الدنيا والآخرة؛ ذلك أن الله وصف كتابه بالمبين الذي يُقصد منه إظهار سبيل النجاة لتُسلَك، وسبيل الهلاك لتُتْرَك.

(10) في الآية إشارة إلى أن آيات الله التي ضمَّنها كتابه واضحة بينات لا خفاء فيهن ولا لبس؛ دليل هذا اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ المنبئة على أنها كالحسيات المدركة بالبصر.

(11) في الآية إشارة إلى أن القرآن الكريم يتضمن آيات كثيرة واضحة، كل منها يناسب صنفاً من الناس، إذ فيها ما يتعلق بالبيان العربي، وفيها ما يتعلق بالقصص، وفيها ما يتعلق بالمواعظ والعبر...؛ دل على هذا جمع آية.

(12) في الآية إشارة إلى أن هناك آيات أخرى دالة على الله، غير التي في كتابه العزيز؛ إلا أن الاهتمام الأكبر ينبغي أن يُصرف إلى الآيات الشرعية؛ لأنها لا لبس فيها ولا خفاء، بل فيها البيان الشافي، والإقناع الكافي؛ دل على هذا مفهوم المخالفة المستفاد من الإضافة ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾.

(13) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله ينبغي أن يركِّز على الألفاظ التي تخدم دعوته، ويترك غيرها مما يُدرك بالسياق أو القرائن، ويَرمِزُ إليها بقرينة؛ ذلك أن الله اقتصر على اسم الإشارة الذي يصح أن يكون مبتدأ، وحذف الخبر لكون المقصود متحققاً بالمذكور الذي يُمكن أن يكون أيضاً خبراً، والمحذوف مبتدأ..

(14) في الآية إشارة إلى أن لفظ الكتاب في القرآن صار علماً بالغلبة على ما أُوحِيَ إلى سيدنا مُحَمَّد ﷺ؛ وعليه فلا يُحمل على غيره من الكتب السماوية السابقة إلا بقرينة، كأن يُنسب إلى موسى، أو بني إسرائيل أو ما شابه ذلك؛ أما إذا أُطلق فلا يُصرف إلا إلى القرآن الكريم؛ لأن أسماء الأجناس قد تصير علماً بالغلبة، كالمدينة والعقبة ونحوهما.

(15) في الآية إشارة إلى أن القرآن الكريم سيُجمع ويكون على شكل كتاب؛ ذلك أن الله تعالى سماه بالكتاب، ولا يكون كذلك إلا إذا كان مجموعاً.

(16) في الآية إشارة إلى أن القرآن الكريم كان معلوماً عند العرب؛ ذلك أن الله تعالى أتى به معرفة، ولا يعدل عن النكرة إلى المعرفة إلا لمسوغ.

(17) في الآية إلى أن آيات الله الماثبة في القرآن الكريم عظمة القدر، جليلة الفائدة؛ ذلك أن الله تعالى أضافها لنفسه، والمضاف إلى العظيم عظيم.

(18) في الآية إشارة إلى أن بيان القرآن الكريم للحقائق المتعلقة بالله، أو بالوجود، أو بالدنيا والآخرة معلوم لذوي البصائر، وأصحاب العقول؛ ذلك أن الله أتى بالبيان معرفة (المبين) ليشعرنا بأن بيانه لا يخفى على كل ذي بصيرة.

(19) في الآية إشارة إلى أن العبرة في الكتاب ببيانه لا بقيمة صاحبه، ولا بشهرته؛ ذلك أن الله تعالى وصف القرآن بالإبانة.

(20) في الآية إشارة إلى أن الدعوة الناجحة هي التي يؤتى فيها بالدليل الذي يعم الجميع، ويناسب الجميع في آن واحد؛ ذلك أن الله نسب الآيات للكتاب، ولم يحدد الذين جاءت إليهم، ثم نوعها نوعها لتناسب الجميع مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٨٩﴾ الإسراء: ٨٩

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

من الهديات التي يمكن أخذها منها:

(21) ما أخبر الله به من أحداث عن موسى وفرعون إنما هو جزء مما حصل، لا كل ما حصل؛ لأن الفعل (تلى) يتعدى في الأصل بنفسه، وجاء في الآية متعدياً بحرف الجر، فأفاد التبعية¹.
(22) في تعليل الله الآية بوصف الإيمان إشارة إلى أن الذين ينتفعون بالتلاوة هم المؤمنون فقط دون غيرهم².

(23) في الآية خطابٌ ضمي لكفار قريش، مفاده أن ما أصاب فرعون وقومه سيصيبهم بعينه، أو جنسه؛ لأن سنة الله ثابتة لا تتغير، فمن عادى محمداً ﷺ كمن عادى موسى، أو عيسى أو غيرهما من الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً أفضل الصلوات والتسليم³.

(24) في الآية دليل على "أن القصص يُسمى تلاوة، يقال: قصَّ علينا القصة، إذا تلاها علينا، وذلك مأخوذ من قوله تعالى ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: 3]⁴.

(25) في الآية إشارة إلى أن قصة موسى مع فرعون من أهم القصص في القرآن، لذلك تكفل الله بقصتها على النبي ﷺ في مواضع متعددة⁵.

(26) في الآية دليل قاطع على نبوة محمد ﷺ، وحجة بالغة على بني إسرائيل؛ ذلك أنه أخبر بنبي عظيم يتعلق بفرعون وموسى، والنبأ إما أن يكون من التعلُّم، أو الوحي، فبطل التعلُّم بشهادة الواقع، إذ يعلم القاصي والداني أنه لم يسبق له أن تعلم، وبقي الوحي⁶؛ ووجه الدلالة في الآية السبر والتقسيم الضمني.

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 577/24، والبحر المحيط: 285/8.

² ينظر: الكشف: 391/3، والبحر المحيط: 285/8.

³ ينظر: جامع البيان: 513/19.

⁴ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 10.

⁵ ينظر: المصدر السابق 11.

⁶ ينظر: نظم الدرر: 236/14.

(27) في الآية إشارة إلى أن ما قصَّه الله عن بني إسرائيل مع فرعون عظيم الشأن جليل القدر، حريٌّ بالعقلاء أن يتأملوه، وبالعلماء أن يحللوه لاستخراج عبره، وبيان أسرارهِ وحكمهِ؛ دليل هذا لفظ (نبأ) الذي يدل على الأمر المهم.

(28) في الآية إشارة إلى أن القصص سبب لزيادة الإيمان، كما أنه سبب لحدوثه، فمن دلالة على زيادته لفظ المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ الدال على التجدد والاستمرار، ومن دلالة على حدوثه قول الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111]¹.

(29) في الآية إشارة إلى أن ما تلي من نبأ موسى وفرعون إنما لأجل أن يؤمن العبادُ بالله رباً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً؛ دليل هذا لامُ التعليل في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ﴾².

(30) تشير الآية إلى استحسان التشويق للخطاب الذي له شأنٌ بمقدمات تجعله مستساغاً في الأذهان، ومتقبلاً عند القلوب؛ ذلك أن الله أتى ب ﴿نَتَلَوْا﴾ قبل النبأ للتشويق إلى المتلو³.

(31) في قوله تعالى: "﴿نَتَلَوْا عَلَيْكَ﴾" بإسناد الفعل إلى الله سبحانه وتعالى، مع أن الذي يتلو هذه الآيات على النبي، هو جبريل - في هذا تكريم للنبي، وإدناء له من ربه، الذي يتلو عليه هذه الآيات..⁴

(32) في الآية إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن ينظر إلى القرآن أثناء قراءته كأنه نازلٌ عليه يخاطب وجدانه وعقله كما نزل على قلب رسول الله ﷺ؛ دل على هذا الفعل المضارع ﴿نَتَلَوْا﴾⁵.

(33) في الآية إشارة إلى أن ما أوحى إلى رسول الله ﷺ هو نفسه الموجود في اللوح المحفوظ، كلمة كلمة وجملة جملة، وآية آية⁶؛ دل على هذا الفعل ﴿نَتَلَوْا﴾ الذي قد يكون بمعنى نتبع.

¹ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 11.

² ينظر: التحرير والتنوير: 64/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 64/20.

⁴ التفسير القرآني للقرآن: 308/10.

⁵ ينظر: معارج التدبر: 342/9.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 342/9.

(34) في الآية إشارة إن أن ما أوحى على رسول الله ﷺ متلبسٌ بالحق لا ينفك عنه بحال، فلا يخالطه شكٌ، ولا يداخله ريب؛ دل على هذا حرف الباء الدالُّ على المصاحبة¹.

(35) في الآية إشارة إلى أن الذي يُتلى له شأنٌ عظيم يستحق رعي الأسماع، وتأمل القلوب، يستشف هذا من وصفه بالنبأ دون الخبر².

(36) تشير الآية إلى أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يُدركون الحلقة المفرغة في القصة، ولم يكتفوا بالاستماع والاعتبار فقط؛ ذلك أن سورة الشعراء والنمل ذكرتا قصة موسى عليه السلام مع فرعون فأدرك الصحابة أن القصة ما زال فيه شيء، فتشوقت نفوسهم له فجاءت سورة القصص مفصلة ما يحتاج إلى تفصيل، ولعل هذا هو السر في تخصيص الله التلاوة بالمؤمنين³.

(37) في وصف الله الصحابة بوصف الإيمان بصيغة المضارع إشارة إلى أن إيمانهم حاصل في الحال، ومتجدد في المستقبل⁴.

(38) في الآية إشارة إلى أن الأخبار الواردة في السورة وغيرها مما يتعلق بموسى وفرعون هي الحق الذي لا حق بعده، وأن ما جاء في العهد الجديد أو القديم محرفٌ لا يصلح للاعتبار والاتعاظ⁵؛ دلَّ على هذا لفظُ الحق الذي قيَّد في التلاوة.

(39) تشير الآية إلى حقيقة لغوية وهي: أن الخبر لا يطلق عليه نبأٌ إلا إذا كان ذا "فائدة عظيمة يحصل به علمٌ أو غلبة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأٌ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثلاثة، وحقُّ الخبر الذي يقال فيه نبأٌ أن يتعرَّى عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي عليه الصلاة والسلام"⁶.

¹ ينظر: المصدر السابق: 343/9.

² ينظر: التحرير والتنوير: 64/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 64/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 65/20.

⁵ الأساس في التفسير: 4059/7.

⁶ المفردات في غريب القرآن، ص: 789.

(40) في الآية إشارة إلى أن الذي ينتفع بالقرآن، ويكون له وقع على نفسه هو الذي يقرؤه وكأنه أنزل عليه؛ أشار إلى هذا ضميرُ المخاطب في ﴿عَلَيْكَ﴾ مع أن التلاوة على الجميع، في زمانه صلى الله عليه وسلم، وفي الأزمة اللاحقة له.

(41) في الآية إشارة إلى أن المقصود بتلاوة الآيات هم المؤمنون؛ لأن الله أتى باللام الدالة على الاختصاص، ولم يأت بغيرها؛ ويؤيد هذا القاعدةُ الأصولية التي تقول: إن الأصل في خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ أنه خطابٌ لأُمَّته عن طريق اللزوم، إلا ما استثني كقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عِمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 50].

(42) في الآية إشارة إلى أدبٍ رفيع في الكلام، وهو إذا اجتمع اسمان أحدهما شريف، والآخر وضع يُقدَّم الشريف على الوضع لفظاً؛ يُستشف هذا من تقديم موسى وعطفِ فرعونَ عليه.

(43) في الآية إشارة إلى أن القارئ لهذه السورة ينبغي أن يقرأها سمعه، ويتأملها بقلبه؛ لأنها ستعرض عليه قصة موسى مع فرعون عرضاً لم يسبق من قبل، ستبدأها من ولادته وطفولته، وتمر على خروجه من مصر، وكسبه في مدين، وصولاً إلى بعثته ودعوته، ثم انتصاره على الظلم وهلاك فرعون وجنوده.

(44) في جمع الله موسى وفرعون في الذكر إشارةً إلى أن الدعاة إلى الله الصادقين في دعواهم يجعلُ الله لهم أعداءً يمنعونهم من دعوتهم، ويطلبون منهم الدخول في سلكهم، ويمنحونهم من العطايا ما يكفيهم وزيادة، ويؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: 31]، والدعاة إلى الله هم ورثة الأنبياء، فليحقهم ما لحقهم.

(45) في الآية إشارة إلى أن قصة موسى وفرعون كانت مشهورةً متداولة بين الناس، إلا أن الباطل قد خالط الحق فيها، أو أنها مُحَضَّت للباطل؛ فجاء القرآن الكريم بعرضها على الحقيقة لينتفع بها المستعدون بفطرتهم للإيمان؛ يشير إلى هذا لفظ (الحق).

(46) في الآية إشارة إلى أن استعمال القوة -إن كان المقام يستدعيها- أثناء توجيه الخطاب إلى المدعوين أشدُّ وقعاً على النفوس من استعمال اللين؛ دل على هذا نونُ العظمة في (تتلو).

(47) في الآية إشارة إلى أن استعمال أسلوب التشويق في الخطاب -في بعض المقامات- أكثر نفعاً من أسلوب الوضوح؛ ذلك أن الله تعالى أتى بالفعل المضارع (نتلو) الدالّ على أن القصة بدأ عرضها، وما زالت أحداثها تترى.

(48) في الآية إشارة إلى أن علو الداعية سواء أكان علوً مكان، أم علو مكانة ورتبة، أدعى لقبول المدعوين دعوتَه؛ ذلك أن الله تعالى أتى بحرف الاستعلاء (على) دون غيره من الحروف؛ ويؤيد هذا واقع الأنبياء والمرسلين، حيث كانوا يُبعثون في أشرف أقوامهم؛ وحيث مثال على هذا سيدنا مُحَمَّد ﷺ الذي اختير من خيار الأخيار.

(49) في الآية إشارة إلى أن الداعية الناجح هو الذي يختار من أحداث التاريخ، أو من قصص الغابرين ما يخدم الهدف، ويناسب المقام، ويترك ما عداه إلى سياق آخر، أو يهمله بالكلية؛ دل على هذا (مِنْ) الدالة على أن المتلوّ بعضُ ما جرى لموسى مع فرعون؛ ويؤيد هذا ما قصه الله في سور أخرى من أحداث موسى مع فرعون أيضاً.

(50) في الآية إشارة إلى أن الإيمان يتجدد مع قراءة قصص الأنبياء والمرسلين، وما جرى لهم مع الطغاة والمجرمين؛ لأن العبد يرى قدرة الله مكشوفةً لكل ذي بصيرة، وضعف العباد بادياً لكل راء؛ دل على هذا (يؤمنون) الدال على أن إيمانهم يتجدد مع كل قراءة، ومع كل حدث وعبرة.

(51) في الآية إشارة إلى أن الذي ينتفع أكثر بأحداث التاريخ هو من زرع الله في قلبه الإيمان، فيكون كالبدرة الذي تُخرج أصلاً تنتج عنه جذور متعددة؛ دل على هذا تعليل الله التلاوة بالإيمان.

(52) في الآية إشارة إلى أن الآيات الماثلة في قصص القرآن عموماً، وفي قصة قوم موسى مع فرعون خصوصاً نافعة لكل الناس؛ فهي لم تنزل للعرب وحدهم، ولا للسابقين وحدهم، وإنما لكل من كان فيه قابلية الإيمان؛ دل على هذا تنكير القوم (قوم) الدال على الماهية دون تحديد الأفراد.

(53) في الآية إشارة إلى أن تحديد الشخص بعينه في الخطاب أقوى تأثيراً من جمعه مع أفراد جنسه؛ ذلك أن الله تعالى أتى بكاف الخطاب (عليك) الدالة على توجيهه لمفرد معين أصالة، مع أنه موجه للجميع بالتبع.

(54) في الآية إشارة إلى أن ادعاء الداعية بأن ما جاء به واضح بيّن لا يخفى على سامع أشدّ تأثيراً في المدعوين مما لو بدأ دعوته بعرض الحجج والبيّنات؛ دليل هذا تقديم الله تعالى وصف كتابه بالإبانة على عرض القصة.

(55) في الآية إشارة إلى أن تقديم الشخص - في بعض الأحيان - على المعلومة التي تلقى إليه أكثر نفعاً من تقديمها عليه؛ لأن هذا يشعره بقيمة نفسه، ويدفعه إلى الاستماع بقوة؛ دل على هذا تقديم المتلو عليه - وهو النبي ﷺ أصالة، وكل قارئ للقرآن تبعاً - على المتلو الذي هو نبأ موسى وفرعون.

(56) في الآية إشارة إلى أن وصف الداعية لبعض ما يدعو إليه بأوصاف حسنة كالحق ونحوه لا يدل على أن غيره فيه الباطل، أو شيء من النقص؛ ذلك أن الله تعالى وصف ما يتلو على موسى بالحق مع أن كل ما تلاه على نبيه ﷺ حق لا مزية فيه.

(57) في الآية إشارة إلى أن التعليل لا ينبغي أن يقتصر على الأحكام وحدها، بل ينبغي أن يشمل كل ما ينفع الناس؛ ذلك أن الله تعالى بيّن أن التلاوة لقوم يتصفون بصفة الإيمان.

الآية الرابعة، قال تعالى: ﴿إِنِّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(58) في الآية: إشارة إلى "أنَّ القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب؛ لأنه فعل لا طائل تحته"¹، ووجه الهداية وصف فرعون بالفساد بعد ذكر ذبحه للأبناء.

(59) في الآية إشارة إلى أن الله قد يبتلي الصالحين بملك ظالم، أو طاغية معتد، يؤذي أجسادهم، ويهتك أعراضهم، وينتقص من أقدارهم، كما حصل لبني إسرائيل الذين كانوا أصلح أهل زمانهم، فسلب الله عليهم فرعون فذبح أبنائهم، وأهان كرامتهم...².

(60) تشير الآية إلى أن أهل مصر في زمن فرعون كانوا يشايعونه وينصرونه رغم ظلمه وتجبره، كما كان يشيع بعضهم بعضا في طاعته³، ويحث بعضهم بعضا على نصرته، والتفاني في خدمته فاستحقوا وصف الله لهم بالفسق كما قال الله عنهم ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: 54]؛ يستشف هذا من لفظ الشيعة الدال على النصرة والاتباع.

(61) العلو في الأرض نتيجة يلزم أن تكون لها أسبابها ومقدماتها، التي منها فساد الرعية، وانتكاس فطرهم حتى يصبحوا خائفين من الخلق أعظم من خوفهم من الخالق، ولعل قول الله تعالى: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: 54] يؤكد هذا المعنى⁴.

(62) في الآية إشارة إلى أن الغباء لا ينحصر في طائفة معينة، ولا يمتاز به الجهال وضعاف العقول، فكما يكون في العوام والجهال، يكون في القادة والرؤساء والزعماء؛ ذلك أن فرعون ذبح وقتل من بني إسرائيل كل من يوصف بالذكرورة بناءً على رؤيا تقول له: إن هلاكك ملكك يكون على فتى من بني إسرائيل⁵؛ ووجه الغباء أنه صدق الكاهن أو الكهَّان في ذهاب ملكه على يد فتى، ثم

¹ الكشف: 392/3.

² ينظر: تفسير ابن كثير: 320/6.

³ ينظر: البحر المحيط: 285/8.

⁴ ينظر: معارج التدبر: 344/9.

⁵ هذا على رأي من يقول إن سبب الذبح رؤيا رآها، وإلا فهناك من قال إن هذا الفعل كان من عادة الفراعنة ليضعفوا به بني إسرائيل. واستخرجت الهداية من هذه القصة بناءً على أن آراء العلماء تتكامل ولا تتناقض.

شرع في القتل، فلو كان عاقلاً لفكر في الطريقة التي يذهب بها ملكه وليس في منع هلاكه؛ لأنه قد صدقه¹.

(63) في الآية إشارة إلى أن الطغاة والمفسدين لا يصلون إلى أهدافهم إلا عن طريق تقسيم شعوبهم، فيجعلون بعضهم من الحاشية، وبعضهم من العبيد، وفريقاً آخر يتدحرج هنا وهناك حسب المصالح؛ فالآية وإن ذكرت صنفاً واحداً وهو المستضعف لمناسبة المقام، فقد ذكرت آيات أخرى ثناء الملائة عليه، وتأنيدهم لقتل موسى وأتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127].

(64) لا سبيل لتحقيق الطغاة والجبابة أغراضهم إلا بإشاعة الفساد بين الناس²، حتى يألفوه ويصبح كأنه القاعدة المستمرة، ويُعد من حاربه، أو ذمه من الفاسدين المفسدين!!! ويشهد لهذا قول الله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26]، وقوله تعالى حكاية عن ملئه: ﴿قَالُوا إِن هَذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه: 63].

(65) في الآية إشارة إلى أن الطغاة والمفسدين لا يصلون إلى أهدافهم إلا عبر مراحل، ووفق برامج محدّدة³؛ لأن الفعل المضارع ﴿يَسْتَضَعِفُ﴾ يُشير إلى أنه مر بمراحل، وجرب طرقاً ووسائل، واستغرق زمناً يُضعف فرقة تلو الأخرى، ويستعبد طائفة تلو طائفة.

(66) في الآية إشارة إلى أن أرض مصر لها ميزة على غيرها، وأنها معظمة مبدجة لاشتمالها على ما لم يشتمل عليه غيرها؛ دل على هذا إطلاق الأرض وعدم تقييدها بكونها أرض مصر، فكأن الأرض كلها جمعت في أرض مصر⁴.

(67) الشر حينما يتمحض يكون سبب هلاكه في ذاته، والبغي حينما يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر، إنما تتدخل قدرة الله لتحسم الأمر، وليظهر للناس بجلاء أنهم إن كانت معهم قوة الله

¹ ينظر: إرشاد العقل السليم 2/7، وفتح القدير: 183/4.

² ينظر: معارج التدبر: 342/9.

³ ينظر: المصدر السابق: 344/9.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 240/14.

فهم الأقوياء وإن كانوا في الصورة من أضعف الضعفاء، والعكس صحيح؛ دل على هذا تصدير الله الآية بعلوِّ فرعون، وبدءِ الأخرى بالإشارة إلى هلاكه¹.

(68) تفيد الآية أن الغلب الاقتصاديَّ أشدَّ من الغلب الاستعماري؛ ذلك أن فرعون كان يذبح أبناء بني إسرائيل خوفاً من أن تكون لهم الصناعات - على رأي بعض المفسرين، والآية تحتمله - التي تمكنهم من قلب الملك عليه، واستمالة الرعية عليه².

(69) في الآية إشارة إلى أن ذهاب مصالح الرجال يؤدي إلى ضياع مصالح النساء أيضاً؛ لأن مصالحن متوقفة على الرجال؛ لذلك كان الطغاة يعمدون إلى قتل الرجال لتضعف النساء، فيستولون عليهن، ويسخرنهن في قضاء الحاجات، وتفرغ الشهوات³.

(70) أشارت الآية إلى أن التفرق والتمزق سبب للضعف والهوان، وأن الفراعنة سلفوا الطغاة المعاصرين الذين أنشأوا القولة المشهورة (فرق تسد)⁴.

(71) في الآية إشارة إلى أن من سكن أرضاً، وأقام فيها مدة من الزمن نُسب إليها وإن لم يكن من أهلها الأصليين؛ لأن الله نسب بني إسرائيل إلى مصر مع أن أصلهم من الشام⁵.

(72) كلُّ من تواضع في الأرض، وخَفَضَ جناحه لأهلها يُعد من الصالحين، أو من المصلحين⁶، ذلك أن الآية دلَّت بمنطوقها على صفة المفسدين وهي العلو في الأرض، وأشارت بمفهومها إلى ضدها وهو التواضع وخفض الجناح فيها لأهلها.

(73) الألقاب قد يكون لها أثر كبير في توجيه سلوك الناس، فمن أطلق عليه لقب حتى رضي به، أو طلب من الناس تحليته به، سيكون له أثر في تغيير مساره؛ لأن فرعون لقبَ لملوك مصر - على رأي كثير من العلماء⁷ -، ويطلق على كل عات متمرد¹، ولعل السر في ذكره بلقبه دون اسمه هو الإشارة إلى ترك الألقاب التي تجعل أصحابها يتحلون بمضمونها.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 2676/5.

² ينظر: تفسير المراغي: 33/20.

³ ينظر: مفاتيح الغيب: 506/3.

⁴ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 13.

⁵ ينظر: المصدر السابق ص: 13.

⁶ ينظر: المصدر السابق ص: 13.

⁷ ينظر: البحر المحيط: 312/3.

(74) في الآية إشارة إلى أن القتل لا يكون منه إلا الفساد، وأنه لا يمكن أن يَرُدَّ قضاء الله وقدره؛ ففرعونُ ذبح وقتل خوفاً على ملكه، فلم ينفعه ذلك شيئاً؛ إذ ذهبَ ملكه، وحصلَ القتل في الأرض².

(75) تفيد الآية "أن فرعون كان هو الأمر المطاع في تذيبح أبناء المستضعفين في مصر"³؛ لأن الله أسند إليه الذبح على طريق المجاز العقلي، باعتباره سبباً فيه.

(76) في الآية إشارة إلى أن جُنْدَ فرعون كانوا يقومون بهذا العمل الشنيع طاعةً لفرعون؛ لأنه سيدهم⁴.

(77) في الآية إشارة إلى أن بني إسرائيل لم يكونوا ضعفاء في الأصل، إذ كانت القوة والغلبة لهم، ثم سعى فرعون في استضعافهم شيئاً فشيئاً إلى أن وصلوا إلى الحال التي هم عليها؛ هذا لأن السين والتاء في ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ تشعر بطلبه هذا، وحرصه على تنفيذه⁵.

(78) في الآية إشارة إلى أن الطغاة يسعون إلى بقاء شعوبهم ضعفاء أبداً الدهر حتى تبقى سياستهم عليهم جاريةً، وملكهم فيهم قائماً؛ لأن الفعل المضارع ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ يشير إلى أنه كان يطلب دوام ضعفهم⁶.

(79) في الآية إشارة إلى أن قوة الأمم تكون في ذكورها لا في إناثها، لذلك عمد فرعون إلى قتل ذكور بني إسرائيل حتى يصيروا ضعفاء أمامه⁷.

(80) في الآية إشارة إلى أن الأمة التي يعلو بعضها على بعض حتى يصيرَ جزء منها كالرأس، وجزء كالرجلين، أو جزءٌ سادةٌ، وجزءٌ عبيداً... سيكون مصيرها الزوال؛ لأن الله ذكر علو فرعون

¹ ينظر: الصحاح: 6/ 2177.

² مفاتيح الغيب: 578/24.

³ البلاغة العربية لحبنكة الميداني: 298/2.

⁴ المصدر السابق: 298/2.

⁵ ينظر: نظم الدرر: 240/14.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 241/14.

⁷ روح البيان: 381/6.

وتقسميه لرعيته؛ ثم أعقبه بذكر عاقبته. والقَصَص القرآني لم يأت لمعرفة الأحداث فحسب، إنما لاستنباط العبر كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111].

(81) في الآية إشارة إلى أن القتل إن رضي به الحاكم، أو أمر به سينتشر حتى لا يُفرق بين قوي وضعيف، ولا بين صغير وكبير؛ دل على هذا واقع حال بني إسرائيل في زمن فرعون، ولعل هذا هو السرُّ في إسناده إليه مع أن الفاعل هم الجنود.

(82) في الآية إشارة إلى أن أمثال فرعون في الفساد والعلو موجودون قبله وبعده، ذلك أن الله قال: ﴿إِنَّهُ وَكَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولم يقل: إنه كبيرُ المفسدين أو سيدهم، كما قال عن قاتل ناقة صالح عليه السلام: ﴿إِذَا نَبَعَتْ أَشَقَقَهَا﴾ [الشمس: 12].

(83) لن يستطيع أي مخلوق أن يتجاوز قدره الذي رسمه الله له - وهو الضعف - مهما وسع ملكه، وكثر جنده؛ ففرعون رغم جبروته صوّر الله علوه محصوراً محاطاً بالأسوار؛ لأن (في) الظرفية توحى بأن علوه كان مطروفاً؛ وكلُّ مطروف خاضع لظرفه، وضعيفٌ أمام أسواره.

(84) في تعدية الله تعالى فعل ﴿عَلَا﴾ ب (في) دون (على) التي هي أصله إشارة إلى أن كل من يتعالى على الناس يخرج عن فطرته التي فطره الله عليها، ولا يلحقه من خروجه إلا الويلُّ والثبور.

(85) في الآية إشارة إلى أن الطغاة ينصرون فرقةً على أخرى، ثم ينصرون غيرها عليها حتى يصبح الجميع ضعيفاً؛ دل على هذا لفظُ الشيعة، إذ تقول العرب شيعتُ النار إذا قويتها؛ وهذا المعنى يؤكده الواقع، فالدول الاستعمارية تنصر دولة من العرب أو من غيرهم على أخرى، ثم يكيلون لها التهم لينصروا دولة أخرى عليها، حتى صار العربُ خصوصاً والمسلمون عموماً أضعفَ أهل الأرض كما لا يخفى على كل من يتابع ما يجري على أرض الواقع.

(86) في الآية رسالة واضحة إلى الحكام الذين يُشيعون الفرقة بين شعوبهم بأن عاقبتهم الزوال، إذ الفرقة تجعل الدولة ضعيفةً أمام أعدائها وإن ظهرت للحاكم في تمام قوتها، دل على هذا ما حصل لملك فرعون، الذي كان تفريق رعيته سبباً في ذهابه، فبمجرد أن وجد الضعفاء من يعينهم انقلبوا على ممالكهم.

(87) في الآية إشارة إلى أن لفظ الابن ينبغي أن ينظر إليه قبل حمله على بعض معانيه، فقد يُطلق ويرادُ به الذكور فقط، كما في هذه الآية وغيرها، ويُطلق ويراد به الذكور والإناث معا؛ كما في قول الله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: 40]، وقوله: ﴿يَبْنِيْءَآدَمَ﴾ [الأعراف: 26].

(88) في الآية إشارة إلى أن الأخبار المهمة يحسن التشويق إليها لتتمكن من النفوس؛ دلّ على هذا البيان بعد الإجمال، فقول الله تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: 3] جعل النفس متشوقة إلى معرفة تفاصيله، فجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 4] فبيّن بعض الإجمال، وترك الباقي للآيات اللاحقات حتى تنزل على النفوس كما ينزل الغيث على الأرض.

(89) العلو في الغالب يلزم عنه التجبر في الأرض وإفساد الحرث والنسل؛ لذا أطلق هنا العلو وأريدَ نتيجته التي هي التجبر والتكبر؛ ومن غير الغالب علو نبي الله سليمان الذي ما زاده تمكنه في الأرض إلا تواضعا لله تعالى وخضوعا لأمره ونهيه.

(90) في الآية إشارة إلى أنه قد يكون مع الظالم أعوان وأنصار هم في الحقيقة من الفرقة المظلومة، فيتخلون عن مبادئهم، ويتركون وراء ظهورهم أقاربهم وأصهارهم؛ دل على هذا قول الله تعالى: ﴿يَسْتَزِعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ [القصص: 4] الذي يفيد بمدلول المخالفة أن طائفة أخرى لم يستضعفها، بل قرّبا إليها، وأغدق عليها من ماله، ويؤيد هذا قول الله تعالى ﴿إِنَّ قَدْرُونَ كَانُوا مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: 76].

(91) في الآية إشارة إلى أن الطغاة تخلو قلوبهم من الرحمة تماما، فلا يفرقون بين معتدٍ وبريء، ولا بين صبي وكبير؛ لأن فرعون -وهو قدوة المفسدين، والجبابرة المتكبرين- قتل ثم قتل حتى بلغ من القتل مداه؛ لأن ﴿يَذْبَحُ﴾ يدل على مبالغته في الذبح، واستمراره عليه إلى أن أصبح قلبه أقسى من الحجارة.

(92) في الآية إشارة إلى أن فرعون كان فاسدا وكان أيضا يُشرّع للفساد ويدعو إليه، ويدافع عنه؛ ذلك أن الله وصفه بالمفسد الذي هو اسم فاعلٍ من أفسد المتعدي، ولم يصفه بالفاسد الذي هو اسم فاعلٍ من فسد اللازم ليشير إلى قدر الخبث الذي يحمله في قلبه.

(93) في وصف الله فرعونَ بالفسد دون الفاسد - كما سبق - إشارة إلى كل مَنْ يدعو إلى الفساد وينظر له، ويدافع عن أصحابه فيه شبهة بفرعون، قد يقوى وقد يضعف على قدر الفساد الناتج عن فعله.

(94) في الآية إشارة إلى أن الإفساد درجات، بعضها أرفع من بعض، وقتل الأطفال الأبرياء أقواها وأعظمها؛ دل على هذا لفظ ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾.

(95) تشير الآية إلى أن الأمور المهمة التي يكون لها أثر في النفوس بتصحيح الاعتقاد، أو توجيه السلوك ينبغي تأكيدها وتقويتها حتى ترسخ في الأذهان؛ يُستشف هذا من تأكيد الله الجملة بمؤكدين مع أن تجرَّ فرعون وطغيانه لا يشك فيه عاميٌ فضلاً عن دارسي التاريخ، والمطلعين على أحداثه.

(96) في الآية إشارة إلى أن الإنسان ينبغي أن ينظر إلى مواضع العبر ليستفيد منها ويترك ما عداها مما لا طائل تحته؛ دل على هذا ذكر فرعون بقلبه دون تحديد اسمه؛ لأن العبرة تحصل بالواقعة وليس بمعرفة عين الشخص.

(97) في الآية إشارة إلى أن العلو في الأرض يُصاحبه تقسيم الرعية؛ دل على هذا حرف العطف (الواو) التي شرَّكت في الحكم، أي شرَّكت بين العلو في الأرض وتقسيم الشعب.

(98) في الآية إشارة إلى أن مَنْ تجرَّ في جزء من الأرض كمن تجرَّ في الأرض كلها، ومن ظلم سكان بعض الأرض كمن ظلم جميع أفرادها؛ ذلك أن الله أتى بلفظ الأرض عامًّا معرِّفاً بالألف واللام، في موضع يُمكن أن يؤتى به معرِّفاً بالإضافة الحاصرة. وقد جاء تقرير هذا المعنى في قوله تعالى:

﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

الآية الخامسة، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(100) من علامات مَنَ الله على عبده أن يجعله قدوةً يُقتدى به في حياته، أو بعد وفاته، أو يجعله ملكاً عادلاً بين رعيته؛ لأن الله تعالى بيّن أن الإمامة من مَنته، وقد فسرت بالملك، والقدوة...¹

(101) ما تفضل الله به على المستضعفين من قوم موسى عظيم الشأن جليل القدر، لا يستطيعون شكره عليه؛ يستشف هذا من لفظ (نمُنُّ) الدلّ على النعمة العظيمة التي تكون بدون مقابل؛ ويؤكد هذا أن الله تعالى استعمل هذا اللفظ في كثير من العطايا العظيمة، كقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 641]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 94]².

(102) إذا أراد الله شيئاً هياً له من الأسباب، وأجرى له من الطرق ما لا يعلمه لا أعداؤه ولا أولياؤه؛ فقد خلق الله موسى في زمن القتل والذبح، وجعل هلاك الظلم والطغيان على يديه³، ولم يكن بنو إسرائيل ولا فرعون وجنوده يشعرون بأن زمن الظلم قد أذن بالرحيل.

(103) في الآية دعوة لبني إسرائيل إلى يوم الدين إلى أن يتفكروا في نعمة الله عليهم، لعل التفكير يردّهم عن غيهم، ويصيرهم بحقيقة دينهم، فيؤمنون بالله رباً ومحمد ﷺ نبياً ورسولاً؛ دل على هذا الإظهار في مقام الإضمار، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 5]، المشعر بعظم النعمة المستوجبة للنظر والتأمل.⁴

¹ ينظر: جامع البيان: 517/19.

² ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص: 777.

³ تيسير الكريم الرحمن، ص: 612.

⁴ ينظر: إرشاد العقل السليم: 3/7.

(104) في تقديم الإمامة في الدين على وراثته الأرض إشارة إلى أنها أعظم منها¹؛ لأن التقديم في القرآن الكريم ليس اعتباطاً، إنما لبيان الأهمية أو الاختصاص أو ما شابه ذلك. ومن أقوى الأدلة كونه الوراثة تنتهي بموت الوارث، أو خراب الدنيا بخلاف الإمامة التي تنفع صاحبها في الدنيا والآخرة، وتنفع ما شاء الله من خلقه.

(105) في الآية إشارة إلى أن اللئيم يبقى لئيماً ولو أكرمه غاية الإكرام، ففرعون وآبؤه كانوا تحت حاكم عادل أكرمهم بفضله، وحكم فيهم بعدله، وحفظهم من المجاعة في عهده، فلما تولوا الحكم بعده استعبدوا ذريته، وساموهم سوء العذاب².

(106) في الآية إشارة إلى أن الضعفَ علةٌ جالبة لرحمة الله تعالى، فمتى وجد الضعف، واستعصى النصر، وتمرد الظلم تحلُّ رحمة الله بالضعفاء فتنصرهم على عدوهم، وتُمكن لهم في أرضه؛ ذلك أن الله أتى بالاسم الموصول للدلالة على أنَّ صلته علة مقارنة لرحمته؛ فكأنه يشير إلى أنه نصيرٌ من لا نصير له، ومعينٌ من لا مُساند له³.

(107) المنُّ من الله هو أصلُ النعم، لذا عطف الله عليه أربعة أشياء تعتبر من أصول النعم⁴.

(108) من علامة منِّ الله على أمةٍ ما أن تكون حرةً في قراراتها، مَالكةً أمر نفسها، لها شريعةٌ عادلةٌ تلتزم بها في معاملاتها، وقوةٌ رادعة تدفع بها أعدائها، وحضارةٌ كاملة متكاملةٌ تفوق بها جيرانها بحيث تصير قدوةً للأمم في شؤون الكمال، وطلبِ الهناء⁵.

(109) من أعظم منن الله على خلقه أن يهديهم إلى صراطه المستقيم، الذي بسببه يصبحون أئمةً ووارثين⁶؛ يستشف هذا من دلالة اللزوم، إذ إن الإمامة لا تكون إلا عن هداية. لذا فما نراه عند الغرب من تقدم في المجال العلمي والصناعي والتقني ليس من منن الله، إنما هو استدراج حتى تنهض

¹ ينظر: المصدر السابق: 3/7.

² ينظر: نظم الدرر: 140/14.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 70/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 71/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 71/20.

⁶ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 15.

أمة الإسلام لتؤدبهم، أو تتدخل قدرة الله لتهلكهم؛ لأنهم فقدوا الهداية التي تبصر بالعيوب، وتوضح الحقوق.

(110) تشير الآية إلى أن الله إرادةً تليق بجلاله وجماله، دل عليها لفظ الإرادة الصريح (ونريد)، فهو وإن لم يكن اسماً، فمضمونه ثابت بالفعل الذي يدل على الحدوث¹.

(111) قد يحقق الله التمكين لعباده بمحض قدرته لا بسبب منهم، فقد أورش بني إسرائيل أرض مصر والشام بدون قتال منهم²، بل الثابت عنهم رفضهم القتال، فقد قالوا لموسى عليه السلام كما حكى الله عنهم: ﴿يَكُونُ سَيِّئًا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذِرُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: 22]، وقالوا أيضاً: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24].

(112) كل من استضعف لقيامه بالحق فلا بد أن تكون العاقبة له؛ فالآية وإن كانت في بني إسرائيل إلا أنها تشمل غيرهم إما بدلالة العموم، وإما بقياس غيرهم عليهم؛ لأن سنة الله ثابتة كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]³.

(113) تشير الآية إلى أن الأحداث العظيمة التي تحققت في الأرض لم تتحقق بذاتها أو أحد من الخلق، إنما بقدرة الله تعالى وسلطانه؛ دل على هذا نون العظمة في (ونريد) والأفعال المعطوفة عليه⁴.
(114) إرادة الله نوعان: إرادة التقدير والإمضاء، وإرادة التنفيذ والإخراج، فالأولى تكون سابقة للأحداث، والثانية تكون مقارنة لها؛ دل على هذا الفعل المضارع الآتي لحكاية حال ماضية⁵.

(115) بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين⁶، فبنو إسرائيل ذمهم الله في مواضع من كتابه، ومدح بعضهم في أخرى، ويبيّن أن سبب ذمهم ما أحدثوا من فجور، وسبب مدحهم ما حصلوا عليه من

¹ ينظر: المصدر السابق ص: 15.

² ينظر: المصدر السابق، ص: 17.

³ ينظر: المصدر السابق، ص: 17.

⁴ معارج التدبر: 347/9.

⁵ معارج التدبر: 348/9.

⁶ هذه قاعدة ذكرها ابن تيمية في كتابه (قاعدة في الصبر)، ص: 94.

الإمامة التي كان سبب حصولهم عليها الصبر والتضحية كما قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بَعَايَتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]¹.

(116) في الآية إشارة إلى أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار ملكوها؛ لأن الوارث يملك لزوما ما ورث، فالدلالة عن هذه الهداية أتت عن طريق اللزوم².

(117) تشير الآية إلى أن "الأراضي ليست من الغنائم المحضة، فالله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ مع أن الرسول ﷺ يقول: (وأحلت لي المغنم ولم تحل لأحد كان قبلي)³.

(118) من آيات الله الكبرى أن جعل الأيام دولا، تأتي أمة مكان أخرى، وتورث أمة ملك أخرى، ويصبح الضعيف مكان القوي، والقوي مكان الضعيف...؛ دل على هذا لفظ (الوارثين)، إذ جعلهم -وهم مستضعفون- يرثون أرض مصر، وأرض الجبابة الذين كانوا يسكنون في بيت المقدس⁵.

(119) في الآية رسالة واضحة إلى ضعفاء مكة الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ، وخافوا من بطش صناديد قريش، وهي أن ضعفكم ليس كضعف بني إسرائيل في زمن موسى، وقوة قريش ليست كقوة فرعون، ومع ذلك أهلكنا الظالمين ونصرنا المستضعفين، فكذلك الشأن سيكون معكم⁶.

(120) في الآية إشارة إلى أن ما ورثه بنو إسرائيل ليس من الغنائم، بل هو هبة من الله⁷؛ دل على هذا قول النبي ﷺ لبيان ما اختصه الله به: (وأحلت لي المغنم، ولم تحل لأحد كان قبلي)⁸.

(121) في الآية إشارة إلى أن وراثة الأرض لا تكون إلا بعد الصبر على البلاء، والتضحية من أجل الخلاص من الظلم والعذاب، إذ ذكرت وراثتهم، وبَيَّنَّتْ أخرى أن الوراثة كانت بسبب الصبر كما قال

¹ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136) ص: 20.

² ينظر: المصدر السابق، ص: 19.

³ صحيح البخاري، باب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ: أحلت لي الغنائم: 85/4، رقم: 3122.

⁴ ينظر: المصدر السابق، ص: 19.

⁵ التحرير والتنوير: 71/20.

⁶ ينظر: الميزان في تفسير القرآن: 9/16.

⁷ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 19.

⁸ صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا): 95/1، رقم: 438.

تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: 137]¹.

(122) في الآية إشارة إلى أن وصف الضعف لا يطلق إلا على مَنْ عَجَزَ على دفع الظلم عن نفسه².

(123) في الآية إشارة إلى أن العينَ لا تُنَجَّسُ، وأن الحرمة إنما تتعلق بالأفعال وليس بالذوات؛ دل على هذا إباحة الله لبني إسرائيل أموال فرعون مع أنه قد حصل عليها عن طريق الغصب، والظلم...³.

(124) تشير الآية إلى أن منة الله على المستضعفين في الأرض مُستمرة إلى يوم القيامة؛ ذلك أن الله أتى بالمضارع في الإرادة، والمنَّ ليدلَّ على تجديدهما كلّما وُجد سببهما.

(125) في الآية إشارة إلى أن نصرة المظلوم واجبة أيًا كان ظالمه؛ يستشف هذا من الفعل (استضعفوا) المبني لما لم يسمَّ فاعله للدلالة على أن استضعاف الناس مذمومٌ تجب محاربته بغض النظر عن الظالم أمسلم أم كافر.

(126) قد تكون حياة البؤس والحرمان من أعظم النعم على العبد، بحيث يُعقِّبها الله منحاً لم تخطر على بال العبد أصلاً؛ فبنو إسرائيل نالهم من النكال ما حكى الله في كتابه ثم كانت العقوبة لهم.

(127) ما يصيب الإنسان من المصائب قد يكون ابتلاءً، وقد يكون عقوبة، فلا يدري العبد الذي يصيبه أهو من الابتلاء أم من العقوبات، وإذا كان الأمر هكذا فالأصل أن يحمل العبد ما يصيبه على الابتلاء، ويسأل الله الصبر والثبات؛ استشف هذا مما نزل ببني إسرائيل، فالظاهر أنه عقابٌ، إلا أنه في الحقيقة ابتلاء أعقبه نصر وفتح مبين.

(128) نصر الله للمستضعفين، وتمكينه لهم في الأرض منةً وتفضل منه، فلا يجب عليه شيء من ذلك لا شرعاً ولا عقلاً خلافاً للمعتزلة القائلين بوجوب الأصلح على الله؛ دل عليها لفظ المنَّ (نمن) الذي يعني التفضل بدون مقابل.

¹ الصحيح المسبور: 43/4.

² لباب التأويل: 356/3.

³ هذا حكم عام، وتفصيل المسألة في كتب الفقه.

(129) إرادة الله نوعان: إرادة كونية وهي المشيئة التي يتعلق بها حكمٌ قدرى، وهي الواردة هنا، وإرادة شرعية وهي المتعلقة بالأمر الشرعية.

(130) في الآية إشارة إلى أن بني إسرائيل لم يكونوا يملكون الأرض قبل ذلك، وإنما حدثت ملكيتهم لها بعد الضعف والهوان الذي أصابهم؛ دل على هذا اسمُ الفاعل (الوارثين) الدالُّ على الحدث، بخلاف الصفة المشبهة الدالة على لزوم والثبوت.

(131) تشير الآية إلى أن ملك بني إسرائيل لم يدم ولن يدوم بحول الله؛ لأن الله ذَكَرَ وراثتهم باسم الفاعل الذي يدل على الحدث ولا يدل على التجدد والاستمرار، ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 62]، وكذلك تاريخهم، إذ عاشوا حياة الشتات في الجزيرة العربية، وإفريقيا، وأوروبا... ولم يستقروا إلا في سنة 1948 بأرض القدس المباركة والتي لن تدوم لهم بإذن الله؛ لأنهم قائمون فيها بأجسادهم وقلوبهم تائهة بسبب الرعب المقذوف فيها.

(132) في الآية إشارة إلى أن فاعل الأسباب يُثاب أو يعاقب على النتائج إن حصلت؛ فالضعف الذي حصل لبني إسرائيل من خلق الله وقدره، لكن لما كان فرعون سببه نُسب إليه كما هو ظاهر من قوله تعالى: (يستضعف) وعاقبه عليه كما تشهد بذلك النصوص.

(133) في الآية إشارة إلى أن الأئمة من الناس قلة؛ لأن (أفعلة) تدل بأصل وضعها على ما بين الثلاثة إلى العشرة؛ فالآية وإن لم يُقصد منها حصرهم في عشرة إلا أنها تشير إلى قلتهم؛ وتأييدها النصوص الأخرى الدالة على كفر وضلال أكثر الناس، كقول الله على سبيل المثال: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 89] فإذا قررت الآية أن القلة هي الصالحة، فإن قلة القلة هم الأئمة.

(134) في الآية إشارة إلى أن الطغاة قد يصلون إلى بعض ما يريدون ليمتحن الله بهم الصالحين، وليجعلهم يوم القيامة في زمرة المجرمين؛ دل عليه الفعل الماضي (استضعفوا) الدلُّ على التحقق والوقوع.

(135) في الآية إشارة إلى أن وراثة فرعون كانت خاصة ببني إسرائيل فقط، ولم يُشركهم فيها غيرهم؛ دل على هذا الألف واللام في (الوارثين) الدالة - في ظني - على العموم فكأن الآية تقول: إن ملك فرعون لم يخرج عن بني إسرائيل إلى غيرهم من الشعوب.

(136) من أهم أسباب التأثير في الخصم ذكر فضل الله عليه؛ لأنه يجعله يُراجع حساباته مع الله فيستهل عليه قبول الحق، والتمسك به؛ دل على هذا بدءُ الله قصة موسى وفرعون ببيان فضله عليهم المتمثل في إخراجهم من العذاب، وجعلهم ملوكاً وسادة للعالمين في زمانهم، ليعيدوا النظر في خصومتهم للنبي محمد ﷺ.

(137) في الآية إشارة إلى أن العبد قد يريد شيئاً والله يريد ضده، ولا يكون إلا ما يريد الله تعالى؛ يُستشف هذا من فعل (ونريد) الذي هو معطوفٌ على (يستضعف)، فيصير المعنى: يريد فرعون استضعاف بني إسرائيل، ويريد الله علو مكانتهم، وقد غلبت إرادة الله إرادة فرعون.

(138) إرادة الله صفة من صفاته، قائمة بذاته، أرادَ في الماضي خلق العالم، ويريد الآن ما يشاء؛ دل على هذا الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

(139) الإمامة محمودة في أمور الدين وأمور الدنيا؛ لأنها من منن الله؛ ومننُ الله كلها محمودة؛ دل على إطلاق الإمامة، وعدم تقيدها، ويشهد لهذا مدح النبي ﷺ العلم بالدنيا حين قال لصحبه: (أنتم أعلم بأمر دنياكم¹).

¹ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا، على سبيل

الرأي: 1835/4، رقم: 2361.

الآية السادسة، قال تعالى: ﴿وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيْ فِرْعَوْنَ وَهَٰؤُلَاءِ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا

كَأَنَّهُمْ يُخَذَّرُونَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية:

(140) في الآية إشارة إلى أن بني إسرائيل ستصير لهم قوة ومنعة تجعلهم متصرفين في الأرض، ومحاربين لمن يريد انتزاعها منهم؛ ففعل (نمكَّن) كناية عن التثبيت، والتثبيت لا يكون إلا بالقوة¹.

(141) التمكين في الأرض كما يكون بالقهر والسلطان يكون بسلطان القلوب، فبنو إسرائيل مكن الله لبعضهم بالقوة، ولآخرين بالعلم²؛ ولعل قول الله تعالى في طالوت يشهد لهذا.

(142) في الآية إشارة إلى أن تمكين بني إسرائيل في تلك الفترة كان قويا؛ لأن اللام الزائدة في (نمکن لكم) مفيدة للتقوية والتأكيد؛ فهي كقولنا شكرته وشكرت له، فشكرت له أقوى في التأكيد من شكرته³.

(143) في الآية إشارة إلى أن أتباع فرعون لهم أمر واحد يتبعونه، وخطئة واحدة يسيرون عليها؛ دل على هذا لفظ (الجند) الذي يُطلق على الجماعة المتبعة أمرا واحدا، وعلى العسكر الذي عمله واحد وهو خدمة الأمير وطاعته⁴.

(144) في الآية "عبرة لمن وفق للاعتبار، ودليل على أنه سبحانه المتفرد بملكه، يؤتي ملكه من يشاء، وينزع من يشاء، لا يزعه وازع، ولا يمنعه عما يشاء مانع، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]"⁵

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 138/7.

² تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 21.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 24/16.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 73/20.

⁵ نظم الدرر: 237/14.

(145) في الآية إشارة إلى أنه لا يُعني حذر من قدر، فما قضى الله بوقوعه لن يتخلف ولو اجتمعت الإنس والجن¹، وقد صرح بهذا المعنى قولُ النبي ﷺ: (واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف²).

(146) في الآية إشارة إلى أن التمكن من الأرض لا يكون إلا باتباع طريق الأنبياء؛ والسير على منهج المرسلين؛ فبنو إسرائيل مكنتهم الله لما آمنوا بموسى واتبعوا شريعته³، وقد صرح الله بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

(147) انتشارُ الاسم بين الناس لا يُعد دليلاً على رفعة المنزلة وعلو المكانة، بل قد يكون عنواناً على الذلة والصغار، فهامانُ فشا اسمه حتى خلده الله في القرآن تحقيراً له ليعلم وزراء الطغاة عواقب أمورهم⁴.

(148) في الآية إشارة إلى أن الظالم قد يهلك على يد مظلومه المستضعفِ الحقيرِ بين يديه؛ فالله تعالى بيّن أن فرعون وجنوده سيروُن ما يحذرون على يد بني إسرائيل المستضعفين كما يشير إليه لفظ: (منهم)⁵.

(149) في الآية إشارة إلى أن الإنسان له مشيئةٌ يسوقه الله بها إلى قدره، فهو وإن كان مخيراً بين الفعل والترك، إلا أنه لن يخرج عما رسمه الله له؛ دلّ على هذا القراءةُ التي فيها إسناد الإراءة إلى الله (وئرِي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون).

¹ ينظر: نظم الدرر: 235/14.

² رواه الإمام أحمد في المسند: 409/4، رقم: 2669، والترمذي في سننه: 228/4، رقم: 2516، وقال هذا حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرک: 62/1، رقم: 1190، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

³ ينظر: نظم الدرر: 242/14.

⁴ ينظر: المحرر الوجيز: 276/4.

⁵ ينظر: تيسر الكريم المنان، ص: 612.

(150) في الآية إشارة إلى أن الله قد يُري الظالم وأنصاره جميع ما كانوا يحذرون؛ دل على هذا للاسم الموصول (ما) الدال على العموم.

(151) في الآية إشارة إلى أن فرعون كان يعلم أنه يكذب على الناس في ادعائه الربوبية، وأنه عبدٌ ضعيف خاضع لأمر الله وسلطانه؛ لأن الله نسب إليه الحذر، والرب لا يحذر، بل يحذره العبيد.

(152) في الآية إشارة إلى أن ما يحذره فرعون وجنوده كان قد بلغ من نفوسهم مبلغا عظيما؛ دل على هذا الاسم بالموصول وحذف العائد عليه.

(153) في الآية إشارة إلى أن الجنود وإن كثروا فلن يغلبوا الحق، أو يُخفوه عن الناس؛ لأن الله ذكرهم بجمع الكثرة (جنود) وبين ضعفهم عن مقاومة صبي أراد الله أن يحيى ويكون هلاكهم على يديه؛ فكأنهم لكثرتهم لا يحصرون، وأمام ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ لحق كأحجار في نهر عظيم.

(154) في الآية إشارة إلى مكانة أرض الشام ومصر عند الله، وعند الشعوب المتقدمة، ذلك أن الله أظهرها في مقام الإضمار، فقد سبقت في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فافتضى ظاهر الكلام أن يقول: (ونمكن لهم فيها) لكن عدل عن الضمير إلى الظاهر لهذه النكتة والله أعلم. ولا يُعترض على هذه الهداية بكون المقصود بالأرض أرض فلسطين فقط، لأن آياتٍ أخرى صرحت بوراثتهم أرض مصر كما في قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: 25-27].

(155) في الآية تأكيد على أن فرعون سيرى حتما ما كان يحذر هو وجنوده، لأن فعل (كان) يقوي المعنى ويؤكد.

(156) إذا استحق الثواب أو العقاب شركاء ينبغي البدء بالأكبر فالكبير وهكذا؛ لأن الله قدّم فرعون في الذكر؛ لكونه كبيرهم في الإجماع، ثم ثنى بهامان؛ لكونه وزيره ومناصره، ثم ألحق بهما من شاركهما من الجنود والأعوان.

(157) يعيش حياة الاضطراب كل من شارك في الظلم، صغيرا كان أو كبيرا؛ لأنه يكون بين رغبة في التنعم بما بين يديه، وخوف من العقاب على يد مظلوميته، دل على هذا لفظ الحذر الملازم لفرعون وهامان وجنودهما كما تشعر به صيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار.

(158) لا يستبدُّ الظالم في الأرض إلا إذا كان معه وزراء يُدافعون، وأنصارٌ يُنظِّرون، وجنودٌ أقوياء يُظلمون؛ دلَّ على هذا جمعُ الله الطاغيةَ ووزيره وجنودَهما في العقاب، وأيده ما في الآيات الأخر من وعد فرعون للملا بالتقرب منه إن قضا حوائجه، كما في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء 42].

(159) قد يُرى الظالم ما يحذره رؤيةً قلبيةً، وقد يُريه إياه رؤيةً بصريةً، وقد يجمعهما له؛ هذا لأن الله أخبر بأن فرعون وهامان وجنودَهما سيرون ما كانوا يحذرون، فاحتمل أن تكون الرؤية علمية، وأن تكون بصريةً، ولا مانع من أن يكون قد علم بهلاك ملكه بقلبه، ورأى نهايته ببصره حين أغرق. (160) في الآية إشارة إلى تحريم الظلم بشتى أنواعه؛ لأنها بينت عاقبة ظلم فرعون وجنوده، فكأنها تقول للظالمين على مر الزمن: كما فعل الله بالظالم فرعون سيفعل بكم فاحذروا عقابه.

الآية السابعة، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي
الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(161) في الآية إشارة إلى أن لفظ الأم إذا أُطلق يُصرف إلى التي ولدت، وأما المرضعة، والمربية وأمّ
الأم أو الأب فلا يطلق عليهن إلا بقرينة لفظية، أو حالة، أو عقلية؛ يشهد لهذا قول الله تعالى في
الأمهات من الرضاع ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: 22]¹.

(162) في الآية إشارة إلى أن أفضل نعم الله على عباده هي الوحي²، يُستشف هذا من ذكر الله له
في أوائل النعم على بني إسرائيل.

(163) إذا داهم الإنسان أمرٌ، ولم يظهر له منه مخرجٌ فليُنظر إلى أقلِّ المخاطر ثم يلقي بنفسه فيها؛
فأمّ موسى كانت أمام خطورة بقاء ولدها معها وحينئذ قد تراه يُقتل أمام عينيها، وخطورة إلقائه في
البحر، وحينئذ إما أن ينجو وإما أن يموت بعيداً عن أعينها³، فاختارت الثاني لقلة خطورته؛ وهذه
الهداية بناء على أن المقصود بالوحي هنا الخاطر الذي يُصمَّم عليه.

(164) الأمور العظيمة لا يمكن أن يُدرك وجه المصلحة فيها إلا بالوحي⁴، فنجاة موسى من الموت
ليصبح نبياً يهلك الظلم وأهله ليست بالأمر الهين، لذلك استوجبت الوحي الذي جاء وصفه في آية
أخرى بما يدل على عظيمته، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ [طه: 38].

(165) إذا أراد الله شيئاً هياً له أسبابه دون أن يعلم بها الذي تكون له أو عليه، فلما أراد الله إنقاذ
بني إسرائيل من الذل خلق لهم موسى ولم يُعلمهم أنه المنقذ لهم، ولم يعلم فرعون أنه مهلكه⁵.

¹ ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص: 85، وتفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)،

ص: 26.

² ينظر: مفاتيح الغيب: 579/24.

³ ينظر: المصدر السابق: 47/22، والتفسير القرآني للقرآن: 311/10.

⁴ مفاتيح الغيب: 47/22.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 73/20.

(166) الإلهام الصادق يَعْرُضُ لِلصَّالِحِينَ فَيُوقِعُ فِي نَفْسِهِمْ يَقِينًا يَنْبَعَثُونَ بِهِ إِلَى عَمَلٍ مَا أَهْمُوا إِلَيْهِ¹؛ لِأَنَّ أُمَّ مُوسَى لَيْسَتْ نَبِيَّةً وَمَعَ ذَلِكَ أَهْمَهَا اللَّهُ يَقِينًا نَجَّى بِهِ مُوسَى مِنَ الْمَوْتِ؛ هَذَا بِنَاءٌ عَلَى كَوْنِ الْوَحْيِ وَحْيَ إلهام.

(167) فِي آيَةِ إِشَارَةٍ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قَدْ يَطْوِي جَمَلًا عَدَّةً يُدْرِكُهَا اللَّيِّبُ، وَصَاحِبُ الذَّوْقِ الرَّفِيعِ، فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾ طَوِي فِيهِ " وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَرَادَ ذَلِكَ قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ مَظْهَرُ مَا أَرَادَهُ هُوَ الْجَنِينَ الَّذِي فِي بَطْنِ أُمِّ مُوسَى وَوَضَعَتْهُ أُمُّهُ، وَخَافَتْ عَلَيْهِ اعْتِدَاءَ أَنْصَارِ فِرْعَوْنَ عَلَى وَلِيدِهَا، وَتَحِيرَتْ فِي أَمْرِهَا فَأَلْهَمَتْ أَوْ أَرَيْتَ مَا قَصَّه اللَّهُ هُنَا وَفِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى².

(168) فِي آيَةِ إِشَارَةٍ إِلَى فَضْلِ لَبَنِ الْأُمْهَاتِ عَلَى غَيْرِهِنَّ مِنَ الْإِنْسَانِ أَوْ الْحَيَوَانِ، فَهُوَ يُقْوِي الْجِسْمَ، وَيَزْرِعُ الْحُبَّ؛ لِذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّ مُوسَى بِإِرْضَاعِهِ مَعَ أَنَّ عَادَةَ الْأُمْهَاتِ إِرْضَاعَ أَبْنَائِهِنَّ³.
(169) فِي آيَةِ إِشَارَةٍ إِلَى أَنَّ الْعَاقِلَ هُوَ الَّذِي يَدْفَعُ الضَّرَرَ الْمَحْقَقَ بِالضَّرَرِ الْمَشْكُوكِ فِيهِ، فَمَوْتُ مُوسَى لَوْ بَقِيَ عِنْدَهَا قَطْعِيٌّ لِمَا عَلِمَتْ مِنْ طَغْيَانِ فِرْعَوْنَ وَجَبْرُوتِهِ، وَلَمَّا رَأَتْ بَعِينَهَا مَا فَعَلَهُ بِالصَّبِيَّانِ الْأَبْرِيَاءِ، وَأَمَّا رَمِيهِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَمُوتَ أَوْ يَأْكُلَهُ الْحَوْتَ، وَيَحْتَمِلُ بَأْنَ يَأْخُذَهُ أَحَدُ الصَّيَادِينَ فَيَنْجُو بِإِذْنِ اللَّهِ⁴.

(170) فِي آيَةِ إِشَارَةٍ إِلَى قَاعِدَةٍ أَصُولِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّ (إِنَّ) إِنْ أَتَتْ بَعْدَ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ أَشْعَرَتْ بِالتَّعْلِيلِ؛ فَجَمْلَةُ ﴿إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىكَ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرَيْنِ وَالنَّهْيَيْنِ السَّابِقَيْنِ⁵.

(171) فِي آيَةِ إِشَارَةٍ إِلَى أَنَّ الْبَحْرَ اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى النَّهْرِ الْعَظِيمِ، وَالْمَاءُ الْكَثِيرُ كَمَا يُطْلَقُ عَلَى الْمَاءِ الْمَالِحِ الْمَعْلُومِ الَّذِي فِيهِ الْأَمْوَاجُ وَالْحَيْتَانِ، ذَلِكَ أَنَّ الْيَمَّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مُرَادِفٌ لِلْبَحْرِ، وَأُطْلِقَ هُنَا عَلَى النَّيْلِ الَّذِي هُوَ مِنَ الْأَنْهَارِ الْعَظِيمَةِ⁶.

¹ ينظر: المصدر السابق: 73/20.

² ينظر: المصدر السابق: 73/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 73/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 74/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 75/20.

⁶ ينظر: التحرير والتنوير: 74/20.

(172) في الآية إشارة إلى أن إرسال ملك إلى شخص مَّا لا يُصيرُه نبيا؛ فأمر موسى أرسل إليها الملك -على رأي بعض المفسرين ومع ذلك أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية، واستشهدوا بما حدث للأقرع والأبرص والأعمى الذين جاءهم ملك، ولم يُعد أحد منهم من الأنبياء¹.

(173) في الآية إشارة إلى إعجاز بياني للقرآن، وهو أنه أتى فيها خبران، وأمران ونهيان، وبشارتان؛ وهذا ما لن يستطيعه البشر ولو بلغوا من الفصاحة أعلى الدرجات².

(174) في الآية إشارة إلى أن القيام بحفظ موسى وتربيته في قصر فرعون دليل على تمام قدرة الله؛ يدل على هذا نون العظمة، وضمير الجمع مع أن الفاعل الله وحده لا شريك له³.

(175) في الآية إشارة إلى استحباب طمأننة المحزون ببشارته بما يُذهب حزنه⁴.

(176) في الآية إشارة إلى وجوب إرضاع المرأة لولدها⁵، سواء حملنا الأمر فيها على الوجوب أو على الإرشاد، فإن حملناه على الوجوب فالأمر ظاهر، وإن حملناه على الإرشاد فيكون الوجوب بالمقاصد الشرعية، والآية شاهدة عليه.

(177) في الآية إشارة إلى أن الأنبياء كغيرهم من البشر يأكلون ويشربون، ويحتاجون إلى الرعاية كما يحتاج إليها غيرهم⁶؛ دليل هذا قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيْهُ﴾ ويؤيده قول الله أيضا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 20].

(178) في الآية إشارة إلى أن الوحي لا يختص بالأنبياء بل يشمل الصالحين ممن اختارهم ربهم، كما هو الشأن بالنسبة لأم موسى، ومريم ابنة عمران، والأخ الذي ذهب ليزور أخاه في الله⁷.

¹ البحر المحيط: 287/8.

² ينظر: المصدر السابق: 287/8.

³ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 28.

⁴ ينظر: المصدر السابق، ص: 30.

⁵ ينظر: المصدر السابق، ص: 28.

⁶ ينظر: المصدر السابق، ص: 30.

⁷ ينظر: معارج التفكير: 350/9.

(179) في الآية إشارة إلى أن أسماء العباد مكتوبة عند الله قبل خلقهم؛ فالله تعالى قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ وَهُوَ لَمْ يُسَمَّ بَعْدَ بِهَذَا الْاسْمِ¹.

(180) في الآية إشارة إلى أن القيام بالأسباب لا يُنافي التوكل على الله؛ فالله تعالى أمر أم موسى في هذه الآية بأن تُلقِي ولدها في اليم، وأمرها في آية أخرى بأن تضعه في تابوت حتى لا يصل إليه الماء، قال تعالى: ﴿أَن أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ۖ﴾ [طه: 39]².

(181) في الآية إشارة إلى النهي عن التفكير في المستقبل خصوصا في الضر المتوقع منه؛ دليل هذا نهْيُ الله أم موسى عن الخوف من المستقبل، والحزن على الماضي، وهما أمران قلبيان لا يتحكم فيهما الإنسان، فال نهْيُ إلى أسبابهما وهو التفكير³.

(182) في الآية إشارة إلى أن تدبير الله للإنسان خيرٌ من تدبيره لنفسه، إذ بيّنت أن أم موسى خافت على ولدها وهو في حجرها، وفي فيه ثديها، وأثبتت له الأمن من الخوف، والسلامة من الهلاك وهو بعيد عنها لما كان في رعاية الله⁴.

(183) تشير الآية إلى أن المسلم عليه أن يعتني ببشائر الله التي تكون عن وحي مباشر أو عن الرسل والأنبياء⁵؛ يفهم هذا من التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت.

(184) المؤمن الذي عرف وجه الحق عن طريق الوحي ينبغي أن لا يغتم لما يأتي من المستقبل؛ لأن المصلحة معه حتما، ولا يغتم لما مضى؛ لأنه سبق في أمر الله؛ ووجه هذه الهداية نهْيُ الله أم موسى عن الخوف من المستقبل، والحزن عن الماضي.

(185) في الآية إشارة إلى أن الأم تشرف بشرف ولدها؛ دل على هذا الإضافة المشعرة بالتشريف.

(186) في الآية إشارة إلى فضل الأم ومكانتها، إذ ذكرت بكونها أمّا ولم تذكر باسمها كما ذكر موسى باسمه.

¹ ينظر: نظم الدرر: 243/14.

² ينظر: المصدر السابق: 245/14.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 75/20.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 2679/5.

⁵ التفسير المنير للزحيلي: 61/20.

(187) في الآية إشارة إلى أن الشخص قد يأتيه هلاكه حتى يصير بين يديه، فيأخذه وهو غير مدرك له؛ دل على هذا لفظُ (التقطه) الدالُّ على أنهم أخذوه من غير طلب له، وكان فيه هلاكهم.

(188) خوف المرأة على ولدها من الهلاك أمرٌ متحققٌ في الواقع، فلا لومَ عليها ولا عتب؛ لأن الله أثبت لها الخوف ب (إذا) الدالة على التحقق والوقوع، وجعله شرطاً لها في إلقاء ولدها في اليم، ولم يذمها على ذلك.

(189) في الآية إشارة إلى أن المرأة قد تأتيتها أحوال تغفل فيها عن إرضاع رضيعها، كما حدث لأُم موسى حتى أمرها الله بإرضاعه؛ وهذا في الدنيا أما في الآخرة فإنها تذهل عنه وهو ملتقمٌ ثديها كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج:2].

(190) في الآية إشارة إلى أن المرأة تحزن بطبعها عند مفارقة ولدها لها؛ دل على هذا نهي الله لأُم موسى عن الحزن، والنهي يستلزم أن يكون المنهي عنه مما يحصل في الواقع؛ لأنه لا يقال: لفاقد البصر لا تُبصر، ولا لفاقد السمع لا تسمع.

(191) في الآية إشارة إلى أن القادم لا يطلع عليه إلا الله تعالى، فقد ينظر الإنسان إلى شيء فيظهر له حسنه أو قبحه، وتكون النتيجة بخلاف ما ظهر؛ فال فرعون أخذوا موسى لما ظهر لهم من حسنه، فكان لهم عدوا وحزنا؛ ويؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216]

(192) في الآية إشارة إلى أن العبرة بالحقائق لا بالأسماء، إذ أغفلت الآية اسمَ أم موسى، واقتصرت على وصف الأمومة لتشير إلى أن الأسماء لا تعدو أن تكون أعلاماً تُميِّزُ بها الذوات والصفات.

(193) في الآية إشارة إلى أن منغصات الحياة تكون من شيئين: شيء في المستقبل يُخشى وقوعه إن كان مكروهاً، أو عدم وقوعه إن كان محبوباً، وشيء في الماضي يُحزن على فواته إن كان محبوباً، أو وقوعه إن كان مكروهاً، فإذا أغلق الإنسان هذين البابين عاش حياة الطمأنينة والسكينة، ولعل هذا هو السر في نهي أم موسى عنهما معاً.

(194) في الآية إشارة إلى أن وحي الله إلى أم موسى بلغ الغاية المرجوة منه وهو فؤادها؛ ذلك أن الله أتى ب (إلى) الدالة على الانتهاء ولم يأت باللام الدالة على الاختصاص.

(195) في إتيان الله بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إشارة إلى أن أم موسى قد بقي في قلبها شيء، فجاءت الجملة الاسمية مؤكدة رده، ومبشرة برسالته حتى يطمئن ويسكن.

(196) في الآية إشارة إلى أن الأنبياء تحرسهم عينُ العناية منذ أن يكونوا في بطون أمهاتهم إلى أن يلقوا ربهم، فعناية الله بموسى ظاهرة في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، ومثل هذه العناية عناية الله بنبيه محمد ﷺ، إذ يسر له المراضع، والكافل الأول ثم الثاني، وامتنَّ عليه به كما امتن على موسى فقال تعالى: ﴿الْمُرْجِدُكَ يَتِيمًا﴾ [الضحى: 6]، وحفظه من شر الناس بعد رسالته حيث قال له: ﴿وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 18].

(197) في الآية إشارة إلى جواز أمر الإنسان بشيء وإن كان يعملُه، فأُمَّ موسى أمرها الله بإرضاع ولدها مع أن فطرتها تدفعها دفعا إلى إرضاعه؛ ويشهد لهذه الهداية قولُ الله تعالى لنبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: 136]، فالنبي صلى الله عليه وسلم أُمِّر بالتقوى مع أنه سيد المتقين، والمؤمنون أُمروا بالإيمان مع أن المشتق (الفعل، واسم الفاعل، والمفعول...) لا يُطلق إلا عن من اتصف به.

(198) في إتيان الله بنون العظمة، وضمير الجمع إشارة إلى أن هذه الأعمال لا يقوم بها إلا تامُّ القدرة الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ وفي هذا رسالة إلى قريش وأنصارهم بأنهم لا يعجزونه.

(199) في الآية إشارة واضحة إلى أن قارئ القرآن ينبغي أن ينظر إليه كأنه بنیان متكامل يشد بعضه بعضا، لا أنه جُزُر متناثرة لا علاقة لبعضها ببعض؛ لأن فيها ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، ومعلوم قطعا أن الإنسان يغرق إذا ألقى في الماء بدون مانع يمنعه، فجاء بيان هذا المانع في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [طه: 39].

(200) في الآية إشارة إلى أن خوف الأم على ولدها لا يساويه ولا يعادله خوف الأب ولا الإخوة والأقارب؛ دليل هذا تخصيصُ الله لها بالخوف دون زوجها أو ابنتها؛ ويشهد لهذا النصوصُ النبوية

المعتنية بالأمهات أكثر من الآباء والإخوة والأخوات، كقوله عليه الصلاة والسلام: (أملك، ثم أملك، ثم أملك، ثم أملك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك)¹.

(201) في الآية إشارة إلى أن تربية الأبناء تقوم بها الأمهات أكثر من قيام الآباء بها، ذلك أن الله أسند التصرف إلى أم موسى في ولدها ولم يسنده إلى أبيه؛ وهذا لا يعني التقليل من دور الأب، إنما لكون الطفل يبقى مع أمه أكثر من أبيه فيتأثر بها أكثر من تأثره بأبيه.

(202) في خفاء والد موسى وظهور أمه إشارة إلى مكانة الأم في تدبير البيت، وأنها العمدة فيه، بحيث إذا فُقدت يلحق الابن ألمٌ وحزن في حياته؛ ويشهد لهذا الواقع المعيش، فقلما تموت أم عن أولادها فيعيشون مع زوجة أبيهم أو غيرها الحنان والعطف.

(203) في الآية إشارة إلى أن الخوف من المستقبل يغلب الحزن على الماضي؛ دل على هذا تقديمه في الذكر؛ ولا يقال: إن الواو لا تفيد ترتيباً إنما تدل على مطلق الجمع، لأننا نقول: هي وإن كانت كذلك إلا أنها مشعرة بنكتة ومعنى.

(204) في الآية إشارة أن القلب يمكن أن يجتمع فيه في الوقت الواحد الخوف والحزن؛ لأن الله نهي عنهما، وأتى بالواو العاطفة الدالة على مطلق الجمع، فأشعرت أنهما منهي عنهما في الوقت نفسه.

(205) في الآية إشارة إلى أن حياة موسى تترتب عليها فائدتان: إحداها ترجع إلى أمه، وهي رده إليها، والأخرى يشترك معها فيها بنو إسرائيل وهي رسالته ودعوته؛ يستشف هذا من تقييد الرد ب (عليك) وإطلاق الإرسال.

(206) في الآية إشارة إلى أن موسى ليس بدعا من الرسل، وإنما هو جزء من أنبياء ومرسلين قبله، أشعر بهذا لفظ (من) وجمع (المرسلين).

(207) في الآية إشارة إلى أن خوف المرأة على ولدها أكثر من خوفها على نفسها؛ دل على هذا تخصيصها بالخوف على ولدها مع أنها تخاف على نفسها أيضاً إذا انكشف أمرها، فقد تُقتل كما يُقتل ولدها عقوبة لها على تسترها، خصوصاً وأن القوم لا شفقة في قلوبهم ولا رحمة.

¹ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة: 2/8، رقم: 5971، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به: 4/1974/2548.

(208) في الآية إشارة إلى أن الله إذا أراد لك شيئاً أوصله إليك حتى يصير بين يديك؛ فأم موسى أخبرها الله بأنه سيرد إليها ولدها حتى ينتهي إليها، وأتى ب(إلى) الدالة على الانتهاء ليشعرها بأنه سيصل إليها كما يصل أحدنا إلى غايته.

(209) في الآية إشارة إلى أن المصلحين لا يختص بهم أهلهم؛ لأن للمجتمع حقاً فيهم؛ ذلك أن الله أتى ب (إلى) الدالة على وصول موسى إلى أمه، ولم يأت باللام المشعرة باختصاصها به.

(210) في الآية إشارة إلى أن حب الوالدين كبر أبنائهما عموماً، والوالدة خصوصاً لا ينافي الولاية والصلاح، دليل هذا أن الله بشر أم موسى بكبر ولدها حتى يكون من المرسلين.

(211) في الآية إشارة إلى أن الله قد يخص بعض عباده بكرامات وإن لم يكونوا أنبياء؛ ذلك أن الله أخفى حمل أم موسى عن الأعين كرامة من الله؛ لأنه لو ظهر حملها لعلم خبرها، وإذا علم انتظرها الحراس المراقبون.

(212) وحي الإلهام ليس خاصاً بأم موسى، بل يشترك معها غيرها من الإنس أو غيره، دل على هذا حرف الجر (إلى) الذي يفيد الانتهاء ولا يفيد الاختصاص.

(213) في الآية إشارة إلى أن الله إذا أراد أن يحمي شيئاً حفظه من كل المؤذيات، فلا يضُرُّه ما تخيله الإنسان ولا ما غاب عنه؛ لأن الله أمر أم موسى بعدم الخوف وحذف متعلِّقه ليشعرها بأنه لن يمسّه شيء مطلقاً لا ما توقعت ولا ما لم تتوقع.

(214) في الآية إشارة إلى أن الخوف الطبيعي لا لوم على صاحبه فيه ولا عتب، ولا إثم عليه عند حصوله؛ فأم موسى أثبت الله لها الخوف ولم يلمها، كما أثبت لموسى عليه السلام بقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ [طه: 67] ولم يلمه.

الآية الثامنة، قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ

وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(215) في الآية إشارة إلى جواز التيمن بالأشياء¹؛ ذلك أن بني إسرائيل رأوا بوادِر النجابة على موسى فتفاءلوا فيه خيرا، ويشهد لهذا قول نبينا ﷺ الذي في سهيل بن عمرو (لقد سهل لكم من أمركم)².

(216) قد يأخذ الإنسان الشيء ليكون له فإذا به يكون عليه؛ ففرعون أخذ موسى ليصيرا له ولدا حبيبا، فإذا به عدوٌّ وحزنٌ؛ دل على هذا اللام في (ليكون)³.

(217) قد تُنزل العاقبة منزلة العلة وتُعطى حكمها؛ فالتقاط موسى كان القصد منه أن يكون ولدا حبيبا، لكنه لما صار عدوا وحزنا، نزلت العاقبة منزلة العلة، واستعير لها لفظها وهو اللام⁴.
(218) في الآية إشارة إلى أن الضعيف الذي لا يعرف مخرجه قد يُريه الله كيف يدبر شؤونه؛ فأُمّ موسى عليه السلام ظَلَّت حائرة إلى أن قذف الله في قلبها طريقة الحفاظ على ولدها⁵.

(219) في الآية إشارة إلى أن حاشية المَلِك يشرفون بشرفه وإن كانوا وضعاء في الأصل؛ دل على هذا لفظ (آل) الذي يُطلق غالبا على أشرف الأهل، وذوي المكانة⁶.

(220) تشير الآية إلى أن تسمية الولد بما يلبسه عند الولادة أو بعدها لا بأس به، فال فرعون سَمَّوْا الرضيع موسى؛ لأنه وجد بين شجر وماء⁷. ولا يقال: إن هذا فعل قوم كافرين لأنه لو كان سيئا لما رضى له رب العالمين.

¹ ينظر: الكشاف: 395/3.

² صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد: 193/3، رقم: 2731.

³ ينظر: الكشاف: 394/3.

⁴ ينظر: الكشاف: 394/3.

⁵ ينظر: في ظلال القرآن: 5/2678.

⁶ ينظر: معارج التفكير: 9/352.

⁷ ينظر: نظم الدرر: 14/246.

(221) في الآية إشارة إلى أن المتخدلَق لا يُتقدم على شيء حتى يَعرف عاقبته، دل على هذا تعريض الآية بغباء فرعون الذي ادعى الإلهية ولم يعرف ما يترتب على تصرفاته¹.

(222) في الآية إشارة إلى أن من كان عدواً لأحفاد الدولة الذين يسيرون على نسق آبائهم وأجدادهم هو عدوٌّ للآباء والأجداد؛ فالله تعالى نسب عداوة موسى إلى آل فرعون الذين التقطوه، وهو إنما صار عدواً لابنه الذي غرق في البحر²؛ هذا بناء على كون فرعون الذي غرق في عهد موسى ليس هو الذي رباه.

(223) قد يُجعل سببُ الشيء هو الشيء نفسه، فموسى عليه السلام لما كان سبباً لحزن آل فرعون، وصفه الله بأنه هو الحزَنُ ذاته لهم على طريق المجاز العقلي³.

(224) تشير الآية إلى أن العبرة بالنتائج؛ فال فرعون التقطوا موسى ليكون لهم حبيباً، وولداً معيناً، فجعله الله عدواً وحزناً، ونسب الله إليهم النتيجة وهي العداوة وليس ما كان وسيلة⁴.

(225) في قول الله تعالى ﴿فَأَلْقِيهِ﴾ إشارة إلى أن الله إذا تكفل بشيء لن تُؤثر فيه الأسباب؛ لأن الإلقاء هو الطرح بقوة، فكأنَّ الله يقول لها: جربي قدرة الله باللقاء ولدك حتى تري عين الله تحرسه⁵.

(226) في الآية إشارة إلى أن سلاح العيون قد يكون أقوى من سلاح الجنود؛ ففرعون رغم جبروته وطغيانه غلبته نظرة من طفلٍ بريء، أو غلبت زوجه فغلبت هي عليه⁶.

(227) في الآية إشارة إلى أن الله يحول بين المرء وقلبه، فيجعل ما كان مكروهاً له في وقت محبوباً له في وقت آخر، والعكس صحيح، فقلب فرعون الذي كان يتفطر غيظاً على الرضيع أصبح يحنُّ إليه، ويرعاه كما يرعى أبناءه⁷.

¹ ينظر: المصدر السابق: 246/14.

² ينظر التحرير والتنوير: 76/20.

³ ينظر المصدر السابق: 76/20.

⁴ ينظر المصدر السابق: 76/20.

⁵ ينظر: المفردات، ص: 745، والخواطر للشعراوي: 10883 / 17.

⁶ ينظر: في ظلال القرآن: 5/ 2679.

⁷ الخواطر للشعراوي: 10879/17.

(228) في الآية إشارة إلى أن موسى عليه السلام أصبح لقيطاً¹ تجري عليه أحكام اللقطاء، لذلك لم يسأل فرعون عن أمه، ولا عن قرابته.

(229) في الآية إشارة إلى أن حاشية الرجل وأنصاره وأعدوانه يُعدُّون من آله، بناء على تفسير الآل هنا بالأعدوان².

(230) في الآية إشارة إلى أن الإنسان مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الْعَتَوِ، ومهما جمع من الأنصار لن يَعْلَمَ ما في المستقبل؛ قَالَ فرعون -وفرعونُ نفسه- لم يَعْلَمُوا أن الطفل الذي يُريدونه حبيباً سيصبح لهم يوماً ما عدواً وحرناً³.

(231) في الآية إشارة إلى أن الطغاة والجبابرة حين يَقُومُونَ بأفعالهم الإجرامية يَعْلَمُونَ أن ما يقومون به جُرم لا يليق بفطرة الإنسان؛ ذلك أن الله وصفهم بالخاطئين دون المخطئين لِيُشْعِرُنَا أَنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ بما يفعلون⁴.

(232) في الآية إشارة إلى أن الإنسان قد يَسْعَى إلى هلاكه بما يظن أنه سببٌ لنجاته، قَالَ فرعون التقطوا موسى ليكون لهم ولداً حبيباً، وقدرةُ الله جعلته لهم عدواً لدوداً؛ فالآية الكريمة على المثال العربي: "فللموت ما ولدت الوالدة"⁵

(233) في الآية إشارة إلى أن لفظ الآل لا يُطلق إلا على الموالين المناصرين، بدليل أن الله تعالى أخبر أن موسى يَصِيرُ عدواً وحرناً لآل فرعون، مع أنه لم يَصِرْ عدواً لآسية التي كانت زوجةً لفرعون⁶.

(234) في الآية إشارة إلى أن بعض الوزراء قد يتمكن من الدولة حتى يصبح قريباً من الحاكم الأصلي، فتسمُعُ الرعية كلامه كما تسمع كلام الملك؛ وتطيعه كما تطيع الملك؛ وهذا مأخوذ من إضافة الجنود إلى هامان، مع أن الحاكم الفعلي هو فرعون.

¹ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 31.

² ينظر المصدر السابق، ص: 35.

³ ينظر المصدر السابق، ص: 35.

⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 313/10.

⁵ ينظر: معاني القرآن للزجاج: 133/4.

⁶ ينظر: المفردات، ص: 98، وفي ظلال القرآن: 2679/5.

(235) في الآية إشارة إلى من عقاب الله للطغاة الظالمين أن يسلط عليهم عدوا يقلب حياتهم حتى لا يُعَدُّ لهم تفكير إلا في الخلاص منه؛ هذا لأن الله سلَّط موسى على فرعون وقومه فصار تفكيرهم منحصرا في الخلاص منه، كما يشعر بهذا التعبير بالمصدر (حَزَنًا) عن اسم الفاعل (المحزن) فكان موسى هو الحزن ذاته داخل ذوات فرعون وآله.

(236) في الآية إشارة إلى أن الطغاة يتعاونون فيما بينهم إذا ظهرت لهم مصلحة؛ دل على هذا صيغة (افتعل) الدالة على المشاركة، ومن المعلوم أن كل زيادة في المبنى تُعطي زيادة في المعنى، فالتعبير ب (لقط) يكفي لإفادة كون موسى أخذه آل فرعون من غير طلب، والتقط يشير إلى تعاونهم عليه. (237) في الآية إشارة إلى أن القضاء على الظلم المتجذر يحتاج وقتا طويلا تُسبَّب فيه الأسباب، وتُجتمَع فيه الشروط، وتُزال الموانع؛ أشعر بهذا المضارعُ المشعر أن هلاك فرعون آت لكنه يحتاج وقتا يكبرُ موسى، ويُرسَل عليه، وتقوم الحجة على الظالمين.

(238) في الآية إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم وهو طي جملٍ تدركها أذهان الأذكياء، ونباهة البلغاء؛ وهي فامتثلت أمر ربها، فألقت وليدها، وسار في البحر حتى وصل إلى قصر فرعون، فرآه آلُه...

(239) في الآية دعوة للدعاة إلى الله بأن يسلكوا مسلك التصوير الفني في إلقاء الحجج، أو نقل الوقائع والأحداث لتستوعب النفوس مضامينها، وتتأثر بجمالية صورها؛ دل على الاقتطاع من الفقرات، وترك فجواتٍ يُدركها ذهن البليغ، بجعل القارئ منتظرا فقرات المشهد على حَرٍّ من الجمر. (240) في هذه الآية والتي بعدها إشارة إلى أن العظماء قد تمر عليهم أيامٌ قاسية تصنعهم ليتحملوا عبء ما يُلقى على عاتقهم؛ فموسى عليه السلام أُلقي في البحر وهو رضيع، ومحمدٌ ﷺ فارق والديه وهو طفل، وسلمانُ الفارسي توالى عليه الأيدي وهو حر... وهذا ما أكدته الأحداث، فكثير من العلماء عاشوا أيتاما، أو ذاقوا مرارة الفقر والحرمان، كما يحكى عن أبي بكر بن العربي، وابن تيمية وغيرهما رحم الله الجميع.

(241) في الآية إشارة إلى أن الطاغية مهما تعاظم ملكه قد يفعل أفعالا تدل على غبائه، بحيث يُنزّه عن مثلها رعاء الناس فضلا عن القادة؛ ففرعونُ الذي قتل آلاف الأطفال خوفا من طفل ضعيف أمسكه بيده، وأنفق عليه من ماله، وأسكن معه في قصره حتى كان هلاكه على يديه.

(242) في الآية إشارة إلى أن الملوك قد يكون بجوارها بطانةُ السوء التي لا تَهْمُها إلا مصالحُها، أعادت على الملك بخير أم بشر؛ فكهنه فرعون وسدنته كانوا يناصرونه على قتل الأطفال وظلم العباد، لكن لما أمسك موسى لم يقل أحد منهم: لا تمسكه؛ فلعله يكون الذي يهلكك ويذهب على يديه مُلكك.

(243) في الآية إشارة إلى أن الله إذا أراد شيئاً أتى به كلمح البصر وإن كان في العادة يتطلب زمناً طويلاً، دليل هذا الفاء العاطفة الدالة على الترتيب والتعقيب المشعرة بأن موسى لما وُضع في اليم وقع بين يدي آل فرعون، فسبحان الله المنزل هذا الكتاب المعجز.

(244) في لفظ (التقط) إشارة إلى أن آل فرعون يعتبرون الملتقط عادياً لا أهمية له، وهو في الواقع بخلاف ذلك¹.

(245) في الآية إشارة إلى أن عداوة موسى خاصةً بآل فرعون، ولا تشمل بني إسرائيل الذين سيكون لهم فيما بعد ناصحاً أميناً؛ أشعر بهذا اللام الدالة على الاختصاص، وأيده قول الله بعد ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾.

(246) في الآية إشارة إلى أن عداوة موسى لفرعون وآله ستكون جدّ كبيرة، ودائمة ما بقيت الروح في أجسادهم؛ هذا؛ لأن (عدواً) على صيغة فعول الدالة على المبالغة، ولكون العداوة أخير عنها بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت وال لزوم.

(247) في الآية إشارة إلى أن الطغاة مهما تجبروا سيُسلط الله عليهم من يتحداهم، ويُظهر ضعفهم وعجزهم، أشار إلى هذا وصفُ العداوة التي تنشأ في الغالب عن العصيان، والتحدي وعدم الخضوع.

(248) في الآية إشارة إلى أن أفضل منازل الملوك هي التي تكون بجوار الماء؛ دل على هذا التقاط آل فرعون لموسى من النيل، فدلّت الآية عن طريق اللزوم أن قصره كان بجواره، وقد افتخر بهذا كما قال حكى الله بقوله: ﴿يَقَوْمُ الْيَسَّى لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف: 51).

(249) في الآية إشارة إلى أن الإنسان قد يعمل أسباباً يعتقد أنها تنجيه من أمر فإذا بها توصله إلى ما خاف منه؛ فأتم موسى اتخذت وسيلة اليم لينجو ولذا من فرعون فإذا به أداه اليم إلى يده.

¹ للأمانة العلمية هذه الهداية استفدتها من تعليق أحد الإخوة على وسائل التواصل.

(250) تفيد الآية أن الله تعالى يُريد لعباده التأمل في كتابه لاستخراج ما فيه من العبر والحكم والأحكام، إذ حذف في الآية المتعلق لتذهب النفس كل مذهب ما لم تخرج عن مقصود الآية، لذا قدّر بعضهم فارغا من الهم، وبعضهم من الوعد، وبعضهم من الصبر...، وكل هذه المعاني تُستشف من الآية، وإن كان بعضها أظهر من بعض.

الآية التاسعة، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ

يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

(252) في الآية إشارة إلى أن الطفل قد تظهر عليه علامة النجاة في صغره، فيُرجى النفع منه في كبره؛ دل على هذا تعليلٌ آسِية لعدم قتل موسى عليه السلام بالنفع المستقبلي¹.

(253) تشير الآية إلى أن المحبة رزقٌ من الله يهبها لمن يشاء؛ فموسى عليه السلام كان مطلوباً للقتل فإذا به محبوبٌ للملوك؛ وقد امتن الله عليه بهذه النعمة في قوله: ﴿وَالْقَيِّتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾² [طه:39].

(254) في الآية إشارة إلى فضل المُحاجة والدفاع عن الضعفاء؛ فآسية ﷺ مُدحت؛ لأنها ما قَصَّرت في الحفاظ على الغلام البريء، العاجز عن الدفاع عن نفسه³.

(255) في الآية إشارة إلى أن نظام التبني عند الفراعنة كان عند فقد الطفل والديه؛ لذلك عطف الولد على النفع، فكأنها تقول: يكون عوناً لنا إن كان له أبوان، أو نتخذه ولداً إن لم يكونا له فيعظم النفع، ويجتمع الخير⁴.

(256) تفيد الآية أن الإله هو الذي يعلم ما يقع في المستقبل؛ لأنها بينت عجز فرعون عن معرفة ما يقع له مع أنه ادعى الإلهية كما حكى الله عنه في نفس السورة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُمَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص:38]⁵.

(257) في الآية إشارة إلى أن الصالح قد يفرغ فؤاده من وعد الله لما يلاقيه من فتن الحياة كما وقع لأُم موسى الصالحة، التي لما أُلقت ولدها في اليوم اطمأن قلبها وزال عنه الخوف والحزن، لكن لما وقع بيد فرعون تخلخل يقينها، وأصبح فؤادها فارغاً⁶.

¹ الكشف: 395/3.

² ينظر: تفسير القرآن العظيم: 222/6.

³ ينظر: المصدر السابق: 222/6.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 248/14.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 248/14.

⁶ ينظر: البحر المحيط: 289/8.

(258) تفيد الآية "أن فرعون حين رآه استحسّنه ثم خالجه الخوف من عاقبة أمره فلذلك أنذرتة امرأته بقولها قرت عين لي ولك لا تقتلوه".¹

(259) في الآية إشارة إلى أن جنود الملوك لا يقومون بأي عمل حتى يأخذوا فيه رأي سيدهم؛ قال فرعون لما وجدوا التابوت لم يفتحوه من تلقاء أنفسهم بل ألقوا به بين يدي فرعون وزوجه.²

(260) في الآية إشارة إلى أن الأشياء الظاهرة ينبغي أن لا يُهتَمَّ بذكرها، إلا إن كانت وراءها فائدة؛ لأن فيها ذكر الخبر ﴿قُرْتُ عَيْنٍ لِي﴾ فقط وحذف المبتدأ المقدّر ب (هذا الطفل)؛ لأن حضوره بين أيديهم أغنى عن ذكره.³

(261) المرأة الحكيمة هي التي تستغل مكانتها عند زوجها لقضاء مصالح عامة دينوية أو دنيوية؛ فآسية استغلت مكانتها عند فرعون فأنقذت موسى من القتل؛ دليل هذا تقديمها لنفسها على زوجها في الذكر.⁴

(262) يستحسن عند قضاء الأغراض التمهيّد لها بمقدمة تُلطف الأجواء، وتهيئ الظروف؛ فآسية لم تطلب ترك قتل موسى إلا لما مهّدت له بكونه قرّة عين لها ولزوجها.⁵

(263) تعليل الأغراض بعلل مقبولة أدعى إلى تحقّق تلك الأغراض في الواقع؛ فآسية لما رأت موسى مهّدت لطلبها ب (قرة العين)، ثم ألحقته بالعلة القاضية عليه، وهي نفعه للجميع، أو صيرورته لهما ولداً.⁶

(264) في الآية إشارة إلى أن الوازع الطبيعي أقدر على تحقيق الأهداف من الوازع العقلي؛ فالحجة وازع طبيعي، ورجاء النفع وازع عقلي، وكلاهما وظفا لحماية موسى من الموت، إلا أن آسية قدمت الوازع الطبيعي على العقلي فأشعرت بكونه أقدر على تحقيق المقاصد.⁷

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 78/20.

² ينظر: المصدر السابق: 77/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 78/20.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 79/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 79/20.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 79/20.

⁷ ينظر: المصدر السابق: 79/20.

(265) تشير الآية إلى عادة عند الملوك، وهي أن من تربى على أيديهم، وترعرع بين أعينهم يكون لهم مطيعاً، ولأهدافهم محققاً؛ فآسية أدركت هذه العادة فاستطاعت أن تُقنع زوجها بترك ذبحه؛ ولعل ختم الآية ب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يُوحى بأن اعتمادهم على التجارب السابقة لا يُجدي في هذا المقام¹.

(266) في الآية إشارة إلى أن الله إذا أراد أن يُهلك أمة نفى عنها الشعور بالهلاك حالاً ومآلاً؛ دليل هذا الجملة الاسمية ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الدالة على الثبوت واللزوم، فكأنها تقول: لن يشعروا بكون موسى سبب هلاكهم لا في صغره ولا في كبره بعد بعثته².

(267) تشير الآية إلى أن العقم قد يكون خيراً للمرأة من الولادة؛ فآسية كان عقمها سبباً في نجاة موسى في الدنيا، وفوزها وفلاحها في الآخرة³؛ هذا بناء على قول بعض المفسرين بأنها كانت عقماً.

(268) وجود الصالحين في المجتمعات الفاسدة يُخفف من أذى المفسدين، فإن وجود امرأة فرعون كان سبباً في إنقاذ سيدنا موسى (- عليه السلام -)، فقالت امرأة فرعون: ﴿لِي وَلَكَ^ط لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، وهذا من المعاني الكامنة في سياق النص.

(269) في الآية إشارة إلى أن مقام الترغيب ينبغي أن تُذكر فيه حسنات الشيء فقط، ولا ينظر إلى سيئاته؛ فآسية رغب زوجها في موسى بكونه ينفعهم في الخدمة، أو يصبح ولداً من أولادهم، وتركت احتمالاً ثالثاً، وهو أن لا يكون لهم ولداً، ولا يقدم لهم نفعاً⁴.

(270) في الآية إشارة إلى أن الفراسة كما تكون عند الرجال تكون عند النساء، وأنها قد تصدق كلها أو يصدق بعضها؛ فآسية تفرست في موسى النفع لها ولزوجها، فنفعها ولم ينفع زوجها⁵.

(271) تدل الآية على قصور علم الإنسان مهما بلغ ملكه، وعلا كعبه؛ فالله نفى الشعور - الذي هو أقل درجات الإدراك - عن فرعون وجنوده مع أنهم أهل سطوة وعلمٍ وحذر⁶.

¹ ينظر: المصدر السابق: 79/20.

² ينظر: نظم الدرر: 248/14.

³ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 314/10.

⁴ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 39.

⁵ ينظر: المصدر السابق، ص: 40.

⁶ ينظر: المصدر السابق، ص: 41.

(272) أسباب الشيء قد تنزل منزلة الشيء نفسه، وتُعطي حكمه؛ فموسى عليه السلام سبب لقرة العين، وجعل في الآية القرة نفسها.

(273) قد يُلهم الله بعض الناس سبلَ الصلاح من غير هادٍ يهدي، ولا كتابٍ يُرشد؛ فآسية ألزمت زوجها بعدم قتل موسى مع أنها لم تعتمد في الظاهر على وحي من الله.

(274) النساء الكاملات أو القريبات من الكمال يكون لهن استعداد فطري للكمال؛ فآسية من الكاملات كما قال رسول الله ﷺ (كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)¹ واستعدادها للكمال كان قبل نبوءة موسى عليه السلام.

(275) في الآية إشارة إلى أن أسباب الهلاك قد تجتمع مع شروطها كلها ثم تدخل قدرة الله فتمنعها كما حدث لموسى عليه السلام الذي وقع بين يدي من قاتليه الباحثين عن رأسه؛ فاجتمعت أسباب القتل وهي الخوف من ذهاب ملك فرعون على يديه، وتوفرت كل الشروط وهي وجوده بين يدي قتلته بدون قوة تمنعه إلا قوة الله التي تدخلت عند قول آسية ﷺ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

(276) في الآية إشارة إلى أن تقديم النفس على الغير في منافع الدنيا أو الآخرة لا يقدر في صلاح العبد، بل هو السبيل الأمثل الذي ينبغي أن يُسلك؛ دل على هذا تقديم ضمير المتكلم (لي) على ضمير المخاطب (لك)؛ ومثل الآية قول الله حكاية عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: 28].

(277) في الآية إشارة إلى أن الأبناء تقرُّ بهم أعيُن آبائهم وأمهاتهم في صغرهم وكبرهم، وقوتهم وضعفهم؛ دليل هذا الجملة الاسمية ﴿قُرْتُ عَيْنٍ﴾، الدالة على الثبوت واللزوم.

(278) في الآية إشارة إلى أن النهي عن الظلم ينبغي أن يشمل كلَّ مَنْ شارك فيه، سواء كان أمراً أو مأموراً؛ دليل هذا خطابُ الجمع ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ الوارد في مقام يصلح فيه خطاب المفرد (لا تقتله)، إذ كان يكفيها أن تقول: (لا تقتله) فينهى جنوده عن القتل.

¹ صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب فضل عائشة ﷺ: 29/5، رقم: 3769، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل خديجة: 1886/4، رقم: 2431.

(279) في الآية إشارة إلى أن القتل ليس فيه إكراه، فلا يجوز لشخص أمر بقتل شخص آخر ظلماً أن ينفذ المأمور به؛ لأن نفس المكره ليست بأولى من نفس المقتول؛ لذا نُهت آسية الجميع عن قتله؛ وهذا مقرر في كتب الفقه والأصول.

(280) في الآية إشارة إلى أن هلاك القائد فيه هلاك الرعية؛ يُستشف هذا من ضمير الجمع ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ مع أن المشهور عندهم أن الفتى الإسرائيلي يهلك ملك فرعون¹، ولا يهلك شعبه أيضاً.

(281) تشير الآية إلى جواز قصد النفع من الأبناء حين يكبرون؛ فآسية رغبت في نفعه، ورغبت فيه زوجها، ولم يُنكر عليها القرآن الكريم فعلها؛ وآيات البر بالوالدين وأحاديثه تشير إلى هذا المعنى.

(282) تشير الآية إلى أن كلام الله لا تُحيط به الأفهام، ولا تُدرك كل أسرار العقول؛ ووجه الهداية حذف المتعلق من ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ فاحتمل أنهم لا يشعرون بالحكمة المترتبة على الإبقاء، أو لا يشعرون بالهلاك الذي يكون على يديه، أو لا يشعرون بعنق بني إسرائيل من رق فرعون وجنوده، فكل مفسر أعطى معنى صالحاً وبقيت معاني لا يعلمها إلا الله.

(283) النسب الحقيقي أو الإضافي لا يُغير الحقائق، ولا يؤثر في الشرف نقصاً ولا زيادة؛ فآسية أضيفت إلى فرعون الطاغية، فلم تُذم لانتسابها إليه، ولم يُمدح لارتباطه بها؛ ويؤيد هذا قول النبي ﷺ لا بنته (يا فاطمة بنت محمد سلمي ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً)².

(284) في الآية إشارة إلى أن خطاب العظماء - في اعتقاد الناس - بما يُعظمهم يُساعد على تحقيق المقاصد وجلب المنافع؛ فآسية خاطبت فرعون بضمير الجمع - على رأي بعض المفسرين - تعظيماً له بقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ ليلي لها مطلبها.

(285) في الآية إشارة إلى أن علاقة الزوجة بزوجها قد تكون حسنة وقد تكون سيئة، فإن كان الاتفاق في الدين والهدف فهي زوجة، وإلا فإنها امرأة كباقي النساء لا يجمعها مع بعلمها إلا الفراش؛

¹ هذا على رأي بعض المفسرين القائلين بأن سبب الذبح كان لرؤيا، أو لقول منجم، أما على رأي من يقول بأنه فعل هذا سياسة فلا يظهر فيه اختصاص الهلاك بملك فرعون، وإن بقي فيه مضمون الهداية

² صحيح البخاري، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب: 6/4، رقم: 2753، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ 192/1، رقم: 206.

لأن الزوجة من الزوج الذي يثني صاحبه، ويجعله مكملًا لنقصه؛ ويشهد لهذا ذكر الله لزوجته نوح ولوط بلفظ امرأة، بينما ذكر زوجة زكرياء عليه السلام بوصف الزوجية فقال: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ وَيْحَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوَّجْنَاهُ بِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَّهَا وَكَانُوا بِرَبِّكَ يُخَفِّفُونَ﴾ [الأنبياء: 90].

الآية العاشرة، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن

رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(286) في الآية إشارة إلى أن الكَمَل من الناس قد ينسون ما وعدهم الله به؛ فهذه أم موسى وعدها الله برد ولدها إليها لكن لما خرج من يدها ساورتها الوسواس: هل أكلته السباع وهوام البحر؟ هل أخذه الصيادون وباعوه لفرعون؟، ولم تهدأ حتى أرسلت ابنتها تبحث عنه، وتقص أثره¹.

(287) في الآية إشارة إلى أن من تولاه الله قد يصل به الأمر إلى خلاف المقتضى من أمر الله فتتداركه رحمة ربه فتزده إلى ما كان عليه من النقاء والطهارة؛ فأم موسى عليه السلام قاربت البوح بما في نفسها فتدخلت قدرة الله فصرفت عنها لتكون النتيجة نجاة موسى، وحفظ نفسه².

(288) في الآية إشارة إلى أن الإنسان لا ينفعه شيء إلا عصمة الله وتأنيده؛ فأم موسى أمرت "بشيئين، ونهيت عن شيئين، وبُشرت بشيئين، فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياتها فربط على قلبها"³.

(289) تشير الآية إلى أن قلب الإنسان تكون له حالتان: حلة توقد، وحالة طمأنينة وسكينة، ففي الحالة الأولى يُسمى فؤاداً، وفي الحالة الثانية يسمى قلباً؛ ندرك هذا من اختلاف التعبيرين عن أم موسى في نفس الآية، فلما كان قلبها فارغاً سماه فؤاداً، ولما سكن بسبب الربط سماه قلباً⁴.

(290) تشير الآية إلى أن الله يقلب الشيء إلى ضده في لحظة واحدة؛ ففؤاد أم موسى كان عامراً فتحول إلى فراغ⁵.

(291) في الآية إشارة إلى أن الإيمان هو الذي يمنع النفس من جموحها، ويتحكم في حركاتها وسكناتها؛ لذا جعله الله علةً لثبات أم موسى، وطمأننة خاطرها⁶.

¹ ينظر: جامع البيان: 531/19.

² ينظر: نظم الدرر: 249/14.

³ فتح البيان: 94/10.

⁴ ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص: 646.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 80/20.

⁶ الخواطر: 17/

(292) تشير الآية إلى أن الأمور العظيمة ينبغي كتمها حتى لا يتعرض لها ما يضُرُّ بها؛ دل على هذا ضميرُ الشأن في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ فكأن الآية تقول: إن الأمر العظيم كادت تُظهره أم موسى، فأكرمها الله فصبرت على الكتمان¹.

(293) في الآية إشارة إلى أن قلوب العباد تحتاج إلى نوعين من العلاج: النوع الأول: الربطُ عليها، ويكون بتقوية الإيمان والصبر على المحن...، والثاني: الشدُّ عليها ويكون بالمؤلمات من المكاره والمخاوف والأحزان².

(294) تشير الآية إلى أن الرجال في غالب أحوالهم يتصرفون تصرفا تغلب عليه الحكمة والتأني، بخلاف النساء اللواتي تغلب عليهن العاطفة فتجعلهن يتصرفن تصرف الطيش؛ يُستفاد هذا من نسبة أم موسى إلى المؤمنين، وليس إلى المؤمنات؛ ونظيرُ هذا وصف مريم بأنها من القانتين دون القانتات³.
(295) في الآية إشارة إلى أن إظهار الإنسان ما في صدره يُخفف عنه من الألم؛ فأم موسى وَجَدَتْ في نفسها على ولدها، فأرادت أن تخفف عنها بإظهار ما في صدرها، فعصمها الله لحكمة⁴.

(296) في إتيان الله بلفظ ﴿رَبَطْنَا﴾ إشارة إلى أن الله إذا أراد بعبد خيرا ربط على قلبه لكي لا يتحرك إلى ما يغضب ربه⁵.

(297) في الآية إشارة إلى أن الإنسان يكون على حال فإذا نزل به البلاء تغيرت تلك الحال⁶؛ فهذه أم موسى طرحت ولدها في اليم اتباعا لأمر الله، فلما وقع في يد فرعون تَغَيَّرَ حالها، وأصبح فؤادها فارغا إلا من ذكره على رأي ابن عباس وغيره.

(298) في الآية إشارة إلى أن الإنسان مفتقر إلى الله في كل وقت؛ دليل هذا حرف لولا الذي يأتي لامتناع شيء لوجود غيره، فلولا ربط الله لأبدت أم موسى ما في قلبها⁷.

¹ ينظر: معارج التدبر: 356/9.

² ينظر: المصدر السابق: 356/9.

³ ينظر: معارج التدبر: 356/9.

⁴ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 44.

⁵ ينظر: المصدر السابق، ص: 40.

⁶ ينظر: المصدر السابق، ص: 47.

⁷ ينظر: المصدر السابق، ص: 47.

(299) في الآية إشارة إلى أن الإيمان والكمال في الرجال أكثر منه في النساء؛ لأن الله قال ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل من المؤمنات، وقال عن مريم (من القانتين) ولم يقل من القانتات¹، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون)².

(300) تشير الآية إلى إثبات القضاء والقدر؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهَا﴾ يشير إلى أنها لم تنطق به بتقدير الله لا بما كان يحول في خاطرها³.
(301) في الآية إشارة إلى أن أسماء العظام تظهر منذ صغرها حتى تفشو بين الناس؛ يُستشف هذا من الإظهار في موضع الإضممار، إذ الآيات كانت تتحدث عن موسى عليه السلام بضمير الغائب فجاءت هذه وذكرته بالاسم الظاهر.

(302) تشير الآية إلى أن قلوب العباد بين يدي الله يفعل بها ما يشاء، يربط على بعض منها بالإيمان، ويترك بعضها منها يفعل بها الهوى ما يشاء؛ دليل هذا إخبار الله بفراغ فؤاد أم موسى حتى صارت حائرة، وبربطه عليه حتى عادت إلى اليقين السابق.
(303) تشير الآية إلى أن الصبر على البلاء من نعم الله، فمن رزقه فليحمد الله، وليكثر من شكره؛ فأم موسى صبرها الله، فنجى بصبرها ولدها، وأهلك عدوّه وعدوها.

¹ ينظر: المصدر السابق، ص: 49.

² صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها: 29/5، رقم: 3769، وقد سبق تحريجه.

³ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 50.

الآية الحادية عشرة، قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ﴾¹

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(305) تشير الآية إلى أن القيام بالأسباب مع وعد الله بتحقيق المسبب لا يقدح في إيمان العبد وبقينه؛ فأم موسى طرحت ولدها، ثم قامت بأسباب الحفاظ عليه مع أن الله وعدها بإرجاعه¹.

(306) تشير الآية إلى أن أم موسى كانت موقنة بأنه لن يذهب به النيل إلى بعيد؛ ذلك أنها أرسلت ابنتها تبحث عنه، وهذا لا يتحقق إلا على فرض أن يكون بجوار بيتها أو الأماكن المحيطة به².

(307) في الآية إشارة إلى أن من كُلف بمهمة استطلاع الأخبار التي فيها مصلحة الأمة عليه أن يجعل قلبه قبل أذنيه، وبصيرته قبل بصره حتى يظفر بمrade؛ دل على هذا لفظ ﴿فَبَصَّرَتْ﴾ الموحى بأنها كانت تستعمل البصيرة أكثر من البصر؛ ويشهد لهذا قول الله تعالى في شأن السامري: ﴿بَصَّرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾³. [طه: 97].

(308) تشير الآية إلى أن من كلف بمهمة خطيرة عليه أن يتعامل معها كأنها بجنبه لا أنها من مقاصده حتى لا يكشف أمره، ولعل ها هو السر في التعبير بالجُنب دون البُعد⁴.

(309) في قوله تعالى: ﴿أَمْرُ مُوسَى﴾ - إشارة إلى أن هذا الوليد، قد أصبح - في رعاية الله، وفي ضمان وعده بحفظه - قد أصبح ذا وجود معترف به في هذا المحيط الذي ضاعت فيه معالم الأطفال، وأهدرت فيه دماؤهم.. إنه الآن شخصية معروفة، وعلم ظاهر، يأخذ مكانه في هذه الأحداث، تماما كما يأخذُ فرعون مكانه فيها⁵.

¹ ينظر: البحر المحيط: 290/8.

² ينظر: التحرير والتنوير: 82/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 83/20، والتفسير القرآني للقرآن: 317/10.

⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 317/10.

⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 316/10.

(310) في الآية "إشارة إلى أن ما يُتلى به المؤمنون الصابرون من أرزاء ومحنٍ، هو تثبيتٌ لإيمانهم، وترسيخٌ لقواعدِ هذا الإيمان في قلوبهم، حيث ينكشف لهم وراء كل رزء، وعقب كل محنة، أن ذلك لم يكن إلا عن تدبير الحكيم العليم، وأنهم لو استقبلوا من أمورهم ما استدبروا، لما أقاموها إلا على هذا الوجه الذي أقامه الله رب العالمين، وبهذا ينتقلون من حال القلق، والجزع في مواجهة المصائب والمحن، إلى حال التسليم، والرضا.. وهذا هو الإيمان في أرفع مقاماته، وأعلى منازلها." ¹

(311) في الآية إشارة إلى أن وصف الأخوة له تأثير كبير على النفسية البشرية، إذ يجعل الإنسان يشتغل لإخوانه كما يشتغل لنفسه؛ ووجه الهداية العدول عن لفظ البنت إلى لفظ الأخت ².

(312) في الآية إشارة إلى خُلُق رفيع ينبغي أن يُرى عليه الأطفال، وهو الاهتمام بإخوتهم والسهر على مصالحهم، حتى إذا كبروا يتذكرون جميل بعضهم لتتقوى الصلة بينهم، وتتوطد أواصر المحبة فيهم.

(313) في الآية إشارة إلى أن الأخوات أكثر حنوا على إخوانهم من الإخوان على أخواتهم؛ فأخت موسى لم تعترض على طلب أمها، ولا عللته بالمخاطر التي تلحقها، بل بادرت باحثاً عن أخيها حتى وفقها الله في الحصول عليه؛ ويمكن أن يُعترض هذا المعنى بقول الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ^(٤٩) إذ قدّم الإناث على الذكور، والتقديم في اللغة عموماً والقرآن خصوصاً لا بُدَّ له من حكمة، كما يمكن أن يقوى بما فعل إخوة يوسف بأخيهم.

(314) في الآية إشارة إلى أن من قام بالأسباب كما يجب، -وكان في علم الله أن المسبب نافع للمسيب- تأتي المسببات رديفة الأسباب؛ دليل هذا الفاء الدالة الترتيب والتعقيب.

(315) تشير الآية إلى أن الضعيف في الحال القوي في المال قد يكون سبباً لرفعة من هو قوي في الحال؛ فموسى عليه السلام ضعيف في لحظة ولادته، وأخته قوية بالنسبة إليه يُستشف هذا من الإضافة التي جاءت فيها أخت موسى بالاسم الظاهر، وهو بضمير الغائب الدال على ضعفه في تلك الحال، فأبقى الله ذكرها إلى يوم الدين.

¹ المصدر السابق: 316/10.

² ينظر: تفسير ابن عرفة: 265/3.

(316) تشير الآية إلى أن العبد قد يعمل عملاً يسيراً في أعين الناس وهو عظيم عند الله، فيُكرمه به أيّما إكرام؛ فأخت موسى قامت بعمل يسير وهو تتبع أخيها إلا أنه عظيم عند الله إذ بسببها رجع إلى أمه، فرضع ثديها، فكافأها الله بتخليدها في كتابه إلى يوم الدين.

(317) في الآية إشارة إلى أن آل فرعون لم يشعروا بأخت موسى لا في الحال ولا في المال؛ دلّ على هذا قول الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الذي جاء بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت واللزوم، وأيضا المضارع المنفي الدال على تجدد نفي الشعور.

(318) في الآية إشارة إلى جواز خروج المرأة لقضاء مصالحها إن لم تجد من يقضيها لها؛ لأن أخت موسى خرجت من بيتها طالبة أثر أخيها كما هو ظاهر. وقد يُعترض على هذه الهداية بأن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا -والخلاف فيه معروف- فيجيب عنه بأن نصوصا في شريعتنا أُيِّدت هذه الهداية، كقصة النبي صلى الله عليه مع أسماء زوج الزبير حين رآها تحمل النوى على رأسها¹.

(319) في الآية إشارة إلى جواز تتبّع الناس ومراقبتهم إن ظهرت لنا مصلحة راجحة؛ فأم موسى أرسلت ابنتها لتستطلع الأخبار دون أن يشعر بها فرعون وجنوده؛ ويؤيد هذا قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع حذيفة يوم الخندق، إذ أرسله ليستطلع أخبار قريش دون أن يُحدث شيئا في صفوفهم².

¹ ينظر: تمام القصة: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة: 37/7، رقم: 5224.

² سيرة ابن هشام: 231/2.

الآية الثانية عشرة، قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ

أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ ﴿١٣﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(321) في الآية إشارة إلى أن التحريم في القرآن يَرِدُ بمعناه اللغوي كما يرد بمعناه الشرعي¹، فعلى دارسي القرآن أن يتفطنوا إلى الحقائق الشرعية والحقائق اللغوية حتى لا يحملوه على غير مراده؛ دليل هذا لفظُ التحريم الذي قُصد به المنع الطبيعي وليس التكليفي؛ لأن الصبي غير مكلف، فلا يعقل أمره أو نهيهِ.

(322) تشير الآية إلى أن النصح في العمل والإخلاص فيه من شيم الفضلاء، وأنه مما تحبه القلوب، وترضاه العقول بغض النظر عن المعتقدات؛ فأخت موسى استدلت على مرادها بكون الأهل أصحاب نصح، وفرعون رضي به مع أنه كان منحرفاً عن منهج الله في الاعتقاد².
(323) تشير الآية إلى أن فرعون كان تعلقه بموسى كتعلق زوجه به كما يدل على هذا طلبه المراضع، وبحثه عن مصلحة الرضيع³.

(324) في الآية إشارة إلى أن موسى عُرض على كثير من المرضعات فرفضهن جميعهن، بدليل جمع (المراضع)، إذ لو عُرض على واحدة لقال: حرماً عليه المُرْضِع⁴.

(325) تشير الآية إلى أن الكفالة ينبغي أن لا يكون فيها للكافل حظٌ دنيوي، إنما يكون القصد منها نفع المكفول فقط، أو نفعه وأهله؛ دلَّ على هذا اللامُ الدالة على التخصيص في ﴿لَكُمْ﴾، وأيضاً الكاف المشعرة بالامتنان⁵.

(326) في الآية إشارة إلى أن من عادة الرعية المحرومين أن يجتهدوا في إرضاء الملك حتى تكون لهم قدمٌ عنده؛ ذلك أن النسوة لما سمعن باحتياج فرعون لمرضع سارعن بتقديم أنفسهن لعلهن يحظين بمكانة عنده¹.

¹ ينظر: الكشف: 396/3، ومفاتيح الغيب: 582/24.

² ينظر: مفاتيح الغيب: 582/24.

³ ينظر: المصدر السابق: 582/24.

⁴ ينظر: البحر المحيط: 290/8.

⁵ ينظر: تفسير ابن عرفة: 165/3.

(327) في الآية إشارة إلى أن الإنسان إذا كان في مقام الاتهام ينبغي أن يختار من الألفاظ ما يُوسِّع به دائرة الظن؛ يؤخذ هذا من إتيانها بلفظ ﴿أَهْلٍ بَيْتٍ﴾ بدل امرأة؛ لأنها لو قالت امرأة لقالوا لها من هي؟ وحينئذ تقع في الحرج².

(328) في الآية إشارة إلى ضعفِ فرعون وجنوده الذين اضطروهم طفلًا رضيع كان مطلوب القتل إلى البحث عما يُصلحه، ويرعى شؤونه؛ دل على هذا تحريم الله على الطفل ما هو من جِبالاته فدفعهم إلى البحث عن مصالحه من جهة أخرى³.

(329) في الآية إشارة إلى إثبات علم الله بالكائنات في الأزل⁴، إذ جاء فيها أن التحريم كان من قبل، فاحتمل قبل إلقائه في النيل، وقبل خلقه وإيجاده أصلاً؛ وفي كلا الاحتمالين رد على القدرية. (330) تشير الآية إلى أن أم موسى كانت حُرَّةً، وأن عادتهم في ذلك الوقت أن ترضع الحرَّةَ الطفل في بيتها لا في بيت الصبي كما هي عادة العرب في الإرضاع⁵.

(331) تشير الآية إلى أن طلب الشيء من كبراء القوم ووجهائهم بطريق الاستفهام أسدُّ وأقوم من طلبه باللفظ المباشر؛ فأخت موسى قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ وهي تقصد عندي طلبكم وهو المُرْضِعُ التي يقبل ثديها الصبي⁶؛ وهذا الأسلوب استعمله الله تعالى مع أحبائه في كثير من الآيات منها على سبيل المثال قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَجَرَّةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10].

(332) تشير الآية إلى أن الكفالة والنصح منفكان غير متلازمين، فقد يكفل المرء ولا ينصح، وهذا يعني أن الكفالة أهون من النصح لذلك أكَّدت لفرعون أن هؤلاء الأهل جمعوا بين الخيرين: الكفالة والنصح⁷.

¹ ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية: 5498/8.

² ينظر: نظم الدرر: 251/14.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 84/20.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 84/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 84/20.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 84/20.

⁷ ينظر: المصدر السابق: 84/20.

(333) في الآية إشارة إلى أن أتباع الطواغيت يُنفذون أوامرهم بسرعة كسرعة البرق، إذ أحضروا لموسى مراضع في وقت قصير، كلما رفض واحدة أتوا بالأخرى، حتى شاع الطلب في المملكة، فقالت لهم أخته هناك مرضعة سيقبل ثديها¹.

(334) في الآية إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون ذكيًا يتخلص من المواقف المحرجة دون كذب؛ يظهر هذا مما رُوي عن أخت موسى أنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُ وَنَصْحُون﴾ قالوا لها: دلينا على أمه فأنت تعرفينها، قالت: أقصد وهم ناصحون للملك؛ فالضمير في (له) يَحتمل أن يرجع إلى الطفل وهو الظاهر لقربه، ويَحتمل أن يرجع إلى الملك باعتبار السياق².

(335) في الآية إشارة إلى أن الله قد يتقل الشخص من عالم الفقر المدقع إلى عالم الثراء الفاحش في لحظة واحدة؛ فأمر موسى كانت تعيش كسائر الناس فإذا بها تدخل قصر فرعون معززةً مُكرمة³.

(336) تشير الآية إلى أن الإنسان قد يرغب في شيء ويتمسك به حتى لو لم يكن آمناً عليه، فإن امتثل أمر الله مَكَّنَه منه وهو آمن مطمئن عليه؛ فأمر موسى كانت تود إرضاع ابنها وهي في حالة من الذعر والخوف، فلما أطاعت ربها أرضعته وهي آمنة مطمئنة في بيتها⁴.

(337) تشير الآية إلى أن العادة في حاشية الملوك أن يطلبوا له ما يُريد سواء أكان في مصلحته أم لا؟ فيُسَخرون كلَّ ما لديهم لتحقيق مرغوبه؛ يظهر هذا من لفظ (المراضع) الذي هو جمع كثرة، فكأنهم ما تركوا مُرضعة إلا وأتوا بها، حتى إنهم قَبَلوا من امرأة اقتراحاً دون أن يعرفوا حقيقة أمرها⁵.

(338) تشير الآية إلى أن عِلْيَةَ القوم الذين يزدرون من دونهم قد يُلجئهم الله إليهم فيسمعون كلامهم، ويحققون أهدافهم⁶، وها هي أخت موسى التي تُعدُّ من بني إسرائيل المغضوب عليهم من فرعون وجنوده أصبحت ذا شأن يسمعون كلامها، ويصدقون حديثها، فسبحان الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

¹ ينظر: المصدر السابق: 84/20.

² ينظر: التفسير المظهر: 150/7.

³ ينظر: المصدر السابق: 150/7.

⁴ التفسير الوسيط: 384/10.

⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 317/10.

⁶ ينظر: في ظلال القرآن: 2680/5.

(339) في الآية إشارة إلى أن الله إذا أراد شيئاً كان كما أراد، حتى لو جعل له أسباباً غير أسبابه الطبيعية، أو عطل أسباباً تؤدي إلى منعه؛ فلما أراد سبحانه وتعالى أن يرجع موسى إلى أمه عطل رغبته في الرضاع - التي هي فطرة جُبل عليها كل مولود - من غيرها.

(340) تشير الآية إلى أن الأم تبقى ناصحة لأبنائها حتى عندما يكبرون؛ دلّ على هذا الجملة الاسمية في ﴿وَهُمْ لَهُ وَنَصْحُونَ﴾ وأكدّه الواقع المعيش، إذ لا نكاد نجد أمّاً إلا وهي ناصحة لولدها، مخلصّة له حتى في الحالة التي تكون هي أحوج إليه منه إليها.

(341) في الآية إشارة إلى أن قدرة الله قد تتدخل فتمنع على الشخص ما يهواه بطبعه ليحقق له مصالحه؛ فالله تعالى منع عن موسى الرضاع مع أن كل طفل يهواه ليحقق له حنان أمه، وحماية إخوته.

(342) في الآية إشارة إلى جواز التورية إن كانت فيها مصلحة معتبرة شرعاً؛ فأخت موسى قالت: ﴿عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ﴾ والبيت نكرة يصدق على أي بيت، ومقصودها بيت بعينه.

(343) في الآية إشارة إلى طريقة التخاطب بين الناس، وهي مراعاة حال المخاطب لا حال المخاطب، بدليل أن أخت موسى أتت بالأهل نكرة؛ لأن آل فرعون لا يعرفونه، مع أنها تعرفه.

(344) في الآية إشارة إلى أن من أخذ طفلاً ثم أهمله حتى ضاعت مصالحه فإنه يضمن تلك المصالح؛ لأن معنى الكفيل هو الضامن.

(345) في الآية إشارة إلى أن الناظر إلى القرآن ينبغي أن يكون على علم بالفرق بين العمومات العرفية والعمومات الحقيقية حتى لا يحمل بعضها على بعض الحقيقية فيختل ميزان الفهم؛ ذلك أن الله جمع المراضع وقصد بها مراضع ذلك المكان لا مراضع الأرض كلّها.

(346) في التعبير بالكفالة دون الإرضاع في مقام يُطلب فيه التعبير بالإرضاع إشارة إلى أن الأطفال يحتاجون إلى التربية والعناية أشدّ من احتياجهم إلى الإرضاع؛ لأنه يكون من العالمات بما يحتاج إليه الطفل ومن غيرهن، بخلاف الكفالة فلا تكون إلا ممن علم مصلحة المكفول.

(347) في الآية إشارة إلى أنه يُستحسن لمن يرغب في قضاء مصالحه على يد شخص أن يُظهر له من الاهتمام ما يليق بمقامه، أو يُبدي اهتمامه بمصالحه كما يهتم بها هو بنفسه أو أشد؛ أشعر بهذا تقديم المعمول الذي هو (له) على عامله الذي هو (ناصرحون).

(348) تشير الآية إلى أن الله إذا قَسَمَ لعبده رزقا سيصيبه وإن تعرض له الإنس والجن، وبألغوا في أسباب الحصول عليه؛ ذلك أن النسوة سارعن لينلن شرف إرضاع موسى فردَّهن الله خائبين، مع أنهن مهيأت للإرضاع؛ لأن الإرضاع من نصيب أمه دون غيرها

(349) تشير الآية إلى أن كفالة الصبي ليست بالأمر الهين، إذ تحتاج إلى جهد جهيد، وتعاون كبير حتى يتحقق المقصود؛ دليل هذا ضميرُ الجمع في ﴿يَكْفُلُونَهُ﴾، فقد كان يكفيها أن تقول: هل أدلكم على امرأة تُرضعه، أو امرأة تكفله دون ذكر أهل البيت.

(350) في الآية إشارة إلى أن تعطيل الأسباب عن مسبباتها ليس بالأمر الهين، فلا يقدر عليه إلا رب العالمين ذو القوة والجبروت؛ لأن لفظ (نا) في (حرمنا) يدل على جمعٍ أو واحدٍ معظمٍ نفسه.

(351) في الآية إشارة إلى أن المعنى الذي يفهم من السياق يُستحسن حذفه ليكون الكلام جاريا على البلاغة؛ هذا لأن الآية الكريمة ذكرت قول أخت موسى، ولم تذكر الذين سمعوا قولها وهم آل فرعون؛ لأنهم مفهومان من السياق.

(352) تشير الآية إلى قاعدة أصولية وهي أن العموم دلالة ظنية، وأن السياق له دور كبير في تحديد دلالاته؛ فالمرضع جمعٌ مرضع، وهؤلاء تدخل فيهم أم موسى حسب وضع اللفظ، لكن السياق أخرجها، لكونه ذكر أنها أول من أرضعته.

(353) في الآية إشارة إلى أن الرضاع له دور أساسي في حياة الطفل، ليس من جانب الصحة فقط بل حتى من جانب الطِّباع؛ يؤيد هذا ما ذهب إليه بعضُ الفقهاء من منع الحمقاء من إرضاع ولدها حتى لا يتأثر بحمقها¹.

¹ ينظر: المغني لا بن قدامة: 346/11، والمقاصد الحسنة، ص: 368.

الآية الثالثة عشرة، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ

وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(355) في الآية إشارة إلى أن من وعد بوعدين، فتحقق له أحدهما يكون مؤقنا تمام اليقين بتحقيق الثاني؛ فأم موسى وعدت برد ولدها وإرساله، فلما تحقق لها ردّه أيقنت برسالته؛ يدل على هذا قول الله ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾¹.

(356) في الآية إشارة إلى أن وعد الله قريب التحقيق، وإن ظهر للناس طول زمانه؛ دل على هذا الفاء في ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ الدالة على الترتيب؛ ويشهد لهذا أيضا قول النبي ﷺ لخباب بن الارت² الذي شكى إليه تأخر النصر: (والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)³.

(357) في الآية إشارة إلى أن الوالدة إن رأت من ولدها علامات تدل على تبوئه منصبا معيناً فعليها أن تربيته على ما يليق بذلك المنصب⁴؛ لأن قول موسى عليه السلام لما قتل القبطي ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يدل على أن أمه كانت تُعلمه ما ينبغي فعله إن أخطأ

(358) تشير الآية إلى أن بعض الأشياء قد تكون أدلتها ظاهرة ومع ذلك يصرف الله الناس عنها لحكمة يُريدها، فكل القرائن تُوحى بأن موسى من بني إسرائيل، وأن المرضعة هي أمّه لكن لم يشعر أحد من آل فرعون بالأمر لحكمة وهي أن يكون موسى نبيا ورسولا⁵.

¹ ينظر: الكشف: 396/3 ، ومفاتيح الغيب: 582/24.

² كان مولى لأُم أُمّار ابنة سباع بن عبد العزى الخزاعية حلفاء بني زهرة بن كلاب، ويكنى خباباً أبا عبد الله، كان من المستضعفين في مكة الذين يعذبهم المشركون، وقد هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا، ثم نزل الكوفة ومتى بها في صيفين سنة سبع وثلاثين، وصلى عليه علي بن أبي طالب. ينظر: (الطبقات الكبرى: 121/3، وتاريخ الإسلام: 317/2).

³ صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة: 201/4، رقم: 3612.

⁴ ينظر: تفسير المراغي: 41/20.

⁵ ينظر: نظم الدرر: 251/14.

(359) تشير الآية إلى أن العلم يختلف في ذاته زيادةً ونقصاً خلافاً لما يدعيه بعض المتكلمين من كونه متحداً؛ لأن أم موسى كانت تعلم برجوع ولدها علم اليقين، فلما رده الله عليها أصبحت عالمة عين اليقين¹.

(360) تشير الآية إلى مكانة العلم، وأنه أصل القصد الحسن، والفعل الجميل؛ لأنها ذمت آل فرعون بسبب ما عندهم من الجهل بذات الله، وما يكون عليه أمر موسى حينما يكبر².
(361) تشير الآية إلى أن من احتسب الأجر على الله يَمُنْ عليه بأجرين: أجر دنيوي، وأجر أخروي؛ فأُم موسى أرادت بعملها وجه الله فثبت أجرها وجزاها ربها في الدنيا بالأجر على رضاء ابنها³.

(362) في قول الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ إشارة إلى أن المرأة لن تستطيع أن تكتُم أمومتها عن ولدها؛ لأن أم موسى شاء الله أن تُربي ولدها في بيتها خوفاً من افتضاح أمرها الذي يؤدي إلى قتل موسى عليه السلام، إذ لو رتبته في قصر فرعون لنطقت بلفظ الأمومة بقصد أو غيره .
(363) تشير الآيات مجتمعاتٍ إلى أن العلو الحقيقي هو علو الله والمؤمنين، وأن علو فرعون إنما هو كسراب يحسبه الظمآن ماءً، فإذا نظر إليه بعين البصيرة أدرك أنه لا شيء⁴.
(364) تشير الآية إلى أن الناس إن تقادم عهدهم بالدين -دون تجديده من طرف المجددين- يقل علمهم بأمور بالتوحيد، وما يتعلق بالله عموماً حتى يقتربوا من الكفر؛ ذلك أن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يشعر بفرط جهلهم بما أنزل على الأنبياء والرسل قبلهم⁵.
(365) تشير الآيات إلى أن علو فرعون هو سبب الانتقام منه والانتصار للمستضعفين، ليحذر الجبابرة والمتكبرون عواقب أعمالهم⁶.

¹ ينظر: نظم الدرر: 253/14.

² ينظر: المصدر السابق: 253/14.

³ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 224/6.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 85/20.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 85/20.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 85/20.

(366) في طي الآية الحوار الذي دار بين طالبي الموضع وبين أخت موسى إشارةً إلى أن الإنسان ينبغي أن يعمل فكره في النص القرآني لإدراك المحذوف الذي فيه فائدة عاجلة أو آجلة¹.

(367) في حذف متعلق ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ إشارةً إلى أن آل فرعون لا يعلمون من الله عليهم في الدنيا، ولا يعلمون ما ينتظر الصالحين والطالحين في الآخرة²؛ لأن الله حذف متعلق العلم فأشعر أنهم يجهلون كل هذا، وزيادة.

(368) وفي الآيات مجتمعات هدايات ذكرها ابن عاشور رحمه الله أحببت أن أنقلها بلفظها رغم طولها لما فيها من الفائدة؛ قال رحمه الله: "وموضع العبرة من هذه القصة أنها تتضمن أموراً ذات شأن فيها ذكرى للمؤمنين وموعظة للمشركين.

(369) فأول ذلك وأعظمه: إظهار أن ما علمه الله وقدره هو كائن لا محالة كما دل عليه قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ وأن الحذر لا ينجي من القدر.

(370) وثانيه: إظهار أن العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين وأن علو فرعون لم يغن عنه شيئاً في دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة.

(371) وثالثه: أن تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشيرٌ إلى أن ذلك هو سبب الانتقام منه، والأخذ بناصر³ المستضعفين ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم وليرجو الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم.

(372) ورابعه: الإشارة إلى حكمة ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216] في جانب بني إسرائيل ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216] في جانب فرعون، إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدمير قطع نسلهم.

¹ ينظر: معارج التدبر: 359/9.

² ينظر: المصدر السابق: 359/9.

³ كذا في الأصل، ولعل يقصد أن التمهيد بعلو فرعون يقصد منه تحذير الجبابرة، وتبشير المستضعفين وأنصارهم، بأنه يكون معهم ويشد أزهرهم.

(373) وخامسه: أَنَّ إصَابَةَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بَغْتَةً مِنْ قَبْلِ مَنْ أَمَلُوا مِنْهُ النِّفْعَ أَشَدُّ عِبْرَةً لِّلْمُعْتَبِرِ وَأَوْقَعُ حَسْرَةً عَلَى الْمُسْتَبْصِرِ، وَأَدُلُّ عَلَى أَنَّ انتِقَامَ اللَّهِ يَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ انتِقَامِ الْعَدُوِّ كَمَا قَالَ ﴿فَالْتَقَطَهُوَ إِذْ لَمْ يَكُن لِّهٖ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ مع قوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

(374) وسادسه: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ بِحُكْمِ التَّعْقِلِ أَنْ تُسْتَأْصَلَ أُمَّةٌ كَامِلَةٌ لِتَوْقَعِ مُفْسِدٍ فِيهَا لِعَدَمِ التَّوَازُنِ بَيْنَ الْمَفْسِدَتَيْنِ، وَلِأَنَّ الْإِحَاطَةَ بِأَفْرَادِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ مُتَعَذِّرَةٌ فَلَا يَكُونُ الْمَتَوَقَّعُ فَسَادُهُ إِلَّا فِي الْجَانِبِ الْمَغْفُولِ عَنْهُ مِنَ الْأَفْرَادِ، فَتَحْصُلُ مَفْسَدَتَانِ: هُمَا: أَخَذَ الْبَرِيءُ، وَانْفِلَاتُ الْمَجْرَمِ.

(375) وسابعه: تَعْلِيمُ أَنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ بِتَهْيِئَةِ الْأَسْبَابِ الْمُفْضِيَةِ إِلَيْهِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لِأَهْلِكَ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ بِحَادِثِ سَمَاوِيٍّ، وَلَمَّا قَدَّرَ لِإِهْلَاكِهِمْ هَذِهِ الصُّورَةَ الْمُرْتَبَةَ وَلَأَنْجَى مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنْجَاءً أَسْرَعَ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَحْصُلَ ذَلِكَ بِمُشَاهَدَةِ تَنْقِلَاتِ الْأَحْوَالِ ابْتِدَاءً مِنْ إِقْلَاقِ مُوسَى فِي الْيَمِّ إِلَى أَنْ رَدَّهُ إِلَى أُمِّهِ، فَتَكُونُ فِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32] وليتوسموا من بوارق ظهور النبي ﷺ وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوة أن ما وعدهم به واقعٌ بآخرة.

(376) وثامنه: الْعِبْرَةُ بِأَنَّ وَجُودَ الصَّالِحِينَ مِنْ بَيْنِ الْمَفْسِدِينَ يُخَفِّفُ مِنْ لَأْوَاءِ فَسَادِ الْمَفْسِدِينَ، فَإِنْ وَجُودُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ كَانَ سَبَبًا فِي صَدِّ فِرْعَوْنَ عَنْ قَتْلِ الطِّفْلِ مَعَ أَنَّهُ تَحَقَّقَ أَنَّهُ إِسْرَائِيلِيٌّ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ كما قدمنا تفسيره.

(377) وتاسعه: مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصلٌ بعد حين، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه.

(378) وعاشره: مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الإشارة إلى أن المرء يُؤْتَى مِنْ جِهَلِهِ النَّظَرَ فِي أدلة العقل¹.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 86-85/20.

الآية الرابعة عشرة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

- (379) تشر الآية إلى أن من رزقه الله حُكماً في الدين، وفهماً في أصوله وفروعه فقد بلغ أشده¹.
- (380) تشير الآية إلى أن الاعتناء بالأجسام لتصبح في كامل قوتها أمرٌ مطلوب من الشرع؛ لأن موسى عليه السلام لم يُعط الحكم إلا لما بلغ أشده؛ والأشدُّ هو: الذي بلغ الكمال في القوة الجسمية².
- (381) تشير الآية إلى أن "النبوة أعلى الدرجات البشرية، فلا بد وأن تكون مسبقة بالكمال في العلم، والسيره المرضية التي هي أخلاق الكبراء والحكماء"³.
- (382) في الآية ترغيب في الإحسان إلى الناس بكل أنواع الإحسان ذلك أنها بينت الحصولُ على العلم والحكم⁴، وأن هذا جزاء المحسنين، فشمّل هذا الجزاء كل من اتصف بصفة الإحسان كما يدل عليه الألف واللام في المحسنين.
- (383) في الآية إشارة إلى أن النبوة لا علاقة لها بالعمل، وإنما هي فضل الله يُؤتيه من يشاء،⁵ كما دل عليه قول الله تعالى رداً على المشركين ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].
- (384) تشير الآية إلى أن موسى لما أُوتي العلم والحكم كان قد أشتد بدنه، وكمل عقله، كما يشير إلى هذا زيادة لفظ استوى هنا دون سورة يوسف⁶.

¹ ينظر: جامع البيان: 536/19.

² ينظر: مفاتيح الغيب: 583/24.

³ ينظر: المصدر السابق: 583/24.

⁴ ينظر: جامع البيان: 536/19، ومفاتيح الغيب: 584/24.

⁵ ينظر: مفاتيح الغيب: 584/24.

⁶ ينظر: تفسير ابن عرفة: 266/3.

(385) في الآية إشارة إلى أن من أعطاه الله آليات الوصول إلى العلم فقد أعطاه الله حُكما وعِلما متعلقين بالعمليات كمعرفة أحكام الله على المكلفين، أو العمليات، كمعرفة الله وما يجب له من الجلال والجمال¹.

(386) تشير الآية إلى أن العالم الحق هو الذي يستفيد من علمه، ويستفيد منه غيره كذلك، أما الذي أُوتي علما ولم يُستفد منه فحكمه حكمُ الجاهل كما يشير إليه قولُ الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرُّأَيْبِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾² [البقرة: 102]، ووجه الهداية من الآية أن العلم جاء في سياق مدح موسى عليه السلام، وقد عمل بعلمه كما بلغه لغيره.

(387) في الآية إشارة إلى أن من تَوَقَّفت غرائزه، ولم يعد فيه إلا ما كان في أيام شبابه فقد كُمِّلَ عقله، وصحَّت بصيرته؛ يفهم هذا من لفظي ﴿أَشَدَّهُ وَأَسْتَوَى﴾³.

(388) تشير الآية إلى أن الإنسان يبقى في ازدياد إلى أن يصل إلى مرحلة لا يُزاد بعدها، فيبدأ في النقصان، إلا الأنبياء فإنهم يبقون في ازدياد دائم في القوة العقلية، والبدنية...، وقد يُلحق الله بهم من صالح أتباعهم مَنْ يشاء⁴؛ يستفاد هذا من ﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾ الذي جاء بعد التمام والكمال.

(389) في الآية إشارة إلى أن مَنْ يعيش مع قوم فاسدين يكره فسادهم، ويُكره أعمالهم بلسانه أو قلبه، ولم يستطع تغيير ما هم عليه من الفساد سيُيسِّر الله من الأسباب ما يجعله يخرج عن بلدتهم، ويقاوم فسادهم⁵؛ فموسى عليه السلام عاش في قصر فرعون، ورأى فسادهم الأخلاقي والعقدي، وأنكر عليهم بقلبه، وجادلهم بلسانه حتى هبأ الله له أسباب الخروج من أرضهم ثم عاد إليهم نبيا صالحا مصلحا.

¹ ينظر: تفسير ابن عرفة: 266/3.

² ينظر: معاني القرآن للزجاج: 136/4.

³ ينظر: نظم الدرر: 253/14.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 254/14.

⁵ ينظر: نظم الدرر: 255/14.

(390) في الآية إشارة إلى أن مقدمات القتل مذمومة كما أن القتل مذموم؛ ذلك أن الله سمى مقدماته من الخنق والضرب قتلا تنفيرا منها، وتحذيرا من فعلها؛ وإلا فإن القتل حقيقة لا يطلق إلا على إزهاق الروح¹.

(391) "في الآية تنبيه على أن العطية الإلهية تصل إلى العبد إذا جاء أوانها حتى وإن طال العهد، فما عليه إلا أن ينتظر إحسان الله ويحسن الظن في تصريف أموره؛ لأن الله وعد المحسنين بالجزاء كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾"²

(392) في الآية إشارة إلى أن موسى عليه السلام كان محسنا في شبابه، وعنفوان عمره؛ لأن الله بين أن جزاءه كان لأجل إحسانه، كما أنه لا يختص به بل يشمل كل من اتصف بصفة الإحسان³.

(393) نسب الأطفال لا يخفى عنهم مهما تظافرت الجهود على كتمه، بل يظهره الله عليهم بطريق أو بآخر، فموسى لم يعرف أمه وأباه في الأول لكونه يُدعى: موسى ابن فرعون، فلما بلغ أشده عرف كونه من بني إسرائيل إما عن طريق أمه التي كانت ترضعه⁴، أو عن طريق غيرها.

(394) في الآية إشارة إلى مكانة اللغة العربية التي من أجلها استحققت أن تحمل آخر كتب الله، وذلك أن (أشد) جمع في اللفظ، ومفرد في المعنى⁵؛ لأن أفعل من جموع القلة كما هو معلوم.

(395) تشير الآية إلى أن بلوغ الأشد ليس مرتبطا بسن الأربعين، فقد يكون قبلها كما هو ظاهر من قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: 15]⁶؛ لأن العطف يقتضي المغايرة.

(396) في الآية إشارة إلى أن حصول الإنسان على قوة البدن وقوة العقل، يكون بالأسباب التي خلقها الله لها، فالأكل المنتظم، والرياضة المستمرة سببان لقوة البدن، والتعلم الجيد، والتفكير في الآيات

¹ ينظر: المفردات، ص: 655، ونظم الدرر: 255/14.

² روح البيان: 389/6.

³ روح البيان: 389/6.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 88/20.

⁵ ينظر: التفسير الوسيط: 386/10.

⁶ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 64.

والأحداث سببان لاستنارة العقل؛ ووجه الهداية من الآية أن الله أسند الاستواء والشدة إلى موسى في هذه الآية، وأسند الشدة إلى يوسف في آية أخرى.

(397) تشير الآية إلى أن الحصول على الحكم والعلم لا يكون عن طريق الأسباب المحضة، إنما عن طريق الهبة الربانية التي يختص بها من يشاء من عباده؛ لأن الله تعالى أسندهما إلى نفسه فجعلهما هبتين ربانيتين، بخلاف بلوغ الشدة، والاستواء الذين أسندهما إلى خلقه كما سبق.

(398) تشير الآية إلى أن الأنبياء متحدون في الحكم والعلم، ومختلفون في الميزات والفضائل؛ ذلك أن الله تعالى أثبت الحكم والعلم لموسى، ويوسف، وداوود وسلميان عليهم الصلاة والسلام، وأثبت زيادة الفهم لسليمان عليه السلام بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنٌ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 79]، وتفضيل بعضهم على بعض بقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253].

(399) تشير الآية إلى أن الإنسان قد يكمل جسمه ولا يكمل عقله-بناء على من فسر الشدة بالقوة الجسمية، والاستواء بالقوية العقلية-، ويكمل عقله ولا يكمل جسمه، فلا ترابط بينهما، كما أرشدنا العطف المشعر بالتغاير.

الآية الخامسة عشرة، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاةً لَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(401) تشير الآية إلى أن من قتل شخصا كافرا أو غير كافر قبل أن يؤذن من الشرع أو الحاكم فقتله يُعد من عمل الشيطان؛ ذلك أن موسى قتل القبطي وهو كافرٌ فعد قتله من عمل الشيطان واستغفر منه لكونه لم يؤذن له فيه¹.

(402) تشير الآية إلى أن من قام بالسبب فتحقق على إثره المسبب يُقال له: إنه فاعل للمسبب، ويكون ذلك على سبيل المجاز المرسل²، فالآية أثبت الله فيها الإضلال للشيطان لكونه سببه بالإغواء، ونفاه عنه وعن غيره على سبيل الحقيقة في مواضع أخرى كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَحْدِلْهُ وِلَايَا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:17].

(403) تشير الآية إلى أن من كان بين قوم فاسدين، وكان لديه علمٌ وحُكم فعليه أن ينكر فسادهم، ويبيّن أخطاءهم؛ يستشف من قول من فعل موسى عليه السلام الذي طُرد من المدينة بسبب إنكاره على فرعون وملئه عبادتهم وما هم عليه من الأخلاق السيئة³.

(404) تشير الآية إلى الإنسان قد تظهر عليه علاماتٌ تميزه عن غيره، بحيث إذا نظر إليه الناظر مع غيره لم يلتبس أمره عليه؛ أشار إلى هذا لفظ الإشارة (هذا) (وهذا)⁴.

(405) في الآية إشارة إلى أن الأنبياء يسري عليهم الخطأ كما يسري على غيرهم⁵، وأن هذا لا ينقص من قدرهم شيئا، فموسى عليه السلام اعترف بخطئه، واستغفر ربه منه فغفر له، وعده من أولي العزم من الرسل.

¹ ينظر: الكشف: 398/3.

² على رأي من يثبت المجاز في القرآن والسنة خصوصا، أو فيهما وفي اللغة عموما.

³ ينظر: جامع البيان: 537/19.

⁴ ينظر: معاني القرآن للزجاج: 136/4.

⁵ ينظر: معاني القرآن للزجاج: 137/4.

(406) تشير الآية إلى أن الناس في الغالب الأعم يتشبثون بكل من له علاقة بالسلطان، فيبنون عليه آمالهم، ويعلقون عليه أحلامهم؛ وهؤلاء بنو إسرائيل شايعوا موسى، وتعلقوا به لكونه في نظرهم ربيب السلطان، وساكن قصره وإن كانت مرضعته منهم¹.

(407) في الآية إشارة إلى أن إغاثة المظلوم إن كان مسلماً تجب من جهتين، من جهة كونه مسلماً، ومن جهة كونه مظلوماً²؛ لأن موسى عليه السلام نصر المشايخ له لكونه مظلوماً، ولكونه ينتمي إلى دينه وقبيلته.

(408) في الآية إشارة إلى أن ترك المندوب يُعتبر من عمل الشيطان، هذا بناءً على قول من قال: إنَّ قتل موسى للقبطي كان لخلاف الأولى، وهو تركه حتى تجتمع شروط القتال³.

(409) في الآية إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون مسارعاً لكل ماله صله بالدين؛ فموسى عليه السلام بادر إلى القبطي فوكزه لكونه يقتتل والإسرائيلي الذي على دين موسى⁴.

(410) تشير الآية إلى أن الله قد يُوصل العبد إلى المناصب الرفيعة، والمنازل العالية بسبب أخطائه؛ فموسى عليه السلام خرج من مصر بسبب خطئه في قتل القبطي فنال بفضل الله النبوة والرسالة⁵.
(411) في الآية إشارة إلى أن عدَّ الأنبياء للأعمال ليس كعدِّ غيرهم لها؛ فموسى عليه السلام اعتبر مخالفة المندوب، أو الخطأ في القتل من عمل الشيطان، وجعله في عينه من العظائم، بينما يرى غيرهم أن هذا من المعفو عنه⁶.

(412) في الآية إشارة إلى أن من كان على الحق يُيسر الله له جماعة تنصره، وتُثوي شوكته، وتسمع كلامه؛ لأن موسى عليه السلام وإن عاش في قصر فرعون فقد كانت له شيعَةٌ تسمع قوله بغض النظر عن قوة التأثير في تلك الفترة⁷.

¹ ينظر: نظم الدرر: 255/14.

² ينظر: محاسن التأويل: 517/7.

³ ينظر: مفاتيح الغيب: 585/24.

⁴ ينظر: الهداية: 5503/8.

⁵ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 225/6.

⁶ ينظر: أنوار التنزيل: 147/4.

⁷ ينظر: التحرير والتنوير: 89/20.

(413) تشير الآية إلى أن "نصر المظلوم دين في الملل كلّها، وفرض في جميع الشرائع"¹

(414) تشير الآية إلى أن من كان على الحق يكون له أعداء على قدر تمسكه بالحق، ذلك أن الله قال من (عدوه)، ولفظ العدو يستوي فيه المفرد والجمع، ويشهد لهذا قول الله تعالى: (فإنهم عدو لي²) والشاهد من الآية أن العدو خبر (هم) الذي هو ضمير جمع، ومن شرط الخبر التطابق مع المبتدأ في الأفراد والتنثية والجمع.

(415) تشير الآية إلى أنه ليس لأحد أن يُجبر أحدا على عمل لا يرغبه، أو ليس في طاقته؛ ذلك أن موسى نصر الإسرائيلي لكونه مغلوبا، ومظلوما من القبطي³.

(416) في قول موسى ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إشارة إلى أن قتل النفس المعصومة مستقبّح في كل الأديان، ومرفوض من كل العقول⁴.

(417) في الآية إشارة إلى أن المرأة الصالحة هي التي تُربي ولدها على الدين الصحيح حتى في الوقت الذي يعم فيه الجهل، ويتنشر فيه الكفر؛ دلّ عليه قول موسى ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ المشعر بأنه تعلم دور الشيطان في أفعال بني آدم؛ وهذا لا يكون إلا من طرف الأم التي كانت تحتضنه لأن البيئة التي عاش فيها كانت تؤله فرعون⁵.

(418) في الآية إشارة إلى أن الأنبياء كسائر الناس فيما يتعلق بالصفات البشرية كالغضب والتأثر والانفعال؛ لأن موسى عليه السلام غضب غضبا شديدا أوصله إلى وكز القبطي بقوة فنتج عن وكزه خروج روحه، وإلا فقد كان يكفيه زجره أو ضربه ضربة لا تبرحه⁶.

¹ الجامع لأحكام القرآن: 13:160.

² ينظر: التحرير والتنوير: 89/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 89/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 90/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 90/20.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 90/20.

(419) في الآية إشارة إلى عجب قدرة الله وتصاريّف أفعاله، إذ جعل موسى عليه السلام يمدُّ يده إلى رجل فنتج عنها قتله، وهو الذي كانت تمدُّ إليه كلُّ الأيدي لتقتله فلم تفلح، أو تُصبّه حتى بالأذى¹.

(420) في الآية إشارة إلى أن الأماكن لا عبرة بها في نقل الأحداث، لأنها ذكرت دخول موسى المدينة ولم تُبيّن عينها؛ لكونها غير مؤثرة في القصة²، فسواء كان اسمها منف، أو عين شمس أو غيرها فلن نستفيد شيئاً.

(421) في الآية "دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير، وأنه الفطرة، وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري، وهو تخلل نزغ الشيطان في النفس"³.

(422) تشير الآية إلى أن الذي كان بالأمس ضعيفاً قد يصبح اليوم قوياً، والذي كان بالأمس قوياً قد يصبح اليوم ضعيفاً؛ فبنو إسرائيل الذين كانوا يُقتلون ويُذبحون ويُستعبدون ولا يُسمع لهم صوت صاروا اليوم يرون أنفسهم أندادا للأقباط يقتتلون معهم، وينصر بعضهم بعضاً⁴ وفي هذا عبرة لمن يعتبر.

(423) تشير الآية إلى جواز الاستغاثة بالمخلوق، إذا كان حياً يقدر على الإغاثة؛ ووجه الهداية من الآية ظاهر⁵.

(424) في الآية إشارة إلى إثبات الولاية للصالحين، والعداوة للطالحين، إذ بينت أن الإسرائيلي من أنصار موسى على دينه، والقبطيّ من أعدائه⁶.

(425) في الآية إشارة إلى أن الناس يتعلقون بكل من له علاقة بالسلطان، معتقدين أن لهم قوة كما للسلطان؛ يُستشف هذا من نداء الإسرائيلي على موسى الذي يُعتبر من حاشية فرعون، وأبناء قصره⁷.

¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 10332.

² ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 10332.

³ التحرير والتنوير: 90/20.

⁴ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 72.

⁵ ينظر: المصدر السابق ص: 72.

⁶ ينظر: المصدر السابق ص: 73.

⁷ ينظر: معارج التدبر: 361/9.

(426) تشير الآية إلى أن الشخص تصحُّ نسبته إلى الدين الذي ينتمي إليه وإن لم يبق على الحالة التي كان عليها؛ يُستشف هذا من نسبة الإسرائيلي إلى دين موسى مع العلم أن بني إسرائيل لم يعد لهم من دين آبائهم إلا الاسم¹.

(427) في الآية إشارة إلى أن القتل كان خطأ، وأن موسى لم يقصد قتل القبطي، يشعر بهذا قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ^ط﴾ إذ لو كان قتلَ عمد لكان حقُّ الكلام أن يقول: (فقتله)² كما قال في شأن أحد ابني آدم: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المائدة: 30].

(428) في الآية إشارة إلى أن النفس الصالحة لا تعاشر الفساد، ولا تنظر إليه بعين الرحمة، بل تُبغضه وتنفّر منه وتنفّر الناس منه حتى لو كان المفسد من أقرب الأقربين؛ فموسى عليه السلام هجر فرعون وعصابته بسبب الفساد الذي كانوا يحدثون³، فلما دخل المدينة وراه أمامه حاربه بيده إيمانا منه بأن محاربتة تجب أيا كان المفسد.

(429) تشير الآية إلى أن من بين علامات فساد الدولة أن يلجأ المظلومون إلى المارة في الشوارع قصدًا تُصرّتهم على ظالمهم لعلمهم أن القضاء لا يُنصفهم؛ فالإسرائيلي استغاث بموسى ولم يذهب إلى القضاء لعلمه أنه لن يكون في صالحه، إنما في صالح القبطي الذي يُحسب على جهة المفسدين.

(430) في الآية إشارة إلى أن عداوة الشيطان لبني آدم ظاهرة، وإضلاله لهم بين لا يخفى إلا على من طمس الله بصيرته؛ دلّ على هذا وصفُ ضلاله بالإبانة الموحية بأنه يقول للناس: احذروني فإني آخذٌ بكم إلى طريق الهلاك.

(431) تشير الآية إلى أن المشايعة والمناصرة لرجلٍ أو دينٍ، أو طائفة تُعطى حكمَ المشيّع عليه، فإن كان حقا فهي محمودة، وإن كان باطلا فهي مذمومة؛ فالإسرائيلي المشيّع لموسى لم يتعرض القرآنُ لذمه لكونه من أنصار موسى، بخلاف شيعة فرعون فقد ذمّهم وحكم عليهم بالفسق لأنهم ناصروه على البطلان.

¹ ينظر: الميزان 17/16.

² ينظر: الميزان 17/16.

³ نصر هذا الرأي سيد قطب في الظلال، واستدل عليه بأن العادة تحيل أن يستنصر إسرائيلي بمن في القصر على من القصر،

ينظر: في ظلال القرآن: 5/2681.

(432) في الآية إشارة إلى إثبات العجز والضعف للناس أجمعين، لأن لفظ ﴿الْمَدِينَةِ﴾ يُشعر بغفلتهم أجمعين؛ فكأن الله يقول: مهما حاولوا اليقظة فلن يفلحوا لكون الغفلة من طبيعة الإنسان.

(433) في الآية إشارة إلى أن الأنبياء يعيشون حياةً طبيعية في صغرهم كما يعيش سائر الأطفال، فقد أغفلت إغفالا تاما -وهي ضمن السورة التي فصلت في أمر موسى مالم يفصل غيرها- ما حدث لموسى بعد رضاعه. ومثل موسى محمدٌ الله ﷺ الذي تحدث القرآن عن يتمه وكفالاته، وتحدثت كتب السيرة عن بعض الأمور اليسيرة في حياته كرعيه وسفره... وترك كثير من السنوات لم يشر إليها بشي يذكر.

(434) في الآية إشارة إلى أن العلماء يجب عليهم أن يخاطبوا الناس، وينظروا إلى طرائق عيشهم حتى يعرفوا الأحكام المناسبة لأفعالهم؛ فموسى عليه السلام لم يبق حبيس القصر، ولا جليس البيت، بل خرج واجتهد في رفع الظلم، والعلماء ورثة الأنبياء يسيرون على طرائقهم في الفتوى والحياة.

(435) في الآية إشارة إلى أن العالم يحسن به أن يكون فطنا يستغل الفرص، ويعرف المواقف التي تصلح لقضاء حوائجه، والأمكنة التي تناسبه لتبليغ رسالة ربه، لأن موسى عليه السلام تحرى الوقت المناسب للنظر فيما تحتاج إليه المدينة.

الآية السادسة عشرة، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية:

(436) في الآية إشارة إلى أن من وقع منه ذنبٌ فليبادر إلى التوبة والاستغفار، ولا يكابر فيغالط نفسه، أو يمانع باستعظامه الذنب فيهلكها؛ هذا لأن موسى لما شعر بالخطأ بادر إلى مولاه فطلب منه الغفران، وكان بإمكانه أن يقول: إنما فعلت هذا خطأً والله رفع الإثم عن المخطئين، فلما لم يفعل دلَّ على المبادرة وعدم التسويف¹.

(437) تشير الآية إلى أن العبد ينبغي أن لا يُقدم على عمل حتى يأخذ الإذن فيه من الله؛ ذلك أن موسى وكز القبطي الكافر قبل أن يؤمر بالقتل واعتبره ذنباً يستغفر منه².

(438) تشير الآية إلى أن غفران الذنوب نتيجةٌ للاستغفار، فمن أراد المسبب فليُثم بالسبب؛ دليل هذا تأخر ﴿فَغَفَرْلَهُ﴾ عن ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ وعطفه عليه بالفاء الدالة على الترتيب³.

(439) تشير الآية إلى أن قتل النفس وإن كان خطأً يلحق صاحبه الغم والحزن⁴؛ لأنها بينت أن قتل موسى عن طريق الخطأ وبينت آية أخرى منة الله في دفع الغم والحزن كما قال تعالى: ﴿وَوَقَّلتَ نَفْسًا فَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُونًا﴾ [طه: 40].

(440) من علامة إنعام الله على العبد أن يعرف المخرج من المأزق؛ فموسى عليه السلام لما حصل منه ما حصل عَرَفَ أن لا باب يخرج منه إلا الاستغفار كما قال قتادة: "عرف والله المخرج فاستغفر"⁵.

¹ ينظر: جامع البيان: 541/19، والخواطر: 10898/17.

² ينظر: جامع البيان: 541/19.

³ ينظر: أنوار التنزيل: 174/4.

⁴ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 262/13.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 261/13.

(441) في الآية إشارة إلى أن العبد إذا سأل ربه المغفرة فليقصد عينها وأثرها¹؛ فأما عينها فالذنب نفسه يستره الله عليه في الدنيا، وأما أثرها فحرمان العلم، ونقصان الطاعة، ووحشة القلب؛ هذا في الدنيا، وفي الآخرة الفضيحة على رؤوس الأشهاد، والعذاب في دار العقاب؛ ووجه هذه الهداية تفسير العلماء المغفرة التي سأل موسى بسترها في الدنيا، والعفو عنها في الآخرة، ولا مانع من الجمع بينهما، بل الأولى حمل كلام الأنبياء على جميع المحامل التي يدل عليها اللفظ.

(442) في الآية طمأننة للمذنبين بأنهم وإن كثر زورهم فإن رب العالمين يحوها عليهم²؛ يفهم هذا من صفة المغفرة التي أتت على وزن (فعلول) المشعر بسعة مغفرة الله التي لا يقف أمامها ذنب مهم عظم مادام صاحبه يستغفر منه.

(443) في الآية إشارة إلى أن الأنبياء يعلمون عن الله قبل أن يُبعثوا؛ ذلك أن موسى عليه السلام علم بمغفرة ربه قبل أن يبعث بعد³.

(444) في الآية إشارة إلى بعض الأفعال التي إن وقع القتل بسببها يُعتبر قتل خطأ، والوكز منها؛ لأن المفسرين اتفقوا على أن قتله كان خطأ⁴.

(445) في الآية تعليم للعبد الذي يناجي ربه بأن يستحضر نعم الله عليه قبل سؤاله لتكون دافعة له إلى الاجتهاد في الدعاء، والإلحاح في المسألة؛ يُستشف هذا من إتيان موسى عليه السلام بلفظ (الرب) دون غيره من أسماء الله الحسنى كالغفور، أو الرحيم أو غيرهما؛ فكأنه يقول: يا من تفضل علي بالنجاة من القتل، والتربية في القصر من عليه بعفوك وعفوانك⁵.

(446) في الآية إشارة إلى أن مغفرة الله تحصل عقب الاستغفار مباشرة؛ ذلك أن الفاء العاطفة الدالة على الترتيب والتعقيب تُشعر بأن الله غفر لموسى بعد استغفاره مباشرة⁶.

¹ ينظر: نظم الدرر: 257/14.

² ينظر: المصدر السابق: 257/14.

³ ينظر: فتح البيان: 99/10.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 99/10.

⁵ ينظر: الفواتح الإلهية: 78/2.

⁶ ينظر: التحرير والتنوير: 91/20.

(447) في الآية إعلامٌ من الله لأهل القرآن بكرامة موسى عليه السلام ؛ دليل هذا جملة (فغفر له) المعارضة " بين جملة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ وجملة ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾¹ .

(448) في الآية إشارة إلى أن العبد إذا أذنب فليسأل الله غفران الذنب الحاضر، والذنوب الأخرى الماضية؛ ذلك أن موسى عليه السلام اعترف بذنبه، ثم سأل الله المغفرة المطلقة بقوله: ﴿ فَأَغْفِرْ لِي ﴾ المقتضي طلب المغفرة بغض النظر عن هذا الذنب أو ذاك².

(449) في الآية إشارة إلى إثبات صفة الرحمة لله على ما يليق به من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه، وإثبات آثارها المتجلية في العطاء والمعونة والتوفيق، وإزالة البؤس...³؛ وما قلناه في الرحمة نقوله في العلم وكل صفات الله تعالى الثابتة له في كتابه، وسنة نبيه ﷺ.

(450) في الآية تعليم من نبي الله موسى للمذنبين وهو أنهم حينما يقتربون ذنبا صغيرا كان أو كبيرا يبادرون إلى التوبة والاستغفار لا أن يكابروا أو يحددوا⁴.

(451) في الآية إشارة إلى إثبات صفة السمع لله تعالى⁵؛ ذلك أنها دلت على أن موسى سأل ربه، وأن الله قد غفر له؛ وإدراك المسموع دون صفة السمع محال، فدللت بمنطوقها على صفة المغفرة، وبلازمها على صفة السمع.

(452) في الآية إشارة إلى أن الدعاء سببٌ من أسباب المغفرة، أشعر بهذا الفاء الدالة على السببية⁶.

¹ التحرير والتنوير: 92/20.

² ينظر: معارج التدبر: 368/9.

³ ينظر: المصدر السابق: 368/9.

⁴ ينظر: الخواطر: 10898/17.

⁵ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 75.

⁶ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 75.

(453) تشير الآية إلى أن العبد إذا سأل ربه المغفرة فليعقبها بشكر الله والثناء عليه؛ لأن موسى عليه السلام بعدما سأل ربه المغفرة شكره عليها¹.

(454) تشير الآية إلى أدب رفيع في الدعاء، وهو الاعتراف أولاً بالذنب، ثم طلب مغفرته من الله؛ فموسى عليه السلام قال: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ ثم قال: ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾.

(455) في الآية إشارة إلى أن من قتل نفساً خطأ فلا تكفيه الأحكام التكليفية التي ذكرها الله في سورة النساء، بل لا بد من التوبة والاستغفار؛ لأن الدية حق للعباد، والنفس من حقوق الله، وحق العباد لا يسقط حق الله كما أن حق الله لا يسقط حق العباد؛ ولا يعترض على هذا بأن الآية التي في سورة النساء تتحدث عن قتل المؤمن، وهذه تتحدث عن قتل الكافر؛ لأن الكافر في بعض صورته ثبتت له الدية أيضاً كما تدل عليه دية النبي ﷺ للقتيلين الذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري².

(456) في الآية ردٌّ على النصارى الذين يذهبون لرهبانهم قصد أخذ صكوك الغفران، إذ فيها حصر المغفرة في الله رب العالمين، كما هو واضح من ضمير الفصل (هو)، وتعريف الجزأين أعني: المبتدأ والخبر.

(457) في الآية إشارة إلى أن ذنوب العباد وإن كانت من قدر الله كتبه على العبد قبل أن يخلقه فإن إنشاءها في الوجود يرجع إليه، ويُسند إليه؛ ذلك أن الخبر عن ظلم موسى لنفسه جاء بالجملة الفعلية - أعني الجملة الصغرى، وهي (ظلمت نفسي) - الدالة على الحدوث.

(458) في الآية إشارة إلى أن العبد عليه أن يتعامل مع نفسه كما يتعامل مع الآخرين، فكما أن العبد الصالح لا يرغب في ظلم الآخرين فعليه أن لا يرغب في ظلم نفسه التي هو مسؤول عنها.

(459) في الآية إشارة إلى أن (أفعل) الصادرة من العبد لربه لا تسمى أمراً شرعاً؛ لأن الأمر الشرعي يدل على الوجوب أو الندب، أو الطلب³، والله لا يليق به كل هذا، فتعين تسميته دعاءً شرعاً، وإن كان يسمى أمراً لغة.

¹ ينظر: نظم الدرر: 258/14.

² ينظر: قصة ديتهم في سيرة ابن هشام: 109/2، والدرر في اختصار المغازي والسير، ص: 163، وينظر: الخلاف فيها في

التمهيد:

³ على الخلاف المعلوم بين الأصوليين.

(460) في الآية إشارة إلى أن العبد يعيش في ظل نعم الله عليه التي طوقته من كل جانب؛ يشعر بهذا حرف (على) الدالّ على العلو المجازي، فكأن موسى عليه السلام يعترف لربه بأن نعمه غمرته حتى علته فأصبح تحتها وهي فوقه؛ ويؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34].

(461) في الآية إشارة إلى أن نعم الله على العباد قديمة منذ أن أوجد أصلهم وهو آدم عليه السلام، وحادثة عند وجود أسبابها؛ فالتعبير بالفعل الماضي في ﴿أَنعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يشعر بالفراغ من تقديرها، ومحدوثها عند وجود أسبابها كما هو معلوم من دلالة الجمل الفعلية.

(462) في الآية إشارة إلى أن على الإنسان أن يخص نفسه بالدعاء، ويقدمها على غيرها في القصد واللفظ، فموسى عليه السلام خص نفسه بالمغفرة بقوله (لي)، ويؤيد هذه ما قام به كثير من الأنبياء والمرسلين، فعلى سبيل المثال لما سأل إبراهيم عليه السلام المغفرة من ربه قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 41] فخص نفسه، ثم أتبعها بوالده، ثم سألها لسائر المؤمنين وهو من جملتهم، فكان دعاءه لنفسه مرتين.

الآية السابعة عشرة، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾^١

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(464) في الآية إشارة إلى أن العبد إن وعدَ بشيء، أو عزمَ عليه فليقل إن شاء الله؛ ذلك أن

موسى عليه السلام قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يستثنِ فابتلي في اليوم الموالي كما قال ابن عباس رضي الله عنهما^١.

(465) تشير الآية إلى أن المؤمن هو الذي يُظهر أخاه المؤمنَ وينصره عمن عداه، لأنها قررت أن موسى نفى مظاهرته للمجرمين بمنطوقها، وأشارت إلى إثبات مظاهرته للصالحين بمفهومها^٢.

(466) في الآية إشارة إلى أن ما قام به موسى عليه السلام طاعةً لله في حقيقة أمره وإن عدّه هو ذنباً يُستغفر منه؛ ذلك أنه لما دعا قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ولو كان معصية لقال: فلن أبقى على هذه المعصية^٣.

(467) تفيد الآية أن خدمة الظلمة وإعانتهم محرمة؛ لأننا إما أن نحمل ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ على قسمِ موسى على عدم المظاهرة، أو على وعده بتركها، أو على طلبه من الله الابتعادَ عنها، وكل الاحتمالات صالحة للاستدلال بها على تحريم خدمة الظلمة^٤.

(468) تشير الآية إلى أن المجرمين ينبغي ألا يُعاشروا، ولا يخالطوا ولا يعانوا^٥؛ دليل هذا إطلاق المظاهرة؛ والأصل أن يحمل المطلق على جميع معانيه؛ وبما أن قوة المجرم تحصل بمعاشرته، ومخالطته ولو بدون إعانة فيجب على المسلم ترك الجميع.

(469) تشير الآية إلى أن على العبد الذي يرجو من الله شيئاً أن يقدم رجاءه باستعطاف ثم يسأل، ووجه الهداية أن موسى استعطف ربه بذكر أنعمه عليه، ثم سأله العصمة عن مظاهرة المجرمين؛ هذا بناء على كون الكلام خبراً؛ والآية تحتمله وتحتمل غيره^٦.

^١ ينظر: جامع البيان: 541/19.

^٢ ينظر: مفاتيح الغيب: 586/24.

^٣ ينظر: المصدر السابق: 586/24.

^٤ ينظر: البحر المحيط: 293/8.

^٥ ينظر: نظم الدرر: 258/14.

^٦ ينظر: إرشاد العقل السليم: 7/7.

(470) تشير الآية إلى أن العبد إذا أذنب فليكثر من اعترافه بالذنب أمام ربه لعله يغفر له؛ يشعر بهذا تكرير لفظ (قال)¹.

(471) في الآية إشارة إلى أن العبد إذا أنعم الله عليه بنعم فعلية أن يسعى إلى شكره عليها بالعزم على اتباع أوامره واجتناب نواهيه؛ ذلك أن موسى عليه السلام عَزَمَ على عدم مظاهره المجرمين كما يدل منطوق الآية، وعلى نصره المظلومين كما يوحي مفهومها جزاءً لما مَنَّ الله عليه من العلم والحكمة².

(472) تدل الضراعة المتكررة إلى الله - تعالى - من موسى - عليه السلام - على نقاء روحه، وشدة صلته بربه، وخوفه منه، ومراقبته له - سبحانه -، فإن من شأن الأخيار في كل زمان ومكان، أنهم لا يُعينون الظالمين، ولا يقفون إلى جانبهم³.

(473) في الآية إشارة إلى جواز التوسل لله بنعمه بناء على القول بأن ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ دعاء⁴

(474) تشير الآية إلى أن العبد عند سؤاله ربه المغفرة أو غيرها ينبغي أن يستشعر كأنه أقرب إليه من جبل الوريد، يسمع كل ألفاظه، ويطلع على كل سرائره قبل أن تخرج إلى قومه⁵؛ هذا لأن موسى عليه السلام حذف ياء النداء الموضوعة لمنادة البعيد للإشعار بقرب ربه منه.

(475) في الآية إشارة إلى جواز القسم بأسماء الله وصفاته؛ ذلك أن موسى قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فحملها بعض العلماء على القسم، وحملها آخرون على الخبر.

(476) صدور الذنب من العبد يحتم عليه تأكيد الاعتراف به أمام الله؛ لأن موسى عليه السلام - وهو الرسول المعصوم من الكبائر - أكد ذنبه ب (إن) والجملة الاسمية، فكأنه يقول: يا رب إني أذنبت وبالغت في الذنب فاغفر لي فإنه لا يعفر لي إلا أنت.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 92/20.

² ينظر: المصدر السابق: 93/20.

³ التفسير الوسيط "388/10.

⁴ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136) ص: 78.

⁵ يعني أن الله يطلع على السرائر قبل أن تخرج إلى الناس.

(477) تشير الآية إلى أن مظاهره المخالفين لأمر الله محرمة وإن كانوا مسلمين؛ لأن فيها تعميم المجرمين؛ والمجرم كما يطلق على الكافر يطلق على المؤمن الذي يعصي ربه.

(478) في الآية إشارة إلى أن العبد الصالح هو الذي يُقاوم نفسه فيمنعها من مظاهره المجرمين كلما سولت له المظاهر؛ ذلك أن موسى أتى بالجملة الفعلية الدالة على التجدد والاستمرار، ونفاها ب (لن) فصارت في قوة النكرة التي تعم الزمان والمكان والأحوال.

الآية الثامنة عشرة، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ

يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(480) تشير الآية إلى أن الأنبياء يخافون الخوف الطبيعي كما يخاف سائر الناس¹، وأنه لا يقدر في شخصياتهم الزكية، ولا ينزلهم عن مراتبهم العلية؛ لأن موسى عليه السلام خاف لما أصبح في المدينة، ولما خرج منها وبعدما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، ومع ذلك كلمه الله، وعده من أولي العزم من الرسل.

(481) تشير الآية إلى أن الإسرائيلي كان جاهلا، وجهله ناتج عن اعتقاد فاسد؛ لأن وصف الغواية يُطلق على من كان جهله عن اعتقاد فاسد².

(482) تشير الآية إلى أن وصف الغواية له درجات، فيأتي لأمر عارض ثم يزول، ويأتي فيستمر في الشخص ولا يظهر للعباد، ويأتي فيستمر ويراه القاضي والداني، لأن ﴿لَغَوِيٌّ﴾ دالٌّ على المبالغة واللزوم لكونه على وزن فعيل، و﴿مُبِينٌ﴾ مشعرٌ بأن غوايته ظاهرة بينة، فدلّ منطوق الآية على ظهور غواية الإسرائيلي، ومفهومها على درجاتها.

(483) تشير الآية إلى أن من طلب النصرة فوجدها فورا سيألفها حتى يصير معتمدا عليها أكثر من اعتماده على نفسه، وعلى ربه؛ فالإسرائيلي استنصر موسى فنصره، فلما وقعت له مشادة أخرى بادر إليه وطلب نصرته أيضا.

(484) تشير الآية إلى أن من وقع في شدة فنادى على مغيث فوجده بجانبه سيصبح مناديا على المغيثن سواء كان ما وقع فيه شدة أو لا، دليل هذا التعبير القرآني الذي أتى في المرة الأولى بلفظ الاستغاثة المشعرة بأنه في كرب وشدة، وفي المرة الثانية بلفظ الصراخ الذي يكون عن شدة، ويكون عن غيرها؛ وسياق الآيات يؤكد الثاني.

¹ ينظر: البحر المديد: 239/4، والجامع لأحكام القرآن: 264/13.

² ينظر: المفردات، ص: 620.

(485) تشير الآية إلى أن الإنسان يكون قاصدا طريقا فيُفاجأ بطريق أخرى لم يقصدها ولم يبحث عنها؛ لأن (إذا) الفجائية مشعرة بأن موسى كان يتقرب المكروه، أو الفرج¹ ففوجئ بنفسه مع عدو آخر، وفي عمل آخر؛ وفي هذا رسالة لبني آدم بأن يجعل أمره إلى الله فهو وحده المتصرف في ملكه.

(486) تشير الآية إلى أن الغضب يجعل صاحبه يتصرف تصرفا غير حكيم، ويقوم بأفعال إن لم يتدارك نفسه سيندم عليها طول حياته، أو تفسد عليه دنياه وأخراه؛ لأن موسى عليه السلام كان يريد أخذ القبطي بقوة وحزم لما كان يكنه من حنق على الظلم والظالمين، فتدارك نفسه، فأفنى غضبه، واستغفر ربه؛ يشعر بهذا لفظ البطش الذي يدل في اللغة على أخذ الشيء بقهر وغلبة².

(487) تشير الآية إلى أن قتل النفوس يُسبب القلق الدائم والخوف المستمر؛ لأن التعبير ﴿ب﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴿﴾ مشعرا بالتحول الذي حدث لموسى، ومُوح بملازمة الخوف له في أزقتها وطرقها³.

(488) تشير الآية إلى أن الإنسان بطبعه يتقرب ما يحدث في المستقبل، ويستطلع ما تُكنه له الأيام، لأن الإخبار عن ترقب موسى بالمضارع مُؤذن بأن هذه طبيعة بشرية؛ ولعل نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الذهاب إلى العرافين والمنجمين دال على هذه الهداية⁴.

(489) تشير الآية إلى أن نصرة المظلوم واجبة وإن كان يعمل المخالفات الشرعية، لأنها بينت ذم موسى للإسرائيلي، ووصفه بالإغواء، ثم عزّمه على دفع القبطي الظالم عنه⁵.

(490) التعبير بقوله: ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يُشعر بشدة القلق النفسي الذي أصاب موسى - عليه السلام - في أعقاب هذا الحادث، كما يشعر أيضا بأنه عليه السلام لم يكن في هذا الوقت على صلة بفرعون وحاشيته؛ لأنه لو كان على صلة بهم، ربما دافعوا عنه، أو خففوا المسألة عليه⁶.

¹ كلاهما محتملان، وهناك احتمالات أخرى ذكرها المفسرون.

² ينظر: مقاييس اللغة: 1/262، والمفردات، ص: 129.

³ ينظر: المحرر الوجيز: 4/281.

⁴ ينظر: تفسير ابن عرفة: 3/267.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 20/94.

⁶ التفسير الوسيط: 10/389.

(491) تشير الآية إلى أن الأشياء لا تبقى على حالها، فالمدينة التي في العرف هي موضع الأمن والاستقرار أصبحت موضع خوف وقلق لموسى عليه السلام، وللمظلومين من بني إسرائيل¹.

(492) في الآية إشارة إلى أن عادة من قتل قتيلا أن يحوم حوله، ويستطلع أخباره؛ لأن موسى عليه السلام وهو الرجل المهيا للنبوة أصبح في المدينة يستطلع الأخبار عن القتل، وكان بإمكانه أن يخرج منها بسلام قبل أن يشيع الخبر أو يعرف قاتل القتل؛ وقد أكد هذه المسألة أيضا خبراء الإجرام².

(493) تشير الآية إلى أن الخوف إذا لم يؤد إلى ترك واجب، أو فعل محرم فلا يعد مذموما؛ ذلك أن الآية أثبتته لموسى السلام، والأنبياء لا يذمون مطلقا³.

(494) تشير الآية إلى أن بطش موسى كان بسبب العداوة في الدين المرتب عليها ظلم في الأرض وفساد كبير، ولم يكن بسبب القرابة، أو النسب كما قال بعض المفسرين؛ لأن الله ذكر القبطي بالاسم الموصل الذي تُشعر صلته بالعلية، والأنبياء سواء قبل بعثتهم أو بعدها لا يُعادون لأنفسهم، أو ينتصرون لقرابتهم، إنما يعادون ويوالون الله تعالى.

(495) تشير الآية إلى أن البلاد التي يُصبح فيها الخوف داخل المدن بلاد حكامها ظلمة؛ ذلك أن الناس عادة ما يقصدون المدن لكون أهلها أصحاب علم، فإذا أصبحت عاصمة الخوف فلا بد أن يكون المروعون للناس محميين من الظلمة؛ يشير إلى هذا لفظ (المدينة) الذي لا يُوضع عبثا في القرآن.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 5/2683.

² ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 10/325.

³ تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136) ص: 81.

الآية التاسعة عشرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(497) تشير الآية إلى أن قتل النفوس ظلما من عادة الجبابة والطغاة المفسدين، لأن الإسرائيلي¹ قال لموسى ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ لأنه رآه قتل شخصا بالأمس، وظهر الغضب على وجهه اليوم، فظن أنه يريد قتله أيضا كما هي عادة الجبابة².

(498) تشير الآية إلى أن مَنْ يفعل ما يريد من القتل والظلم دون أن يسأل أو يسأل عن الغرض من ظلمه وقلته يُعد من الجبابة؛ لأن الجبار في عرف اللغة -إذا أطلق على الإنسان- هو الذي يفعل ما يريد من قتل وظلم ليُجبر نقيصته بادعاء منزلة من تعالى لا يستحقها³.

(499) في الآية إشارة إلى أن قوم موسى كانوا غلاظا جفاة لا يتأدبون بأدب، ولا يعرفون أقدار الناس؛ فالرجل الإسرائيلي الذي نصره موسى بالأمس صار اليوم يصرخ في وجهه وبصيح، وقد كان الأولى به أن يشكره، ويُقدم إليه اعتذاره. ومثله قومه الذين اتهموه بالنقائص بعدما أخرجهم من ذل فرعون، وأنقذهم من العبودية، وأراهم من الآيات ما دفعهم إلى الإيمان⁴.

(500) في الآية إشارة إلى أن الإصلاح بين الناس يكون بالأفعال والأقوال⁵؛ ذلك أن فيها إطلاق الإصلاح، والمطلق يُحمل على كل معانيه ما لم يمنع منه مانع.

(501) تشير الآية إلى أن الذي يكثر من المخاصمة بين الناس، ولا يستطيع دفع الأذى عن نفسه، ويجر غيره إلى الإثم والجرح يُعتبر من الغاوين⁶؛ ذلك أن الإسرائيلي أحدث مخاصمة مع القبطي

¹ وقيل: إن القائل هو القبطي.

² ينظر: جامع البيان: 545/19.

³ ينظر: المفردات، ص: 184، والكشاف: 399/3، والنكت والعيون: 244/4.

⁴ مفاتيح الغيب: 584/24.

⁵ روح البيان: 391/6.

⁶ محاسن التأويل: 518/7.

فكانت سببا لقتل موسى إياه، ثم أحدثَ مخاصمةً أخرى مع قبطي آخر كادت أن تجر موسى مرة أخرى إلى الإثم، فاستحق بفعله هذا وصف الغواية البينة.

(502) في الآية إشارة إلى أن مَنْ كان سببا في شيء يُمدح أو يُذم تبعاً لذلك الشيء وإن لم يفعله بنفسه¹، فالإسرائيلي لما كان سببا لموسى في قتل القبطي استحق وصف الغواية؛ لأنها مناسبة للقتل. (503) تشير الآية إلى أن خبر الواحد إذا انضمت إليه قرائن تُبنى عليه أمور جسام، ويُعتمد عليه في بناء الأحكام؛ لأن خبر قتل موسى للقبطي نشره فردٌ واحد وهو الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس، فانضم إليه ما عُهد عن موسى من نهي عن المنكر، وبيان للحق، فضدّق الخبر، وتمّ الاتفاق على قتله بناء على أنه هو المطلوب للذبح في صغره².

(504) تشير الآية إلى أن التذكير ينفع الصالحين وإن كان من خصومهم، أو ممن هو دونهم في التقوى والورع؛ ذلك أن موسى انزجر بالتذكير من الإسرائيلي³، أو من القبطي على خلاف بين المفسرين، وكلاهما أقلُّ منه رتبة في التقوى، وأنزل في المكانة الاجتماعية.

(505) في الآية إشارة إلى أن للعرق تأثيراً على الناس، فبنو إسرائيل وإن كان فيهم الصالحون إلا أن أكثرهم يسير على طبع واحد وهو نكران الجميل، فالإسرائيلي أنقذه موسى ثم وشى به، وقومته خلّصهم من عدوهم ثم استهزأوا به⁴، فسبحان الله الذي يزرع في خلقه ما يشاء؛ ولعل قول الله تعالى في الأعراب: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: 97] يشهد لهذا المعنى.

(506) تشير الآية إلى أن المؤمن الفطن هو الذي ينظر في تصرفاته، ويعتبر من أخطائه، حتى لا يكرر نفس الخطأ⁵، فموسى عليه السلام أخطأ بالأمس لما وكز الإسرائيلي، ولم يخطئ في اليوم الثاني

¹ ينظر: البحر المحيط: 294/8.

² ينظر: المحرر الوجيز: 281/4.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 94/20.

⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 326/10.

⁵ ينظر: الخواطر: 10901/17.

وإن همَّ بنصرة المظلوم؛ ولعل قول النبي ﷺ (لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرتين)¹ يؤيد هذا المعنى.

(507) تشير الآية إلى أن الصلاح والجبر لا يجتمعان، فإن كان الشخص مصلحا فليس بجبار، وإن وصف بالجبر، وإن كان جبارا فليس بمصلح وإن ادعى الإصلاح؛ لأهما نقيضان لا يجتمعان ذلك أن القائل لموسى ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أثبت له التجبر، ونفى عنه الإصلاح.²

(508) تشير الآية إلى أن الظالمين يستكثرون الدفاع عن المظلومين، ويتهمون فاعله بأنه جبار في الأرض، وهذا بناء على رأي من رجح كون القائل هو القبطي.³

(509) تشير الآية إلى أن من امتلأ قلبه غيظا على الظلم ينفعل كلما رآه فيسعى لإزالته، ودحض أهله بما يستطيع من قوة⁴؛ فموسى عليه السلام الذي عاش في بيئة الظلم، ورأى ما يفعل الظلمة بالمظلومين أصبح يُلبى كل من يستغيثه لنصرته؛ يدل على هذا وصفه لإسرائيلي بالغواية ثم مبادرته إلى دفع الظلم عنه.

(510) تشير الآية إلى أن من يهتم بنصرة المظلومين، ويضحى بنفسه من أجلهم سيتكفل الله به، ويُرشدَه إلى طريقه، ويُيسر له من ينصره من عدوه ولو بعد حين؛ ذلك أن موسى لما كان بهذه الحالة تَوَلَّاهُ الله في صغره فرعاه في القصور، وفي كبره فنصره على أهل الكبر والغرور.⁵

(511) في الآية تنبيه للمضطهدين والمظلومين بأن يسعوا في رفع الظلم عنهم بالطرق التي وضعها لهم ربُّ العالمين؛ لأن الله صَوَّرَ الظلم الواقع على بني إسرائيل، وبيَّن سعي موسى لرفعه وهو من فئة الضعفاء في الحقيقة -الذين هم بنو إسرائيل- وإن كان في الصورة من فئة الأقوياء -الذين هم آل

¹ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين: 38/8، رقم: 6133، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين: 2295/4، رقم: 2998.

² ينظر: التفسير الوسيط للزحيلي: 3/1910.

³ ينظر: المصدر السابق: 10/390.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 5/2683.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 5/2683.

فرعون- ليشير أن هذا في الإمكان، وليس خارجا عن قدرة المكلفين، ولا هو من الأفعال الذميمة بل من الحميدة التي يُنصر صاحبها في الدنيا، ويُجازى على فعلها في الآخرة¹.

a. تشير الآية إلى أن الظلمة ينظرون دائما إلى الفئة المضطهدة نظرة ازدراء، وإن كان المنظور إليهم يعيشون في قصورهم، وأمام أعينهم؛ ذلك أن القبطيَّ خاطب موسى خطاب عجرفة وتكبر وإن كان يعلم أنه في حاشية فرعون². هذا بناء على كون القائل هو القبطي وليس الإسرائيلي.

(512) تشير الآية إلى أن الظلمة يُصورون الصالحين مُجرمين فجاراً حتى ينفّر الناس منهم، ويُبرّر العقاب الذي ينزل من الظالمين عليهم، ذلك أن القبطي -على رأي- شتّع بموسى، ووصفه بالإجرام أمام الناس ليُشيع الخبر فيصل إلى السلطة العليا لتنفذ فيه أمرها³.

(513) في الآية إشارة إلى أن الله قد يُعطي لبعض عباده إشاراتٍ لما سيقع لهم في المستقبل؛ فموسى عليه السلام الذي نصر الإسرائيلي حتى أخطأ بسببه، واستغفر ربه من ذنبه، لقي من قومه بعد بعثته مالقي من هذا الإسرائيلي أو أشدّ، فقد نصرهم من فرعون، وهداهم إلى الله بعد ضلالهم، ثم عادوه واتهموه بالعيوب الخلقية التي هو منها بريء، وقالوا له ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا

قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ [المائدة: 24].

(514) في الآية إشارة إلى أن أصحاب المصالح يدورون معها حيث دارت، وافقت مبادئهم أو خالفوها؛ فالقبطي الذي وصفه الله بالمشايخ فرح بعمل موسى لما كان في صالحه، وعابه واتهم صاحبه بالجبر في الأرض، وقتل النفوس، والابتعاد عن سبيل المصلحين لما لم يكن في صالحه.

(515) في الآية إشارة إلى أن إرادة الشيء لا يترتب عليها إثم، ولا تعد خطيئة ما لم يقع الشيء في الوجود؛ ذلك أن الله أثبت لموسى إرادة البطش، ولم يعده عليه ذنباً؛ ويؤكد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 5/ 2684.

² ينظر: المصدر السابق: 5/ 2684.

³ ينظر: معارج التدبر: 9/ 370.

كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة)¹

(516) في الآية إشارة إلى عزم موسى وتصميمه على نصرته المظلومين، والفتك بالظالمين؛ لأن الآية ذكرت بطشه بالفعل المضارع الدال على التجدد، وأكدته ب (أَنْ) الزائدة للتوكيد.

(517) تشير الآية إلى أن موسى كان بينه وبين قائل ﴿يَمُوسَى﴾ - قبطياً كان أو إسرائيلياً - بُعد في الجاه والمكانة والقوة؛ دليل هذا أنه ناداه ب (يا) الموضوع لنداء البعيد.

(518) تشير الآية إلى أن الإصلاح بين الناس محمود لدى أهل الشرائع السماوية، والملل الكفرية؛ ذلك أن القبطي عيّر موسى عليه السلام - على رأي بعض المفسرين - بكونه لا يريد أن يسلك سبيل المصلحين، فدل بمفهومه على أن سبيلهم محمود.

(519) تشير الآية إلى أن من كان في بيئة لا تُطبّق شرع الله، ولا تحكم بالعدل بين الناس، فحدث منه قتل خطأ فلا حرج عليه أن يكتّم أمره، ويستغفر ربّه؛ لأن موسى عليه السلام لما علم أنه مقتول بقتله القبطي لم يُظهر أمره، ولم يُفش سرّه؛ لأن قتل الخطأ يُخالف حكمه حكم قتل العمد، وهم سيطبقون عليه حكم العمد.

(520) في الآية إشارة إلى أن المؤمن إذا رأى شخصين يتخاصمان فليبادر أولاً إلى معرفة الظالم منهما، ثم يسعى بينهما بالإصلاح قدر الوسع حتى يتراضيا، فإن لم يستجيبا له قام بما يلزم من دفع الظلم على حسب قدرته ومكانته؛ أشعر بهذا لفظ (المصلحين) الوارد في سياق التخاصم.

(521) في الآية إشارة إلى أن العبد عليه أن يسعى ليكون نفعه متعددا لغيره لا أن يقصره على نفسه، لأن فيها لفظ ﴿الْمُصْلِحِينَ﴾ الذي هو اسم فاعلٍ من أصلح المتعدي.

(522) تشير الآية إلى أن التجبر في جزء من الأرض يُعد تجبرا في الأرض كلّها؛ يُشعر بهذا لفظ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ المحلى بالألف واللام المشعرتين بالعموم.

(523) تشير الآية إلى أن من رأى الظلم فتوقد قلبه غيظا، وهبت نفسه لدفعه ففي قلبه حياة، وفي بصيرته نور؛ لأن الظلم مما تأباه النفوس، وتمجّه العقول؛ يستشف هذا من نفس موسى الزكية التي

¹ صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة: 103/8، رقم: 6491، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان،

باب إذا هم العبد بحسنة: 118/1، رقم: 130.

هَبَّتْ لنصرة المظلوم، فأدت إلى خوفه وقلقه في المدينة، ثم هَبَّتْ مرة ثانية لنصرته لما جبلت عليه من رفض للظلم بكل أنواعه.

(524) في الآية إشارة إلى أن الداعية الصادق في دعوته، والناصح المخلص في نفسه هو الذي يَنسى همومه إذا رأى هموم الناس، وتهوّن عليه نفسه إذا ضاقت نفوسُ الناس؛ دليل هذا أن موسى عليه السلام كان قلقاً يَبحث لنفسه عن مخرج، وينظرُ لها طريق النجاة فلما رأى مظلوما هانت عليه نفسه، فبادر إلى نصرته، وهو على يقين بأنه ينكشف أمره، ويظهر سره، فسبحان من زكاه وطهره عليه الصلاة والسلام.

الآية العشرون، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ

بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(526) تشير الآية إلى أن الفاضل إذا أمره المفضل بأمر وعلم صدقه ونصح فعله أن يمثل أمره¹؛ فموسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، ومع ذلك امتثل أمر الرجل الذي لم يُوصف حتى بوصف الإيمان.

(527) في تقديم رجل هنا على ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ تحوط "على قلب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أن يناله روع أو حزن على موسى عليه السلام؛ لأنه لو قيل (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى)، لأمكن أن يتوهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أنه جاءه جماعة كثيرون يريهم الاستخفاف منه لأجل قتله القبطي، فما يصل إلى ذكر الفاعل إلا بعد حصول الروع منه والفرع في القلب، فبدأ بذكر الرجل احترازاً من هذا"²

(528) تشير الآية إلى أن من كان يريد أن يقضي حاجة من حوائج الناس، بها نجاتهم من الهلاك، أو تقدمهم على الأمم والحضارات فليجدد العزم بين الفينة والأخرى، وليُسرع كلما تكاسلت نفسه، أو ساورها اليأس؛ لأن الرجل الذي أخبر موسى جاء يسعى، يجدد العزم على البلوغ مرة بعد مرة كما يشعر بهذا الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار³.

(529) تشير الآية إلى أن خطاب الناس عند الالتباس ينبغي أن يكون واضحاً بيّناً لا لبس فيه ولا خفاءً حتى لا يفهم خطأ، أو يتلقاه من لا يقصد به؛ لأن الرجل الذي جاء لموسى ناداه باسمه الصريح⁴ دون (يا ابن فرعون) ليرعاه سمعه، ويفهم القصد من كلامه، ويُنفذه بعد الانتهاء منه.

(530) في الآية "دليل على أن المعصية قد تكون سبباً في نيل الخصوصية، كأكل آدم من الشجرة، كان سبباً في نيل الخلافة، وعُمرة الأرض، وما نشأ من صُلبه من الأنبياء والأولياء وجهابذة العلماء، وقتل موسى عليه السلام نفساً لم يؤمر بقتلها، كان سبباً في خروجه للتربية عند شعيب عليه السلام،

¹ ينظر: البحر المحيط: 295/8.

² ينظر: تفسير ابن عرفة: 267/3.

³ ينظر: نظم الدرر: 262/14.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 262/14.

وتهيئته للنبوة والرسالة والاصطفائية، فكل ما يُوجب التواضع والانكسار يُورث التقريب عند الملك الغفار¹

(531) في الآية دليل على أنَّ الخوف عند الدواهي الكبار لا ينافي الخُصوصية؛ إلا أنه يخفُّ ويَهون أمره على قدر الخائف²؛ فموسى عليه السلام خاف عند الخروج من المدينة، وعند رؤية حيل السحرة وعُدَّ من أولي العزم من الرسل.

(532) تشير الآية إلى جواز النميمة إن كان فيها مصلحة دينية راجحة³؛ ذلك أن فيها نقل الرجل الكلام الذي دار بين الملاء إلى موسى عليه السلام، وهذا في أصله لا يجوز، وإنما جاز هنا لما يترتب عليه من حفظ نفس موسى من القتل.

(533) تشير الآية إلى أن التنكر جائز لمن أراد أن يُبلغ شخصا أمراً مكروهاً، وخاف على نفسه من بطش الظالمين⁴؛ ذلك أن فيها إبهام مخبر موسى، ووصفه بالرجولة المعينة للجنس دون العين.

(534) تشير الآية إلى نوع من الذكاء السياسي الذي يتعامل به بعض الزعماء، وهو إطفاء نار الحرب قبل أن تشب؛ ذلك أن فرعون أرسل الرجل -بناء على رأي الشيخ عبد الكريم الخطيب- ليخبر موسى بالخروج كي لا يثور عليه القبط؛ لأن موسى محسوبٌ عليه شاء أم أبى، فهو الذي رباه، وطلب له المراضع...⁵؛ وهذا ما أكدته الواقع، فكثيرٌ من التمثيلات السياسية ظهرَ زيفها مع مرور الوقت، أو اختلاف المدبرين لها.

(535) تشير الآية إلى أن الملوك يسكنون في أطراف المدن خوفاً من الثورات والغارات، حتى تكون مساكنهم أسعدَ بخروجهم عند الخوف؛ وقد قيل: الأطراف: منازل الأشراف⁶؛ دل على هذا مجيء المخبر من أقصى المدينة، والأقصى هو الأبعد.

¹ البحر المديد: 240/4.

² المصدر السابق: 240/4.

³ ينظر: روح المعاني: 268/10.

⁴ ينظر: التفسير الوسيط للزحيلي: 1910/3.

⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 328/10.

⁶ ينظر: التحرير والتنوير: 95/20.

(536) تشير الآية إلى أن بعض الناس قد يجتمع أمرهم على رأي واحد وإن كان ضلالاً في حقيقته؛ ذلك أن الله بين أن المتفقين على قتل موسى ينتمون إلى فئة الملائكة التي تعني في اللغة الجماعة التي أمرها واحد، ورأيها واحد، لكون بعضهم يُمالي بعضاً¹.

(537) تشير الآية إلى أن الملائكة من الناس يقبلون أوامر بعضهم وإن كان كل واحد منهم يعد نفسه أذكى من غيره؛ لأن الائتمار فعل مطاوع يدل على أن كل واحد منهم خضع لأمر الآخر².

(538) تشير الآية إلى أن الله قد يُري بعض عباده فساد الشرك، وضلال أهله دون وجود نبي يتبع، أو شرع يطاع؛ هذا بناء على كون الذي جاء إلى موسى من القبط الذين كانوا على دين فرعون³.

(539) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَيَقْتُلُونَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ﴾ الآية إيماء إلى أن رسوله صلى الله عليه وسلم سيخرج من مكة وأن الله مُنجيه من ظالميه⁴.

(540) تشير الآية إلى أن الطغاة الظالمين يُميزون ما تقوم به رعيته من أفعال، فالفعل الواحد يُعتبر من شخص ما خطراً ينذر بشؤمهم وضياع كراسيهم، ويعتبر من شخص آخر عادياً لا يؤبه له؛ لأن الملائكة لما علموا أن القاتل هو موسى اجتمعوا، وتشاوروا حتى وصلوا إلى أن يأمر بعضهم بعضاً، ولم يفعلوا نفس الشيء مع القاتل الذي يحدث في المدينة في الصباح والمساء؛ ويشهد لهذا الواقع المعاصر، فكثير من الجرائم تقع ولا يلتفت إليها فضلاً عن الاجتماع إليها، بينما بعض الأفعال اليسيرة التي تقع ممن يُخاف منهم تُعقد لها المجالس، ويُدعى لها أصحاب الشورى، وتُصدر في حقهم الأحكام سواء كانوا ظالمين أو مظلومين، كما هو ظاهر من مجلس الأمن، والمؤسسات التي تسير على خطاه.

(541) تشير الآية إلى أسلوب يتخذه السياسيون وهو ادعاء النصح وخدمة المنصوح، ذلك أن الرجل الذي أمر موسى بالخروج كان سياسياً محنكاً (على رأي الشيخ عبدالكريم كما سبق) ألّف ذلك المصطلح الذي يُعتمد عليه في إقناع الناس حتى يكونوا في صف فرعون.

(542) "دلت الآية على أنه قد يوجد في أخصب الأماكن ظلماً وكفراً وعدواناً من يدرك الحق ويحاول نصرته على قدر وسعه؛ فهذا الرجل الذي جاء من أقصى المدينة حيث توجد القصور

¹ ينظر: المصدر السابق: 95/20

² ينظر: المصدر السابق: 96/20

³ ينظر: التحرير والتنوير: 95/20

⁴ ينظر: المصدر السابق: 97/20

الفرعونية يسعى بِهَمَّةٍ وسرعةٍ ونشاط ليصل إلى موسى لا بد أن يكون من محبي الحق والعاملين على نصرته على مقدار الاستطاعة، ولا بد أن يكون ممن يعرف أخلاق موسى وفضائله وكمالاته...¹

(543) تشير الآية إلى أن تأكيد الخبر بمؤكدات لا يقتصر على حال المخاطب، فقد يتعداه إلى حال المخاطب الذي يكون مهموماً، أو حريصاً على المخاطب، أو غير ذلك من الأسباب²؛ لأن موسى عليه السلام في ظاهر الآية كان خالي الذهن من تدبير الملائ، ومع ذلك أكَّده له الرجل بمؤكدتين: هما: (إِنَّ) و(الجملة الاسمية).

(544) تشير الآية إلى أن الظالمين يتشاورون على المضطهدين، فيقدم كل منهم رأياً لا يكون بحال في صالح المضطهدين إنما في صالح بعضهم، أو في صالحهم أجمعين؛ لأن الملائ لما اجتمعوا خرجوا بنتيجة وهو قتل موسى الذي يعد في صالحهم أجمعين بحيث يحفظون بها عروشهم من الزوال؛ ويشهد لهذا قول الله تعالى في ملاء قريش: ﴿وَإِذْ يَمَكُّرُ بَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأَنْفَال: 30].

(545) في الآية إشارة إلى أن الناس إذا سمعوا من حاكم ظالم، أو حاشيته التآمر على قتل عالم، أو فاضل أن يبادروا إلى إخباره ليُدبر أمره، وينظر مخرجه؛ لأن الآية مدحت مخبر موسى، واهتمت به، والقصص القرآنية عبرة لأولي الألباب.

(546) في الآية إشارة إلى أن النصيحة ينبغي أن يكون القصد منها المنصوح فقط بعد الإخلاص إلى الله تعالى؛ ذلك أن اللام في (لك) مشعرة بكون الرجل مخلصاً لموسى في نصحه، لا يرجو من ورائه ولا غيره نفعا عاجلاً أو آجلاً.

(547) تشير الآية إلى اهتمام الشريعة الربانية بأصحاب النفوس الطيبة الذين يسعون بما يملكون للدفاع عن المظلومين بغض النظر عن أصولهم أو عرقهم؛ لأن تقديم ﴿رَجُلٌ﴾ على ﴿أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ يُشعر بالاهتمام به؛ لأن التقديم عنوان الاهتمام كما يقول علماء البلاغة.

(548) تشير الآية إلى أن الخير مطلوبٌ فعلاً بغض النظر عن فاعله، مؤمناً كان أو كافراً؛ ذلك أنها لم تذكر من نصح موسى بالخروج بقيدٍ أو وصفٍ يُحدد انتماءه، بينما وُصف الرجل بالإيمان في سورة

¹ معارج التدبير: 371/9.

² تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136) ص: 89.

يس ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ [غافر:28]. لبيان ما يفعله الإيمان بصاحبه من قول الحق ولو كان مرا.

(549) تشير الآية إلى أن الأمور المتعلقة بالدين يُشترط في قائلها وصفُ الإيمان، والأُمُور المتعلقة بمعاش الناس لا يُشترط فيها ذلك؛ لأنها خلت عن وصف الرجل بالإيمان، بينما وصف به في سورة غافر.

(550) تشير الآية إلى أن القيام بالأسباب لا يُنافي التوكل على الله؛ لأن موسى عليه السلام وهو المهياً لحمل الرسالة العظمى دخل المدينة وهو قائمٌ بكل الأسباب، وخرج منها وهو كذلك.

(551) تشير الآية إلى أن نصرة المظلومين قد تأتي من الأماكن التي لا تخطر على بال الظالم، ولا على بال المظلوم كذلك؛ لأنها بينت كون الجائي من أقصى المدينة الذي يعتبر في حكم العادة ميثوسا منه، لجريان العادة على أن النصرة تكون ممن بالجوار.

(552) تشير الآية إلى أن الطغاة ينظر بعضهم إلى بعض نظرة ازدراء واحتقار، وفي المقابل ينظرون إلى أنفسهم نظرة علوٍ واستعلاء؛ ذلك أن الله أتى بلفظ ﴿يَا تَمِرُونَ﴾ دون يتشاورون ليُشعرنا بأن كلاً منهم ينظر إلى كلامه على أنه أمرٌ، وإلى غيره على أنه مأمور.

(553) تشير الآية إلى أن الناصح في نصحه ينبغي أن يكون كلُّ اهتمامه منصباً على المنصوح حتى يشعر كأنه نفسه أو أعزُّ منها؛ أشار إلى هذا تقديمُ المعمول على عامله الذي من بين أغراضه الاهتمام.

(554) تشير الآية إلى أن بين أهل الله وخصومهم مسافةً روحية وقلبية وإن كانوا في مكان واحد؛ ذلك أن الرجل الذي أخبر موسى أتى ببياء النداء التي تدل على البعد مع أنه كان يعرفه، وربما كانا يجلسان معا في قصر فرعون؛ والبعد كما هو معلوم إما: بعدٌ حسي، أو بعد معنوي.

(555) تشير الآية إلى أن الملأ حيثما وجدوا يعتبرون أنفسهم هم أصحاب الأمر والشأن، ومن عداهم في حكم العدم، وإن كان خيراً منهم بآلاف المرات كما هو الحال بالنسبة لموسى مع ملأ فرعون؛ فلم يستدعوا الحكماء ليقولوا حكمهم، ولا الضعفاء ليسمعوا ما يحاك لهم.

(556) تشير الآية إلى أن الطغاة يبذلون أقصى ما يملكون من جهد للقضاء على من ناوهم، أو علموا أنه يقضي على عروشهم ولو في زمن بعيد؛ لأن الله ذكر ائتمار الملأ بصيغة الافتعال (يأتَمرون) الدالة على أنهم بذلوا كل جهودهم، واستنفدوا كل طاقتهم.

(557) تشير الآية إلى أن العبد مهما جمع من العلم، وبلغ من النصح فلا يقصُر الحق على نفسه، أو يعُدّها الوحيدة المنقذة للبشرية؛ لأن الرجل الذي أخبر موسى عليه السلام جعل نفسه من جملة الناصحين ولم يجعلها الناصح الوحيد، مع أنه يعلم أنه لا أحد نصحه قبله بالخروج.

(558) تشير الآية إلى قلة الناصحين في الزمان الماضي والزمان الحاضر؛ لأن الناصحين من جمع المذكر السالم الذي يدل في أصل وضعه على القلة.

(559) تشير الآية إلى الفرق بين نصيحة الأنبياء ونصيحة غيرهم، فنصيحة الأنبياء حقٌ وصدق يجب اتباعها والعمل بمقتضاها، ونصيحة غيرهم يُنظر فيها، فإن كانت صواباً عُمل بها وإلا تركت ونُظر في غيرها؛ هذا لأن الرجل جعل نفسه من جملة الناصحين ليحث موسى إلى النظر فيها، بينما نبي الله هوّد عليه السلام قال: ﴿وَأَنَّا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68] ليشير إلى أن نصيحته هو الوحيدة التي من تركها ضلّ عن سواء السبيل.

(560) تشير الآية إلى أن العبد عليه أن يسعى لامتلاك صفة النصح حتى تصير سجية فيه، يُحدثها متى دعت إليها الحاجة؛ لأنها جاءت هنا بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، وباسم الفاعل الدالّ على وقوعها بعد أن لم تكن، فصارت النتيجة كما قررت.

الآية الواحدة والعشرون، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ



من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(562) تشير الآية إلى أن الإنسان إذا كان في ضيق يَرَقِبُ الأعداء، أو يَنْتَظِرُ العقاب فليجأ إلى ربه على وجه السرعة، فهو الكفيل بخلاصه¹؛ يشير إلى هذا دعاء موسى بعد الخوف والترقب الذي كان في داخله.

(563) تشير الآية إلى أن قتل القاتل خطأً بقتيله يُعَدُّ ظلماً في نظر الشريعة والعقل؛ ذلك أن موسى عليه قال ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فأفاد أنهم ظالمون لأنفسهم بشركهم، وظالمون له بإرادة قتله قصاصاً².

(564) تشير الآية إلى أن الإنسان إذا عَدِمَ الهادي في طريقه فليتوجه إلى الله فهو الهادي الحقيقي؛ لأن موسى عليه السلام لما خرج من المدينة لم يَدِرْ أيَّ طريق يَسْلُكُ، فتوجه إلى الله فهده³.

(565) تشير الآية إلى أن الصادقين مع الله الواثقين في وعده إذا داهمهم أمر سارعوا إلى ربهم، غير مبالين بالزاد الذي يحتاجونه؛ هذا لأن موسى عليه السلام خرج من فوره دون زاد يحمي مُهْجَتَهُ، ولا مرشد يهدي ضالته⁴.

(566) تشير الآية إلى أن الفطن هو الذي يَقْضِي أغراضه قبل أن يتفطن له أعداؤه؛ فموسى عليه السلام بادرَ بالخروج قبل أن يُدْرِكَ جنودُ موسى مكانَ تواجده فيُغْلِقُوا عليه الأبواب، ويَرْصِدُوا له الطرق⁵.

(567) في الإتيان ب (قال) دون حرف العطف إشعارٌ بأن على السالك في درب أن يَشْرَعَ في الدعاء منذ البداية⁶، فيكون جامعا بين الأسباب والتوكل على الله في آن واحد.

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 587/24.

² ينظر: التحرير والتنوير: 95/20.

³ ينظر: الهداية: 5510/8.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 2685/5.

⁵ ينظر: معارج التفكير: 372/9.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 374/9.

(568) في حذف ياء المتكلم وإبقاء الكسرة دليلاً عليها إشعاراً بأدب رفيع مع الله، وهو التوجه إليه واعتقاد أنه أقرب إلى العبد من حبل الوريد¹، قرباً يليق بجلالة، لا قرب زمان ولا مكان؛ لأنه سَلَامٌ منزلة عن كل هذا.

(569) تشير الآية إلى أن على الإنسان الذي علم بهلاك نفسه، أو ضياع بعض أطرافه في البلدة التي هو فيها أن يُسارع إلى غيرها غير مبال بما خلف فيها؛ لأن موسى عليه السلام لما أيقن بمكر فرعون وجنوده به لم يختفِ أو يماطل في الخروج، بل سارع إلى مدين راجياً من الله العون على النجاة من الأعداء؛ ووجه الهداية الفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، فكأنه بمجرد العلم خرج.

(570) تشير الآية إلى أن الداعي ربه، والسائل حاجته منه ينبغي أن يقدم اسم ربه على مطلبه وحاجته؛ لأن موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ اجْنُبْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل: نجني من القوم الظالمين يا رب.

(571) تشير الآية إلى أن الظلم من الصفات الذميمة التي يتصف بها المسلمون كما يتصف بها الكافرون؛ ذلك أن موسى طلب من ربه النجاة من القوم الظالمين، ولم يسأله النجاة من الكافرين؛ لأن الكافر قد يكون ظالماً لربه وللناس، وقد يكون ظالماً لربه عادلاً مع الناس؛ ويشهد لهذا قول الله تعالى في شأن الكافرين: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]، كما يمكن أن نستأنس بالقول المأثور الذي أورده ابن تيمية رحمه الله: "يُروى² الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"³.

(572) تشير الآية إلى أن الناس مع الظلم قسمان: قسم يقع منه ثم يستغفر ربه، وقسم يُصر عليه ويتمادى فيه، فالأول من طبيعة البشر، إذ لا يكاد يخلو منه مخلوق إلا من عصمه؛ والثاني: مذموم لأنه يدل على خبث النفس، وعدم اتعاضها بما تفعله قدرة الله بالظالمين؛ ووجه الهداية أن موسى عليه

¹ ينظر: المصدر السابق: 374/9.

² هكذا في الأصل، ولعل المعنى مستقيم إن شاء الله؛ قلت هذا لأن المحكم اقترح عليه كتابة (يُروى أن الله).

³ مجموع الفتاوى: 63/28.

السلام ذكر ظلم فرعون وجنوده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، وذكر ظلم نفسه في الآية السابقة بالماضي المشعر بالحدوث، إذ قال : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾.

(573) تشير الآية إلى أن المؤمن الحقيقي هو الذي يكون دائما على حذر من أعدائه، ينظر كيدهم، ويبحث عن الحيل المنجية من مكرهم؛ لأن ترقب موسى كان أثناء دخوله المدينة، وأثناء خروجه، إضافة إلى كونه جاء في الآيتين بالجملة الفعلية المضارعية الدالة على التجدد والاستمرار.

(574) تحت الآية العباد على أن يسألوا ربهم النجاة من كل الظالمين، سواء من كثرت ظلمهم أو من قل ظلمهم، وسواء من يعرف منهم ومن لا يعرف؛ لأن موسى عليه السلام حلّى الظالمين بالألف واللام المشعرة بطلب النجاة من كل الظالمين.

(575) تشير الآية إلى ميزة ميز الله بها رسوله ﷺ، وهي أنه مطمئن البال لا يخاف إلا من الله تعالى؛ ذلك أنه لما كان في الغار ووصلت إلى بابه أقدم الطالبين قال أبو بكر (لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا) فرد عليه بقوله (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)¹ وأنزل الله في شأنه قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40]

(576) تشير الآية إلى أن الظالم لا ييسط يده إلا إذا كان من جماعة يحمي بعضهم بعضا؛ لأن موسى سأل ربه النجاة من القوم الظالمين، والقوم اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقد كان يكفيه أن يقول (من الظالمين)، فلما زاد القوم استفدنا هذا المعنى.

(577) تشير الآية إلى أن الدعاء يكون قرين الأسباب، فلا يدعو العبد وهو في بيته جالس، بل يدعو وقد قام بما يلزمه؛ فموسى عليه السلام سأل النجاة بعدما باشر السير كما يدل عليه الفعل الماضي (توجه).

¹ صحيح البخاري، كتاب المهاجرين، باب مناقب المهاجرين وفضلهم: 4/5، رقم: 3653، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر: 4/1854، رقم: 2381.

الآية الثانية والعشرون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ

السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(578) تشير الآية إلى أن من اضطر إلى الخروج عن بلده لظلم يلحقه، ولم يعرف المكان الذي يحفظ فيه مهجته، ويقضي فيه مصالحه فليخرج مستعينا بالله، متوكلا عليه، سائلا منه بيان البلد الآمن، والطريق الأسهل؛ لأن موسى عليه السلام خرج من مصر ولا يدري أين يتجه، ولا الطريق التي يسلك، فلما سأل ربه هداه¹.

(579) تشير الآية إلى أن الخروج عند الخوف إلى بلد فيه الأقارب وإن بعد أقوى في الحفاظ على النفس، وتحقيق المصالح؛ لأن موسى لما خرج توجه إلى مدين، التي يعود نسبها إلى مدين بن يعقوب عليه السلام²، فكان لهذه القرابة تأثير على استقرار موسى.

(580) تشير الآية إلى أن من أخلص لله في الدعاء استجاب له فور دعائه إن كانت المصلحة في التعجيل بها؛ لأن الله استجاب لموسى عليه السلام بمجرد الدعاء كما تدل عليه (ولما توجه)³.

(581) تشير الآية إلى أن العبد يجب عليه إذا دعا ربه أن يكون موقنا بالإجابة؛ لأن موسى عليه السلام سأل الله وأيقن باستجابة دعوته كما تدل عليه عبارة (عسى) التي إن كانت لله دلت على الوجوب⁴ لا التوقع.

(582) تشير الآية إلى أن الطغاة يخافون من الواقع التي حل فيها عقاب الله على المكذبين للأنبياء والمرسلين؛ لأن مدين قرية تبعد عن مصر بمسيرة ثمانية أيام كما ذكر المفسرون ومع ذلك لم يستول عليها فرعون "لَمَّا وَصَلَهُ مِنْ خَيْرِ إِهْلَاكِ أَهْلِهَا لَمَّا طَعُوا عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ"⁵

¹ ينظر: جامع البيان: 549/19.

² ينظر: الهداية: 5509/8.

³ ينظر: نظم الدرر: 263/14.

⁴ ينظر: الباب: 363/12.

⁵ البحر المديد: 221/4.

(583) تشير الآية أن من هداه الله إلى الطريق الصحيح فعليه أن يحمده ويشكره عليها ما بقيت روحه في جسده؛ لأن السير عليها من فضله وإحسانه لا من اجتهاد السالك وفطنته؛ لذلك سألها موسى من ربه عندما خرج إلى مدين¹.

(584) في الآية إشارة إلى بيان آية من القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: 71] التي يُفيد ظاهرها أنهم داخلون إلى النار، فجاءت هذه الآية فبينت أن الورود لا يلزم منه الشرب أو الدخول².

(585) تشير الآية إلى أن العبد الصالح هو الذي يسأل ربه أن يضعه في الطريق الصحيح، ويؤمن عليه بالبقاء عليه حتى يصل إلى مقصوده؛ لأن موسى عليه السلام سأل ربه الهداية التامة التي يلزم عنها الوصول إلى الغرض، حيث عدى الفعل (هدى) إلى مفعوليته دون واسطة حرف الجر، فأشعر أنه يريد تمام الهداية؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6].

(586) تشير الآية كسابقتها إلى أن العبد إذا دعا ربه فليتأدب معه بتقديم اسمه على مسألته؛ لأن موسى عليه السلام وهو في أمس الحاجة إلى ما عند ربه لم يقدمها على اسم الله ذي الجلال والإكرام، وإنما قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وجاءت الآية الأخرى على المنوال، فأكدت هذا الأدب في الدعاء.

(587) تشير الآية إلى أن الهجرة من أرض الظالمين سنة نبوية، فإبراهيم هاجر قومه، وموسى هاجر أرض فرعون، ومحمد ﷺ هاجر مكة، فحيثما وجد الإنسان راحتته في عبادته الله فتلك بلدته كما قال تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِبْرَأْنِي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: 56].

(588) تشير الآية إلى أن العبد الصالح هو الذي يُكثر من سؤال الهداية، فلا تفارق ذهنه ليلا ولا نهارا، ولا صيفا ولا شتاء، ولا فرحا ولا حزنا؛ لأن الآية فيها الهداية بصيغة المضارعة المشعرة بأن موسى استمر على هذا الدعاء.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 98/20.

² ينظر: المحرر الوجيز: 283/4، والخواطر: 10903/17.

(589) تشير الآية إلى أن التجبر في الأرض يكون بشعور النفس بالقوة وإن كانت في الحقيقة ضعيفة؛ لأن موسى توجه إلى مدين - وهي قرية قريبة من مصر - فارا من فرعون وجنوده، فلو كان فرعون قويا حقيقة لحكم مدين أيضا التي تبعد عنه بأميال.

الآية الثالثة والعشرون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾^١

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(591) تشير الآية إلى التريث عند رؤية المصالح، فلا يُبادر إليها بمجرد رؤيتها، بل لا بد من النظر إلى توفر شروطها وانتفاء موانعها؛ فالمرأتان لم تبادرا إلى الماء الذي هو مصلحةٌ لهما ولماشيتهما لعلمهما بعدم توفر الشروط التي منها القوة، ووجود الموانع التي منها نزاحم الأمة حول الماء¹.
(592) تشير الآية إلى أن أصحاب النفوس الطيبة يُقدمون للضعفاء والمحتاجين مساعداتٍ لا يرجون من ورائها مدحا ولا ثناء، ولا يقصدون من فعلها مالا ولا ربحا²؛ لأن موسى عليه السلام لما سقى للمرأتين لم يطلب منهما أجرا، ولم يسألهما ثناء ولا مدحا، إنما توجه مباشرة إلى ربه جل في علاه.

(593) تشير الآية إلى أن صاحب النفس الطيبة، والقلب الرحيم لا يبالي بما يلقاه من نَصَب، ولا ما يعرض له من بلاءٍ إذا رأى حاجات الناس غير مقضية³؛ لأن موسى عليه السلام لم يُبالِ بما لا قاه في طريقه من الجوع التي أوصله إلى أكل أوراق الشجر، وسقوط خقه لشدة ما عانه من السفر، بل بادر إلى قضاء حاجة المرأتين ناسيا نفسه، وما تحتاج إليه من طعام وشراب، واستظلال بظل أشجار.
(594) تشير الآية إلى أن من رزقه الله قوة بدنية أو غيرها فليشتغل بها في نفع الناس لا في إيذائهم⁴؛ لأن موسى عليه السلام لم يستخدم قوته في طرد الناس عن البئر، ولا في البطش بمن اعترض منهم؛ وإنما في حمل الصخرة وسقي الماء للمرأتين.

¹ ينظر: الكشف: 400/3.

² ينظر: المصدر السابق: 400/3.

³ ينظر: المصدر السابق: 401/3.

⁴ ينظر: الكشف: 401/3.

(595) تشير الآية إلى أن الذي يفعل الخير لوجه الله لا ينظر إلى نوع المفعول وحجمه، إنما إلى الفعل الذي يُقرّبه من مولاه؛ لأن الآية ذُكرت سقي موسى ولم تذكر نوع المسقي، أهو غنم أم إبل أم غيرها؟ وكذلك الشأن بالنسبة إلى الذود؛ لأن الغرض بيان الفعل وليس بيان المفعول¹.

(596) تشير الآية إلى أن الآباء الأحرار لا يرضون لبناتهم الخروج إلى الطرقات لمزاحمة الرجال في قضاء الحاجات؛ لأن المرأتين علّتا خروجهما بأن أباهما شيخ كبير، فأفاد مفهوم كلامهما أنه لو كان قويا لما خرجتا².

(597) تشير الآية إلى أن من يقدر على تحقيق مصالحه بنفسه فليبادر إلى مخالطة الناس ومدافعتهم حتى يحقق مقصوده؛ لأن موسى عليه السلام لمّا علم بشأن المرأتين بادر إلى السقي لهما ولم ينتظر حتى يصدر الرعاء، فأشعرنا بأن القوي هو الذي يدافع عن مصالحه، ومصلح الناس دون أن يضر بالآخرين³.

(598) في الآية دليل على جواز مكالمة المرأة الأجنبية فيما يعني الرجل⁴؛ لأن موسى عليه السلام بادر إلى سؤال المرأتين لمّا عنّ لها ابتعاذهما عن الناس، وحسب غنمهما عن السقي.

(599) تشير الآية إلى طريقة خطاب النساء للرجال، وهي جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة حتى لا ينتشر الحديث، فالمرأتان قالتا ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فجمعتا في هذه الجملة الاعتذار عن الخروج، والتنبيه على ضعف أبيهما، والاستعطاف لموسى لكي يرقّ قلبه لخالهما فيسقي لهما⁵.

(600) تشير الآية إلى أن الناس عموماً، والمرأة خصوصاً إذا سألها الرجال أن تُطابق بجوابها السؤال؛ لأن المرأتين لما سألهما موسى عليه السلام أجابتا مباشرة دون لف ولا دوران⁶.

(601) تشير الآية إلى أن مفارقة الجماعة يُعتبر من الأمور العظام التي تستوجب السؤال عن سببها؛ لأن موسى عليه السلام لم يقل لهما ما سبب ابتعاذكما عن الناس، وإنما قال ﴿مَا خَطْبُكُمَا

¹ ينظر: المصدر السابق: 401/3.

² ينظر: مفاتيح الغيب: 589/24.

³ ينظر: المصدر السابق: 589/24.

⁴ ينظر: البحر المحيط: 298/8.

⁵ ينظر: البحر المحيط: 298/8.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 298/8.

﴿والخطبُ في اللغة لا يطلق إلا على الأمر الجلل الذي يكثر فيه التخاطب¹، ومنه قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِي﴾ [طه: 95].

(602) في ذكر الله ابنتي الرجل الصالح بالمرأتين دون اسميهما إشارةً إلى أن المرأة حريٌّ بما أن تتحلى بالمرءة ومكارم الأخلاق؛ ويؤكد هذا ما وصفهما الله به من الخلال، والصفات الحسنة في الآيات اللاحقات².

(603) تشير الآية إلى أن الإخوان الذين يُخرجون أخواتهم إلى العمل مكائهم لا مروءة لهم ولا أخلاق؛ لأن المرأتين عللتا خروجهما بضعف أبيهما، فأشعرتا أن ليس لهما إخوةٌ يقومون مقامهما، ولو كانوا لما خرجوا³.

(604) تشير الآية إلى أن العبد الصالح هو الذي إذا فرغ من نصح العباد، وقضاء مصالحهم خلا بربه فشكى إليه ما يجد؛ ذلك أن نبي الله موسى عليه السلام بادر إلى قضاء حاجة المرأتين فلما فرغ منها ذهب إلى الظل ليناجي ربه⁴.

(605) تشير الآية إلى أن التوحد والاجتماع سببٌ للقوة والغلبة؛ لأن الله وصف المجتمعين على الماء بالأمّة؛ وهي الجماعة الكثيرة التي تقصد وتُقصد⁵، وبين بسطتهم على الماء، واستحكامهم في مخرجه ب(على) الدالة على الاستعلاء.

(606) تشير الآية إلى أن الغريب الذي يقصد بلدةً معينة يُستحسن له أن يذهب إلى موضع مياههم حيث يجتمعون، فيأخذ منهم ما يكفيه من المعارف عنها، ويجد فيهم من يُضيفه ويكرمها من أهلها⁶.

(607) في إذن شعيب "لا بنتيه بالسقي دليلٌ على جواز معالجة المرأة أمورَ مالها وظهورها في مجامع الناس إذا كانت تسترُ ما يجب ستره، فإن شرع من قبلنا شرعٌ لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا

¹ ينظر: المفردات، ص: 286.

² ينظر: نظم الدرر: 264/14.

³ ينظر: المصدر السابق: 264/14.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 264/14.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 264/14.

⁶ ينظر: التحرير والتنوير: 98/20.

ما يَنسخه. وأما تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة، والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة، والعادات متباينة فيه، وأحوال الأمم فيه مختلفة، وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف"¹.

(608) تشير الآية إلى أن العبد الصالح إذا رأى قوما يحتاجون إليه فليبادر إلى تلبية طلبهم وإن لم يطلبوا منه العون والنجدة؛ لأن موسى عليه السلام لما رأى المرأتين تذودان نعمهما بادر إلى السقي لهما؛ كما أشعرت بذلك الفاء العاطفة في ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾².

(609) تشير الآية إلى أن العبد إذا أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وبلاءٍ فعليه أن يتذكر نعم الله عليه الكثيرة التي لا يستطيع عدّها وحصرها، ثم يحاول شكر الله عليها بعبارة جامعة لمعاني الشكر؛ لأن موسى عليه السلام لما رجع إلى الظل بعد الكدّ في السقي تذكر ما أنعم الله به عليه من النجاة من القتل، والتربية في القصر، والخروج آمناً من المدينة، ثم الوصول بعد الفيافي إلى الأرض الآمنة شكر الله بعبارة جامعة لمعاني الشكر وهي ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾³، فقد بينت أن الخير كلّ من الله، والخير يحتاج إلى شكر³.

(610) تشير الآية إلى أن تصرف الله بالعبد كلّ خير، سواء الذي سعدت به النفس، أو الذي شقّ عليها؛ لأن العبرة بالخواتيم؛ فموسى عليه السلام أثنى على الله بالخير الذي أنزل إليه، ومن هذا الخير ما فيه مشقة على النفس، كالخروج في الفلاة، والجوع في الطرقات⁴.

(611) تشير الآية إلى أن من أفضل الأدعية الدعاء الذي يكون ظاهره الثناء على الله وفي باطنه رجاء العبد من ربه؛ فكلام موسى عليه السلام في ظاهره ثناءً وشكرٌ لله لما أسداه إليه من الخير، وفي باطنه رجاء منه بأن يعيد إليه مثل الخير الذي سبق أن أنزله إليه، كما يشعر قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾⁵ إذ فيه أن الله استجاب له، وحقّق له المأوى الذي يرغب فيه⁵.

¹ ينظر: المصدر السابق: 101/20.

² ينظر: المصدر السابق: 101/20.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 102/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 101/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 103/20.

(612) تشير الآية إلى أن الصالحين عبر الأزمنة المتقدمة كانت لهم خصومات مع قومهم؛ لأن الفتاتين المنعزلتين عن الجماعة يدل أمرهما على أن الأمة تُقاطعهما وأباهما، وإلا فما ضيرهم لو سقوا لهما كما يسقون لأنفسهم؛ ويشهد لهذا مقاطعة قريش للنبي ﷺ وكل من آمن به، أو تعاطف معه من أقاربه أو غيرهم.¹

(613) تشير الآية إلى أن الرجال الأحرار الذين لا يعبدون شهواتهم لا يستغلون حاجات الناس وضعفهم لقضاء نزواتهم؛ لأن موسى عليه السلام كان محتاجا إلى المطعم والمسكن والمنكح، ووجد فرصة سانحة لتحقيق ما يحتاج أو جزء كبير منه على الأقل، فأبى إلا أن يكون حرا أبيا، فقضى للمرأتين حاجتهما ثم توجه الله ولم يطلب منهما شيئا.²

(614) تشير الآية إلى جواز سؤال الرجال للنساء إذا ظهرت لهم أمور تدعو إلى السؤال، أو كانت لديهم حاجات عندهن بشرط الأمن من الفتن؛ لأن موسى سأل المرأتين وهما أجنبيتان لَمَّا ظهر له ما يدعوه إلى السؤال، وأمن على نفسه الفتنة.³

(615) في نصب ياء المضارعة من ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرَّعَاءُ﴾ إشارة إلى أن المرأة ينبغي أن تبالغ في الحياء لدرجة لا تستطيع المزيد عنها؛ لأن المرأتين -بناء على هذه القراءة- لا تأتيان مكان السقي حتى يخرج الرجال عنه، فإذا سقوا مواشيهم وبقيوا في المكان فلا يقربانه لشدة حيائهما، بخلاف القراءة التي فيها ضم الياء، فإنها تدل على أنهما يسقيان بمجرد صدور الماشية عن البئر.⁴

(616) تشير الآية إلى أن الحر الكريم النفس يتحاشى طلب المعونة من الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلا؛ ذلك أن موسى عليه السلام سأل المرأتين عن سبب تأخرهما في السقي، وكان يرجو أن تسألاه العون على السقي فلم تفعلا، إنما أجابته على قدر سؤاله إشعارا بأنهما تربيا على عدم مد اليد إلى الناس.⁵

¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 334/10.

² ينظر: المصدر السابق: 335/10.

³ ينظر: حدائق الروح والريحان: 147/21.

⁴ ينظر: روح المعاني: 269/10.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 267/10.

(617) تشير الآية إلى أن الجماعة القويّة التي تهتم بأمر نفسها ولا تبالي بالضعفاء من بني جنسها تُعتبر لقيمة؛ لأن الله عَرَضَ بلوّم الجماعة التي كانت تَقِف على البئر لقضاء مصالحها دون النظر إلى المرأتين الضعيفتين¹

(618) تشير الآية أن أصحاب المروءة يُقدّمون المرأة على الرجال في قضاء الحاجات، فإذا فُرض أن امرأة ورجلا لهما نفس الحاجة فالمرءة تقتضي أن تُقدم المرأة عليه لما يؤدي تأخيرها إلى ضياع الحياء منها؛ والحياء مطلوبٌ من الإنسان عموما والمرأة خصوصا؛ هذا لأن الآية فيها تعريض بخسة القوم الذين يَسْقون لأنفسهم، وتركوا المرأتين تنتظران فضلاتهم².

(619) تشير الآية إلى أن البحث عن علل الأشياء مما يهتم بها العلماء وأولو النّهى؛ لأنها الكفيلة ببيان الطريقة التي يجب التعامل بها، فالذي لا يتصور الأشياء، ولا يدرك أسبابها وتناجها لن يستفيد منها شيئا؛ يُشير إلى هذا سؤال موسى للمرأتين عن العلة التي أخرجتهم.

(620) تشير الآية إلى أن أصحاب النفوس الطيبة يسيرون في طرقهم وينظرون بأبصارهم وبصيرتهم لعلهم يجدون من يحتاج العون فيعينوه، أو النجدة فينقذوه؛ لأن فيها لفظ (وجد) دون رأى، أو أبصر المشعر بأن موسى عليه السلام كان يبحث عن المحتاجين.

(621) تشير الآية إلى أن المرأة الحرة هي التي تبذل ما في وسعها لتقاوم الاختلاط بالرجال الذي ينشأ عنه في الغالب ضياع الحياء والمروءة؛ لأن المرأتين كانتا تمنعان غنمهما كلّما حاولت الفرار منهما، كما يشعر بهذا الفعل المضارع ﴿تَذُودَانِ﴾.

(622) تشير الآية إلى أن من كان له حقٌّ فُمنع منه، أو نُقص له، ولم يستطع أخذه فليصبر حتى يأتي الله بمن يساعده على أخذه، أو رده كاملا؛ لأن ظاهر كلام المرأتين أن هذه طريقتُهما كلّ يوم كما يشعر الفعل المضارع المنفي، فَيَسِّرَ الله لهما موسى فاسترد حقهما كاملا.

(623) في الآية إشارة إلى أن الله قد يُجرّم الصالحين من الذكور فيعوضهم عنهم بإنات يجعلهن خيرا من الذكور؛ فهذا الرجل الصالح حرّمه الله من الذكور كما يدل عليه ظاهر الآيات فعوّضه بنات فمن بما يقوم به الذكور، ثم تزوجت إحداهن نبيا من أنبياء الله.

¹ ينظر: روح المعاني: 269/10.

² ينظر: في ظلال القرآن: 2686/5.

(624) تشير الآية أن الأقوياء عادة ما يستولون على خيرات الأرض ومقدراتها؛ ذلك أن سكان مدين استولوا على مائها الذي يُعتبر أساس الحياة، وتركوا الضعفاء ينتظرون فضلاتهم كما يدل عليه جواب المرأتين؛ يُستشف هذا من حرف الجر (على) الدالّ على العلو، فكأنهم فوق الماء وهو تحتهم، فصار من المستحيل الاستفادة منه دون رضاهم.

(625) تشير الآية إلى أن الغربة لا تمنع المصلحين وأصحاب القلوب الرحيمة من أعمالهم؛ لأن موسى عليه السلام -وهو غريب- لم تمنعه غربته من سؤال المرأتين وقضاء حاجتهما.

الآية الرابعة والعشرون، قال تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ

إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

من الهدايا التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(627) تشير الآية إلى أن فقر الشخص، أو حرمانه مما عند غيره لا يجعله من المغضوب عليهم، أو الذين نقص قدرهم عندهم، بل يكون هذا للكُمَل من الناس، وأكرم الخلق على الله؛ لأن موسى عليه السلام كما ذكر ابن عباس اخضر بطنه من شدة الجوع، والتصق جلده بعظمه وإنه لأكرم الخلق على الله¹.

(628) تشير الآية إلى أن العبد حين يسأل ربه يحسن به أن يأتي بالفاظ تعبر عن احتياجه إلى ربه فقط دون غيره؛ لأن موسى عليه السلام أتى بالإلم الدالة على الاختصاص؛ فكأنه يقول: أنا مفتقر لما عندك وحدك، ولا ألتفت إلى ما عند غيرك².

(629) تشير الآية إلى أن العباد مفتقرون لأي شيء ينزل من عند الله، قل أو كثر، رضى به النفس أم لم ترض؛ لأن موسى عليه السلام أتى ب (ما) الموصولة الدالة على العموم³.

(630) في التعبير بالماضي عن الإنزال إشارة إلى أن العبد كما هو مفتقر إلى ما عند الله في ماضيه فهو أشد افتقاراً لما يأتي منه في مستقبله⁴؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ

إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فطر: 15] ففيه تعميم الفقر لكل الناس، والعموم للأفراد يلزم عنه العموم في الزمان والمكان والأحوال كما هو مقرر عند أهل الأصول.

(631) تشير الآية إلى أن العبد تحت مشيئة الله يتصرف فيه كما يشاء، يخرج من عالم الفقر فيدخله عالم الغنى، ثم يخرج من عالم الغنى ويؤجله عالم الفقر وهكذا؛ فموسى عليه السلام عرّض بثنائه على الله بأنه كان يتخبط في نعم الله، وأنه الآن فقير إلى ما عنده⁵.

¹ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 13/270.

² ينظر: نظم الدرر: 14/267.

³ ينظر: المصدر السابق: 14/267.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 14/267.

⁵ ينظر: حدائق الروح والريحان: 21/149.

(632) تشير الآية إلى فضل القوة النفسية، إذ بها يستطيع الإنسان أن يُرهب أعداءه، ويقضي مصالحه ومصالح غيره؛ لأن موسى عليه السلام أتى بعزم وإصرار، وقوة نفس ويقين فؤاد فسقى للمرأتين غير مبال بما يقوله أهل البلدة المستولون على المال، فما كان منهم إلا الرعب منه، وترك سبيله¹.

(633) تشير الآية إلى أن المؤمن مهما بلغت قوته يجب عليه أن ينساها تماماً ويتوجه إلى القوي الذي لا يُغلب، والركن الشديد الذي لا يكسر؛ ذلك أن موسى الذي استطاع أن يقتل القبطي بوكزه، ويسقي للمرأتين بقوته، ويؤثر أهل بلدة لا علم له بقوتهم، ولا بطبائعهم لم يعتمد على شيء من هذا إنما لجأ إلى ربه القوي الجبار، فسأل أن يمن عليه بمنه وكرمه².

(634) في الآية إشارة إلى أن الاستراحة بعد التعب محمودَةٌ في الشرع وليست بمذمومة؛ لأن موسى عليه السلام لما فرغ من عمله ذهب إلى الظل ليسترخ.

(635) تشير الآية إلى أنه يجوز أن يقصر أهل الفضل فضلهم على من كان محتاجاً إليه، أو من ظهر عجزه عن مسايرة غيره؛ لأن موسى عليه السلام قصر سقيه على غنمهما مع أنه كان قادراً على أن يسقي لغيرهما، كما تشير إلى هذا المعنى اللام الدالة على الاختصاص.

(636) تشير الآية إلى أن من قضى حاجة من حوائج الناس فليبق عندها حتى يعرف هل تحقق المقصود أم لا؛ لأن موسى عليه السلام لما سقى للمرأتين لم يرجع إلى الظل مباشرة، وإنما بقي مدةً اطمأن فيها على المرأتين، ورأى فيها شرب الأنعام؛ لأن العطف ب(ثم) مشعر بأن تولّيه إلى الظل كان بعد مهلة من الزمن.

(637) تشير الآية إلى أن نعم الله تصل إلى العبد حتى تبلغ الغاية منها، فلا أحد يمنعها، أو يُوقفها عن غايتها؛ لأن موسى عليه السلام أتى ب (إلى) الدالة على الانتهاء ليُعبر عن شعوره بأن نعم الله وصلت إليه كاملة.

(638) تشير الآية إلى أن الدعاء النافع هو الذي يكون في المكان المناسب، والحالة النفسية المناسبة؛ فموسى عليه السلام لم يتوجه إلى ربه بهذا الدعاء إلا لما رجع إلى الظل الذي جعله يتذكر

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 2686/5.

² ينظر: المصدر السابق: 2686/5.

نعم الله التي ترقي قلبه، و تجعله يخشع من مولاه؛ ولعل أمر النبي ﷺ بالدعاء في يوم الجمعة، وبعد الصلاة، ونزول المطر... خير شاهد على هذه الهداية.

الآية الخامسة والعشرون، قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(630) في الآية إشارة إلى أن بعد العسر يسرا، وأن الفرج يأتي رديف الكرب¹؛ لأن موسى عليه السلام لما توجه إلى ربه، وأظهر له فقره وحاجته جاءته ابنة الرجل الصالح مباشرة، كما تشعر بهذا الفاء الدالة على الترتيب.

(631) في الآية إشارة إلى جواز مشي الرجل مع المرأة الأجنبية إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وأمن من نفسه عدم الوقوع في الفتنة²؛ هذا لأن نبي الله موسى عليه السلام مشى مع المرأة الأجنبية دون محرم، والأنبياء لا يفعلون شيئا غير جائز.

(632) في الآية دليل على استحباب إكرام أهل الفضل، وسليبي بيوت الشرف، كمن ينحدرون من نبي³، أو عالم فاضل؛ لأن الرجل الصالح أكرم موسى عليه السلام لَمَّا علم كونه من سلالة بيت إبراهيم عليه السلام.

(633) في الآية إشارة إلى أن أخذ الأجرة على العمل الصالح عند الشدة غير منكر؛ لأن موسى أجاب دعوة الشيخ لجزائه -بناء على كونه ذهب للأجر، وليس لرؤية الشيخ، والآية تحتل وتحتل-، ويشهد لهذا قول موسى عليه السلام للخضر: ﴿لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾⁴ [الكهف: 77].

(634) تشير الآية إلى أن الحياء صفة داخلية يتمتع بها الإنسان، فلا تنافر بينها وبين الكلام، فقد يكلم الحي من يستحي منه ويكون كلامه عنوانا على حيائه⁵؛ ويؤيد هذا قول الله للأمهات

¹ ينظر: التفسير المنير: 84/20.

² ينظر الكشف: 402/3.

³ ينظر الكشف: 402/3.

⁴ ينظر الكشف: 402/3.

⁵ ينظر: مفاتيح الغيب: 590/24.

المؤمنين وهن أشد الناس حياء ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب: 32] فنهاهن عن الخضوع ولم ينههن عن الكلام.

(635) تشير الآية إلى أنه إذا اجتمعت الأمانة والقوة في القائم أو القائمات بأمر فقد تم المقصود، وتحقيق المراد¹؛ لأن القوة كفيلة بتحقيق الشيء على الأرض، والأمانة كفيلة بالحفاظ عليه حتى يأخذ كل واحد نصيبه منه؛ لذا علّلت ابنة شعيب طلب استئجاره بهذين الوصفين.

(636) في الآية إشارة إلى أن النساء الحيات إذا أردن شيئاً من الرجال لا يسألنه عن طريق الأمر المباشر الذي يكسر أنفثهم ، وإنما يطلبنه بطريق غير مباشر يُحقق المقصود، ويُبقى العزة والأنفة للرجال؛ لأن بنت شعيب لم تقل لموسى: اذهب معي إلى أبي، أو تقدم إلى بيتنا للمكافأة، وإنما قالت له ﴿إِنَّ أَيْدِيَّ دَعُوكَ﴾ لتترك له الحق في الاختيار².

(637) في الآية إشارة إلى أن الحاكم أو من ينوب منابه ينبغي أن لا يُولي على مصالح المسلمين إلا من جُرب فظهرت أمانته وقوته على المسؤولية؛ لأن بنت الرجل الصالح أتت بالفعل الماضي (استأجرت) للإشعار بأنه مجرب، وقد ظهرت أمانته وقوته³.

(638) تشير الآية إلى ذم النساء الخرجات الولائجات⁴، لأنها مدحت المرأة لما فيها من الحياء، والحياء عادة ما يزول بكثرة الدخول والخروج، وواقعنا خير شاهد على هذا، فدلالة الآية دلالة لزومية.

(639) في الآية إشارة إلى أن الفطنة والذكاء يُحذران من الأمور قبل وقوعها؛ لأن موسى عليه السلام أمر المرأة أن تمشي خلفه خوفاً من أن تأتي الريح فتطير ثيابها، وتكشف محاسنها؛ لذا وصفته لأبيها بالأمين، فتشجع على عرض إحدى ابنتيه عليه⁵.

(640) في الآية دعوة للناس عموماً، والنساء خصوصاً إلى أن يسعوا إلى تحصيل الحياء، وتدريب أنفسهن عليه حتى يصير ملكةً وجبلةً، يكون طوع المرأة متحكمةً فيه، لا يذهب به ذاهب، ولا يؤثر

¹ ينظر البحر المحيط: 299/8.

² ينظر: تفسير القرآن العظيم: 228/6.

³ ينظر: أنوار التنزيل: 175/4.

⁴ ينظر: الدر المنثور: 405/6.

⁵ ينظر: الدر المنثور: 405/6.

فيه مؤثر؛ لأن الله مدح المرأة لحيائها، وأتى بحرف الاستعلاء (على) ليشعرنا بأنها استحققت هذا المدح لأنها متحكمة فيه، فكأنه تحتها وهي فوقه¹.

(641) تشير الآية إلى أن مكافأة مَنْ عمل معروفًا من شيم الكرام²، فشعيب لَمَّا علم بالذي قدمه الرجل الغريب (موسى) دعاه ليكافئه، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: (ومن أتى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه)³

(642) تشير الآية إلى أن من دُعي إلى شيء فيه مصلحة للعباد فليبادر إلى الاستجابة؛ لأن موسى عليه السلام لما طلبت منه البنت الذهاب إلى أبيها لم يتردد، بل بادر كما تدل عليه الفاء، في (فلما)⁴.

(643) في الآية إشارة إلى أن الأمان أساس الحياة، فلا تستقر نفس، ولا يطمئن قلب إذا عُدِم الأمان؛ لذا كان هو أول شيء قدمه شعيب لموسى عليه السلام حتى تستقر نفسه.

(644) تشير الآية إلى أن أخبار النساء معتمدة كأخبار الرجال⁵، وأنها لا تُردُّ إلا فيما استثناه الشرع؛ لأن موسى صدَّق قولها فيما نقلته عن أبيها، وذهب معها إلى بيت أهلها، فلو لم تكن أخبارهن مصدقة لما جاز لموسى أن يصدقها، ولا أن يذهب معها إلى مكان لا علم له به

(645) تشير الآية إلى أن العبرة بالكيف لا بالكم؛ لأن فيها ذكر مشي المرأة ومجيئها، وقد كان يكفي ذكر المجيء والاستغناء عن المشي، لكن لما كان الغرض بيان الهيئة التي أتت عليها البنت أطنب بذكر المشي المشعر بالهيئة، وهي الاستحياء⁶.

¹ ينظر: نظم الدرر: 268/14.

² ينظر: المصدر السابق: 268/14.

³ مسند الإمام أحمد رقم: 5465، وسنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الرجل يستعيد من الرجل، رقم: 5109، ومستدرک الحام: 73/2، رقم: 2369، وقال هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه للخلاف الذي بين أصحاب الأعمش فيه، وصحح الأرئوط في المسند: 266/9.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 268/14.

⁵ ينظر البحر المحيط: 268/8.

⁶ ينظر: التحرير والتنوير: 103/20.

(646) تشير الآية إلى أن الستر واجب، لأنه علامة من علامات الحياء، والحياء شعبة من الإيمان، وكل ما يؤدي إلى واجب فهو واجب. وقد ورد عن عمر رضي الله عنه أنها أتت ساترة وجهها بكميها؛ وهذا يدل على تمكن الحياء منها¹.

(647) تشير الآية إلى أن الناس عموماً، والنساء خصوصاً عليهن أن يتحلين بالحياء، ويبالغن في إظهاره لدرجة لا يجدن عنها مزيداً؛ لأن (استحياء) على وزن استفعال، وهذه الصيغة تأتي للدلالة على المبالغة، كالاتجاه والاصطبار ونحوهما².

(648) في الآية إشارة إلى أن على الناس أن يكافئوا من أحسن إليهم على قدر إحسانه، لتكون المكافأة موعناً ومحفزاً له على الإحسان مرة بعد مرة؛ ذلك أن لفظ الجزاء الوارد في الآية يُشعر بالمكافأة بالمثل؛ ويشهد له قول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾³. [الرحمن: 60].

(649) تشير الآية إلى استحباب تأكيد الخبر حتى في حالة عدم شك أو إنكار المخبر، ليكون ذلك باعثاً له على المسرة، ودافعاً به إلى السعي لبلوغه؛ ذلك أن البنت أكدت الخبر لموسى ب (إنَّ) وهو غير شاك في البرهان، ولا منكر له⁴.

(650) تشير الآية إلى أن جزاء من عمل حسناً لا يكون بالضرورة عوضاً عن إحسانه، فقد يكون هذا وقد يكون إحساناً من المحسن إليه؛ فالأول يكون على تشارط، والثاني يكون عن إكرام دون سابق اشتراط⁵.

(651) تشير الآية إلى أن المنحدرين من بيوت الشرف والكرم يغلب عليهم الإكرام والتفضل، فموسى أكرم المرأتين دون أن يكون له سابق علم بهما، وشعيب أكرم موسى دون أن يعرف عينه أو وطنه⁶.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 103/20.

² ينظر: المصدر السابق: 103/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 104/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 104/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 104/20.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 104/20.

(652) تشير الآية إلى أن المرأة التي تربت في بيت العز والكرم ينمو عندها الحياء حتى يصير بساطا تسير عليه؛ فبنت شعيب وصفها الله بأنها تمشي على استحاء، ولم يقل في حياء، ليشعرنا بأنه بساطها تتعثر فيه؛ لا تخرج عنه بحال من الأحوال¹.

(653) تشير الآية إلى توجيه رفيع للنساء وهو أنهن إذا دعين غيرهن يتجنبن كل كلام فيه ريبة، حتى لو لم يكن فيه خضوع في القول؛ فبنت شعيب قالت (إن أبي يدعوك)، وكان بإمكانها أن تقول إننا ندعوك لئلا يتوهم موسى ريبة من كلامها².

(654) تشير الآية إلى استحباب عزة النفس ورفعتها عن السفاسف التي تؤدي إلى ذهاب الحياء؛ فبنت شعيب ازدادت حياء من موسى -والحياء فيها طبع- لما رآته لم يطلب منها مكافأة مع أنه في حاجة إليها، ولم يهش إليها بكلمة مع أن الغريب عادة لا يبالي³.

(655) في الآية إشارة إلى أن "ستر الوجه عن الأجانب سنة المؤمنات من عهد قديم، وليس كما يقول المبطلون هو عادة جاهلية، فبنتا شعيب نشأتا في دار النبوة والطهر والعفاف، وغطت إحداها وجهها عن موسى حياء وتقوى"⁴.

(656) تشير الآية إلى أن علامة الكرم هي أن يدعوك الداعي إلى الطعام وهو مستح؛ فبنت شعيب لما دعت موسى إلى بيت أبيها -وهذا من الكرم- جاءته على استحياء، ودعته بحياء⁵.

(657) في الآية إشارة إلى أن المؤمن إذا دعا ربه شيئا، فهيأ له أسبابه فلا يجوز له ردها، وانتظار حصول نتائجها التي طلب منها، فموسى عليه السلام سأل ربه الغنى -بطريق غير مباشر- فهيأ له أسبابه، فلم يتردد لحظة واحدة، بل بادر إليها من فوره⁶.

¹ ينظر التفسير القرآني للقرآن: 336/10.

² ينظر: روح المعاني: 274/10.

³ ينظر: تيسير الكريم المنان، ص 614.

⁴ أيسر التفاسير: 65/4.

⁵ ينظر: الباب في علوم الكتاب: 239/15.

⁶ ينظر: الخواطر: 10908/17.

(658) في الآية إشارة إلى أن المرأة الحية إذا اضطرت إلى الحديث مع الرجال اختصرت كلامها، واقتصرت على المهمّ منه؛ فبنت شعيب لم تسترسل مع موسى في الكلام، ولم تقدم لها بمقدمات تكون مدخلا للشيطان، وإنما قالت ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾¹.

(659) تشير الآية إلى أن الفطرة المركوزة في الإنسان عموماً، والمرأة خصوصاً تجعله يركز على مضمون الكلام دون النظر إلى ما يشعب الحديث، ويكون مدخلا من مداخل الشيطان².

(660) في الآية إشارة إلى أن الأدب مع الغريب هو أن يُفسح له ليروي ما عنده، سواء أكان صغيراً أم كبيراً؛ قليلاً أم كثيراً، ولا يُقاطع بدعوى ضيق الوقت، أو ترك المجال له للراحة، ؛ فشعيب استمع لموسى حتى قص عليه ما عنده، ولم يقتصر على حادثة قتل القبطي فقط؛ لأن (القصص) معرفةٌ تحتل أن تكون (ال) جنسيةً أو عهدية، وما احتمل أمرين فأكثر، فقصره على أحدهما دون قرينة تحكم³.

(661) تشير الآية إلى جواز أخذ الأجر على العمل الذي يُقصد به وجه الله إذا كانت نيةُ صاحبه لا تتطلع إليه أول الأمر، ولا تتشوف إليه بعد ظهوره؛ فموسى عليه السلام أخذ أجراً على سقيه للمرأتين⁴ -على رأي بعض العلماء- لأنه لم يقصد بالعمل مالا، ولم تتطلع نفسه إلى الأجر بعد رؤيته؛ ويشهد لهذا قوله ﷺ لعمر (ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف، ولا سائل فخذ)⁵.

(662) تشير الآية إلى أن من عمل عملاً لوجه الله، ثم أخذ عليه أجراً دون قصده أثناء العمل، لا يبطل عمله، بل يُجزى عنه يوم لقاء الله⁶.

(663) تشير الآية إلى جواز اختبار الصالحين بالنساء، فإن حفظوا الأمانة، كانوا أحق لأن يكرموا، أو يصاهروا، فشعيب أرسل ابنةً واحدةً وكان بإمكانه أن يرسل الاثنين، ليختبر موسى أمين يستحق أن يصاهر أم لا؟ والله أعلم.

¹ ينظر في ظلال القرآن: 2686/5.

² ينظر المصدر السابق: 2687/5.

³ ينظر: معارج التدبر: 380/9.

⁴ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 98.

⁵ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله من غير إشراف نفس ولا مسألة: 1123/2، رقم: 1473.

⁶ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 9.

(664) تشير الآية إلى أن من يحمل مشروعا إصلاحيا، أو همًّا من هموم أمته إذا رأى من توسم فيه الفضل، ورأى فيه الصلاح فليقصَّ عليه خبره، ويحكى إليه سره، لعله يُبين له الطريق، أو يُزيل عنه بعض العقبات؛ لأن موسى عليه السلام لما رأى شعيبا، واطمأن له قصَّ عليه ما رآه من ظلم فرعون، وما يعانيه قومه منه ومن أتباعه.

(665) في الآية إشارة إلى أن الرجل الكريم إذا دعت امرأة لمصلحة نفسه، أو رأى حاجة لها تحتاج إلى قضاء بادر مجيبا الدعوة، أو قاضيا الحاجة دون الدخول في موضوعات تفتح أبواب الشيطان؛ فموسى عليه السلام بادر مجيبا الدعوة، ولم يسألها عن مكان أبيها، ولا عن صدقها في خبرها أو كذبها فيه -لما ظهر له من حيائها-، ويشهد لهذا ما وقع لأمناء عائشة عليها السلام مع صفوان بن المعطل حيث وجدها منفردة، فلم يزد على استرجاعه، ثم أناخ لها البعير فسار بها دون كلام حتى وصل بها الجيش.

(666) في الآية إشارة إلى أن الأمن لا يكفي فيه مجردُ حصوله بل ينبغي أن يكون شائعا بين الناس، حتى يشعروا بأنهم في أمن تام ودائم غير منقطع؛ يُفهم هذا من تطمين شعيب لموسى بالجملة الفعلية المضارعة الدالة على التجدد والاستمرار؛ فكأنه يقول له لا تخف اليوم ولا الأيام التي بعده، لأن بلدنا هذا ينعم بالأمن، ولا يستطيع فرعون الوصول إليه.

(667) في الآية إشارة إلى أن المرأة الصالحة هي التي لا ترد طلب أبيها، ولا تتأخر في تنفيذ مراده إن أمر بحق، أو دعا إلى تحقيق مصلحة؛ لأن بنت شعيب لم تتوانَ في تنفيذ أمر أبيها، بل بادرت مسرعة إلى موسى لعلها تنال رضى أبيها، أشعر بهذا الفاء الدالة على التعقيب، فكأن الآية تقول: إن بنت شعيب لم تتأخر لحظة، ولم تعتذر بعذر عندما أمرها أبوها.

(668) في الآية إشارة إلى أن وصفَي القوة والأمانة متى وجدا في شخص ينبغي أن يُحمَّل المسؤولية بغض النظر عن جنسه أو لونه، أو عمره إلا ما كان من شرط البلوغ؛ لأن الآية أتت ب (مَنْ) الدالة على العموم، والشاملة للذكور والإناث.

(669) في الآية دعوة لأهل العلم والفضل بأن يغتنموا الفرص، فإن وجدوا مَنْ يكون أهلا للأمانة يُسارعوا إليه، عارضين عليه المسؤولية؛ لأن شعيبا لم يتوانَ لَمَّا علم بخبر موسى -وهو غريب- بل أرسل إليه مباشرة، وعرض عليه المسؤولية، وأغراه بما يشجعه عليها.

(670) في الآية دعوة إلى الأدب مع الضيف عموماً، والغريب خصوصاً، كأن يترك له المجال ليقول ما عنده، ولييث حزنه ثم بعد يُطمأن، ويفرش له بساط الأمن، لأن الشيخ الكبير ترك موسى يقص عليه ما جرى له، ثم بعد ذلك طمأنه.

(671) في الآية إشارة إلى أن المرأة الحية تسعى بما تملك من جهد لتبقى في بيتها حافظة لحياتها؛ لأن بنت شعيب طلبت من أبيها أن يستأجر موسى على أن يرعى له غنمه حتى لا تضطر للخروج إلى الطرقات، فتصطدم بالرجال، الشيء الذي يُعرضها لضياح حياتها.

(672) تشير الآية إلى أن المؤمن إذا أودى من طرف الظالمين فليبحث عن أرض تخلو منهم، فمدين وإن كان فيها الأحلاف - كما سبق - إلا أن الظالمين كما هم في مصر غير موجودين؛ دل على هذا تاء الخطاب في (نجوت) المشعرة بأن شعيباً وقومه آمنين من قبل هؤلاء الظلمة.

(673) تؤكد الآية آيات قبلها دلت على أن الظلم لا يكون من فرد أو فردين، إنما من جماعة يُعين بعضهم بعضاً ويتستر بعضهم على بعض؛ لأنها لم تقل (من الظالمين) مع أنه كافٍ في تقرير المعنى، وإنما قال (من القوم الظالمين) ليشعرنا بأنهم كانوا متعاونين عليه .

(674) تشير الآية إلى أن الرجل إذا أراد أن يختار امرأة لتكون له زوجة فليُنظر أولاً إلى أبيها قبلها، فالرجل الصالح عادة ما يكون سبباً لصالح أبنائه وبناته؛ لأن بنت شعيب أضافت أباهما إليها لتشرف بشرفه، ويكون هذا حافزاً لموسى للنظر في أمرها والله أعلم.

الآية السادسة والعشرون، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا بِنْتُ آسْتَجِرُّهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ

الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

من الهدايا التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(676) في الآية إشارة إلى أن البنت ينبغي أن تنظر إلى أبيها نظرة إجلال واحترام، فلا تخاطبه إلا بما يرفع من قدره، ويعلي من مكانته؛ فبنت شعيب نادت أباهَا بنداء البعيد-وهو بجوارها- لتشعره بأن قوله مقبول، وأن رأيه نافذ، وأما ما تقترح عليه فلا يعدو كونه رأيا يحق له قبوله أو رده.

(677) تشير الآية إلى أن الأمانة لا تعطى إلا لمن جرب فظهرت قوته وأمانته، لا من ادعاها أو ادّعيته له؛ ذلك أن البنت أتت بالفعل الماضي في الإجارة (استأجرت) للإشعار بأنه قد جرب وفرغ منه¹.

(678) في الآية إشارة إلى أن الفراسة حق، وأنها مما يهبه الله لمن يشاء من عباده؛ لأن بنت شعيب تفرست في موسى الخير، فقدمته على القوة والأمانة، فلم يخب ظنها فيه؛ وقد ورد عن عبد الله ابن مسعود قوله: "أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف، في قوله عسى أن ينفعنا وأبو بكر في عمر"².

(679) تشير الآية إلى أن المرأة الصالحة هي التي تنظر إلى الرجال بعين فاحصة، فإن رأت في أحدهم ما يستحق لأجله أن يكون زوجها سعت إليه بما تملك، وسلكت من الطرق ما يوصلها إلى مرادها دون أن يقع خدش في حيائها، أو نقص من قدرها؛ فبنت شعيب لما رأت ما في موسى من القوة والأمانة أشارت إلى أبيها بأن يستأجره، وهي ترجو من وراء هذا أن يكون من نصيبها، ولعل أباهَا فهم مرادها، واقترح على موسى الزواج من إحدى الفتاتين لعله يختار التي اقترحت³. ويؤيد هذا فعل خديجة رضي الله عنها التي رأت في رسول الله ﷺ الرجل الذي يستحق أن يكون بعلا لها فعرضت عليه نفسها عن طريق صديقتها دون أن تصرح له، وكان لها ما أرادت ﷺ.

¹ ينظر: الكشف: 404/3.

² ينظر: المصدر السابق: 404/3.

³ ينظر التفسير القرآني للقرآن: 336/10.

(680) تشير الآية إلى الاهتمام بخيار الناس وأفاضلهم، وتوقيرهم وتبجيلهم؛ ذلك أن ابنة شعيب نظرت إلى قوة موسى وأمانته فأعجبتها، ثم قدمت عليهما الخيرية، وجعلتها خيرا مع أنهما يصلحان مبتدأ، بل الظاهر أن يجعلها مبتدأ، وخير خبرا، لكن عكست لتشير إلى الاهتمام بالخيرة وتقديمها على ما عداها "لأنها أم الكمال المبني عليها غيرها"¹؛ هذا مع أن القوي الأمين من أخير الناس كما هو معلوم.

(681) تشير الآية إلى أن العام حجة في جميع أفرادها، فلا يخرج فرد منها إلا بقريضة، أو دليل منفصلا كان أو متصلا؛ لأن القوي والأمين يدلان على العموم بأل الجنسية، وموسى من الأقوياء الأمناء، فشمله اللفظ، وقصدته البنت².

(682) تشير الآية إلى أن هذين الوصفين أعني القوة والأمانة "ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملا بإجارة أو غيرها. فإن الخلل لا يكون إلا بفقدتهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل"³

(683) تشير الآية إلى أن الإنسان في الغالب يخرج من فيه ما يكون همّه في قلبه، فينبغي الاستماع إليه لقضاء حاجته، فبنت شعيب كسائر البنات تحتاج إلى زوج، إلا أنها كان يهمها زوج من نوع خاص، قويّ على المسؤولية، أمين على حفظ الفروج، فعبّرت بهذا لأبيها⁴.

(684) تشير الآية إلى من كان أمينا على العرض يكون أمينا على ما سواه؛ فبنت شعيب لم تنظر إلى أمانته في الرعي، أو أمانته في المال، وإنما نظرت إليها في العرض، إذ لم ينظر إليها، ولم يكلمها بما يُكَلِّم بها أهل الشهوة، فحكمت عليه بالأمانة، مع بالمبالغة في وصفه بها⁵.

(685) تشير الآية إلى أن "العفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة. فالعفة تنضج في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع"⁶ هذا؛ لأن موسى لم يتكلف كلاما مصطنعا، والمرأة لم تهذب كلاما مزورا، وإنما كل يسير على طبيعته، وينطق وفق سجيته.

¹ روح المعاني "274/10.

² ينظر: روح المعاني "274/10.

³ ينظر: تيسير الكريم المنان، ص614.

⁴ ينظر: حدائق الروح والريحان: 153/10.

⁵ ينظر في ظلال القرآن: 2687/5.

⁶ المصدر السابق: 2688/5.

(686) في الآية إشارة إلى الأبناء والبنات بأن ينادوا آباءهم وأمهاهم بنداء الإجلال والتوقير، مع استصغار النفس أمامهما؛ ذلك أن بنت شعيب نادت أباهما بنداء البعيد مع أنه بجوارها إشعاراً منها بأن له المكانة المرموقة.¹

(687) تشير الآية إلى أن من علامات الأمانة ظهور الحياء في الأفعال أو الأقوال؛ ذلك أن البنت حكمت لموسى بالأمانة لما رأت منه عند السقي من عدم النظر إليها، ولما شاهدتها عند ذهابها به إلى أبيها.²

(688) في الآية تطبيق لآية أخرى وإن نزلت متأخرة عنها، وهي قوله تعالى تعالى: (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض) إذ بينت أن موسى كان في خوف وفع، فهجر أرضه فعوضه الله أمناً وأماناً، وزوجة من ذوي الحسان³

(689) تشير الآية إلى أن النساء الصالحات تحفو نفوسهن إلى الرجال ذوي المروءة ومكارم الأخلاق أكثر منها إلى القوة الجسمية، أو الوسامة البدنية، فبنت شعيب مالت نفسها إلى موسى لكرم أخلاقه، وإن كان غريباً عنها.

(690) تشير الآية إلى جواز مدح المرأة للرجل الأجنبي، وأن الأفضل أن تمدحه بما لا يدل على التعيين حتى لا يتعلق بها قلبه، أو يُخدش حياؤها؛ ووجه الهداية: أن بنت شعيب لم تقل لأبيها: يا أبي؛ إن موسى قوي أمين فاستأجره لقوته وأمانته؛ وإنما قالت: (القوي الأمين) ومرادها موسى عليه السلام لأنه هو متصف بالصفتين في هذه اللحظة.

(691) في الآية إشارة إلى أن من أتاحت له فرصة قضاء شهوته من النساء، فكف نفسه، وغض بصره فهو الأمين الذي تُوضع عنده أمانة الناس، سواء المادية منها والمعنوية، فالمادية كأمتعة الناس، والمعنوية كحقوق الرعية، ومصالح البرية؛ لأن المرأة علّلت (استأجره) بأمانته، وهي لم تجربها في شيء إلا ما كان من عفته عند الحديث معها، وكفّ بصرها عند سيرها أمامه؛ ويشهد لهذا تعليل يوسف عليه السلام تحمل مسؤولية خراج الأرض بأنه حفيظ عليم، لما كان منه مع امرأة العزيز، وما ألجم به نفسه عند غلقها الأبواب.

¹ ينظر: نظم الدرر: 269/14.

² ينظر: المصدر السابق: 269/14.

³ ينظر حدائق الروح والريحان: 152/20.

(692) تشير الآية إلى أن فتنة الرجال بمفاتن النساء أشد من فتنة النساء بمفاتن الرجال؛ ذلك أن موسى طلب من المرأة أن تمشي خلفه خوفا من إظهار الريح محاسنها وهذا يؤدي إلى الفتنة، ثم مشى أمامها مع أن العادة جرت أن تظهر الريح بعض جسده كما أظهرت بعض جسدها؛ ويشهد لهذا ما في شريعتنا من إلزام المرأة بستر جميع جسدها إلا الوجه والكفين - مع أن فيهما خلافا بين أهل العلم - ولم يلزم الرجل إلا بستر العورة التي هي من السرة إلى الركبة.

(693) في الآية تعليم للأبناء طريقة مخاطبة الآباء، وذلك بأن يقدموا قبل طلباتهم من عبارات التوقير والاحترام ما يكون كفيلا بتحقيق آباءهم لها؛ فبنت شعيب لم تقدم طلبها أولا، وإنما وصفت أباهما بوصف الأبوة الكفيل بتجيش مكان المحبة، ثم قالت: (استأجره).

(694) تشير الآية إلى أن من الأدب الرفيع مع الآباء أن يُنادوا بوصف الأبوة لا بأعلامهم؛ فبنت شعيب لم تقل لأبيها (يا شعيب)¹ وإنما قالت (يا أبت)؛ ويشهد لهذا قول إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وقول يوسف عليه السلام لأبيه ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4].

(695) في الآية إشارة إلى أن نداء مَنْ اتصف بوصف ثم اشتق منه الوصف أدعى إلى تحقيق المراد؛ فمن اتصف بوصف الصدق حتى صار له سجية يحسن مناداته بالصدق، ومن اتصف بالكرم حتى صار له عنوانا يحسن مناداته بالكرم وهكذا؛ ولعل هذا هو السر في وصف أبي بكر بالصدق، وخالد بسيف الله.

(696) تشير الآية إلى أن من يتولى أمور المسلمين العامة منها أو الخاصة، لا يكفي فيه وجود وصفي القوة والأمانة، بل لا بد من قوة كاملة، وأمانة تامة؛ لأن بنت شعيب أتت بالقوي والأمين على صيغة (فعل) الدالة على المبالغة؛ فكأنها تقول لا يُستأجر إلا من له قوة كاملة، وأمانة كافية.

(697) تُرد الآية على المعتزلة، وبعض الأصوليين من أهل السنة الذين يشترطون في الأمر أن يكون من علو؛ لأن فيها أمر المرأة أباهما باستئجار موسى، ولا يُتصور عقلا أن يكون كلامها ملزما له يأثم أو يُلام بتركه.

¹ على رأي من ذهب إلى كون اسمه شعيبا.

(698) في الآية إشارة إلى وجوب النصح والإرشاد، وبيان الطريق الصحيح الذي يجب أن يسير عليه الناس، والسبيل المنحرفة التي يجب أن يحذروها ؛ لأن بنت شعيب نصحت أباهما باستئجار موسى لَمَّا ظهر لها أنه أهل للإجارة.

(699) في الآية إشارة إلى أن الإجارة مَبْنَاهَا على الرضا والاختيار، وليس على القهر والإجبار؛ ذلك أن بنت شعيب قالت (استأجره) بالسين والتاء الدالتين على الطلب، ولم تقل (أَجْرَه) لأنه يدل على الفرض والإلزام.

(700) في الآية إشارة إلى أن الإجارة وما جرى مجراها يكفي فيها وجود القوة والأمانة، ولا يشترط لها وصف الإيمان، وإن كان وجوده أفضل؛ لأن الآية عُلِّقت على مشتق (القوة والأمانة) فأشعرت أنه هو العلة؛ وَيَشْهَدُ لهذا فعلُ النبي ﷺ أثناء الهجرة، إذ استأجر عبد الله بن أريقط ليكون دليلاً له في طريق المدينة وهو يومئذ مشرك.

(701) في الآية إشارة إلى أن الذكورة والأنوثة لا تؤثر في الإجارة إذا كان المستأجر عليه مما يفعله الرجال والنساء؛ ذلك أن الآية أتت بَمَنْ الدالة على العموم الشامل للرجل والنساء، قال ابن مالك بعدما عدَّ الموصولات الخاصة بالذكور والتي تخص الإناث "ومن وما وأل تساوي ما ذكر¹"

(702) تشير الآية إلى أن المهمات كُلُّهَا يشترط فيها وجود الوصفين معاً، ولا يكفي فيها وجود أحدهما؛ لأن الآية رَبطت الإجارة — وهو نوع من المهام — بشرطين، والقاعدة الأصولية: أن ما توقف على شرطين فأكثر، فلا يحصل إلا بوجود جميع ما علّق عليه.

¹ ألفية ابن مالك، ص: 15.

الآية السابعة والعشرون، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُكْحِكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(703) في الآية دليل على التفريق بين المواعدة والمعاقدة؛ فالمعاهدة يلزم الوفاء بها ديانةً، ولا تترتب عليها حقوق دنيوية، بخلاف المعاقدة فإنها واجبة الوفاء ديانةً ومعاملةً، وتترتب عليها تبعاتها؛ ذلك أن شعيباً عاهد موسى على الزواج، ولم يعقد معه عقد الزواج¹.

(704) في الآية دعوة إلى الرفق بالأجراء والتساهل معهم في مهماتهم، وذلك بأن لا يُكثر من أسئلتهم، ولا يُوقف معهم عند كل صغيرة وكبيرة؛ لأن شعيباً -وهو أهل الفضل والكرم- طمأن موسى بأنه سيكون معه سهلاً ليناً، ولا يشق عليه في أمره، ويشهد له قول السائب "«كان رسول الله ﷺ شريكاً، فكان خير شريك لا يدارى ولا يشارى ولا يمارى»"^{2 3}.

(705) تشير الآية إلى استحباب تزويج الصالحين الذين يفرون من الكفرة، ولا يتطلعون إلى حطام الدنيا وإن كانوا فقراء، أو غرباء، لأن شعيباً رغب في موسى لما رأى فيه من الصلاح، ولما علم من فراره من فرعون وجنوده، ولم يمنعه فقره، ولا غربته من عرض إحدى ابنته عليه⁴.

(706) في الآية إشارة إلى جواز نظر الناظر إلى الأختين ليختار منهما من توافق فكره، وما جُبل عليه من صفات؛ لأن شعيباً اقترح على موسى أن ينظر إليهما معا ليحدد منهما التي يشاء⁵.

(707) تشير الآية إلى أن أهل الزوجة يحسن بهم قصد الخير والبركة عند تزويج بناتهم؛ ذلك أن شعيباً أتى بالحجج بدل السنين -وإن كانت بمعناها- ليشير إلى أنه يقصد النفع والبركة والذرية الصالحة من إحدى بنتيه¹.

¹ ينظر: الكشف: 405/3.

² مسند الإمام أحمد: 261/24، رقم: 15502، وسنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الشركة والمضاربة: 768/2،

رقم: 2287، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: 2764.

³ ينظر: الكشف: 405/3.

⁴ ينظر: البحر المحيط: 299/8.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 299/8.

(708) في الآية دعوة إلى تعليق الأمور بمشيئة الله، وإن كان العبد يظن أنه يأتي بها؛ لأن شعيباً وإن كان يتصف بصفة الصلاح إلا أنه علقها على مشيئة الله، ليشعرنا بأن كل الأمور مبدؤها ومنتهها إلى الله².

(709) في الآية دليل لمن جعل النكاح للولي لا للمرأة؛ لأن شعيباً أسند الإنكاح إليه، لا إلى ابنته³.

(710) في الآية إشارة إلى أن أفضل الألفاظ وأقومها في الزواج هو لفظ الإنكاح أو التزويج، لأنهما الواردان في القرآن الكريم؛ ومن المعلوم أن مصطلحات القرآن أكثر دقة، وأشدّ دلالة من مصطلحات غيره⁴.

(711) في الآية إشارة إلى أن الأمور المهمة التي يقع فيها التخاصم، وتلتبس فيها الأمور يجب فيها الإتيان بالألفاظ الصريحة التي لا تحتمل معنى آخر؛ لأن شعيباً لما أراد أن يزوج موسى أتي بلفظ النكاح الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً⁵.

(712) في الآية دليل لما ذهب إليه مالك وغيره من إطلاق الأجرة مع تحديد مدة الإجارة؛ لأن شعيباً قال (تأجرتني) ولم يحدد نوع الخدمة⁶، ويشهد لهذا ترجمة الإمام البخاري (باب من استأجر أجيراً فبين له الأجل ولم يبين العمل)⁷.

(713) في الآية دليل على وجوب تحديد زمن الإجارة، وأن أي عقد خلا منه فهو باطل، إلا ما استثناه الشرع لمشقة التعيين كدخول الحمام ونحوه⁸؛ لأن الآية حددت الزمن الذي ينشأ عنه الخلاف، وأهملت نوع الخدمة التي يمكن التفاهم حولها.

¹ ينظر: نظم الدرر: 271/14.

² ينظر: المصدر السابق: 271/14.

³ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 271/13.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 271/13.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 271/13.

⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 271/13.

⁷ صحيح البخاري: 89/3.

⁸ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 275/13.

(714) في الآية إشارة إلى وجوب التفريق في العقود بين ما هو فرض يجب الإتيان به، وما هو نفل يرجع إلى رغبة المتعاقدين؛ لأن موسى وشعبا اتفقا على الثماني، وجعلها فرضا، وتركوا السنتين وجعلها نفلا؛ لذلك قال في الآية اللاحقة ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾¹. [القصص:28].

(715) في الآية دليل على جواز الجمع بين النكاح والإجارة في عقد واحد؛ لأن فيها ذكرهما معا في عقد واحد. ويشهد لهذا حديث المرأة التي عرضت نفسها على النبي ﷺ، وزوجها الرجل بما معه من القرآن².

(716) تشير الآية إلى أن المؤمن عليه أن يسعى لحفظ فرجه ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى لو جعل نفسه عاملة مقابله؛ لأن موسى عليه السلام رضي بأن يكون أجيرا يشتغل وفق رغبة شعيب مقابل أن يعف نفسه³، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ : (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء)⁴ وما يدخل في استطاعة العبد أن يؤجر نفسه.

(717) في الآية دعوة للآباء الحكماء الذين لهم أجير، أو عاملٌ يضطره عمله إلى الدخول والخروج على بناتهم بأن يعرضوا عليه الزواج من بناتهم، سدا لباب الشيطان، وتحقيقا لمقصد الله من الخلق، وهو العفة والإحصان، هذا إذا كان فيه من الصفات ما يجعله أهلا للزواج⁵.

(718) في الآية دليل على مشروعية عرض الولي وليته على الصالحين، فقد عرض عمر ابنته على أبي بكر وعثمان، وعرضت امرأة نفسها على النبي ﷺ⁶.

¹ نظر: الجامع لأحكام القرآن: 279/13.

² ينظر التحرير والتنوير: 107/20.

³ ينظر التفسير المظهر: 159/7.

⁴ صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم: 3/7، رقم: 5066، وصحيح مسلم، كتاب النكاح،

باب استحباب النكاح... 1018/2، رقم: 1400.

⁵ ينظر: الخواطر: 10909/17.

⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 271/13، وتفسير المراغي: 52/20.

(719) في الآية دعوة للآباء الفطناء، والأولياء الحكماء، إذا رأوا توافقا فطريا، وانسجاما سلوكيا بين رجل وامرأة، بأن يسعوا بما يملكون من جهد إلى الجمع بينهما، وإن لم يستطيعوا التصريح ففي التلويح ما يفي بالغرض وزيادة¹.

(720) في الآية دليل لرأي الجمهور الذين يجعلون النكاح للولي لا إلى المرأة؛ لأن فيها إسناد الإنكاح إلى شعيب لا إلى ابنته².

(721) في الآية دعوة للآباء بأن يسمعو لاقترحات بناتهم في الزواج وغيره، والنظر فيها بعين فاحصة، فإن كانت صائبة عمل بها كما فعل شعيب مع ابنته التي اقترحت عليه استئجار موسى³، ولا ينبغي أن ينظر إلى صغر سنها فيرفض قولها جملة وتفصيلا كما هو الحال في معظم أهل زماننا.

(722) تشير الآية إلى أن الآباء العقلاء، والأولياء الحكماء هم الذين ينظرون إلى فطر بناتهم بعين الرضى، فإن مالت إلى مشروع سارعوا إلى تحقيقه لهن، لا أن يعارضوا ذلك بدعوى الواقع، أو كلام الناس، أو ما أشبه هذا؛ فشعيب لما قالت له ابنته: (استأجره) أحس بميل قلبها إلى موسى، فلم يُعنفها، أو يبيح قولها، إنما فهم رسالتها، فعرضها على موسى عليه السلام بصورة تحقق المقصود ولا تخدش في الحياء⁴.

(723) في الآية دعوة للنفس لتكون مهذبة ترضى بالقليل، وتَصبر على الأعباء، وتتعامل مع الطوارئ بما يناسبها؛ فموسى -الذي هذب نفسه، وطيب الله قلبه- تحمل الإجارة ثماني سنين وجوبا، وأضاف إليها سنتين نفلا مع أنه تربى في القصر، وعاش في كنف الخيرات⁵.

(724) في الآية إشارة إلى استحسان قول القائل: (أنكحك فلانة) على قوله: (أنكحها)⁶.

(725) في الآية إشارة إلى جواز ذكر الإنسان بما فيه من صفات حسنة إذا قُصد بذلك "تعريف خلقه لصاحبه، وليس هذا من تركية النفس المنهي عنه؛ لأن المنهي عنه ما قصد به قائله الفخر

¹ ينظر في ظلال القرآن: 2688/5.

² ينظر المصدر السابق: 2688/5.

³ ينظر: التفسير الوسيط: 397/10.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 397/10.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 397/10.

⁶ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: 112/2.

والتمدح، فأما ما كان لغرض في الدين، أو المعاملة فذلك حاصل لداع حسن كما قال يوسف:

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ﴾ [يوسف: 55]¹.

(726) في الآية إشارة إلى الطريقة المثلى التي يجب أن يتعامل بها المستأجرون مع أجراءهم، وهي لينُ الجانب، والمسامحة في التعامل؛ لأن شعيبا بشر موسى أول الأمر بأنه لن يكلفه ما يشق عليه، ولن يُحمّله ما لا طاقة له به.²

(727) تشير الآية إلى أن من كان له هدف معيّن عند شخص ما، فليأت إليه مباشرة، وليُصارحه بالأمر، ولا يتخفى وراء العبارات الملفوفة؛ فشعيب لما رأى في موسى الصلاح والأمانة أتاه صريحا فقال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾، ولم يأت بعبارات من قبيل أترغب في الزواج، أو هل أنت متزوج.³

(728) تشير الآية إلى الطريقة المثلى التي ينبغي التعامل بها في عرض البنات على الرجل الصالح، وهي أن يُعرض عليه الجميع ويُترك له الخيار؛ لأن عرض الواحدة قد يضيق على الرجل فيقبل بها حياء، أو خوفا، ثم يتدمر نفسيا في المستقبل، فيظل دائم المقارنة بينهن، مما يجعله عرضة للشيطان.⁴

(729) في الآية إشارة إلى أن الخطبة للبنات أولى من الخطبة للأبناء؛ ذلك أن المرأة قد ترى في شخص الصفات المناسبة لها فيمنعها حياؤها من مصارحته، بخلاف الرجل، فإن رأى في الفتاة ما يرضيه سارع إلى أبيها، أو لها راغبا في يدها.⁵

(730) في الآية إشارة إلى علاج ظاهرة العنوسة التي تفشت في عصرنا بشكل غير مسبوق، وذلك بعرض البنات أنفسهن، أو عرض أوليائهن على الرجال الذين توفرت فيهم شروط الزواج الصالح، حتى وإن كانوا أقل مكانة من البنت أو أهلها، فشعيب وهو الشيخ المحترم، عرض ابنته على موسى الغريب الفقير لَمَّا رأى ما فيه من الخير ما يجعله أهلا لابنته.⁶

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 109/20.

² ينظر: التحرير والتنوير: 109/20.

³ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 337/10.

⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 337/10.

⁵ ينظر: الخواطر: 10910/17.

⁶ ينظر: الخواطر: 10910/17.

(731) في الآية دعوة للأولياء بأن يُعلوا من قيمة من وُلوا عليهن، بناتٍ كن أو أخوات، أو غير ذلك حتى إن كانوا هم العارضين لهن على الأزواج؛ لأن شعيبا شرط على موسى العملَ عشر سنين على أن تكون بنته زوجةً له، وهذا يجعلها تعتر بنفسها، وتحترم زوجها¹.

(732) تشير الآية إلى أن المعاملة هي التي تُعرف الإنسان على غيره، وليس الكلام الأولي، أو الابتسامة العارضة، أو العبارات الرنانة؛ ذلك أن شعيبا قال لموسى: (ستجدني) بالفعل المضارع الدال على الاستقبال، ولم يقل له: إني صالح، فنق بي الآن².

(733) في الآية دليل على أن الأسباب وحدها لا تؤثر مالم يُضف إليها توفيق من الله؛ لأن شعيبا أخبر موسى بأنه سيجده من الصالحين، لكن علق ذلك بالمشيئة ليشعره، ويشعرنا من بعده بأن ما يطمح إليه الإنسان لن يكون إلا بإذنٍ من الله ومشيئته³.

(734) في الآية إشارة إلى أن مراقبة العمال والولاية والمستأجرين مطلوبة محمودة، وأنها لا تدخل في المشقة التي يأبأها الدين، وتمجها الفطر السليمة؛ ذلك أن شعيبا أتى بلفظ المشقة المشعر بتحمل ما لا يطاق، ولم يأت بغيره كالمراقبة، والمساءلة مما يعتبر من أعمال المشغلين⁴.

(735) في الآية كسر للأعراف الفاسدة، التي تميز الذكور عن الإناث دون دليل، وتفرض عليهن قيودا ما أنزل الله بها سلطان، فتعطي للذكور الحق في أن يختاروا ما يشاءون من الإناث، وتمنع الإناث من اختيار ما يرضون من الرجال؛ ذلك أن شعيبا حطم هذا الجدار، وبَيَّن لنا السلوك الصحيح الذي يجب اتباعه، فاختار لابنته أحسن الأزواج⁵.

(736) في الآية دليل لمن قال إن العقود لا تشترط لها ألفاظ خاصة، بل يكفي فيها ما يدل على العقد دون لبس⁶.

(737) في الآية إشارة إلى أن كبار السن غالبا ما يكون عندهم من التجارب ما يجعلهم حكماء، يأمرون أو يقترحون ما فيه المصلحة، وينهون أو يحذرون مما فيه المفسدة؛ لأن كبر شعيب صيره

¹ ينظر: الخواطر: 10910/17.

² ينظر: الخواطر: 10911/17.

³ ينظر: فتح البيان: 109/10.

⁴ ينظر: روح المعاني: 276/10.

⁵ ينظر في ظلال القرآن: 2688/5.

⁶ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 129.

حكيمًا، فلما رأى شعيب علم أنه الرجل المناسب لإحدى ابنتيه، اقترح عليه الزواج بإحداها. ويعضد هذا ما حدث في غزوة أحد، إذ كان رأي كبار السن فيها أن لا يخرج المسلمون عن المدينة، بل يظلون فيها يقاتلون حتى تنكسر شوكة قريش، وكان رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم، إلا أنه غيره لما رأى من حماس الشاب خصوصا الذين لم يخرجوا في بدر، ولما سبق في علم الله من الحكم التي تترتب على الخروج.

(738) تشير الآية إلى أن مقادير الخلق بيدي الله، إذ بينت أن موسى تزوج إحدى المرأتين، مع أنه رآهما معا عند السقي، وهذا يعني أن العبد إذا حرمه الله من رزق وأعطاه لمثله فلا ينبغي أن يجزع؛ لأن الله حكيم، ما صرفه عنه إلا لحكمة يعلمها، ومصلحة راجحة له سيناها.

(739) في الآية رد على الذين ينظرون إلى العرق واللون في الزواج، فيحرمون بناتهم من خير كثير، لأن شعيبا لم ينظر إلى غربة موسى، وإنما نظر إلى دينه وخلقه.

(740) في الآية إشارة إلى أن أهل الصلاح تكون إرادتهم له دائمة، وعزيمتهم عليه قوية؛ لأن شعيبا أتى بالفعل المضارع الدال على الاستمرار ليشعر موسى بأنه يرغب في مصاهرته في الحال، وسيُلبح عليه إن لم يقنع باقتراحه في المستقبل.

(741) في الآية إشارة إلى أن الغرباء عادة ما تكون عندهم فكرة الزواج ببنت الوطن الذي هو فيه مستبعدة أو مشكوكا فيها، لذا أكد شعيب الخبر لموسى، مع أنه خالي الذهن يكفيه إلقاءه إليه بدون مؤكد.

(742) تشير الآية إلى فضل الوفاء في الإجارة، والتفضل على المستأجر بما تسمح به القوة والجهد؛ ذلك أن شعيبا عرض على موسى العمل ثماني سنين، واقترح عليه أن يضيف سنتين، فما كان منه إلا أن وفى بالعشر كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(743) في الآية إشارة إلى قيمة الزمن، وأنه مما يجب على المسلمين اعتباره، ووضع مخططات تنقذ عبر أجزائه؛ لأن شعيبا حدّد الزمن بثمانى سنوات، وترك الأمر لإتمامها عشرا؛ لأن له مقاصدا لا تحقق إلا بهذه المدة.

(744) في الآية تنبيه للمؤمنين بأن يجعلوا في حياتهم مخططات وبرامج طويلة المدى أو قصيرة؛ تكون مما يدركه عمر الإنسان عادة، أو مما يقوم به الأبناء والأحفاد في المستقبل؛ لأن شعيبا حدد سنوات يمكن أن يعيشها، ويمكن أن يعيشها أبنائه. وقد طبق هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته من

بعده، إذ وضعوا برامج لنشر الإسلام في كل بقاع الدنيا، وشرعوا في تنفيذها، يُكمل السابق منهم ما بدأه اللاحق. وما تقهقر المسلمون إلا لما أغفلوا هذا الجانب.

(745) وقد طبق الغرب هذه الفكرة فأعطت أكلها، إذ رسموا خطة لغزو المسلمين، واحتلال أراضيتهم، وعهد سابقهم بها إلى لاحقهم، فوصلوا إلى بعض ما يريدون، وما يزالون مستمرين في وضع البرامج على المدى القصير أو الطويل.

(746) تشير الآية إلى أدب رفيع مع الأجراء وهو إظهار السماحة والعفو لهم قبل البدء في أعمالهم ليكون ذلك أدعى لهم على تحقيق مراد المستأجر؛ فشعيب وعد موسى بعدم المشقة عليه، وطمأنه بأن يكون معه من أهل الفضل والصلاح.

(747) في الآية إشارة إلى أن على المؤمن أن يسعى ليكون من الصالحين في الحال والمآل، وأن يجتهد في التمكن منه حتى لا يفارقه في المستقبل؛ لأن شعيبا أتى بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

(748) تشير الآية إلى أن الصالح الحقيقي لا يقصر وصف الصلاح على نفسه، وإنما يسعى لأن يكون ضمن الصالحين؛ لأن شعيبا لم يقل لموسى (إني أنا الصالح) وإنما أتى ب (من) ليشعره بأن الصالحين أكثر، ويسعى ليكون منهم.

(749) تشير الآية إلى أن الصلاح وصف عارض يأتي ويزول، وليس صفة لازمة لا تنفك عن الإنسان؛ لأن اسم الفاعل (الصالحين) يدل على الحدوث، ولا يدل على الزوم.

(750) في الآية إشارة إلى ترغيب الصالحين في الزواج، واستعطافهم ليقبلوا بالمصاهرة؛ لأن مصاهرتهم تجعل الصالحين في كفة واحدة، مما يعطيهم قوة على مواجهة الفساد والفاستدين؛ وقد قام بهذا النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين

(751) في الآية إشارة إلى أن أعظم رزق يُعطيه الله لعبده هو أن يهب له زوجة صالحة تعينه في دينه ودنياه؛ لأن موسى عليه السلام سأل ربه رزقا - وإن بطريق غير مباشر كما ذكرنا - فيسر له زوجة صالحة؛ هذا لأن موسى أصاب في المدة التي مكث فيها مع شعيب خيرا كثيرا، إلا أن القرآن سكّته عنه، وذكر الزوجة فأشعرنا بأنها أعظم ما ينبغي أن يسعى الإنسان إلى تحصيله.

(752) في الآية إشارة إلى أن المرأة الصالحة حري بالرجال أن ينظروا إليها لتصير زوجة لهم، وأما لأولادهم؛ دليل هذا هاء التنبية المشعرة بأن ابنتي شعيب يتصفان بصفات النساء الصالحات.

(753) في الآية دليل على جواز إحضار الرجل بناته مع الغريب إذا أُمِنَت فتنته، وظهرت عدالته، ورُجيت مصلحتهن أو مصلحة بعضهن في حضور مجلسه؛ فشعيب أحضر ابنتيه أمام موسى وعرضهما عليه لما في الحضور من مصلحة راجحة، ومما يدل على حضورهما معه اسم الإشارة الذي وضع في لسان العرب لمسمى حاضرٍ حضوراً حقيقياً أو ذهنياً.

(754) تشير الآية إلى أن العقلاء يعرفون من يتعاملون معه بعد أيام، أو ساعات قليلة من المعاملة؛ ذلك أن شعيباً أتى بالسين الدالة على أن موسى سيعرفه بعد ساعات أو أيام؛ ولم يأت بسوف الدالة على أن معرفته تحتاج إلى سنين عديدة.

(755) في الآية إشارة إلى أن على المؤمن أن يكون واضحاً في معاملته مع الناس، فيتعامل بعفوية تامة، ونية صادقة، حتى يستطيع الناس الوقوف على حقيقته بأيسر السبل، وأقلّ جهد؛ ذلك أن شعيباً بينَ لموسى أن معرفة صلاحه ستكون في أول المعاملات معه؛ لأن السين في المضارع وضعت في الأصل لهذا المعنى.

(756) تشير الآية إلى أن على المستأجر أن ينظر إلى الأجير على أنه مِنة من الله يجب عليه رعايتها، والتعامل معها بتواضع واحترام، وذلك باختيار الألفاظ التي توحى بأنه مثله في الحقوق والكرامة، وأن احتياجه له لا يقل عن احتياجه هو أيضاً له؛ هذا لأن شعيباً أتى بألف التكلم في المضارع المشعرة بأنه متواضع، وسار على هذا النمط في جميع خطابه لموسى، ولم يأت بالنون المشعرة بالعظمة.

(757) في الآية إشارة إلى أن الأمور كلها مقدرة عند الله، فما على العبد إلا التسليم له، والخضوع لسلطانه؛ فشعيب عرض إحدى ابنتيه على موسى، ويعلم أنه سيختار واحدة، وتبقى الأخرى تنتظر رزقها، وإن سولت لها نفسها لماذا تزوجت أختها وبقيت بدون زوج؟ تقمعهما بأن الله يعلم مكان الخير للعباد، وأنه لا يقدر إلا ما فيه مصلحة.

(758) في الآية إشارة إلى أن المستأجر أو المشغل عليه أن يحرص تمام الحرص على اللين والمسامحة مع أجرائه ومشغليه، فإذا أرادت نفسه الخروج عن المعتاد قاومها وردّها إلى الصواب؛ ذلك أن شعيباً أتى بالفعل المضارع (أشق) ليشعر موسى بأنه سيبقى معه على طريق اللين إلى أن ينتهي من العمل.

(759) في الآية إشارة إلى التزوي في المقترحات وإن أتت من أقرب الناس، أو ممن له خبرة بالموضوع؛ ذلك أن شعيبا لم يُلَبَّ رغبة ابنته في استئجار موسى، وإنما أخذ مهلةً نظر فيها إليه، فلما ظهر له صدق قولها لبي طبها؛ والدليل على هذا الاستئناف البياني في الجملة، إذ لم يأت فيها عطف بالفاء المشعرة بالتعقيب.

(760) في الآية إشارة إلى أن رزق العبد يأتيه من حيث لا يحتسب، فلا ينزعج لشدة الحال، أو انسداد الأبواب، فما كان يخطر ببال بنت شعيب أن يأتي موسى لرعي غنم أبيها فضلا عن أن تكون له زوجة.

(761) في الآية إشارة إلى أن صاحب الفضل والمروءة لا يُدخل بيته إلا من كان ذا دين وخلق، فيصبر على شظف العيش، وتعب الأبناء والبنات ولا يرضى الخدش في عرضه؛ فشعيب يحتاج إلى من يرعى غنمه، ومع ذلك لم يستأجر أحدا إلا لما وجد موسى عليه السلام، وعلم قوته وأمانته.

(762) في الآية إشارة إلى أن أهل الفضل والمروءة لا يستغلون ضعف الناس وحاجتهم فيفرضون عليهم ما يشاؤون، ويُلزِمونهم بما يشاءون وما لا يشاءون؛ فشعيب يعلم أن موسى في موضع ضعف لأنه هاربٌ من فرعون، ولا سبيل له إلى الرجوع إلى مصر، وفي موضع حاجة إلى المنكح والمسكن ومع ذلك قال له أريد، ولم يقل له تزوج ابنتي هذه، أو تزوج من إحدى ابنتي هاتين.

(763) تشير الآية إلى أن المستأجرين والمستخدمين عليهم أن يُرْعَبُوا أجراءهم ومستخدميهم بما يجعلهم يتقنون العمل، ويؤفون الأجل؛ لأن شعيبا أتى بالفعل الماضي (أتممت) في موضع يحسن فيه المضارع (تتم) ليشجعه على قضاء المدة، وزيادة الفضل؛ فهذه العبارة تجعل العمل كأنه وقع وانتهى.

(764) تشير الآية إلى أن الأصل في معرفة الناس هو الوقوف على حقائقهم بالنفس دون واسطة، ولا يُعدل عن هذا الأصل إلا لداع، أو لمانع؛ لأن شعيبا قال لموسى: (ستجدني) بتاء الخطاب، ولم يقل له ستسمع عني، أو سيقول لك الناس في كلاما يرضيك.

(765) في الآية إشارة إلى أن الصالحين في كل زمان قلةٌ مقارنة مع غيرهم وإن كانوا في الجملة كثيرا؛ لأن شعيبا أتى بجمع المذكر السالم الذي يدل على القلة كما هو معلوم عند النحاة.

(766) في الآية بيان أن الجمع بين الأخوات كان ممنوعا حتى في الشرائع السابقة؛ لأن شعيبا عرض إحدى ابنته على موسى، ولو كان الأمر جائزا لعرضهما عليه معا، لأنه من الصالحين، ويبعد أن يجد لبنته الأخرى مثله.

الآية الثامنة والعشرون، قال تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا

عُدْوَتَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(767) في الآية إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يجعل الله وكيلا عليه في أقواله كلها دقها وجلها،

حاضرها ومستقبلها؛ لأن موسى قال ﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾ بصيغة المضارع الدال على التجدد والاستمرار، ولم يقل: (على ما قلنا) مع أن القول الذي يتعلق بالعقد قد تم¹.

(768) في الآية إشارة إلى أن الصالحين إذا اتفقا على شيء فلا يجب عليهما إظهار غيرهما، ويكفي أن يجعل الله عليهما شهيدا؛ لأن موسى وشعبا لم يذكر القرآن أنهما جعلتا غيرهما شاهدا، وإنما نص على أنهما جعلتا الله وحده لا شريك له وكيلا وحفيظا².

(769) تشير الآية إلى أن الكلام مع أهل الفضل والعلم ينبغي أن يكون مخالفا للكلام مع غيرهم، وذلك بأن لا يُصرَّحَ بأسمائهم، ولا يوجَّه الأمر والنهي إلى ذواتهم؛ ذلك أن موسى قال (فلا عدوان علي) ويقصد فلا تعتدي علي، فوجَّه النهي إلى شعيب عن طريق النفي، وهذا من أكمل الآداب في التخاطب³.

(770) في الآية إشارة إلى أن أفضل من يوكل إليه الأمر، ويفوض إليه الشأن هو الله تعالى؛ لأنه وحده الكفيل⁴.

(771) في الآية وما قبلها إشارة إلى أن أهل الفضل والكمال يُقبلون من منزلة إلى أخرى حتى يبلغوا الدرجات العلى من الولاية أو النبوة؛ ذلك أن موسى عليه السلام حلاه الله بالخصال الحميدة من إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، والقناعة بالقليل، والزهد في الدنيا، والعمل عند الصالحين، ومصاهرتهم ومعاشرتهم حتى وصل إلى درجة الكمال فأكرمه الله بالنبوة⁵.

¹ ينظر: نظم الدرر: 272/14.

² نظر: الجامع لأحكام القرآن: 280/13.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 110/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 110/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 110/20.

(772) في الآية إشارة إلى أن الصالحين عليهم أن يبحثوا عن الصالحين أمثالهم أو أفضل منهم ليكونوا لهم أصهاراً، أو عمالاً حتى تبني التصورات العامة الكبرى للمشاريع العظمى، دون أن تحدث المشاكل، أو تقع النزاعات¹، ويزكي هذا فعل النبي ﷺ الذي اختار أفضل أصحابه ليكونوا له أصهاراً أو خدماً؛ فتزوج عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وزوج عثمان رقية، ثم أم كلثوم، وزوج علياً فاطمة، وجعل أنس ابن مالك خادماً له، فلم ير منه سوءاً، كما يحكي أنس عن نفسه.

(773) في الآية دعوة للعلماء والدعاة بأن يبينوا للناس الحق من الباطل، ويتركوا الخيار لهم ليختاروا ما يشاءون؛ فشعيب بين لموسى بنتيه، وعرفه إياهما ثم ترك له الخيار ليتزوج أو يرفض².

(774) في الآية إشارة إلى طريقة الحكماء في الجواب، وهي الرد بما يحقق المقصود ولا يغضب الطرف الآخر؛ ذلك أن موسى عليه السلام أجاب شعيباً ب ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾³ فأشعره أنه موافق على الزواج بإحدى البنيتين، وأن المدة التي اقترحها شعيب شقها ملتزم به، والشق الآخر محتمل³.

(775) في الآية دليل على أن المهر يشترط تحديده، ولا يشترط قبضه في الحال؛ لأن شعيباً حدد الثماني سنين للعمل، وهذه لا يمكن تحقيقها أثناء العقد⁴.

(776) تشير الآية إلى أن الذي يدخل في معاملة ما عليه أن يقصد إنهاءها، وعزم على أن لا يترك فيها نقصاً يحتاج إلى إتمام، أو عيباً يحتاج إلى إصلاح؛ ذلك أن موسى عليه السلام أتى بفعل (قضى) الدال على الفصل والقطع النهائي⁵، ولم يأت ب (أنهت) المشعر بالفراغ منه فقط دون التعرض لإكماله أو إتقانه.

¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 338/10.

² ينظر: المصدر السابق: 338/10.

³ ينظر: المصدر السابق: 339/10.

⁴ ينظر: الخواطر: 10911/17.

⁵ ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص: 406.

(777) تشير الآية إلى أن الأجير ليس عليه ضمان، وهو مصدق فيما يقول؛ لأن الآية نصت على الأجرة، وسكتت عن الضمان، والأصل حمل اللفظ على ظاهره حتى يأتي دليل يصرفه عنه إلى غيره¹.

(778) تشير الآية إلى أن من حق العامل أن يشترط على صاحب العمل أن لا يعتدي عليه، ولا يتجاوز الحق الذي لديه؛ ذلك أن موسى شرط على شعيب عدم العدوان عليه في الزيادة في الأجل، وفي التكليف بما لا يدخل تحت قدرته².

(779) تشير الآية إلى أن أي شيء وكل إلى الله فهو متحقق الوقوع لا محالة؛ ذلك أن في الآية حرف (على) الدال على التمكن والاستعلاء.

(780) في الآية إشارة إلى أن المعاهدة على شيء مّا - كيفما كان شكله - عظيمة الشأن، جليلة القدر، يجب أن تراعى حرمتها، وتُحترم شروطها؛ ذلك أن الآية أتت باسم الإشارة للبعيد في موضع اسم القريب لتشعرنا برفعة قدر المعاهدة، وعلو منزلتها عند الله؛ ويشهد لهذا النصوص الوافرة المعظمة لها كقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34].

(781) تشير الآية إلى أن العقود المبرمة ينبغي أن تبقى بين أصحابها، ولا يتدخل فيها أي طرف كيفما كان، لأن تدخل الأجنبي في العقود - وإن كان من الأقارب - يحدث فيها غالبا خللا قلما تسلم معه من الفساد؛ لذلك قال موسى عليه السلام ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾.

(782) في الآية دعوة للناس عموما والمسلمين خصوصا بأن يسعوا لإكمال النقص الحاصل لديهم، فمن يملك مالا ولا يستطيع القيام عليه فليبحث عن رجل تكون له أهلية القيام عليه، ومن كانت لديه الأهلية وليس لديه مال فليسع إلى البحث عن أصحاب الأموال، وهكذا؛ فشعيب يحتاج إلى من يقوم على ماشيته، فلما وجد موسى تمسك به، وموسى يسعى إلى البحث عن عمل فلما وجدته لم يتركه، وبهذا تقوم النهضة الإسلامية. ولهذا في شريعتنا نوع من العقود يسمى القراض، له أحكامه الخاصة المبثوثة في كتب الفقه.

¹ ينظر: التفسير المنير: 91/20.

² ينظر: في ظلال القرآن: 5/2689.

(783) في الآية إشارة إلى أن جنس العدوان ينبغي أن لا يكون بين الأجير والمستأجر؛ لأن موسى عليه السلام نفى العدوان عنه ب (لا) النافية للجنس، فأشعر أن جنس العدوان مرفوض في العقود بغض النظر عن أنواعه.

(784) في الآية إشارة إلى أن وكالة الله على عبادة عامة في جميع الأمور، وشاملة لجميع الأزمنة والعصور، فما على العباد إلا أن يجعلوه وكيلهم، ويُفوضوا إليه أمورهم؛ لأن موسى أتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت وال لزوم.

(785) في الآية دعوة إلى كل من أبرم عقدا، اشترطت فيه شروط فرضيها فعليه أن يعزم على الوفاء بها، وأن يجعلها في ذهنه كأنها قد تمت وانتهى منها؛ لأن موسى أتى بالفعل الماضي (قضيت) في موضع المضارع (أقضي) ليشعرنا بأنه عزم على تنفيذ الشروط كما اتفق عليها.

(786) في الآية إشارة إلى أن الغربة والحاجة لا ينبغي أن يمنعا الحر من التعبير عن مواقفه، وإظهار ما في نفسه تجاه ما يشترط عليه؛ فموسى رغم غربته، وفراره من عدوه، واحتياجه أتم احتياج إلى مستأجره لم يُسلم له الأمر، ولم يقل له: افعل ما تشاء؛ وإنما صرح بأن الاتفاق تم على الثماني، وأما السنتان فداخلتان تحت اختياره، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل.

(787) في الآية دعوة للفارين من الظلم والظلمة بأن يشتغلوا في غربتهم، ويسعوا إلى بناء أمتهم من موقعهم؛ فموسى عليه السلام لما فر لم يجلس مكتوف اليدين، وإنما اشتغل ضمن برنامج مسطر، ثم عاد لوطنه يحمل أهدافه، غير مبال بفرعون وملئه.

(788) في الآية إشارة إلى أن المتعاقد - وإن كان غريبا - إن تكلم عن العقد فليقدم نفسه في الكلام حتى يعلم الطرف الآخر أنه يعقد مع صاحب قرار، وعزة نفس؛ فموسى عليه السلام لم يقل (بينك وبينني) فيكون شعبيا هو المقدم، وإنما قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾^ط ليُعلمه بأنه وإن كان في بيته فهو طرف في العقد.

(789) في الآية إشارة إلى استغلال الوقت باختيار أقصر الألفاظ، وأدلها على المقصود، ذلك أن شعبيا جمع في كلامه بين عقد الإجارة، وعقد النكاح، فأجابه موسى بكلام أجمع منه، وهو اسم الإشارة (ذلك) الذي يشير به إلى الكلام الذي حصل بينهما.

(790) في الآية إشارة إلى أن العباد عليهم أن يستحضروا معنى العبودية أثناء إبرام العقود، وأن لا يضيقوا واسعا بأن يحصروا قصدهم في النفع المترتب عليها؛ ذلك أن موسى أتى بلفظ الجلالة (الله)

المشعر بالعبودية في مقام يصلح أن يأتي فيه باسم الله الوكيل؛ وهذا العدل لا يكون إلا عن حكمة بالغة، ولعل ما قلت يقرب منها إن شاء الله.

(791) تشير الآية إلى أن العبد الصالح هو الذي يستحضر الله في كل أقواله، دقها وجلها، ما له أهمية، وما دون ذلك؛ ذلك أن موسى عليه السلام أتى ب (ما) المشعرة بالعموم في مقام يصح أن يأتي فيه بلفظ (والله على قولنا شهيد)، فلما عمم أشعر أن هذا هو الذي يجب أن يستحضره العبد عند كل أقواله وأفعاله.

(792) في الآية دعوة للناس بأن ينظروا إلى أقوالهم وأفعالهم ليعرضوها على شرع الله قبل البحث عن الشهداء عليها، لأن الآية قُدِّم فيها معمول الشهادة عليها؛ والتقديم في لسان العرب لا يكون إلا لتخصيص، أو اهتمام، أو ما شابه ذلك.

(793) في الآية إرشاد للعباد بأن يجعلوا الله وكيلا على أقوالهم وأعمالهم قبل جعله شهيدا عليهم يوم القيامة؛ لأن شهادة الله ثابتة لا يناقش فيها مسلمان، بخلاف التوكيل فقد يغفل عنه الإنسان، ويعتمد على قدراته، أو مكتسباته؛ ولعل هذا هو السر الذي جعل موسى يعدل عن الشهادة -مع أن المقام يستدعيها- إلى الوكالة؛ ويشهد لهذا أن الوكالة في الآية ضمنت معنى الشهادة فُعِدَت بحرفها، لأن الأصل في الوكالة أن تتعدى باللام، بخلاف الشهادة التي تتعدى ب (على).

(794) تشير الآية إلى أن شروط العقد ينبغي أن تكون ماثلة بين المتعاقدين، ينظران إليها كما ينظر المرء إلى موضع قدمه حتى لا تنزل؛ ذلك أن موسى أتى باسم الإشارة المشعر بأن ما تم الاتفاق عليه ماثل بين يديه، وسيسعى إلى رعيه أتم رعاية.

(795) تشير الآية إلى أن الأمور التي من شأنها أن يقع فيها التنازع ينبغي أن يُزال لبسها بأن تُؤدَّى بما ينفي أي احتمال فيها؛ لأن موسى أتى ب (ما) الزائدة لتأكيد الحيرة له في الأجلين، حتى لا يُطالبه شعيب في قادم الأيام بإتمام العشرة، وهذا وإن كان بعيدا في شعيب إلا أنه تعليم لمن يأتي بعده.

(796) تشير الآية إلى أن الصلاح والتقوى لا يمنعان من توثيق العقود، والإشهاد عليها، وتحديد الشروط الكفيلة بإنجاحها؛ فهذا شعيب وهو من الصالحين - إن لم نقل من الأنبياء-، وموسى من أولي العزم من الرسل، ومع ذلك نصا على الشروط ليعلمانا أن العقود شأنها أن تبني على الأسس الصحيحة.

(797) في الآية دعوة للمؤمن بأن يرفع أجل العقود، فيجعل نصب عينه، مهتما به، راعيا لأجزائه حتى يُوفي حق العاقد معه؛ لأن موسى عليه السلام قدّم الأجل على القضاء، مع أن ظاهر العربية يقتضي تقديمه، والتقديم لا يكون إلا للاهتمام أو نحوه.

الآية التاسعة والعشرون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(799) تشير الآية إلى استحباب الوفاء بالعقود، والزيادة على القدر المتفق عليه، ليؤدي الحق كاملاً، ويُجبر النقص الذي قد لا يسلم منه أي عمل بشري؛ ذلك أن موسى أتم الثماني سنين، وأضاف إليها السنتين كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما¹.

(800) في الآية تلميح إلى أن من بدأ شيئاً فلا ينبغي أن ينتقل عنه حتى ينتهي منه؛ لأن فعل قضى يدل على الإتمام والإكمال مع الإحكام؛ وهذا لا يتم إذا كان الشخص ينتقل من أمر إلى آخر².

(801) في الآية إشارة إلى أن الله يُقدر للعبد من الأسباب ما يهيئه إلى الكمال؛ ذلك أن موسى نقله الله من القصر إلى الرعي ليتعود فيما بعد على رعي الإنسان؛ وقد قال ﷺ (مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ)، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ»³.

(802) في الآية دعوة للإنسان بأن يبقى في المكان الذي أمره صاحبه بالملكوث فيه ليرجع إليه بعد قضاء حاجته؛ وقد قام بهذه السنة السيدة عائشة رضي الله عنها عندما رجعت من البحث عند عقدها ولم تجد الجيش في مكانه⁴.

(803) في الآية تنبيه للأزواج الذين يخرجون من بيوتهم دون إخبار زوجاتهم بالوجهة التي يقصدون بأن هذا مخالف لهدي الأنبياء، فهذا موسى قد رأى شيئاً لم يره أهله فأخبرهم بمكان ذهابه⁵.

¹ ينظر: جامع البيان: 568/19.

² ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 137.

³ صحيح البخاري، كتاب الإجازة، باب رعي الغنم على قراريط: 88/3، رقم: 2262.

⁴ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 138.

⁵ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 139.

(804) في الآية دعوة إلى إكمال الأعمال المكلف بها، وإتمامها على الوجه الذي أراده الأمر بها، والسعي إلى تحقيقها برغبة داخلية كأن القائم بها غير مطالب بها يريد الفراغ منها، وإلقائها وراء ظهره؛ لأن فعل قضى يدل على الإحكام والإتمام؛ وهذا لا يكون إلا إذا كان الدافع داخليا¹.

(805) في الآية تنبيه إلى أن الدعوة وحمل الرسالة لا يكون من أي فرد، وإنما يكون من أفراد معينين هيأهم الله عز وجل عبر الزمن، وابتلاهم بضروب من البلاوى والفتن، وأدخلهم دروبا لا علم لهم بها، ولا تفكير لهم في اقتحامها حتى بلغوا الأجل المعين، واستكملوا الشرط المطلوب بعد ذلك أذن لهم في حمل الرسالة لتبليغها إلى أهلها؛ يدل على لفظ (الأجل) الذي يصح أن يُحمل على ما اتفق عليه موسى والشيخ الكبير، وأن يُحمل على الأجل الذي ضربه الله له لتجتمع فيه شروط المبلغ، فأدخله قصر الطغاة، وأخرجه في الأرض الفلاة، وجعله غريبا بين الناس، وراعيا للأغنام بعد الدعة في القصور...، وفي الأخير كلفه بالرسالة². ومن نظر إلى حياة حملة الرسالة الذين دخلوا السجون، واتهموا بالتهمة، وضربوا بالسياط يدرك معنى هذا.

(806) تشير الآية إلى أن بعض الأمور قد يكون ظاهرها غير باطنها، وباطنها غير ظاهرها، فقد يرى الشخص شيئا فيظنه من البلاوى وهو في الحقيقة من الهدايا، والعكس صحيح؛ ذلك أن الظلمة في الليل، وشدة البرد في الطريق، والخروج عن المسار المعتاد دون وجود دليل، كل هذا يعد في الظاهر من البلاوى إلا أنه كان من الهدايا لموسى عليه السلام، إذ أكرمه ربه بالنبوة والتكليم مباشرة³.

(807) في الآية دعوة إلى الغيرة على الأهل وذلك بأن يسعى الرجل إلى أن يجنب أهله الرفقاء من الناس قدر الوسع؛ لأن موسى كان بإمكانه أن ينتظر قافلة تتوجه إلى مصر، فيسير معها، فلما سار بمفرده مع أهله دل على أن هذا أفضل إن أمنت الطريق⁴.

(808) تشير الآية إلى أن الأمور غير المهمة التي لا يترتب عليها عمل، والتي لا تؤثر في اللحظة الآنية ينبغي تركها، والاهتمام بما هو أولى منها؛ لأن الله ذكر قضاء موسى للأجل، ولم يحدد أي الأجلين قضى، لأن التحديد لا يترتب عليه فائدة في القصة، ولا يؤثر في سياقها⁵.

¹ ينظر: نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني، ص: 102.

² ينظر: في ظلال القرآن: 2691/5.

³ ينظر: لطائف الإشارات: 64/3.

⁴ ينظر: المحرر الوجيز: 286/4.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 111/20.

(809) في الآية إشارة إلى استحباب صلة الأرحام مهما كلفت من أتعاب، وحصل إثرها من مشاق؛ لأن موسى رجع إلى وطنه لصلة رحمه مع أنه يَحْتَمِلُ أن يُقتل على يد فرعون، أو يضل الطريق فتتلقفه أيدي اللصوص؛ هذا مع أنه كان آمنا مطمئنا في مدين مع صهره وأهل بيته¹.

(810) تشير الآية إلى أن على المتكلم أن يبين كلامه حتى لا يلحقه أي لبس، خصوصا إذا كان في معرض البيان، أو سياق القصص ذوات العبر؛ فإن كان شائعا قيده، أو ملتبسا بغيره كشفه؛ لأن الله تعالى وصف الجذوة بأنها من النار حتى لا يبقى لبس فيها، إذ إنها تحتمل الخشبة التي فيها نار، وتحتمل الخشبة سواء أكان في رأسها نار أم لا²، فلما جاء البيان الذي يصح أن يكون تخصيصا، ويصح أن يكون كشفا زال الإشكال³.

(811) في الآية إشارة إلى أن الوصول إلى الأهداف يتم بعد استعمال العبد المطلوب منه؛ ذلك أن إناس موسى حصل بعد قضائه لعمله، وسيره إلى مصر بأهله⁴؛ وقد نص أهل الأصول على أن الشيء المرتب على شيئين لا يحصل إلا بوجودهما معا، قال عبد الله بن إبراهيم في المراقي: وإن ترتب على شرطين *** شيء فبالحصول للشرطين⁵.

(812) في الآية دعوة للنساء إلى اختيار الصالحين من الأزواج؛ لأن الله سيكرمهم في دنياهم، ويُسعدهم في آخرهم، فيكون لهن من الفضل ما لأزواجهن؛ ذلك أن أهل موسى لما اختاروه للصالح الذي فيه شهدوا معه زمن الفلاح، إذ حضروا معه زمن الاصطفاء ليكون كليم الله، ورسوله إلى خلقه⁶.

(813) تشير الآية إلى أن الأنبياء يسري عليهم ما يسري على سائر البشر من الضلال في الطريق الحسية، والتعرض للأمراض التي تصيب البشرية؛ ذلك أن موسى ضل الطريق فبحث عمن يخبره عنها، وأصابه البرد فسعى إلى الحصول على التدفئة منه⁷.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 111/20.

² ينظر معاني اللفظة في مبحث معاني مفردات السورة.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 112/20.

⁴ ينظر مفاتيح الغيب: 592/24.

⁵ نشر البنود: 253/1.

⁶ ينظر: البحر المديد: 248/4.

⁷ ينظر مفاتيح الغيب: 593/24.

(814) تشير الآية إلى أن انتهاء مدة العمل لا يلزم عنها انتهاء الإقامة؛ لأن موسى عليه السلام لما أتم الأجل لم تذكر الآية أنه انطلق بعده مباشرة، بل الظاهر منها أنه مكث مدة أخرى؛ لأن فيها عطف السير على قضاء الأجل بالواو التي تدل على مطلق الجمع، ولا تدل على الترتيب أو التعقيب¹.

(815) تشير الآية إلى أن الإنسان يأنس بوجود النور الذي ينير له الطريق، ويبين له المخاطر، ويرشده إلى مواطن السلامة؛ لأن في الآية (آنس) التي هي بمعنى أبصر².

(816) في الآية دعوة إلى المحافظة على النساء، وسترهن غاية الستر حتى لا يصبن بأي أذى؛ يفهم هذا من الكناية عن امرأة موسى بضمير الذكور (امكثوا)³.

(817) في الآية دعوة للرجال بأن يخاطبوا زوجاتهم بما يرفع القيمة في نفوسهن؛ ذلك أن موسى خاطب زوجته بضمير الجمع تعظيماً لشأنها، ورفعاً لقدرها⁴.

(818) تشير الآية إلى أن على العبد الذي يشرع في عمل ما أن يترجى فيه خيراً، ولا يتشاءم من عدم الحصول على ما يريد منه؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما ذهب إلى مكان وجود النار ذهب وهو راجٍ الحصول على أحد المنفعتين، وجود هاد يهديه إلى الطريق، أو الحصول على جمرة تدفع عنه وعن أهل شدة البرد⁵.

(819) في الآية إشارة إلى أن الله قد يخص بعض عباده بميزات لا يشركهم فيها غيرهم، فيحسون بما لا يحس به غيرهم، ويُدركون ما لا يدركه غيرهم؛ لأن الله قال في شأن موسى (آنس) ولم يقل أبصر، والإيناس فيه إبصار وزيادة، ففيه الرؤية، وشعورٌ داخلي يحس به الرائي دون غيره⁶.

¹ ينظر: نظم الدرر: 277/14.

² ينظر: المصدر السابق: 277/14.

³ ينظر: المصدر السابق: 277/14.

⁴ ينظر التفسير المنير: 95/20.

⁵ ينظر: نظم الدرر: 278/14.

⁶ ينظر: روح المعاني: 280/10.

(820) تشير الآية إلى أن الزوجة الصالحة تقضي لزوجها من المصالح ما لا يقدر عليه الجماعة من الناس، بل وتزيد عن الجماعة بما تختص به ولا يؤديه غيرها، وهو المعاشرة؛ ذلك أن الله أتى بلفظ الأهل (أهله) الذي يدل على جمع، ولم يأت بلفظ امرأته وأبنائه¹.

(821) تشير الآية إلى وجوب اتباع الأنبياء، والتسليم لهم، وترك الخوض فيما أتوا به بالعقول القاصرة؛ ذلك أنهم يرون ما لا يراه غيرهم حتى لو كان من المقرين إليهم؛ ذلك أن موسى عليه السلام رأى نارا-وهي حسية- دون أهله، فكيف يكون الحال بغيرها من المغيبات².

(822) "يسير المهتوون للنبوة بتوجيه وإلهام من الله تعالى، فلما انتهى موسى من الوفاء بما عاهد عليه شعبا من رعي غنمه مهرا للزواج بابنته، اتجه عائدا مع زوجته إلى مصر، في ليلة ظلماء شاتية باردة، مشيا من دون راحلة في الإياب كما كان الحال في الذهاب من مصر إلى مدين، وكان قد أتم أكمل الأجلين، عملا بخلق النبوة، وأخذ بالأكمل، كما ثبت في الخبر عن نبينا عليه السلام"³.

(823) في الآية إشارة إلى التلازم بين الإقرار بربوبية الله وألوهيته وبين عبادته؛ فمن أقر بهما يلزمه عقلا وشرعا أن يعبد؛ لأن في الآية جمعا بينهما، وقد بينت آية طه هذا اللازم حيث جاء فيها ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:14].

(824) في الآية إشارة إلى أن الإنسان إذا أدى ما عليه، وضائق عليه السبل فلا ينبغي أن يقلق، أو يضجر، ففرج الله قريب؛ ذلك أن موسى في الوقت الذي قضى ما عليه، وأظلم عليه الليل أراه الله نورا كان مشعل الحياة له ولأمته؛ دليل هذا حرف (لما) المشعر بوجود الشيء عقب شيء آخر.

(825) تشير الآية إلى استحباب نظر الرجل إلى أهله، وتفكيره فيهم قبل الإقدام على أي قرار يتعلق بهم؛ ذلك أن الآية الكريمة قدم فيها الأهل على المقول؛ ومن معاني التقديم الإشعار بالاهتمام.

(826) تشير الآية إلى أن العبد إذا خرج لعمله، أو كسب عياله فلا يخرج وهو موقن بأن يحصل على ما يريد؛ وإنما يخرج وهو راجيه ممن يملكه، باذلا فيه وسعه؛ لأن موسى عليه السلام أتى ب

¹ ينظر: الخواطر: 10912/17.

² ينظر: المصدر السابق: 10912/17.

³ التفسير المنير: 98/20.

(لعلي) الدالة على الترجي، ولم يأت بما يدل على اليقين. وما ورد في آية أخرى كقوله (سَاتِيكُمْ) إنما كان بعدما أيقن من وجود النار. والله أعلم.

(827) تشير الآية إلى أن الرجل الشهم، صاحب الأخلاق والمروءة هو الذي ينظر إلى أهله، ويبحث لهم عما يسعدهم، وينجيهم من منغصات الحياة؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما فقد النور ظلَّ يتربص الطريق حتى رأى نارا فأسرع إليها لعله يجد عندها ما يريد.

(828) تشير الآية إلى جواز ترك الرجل أهله في الأماكن المظلمة، أو في الظروف القاسية إذا كان يرجو من ذهابه الحصول على مصالحه، ومصلحتهن؛ ذلك أن موسى ترك أهله في مكان مظلم، وطريق غير معلوم، وذهب يبحث عن نار تضيء لهم، أو دالٍّ يرشدهم إلى طريق نجاتهم.

(829) تشير الآية إلى استحباب جعل أهداف متعددة من عمل واحد، حتى إن لم تحصل جميعها يحصل بعضها؛ ذلك أن موسى عليه السلام جعل من ذهابه إلى موضع النار هدفين؛ ويشهد لهذا قول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة:52].

(830) تشير الآية إلى وجوب ذهاب المرأة مع زوجها حيث سار إذا أراد ذلك، ولا ينبغي لها مفارقتها بدعوى البعد عن الأهل، أو الاغتراب عن الوطن؛ ذلك أن موسى أخذ معه زوجه التي نشأت في مدين إلى مصر دون أن يذكر القرآن اعتراضها، أو اعتراض أبيها.

(831) في الآية إشارة إلى وجوب إتمام الأجل، والوفاء بالعقد حتى وإن مات المعقود معه، أو لم يعد قادرا على المراقبة والمتابعة؛ لأن فيها إتمام موسى للأجل، وليس فيها ما يشعر بأن شعيبا ما زال حيا، أو ذهب إلى ربه.

(832) في الآية إشارة إلى جواز طرق الإنسان أبواب الناس ليلا، أو الذهاب إلى أماكن تجمعاتهم إذا ضل الطريق، أو فقد أهم مقومات الحياة، كالطعام والشراب واللباس...؛ لأن موسى ذهب إلى النار ليلا لما فقد النور، وضل الطريق، فأشعرنا أن هذا لا بأس به. ويمكن أن نستأنس بما حدث للنبي ﷺ أثناء الهجرة إذ قصد مع أبي بكر خيمة أم معبد وطلبا منها الطعام، فالذهاب وإن لم يكون ليلا إلا أن فيه إيذانا بطرق أبواب الناس عند الحاجة.

(833) في الآية إشارة إلى الجمع بين التوكل على الله والقيام بالأسباب، فمن ضل الطريق ولم يسأل، أو احتاج بعض مقومات الحياة ووجد سبلها ولم يطلبها بدعوى أن الله تكفل بهذا فقد خالف سنة الأنبياء؛ لأن موسى عليه السلام جرب ربه مرات فأعطاه ما أراد، ومع ذلك بادر باحثا عن يرشده إلى الطريق، أو يُقَدِّم إليه بعض حاجاته.

(834) في الآية إشارة إلى أن الله يجعل الصعب سهلا، والسهل صعبا، فلا يُقبل العبد على عمل حتى يتوكل فيه على ربه، ولا يستصعب أمرا اعتمد فيه على مولاه؛ لأن موسى لما أراد القدوم على مدين سأل ربه أن يهديه سواء السبيل، فوصل؛ ولما رجع -والرجوع أهون- ضل الطريق.

(835) في الآية رد على بعض الزاعمين للتصوف المخبرين أتباعهم بأن أجسادهم معهم، وأرواحهم تسرح كما تشاء، وأن ما يصيبهم لن يصيب غيرهم؛ فهذا كليم الله، ورسوله إلى خلقه يصيبه البرد، ويضل الطريق، فكيف بهم وهم الذين تركوا الفرائض، وأهملوا الواجبات!!!

(836) في الآية تنبيه للأزواج بأن يسيروا مع زوجاتهم جنبا لجنب إذا خرجوا معهن لأغراض، أو ذهبوا معهن في أسفار، ولا يفعلوا كما يفعل الجهال من أهل زماننا، فيسيرون أمام زوجاتهم كأن بينهم وبينهن قطيعة؛ دل على هذا الباء الدالة على المصاحبة.

(837) تشير الآية إلى أن السير نحو الهدف هو المهم، أما الوجهة فليست مهمة؛ لأن الآية ذكرت سير موسى عليه السلام ولم تشر إلى وجهته، فأشعرت أن له هدفا.

(838) في الآية إشارة إلى أن القوام للرجل، وما على المرأة إلا السمع والطاعة في المعروف؛ لأنها ذكرت أن موسى هو الذي سار بأهله، ولم تشر إلى رأيها في السير من عدمه، فأشعرت أن على المرأة أن تطيع زوجها حتى لو أخذها إلى مكان لا تعلمه. وهذا المعنى جاء صريحا في قوله تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 34].

(839) تشير الآية إلى أن الراعي الحصيف -سواء أكان حاكما، أو أباً، أو زوجا...- هو الذي لا يُورد رعيته المهالك، ولا يسلك بهم سبل المزالق، فإن شك في طريق أفيه النجاة أم الهلاك؟ اقتحمه بنفسه فقط، فإن كان الهلاك هلك وحده دون رعيته، وإن كانت النجاة نجي ونجت معه رعيته؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما رأى النار لم يأخذ معه أهله إليها؛ لأنه لا يدري من يكون عندها أصحابين أم طالحين؟.

(840) في الآية تنبيه إلى الحذر من البرد الشديد، وتوجيه إلى المبالغة في المحافظة على حرارة الجسم؛ لأن موسى أتى بصيغة الاستفعال (تصطلون التي على وزن تفتعلون) الدالة على المبالغة .

(841) في الآية تنبيه للدعاة وحملة الرسالة بأن يسعوا في خدمة أمتهم، ويستفرغوا لمشاكلهم كل أوقاتهم حتى يصلوا إلى درجة أن تصبح هموم أمتهم همومهم، وسعادة أمتهم أولى من سعادتهم؛ ذلك أن موسى عليه السلام قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾¹ ولم يقل لعلنا نصطلي، مع أن البرد الذي أصابه أهله أصابه؛ لأنه من شدة رحمته بأهله، واهتمامه بشؤونهم صارت راحتهم راحته.

(842) في الآية إشارة إلى أن أهل الفضل والكرم إذا احتاجوا شيئاً ولم يجدوه إلا عند غيرهم لم يطلبوه منهم كاملاً حتى لا يكون له فيه أي سبب، وإنما يطلبون مكوناته إن كانت له على أن يتموا بأنفسهم ما يحتاجون إليه ؛ ذلك أن موسى قال: ﴿أَوْجَدَوْقِ﴾²، ولم يقل: (أو نار)؛ لأن الجذوة هي القطعة من الخشب التي فيها نار¹، فدل هذا على أنه يسعى إلى تحصيل ما يُشعل به النار بنفسه، لا إلى الاتكال على غيره.

(843) في الآية إشارة إلى أن الإنسان إن ظهر له ما لم يظهر لغيره فليتمهل حتى يتحقق منه، فقد يكون الوهم سرى إلى بصره، أو إلى فكره؛ لأن موسى عليه السلام لم يخبر أهله برؤيته النار فور الرؤية، بل الظاهر أنه ترك لنفسه مهلة، إذ لو كان أخبرهم بمجرد ما كان في الآية بالفاء (فقال لأهله) المشعرة بالتعقيب.

(844) في الآية إشارة إلى أن الأشياء المباركة ينبغي أن يُعرَف بها، ويُتحدث عنها في المجالس حتى يَتَفَع بها الناس، لأن في الآية ذكر الطور الذي يمكن أن يستغنى عنه فيقال (وسار بأهله فأبصر ناراً)، فلما ذُكر في القرآن، وخلّد اسمه ما بقي الثقلان دل على هذه النكتة .الله أعلم.

(845) في الآية إشارة إلى أن الذي يعد بوعده عليه أن يستحضر ضعفه، ولا يستعمل أي شيء يشير إلى العظمة والقوة؛ لأن موسى عليه السلام قال لأهله (لعلي) ولم يقل لعلنا بنون العظمة المشعرة بالقوة.

¹ سبق الحديث عن معانيها في مبحث مفردات السورة

الآية الثلاثون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ
مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(847) في الآية إشارة إلى أن شرف الأماكن يكون بكلام الله، وأن البركة تحل فيها بذكر الله؛
ذلك أن الله وصف البقعة التي نادى فيها موسى بالبركة لما حصل فيها من ابتداء الرسالة، وتكليم
الله لموسى عليه السلام¹.

(848) تشير الآية إلى أن الله إذا أراد أن يبارك في أرض يُجيبها بخيرات وافرة، وأرزاق واسعة؛ ذلك
أن الله وصف البقعة بالبركة التي تحصل بذكر الله كما سبق، وتحصل بالخيرات الوافرة²، ولعل قول الله
تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾
[الأعراف: 97] يشهد لهذا.

(849) في الآية دليل على أن الله تعالى كلاماً يليق به، هو صفة من صفاته، يجب إثباتها دون
تأويل أو تشبيه أو تعطيل؛ لأن موسى سمع النداء، ولباه، وجاء التصريح بأن المتكلم هو الله رب
العالمين فانتفت جميع الاحتمالات³.

(850) تشير الآية إلى أن السامع لكلام الله عليه أن يحتقر نفسه عند السماع، ويستحضر عظمة
ربه عند التلاوة، حتى يُخيل إليه أنه لا يستحق أن يكلمه الله، مما يدفع قلبه إلى الفرح، و ذهنه إلى
الاستمتاع؛ ذلك أن الله أكد لموسى أنه يكلمه، وهذا لا يكون إلا لمن يشك أن يكون أهلاً لأن
يكلمه الله⁴.

(851) تشير الآية إلى أن الطريقة المثلى لتعريف الناس برهم، هي الاستدلال عليه بآثاره
المشاهدة، وليس بالأمور الغيبية الذي تزيد الأمر غموضاً، والباحث عن ربه حيرة كما يفعل بعض

¹ ينظر مفاتيح الغيب: 593/24.

² ينظر: البحر المحيط: 301/8.

³ ينظر: تفسير المراغي: 54/20.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 278/14.

المتكلمين؛ ذلك أن الله أتى باسمه (الله)، ثم أتبعه بصفته (رب العالمين) التي من خلالها يتعرف الناس عليه. ومثل الآية بداية سورة الفاتحة التي يقرأها المصلي 17 في اليوم أو أكثر¹.

(852) تشير الآية إلى أن تنفيذ المأمور للأمر يكون على قدر معرفته بالأمر، فمن عرف قهره وعظمته أسرع إلى تلبية مراده؛ ذلك أن الله تعالى قدم التعريف به لموسى ليطمئن قلبه، وتهدأ نفسه، ثم أمره بإلقاء العصا حتى لا يتردد، أو يخالطه شك².

(853) تشير الآية إلى أن الفهم الصحيح للقرآن يكون بمعرفة مقاصد العرب، وطرق استدلالها لا بما يتبادر إلى الذهن، ويقبله كلام العرب (أقصد تركيباً، ومعنى)؛ ذلك أن الله أتى ب (الأيمن) المشير إلى أنه يمين القبلة لا يمين موسى؛ لأن العرب سمت الركن اليماني لكونه عن يمين القبلة، والشامي شامياً لكونه عن شمال القبلة³.

(854) تشير الآية إلى أن المكان الذي نزل فيه الوحي على موسى متميز عن غيره بميزات قد نعلمها وقد لا نعلمها؛ لأن البقعة في لسان العرب هي التي تميزت عن غيرها⁴.

(855) تشير الآية إلى أن الله يختار من مخلوقاته ما يشاء فيصطفئها على غيرها، فكما اختار من الناس الأنبياء، اختار من الأرض مكة، ومن الزمن رمضان، ومن الأشجار شجرة موسى...؛ ذلك أن الله عرف الشجرة باللام التي لا يمكن أن تكون للعهد، وإنما تصلح للجنس⁵.

(856) تشير الآية إلى أن اليقين الذي يكون في القلوب يزرعه الله تعالى؛ لأن موسى أيقن أن المتكلم معه هو ربه جل في علاه، ويمكن عقلاً وعادة أن يظن أن الذي كلمه مخلوق مثله (جني مثلاً لشيوخ مثل الأمور بين المجتمعات)، أو أنه وهم منه، فلما أجاب نداء ربه علمنا أن هذا حصل بفعل الله وحده⁶.

(857) تشير الآية إلى عدم التلازم بين الأرض المباركة والحالين فيها، أو المارين عليها؛ لأن الأرض المباركة التي كلم الله فيها موسى مر عليها آلاف الناس، وعمَّرها خلق لا يعلم عددهم إلا الله،

¹ ينظر: نظم الدرر: 280/14.

² ينظر: التحرير والتنوير: 112/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 113/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 113/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 113/20.

⁶ ينظر: حدائق الروح والريحان: 161/21.

ومع ذلك لم يظهر لهم النور منها، ولا حصل لهم التكليم من شجرتها؛ ويؤيد هذا ما حصل بمكة المكرمة، فكم مر عليها من الفساق والفجار، وكم سادها من سافكي الدماء وقاطعي الأرحام، حتى جاء النبي ﷺ فكلّمه حجّرها دون سواه¹.

(858) في الآية إشارة إلى أن الجنس الواحد يكون بعضه خيرا للعباد، وبعضه فتنة لهم وابتلاء؛ لأن شجرة موسى حصل بجوارها نبوؤه، وإشعاع النور على أمته، وشجرة آدم كان منها البلاء، والنزول إلى الأرض².

(859) في الآية دعوة إلى تأكيد الخبر إن كان غريبا حتى لو لم يكن المخاطب به منكرا؛ لأن الله تعالى أكد لموسى أنه هو الله رب العالمين، مع أنه ليس شاكا فيه، ولا منكرا لربوبيته وألوهيته، بل كان يدعوه في سرائه وضرائه، لكن لما كان تكليم الله للبشر بطريق مباشر أمرا غريبا أكد له حتى لا يعلق بنفسه عليه السلام شيء³.

(860) في الآية إشارة إلى أن كلام الله يؤثر في سامعه أو قارئه إذا كان منفردا أكثر منه إذا كان مع غيره، لأن الوحدة تجعل القلب يشعر بالأنس مع كلام الله، بخلاف الجماعة التي يضعف فيها التأثير بكثرة الحركات، أو ارتفاع الأصوات⁴، ولعل استطراد موسى في بيان وظيفة العصا كما في سورة طه؛ يدل على هذا؛ ويمكن أن نستأنس بنزول الوحي على النبي ﷺ أول الأمر في غار حراء الذي كان فيه منفردا بعيدا عن أعين الناس وكلامهم.

(861) في الآية دعوة إلى السهر مع كلام الله في الليل؛ لكونه أشد وطأة، وأقوى تأثيرا؛ لأن الله لما كلم موسى أول الأمر كلمه ليلا⁵، ويشهد لهذا قول الله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79].

¹ ينظر: لطائف الإشارات: 65/3.

² ينظر: المصدر السابق: 65/3.

³ ينظر: خصائص التركيب، ص: 98.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 2692/5.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 2692/5.

(862) في الآية إشارة إلى أن تأثير كلام الله على الناس ليست له طريقة معينة، فقد يدخل عبر الجلود، وقد ينفذ عبر البصر، وقد يأخذ الجسم من كل نواحيه؛ لأن الآية بينت أن موسى تلقى الوحي، ولم تبين أنه سمعه بأذنه، أو شعر به بقلبه، فأشعرت أن التأثير لا يطلع عليه إلا الله تعالى¹.

(863) في الآية دعوة إلى قصد الذين عرفوا بين العباد بالبركة، حتى صار في تعليمهم بركة، وما لهم بركة، وتأليفهم بركة...؛ هذا لأن الله أثبت البركة للشجرة، فإثباتها للصالحين من عباد الله أولى؛ ولا يعني هذا الشائع بين الناس من أن الضريح الفلاني عنده بركة، إنما يعني الأحياء من الناس الذين بارك الله لهم في علمهم وما لهم...².

(864) تشير الآية إلى أن الله قد يخصص بعض الأماكن بميزات لا توجد في غيرها، فتشتهر بها وتصير معلومة للقاصي والداني؛ ذلك أن الله أتى ب (البقرة) معرفة بأل العهدة المشعرة بأنها معهودة في الأذهان، ولم يأت بها نكرة مع أن الأصل في الأسماء التنكير لشهرتها وذيوعتها، فصار لها مصوغ التعريف.

(865) تشير الآية إلى أن الطريقة المثلى لتعريف الناس برهم هي أن يذكر لفظ الجلالة (الله) أولاً، ثم تأتي أسماءه الأخرى الدالة على صفاته العلية؛ لأن الله تعالى أتى باسمه ذي الجلال (الله)، ثم أتبعه بأعظم الصفات الدالة عليه وهي (رب العالمين)، ويشهد لهذا البسملة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وقوله في سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين) إلى غير ذلك من الآيات التي تشبهها.

(866) تشير الآية إلى أن معرفة الله تمام المعرفة تكون عن النظر إلى مخلوقاته، وعجائب تدبيره لها؛ لأن الله لم يأت بالرب في القرآن معرفا بالألف واللام، وإنما بالإضافة فقط كهذه الآية، وآية الفاتحة وغيرها.

(867) تشير الآية إلى أن أحسن الطرق في تعريف الناس برهم -إن كانوا غير منكرين- أن نعرفهم به على طريق الإجمال، فإن سأل سائل من هو الله؟ يكون جوابه (هو: رب العالمين)، ولا ندخل معه في الجزئيات أول مرة، كأن نقول له: هو رب السماء، أو رب الأرض، أو رب الشمس...، لأن هذا يدفعه إلى طرح أسئلة أخرى يكون في غنى عنها والله أعلم.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 2692/5.

² ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 141.

(868) في الآية تنبيه إلى أن النداء بالاسم الشخصي أفضل من النداء باللقب أو الكنية، إلا إذا غلب أحدهما حتى صار كالاسم الشخصي، فحينئذ يعطى حكمه؛ لأن الله نادى موسى في أجمل أوقات عمره باسمه الذي سمي به في صباه.

الآية الواحدة والثلاثون، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ أَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّاءَ أَهَاتَهُمْ تَرْكُؤُهُمْ أَنَّهُمْ جَانٌّ وَلَمَّا

مُذِبِّرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَكْمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴿٣١﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(869) تشير الآية إلى أن تشبيه الشيء بشيء آخر لا يجعله مثله من كل الوجوه، ولا يعطى حكمه بإطلاق، فالله تعالى شبه عصا موسى بالجان، ولم يقل إنها صارت جانا، فهي عصا إلا أنها تشبه في حركاتها حركات الجان، ولا يستلزم هذا اتفاقها معه في الحجم والمقدار¹.

(870) تشير الآية إلى جواز هروب الإنسان من الأشياء المؤذية حتى لا يتأذى منها، ولا يعد هروبه عيبا، أو نقصا؛ لأن موسى فر من العصا حينما تحولت إلى حية تسعى، ولم يعاتبه ربه، أو ينتقص من قدره².

(871) في الآية دعوة إلى بث الأمن والأمان بين الناس، وذلك بإشعارهم بأنهم متساوون فيه لا يفضل بعضهم على بعض؛ ذلك أن الله خاطب موسى بقوله ﴿إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾ ولم يقل له: إنك آمن، ليشعره بأن الأمن ينبغي أن يشاع بين الناس³.

(872) في الآية دعوة إلى تحمل الرسالة وعدم الهروب منها؛ لأن موسى عليه السلام لما فر عند سماع نداء الله، دعاه ربه إلى تحمل الرسالة، وبيّن له أن ما وقع منه من أمر القبطي غير طاعن في استحقاقه للنبوّة⁴.

(873) في الآية دعوة لاستخدام العقل في الوحي في حدود قدرته، ليكتشف المستور وراء السطور، ويجول بفكره في الأحداث حتى يشعر كأنه يراها عن كثب؛ ذلك أن قول الله تعالى ﴿وَأَنَّ أَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّاءَ أَهَاتَهُمْ﴾ يستنبط العقل منه أنه لم يرها جانا إلا بعدما ألقاها في الأرض⁵.

¹ ينظر مفاتيح الغيب: 594/24.

² ينظر: نظم الدرر: 280/14.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 113/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 114/20.

⁵ ينظر: الخواطر: 10915/17.

(874) تشير الآية إلى أن أعظم سلاح يتسلح به المؤمن هو الثقة في الله، وعدمُ الخوف من غيره مهما اتسع ملكه، وكثر جنده؛ لأن فيها بيان قدرة الله التي ليس لها حدود، فمن ذا الذي يستطيع أن يخرقها أو يتجاوزها!!!¹.

(875) تشير الآية إلى أن من كان الله معه فهو الآمن ولو كان الجميع ضده، ومن كان الله ضده فهو الخائف وإن كان الجميع معه؛ لأن أَمَنَ الله ليس له حدود؛ فلا يحصره زمان، ولا يحده مكان؛ لأن الله بين لموسى أنه من الآمنين، وأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت واللزوم².

(876) تشير الآية إلى أن من أراد أن يواجه شيئاً مَهْماً بلغ في الصعوبة فليواجهه بثقة نفسية عالية؛ ذلك أن موسى سيواجه أعنى جبابرة الأرض، ويُنازله في قصره أمام جنده، وأنصاره بثقة نفسية عالية في ربه، بأنه سينتصر عليه لا محالة؛ ويشهد لهذا أنه لما وقف أمام البحر، وظن قومه أن الهلاك محقق بهم لا محالة رد عليهم بقول: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 63] ومثل هذا ما حدث لرسول الله ﷺ لما دخل الغار، ووقف أعداؤه على بابه، فقال صاحبه ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 40]³.

(877) في الآية دعوة إلى ترسيخ الأمن في النفوس حتى يصبح القاعدة المستمرة، ولا يستثنى من منهم أحد، وحتى الذين يثقون بوعده الله تمام الثقة ينبغي أن يُذكروا بين الفينة والأخرى بأمن الله؛ لأن الله أكد لموسى عليه السلام أنه من الآمنين مع أنه واثق فيه، وأخذ منه الأمن قبل ذلك كما أخذه من صهره⁴.

(878) في الآية دعوة إلى تطمين للعباد، وزرع للثقة في قلوبهم حتى تصبح جميع المؤذيات في أعينهم كالنافعات من خلق الله، وجميع النافعات في أعينهم بدون الله كالمؤذيات؛ لأن الذي يقلب العصا النافعة، والراعية للغنم حية تسعى، ثم يقلب الحية التي تتلقف كل شيء عصا جامدة نافعة لا يخاف من كان بجواره، ولا يأمن من كان بعيداً عنه⁵.

¹ ينظر: الخواطر: 10916/17.

² ينظر: المصدر السابق: 10916/17.

³ ينظر: المصدر السابق: 10916/17.

⁴ ينظر تفسير ابن عرفة: 268/3.

⁵ ينظر: لطائف الإشارات: 67/3.

(879) تشير الآية إلى أن الإنسان قد تعرض إليه أمور تفقده السيطرة على نفسه، فلا يعود يفكر حتى فيمن رافقه سنين؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما رأى عصاه حية تسعى ولى مدبر، ولم يفكر حتى في الرجوع إليها ليعرف حالتها هل ما زالت حية أم رجعت إلى طبيعتها¹.

(880) في الآية إشارة إلى أن هذه الحياة لا تصفو لأحد من الناس حتى لو كان من الرسل²، فلا يعيش خوفاً لا أمناً فيه، ولا أمناً لا خوف بعده، بل يكون طورا في حال وطورا في حال آخر؛ لأن موسى عليه السلام كان خائفاً في المدينة، وخائفاً في طريقه إلى مدين، ثم أمّن عند الرجل الصالح، وها هو الآن يخاف من انقلاب العصا حية، وسيخاف عند رؤية حبال السحرة وهكذا؛ فإن كان هذا هو حال أولي العزم فكيف يكون حال من هم دونهم؟؟. ولقد أحسن ابن الونان حين قال:
لا ترجون صفوا بغير كدر**فذا لغير الله لم يتفق³.

(881) في الآية إشارة إلى أن الله إذا أمر بشيء حصل في أقل من لمح البصر؛ لأن فيها جملة مقدرة غُطف عليها بالفاء الدالة على السرعة بين الإلقاء وبين تحولها حية⁴.

(882) تشير الآية إلى أن تشبيه الشيء بشيء آخر لا يلزم منه أن يماثله من كل الوجوه؛ لأن عصا موسى صارت حية حقيقية، تتلقف كل ما يلقيه السحرة، وشبهت بالجن في خفته وحركته⁵.
(883) تشير الآية إلى أن الأمور الطبيعية التي تُخلق في الإنسان لا يُلام عليها؛ ذلك أن موسى عليه السلام تميز بحدة زائدة، وبسرعة في التنفيذ، ولم يعاتبه الله على شيء من ذلك، إنما كان يوجهه إلى الطريق المثلى للتعامل مع هذه الشخصية⁶.

(884) في الآية دعوة إلى استعمال نوع الحُجج التي ينطلق منها الخصم لإلجائه بها⁷؛ فمن ينكر القرآن ويزعم أنه من أساطير الأولين، أو تأليف مُجَّدٍ ﷺ فلا يحسن أن تنقل له آية منه تدل على أنه كلام الله، بل يحسن أن تنطلق معه من مسلماته التي منها أن كلام البشر مهما أُحكّم يُمكن تحديده؛

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 2692/5.

² ينظر: المصدر السابق: 2692/5.

³ الشمقمقية، ص: 13.

⁴ ينظر: روح المعاني: 283/10.

⁵ ينظر: معارج التدبر: 391/9.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 391/9.

⁷ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 141.

ووجه الهداية أن الله تعالى بعث موسى إلى فرعون بمعجزة تشبه ما تميز به قومه، وهو السحر، فلذلك لما ألقى عصاه خرَّ السحرة ساجدين.

(885) في الآية إشارة إلى أن الوحي ثقيل تخاف من حمله النفوس الزكية؛ ذلك أن موسى طمأنه ربه بأنه من الأمناء عند تلقي الوحي؛ ويشهد لهذا ما حدث للنبي ﷺ حين قال لخديجة رضي الله عنها: (لقد خشيت على نفسي)¹.

(886) في الآية بيان طبع أصيل في البشرية، وهو الخوف من الأشياء المرعبة حتى لو كان الشخص نبيا يكلمه الله رب العالمين؛ ذلك أن موسى لما رأى العصا تحولت إلى حية عظيمة فرَّ، ولم يلتفت إلى الوراء، كما تدل عليه الحال المؤكدة (ولى مدبرا).

(887) في الآية دعوة إلى تقريب المعاني إلى القلوب عن طريق التشبيه حتى يصبح الشيء المعنوي كالحسي، والغائب كالشاهد؛ ذلك أن عصا موسى بينت في آية أخرى بأنها صارت حية تسعى، وثعبانا مبينا، فقد يعتقد القارئ أنها ثقيلة لضخامتها، ولطول ذيلها، فجاءت هذه الآية فشبهتها بالجان الذي تعرفه العرب بسرعة حركته، وفرط تنقله، فصارت العصا المنقلبة حية في الأذهان كأنها مرئية بالابصار.

(888) في الآية دعوة إلى الإسراع إلى الأمر الله لامثالها؛ ذلك أن موسى عليه السلام لم يتأخر حينما أمره الله بإلقاء العصا، بل بادر إلى الامتثال رغم الخوف الذي حصل له قبل، يدل على هذا حذف (فلما ألقاها) والاكتفاء ب (فلما رآها) المشعر بأن رؤيته لها كانت عقب أمر الله له بالإلقاء.

(889) تشير الآية إلى أن الشيء الواحد قد يشبه أشياء كثيرة في وجوه عدة؛ ذلك أن عصا موسى شبهت هنا بالجان، وفي طه بالحية، وفي الشعراء بالثعبان، وليست واحدا من هؤلاء.

(890) في الآية إشارة إلى أن الذي يقلب الحقائق هو الله وحده، فيغيّر الجماد حيا، أو الحي جمادا، وأما غيره فإنه يخيّل للأعين فقط؛ ذلك أن الله بين في هذه الآية أنه قلب العصا حية تشبه سرعتها سرعة الجان، أي سرعة نوع من أنواع الحيات

(891) تشير الآية إلى الفرار دون الالتفات يمينا وشمالا بعض علامات تمكن الخوف من القلوب؛ ذلك أن موسى لم يلتفت وهو النبي إلا بعد أن ناداه ربه، وطلب منه الرجوع.

¹ صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف بدا الوحي: 7/1، رقم: 3.

(892) في الآية دعوة إلى استعمال أجمل الألفاظ مع الخائفين حتى لا يضاف جرحٌ إلى جرحهم؛ لأن الله قال لموسى (أقبل) ولم يقل له ارجع؛ لأن كلمة (أقبل) ليس فيها ما يشعر بالفرار الذي يعد سبة، بخلاف (ارجع) فإنها مشعرة به.

(893) في الآية إشارة إلى أن الأمن بعد الخوف أدعى لمعرفة قيمته، والسعي لإبقائه ودوامه، ونشره بين الناس حتى يعم البلاد والعباد؛ ذلك أن الله طمأن موسى بأنه من الآمنين بعدما خاف من العصا التي تحولت حية تسعى.

(894) في الآية رسالة إلى الملوك والخلفاء والولاة ومَن في حكمهم بأن يرسلوا خطاب التطمين بالأمان إلى المرسل إليهم قبل ذكر المطلوب منهم؛ لأن العادة جرت بكون من يدخل دار الخليفة، أو يسمع صوته (الحسي المباشر، أو المعنى المكتوب) يُخالجه الخوف؛ لأن الله وهو المتفرد بالجلال لما نادى موسى طمأنه بأنه من الآمنين، أفلا يليق بالعباد أن يقتدوا برهم في مثل هذه الأمور!!!

الآية الثانية والثلاثون، قال تعالى: ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(896) في الآية إشارة إلى أن الإنسان إذا عرضت له أمور تضر به فلا ينبغي أن يستسلم لها، ويبسط عنقه لها تفعل به ما تشاء، بل لابد أن يقاومها، ويبدل الوسع والطاقة لاتقائها؛ فموسى عليه السلام لما انقلبت عصاه حية اتقاها بيده، حتى أمره الله بضمها إلى جناحه لتخرج بيضاء للدلالة على أنه صار من الأنبياء¹.

(897) تشير الآية إلى أن الرهب علة تبنى عليه الأحكام، ويُراعى عند تنزيلها؛ ذلك أن الله جعله سببا لضم موسى جناحه².

(898) تدعو الآية إلى التصلب والحزم مع الأمور العظام، وذلك بالاستعداد النفسي لها، والتهيؤ البدني لمواجهتها؛ لأن الله أمر موسى لما خاف من العصا أن يضم إليه جناحه كناية عن التصلب في الموقف، ومواجهة المشكلة³.

(899) تشير الآية إلى أن الذي يدافع عن شيء ما عليه أن يعرف حججه وبراهينه، وعليه أيضا أن يرتبها حسب القوة، وما يقتضيه المقام؛ ذلك أن الله أعلم موسى بالبرهانين الذين يستعملهما مع فرعون قبل لقائه ليكون على أتم الاستعداد، ولتحصل له الثقة الكاملة فيما يدعو إليه⁴.

(900) تشير الآية إلى أن حكم الله ومقاصده قد تُعلم وقد لا تعلم، فما عُلم منها عُمل على وفقه، وما لم يُعلم منها سلم فيه إلى الله؛ ذلك أن البرهان يكون في أحوال الناس عند الحاجة إلى استخدامه، وهنا أعلم الله موسى بالبرهانين قبل استعمالهما، وهذا ما يجعل الحكمة قد تكون معلومة، وقد تكون مجهولة⁵.

¹ ينظر: الكشف: 408/3.

² ينظر: المصدر السابق: 408/3.

³ ينظر: مفاتيح الغيب: 595/24.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 596/24.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 596/24.

(901) تشير الآية إلى استحباب وضع اليد على الصدر عند الخوف، لأن وضعها يذهب، وينزل الطمأنينة في القلب؛ ذلك أن الله أمر موسى بوضع يده على صدره —على رأي بعض المفسرين— حتى يذهب روعه، ويحل محله الأمن والأمان¹.

(902) تشير الآية إلى أن على المكلف القيام بالأسباب وليس عليه الإتيان بالنتائج، فإن طولب بشيء فليقم به، وليفوض مسبباته إلى ربه؛ فالله ﷻ أمر موسى بإدخال يده في جيبه، ولم يأمره بإخراجها بيضاء؛ لأن إخراجها بيضاء إنما يكون لله وحده².

(903) تشير الآية إلى الطريقة في المثلى في محاجة الكفار والملحدين، وهي فرز الأدلة، وتبيين مراتبها وأقواها تأثيراً ليختار دون غيره مما يصلح للحجاج؛ ذلك أن الله أتى بلفظ (البرهان) الذي هو أقوى الأدلة، بحيث لا يترك أي عذر للمخالف³.

(904) في الآية دعوة لتقسيم الحجج والبراهين، حسب عمومها وخصوصها، فما كان منها عاما يؤتى به في موضع تجمع الناس، وما كان منها خاصا يؤتى به للخواص، وإذا لم يعرف الداعية هذا سيضع أدلة العموم للخصوص، وأدلة الخصوص للعموم⁴، ذلك أن موسى عليه السلام أتى بتسع آيات لكن خصه الله باثنين منها في هذا المقام، إذ هما اللتان تصلحان له، أما السبع الباقية وهي الجراد والقمل والضفادع... فهي عامة للجميع، فناسب تأخيرها إلى حينها⁵.

(905) في الآية دعوة لمن كان يصبو إلى هدف معين لأن يشمر عن ساعد الجد، ويجتهد في البحث والكد لعله يوصله ربه إلى مراده؛ لأن موسى أمره ربه بأن يترك الراحة، ويستعد للقاء عدوه فرعون مع جنوده⁶، ويشهد لهذا قول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر: 1-2].

¹ ينظر: معالم التنزيل: 207/6.

² ينظر: الخواطر: 10918/17.

³ ينظر: المفردات، ص: 45.

⁴ كما حدث للمتكلمين في عصرنا، إذ أشاعوا بين العوام أدلة لا تصلح إلا للمتخصصين، فنتج عن هذا تكفير الجهال لأكابر العلماء، واتهامهم لهم بالبدعة والفسق... والله المستعان.

⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 343/10.

⁶ ينظر: لطائف الإشارات: 85/3.

(906) تشير الآية إلى أنه لا يكفي في الدعوة مجرد الإنذار، بل لا بد من إقامة الحجة بالبينات والبرهان¹.

(907) في الآية دعوة إلى الاقتداء بالأنبياء حتى وإن لم تُعرف الحكمة؛ لأن الله تعالى أمر موسى بوضع يده على صدره ليذهب عنه روعه —على رأي بعض المفسرين— فامتثل دون السؤال عن الحكمة، ويشهد لهذا أن ابن عباس رضي الله عنهما جعل هذا عاما لجميع الناس اقتداء بموسى عليه السلام².

(908) تشير الآية إلى أن الفسق قد يُعمر طويلا ثم يأتيه الله بمن يزيله؛ لأن فرعون وجيشه عمروا على الفسق طويلا كما يشعر به الفعل الماضي (كانوا).

(909) تشير الآية إلى أن الله يبعث لكل أمة من يجدد لها دينها، فإذا سرى الجهل حتى عم البلاد والعباد يسر الله له من يدفعه عنهم، ويضع محله العلم والحكمة، لأن الآية بينت أن الفسق لما تغلغل في مجتمع فرعون أرسل الله إليهم موسى فردهم إلى الصواب؛ وقد دل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)³.

(910) في الآية دعوة للعمل بكل ما جاء عن الله ورسوله، تصورته العقول أم لا؛ لأن موسى عليه ضم إليه جناحه لما أمره ربه بضمها، ولم يعترض بعقله ويقول: ما علاقة الجيب بما أنا فيه؟؟؟ إنما نفذ الأمر مسرعا عليه صلوات الله وسلامه.

(911) تشير الآية إلى أن الخوف يغير طبيعة الإنسان، فينقله من حالة يكون فيها مطمئن البال، إلى حالة يصبح فيها كالطائر في الفضاء؛ لأن أمر موسى بضم جناحه يشعر بأنه أصبح في حالة من الخوف كالطائر في السماء

(912) تشير الآية إلى أن المناظر لخصم ما يجب عليه ألا يكتفي بما يعلم من الحجج والبراهين، بل يجب أن يطمع دائما لأن يضيف حججا وبراهين أخرى، تكون معضدة لما عنده، وقاطعة لعذر

¹ ينظر: تيسير الكريم المنان، ص: 615.

² ينظر: تفسير القرآن العظيم: 6/235.

³ رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة: 4/109، رقم: 4291، وأبو عمر الداني في السنن الواردة

في الفتن رقم: 364، وصححه السخاوي في المقاصد الحسنة، ص: 238، والألباني السلسلة الصحيحة: 2/148.

خصمه؛ ذلك أن الله جعل اسم الإشارة مبتدأ، و(برهانان) خبرا ليشعر موسى بأن هناك براهين أخرى تُعضد هذين.

(913) تشير الآية إلى أن المدافع عن دين الله، والمناظر عن ثوابته وشرائعه عليه أن يستحضر أنه تحت رعاية الله، وأن قلمه سيسيل بقدرة الله، وحججه ستظهر بأمر الله، وأن خصمه لن يصل إليه بإذن الله؛ ذلك أن الله تعالى أتى بلفظ الرب (ربك) المشعر لموسى بأنه تحت العناية، فلا يقلق، ولا يحمل هما.

(914) تشير الآية إلى أن الحجج التي يناقش بها المؤمن غيره ليست ملكا له، ولا من كسب يده؛ لأن الله بين لموسى -وهو رسوله وكليمه- بأن البرهانين ليسا من كسب يديه، ولا من تقواه وورعه، إنما هما هبة من ربه، يُقنع بها من عباده من يريد الهداية، ويقيم بها الحجة على المعاندين والجاحدين، ومن يريد الغواية.

(915) تشير الآية إلى أن الحجج التي يمنحك الله للدفاع بها عن قضية معينة، أو تُواجه بها فكرا منحرفا ما لا تقتصر على المعيّنين؛ وإنما يجب عليك أن تُوظفها في كل نازلة تشبهها، تُغير الزمان والمكان أم لا؛ لأن الله بين أن اليد والعصا برهانان إلى فرعون وملئه، ولم يقل إنهما خاصان به، بل الظاهر أنهما له وملئه، ولمن يشبهه من بعده، حيث أتى ب (إلى) الدالة على الانتهاء، ولم يأت ب (اللام) الدالة على الاختصاص.

(916) تشير الآية إلى أن الداعية إلى الله لا تبرأ ذمته بمجرد الدعوة، بل لا بد من أن يوصلها إلى المحل الذي أريد لها، حتى يقيم الحجة على العباد؛ لأن (إلى) تدل على الانتهاء، وهو لا يحصل إلا إذا بَلَغ الداعية بالدعوة إلى موضعها.

(917) تشير الآية إلى أن الفسق ينشأ من الأفراد، ويظل يسري في المجتمع إلى أن يصل إلى الجميع، ويصير العادة الجارية، والقاعدة المستمرة التي يُحكم بها، ويُقاس عليها؛ هذا لأن الله أتى بلفظ (القوم) المشعر بأنهم تمكن منهم الفسق فأصبح شعارهم وقانونهم، ويشهد له قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون لفرعون: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَحَرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: 63].

(918) تشير الآية إلى أن الأصل في بني آدم هو الصلاح، وأما الفسق فطارئ عليهم؛ لأن (فاسقين) اسم فاعل يدل على الحدوث، بخلاف الصفة المشبهة؛ ويشهد لهذا قول الله تعالى في

الحديث القدسي: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم)¹.

(919) تشير الآية إلى استحباب تأكيد الكلام حتى في المسائل الظاهرة التي لا ينكرها عاقل؛ لأن العقول قد تمسخ، والفطر قد تبدل، فيصير الفسق عندها طاعة، والطاعة عندها فسقاً، فتنكر الحق الظاهر، وتثبت الباطل الخفي، هذا لأن الله أكد فسق فرعون وملئه؛ وفسقهم لا يخفى على صالح فكيف بني كرم!!! لكن لما انقلبت الموازين عندهم، وصار الصالحون سحرةً، والسحرةً مقربين خرج الكلام عن مقتضى الظاهر.

(920) تشير الآية إلى أن الداعية إلى الله عليه أن ينظر إلى حججه نظرة تأمل، فما كان منها يحتاج إلى إكمال أكمله، وما كان يحتاج إلى تقويم قومه، ولا يدافع بها عن دين الله حتى تصير عنده في القوة والصلابة كالأشياء المحسوسة التي لا يختلف فيها اثنان، ولا يتناطح فيها عنزان؛ ووجه الهداية أن الله أتى باسم الإشارة (فذانك) ليشعر موسى بأن هاذين البرهانين كافيان في الإقناع، وأنهما في الظهور والبيان كالأشياء المحسوسة التي لا يخالف فيها، ولا ينكرها إلا جاحد.

(921) تشير الآية إلى أن الحاكم لن يستطيع أن يغير عقيدة قوم ما بالقوة، ولا أن يجعل رعيته على معتقده بالرهبة، غاية ما يستطيع فعله هو أن يبدأ معهم بالتدرج حتى لا يبقى من عقيدتهم إلا رسمُهما، أو يجعلهم متظاهرين بغير ما يبطنون؛ لأن الله أرسل موسى إلى فرعون وملئه لتقوم الحجة على الجميع، فلو كان قادراً على تغييرها لاكتفى بإرساله إليه فقط.

(922) تشير الآية إلى أن البطانة لها دور كبير في التغيير، فمن كانت له بطانة صالحة ستسعى إلى إصلاحه عبر الزمان، ومن كانت له بطانة سيئة ستسعى إلى إفساده قدر الإمكان؛ لأن الله قرن بين فرعون وملئه ليشعرنا بأنهما على طريقة واحدة؛ هذا لأن (الملا) يُقدّم للحاكم تبريرات ليحصل بها على منافع، و الحاكم يأخذ منهم مشورات ليجعلها حجة على رعيته.

(923) تشير الآية إلى القانون الذي وضعه الله في الحياة، وهو ربط الأسباب بالمسببات، فهي وإن كانت جميعاً من الله إلا أنه أعطى للعبد حظاً منها وهو المباشرة؛ ذلك أن الله أمر موسى بإدخال يده في جيبه حتى تخرج بيضاء، ولم يجعلها بيضاء أول الأمر مع أنه قادر عليها.

¹ صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها: 4/2197، رقم: 2865.

(924) تشير الآية إلى أن البياض الناصع يعد عيباً من العيوب؛ لأن الله لما ذكر بياض يد موسى قيّده بغير السوء ليزيل ما تتوهمه الأنفس.

(925) في الآية إشارة إلى أن على الداعية إلى الله إذا ناظر خصماً ما من أعداء الله أن يقصد أمرين اثنين: هما هداية مناظره، وهداية المستمعين والمشاهدين لأدلته؛ لأن الله تعالى لم يقصر معجزة اليد والعصا على فرعون وملئه، بل بيّن أنهم هم المقصودون بالأصالة، وأن قوم موسى كذلك مقصودون بالتبع؛ لأن لفظ (إلى) يدل على الغاية، ولا يدل على الاختصاص.

(926) تشير الآية إلى أن الداعية إلى الله عليه أن يبدأ في دعوته بأصحاب التنظير لمذهب ما، أو القائمين على حمايته قبل غيرهم، لأن هداية الزعماء تُسهل الطريق للوصول إلى الرعية؛ هذا لأن الله لما أرسل موسى لم يرسله أولاً إلى قوم فرعون الذين كانوا يعبدونه، وإنما أرسله إلى فرعون، ثم ملئه، ثم يأتي الآخرون بالتبع.

(927) تشير الآية إلى أن القوم الذين مازالوا على الفطرة يعبدون الله، ويوحدونه لا يحسن بالدعاة أن ينشروا بينهم براهين الوحدانية، وحجج التوحيد؛ لأن الآية بينت العلة التي من أجلها أتى الله موسى البرهانيين وهي الفسق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدمًا.

الآية الثالثة والثلاثون، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿٣٣﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(929) تنبه الآية الذي يريد أن يسأل شيئاً من الله بأن يذكر نعم الله عليه أولاً؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما أراد أن يسأل ربه بأن يجعل معه أخاه هارون وزيراً قال (رب) ليشعره بأنه هو من ربه، وتولاه حتى وصل إلى هذه المرتبة¹.

(930) في الآية دليل على أن الذي وقع في ذنب ما عليه أن يستحضره إلى أن يلقي الله، يتذكره في كل وقت وحين، ويستغفر منه في الصباح والمساء، ذلك أن موسى رغم طول الفترة بينه وبين الزمن الذي قتل فيه القبطي مازالت تلك الصورة حاضرة بين يديه².

(931) في الآية إشارة أن من علم أن فعلاً مآ صار واجباً عينياً عليه -بعد أن كان كفائياً- فلا يتهاون في أدائه، ولا يعتذر للتخلص من أتعابه؛ لأن موسى عليه السلام لما علم بالتكليف لم يعتذر، وإنما سأل ربه الأمان والأمان عند التبليغ³.

(932) تشير الآية إلى أن العبد إذا أراد أن يعترف بذنبه ينبغي أن يشعر وكأنه بجوار مولاه، يسمع نبرات قلبه، وزفرات فؤاده؛ لأن موسى عليه السلام لما أراد أن يعترف بذنبه نادى ربه بنداء القريب المشعر بأنه يناجي من يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويطلع على سره وعلايته.

(933) في الآية دعوة للذي أنعم الله عليه بنعمة بأن يستثمرها في الدعوة إلى الله؛ ذلك أن موسى عليه السلام نظر إلى أخيه هارون فوجد عنده اللسان المنطلق، والبيان الشافي، فسأل الله أن يكلفه بالبيان⁴.

(934) في الآية دعوة إلى طلب العون من الله على تبليغ الرسالة لا إلى طلب الاستعفاء منها؛ ذلك أن موسى سأل ربه العون، ولم يسأله الإعفاء⁵.

¹ ينظر نظم الدرر: 283/14.

² ينظر: المصدر السابق: 283/14.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 115/20.

⁴ ينظر: الكشف: 409/3.

⁵ ينظر: روح المعاني: 285/10.

(935) تشير الآية إلى جواز الأخذ بالأعذار حتى مع أولياء الأمور، فمن شق عليه شيء، أو لم يمتلك شروطه فلا بأس بأن يعتذر لمن كلفه؛ ذلك أن موسى اعتذر بقتل القبطي ليسأل ربه أن يجعل معه أخاه هارون نبيا¹.

(936) تشير الآية إلى أن الخطأ لا يُعد عذرا مبررا لرفض التكليف والمسؤوليات؛ ذلك أن موسى عليه السلام لم يمنعه خطؤه في قتل القبطي من تحمل الرسالة؛ إنما طلب من الله بعض الأشياء التي تساعد على تحملها، كأن يكون معه أخوه هارون نبيا يشد أزره، ويقوي حجته.

(937) في الآية دعوة للإلحاح على الله عند الدعاء، بالتأكيد على فعل الخطأ لعل الله يغفره، ويستتره عنه يوم العرض عليه؛ ذلك أن موسى على يقين بأن ربه يعلم أنه قتل نفسا، إلا أنه أكد له رجاء أن يعفو عنه.

(938) في الآية تنبيه لمن من الله عليه بولاية، أو تكرم عليه بعلم ومنزلة بأن لا ينسى ماضيه، وما صدر منه في حق الله، أو حق العباد؛ ذلك أن موسى عليه السلام أكرمه الله بالنبوة، ومنّ عليه بالتكليم، وما زال يذكر ما صدر منه من خطأ في مصر.

(939) في الآية إشارة إلى أن قتل النفس مذموم بغض النظر عما تنتمي إليه، ولا المكانة التي تحظى بها؛ ذلك أن موسى عليه السلام أتى ب (نفسا) نكرة، مع أنه قد سبق ذكرها لتعظيم شأنها، وبيان خطورة إزهاقها.

(940) في الآية إشارة إلى أن قتل الأنفس يزرع الخوف في النفوس، فتشعر دائما بأنها ستزهد كما أزهدت غيرها؛ ذلك أن موسى ذكر خوفه من القتل بسبب قتله للقبطي خطأ.

(941) في الآية إشارة إلى أن المشارك في القتل يُعد قاتلا ولو كانت مشاركته بالكلمة فقط؛ ذلك أن موسى أسند القتل إلى الجماعة، مع أن الذي سيقتله واحد، لكن لما كان ينفذ أمر غيره كان هو وغيره سواء في الجريمة.

(942) في الآية إشارة إلى أن الناس لن يستطيعوا إخراج روحك من جسدها ولو بلغوا من القوة الحد الأعلى؛ غاية ما يستطيعون فعله هو التسبب في إخراجها، ويبقى أمر الله يفعل ما يشاء؛ ذلك أن موسى عليه السلام أتى بلفظ القتل الذي يكون عن سبب، ولم يأت بلفظ الموت الذي يكون من

¹ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 161.

الله ، ويشهد لهذا تفريق الله بينهما في قوله : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: 144]، وكذلك رفعه لعيسى ابن مريم، إذ اجتمع اليهود ليقتلوه وتخرج روحه فلم يستطيعوا. (943) في الآية إشارة إلى أن العبد أثناء الاعتراف بالذنب عليه أن يحتقر نفسه، ويجعلها ذليلة بين يدي الله؛ ذلك أن موسى قال (إني) ولم يقل (إنني) حتى لا يشعر كلامه بنوع من التعظيم.

الآية الرابعة والثلاثون، قال تعالى: ﴿وَإِخَىٰ هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(945) تشير الآية إلى أن المعنى الواحد يختلف العلماء والدعاة في بيانه للناس، فبعضهم يجعله في أذهانهم كأنه مشاهد بالأبصار، وبعضهم يترك فيه بعض الغبش؛ ذلك أن موسى -وهو نبي من أنبياء الله- اعترف بأن أخاه هارون أقدر منه على بيان مراد الله تعالى¹.

(946) تشير الآية إلى أن تعيين الشخص ليكون عوناً لك على مهمة ما جائز إن عُلم صدقه وأمانته، وظهرت قدرته على أداء المهمة؛ لأن موسى عليه السلام عيّن أخاه هارون لعلمه بصدقه وأمانته².

(947) في الآية دعوة إلى الاهتمام بالأخوة، وجعلها في سلم الأولويات؛ ذلك أن موسى عليه السلام جعل الأخوة مبدلاً منه، ليشعرنا بأنها هي الأصل الذي يجب الاهتمام به³.

(948) في الآية دعوة إلى تعظيم الإخوة، والرفع من منزلتهم، ذلك أن موسى عليه السلام أتى بضمير الفصل (هو) ليشعرنا بأن أخاه يستحق أن يكون نبياً رسولاً⁴.

(949) في الآية إشارة إلى أن الذين يكونون رحماً بالناس عند توليهم المناصب العليا أولى من غيرهم؛ ذلك أن موسى اختار هارون لقربه منه، ولكونه أحن عليه، وأدنى شفقة من غيره⁵.

(950) في الآية دعوة للعلماء بأن يتنبهوا أثناء دعوتهم؛ فإن غلب على ظنهم أنها ستنتجح توكلوا على الله، وشرعوا في العمل، وإن غلب على ظنهم أنها ستفشل، أو تحقّقوا أن أرواحهم ستزهق توقفوا حتى يجدوا مَنْ يُقويهم؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما غلب على ظنه أن فرعون سيقنتله، وتفوت رسالته أمته سأل ربه عوناً يقويه على المهمة.

¹ ينظر: جامع البيان: 577/19.

² ينظر: التحرير والتنوير: 116/20.

³ ينظر: نظم الدرر: 283/14.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 283/14.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 284/14.

(951) تشير الآية إلى أن التصديق بالشيء لا يقتصر على اللسان فحسب؛ بل التصديق الحقيقي هو الدفاع عن الشيء المصدّق به، والمجادلة عليه، وردّ الشبهات التي تثار حوله؛ لأن موسى قال: (يصدقني) ومن بين المعاني التي حملت عليها: أنه يدافع عن دعوته، ويسهم في نشر رسالة ربه¹.
(952) تشير الآية إلى أن الذي يعلم عن مؤهلات شخص ما عليه أن يسعى لأن يجد له مسؤولية تناسب مؤهلاته؛ لأن موسى عليه السلام سأل ربه النبوة لهارون لَمَّا فيه القدرة على تحملها².

(953) في الآية دعوة إلى الاجتماع على الخير للتعاون عليه؛ لأن النفس البشرية مجبولة على التصديق بالشيء الذي يأتي من جمع أكثر من تصديقها بما يأتي به فرد واحد؛ لأن موسى عليه السلام علم أن فرعون وملأه أجلافٌ لن يُسلموا له بمفرده، وإن ظهرت حجته؛ فإذا انضاف إليه أخوه تُكسر حدّتهم، وتلين شوكتهم³.

(954) في الآية إشارة إلى تفضيل الأقارب على غيرهم في المهمات الدينية إن كانوا أهلاً لها؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما سأل النبوة لم يسألها للشيخ الكبير الذي أكرمه، ولا لغيره من بني إسرائيل، وإنما فضل أخاه على الجميع؛ لذلك قال بعض السلف: ليس هناك منةٌ أعظم من منة موسى على أخيه، إذ شفع له حتى رزقه الله النبوة⁴.

(955) في الآية دليل على أن الفصاحة شرط في الأنبياء ومن يتولى الدعوة من بعدهم، فمن كان غير فصيح من الدعاة فقد يضر الإسلام من حيث يريد نفعه؛ لأنه سيقدم المعنى غير كامل، فيفهمه السامع مقلوباً؛ ذلك أن موسى عليه السلام كان فصيحاً بليغاً لكنه طلب من الله أن يجعل معه أخاه لأنه أفصح منه؛ دل على هذا أفعلُ التفضيل (أفصح) الدالُّ على الاشتراك بينهما في الصفة التي هي الفصاحة، إلا أن هارون زاد على موسى⁵.

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 597/24.

² ينظر: المصدر السابق: 597/24.

³ ينظر: جامع البيان: 577/19.

⁴ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 236/6.

⁵ ينظر: البحر المحيط: 304/8.

(956) في الآية إشارة إلى أن من عاش حياة الخوف سيصبح ساعيا إلى تحقيق الأمن له ولغيره ما استطاع إلى ذلك سبيلا؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما عاش الخوف في المدينة وفي الطريق، وأثناء الرجوع سأل ربه أن يكون معه أخوه هارون حتى يتقوى على مواجهة الأعداء¹.

(957) في الآية إشارة إلى أن من صعب عليه أمر ما فليرده إلى ربه جل في علاه؛ ذلك أن موسى صعب عليه لقاء فرعون وملئه فأرجعه إلى ربه فَمَنَّ عليه بأخيه، ووعدَه بالنصر والتمكين².

(958) تشير الآية إلى أن الدعاة إلى الله ينبغي أن يكونوا خالين من التهم التي تقدح في دعوتهم، وتجعلهم عرضة للطعن من أعدائهم؛ ذلك أن موسى شعر بأن فرعون سيعارضه -وقد فعل، كما في الشعراء- بتهمة القتل، فطلب من الله أن يكون معه أخاه هارون لأنه لا تهمة له³.

(959) في الآية دعوة إلى ترك الخوف عند الدعوة لأنه يؤدي إلى حبس اللسان، وخفاء الحجج؛ ذلك أن موسى سأل ربه أن يكون معه أخاه وزيرا حتى يزول خوفه، وينشرح صدره، وتظهر حجته⁴.

(960) في الآية إشارة إلى أن الذي ليس عليه شيء من أوزار الناس وآثامهم أقدر على مواجهتهم من غيره؛ ذلك أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يعينه بأخيه هارون الذي يكون أقوى في المواجهة منه، لكونه ليس لهم عليه ذنب، ولم يصل إليه منهم منة⁵.

(961) في الآية دعوة للدعاة والعلماء بأن يسعوا ليجعلوا غيرهم مشاركا معهم في الدعوة، لا أن يجعلوه معينا فقط؛ ذلك أن موسى لم يقل: اجعل معي أخي مساعدا وإنما سأل ربه أن يجعله معه نبيا مشاركا في الدعوة والتبليغ⁶.

(962) في الآية إشارة إلى أن الرسالة تكون واحدة، ويكون لها نبيا أو أكثر، فباعتبار المرسلين فهم متعددون، وباعتبار المرسل إليهم فهم رسول واحد؛ ذلك أن الله أرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه برسالة واحدة مع أنهما نبيا معا⁷.

¹ ينظر: المحرر الوجيز: 288/4.

² ينظر: المحرر الوجيز: 288/4.

³ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 344/10.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 344/10.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 344/10.

⁶ ينظر: الخواطر: 10920/18.

⁷ ينظر: المصدر السابق: 10920/18.

(963) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله عليه أن يبقى على حذر من تكذيب إلى الناس إلى أن يلقي الله، فيظل متيقظا يبحث عن وسائل إقناعهم؛ ذلك أن موسى أتى بالفعل المضارع الدال على أن خوفه من التكذيب يتجدد بين الفينة والأخرى¹.

(964) في الآية إشارة إلى أن إشراك الناس في المسؤولية يجعلهم أكثر نشاطا على تحملها، وأتم استعدادا للوفاء بها؛ لذلك سأل موسى ربه أن يُشرك معه أخاه في الرسالة، ولم يسأله أن يكون مساعدا له فقط².

(965) في الآية تنبيه إلى الإخلاص لله في الدعوة، وسد كل مداخل الرثاء والسمعة؛ ذلك أن موسى أظهر عجزه، وسأله ربه العون والسداد³.

(966) في الآية إشارة إلى أن تعدد مخرج الخبر يقويه، ويعضده فيرتقي به إلى أن يصل إلى درجة لا تقبل الشك، وهو الذي يسميه العلماء بالتواتر؛ لأن موسى عليه السلام صادق، ويعلم قومه أنه صادق، لكنه طلب معه أخاه ليزداد الخبر قوة⁴.

(967) في الآية دعوة للعلماء والدعاة الذين يدعون غيرهم إلى الإسلام بأن يرجو من وراء دعوتهم أن يصدقهم المدعوون، ويقبلوا دعوتهم؛ لأن (يصدقني) قد قرئت يصدقوني، فأشعرت برجاء موسى تصديق فرعون وملئه.

(968) في الآية دليل على جواز قول العالم لمن هو أقل منه علما ومرتبة بلغ رسالة الله، أو قم عني بهذه المسؤولية لأنك الأقدر عليها.

(969) في الآية دعوة للعلماء بأن يبحثوا عن يعينهم على دعوتهم، ويجتهدوا في التعاون على أهدافهم؛ لأن موسى عليه السلام طلب من ربه المعين على رسالته؛ والعلماء أتباع الأنبياء، فعليهم أن يقتدوا بهم في كل ما دخل تحت الاقتداء.

¹ ينظر: حدائق الروح والريحان: 117/10.

² ينظر: محاسن التأويل: 221/7.

³ ينظر: التفسير الوسيط: 405/10.

⁴ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 167.

(970) في الآية رسالة إلى العلماء والدعاة بأن يسألوا الله في السر والعلن أن يمنّ عليهم بدعاة يكونون معهم يدا واحدة؛ فموسى عليه السلام دعا ربه بأن يجعل معه أخاه هارون نبيا؛ والعلماء أخرى بأن يسألوا الله أن يجعل معهم دعاة مثلهم، أو أحسن منهم في القيام بأمر الدعوة.

(971) في الآية إشارة إلى ترك بعض الأخلاق الذميمة التي يقع فيها بعض الدعاة، كالغيرة الزائدة، التي تجعلهم يصرفون جهودهم لبعضهم أكثر من صرفها لعدوهم المشترك؛ وواقعا خير شاهد؛ فالكتب في الردود والردود على الردود، والطعن والتنازع مما لا تخطئه العين.

(972) في الآية دليل على اختيار الكفاء في الوظيفة حتى لو كان غيره أعلم منه، وأعلى مرتبة؛ لأن الغرض أداء الوظيفة وليس القدر الأكبر من العلم، والمنزلة العليا من الشرف؛ ذلك أن موسى اختار أخاه هارون وهو أقل منه علما، ليكون معه في مهمة البيان.

(973) في الآية إشارة إلى أن العالم أو الداعية أو الحاكم إذا يسر الله له من يعينه فلا ينبغي له التخلي عنه، وإلقاء الأمانة كلّها على عاتقه؛ ذلك أن موسى عليه السلام منّ الله عليه بأخيه هارون ليقوم معه بمهمة البيان، فلم يتخلّ عنه، إنما جعله وزيره ومعينه وشريكه.

(974) تشير الآية إلى عدم التشاؤم من المدعوين حتى لو بلغوا في الكفر مرتبة لم يبلغها غيرهم؛ ذلك أن موسى عليه السلام رجا أن يصدقه فرعون وملاؤه مع أنه قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]؛ يؤخذ هذا من قراءة (يصدقوني) بالرفع.

(975) في الآية دعوة للناس عموما، والدعاة خصوصا بأن لا يسألوا المعين والشريك لكل صغيرة وكبيرة، لأن هذا يؤدي بهم مع مرور الوقت إلى التكاسل، والاعتماد على المخلوق ولو في أقل درجات الاعتماد، وهذا ما يولد الشرك الخفي؛ يستفاد هذا من (رداء) التي جات حالا، فأشعرت أنه لا يطلبه في كل زمانه؛ لأن الأصل في الحال أن تكون منتقلة.

(976) في الآية دعوة للعلماء والدعاة إلى الله بأن لا يستهينوا بكيد أعدائهم، فيدخلوا معهم في نقاش، أو يقيموا معهم مناظرات ولا يكثرثون لهم؛ لأن هذا يؤدي بهم في يوم من الأيام إلى المفاجأة بما لا يعلمون، فتضعف هيبتهم أمام أتباعهم؛ يستفاد هذا من خوف موسى من مواجهة فرعون وملئه، مع أن الله أعطاه المعجزات الباهرات.

(977) في الآية إشارة إلى أن الدعوة إلى الله إذا اشترك فيها مجموعة من الدعاة ينبغي أن يكون واحد منهم هو القائد، وصاحب الأمر والنهي، والآخرين أعوانا له وشركاء؛ ذلك أن الله قال لموسى

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ فأشعره أن الدعوة عليه، وأما أخاه -وإن كان شريكاً له- فلا ينبغي أن يخرج عن منهجه؛ ويؤيد هذا أنه لما لم يلحق به حين عادت بنو إسرائيل العجل أخذ بلحيته، وعاتبه على عدم تنفيذ أمره.

(978) في الآية إشارة إلى تحفيز العمال والشركاء بجيرانهم، ومن يكونون معهم قبل ذكر مهماتهم؛ ذلك أن موسى عليه السلام قدم الجوار (معي) قبل المهمة (ردءا)، وهذا التقديم لا يكون عبثاً، ولعل ما أشرت إليه هو الصواب.

(979) في الآية إشارة إلى عرض مؤهلات الذي يراد تكليفه على المسؤول قبل ذكر المهمة التي تناسبه؛ ذلك أن موسى عليه السلام بين مؤهلات هارون ثم طلب من الله أن يكون نبياً، فأشعرنا أن هذا هو المنهج الأمثل للوصول إلى الأهداف.

الآية الخامسة والثلاثون، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ﴾

من الهدايات التي يمكن أخذها من الآية ما يأتي:

(981) في الآية دعوة إلى تأكيد الوعود التي تعطى للناس حتى تطمئن نفوسهم، لأن الله تعالى أكد لموسى وعده بالسين (سنشد) لتطمئن نفسه، ويزول على كل ما يشغل ذهنه¹.

(982) في الآية بيان أن الغلبة والعاقبة لأتباع الله ورسله لا إلى غيرهم²؛ لأن فيها (الغالبون) بالألف واللام المشعرة بالحصر والاختصاص؛ ذلك أن القاعدة البلاغية أن تعريف المبتدأ والخبر يُشعر بالحصر.

(983) تدعو الآية إلى التماسك والتعاقد بين العلماء والدعاة حتى يصيروا كجسم واحد يشد بعضهم بعضاً؛ لأن الله بين أن قوة موسى ستزداد -مع أنه قوي بالمعجزتين- حينما ينضم إليه أخوه هارون³.

(984) تشير الآية إلى أن من كان يدعو إلى الله بيينة، سالكا سبيله، متمسكا بأوامره ونواهيه لن يصل إليه أعداؤه مهما جمعوا من الجنود، وكادوا من الكيد؛ لأن الله نفى وصول فرعون وملئه -وهو الطاغية المتجبر- إلى موسى وهارون، فما دونه نهمون⁴.

(985) تشير الآية إلى أن الغلبة على الأعداء تكون بالعمل، وبذل الأسباب لا بالتفويض لله، ودعائه في الصباح والمساء؛ نعم تكون من الله لكن الله كلف العباد بالأسباب؛ ذلك أن ﴿بِأَيِّتِنَا﴾ يصح تعلقه بقوله: ﴿الْغٰلِبُونَ﴾ فتكون الغلبة بالآيات مع توفيق الله⁵.

¹ ينظر: نظم الدرر: 285/14.

² ينظر: المصدر السابق: 286/14.

³ ينظر: مفاتيح الغيب: 597/24.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 597/24.

⁵ ينظر: جامع البيان: 577/19.

(986) تشير الآية إلى أن الغلبة لا يشترط فيها أن تكون في القوة، بل يكفي أن تكون في الحجة والبرهان؛ لأن هذا هو المقصود من بعثة الرسل؛ لأن الله قال ﴿الْغَلْبُونَ﴾ وقد غلب موسى وهارون ومن آمن بهما فرعون أمام ملئه¹.

(987) في الآية إشارة إلى أن الله يعطى السائلين ما سألوا وزيادة؛ ذلك أنه أعطى موسى أخاه سؤله، وتفضل عليه بالحماية والرعاية فقال له ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ مَا يَتَيْنَا﴾².

(988) في الآية إشارة إلى أن الأخوة بمثابة الرباط الذي يُربط به من كان مكسور اليد أو الرجل مثلاً، فكما أن قوة اليد المكسورة مثلاً غير موجودة فكذلك قوة الشخص بلا أخ في النسب أو في أخ في الدين؛ وأخوة الدين أولى من غيرها³.

(989) تشير الآية إلى أن من أراد الله أن يمن عليه حباه بهيئة عظيمة، تبهر الأعداء، وترغب الأحباب؛ ذلك أن (سلطاناً) هنا بمعنى التسلط، أي أن يصير لموسى وهارون تسلطاً على القلوب، فتهاجمها⁴.

(990) في الآية إشارة إلى أن من آيات رعاية الله للعبد، وحفظه له أن يذهب عن أعدائه التفكير في أذاه فضلاً عن الوصول إليه؛ ذلك أن موسى عليه السلام جعله الله من الغالبين بآياته التي منها صرف فرعون عنه مع قوته وجبروته⁵.

(991) في الآية دعوة إلى تجميع القوة في مكان واحد حتى تكون للمسلمين حصناً حصيناً؛ ذلك أن فيها ذكر العضد الذي هو مركز قوة الإنسان، إضافة قوة أخرى إليه يعطى فائدة تجميع القوات بدل تركها متفرقة⁶.

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 597/24.

² ينظر: التحرير والتنوير: 117/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 117/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 117/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 118/20.

⁶ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 344/10.

(992) في الآية إشارة إلى أن من رزقه الله براهين يدافع بها عن دين الله فقد رزقه جندا لا يغلب، وقوة لا تقهر؛ ذلك أن الله بين أن غلبة موسى ستكون بآيات الله لا بجند وحيش¹.

(993) في الآية إشارة إلى أن أغلب أعمال العبد يمارسها بيده، لذلك اختارها الله من بين أعضاء الإنسان، وخص منها العضد لأنه أقوى عنصر فيها².

(994) في الآية إشارة إلى أن الإنسان محتاج إلى القوة المادية كما هو محتاج إلى القوة المعنوية؛ ذلك أن موسى عليه السلام مكنه الله من القوة المعنوية التي هي العصا واليد البيضاء، فطلب قوة مادية وهي أخوه هارون³.

(995) في الآية دعوة إلى مقارعة أهل الباطل إلى الانتصار عليهم، ولا يكفي مجرد النجاة منهم، ذلك أن الله وعد موسى وهارون بالتغلب على فرعون ولم يقل لهما إنكما ستنجوان؛ لأن النجاة تعني أن الشر مازال قائما بين الناس، بخلاف الغلبة التي تعني زوال جذوره⁴.

(996) في الآية إشارة إلى أن من تسليح بآيات الله -التي منها كلامه المبين- ستكون له الغلبة على الأعداء، والنجاة من مكرهم؛ ذلك أن الله جعل (بآياتنا) بين (فلا يصلون) وبين (الغالبون) فأشعرت أنها سبب في عدم وصول الأعداء، وفي الغلبة عليهم⁵.

(997) في الآية إشارة إلى أن العدو إذا علم أن معك القوة المادية والمعنوية فلا يقرب بساحتك؛ ذلك أن فرعون لم يقتل موسى -وقد كان قتله يكفيه من العناء- لأنه علم أن له عصا تصير حية تتلقف كل شيء⁶.

(998) تشير الآية إلى أن النصر يكون على قدر الاتباع؛ فإذا كان الداعية إلى الله أقرب إلى طريق الله كان النصر منه أقرب، وإن كان أبعد منها يكون النصر منه أبعد؛ لأن الحكم وهو الغلبة علق بمشتق (الاتباع) فيدور مع علته وجودا وعدما⁷.

¹ ينظر: تيسير الكريم المنان، ص: 615.

² نظر: الخواطر: 10921/18.

³ ينظر: المصدر السابق: 10922/18.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 10922/18.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 10922/18.

⁶ ينظر: الباب: 298/15.

⁷ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 172.

(999) في الآية دعوة إلى التعلم والتعليم؛ لأنه سبب لكسب الحجج والبراهين، وكل ما يؤدي إلى محمود فهو محمود¹.

(1000) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله ما دام يسير على نهج الله سيمده ربه ببراهين تؤدي إلى النجاح في دعوته، ووسائل تساعد على إقناع خصمه؛ ذلك أن الله قال لموسى (سنجعل) بالفعل المضارع ليشعره بأنه معه يمدّه بالبراهين ما دام على نهجه.

(1001) في الآية إشارة إلى أن العبرة بكيفية الأدلة لا بكمها وعددها؛ لأن الآيات -وهي جمع قلة في أصل وضعها- مشعرة بأن العدد لا يؤثر، وإنما المؤثر قوتها، ويشهد لهذا لفظ (البرهان) الذي يعد قاطعا لكل عذر.

(1002) في الآية إشارة إلى أن أعداء الله لن يصلوا إلى مبتغاهم من أولياء الله؛ ذلك أن الله أتى ب (إلى) الدالة على الغاية فأشعرت أنهم قد يؤلمونهم لكن لن يصلوا إلى غايتهم منهم.

(1003) في الآية إشارة إلى أن المطلوب هو أن يكون دليل الداعية قويا يحقق الهدف، وقيم الحجة، ولا يشترط فيه أن يكون نقليا أو عقليا؛ لأن فيها (سلطانا) وهو نكرة في سياق الإثبات فأفادت الإطلاق، فكل ما يصدق عليه اسم السلطان فهو داخل في المطلوب.

(1004) في الآية إشارة إلى أن الله قد يمن على بعض عباده بسلطان لا يمن به على غيره ممن يسلك طريقه، فقد يعطي لبعض الدعاة القوة في البيان، ولبعضهم القوة في الإقناع، ولبعضهم القوة في استحضار المتفرقات...؛ لأن الله وعد موسى وهارون بسلطان ولم يعدهم بأنه سيجمع لهم كل الآيات.

(1005) في الآية إشارة إلى أن الذين يغلبون عدوهم، وقيمون الحجة على من خالفهم هم الذين بالغوا في اتباع الأنبياء، فلم يأخذوا بمنهجهم تارة ومنهج غيرهم تارة أخرى؛ إنما قلبهم وقلبهم مع أنبياء الله لا يحيدون عنهم قيد أنملة؛ ذلك أن الله أتى بصيغة الافتعال (اتبعكما) الدالة على المبالغة، والتمكن من منهج النبوة.

(1006) في الآية إشارة إلى أن من سأل ربه العون على مهمة الدعوة سيُسّر له في المعين قريبا؛ لأن الله قال لموسى (سنشد) بالسين الدالة التأكيد، والمشعرة بقرب استجابة الدعاء.

¹ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 173.

(1007) في الآية إشارة إلى أن الغلبة لمن يتبعون الأنبياء بغض النظر عن جنسهم، أو لوهم، أو عرقهم أو لغتهم؛ لأن فيها (من) الدالة على العموم، المشعرة بأن كل من يدخل تحت الاتباع يشملته الحكم.

الآية السادسة والثلاثون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا

سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾

(1012) في الآية دعوة إلى التركيز على المفيد من الكلام وترك غيره الذي قد ترغب فيه النفوس ولا تتعلق به عبثاً؛ ذلك أن الآية طوت ما جرى لموسى بعد نداء الله له إلى أن جاء إلى فرعون لعدم الفائدة المرجوة من وراء هذا¹.

(1013) في الآية إشارة إلى أن المهمة التي يتناولها مجموعة من العلماء ينبغي أن يجعل أمرها إلى واحد منهم، ويبقى الآخرون له تبعاً؛ ذلك أن الله تعالى أرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه، ونسب المجيء بالآيات إلى موسى وحده؛ لأنه هو الرسول الأصلي، وأما هارون فإنه تبع له².

(1014) في الآية إشارة إلى أن الظالمين يُجابهون كل الحجج بأسلوب واحد؛ كأن يتهموا صاحبها بالسحر، أو يصفوه بالجنون، أو ينتقصوا من قدره فيقولون له أنت واحد منا...؛ ذلك أن فرعون وملأه كانوا يقولون عند كل آية جاء بها موسى في مواضع مختلفة: إنها سحر مفتري³.

(1015) في الآية إشارة إلى أن الإيمان بالله رباً مدبراً لهذا الكون فطرة مركوزة في النفوس، لا يستطيع أي شخص دفعها عنه بحال؛ ذلك أن قوم فرعون قالوا لموسى: هذا الذي قتلته سحر من عند نفسك، ثم نسبته إلى الله كذبا وزورا⁴؛ ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: 14].

(1016) في الآية إشارة إلى أن الذي يتهم الداعية، أو يصف ما يدعوا إليه بالأوصاف القاذحة قد قامت عليه الحجة، ولم يجد ما يدافع به عن نفسه إلا التهم؛ ذلك أن قوم فرعون لم يقارعوا حجة موسى، وإنما عمدوا إلى وصفها بالسحر، واتهامها بالنقص؛ لأنها لم تأت عن الأسلاف⁵.

¹ ينظر التحرير والتنوير: 118/20.

² ينظر: المصدر السابق: 119/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 119/20.

⁴ ينظر: الكشف: 411/3.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 411/3.

(1017) في الآية إشارة إلى أن العبرة بظهور الدليل وقدرته على الإقناع لا بكمه وعدده؛ ذلك أن الله أعطى لموسى العصا واليد ثم أتى بهما جمعا في هذه السورة، وأتى بهما مفردا في طه ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: 47] ليشعرنا بأن العبرة بقدره الدليل على الإقناع، لا بعدده¹.

(1018) تشير الآية إلى أن الحيل لا تغني مع الحق شيئا؛ ذلك أن فرعون وملأه لما علموا أن ما جاء به موسى هو الحق المبين عمدوا إلى الحيل كاتهام ما جاء به بأنه مفترى، وليس من قبل موسى، فلم تغن عنهم حيلهم شيئا، وكان عاقبتهم الهلاك والدمار².

(1019) في الآية إشارة إلى أن معنى السحر هو ظهور الشيء في حالة بعد رؤيته على حالة أخرى؛ ذلك أن أنهم وصفوا عصا موسى ويده بالسحر؛ لأنهما يتغيران من حالة إلى أخرى³.

(1020) في الآية إشارة إلى قاعدة مطردة عند الكافرين، وهي نفي علمهم بالله بألستهم، مع الإيقان به في نفوسهم؛ ذلك أن فرعون وملأه نفوا السماع بآيات الله مع أنهم يعلمون أن آباءهم وأجدادهم جاءهم الرُّسل، وحذَّروهم من مغبة الكفران، كما قال تعالى حكاية على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾⁴ [عافر: 34].

(1021) في الآية إشارة إلى "البدعة التي قد أضلت أكثر الخلق، وهي تحكيم عوائد التقليد، ولا سيما عند تقادمها على القواطع"⁵

(1022) في الآية إشارة إلى أن الشيء المتوقع يعتبر كالحاصل، ويُعطى حكمه، فمن ادعى شيئا وعلم أنه سيأتي به في المستقبل يعطى حكم الآتي به؛ ذلك أن الله وصف موسى بأنه جاء فرعونَ بآياتٍ مع أنه أتى بآيتين في الأول؛ لكونه سيأتي بالآيات الأخريات في قادم الزمن؛ هذا بناء على قول

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 55/22.

² ينظر: تفسير القرآن العظيم: 237/6.

³ ينظر: البحر المحيط: 305/8.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 305/8.

⁵ نظم الدرر: 292/14.

من قال: إن الجمع يُقصد به العصى واليد مع الآيات الأخريات¹؛ ولعل تقرير الأصوليين يشهد لهذا، إذ لم يشترطوا في العالم أن يكون عالماً بكل الجزئيات، وإنما صلاحيته لأن يأتي بها متى احتيج إليها.

(1023) في الآية إشارة إلى أن أهل الباطل يسعون لنصرة باطلهم ولو أدى بهم الأمر إلى الاستدلال بأضعف الأدلة، فآل فرعون اعتمدوا على دليل الاتهام بالسحر فلما علموا أنه لا يُقنع أضافوا دليلاً آخر أضعف منه وأهون، وهو عدم السماع عن الآباء².

(1024) في الآية إشارة إلى أن العقبي والنصر للدعاة إلى الله، السالكين سبيل الأنبياء والمرسلين؛ ذلك أن في كلام موسى تلميحاً بأن العقبي له لكونه يدعو إلى الهدى، والأنبياء مثله يدعون إلى ما يدعوا إليه³.

(1025) في الآية دعوة للدعاة بأن يعرضوا عن الجاهلين، فلا يقيمون لهم وزناً، ولا يُعلنون لهم راية؛ لأن موسى عليه السلام أعرض عن قومه - الذين ما طلبوا دليلاً ليُقدمه إليهم، وما سألوا حجة ليعرضها على عقولهم - وتوجه إلى ربه الذي سيكفيه المؤنة جل في علاه⁴.

(1026) في الآية إشارة إلى ضرورة العلم بعُرف الخطاب الشرعي حتى يفهم فهمهما سليماً؛ ذلك أن العقبي في أصل وضعها تطلق على الخير وعلى الشر، إلا أنها في القرآن بين حالتين حالة الإطلاق، وحالة التقييد، فإن قُيدت حملت على المقيّد، وإن أُطلقت انصرفت إلى الخير، كهذه الآية، وقول الله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24].

(1027) في الآية إشارة إلى ذم التقليد، واعتباره وصمة عار في جبين المقلّد؛ ذلك أنها جاءت في معرض ذم فرعون وملئه الذين ردّوا الحق بدعوى أنه غير معروف عند آبائهم وأجدادهم.

(1028) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله إذا كان في مناظرة أو جدال الظالمين عليه أن يظهر للخصم أنه وحده المرعي بالله، والمنصور بتوفيق الله؛ ذلك أن موسى عليه السلام قال: (ربي) بالياء ولم يقل: (ربنا) بنوع الجمع - مع أنه ربه وربهم - ليشعرهم بأنهم يسرون في الهلاك؛ لأن من كان الله معه فهو الرابع الناجي، ومن كان ضده فهو الهالك الخاسر.

¹ ينظر: حقائق الروح والريحان: 192/21.

² ينظر: التفسير الوسيط: 407/10.

³ ينظر: البحر المحيط: 306/8.

⁴ ينظر: في ظلال القرآن: 2694 / 5.

(1029) في الآية دعوة للدعاة والعلماء بأن يختاروا من أسماء الله ما يليق بالمقام، وما يتناسب مع المدعويين؛ ذلك أن موسى اختار من أسماء الله لفظَ الرب المشعرَ بالحماية من أذى فرعون وقومه، ولم يأت بالإله، أو الجبار، أو القهار...؛ لأنها وإن كانت كلها حسنى إلا أنها لا تؤدي في هذا المقام ما يؤديه لفظ الرب.

(1030) في الآية دعوة للعلماء بأن يُظهروا للمدعويين الذين لهم سلطة عليهم، وقهر فوقهم بأنهم محميون بالله، لا يصل إليهم أذاهم وإن جمعوا كل جندهم؛ ذلك أن موسى عليه السلام أرسل لفرعون من خلال لفظ الرب إشارةً بأن الذي ربّاه في قصره صغيراً قادراً على منع أذاه عنه كبيراً.

(1031) في الآية إشارة إلى أن أهل الباطل يأنفون من تسمية الحق باسمه، فيعمدون إلى استعمال ألفاظ تُقلل من ثقّله من شأنه، وإن بلغ من نفوسهم مبلغاً عظيماً؛ ذلك أن فرعون وملائه لم يُسموا عصا موسى ويده معجزة، وإنما استعملوا اسم الإشارة الذي يدل على شيء مبهم، لكونه وقع في نفوسهم موقعاً عظيماً.

(1032) في الآية دعوة إلى النظر في كل ما جاء عن الأسلاف، والأمم السابقين، فما وافق الحق، وشهدت له أدلة النقل والعقل فهو المقبول، وما خالفه، وشهدت عليه أدلة النقل والعقل فهو المردود، كائناً من كان قائله؛ ذلك أن قوم فرعون جعلوا الموروث عن الأسلاف معيارَ الحق، بينما الآية دَمَّتْهم لأجل هذا، وجعلت معيارَ الحق الحجة والبرهان؛ ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170].

(1033) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله لا تبرأ ذمته أمام الله إلا إذا بيّن الحق بالحجج والبراهين حتى يصير في أذهان الناس كالمحسوس الماثل بين أيديهم؛ ذلك أن فرعون وملائه أتوا باسم الإشارة (هذا) الموضوع في الأصل للماثل أمام العين، فأشعرونا بأن حجة موسى واقرة في قلوبهم كالشيء المرئي بأبصارهم.

(1034) في الآية إشارة إلى أنه لا فرق بين قول القائل لم نسمع بهذا عن آبائنا وأجدادنا، وقول القائل لم نسمع بهذا عن علمائنا وأهل طائفتنا؛ لأنهما معا جعلوا المعيار الذي يُقاس به الحق والباطل،

والضلالُ والهدى هو قولُ الخلق، بينما الله ﷻ جعل المعيار هو الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(1035) في الآية إشارة إلى أن الظلم -بشتى أنواعه التي منها الشرك بالله- علةٌ لعدم الفلاح؛ لأن الحكم -وهو عدم الفلاح- علق بمشتق، -وهو الظلم- فأشعر أنه هو العلة.

(1036) في الآية إشارة إلى أن الظالمين لم يفلحوا في الماضي، ولن يفلحوا في الحاضر، ولا المستقبل؛ لأن الفعل المضارع المنفي في قوة النكرة، والنكرة المنفية تفيد العموم في الزمان والمكان والأحوال.

(1037) في الآية إشارة إلى أن الإنسان يعترف داخليا بأنه ضعيف لا حول له ولا قوة، فلا يملك علم المستقبل، ولا يُحيط بعلم الماضي ذلك أن فرعون -وهو المدعي للربوبية- لم يقل: لا يمكن أن يكون هذا في المستقبل؛ لأنه يجزم أنه جاهل به؛ ولم يقل: لم يقع هذا في الماضي؛ لأنه يعلم أنه جاهل بكثير من أمور الماضين، وإنما قال (ما سمعنا)؛ لأن نفي السمع لا يستلزم نفي المسموع.

(1038) في الآية إشارة إلى أن الدعاة إلى الله عليهم أن يتعلموا طرق الإقناع زيادةً على تعلم أحكام الدعوة؛ ذلك أن بعض المدعويين يكون عندهم من الشبه ما يظهر للعيان على أنه أدلة قوية، وبراهين ساطعة، فيحتاج إلى بيان زيفه؛ ذلك أن موسى عليه السلام علم شبهة فرعون التي هي نفي السمع، وأدرك أن نفيه لا يستلزم نفي المسموع، فرد عليه بأن الله وحده الذي يعلم الحق من المبطل، فما كان من فرعون إلا أن زاد من غبائه إذ جمع بين نفي العلم، وإثبات إله لموسى كما في الآية التي بعد هذه.

(1039) في الآية إشارة إلى قاعدة مطردة عند الجاحدين لله وهي نفي العلم، فكما قال فرعون وملائه (ما سمعنا بهذا) يقول الملاحدة في زماننا: لا ندري؛ فيستعملون هذا الأسلوب خوفاً من اللوازم التي تلزم رضوخهم للنقاش العلمي.

(1040) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله ينبغي أن يكون نقي السيرة خالياً من الأدناس ظاهراً وباطناً حتى لا يطعن فيه أعداء الدعوة؛ ذلك أن ملأ فرعون اتهموا ما جاء به موسى بالسحر، ولم يستطيعوا الطعن في أخلاقه، ولذلك لما بحثوا لم يجدوا إلا القتل الخطأ الذي حصل منه فعيروه به، وقالوا له كما حكى القرآن عنهم: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۖ﴾ (الشعراء 18-19).

(1041) في الآية إشارة إلى أن الجدَّ وجدَّ الجد يسمى أبا؛ ذلك أنهم سمو الأجداد آباءً ولم ينكر عليهم القرآن، كما لم ينكر على كفار قريش الذين اعتذروا عن ترك رسالة النبي ﷺ بحجة أن آباءهم لم يكونوا عليها؛ ويشهد لهذا ما في السنة النبوية عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: (أول من يدعى يوم القيامة آدم، فترأى ذريته، فيقال: هذا أبوكم آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك)¹

(1042) في الآية إشارة إلى أن التسليم بالشيء الذي يأتي عن طريق النقل (آحاداً أو تواتراً) معمولٌ به عند الشعوب التي تستند إلى الرسائل السماوية، والشعوب التي تستند إلى القوانين الوضعية؛ ذلك أن ملأ فرعون اعتبروا أن السماع عن الآباء حجة -وهم وإن سمعوا إلا أنهم نفوا خشية أن تقام عليهم الحجة- يجب الانصياع إليها.

(1043) في الآية إشارة إلى أن من علامات فساد الدول والحضارات الاستدلال بالجهال بدل العلماء؛ ذلك أن فرعون وملأه قالوا (آباءنا) ولم يقولوا علماءنا؛ لأن العلماء يزنون الشيء، فيحكمون عليه بحكم يناسبه.

(1044) في الآية دعوة للعلماء والدعاة بأن يستعملوا من الحجج والبراهين ما يعجز عن مقاومته المدعوون حتى يخيل إليهم أن هذا لا يأتي به إلا مسدّد من الله؛ ذلك أن قوم موسى حاروا في ما جاء به، واعتبروه شيئاً لم يسبق لعقولهم مثله؛ يدل هذا تنكيرهم لفظ السحر (سحر)، إذ لو كانوا يعرفون جنس ما جاء به لقالوا (السحر) كما قال هو عليه السلام عن سحرهم: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81].

(1045) في الآية إشارة إلى أن الظالمين عادة ما يكون لهم أنصارٌ يُصَفِّقون لباطلهم وإن علموا أنه باطل؛ ذلك أن فرعون وملأه قالوا عن دعوة موسى: إنها لم يسمع بها الآباء من قبل، فسكت الأشراف مع أنهم يعلمون أن مثل دعوته جاء بها يوسف وغيره طلباً لرضى الحاكم وأعوانه؛ ويشهد لهذا قول مؤمن آل فرعون ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا

¹ صحيح البخاري: كتاب الرقاق: باب: كيف الحشر، 110/8، رقم: 6529.

جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

(1046) في الآية إشارة إلى أن أعداء دعوة الله يصورون لأتباعهم أن ما جاء به الرسل وأتباعهم من الدعاة باطل محض، ولا يمكن أن يكون حقاً بحال من الأحوال؛ ذلك أن ملأ فرعون استعملوا مع موسى أسلوب الحصر بحيث لا يخرج ما جاء به عن السحر المفتري.

(1047) في الآية إشارة إلى أن الساكت عن الباطل، إذا كان قادراً على دحضه يُعتبر مثل القائل به، ويُعطى حكمه؛ ذلك أن الله حكم على الجميع بأنهم ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ، ويبعد أن يكونوا كلهم قالوا هذا في زمن واحد، ومكان واحد، فدل لزوماً على كون بعضهم قال، وبعضهم سكت.

(1048) في الآية إشارة إلى أن أن السحر أنواع: منه ما هو مُدَّعى وليس بسحر على الحقيقة، ومنه ما هو سحر فعلاً؛ ذلك أنهم وصفوه، -لأن الحال صفة في المعنى- والصفة من شأنها أن تقلل الشيوخ، أو تُعَيِّن الملتبس.

(1049) في الآية إشارة إلى أن الحق يُؤثر على نفوس المعاندين، فيسرى في عروقهم كما يسري الدم، يفت في عضدهم ويُظهرون أنهم غير مباينين؛ ذلك أن آل فرعون أتوا باسم الإشارة المشعر بأنه كالمحسوس عندهم، ثم أعادوه مرة أخرى، فأشعرونا بأنه صار همهم، وشغلهم الشاغل.

الآية السابعة والثلاثون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ

تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

(1051) في الآية دعوة للمناظرين عن دين الله، الواقفين في وجه أعداء الله بأن يستعملوا في خطابهم التهديد الخفي، فيطلقوا كلاماً ظاهره تفويض العلم لله؛ وباطنه التهديد بعقاب الله؛ ذلك أن موسى لما وجد إعراضاً من قومه قال ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فأشعر قومه وقوم فرعون - بطريق خفي - بأن العاقبة ستكون له، ولمن سار على طريقه¹؛ ويشهد لهذا أمر الله تعالى لنبينا محمد ﷺ بأن يقول: ﴿وَأَنَا أَوْ إِلَيَّا كُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: 24].

(1052) في الآية إشارة إلى أن الشيء الخارج عما وُضع له في الأصل يعتبر ملغياً غير معتد به، كأنه غير موجود؛ ذلك أن (عاقبة الدار) أطلقت، وقُصد بها عاقبة الخير، مع أنها تكون في الخير وفي الشر؛ لأن الله وضع الدنيا في مقابل الآخرة ليعمل الناس فيها الخير قصد وجود ثوابه في الآخرة، فمن عمل فيها خلاف الخير، وكان جزاءه الشر اعتبر فعله كأنه غير موجود، وكذلك عاقبته².

(1053) في الآية إشارة إلى أن العبرة باطمئنان النفوس لا بما تأكله الأبدان، أو تنظر إليه الأبصار؛ ذلك أن الله قال: ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ، ويريد كما قال ابن عباس : "لا يسعد من أشرك بالله"³.

(1054) في الآية دعوة للنظر إلى الدنيا من أجل مقارنتها بالآخرة؛ لأنها خلقت لأجلها ولم تخلق لذاتها؛ ومن كان هذا شأنه لزم النظر فيه إلى الأصل والفرع حتى تكون الرؤية صحيحة، والنتيجة مرضية⁴.

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 598/24.

² ينظر: المصدر السابق: 598/24.

³ ينظر: التفسير البسيط: 397/17.

⁴ ينظر: أنوار التنزيل: 178/4.

(1055) في الآية إشارة إلى أن أعظم طريقة لإقناع الناس الذين لديهم حسُّ التفكير هي عرض الحق مع الباطل، وحكاية قول أهل الحق، وقول أهل الباطل حتى يقارنوا بينهما¹، لأنه متى جُمعا كان الحق أظهر كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81] ذلك أن الله تعالى حكى لنا ما قال فرعون، وما قال موسى لكي نقارن بينهما، وندرك الطريق الصحيح.

(1056) في الآية إشارة إلى أن الناس أكثر اقتناعا بالقول الذي ينسب إلى الله منه إذا نسب إلى النفس؛ ذلك أن موسى قال ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ ليطمئن السامعين بأن ما أتى به لا يخالطه ريب، ولا يتسرب إليه شك².

(1057) في الآية إشارة إلى أن القائل إذا أطلق قولاً له وجهان: أحدهما له، والآخر عليه، فالغالب أنه يقصد الذي له دون الذي عليه؛ ذلك العاقبة هي التي تكون عقب الشيء، سواء أكانت خيراً أم شراً، لكن لما كان الإنسان يقصد بها الخير دون الشر استعملها القرآن فيه وحده³.

(1058) في الآية إشارة إلى الظالمين يسيرون بلا منهج، فلا يعرفون موضع القدم، ولا سبيل المخرج⁴؛ لأن الأصل الثلاثي للظالمين (ظلم) له أصلان يرجع إليهما، الأول: الظُّلْمَة، والثاني: وضعُ الشيء في غير موضعه، والظالمون جمعوا لأنفسهم، أو للعباد بين الظلمة في المنهج، ووضع الأشياء في غير مواضعها والله أعلم.

(1059) في الآية إشارة إلى بعض علامات صدق الأنبياء، وأمارات صدق الدعاة، وهي السيرة المرضية، وتطابق القول مع الفعل؛ ذلك أن عبارة موسى عليه السلام يُفهم منها أن فرعون وملاه لا يمكن أن يكون الهُدى معهم لأنهم ظالمون، بينما يكون مع موسى؛ لأنه باعترافهم من مرضي السيرة، وطاهري السيرة؛ ولذلك تفتنوا لهذا وقالوا كما في آية أخرى ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: 19] ليدفعوا بهذا الحجة التي قدمها لهم⁵.

¹ ينظر: نظم الدرر: 292/14.

² ينظر: المصدر السابق: 293/14.

³ ينظر: المصدر السابق: 294/14.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 294/14.

⁵ ينظر: تفسير النسفي: 643/2.

(1060) في الآية إشارة إلى أن الدعاة ينبغي أن يتجنبوا وصف الناس بما فيهم من صفات قبيحة وإن كانت ظاهرة يعرفها القاصي والداني؛ ذلك أن فرعون معلومٌ عنه البغي والعدوان، والكفر والطغيان، ومع ذلك لم يقل له موسى حين وصف ما جاء به بالسحر: إنك أنت الظالم، وأنت الفاجر الذي يكون له الهلاك والدمار¹.

(1061) في الآية دعوة للعلماء لأن يستعملوا حجج الأنبياء في الإقناع؛ وذلك بأن يردوا على الذين يتركون الدعوة بحجة أن الآباء لم يعلموا بما بأن الله يعلم بها، وأين يقع علم الآباء والأجداد مقابل علم الله تعالى².

(1062) في الآية دعوة للعلماء بأن يجعلوا كلام الله مقدما على سائر كلام الخلق؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما شعر بإعراض قومه عنه لم يقل إن هارون يعلم هذا إنما قال ﴿رَبِّتْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ ليشعرهم بأن علم الله لا يحيط به أي مخلوق³.

(1063) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله ينبغي أن يعلن أنه يثق بربه الثقة المطلقة ليفت في عضد المعاندين؛ ذلك أن موسى لما رأى الإعراض من قومه قال ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٧) ليشعرهم بأنهم يسيرون في طريق الهلاك⁴.

(1064) في الآية إشارة إلى أن الشيء الواحد الذي ينفيه طرف ويثبته طرف يكون الحق مع أحدهما قطعاً؛ ذلك أن موسى يدعي النبوة، وفرعون يُنكرها فكان لزاماً أن يكون الحق مع أحدهما وهو موسى عليه السلام⁵.

(1065) في الآية إشارة إلى جواز المباهلة؛ ذلك أن موسى عليه السلام لما جُوبه بالإعراض فَوَّض الأمر إلى الله؛ وقد استعملها النبي ﷺ مع وفد نجران⁶.

¹ ينظر الهداية إلى بلوغ النهاية: 8/ 5535.

² ينظر التحرير والتنوير: 119/20.

³ ينظر المصدر السابق: 121/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 119/20.

⁵ ينظر: التفسير القرآني: 347/10.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 347/10.

(1066) في الآية دعوة للدعاة والعلماء الذين يسعون لإخراج الناس مما ألفوا من الباطل بأن يُلينوا لهم في الكلام حتى لا يزيدوهم قسوة الكلام على قسوة ترك المؤلف؛ ذلك أن موسى عليه السلام لم يقل لفرعون أول الأمر: أنتم على الباطل المحض، وأنا على الحق البين؛ إنما قال ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾ حتى يفتح صدره لما يلقي إليه من حجج وبيّنات؛ وقد جاء التصريح بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ وَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 44] 1

(1067) في الآية إشارة إلى أن سلك طريق القسوة في الدعوة يُولد هيجاناً ولدداً عند المخالف، فيصير معانداً لأجل العناد فقط، بحيث يرى الحقَّ ويعلم أنه الحق ثم يُنكره ويحده؛ لذا سلك موسى مع فرعون وملئه طريق اللين²؛ وقد أمر الله بهذا نبيه ﷺ -وهو اللين نفسه، والرحمة عينها في الدعوة- بأن يدعو بالحكمة فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

(1068) في الآية دعوة للدعاة إلى الله بأن يجعلوا صدورهم متسعة، وقلوبهم رحيمة، فلا يردون على المخالف بما يليق بكلامه، إنما بما يليق بحاله، فموسى عليه السلام لما اتهم بالسحر كان بإمكانه أن يرد عليهم -وهو محق- بقوله: أنتم السحرة، وحماة السحر، لكن سلك معهم ما يليق بحال الجهال، والبعيدين عن هدي الله فقال بكل أدب ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾³.

(1069) في الآية دعوة للعلماء بأن يعرضوا الحق في أبهى صوره، ويتركوا للعقول مهلة تفكر فيه، لتقارن بينه وبين ما عندها مما هو موروث عن الآباء والأجداد، فإن فعلت فستهتدي إليه بما غرس الله فيها من تمييز بين الحق والباطل، والضلال والهدى⁴.

(1070) في الآية دعوة للعلماء والدعاة إلى الله بأن يجعلوا المدعوين كالمريض، وأنفسهم كالأطباء، فيبحثون لهم عن دواء مناسب، ولا يبادلوا صراخهم بصراخ مثله أو أشد منه؛ ذلك أن موسى عليه

¹ ينظر: الخواطر: 18/ 10923.

² ينظر: المصدر السابق: 18/ 10923.

³ ينظر: المصدر السابق: 18/ 10924.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 18/ 10924.

السلام نظر إلى داء فرعون وملئه المتمثل في الكفر والعناد، ولم ينظر إلى صراخه المتمثل في السب والشتيم والتنقيص، فأعطاه العلاج المناسب، وهو النظر إلى ما يدعو إليه، وما هو عليه وملؤه.¹

(1071) في الآية دعوة للعلماء بأن يستعملوا مع المدعويين حجج العادة التي جرت بإهلاك الظالمين، ونجاة المتقين، لأن هذا مما تناقلته الأجيال، وعلم لدى الصغار والكبار؛ لذلك قال موسى لفرعون بعد أن جعل الحق مترددا بينهما -ظاهرا- ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، فأشعره أن الهلاك محقق به إن بقي على حاله.²

(1072) في الآية إشارة إلى أن الظالمين، يسعون للحصول على مطلوب ولا يجِدونه، وللنجاة من محذور ولا يسلمون منه؛ ذلك أن الإنسان بطبعه يسعى لهذه الأمور، فنفي الفلاح عنه يدل باللزوم على ضد المراد.³

(1073) في الآية إشارة إلى أن الحق إذا جاء يجب قبوله، سواء كان عند الأولين أم لم يكن؛ ذلك أن الآية جاءت في معرض ذم آل فرعون على ردهم الحق الذي لم يكن عند آبائهم الأولين -زعموا-⁴.

(1074) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله ينبغي أن لا يستسلم ويترك الدعوة بمجرد نعتة بالنعوت القبيحة، واتهامه بما ليس فيه؛ فهذه عادة أعداء الحق، وقد سلكوها قبل من هم خير منا علما وخلقاً فلم يستسلموا، فكانت العقبي لهم، وما علينا إلا السير على طريقهم، والصبر كصبرهم، وستكون العقبي لنا كما كانت لعهم.⁵

(1075) في الآية إشارة إلى جواز تنزل الداعية مع المعاند، فيسلم له بأمور جدلاً حتى يتوصل بها إلى أمور أعظم منها؛ ذلك أن موسى تنزل على علمه بأنه على الهدى المطلق، وجعله مشتركاً ليدفع الطرف الآخر إلى إعادة النظر في عناده.⁶

¹ ينظر: الخواطر: 18/10924.

² ينظر تفسير المراغي: 58/20.

³ ينظر: حقائق الروح والريحان: 193/21.

⁴ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 177.

⁵ ينظر: المصدر السابق ص: 179.

⁶ ينظر: المصدر السابق، ص: 185.

(1076) في الآية إشارة إلى أن الداعية ينبغي أن يكون موقناً بأنه على الحق، وألا يسمح للشك أن يترسب إلى نفسه بحال، وحتى في حال المناظرة التي تتطلب الانطلاق من نقطة متفقٍ عليها ينبغي أن يأتي بكلام ظاهره الشك بما عنده، وباطنه اليقين ببطان ما عند خصمه؛ ذلك أن موسى قال: ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ﴾¹ ويقصد كما قال مقاتل "أنا الذي جئت بالهدى من عند الله".¹

(1077) في الآية تنبيه للدعاة بأن يفوضوا أمرهم إلى الله، ويجعلوه شاهداً عليهم إذا أدوا المهمة ولم يهتدِ الناس بهديهم؛ ذلك أن موسى -وهو المؤيد بالمعجزات- أرجع الأمر إلى الله ﷻ عند أدائه المهمة، ويؤيد هذا فعل النبي ﷺ في حجة الوداع، إذ قال بعد البيان: اللهم فاشهد.

(1078) في الآية إشارة إلى أنه لا يكفي الداعية أن يأتي بالحجج الشاهدة على صدقه، بل لا بد أن تكون تلك الحجج واضحة لا لبس فيها ولا خفاء، بحيث تُقيم الحجة على كل من سمعها، أو رآها؛ ذلك أن الله وصف الآيات التي جاء بها موسى بالبينات، أي: التي لا تبقى أي لبس، ولا تترك أي شك.

(1079) في الآية إشارة إلى أن عيش الظالمين وسط نعم الله لا يعد فلاحاً، ولا يُعتبر أصحابه من المفلحين؛ ذلك أن موسى حكم على الظالمين بعدم الفلاح مع أن فرعون وملأه كانوا يعيشون في بحبوبة النعم كما قال تعالى حكاية عن فرعون ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَفْلاكُ تَبْصُرُونَ﴾ [الزخرف: 51].

(1080) في الآية إشارة إلى أن كثرة رؤية الناس لتقلب الظالمين في نعيم الدنيا تجعلهم يتخيلون -بوعي أو بدونه- أن الظالمين سيصاحبهم النعيم أبد الدهر؛ ذلك أن الله أكد عدم فلاح الظالمين الذين منهم فرعون وملؤه ليشعرنا بأن الناس كانوا شاكين، أو جازمين بأن نعيمه وملئه لا يزول.

(1081) في الآية إشارة إلى أن آيات الله عظيمة الشأن جليلة القدر، حري بالمرء أن ينظر فيها، ويتأمل في أسرارها؛ لأنها هادية للحيارى، ومرشدة للضلال؛ هذا؛ لأن الله أضافها لنفسها تعظيماً لشأنها، وتفخيماً لأمرها.

¹ ينظر: التفسير البسيط: 397/17.

(1082) في الآية إشارة إلى أن الناس بفطرتهم يعتقدون أن الله أعلم بحال العباد من غيره، ولا يخطر ببال أحد منهم نفي العلم عنه جلا جلاله - لا الجزئيات ولا الكليات - إلا من فسدت فطرته بعلم الكلام، أو تقديس الأشخاص؛ ذلك أن موسى أخبر عن علم الله دون مؤكدات، لأن الأصل في الكلام أن يُلقى بدونها.

(1083) في الآية إشارة إلى أن هُدى الله معلوم، يُدركه الخلق كما يدركه الخالق، ذلك أن موسى أتى ب (أفعل) التفضيل التي تدل على مشاركة أمرين في الصفة مع زيادة عند أحدهما.

(1084) في الآية إشارة إلى أن المدعويين يكون اتباعهم الدعوة أتمّ و وأكمل إذا حفزوا على البحث عن الحق بأنفسهم؛ ذلك أن موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّبْ أَعْلَمُ﴾ ليدفعهم إلى البحث عن الحق بأنفسهم ليكون يقينهم به جازما.

(1085) في الآية إشارة إلى أن الهدى لا ينبغي أن ينظر فيه إلى الذي جاء به، أذكر أم أنثى؟ أعربي أم عجمي، وإنما نظر إلى الهدى في حد ذاته؛ ذلك أن موسى أتى ب (مَنْ) الدالة العموم، فكأنه يقول لهم لا تنظروا إلى أصلي الإسرائيلي، أو إلى أي كنت ضعيفا في بيتكم، وإنما انظروا إلى الحق الذي أتيتكم به.

(1086) في الآية إشارة إلى ذم الظلم مطلقا، سواء تعلق بالله، أو بالخلق أو بالناس؛ لأن نفي الفلاح لا يكون إلا لمذموم، والمذموم هنا هو: الظلم الذي حذف متعلّقه فعمّ الجميع، فكأن الآية تقول: إن جنس الظلم لا يفلح المتصف به.

(1087) في الآية إشارة إلى أن علم الله لا يتغير مع الزمان، ولا يُؤثر فيه المكان؛ فهو صفة قائمة بذاته، متصفة بالكمال، ومنزهة عن النقص؛ دلّ على هذا: الجملة الاسمية الدالة على الثبوت وال لزوم.

(1088) في الآية إشارة إلى أن الهدى واحد لا يتغير من نبي إلى آخر، ومن زمان إلى زمان؛ ذلك أنه جاء في الآية بالألف واللام الدالتين على العهد، أي المعهود في الأذهان. والأصل في الكلام العربي أن يأتي نكرة، ولا يُعدل عنها إلا لمعنى بلاغي، ولعل ما قلته هو المقصود من هذا العدول؛ ويؤكداه قول الله ﴿قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: 120].

(1089) في الآية إشارة إلى أن عاقبة الدار تكون للمؤمنين دون غيرهم؛ ذلك أن موسى عليه السلام أتى باللام الدالة على الاختصاص، فأشعرهم أن العاقبة لفريق واحد، وبالطبع سيكون فريق المؤمنين.

(1090) في الآية إشارة إلى أن الناس عادة ما يفكرون في دار الدنيا فقط حتى صارت الآخرة عندهم في حكم العدم؛ ذلك أن موسى عليه السلام عرّف الدار بالألف العهدية؛ لأن دار الدنيا هي التي يسعى أغلب الناس لتكون للعاقبة لهم فيها.

(1091) في الآية إشارة إلى أن الملل كلها، والنحل جميعها تُقر بأن عاقبة الظالمين هي الهلاك والدمار؛ ذلك أن قوم موسى أقرّوه على قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

(1092) في الآية إشارة إلى أن الظالمين لن يفلحوا وإن تغير الزمان والمكان، والأحوال وطرائق الظلم؛ ذلك أن (الظالمون) محليّ بالألف واللام المشعرتين بالعموم، فعم الحكم كلّ من اتصف بالصفة.

(1093) في الآية إشارة إلى أن علة عدم الفلاح هي الظلم؛ لأن الحكم بُني على وصف، فأشعر أن الوصف هو علة الحكم، كما هو معلوم عند الأصوليين في مسلك الإيماء.

(1094) في الآية إشارة إلى أن الهدى قديم، وُجد منذ نزول آدم إلى الأرض، وأن عاقبة الدار تتجدد كلما دعا الأمر إلى ذلك؛ لأن الهدى عبّر عنه بالفعل الماضي المشعر بوقوع الحدث، والعاقبة عبر عنها بالمضارع المشعر بأن هذه سنة تتجدد مع الزمان والمكان.

الآية الثامنة والثلاثون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْلِكُنْ عَلَى الظِّلِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

(1096) تشير الآية إلى أن نفي وجود الإله مستحيل، ولن يستطيع أي شخص الجزم به؛ فهذا فرعون الذي بلغ به الجبروت مبلغا عظيما نفى علمه بالإله، ولم ينف وجوده؛ والدليل على هذا أنه طلب من هامان أن يبيّن له صرحا ليتأكد من وجود إله موسى¹.
(1097) في الآية إشارة إلى أن الدهريين الذين ينفون وجود خالق لهذا الكون يُثبتون في الوقت نفسه إلها آخر، فيقعون في التناقض البيّن؛ ذلك أن فرعون نفى علمه بوجود الإله، وأثبت في الآن نفسه الألوهية له².

(1098) في الآية إشارة إلى أن الجابرة، ومنكري الإلهية إنما إنكارهم على ألسنتهم، وأما قلوبهم فتوقن عين اليقين أنهم كاذبون في أقوالهم، وأن الرسل صادقون في دعواهم؛ ذلك أن فرعون طلب من هامان أن يبيّن له صرحا عظيما ينفق فيه مالا كثيرا، ويصرف فيه جهدا عظيما، فلو لم يكن موقنا، أو على الأقل ظانا ظنا قويا لما قام بكل هذا³، ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:14].

(1099) في الآية إشارة إلى أن الجهل بصفات الله يجعل صاحبه يتعامل مع الإله كتعامله مع المخلوقين؛ فهذا فرعون لما جهل ما يليق بالله من صفات الكمال، وما يُنزّه عنه من صفات النقص جعل رب العالمين كالمخلوقات، له مكانٌ يستقر فيه، يمكن لمن أراد قتاله أن يصعد إليه تعالى الله عن هذا علوا كبيرا⁴.

(1100) في الآية إشارة إلى أن طاعة الملائكة للطغاة تكون إما لفرط الغباوة، أو للخوف من ضياع المصلحة، فالطغاة عادة ما يختارون أغبي الناس ليكونوا بجانبهم، أو أشدهم حفاظا على مصالحهم وإن

¹ ينظر: التفسير المظهر: 165/7.

² ينظر: المصدر السابق: 165/7.

³ ينظر: الكشف: 414/3.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 414/3.

أفرطوا في ذكائهم؛ ذلك أن فرعون أمر ملأه ببناء الصرح الذي يصعد به إلى إله موسى فأطاعوه، وهذا لا يكون إما لفرط غباوتهم التي تجعلهم يظنون الوصول إلى الله، أو لخوفهم على مصالحهم¹.

(1101) في الآية إشارة إلى أن الجبايرة عادة يعظمون وزراءهم أمام الناس، لتدفعهم الحمية إلى الطاعة المطلقة؛ ذلك أن فرعون نادى هامان بالياء الدالة على التعظيم، ليتحمس لبناء الصرح، ولا يُعارض بعدم الإمكان، أو استحالة الوقوع².

(1102) في الآية إشارة إلى أن عدم العلم بالشيء لا يلزم منه نفيه، ففرعون لم ينف وجود الإله، وإنما نفى العلم بوجود الإله³.

(1103) في الآية إشارة إلى أن الطغاة عادة ما تمر عليهم وسائل العبرة فلا يعتبرون، حتى يأتي يوم هلاكهم فيندمون ولات ساعة مندم؛ ففرعون حاج موسى فحاجه، وطلب منه البينة فأعطاهم له؛ ثم تعجرف وتكبر، ولجأ إلى قوته ناسيا قوة ربه، فنادى هامان بأن يقوم بما يعلم أنه لا يستطيعه⁴.

(1104) في الآية إشارة إلى أن منكري الربوبية يعلمون قطعا أن أهدافهم لا يصلون إليها بإرادتهم، وإنما بقدره وتدير مسير هذا الكون الذي هو رب العالمين، فتكون أقوالهم مناقضة لحقيقة ما يعتقدون؛ ففرعون أتى ب (لعل) الدالة على الترجي في أصلها، ولم يأت بما يدل على اليقين؛ لأنه يعلم في قرارة نفسه أن وصول السماء لا يقدر عليه بمفرده⁵.

(1105) في الآية إشارة إلى أن الطغاة يسعون لتضليل رعيته عن الحقيقة لكي لا يقتنعوا بها، حتى إن دعا الأمر إلى تأخير هذا الاقتناع إلى وقت ما؛ ففرعون يعلم أن قوله: (هو الإله) لا يتم الاقتناع به، ولكنه يسعى لبقائهم تحت التخدير حتى يجد حلا آخر⁶.

¹ ينظر: الكشف: 414/3.

² ينظر: المصدر السابق: 415/3.

³ ينظر: مفاتيح الغيب: 599/24.

⁴ ينظر: البحر المحيط: 306/8.

⁵ ينظر: المحرر الوجيز: 288/4.

⁶ ينظر: نظم الدرر: 294/14.

(1106) في الآية إشارة إلى أن الطغاة عادة ما يستعملون الألفاظ القاطعة حتى لا يبقى مجال للنظر، وإعادة التفكير، وفرعون لم يكتف بالعموم الظني (نفي العلم بالإله)، وإنما أتى بلفظ قطعيّ الدلالة على نفي العلم، وهو (من) الزائدة في سياق النفي المشعرة بنفي أي احتمال في قوله¹.

(1107) في الآية دعوة لولاة الأمور بأن ينسبوا الأمور التي لرعايتهم إليهم حتى يقوم بها الجند أتم قيام، وينفذونها في الزمن المطلوب؛ ذلك أن فرعون أضاف الإيقاد والصرح إلى نفسه ليُحمسهم على الجد والمثابرة، ويزرع فيهم روح التفاني الذي يجعل العمل في أحسن حال².

(1108) في الآية إشارة إلى أن الجبابرة قد ينطلقون من المقدمات الصحيحة، ويُرَكَّبون معها مقدمة فاسدة لا يتفطن لها العوام ليتوصلوا بها إلى إثبات ما يريدون، أو نفي ما لا يريدون؛ فرعون انطلق من مقدمة صحيحة، وهي أن الإله الذي يدعو إليه موسى لا توجد مواصفاته في الأرض، وركب معها مقدمة أخرى وهي لو كان موجودا لزم أن يكون في السماء، من هنا طلب من هامان بناء الصرح المساعد على الصعود³.

(1109) في الآية إشارة إلى أن الطغاة الذين يعرفون أنهم ينهزمون أمام حجج الدعاة يقطعون المحاورة، ثم يُقبلون على أمر آخر يقيهم من الفضيحة؛ ذلك أن موسى لجأ إلى فرعون بالبيّنات فلم يكمل معه الحديث في الأخذ والرد، وإنما توجه إلى الملأ وغيّر المخاطب، وموضوع الخطاب، حيث كان في الأول مع موسى يناقش حجج إثبات الإله، فأصبح مع ملئه يطلب منهم البناء⁴.

(1110) في الآية إشارة إلى أن الطغاة الذين يريدون أن تدين لهم رعايتهم على باطلهم يظهرون عليهم بمظهر الطالب للحق، الباحث عنه في كل العوالم، حتى يغتروا بهم، ويحفز بعضهم بعضا؛ ذلك أن فرعون أظهر لقومه أنه لم يعلم وجود إله في الأرض، وأنه سيصعد إلى السماء ليتأكد من عدم وجوده فيها أيضا⁵.

¹ ينظر: نظم الدرر: 295/14.

² ينظر: المصدر السابق: 295/14.

³ ينظر: المصدر السابق: 294/14.

⁴ ينظر التحرير والتنوير: 121/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 121/20.

(1111) في الآية إشارة إلى أن الطغاة يواصلون الليل بالنهار، ويبدلون الغالي والنفيس من أجل الوصول إلى أهدافهم؛ ذلك أن فرعون ذكر أنه لن يدخر وسعا ليصل إلى إله موسى الذي سيخرب عليه ملكه، ويُعرضه للمذلة أمام عدوه، لذا أتى ب (أَطْلَع) ولم يأت ب (أَطْلَع)¹.

(1112) في الآية إشارة إلى أن الطغاة والجبابرة لا يهتمهم كون الشيء صالحاً أو غير صالح، وإنما يسعون لقضاء مصالحهم به؛ ذلك أن فرعون لم يأمر هامان ببناء الصرح من حجر وكلس ليكون أقوى وأمتن، وإنما من طين؛ لأنه أعجل في تحقيق المراد².

(1113) تشير الآية إلى أن أهل الضلالة إنما يبنون عقائدهم على التخيل والتوهم، وليس على النصوص النقلية، والأدلة العقلية؛ ذلك أن فرعون توهم ومعه أتباعه أن الله له مكان في السماء، كما لهم هم مكان في الأرض³.

(1114) تشير الآية إلى أن الطغاة يستعملون مع أتباعهم أسلوب التهديد بالحياة السوداء، فيقررون في نفوسهم ألا تفكير بدون تفكيرهم، ولا نظر بدون نظرهم؛ فهذا فرعون يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ليقنعوا بأن الحياة بدونهم ضئيلة وجحيم لا يطاق؛ وهذا الأسلوب سار حتى في عصرنا، فإذا طالب داعية أو مصلح من سيّد إصلاح أوضاع بلاده نادى بأن الحياة ستكون أسوأ بدونهم حتى يرضخوا لأمر الواقع⁴.

(1115) تشير الآية إلى أن الطغاة يسوقون أقوامهم بالترغيب والترهيب، فينادونهم بكلام ظاهره الترغيب والاحترام، وبباطنه التهديد والوعيد؛ ذلك أن قول فرعون ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ تهديد لهم، فكأنه يقول لهم: لا تصدقوا موسى، ولا تتبعوا طريقه، فأنا الإله القوي الذي سينتقم منكم إن فعلتم⁵؛ ويؤكد هذا تصريحه للسحرة بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جذوع النخل...

¹ ينظر: المصدر السابق: 121/20.

² ينظر التحرير والتنوير: 121/20.

³ ينظر التحرير والتنوير: 123/20.

⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 348/10.

⁵ ينظر: الخواطر: 10927/18.

(1116) تشير الآية إلى أن من علامات الظلمة وأعوانهم البدار إلى الحكم على الشيء قبل اكتمال البحث عنه، وصدور النتائج في حقه؛ ففرعون وعدّ قومه بأنه سيبحث عن إله موسى، أموجوداً أم أن موسى كاذب، وقبل الذهاب -ولن يستطيع- بادر إلى الحكم عليه بالكذب ليقطع الطريق على البحث الذي يفضحه ويفضح ملأه¹.

(1117) في الآية إشارة إلى أن من يتكبر بشيء ليس له، فيه شبهة بفرعون؛ لأنه تكبر على قومه بشيء ليس له، وهو الملك الذي يهبه الله لمن يشاء، وينزعه عمن يشاء، ولا يوجد للمخلوق شيء محض، فكل ما عنده لله، من هنا لزم انتفاء صفة الكبر عن الخلق أجمعين².

(1118) في الآية إشارة إلى أن من أسباب الكبر نقصان الإيمان؛ ففرعون تكبر على قومه لأنه لا يؤمن ظاهرياً بالله رب العالمين -وإن كان يوقن به في الباطن-³.

(1119) في الآية إشارة إلى أن طريقة الذين يريدون غرس عقائدهم الفاسدة، أو نشر أفكارهم المنحرفة بين الناس هي الانطلاق من شيء ظاهره الإنصاف حتى تكون قلوب السامعين مهياً للتصديق، وعقولهم مستعدة للتأييد؛ ذلك أن فرعون مهّد لقومه بأنه بحث في الأرض كلّها فلم يجد الإله، وسيطلع إلى السماء ليتأكد من عدم وجوده، كل هذا ليتمكن من تصديق قومه له، وقد نجح⁴.

(1120) في الآية إشارة إلى أن الطغاة يجمعون بين الموروث عن الآباء والأجداد، وبين السوط الذي يُسكت كلّ لسان، ويُخضع كل معارض؛ ذلك أن فرعون ذكّر قومه بما ألفوه من تأليه الملوك، واستعمل قوته في بناء الصرح، فما كان منهم إلا أن سلّموا له، واقتادوا لأمره⁵.

(1121) تشير الآية إلى أن من بين أساليب أعداء الدعاة السخرية من أقوالهم، أو حتى من

خلقتهم؛ ذلك أن فرعون سخر من موسى بقوله لهامان ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْمُنْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي

¹ ينظر: الخواطر: 18/ 10927.

² ينظر: الخواطر: 18/ 10928.

³ ينظر: الخواطر: 18/ 10928.

⁴ ينظر: حقائق الروح والريحان: 21/ 194.

⁵ ينظر: في ظلال القرآن: 5/ 2694.

صَرَخًا لَعَلَّ أَطْلُعَ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٣٨﴾ هذا بناء على أنه لم يَبين الصرح، وإنما استهزأ وهدَّد¹.

(1122) تشير الآية إلى فطرة فطرها الله في الناس، وهي عبادةُ الخالق، وطاعته فيما يأمر وينهى؛ ذلك أن فرعون انطلق من المسلّم ليقرر أن كلامه يجب أن يُجاب سواء أكان أمرا أو نهيا².
(1123) في الآية إشارة إلى أن دلالة اللزوم كان معمولاً بها منذ القدم؛ ففرعون خاطب ملأه بأنه إلههم، فدل خطابه لزوما على أنه إله من دونهم من الرعية³.

(1124) في الآية إشارة إلى أن من طرائق تمكن الظالمين من زمام الأمور إغداق النعم على أولي الفكر والنهي حتى لا يُيطلوا مشروعاتهم ويتقضوا بنيانهم الذي أسس على الباطل والتدليس؛ ذلك أن فرعون نادى الأشراف باسم التعظيم الذي يجعلهم يشعرون بالتميّز ليمرر مغالطته على الشعب، ويُسكت ذوي العقل والنهي عن التعقيب⁴؛ وخير مثال ما نراه في واقعنا من امتداد يد الطغاة إلى فضلاء الناس وعقلائهم ليكونوا في حاشيتهم، وينتظروهم حتى يشعروا بالخروج من الوضع الذي كانوا فيه —أي وضع الفقر، والسير مع العامة— ويألفوا النعيم، ثم يطالبونهم بالسكوت عن جرائمهم، أو تأييد أقوالهم الباطلة، فإن رفضوا هددوهم بسلب ما ألفته نفوسهم، وإذلالهم أمام من كانوا دونهم، فيصبحون بين المطرقة والسندان، وغالبا ما يسقطون في الشباك، نسأل الله السلامة والعافية، والخروج من الدنيا غير مبدلين ولا محرفين.

(1125) تشير الآية إلى أن الطغاة عادة ما يُقَسِّمون الخدم، فيجعلون بعضهم فوق بعض حتى يخاف كل واحد منهم مما يليه، ويجعلوا عليهم واحدا يُعتبر اليد اليمنى للطاغية؛ ذلك أن فرعون جعل له ملأ، إلا أنه جعل هاما هو السيد، يقوم مقامه، حتى يكون الجميع طوع يده⁵.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 5/ 2694.

² ينظر: معارج التدبر: 401/9.

³ ينظر: المصدر السابق: 401/9.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 402/9.

⁵ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 188.

(1126) تشير الآية إلى أن الطغاة ينطلقون من شيء وقع في الكون حقيقة لينفوا به حقيقة أخرى، ولا يشعر السذج من الناس؛ ذلك أن فرعون انطلق من كذب بعض الناس في دعوى النبوة، لينفي به نبوة حقيقية هي نبوة موسى عليه السلام¹.

(1127) تشير الآية إلى أن الفخار أقوى في البناء من الطين غير الموقد عليه؛ ذلك أن فرعون لم يأمر ببناء الصرح من طين مطلق، وإنما ببنائه من طين مفخر، فدل على أنه الأقوى².

(1128) في الآية إشارة إلى أن الجبابرة يسعون للاستحواذ على كل مقدرات الأمة، لتكون لهم خالصة، ويكون الأشراف لهم فيها تبعاً؛ ذلك أن فرعون أتى باللام الدالة على الاختصاص، وأعادها مرتين ليقرر لرعيته أن الملك ملكه، وأن الشعب عبيده.

(1129) تشير الآية إلى بعض طرق المنكرين للرب ﷻ، والتي منها الانطلاق من عدم العلم في الماضي إلى نفي المعلوم في المستقبل؛ ذلك أن فرعون أتى بصيغة الماضي (ما علمت) الدالة على عدم علمه لينفي به المعلوم الذي هو الله في الحال والمستقبل.

(1130) في الآية إشارة إلى أن الجبابرة يعلمون علم اليقين أن أتباعهم إنما يصدقونهم في الظاهر، ويتهمونهم بالكذب في الباطن؛ ذلك أن فرعون علم أن قومه شاكون في صدقه، أو منكرون لقوله فأكد لهم الكلام بمؤكدتين هما: (إن)، و(لام الابتداء).

(1131) تشير الآية إلى أن الحكام الفاسدين يخرجون أنفسهم من اللعبة، ويجعلون القضية بين أفراد الرعية، ذلك أن فرعون قال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ﴾، ولم يقل: (ما علمت لنا)؛ لأنه جعل القضية بين موسى الذي ادعى إلهاً في السماء، وبين أتباعه الذين يعتقدون أنه هو الإله، ويؤيد هذا ما قال في غافر: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26].

(1132) في الآية إشارة إلى أن الظالمين يبحثون عن الظالمين أمثالهم فيضعونهم في جنبهم، ويعتنون بهم ليقوا معهم ما بقيت أرواحهم؛ ذلك أن فرعون الطاغية اعتنى بهامان الذي ينصره ويؤيده كيفاً

¹ ينظر: المصدر السابق ص: 189.

² ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 190.

كان رأيهِ؛ فظاهر الآية أنه كان معه قبل ولادة موسى، وهو الذي كَلِّفَ بقتل الأطفال، وها هو الآن معه في حرب موسى بعد بعثته.

(1133) تشير الآية إلى أن الطغاة يألفون طغيانهم بسبب أتباعهم الذين لا ينتقدون، ولا يُعقبون، بل ولا يتكلمون حتى ببنت الشفة؛ ذلك أن فرعون أمر ملأه ببناء الصرح من الطين الذي يتطلب وقتاً، وجهداً كبيراً مع أن الحجارة موجودة عندهم ولا تتطلب أي جهد؛ ومع ذلك لم ينتقدوا، ولم يقترحوا حلاً آخر.

(1134) في الآية دعوة إلى النظر في أمور الحكام والخلفاء بعين البصيرة، فإن كانت سديدة امتثلت، أو خاطئة صوّبت، أو مخالفة للشرع رُفضت؛ ذلك أن الآية جاءت في معرض ذم فرعون وملئه الذين لديهم رأي واحد هو رأي فرعون. فدلّت بمفهومها على عكس هذا، وهو النظر والتأمل؛ وقد طبق هذا الصحابة الأبرار رضي الله مع رسول الله ﷺ في وقائع عدة، كاعتراض عمر على صلاة الرسول ﷺ على رأس المنافقين، واقتراح الحُباب بن المنذر على الرسول أن يُغير موضع الجيش؛ لأنه لا يصلح للحرب، وكذلك اعتراض بعض الصحابة على القائد الذي أمرهم أن يدخلوا النار...

(1135) في الآية تعليم للدعاة، والمناظرين عن دين الله إحدى الطرق التي يُفحمون بها الملحدّين، والمنكرين للبعث والنشور، الذين لا يجدون دليلاً على النفي إلا عدم العلم بالدليل، فيقال لهم: إن عدم العلم بالشيء لا يلزم منه نفي الشيء، فهذا فرعون الذي ادعى الألوهية نفى العلم بالإله، وأثبت الإلهية لنفسه.

(1136) في الآية إشارة إلى أن الجبارة يحتالون على الناس، فيأتون بأشياء جديدة ليثبتوا بها قدمهم في ملكهم؛ ذلك أن فرعون أمر هامان بأن يبني له صرحاً لم يعهد مثله حتى يتوهم الرعاع أنه الإله الحق؛ دل هذا تنكير الصرح الذي يدل على التفخيم، وكونه غير مسبوق بمثله.

(1137) في الآية إشارة إلى أن الطغاة يرسخون في أنفسهم عقيدة، ثم يسعون إلى تثبيتها مع توالي الأيام، فتكون تصرفاتهم ناتجة عن قناعة سابقة، وليست عن بحث علمي، ذلك أن فرعون أتى بالفعل المضارع المشعر بأن ظنّه موسى من الكاذبين يتجدد معه في كل وقت وحين.

(1138) في الآية إشارة إلى أن الأفعال التي تقع في دولة رئيسٍ ما، أو خليفة ما، إن أمرَ بفعلها، أو رضي بها ولم يفعلها تحسب عليه، فإن كانت خيراً يرجع عليه خيرها في الدنيا والآخرة، وإن كانت

شرا يُحسب عليه إثمها في الدنيا والآخرة؛ ذلك أن بناء الصرح لم يَقم به فرعون، بل ولا وزيره، ومع ذلك عُدَّ عليه، وكُتِبَ في صحيفته.

(1139) في الآية إشارة إلى أن الطغاة يُصورون الدعاة شاذين عن الطريق الصحيح، فالذي يدعون إليه ليس عليه غيرهم؛ ذلك أن فرعون قال: (إله موسى) ولم يقل: إله موسى وهارون، أو الإله المزعوم ليصور لرعيته أن موسى فردٌ واحد، لا يليق بهم عقلا اتباع واحد، وترك ما عليه سائر الناس.

(1140) في الآية إشارة إلى أن بيت الجبابة سهلٌ هدمه؛ لأنه غالبا ما يكون مبنيًا على أسس غير صحيحة، ذلك أن البناء الذي أراد أن يصعد عليه فرعون إلى رب العالمين -بزعمه- إنما أنشأه من طين، فكيف يكون بنيانه (أقصد البناء المعنوي) الذي يُنشئه لمقاومة عباد الله في الأرض.

(1141) تشير الآية إلى أن الطغاة إذا أرادوا مواجهة داعية من دعاة الله يَجْمعون له كل ما لديهم من قوة، ويُهيئون له كل الأشراف؛ ذلك أن فرعون نادى جميع ملئه ليكونوا على أهبة الاستعداد؛ دل على هذا الألف واللام في (الملأ).

(1142) تشير الآية إلى بعض طرائق التمكّن من الناس في غرس الأفكار، أو نشر العقائد، أو بسط سلطان القوة، والتي منها التهمك من الكبار ليسهل تقبلها لدى الصغار؛ ذلك أن فرعون قرّر إلهيته ملئه -وهم السادة والأشراف- ليسهل تقبلها ممن يخضع لهم، ويسير تحت نفوذهم؛ ولعل طريقة النبي ﷺ في الدعوة تُؤيد هذه الهداية، إذ كان يبحث عن أسياد القبائل ليعرض عليهم الإسلام، كما فعل مع زعيم قبيلة بني حنيفة الذي رفض الدعوة لكون النبي لم يوافق على أن تصير السلطة له بالوراثة بعد وفاة النبي ﷺ¹.

(1143) في الآية إشارة إلى قاعدة مطردة في من لا يرجو لقاء الله، ولا يعمل من أجل الله وهي إنجاز شيء ما ليؤدي دورا محددًا ثم يُطرح، كما يفعل كثير ممن يريدون الظهور للحكام والولاة بمظهر الخدم الذي يلي كل الطلبات، فيُزينون الطرقات، ويُشعلون الإنارات، ويصلحون الحفر...، فإذا مر الملك مثلا أزالوا ما فعلوا، أو أزيل بمفرده لهشاشته.

(1144) تشير الآية إلى أن الله ﷻ يُؤمن به الناس فطرة، إلا أن الحجة لا تقوم عليهم إلا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ ذلك أن فرعون وملاه كانوا يعرفون رب العالمين معرفة يقينية، وما يظهرونه

¹ ينظر: الروض الأنف: 35/4.

للناس إنما هو التمويه، والدليل على هذا التعريف في الآية، فلم يقل فرعون: (إلى إله يدعيه موسى) وإنما أضافه إليه لكونه معلوما عند أتباعه.

(1145) تشير الآية إلى انعدام الشورى عند الطغاة وأتباعهم؛ ففرعون لم يأخذ رأي ملئه في البناء، ولم يطلب منهم إبداء الرأي في المعدات، وهل للدولة موارد كافية؟ وهل إن بني البناء يتحقق الغرض أم لا؟؟ وهذا بخلاف أهل العدل والإنصاف، فأمرهم شورى بينهم كما نص على هذا القرآن الكريم، بل أمر سيد أهل الشورى محمدًا ﷺ بالتشاور فقال ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

(1146) تشير الآية أن من بين علامات الظالمين إظهار التفاني في خدمة الشعب، حتى إنهم ينسون أنفسهم، ولا يفكرون في مصالحها؛ ذلك أن فرعون قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ﴾ ولم يقل: (ما علمت لنا) ليشعر شعبه بأنه يتفاني في خدمته.

(1147) تشير الآية إلى أن الطغاة يُحبون التميُّز عن أتباعهم حتى يسهل عليهم قيادتهم، وسوفهم كما تساق الإبل؛ ذلك أن فرعون قال: (ما علمت) بالمفرد ولم يقل (ما علمنا) ليشعر شعبه بأنه متميز عنهم، وأنه وحده من يستطيع العلم بالحقائق.

(1148) تشير الآية إلى أن من علامات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يظنون تناقض الأقوال والأفعال؛ ذلك أن فرعون لما تحدّث عن العلم قال: (لكم) ليشعر الرعية بأنه يشتغل من أجلهم، ولما تحدّث عن البناء -حتى لو كان على سبيل التهكم كما سبق- الذي هو فعل قال: (لي).

(1149) تشير الآية إلى أن الله يفضح الظالمين عن طريق ألسنتهم، فيقولون كلاما يهدم بنيانهم ولا يشعرون؛ ذلك أن فرعون أظهر للرعية بأنه متفان في خدمتهم، وفي نفس الوقت طلب أن يكون المحصول له وحده.

(1150) في الآية إشارة إلى أن الطغاة يعلمون أن الأنبياء والدعاة صادقون في دعواهم، وأنهم لم يعرفوا عنهم الكذب الذي يُسقط عدالتهم؛ ذلك أن فرعون قال في شأن موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨) ولم يقل (إنه كذاب) لأنه حينئذ سيتهم من طرف أتباعه بالتحامل -حتى لو كان الاتهام داخليًا-، لذا عدل إلى اسم الفاعل الذي يدل على حدوث الصفة (الكذب) في الموصوف، وهذا متقبل من جميع البشر.

(1151) في الآية إشارة إلى ذم الاتهام، والرجم بالغيب؛ ذلك أنها جاءت في معرض ذم فرعون الذي اتهم موسى بالكذب، وليس هو من الكاذبين.

(1152) في الآية إشارة إلى أن الظن لا يقبل في العقائد، فلا يجوز أن يعتقد المرء أن مُحمّدا صلى الله عليه وسلم صادق في دعوى الرسالة، وأن هناك احتمالا أن يكون كاذبا فيها؛ ذلك أن الآية ذمت فرعون لكونه أخبر أنه يظن في موسى الكذب، وإن كان يعلم في قرارة نفسه أنه من الصادقين.

(1153) تشير الآية إلى أن الطغاة يخبرون أتباعهم، ويوقنون بأنهم يتهمونهم بالكذب؛ ذلك أن فرعون أكد لملئه كذب موسى بثلاث مؤكدات: هي (إن) و(الجملة الاسمية) و(لام الابتداء)، فلو لم يكن شاكا، أو ظانا أنهم يتهمونه في قوله لما أكد لهم الخبر.

الآية التاسعة والثلاثون، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرَهُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا

أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

(1155) في الآية إشارة إلى أن الاستكبار يكون بالحق، ويكون بغيره، فيكون بالحق لله وحده لا شريك له، ويكون بغيره لسواه؛ ذلك أن الله ذم الاستكبار المقيد بغير الحق، فدل بالمخالفة على أن الاستكبار بالحق محمود، ويشهد لهذا الحديث الصحيح (العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبت¹).

(1156) في الآية إشارة إلى الذي في الأرض المحقرة لا ينبغي أن يستعلي²؛ ذلك أن الأرض عبارة عن هذا الكوكب المنخفض الذي تنزل عليه الأمطار من السماء، وتوضع فيه فضلات بني آدم وغيره، ومن كان هذا حاله فكيف يسمع لنفسه بالاستعلاء !!!

(1157) تشير الآية إلى أن الذي يستكبر على الناس يعد من الحمقى، والجاهلين؛ ذلك أن الاستكبار هو التطاول على الغير بحمق وجهل³؛ وهذا عين الحقيقة؛ لأن المتكبر يتعالى على الناس بما ليس له، وهذا عين الحمق، ويزدريهم بما ليس لهم فيه دخل وهذا عين الجهل.

(1158) تشير الآية إلى أن إيمان الناس بالبعث فطرة ربانية، لا تحتاج إلى دربة ولا تكلف، وأنهم يسعون في كل مرة للتغلب على هذه الفطرة حتى يتمردوا عليها، ويخرجوا عن جادة طريقها؛ ذلك أن ملأ فرعون كانوا يؤمنون بالرجعة إلى الله، لكنهم سعوا في مقاومة هذه الفطرة حتى نسوها، وظنوا أنها غير موجودة⁴.

(1159) في الآية إشارة إلى أن الكبر ليس صفة ذاتية في الإنسان، إنما الإنسان هو الذي يسعى إلى تحصيلها، ويبدل ما في وسعه للوصول إليها⁵؛ ذلك أن الله أتى بالسين والتاء المشعرتين بالطلب والرغب.

¹ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الكبر: 4/2023 ن رقم: 2620.

² ينظر تفسير ابن عرفة: 3/269.

³ ينظر: التفسير المظهري: 7/166.

⁴ ينظر: مفاتيح الغيب: 24/599.

⁵ ينظر: نظم الدرر: 14/296.

(1160) في الآية إشارة إلى أن التعظيم بنوع من الحق ليس كبيرا¹.

(1161) في الآية إشارة إلى أن الكبر درجات، وأعلاها أن يقصد صاحبه الوصول إلى الله وصولاً الغالب؛ لذا جاء في الآية لفظ (استكبر) الدال على الحرص والاجتهاد في الكبر².

(1162) في الآية دعوة للعلماء والدعاة بأن يعتمدوا طريق التصريح بالمطلوب دون التدليل عليه بالمفهوم؛ ذلك أن كفر فرعون وملئه معلوم، ويلزم عن كفرهم إنكارهم البعث والجزاء، ومع ذلك صرح القرآن الكريم بإنكارهم له حتى لا يبقى أي لبس في الأذهان³.

(1163) في الآية إشارة إلى أن الداعية اللبيب هو الذي يناظر قوماً، ويُرسل رسائل إلى آخرين يشتركون معهم في نفس الصفة؛ ذلك أن الآية تتحدث عن فرعون وقومه بالأصالة، وتومئ إلى كفار قريش بالتبع⁴.

(1164) في الآية إشارة إلى أن الطغاة إن سألوا بيّنة من الدعاة، أو طلبوا تحدياً منهم إنما يفعلون هذا لأجل إقناع قومهم بأنهم الأحقُّ والأجدر بقيادتهم، وليس للوقوف على حقيقة الأمر ليتبعوه؛ فهذا فرعون أخبر قومه بأنه سيصعد إلى موسى ليثبت كذبه، وليس للإيمان به⁵.

(1165) في الآية إشارة إلى أن من علامات المتجبرين أنهم يبقون على نفس الحال التي كانوا عليها قبل إتيان الآيات البينات، إن لم يزدادوا غيا وعناداً؛ فهذا فرعون وصفه الله بالكبر لما جاءه موسى بالبينات، ووصفه بالعلو قبل أن يأتي هو أصلاً إلى الوجود.

(1166) تشير الآية إلى أن الغرور قد يدفع ببعض الناس إلى التكبر على كل شيء، فلا يستثني بشراً ولا حجراً، ولا غنياً ولا فقيراً؛ ذلك أن الآية لم تذكر المتكبر عليهم فأشعرت بالعموم، كأنها تقول: إن فرعون تكبر على جميع من في الأرض.

(1167) تشير الآية إلى أن غاية ما يصل إليه المتكبر هو الترفع عن الناس في الأرض، ولن يستطيع أيُّ منهم أن يترفع في السماء، أو يدعي أن له الرفعة فيها، ذلك أن الله قيد استكبار فرعون بالأرض ليشعر الطغاة من بعده بأنهم مهما فعلوا فلن يعدوا هذا القدر.

¹ ينظر: نظم الدرر: 296/14.

² ينظر التحرير والتنوير: 124/20.

³ ينظر المصدر السابق: 124/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 124/20.

⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 348/10.

(1168) في الآية إشارة إلى أن تكبر الطاغية وتجبره سبب من أسباب تكبر جنوده، ذلك أن الله لم يكتف بذكر استكبار فرعون مع أنه المقصود الأصلي بالرسالة، وإنما عطف عليه جنده ليشعرنا بأنهم يسقون من بئر واحدة.

(1169) تشير الآية إلى أن الاستكبار قد يكون من القائد فيتبعه الرعية فيه، وقد يكون من الرعية، فيتبعهم هو فيه، وقد يكون منهما معا، بحث تكون نفوسهما طامحة في العلو والاستكبار، فيتوافقوا جميعا على خطة تمكنهم من المراد؛ ووجه الهداية أن الله عطف استكبار الجنود على استكبار فرعون بالواو التي تفيد مطلق التشريك في الحكم، ولم تدل بأصلها على كون الثاني بعد الأول أو العكس.

(1170) تشير الآية إلى أن الرجوع ينبغي أن يكون إلى الله وحده لا شريك له؛ ذلك أن الله قدم المعمول الذي هو (إلينا) على العامل الذي هو (يرجعون) لبيان أن الحشر له، لا إلى غيره؛ ونظير هذا قول الله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

(1171) تشير الآية إلى أن القائد والرعية غالبا ما يشتركون في نفس المعتقد فيظهرونه إما اقتناعا به، وإما محاباة لبعضهم؛ ذلك أن الله أسند الظن في الرجعة إلى فرعون وملئه والجنود، فأشعرنا بأنهم كانوا على عقيدة واحدة، قد يكون بعضهم مقتنعا، وبعضهم محابيا ليضمن بعض مصالحه.

(1172) في الآية إشارة إلى أن المشتركين في الصفة يسري عليهم نفس الحكم، بغض النظر عن مرتبة كل واحد منهم، ذلك أن الله تعالى ذكر صفة الكبر، وعطف جنود فرعون عليه بالواو المشتركة في الحكم، فأفادت أنهم مشتركون في نفس النتيجة المترتبة على الكبر وهي العقاب؛ ويؤيد هذا حكم الله عليهم بالنار أجمعين في قوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46].

(1173) في الآية إشارة إلى أن أي مخلوق يعلم من نفسه علم اليقين أنه ضعيف، وأن ما يدعيه من العظمة إنما هو تمويه للرعاع، وضعاف النفوس؛ ذلك أن فرعون بذل أقصى ما يملك ليصل إلى العظمة ولم يصل إليها كما يدل عليه وزن (استفعل)، فلو كان يعلم أنه كبير لما اجتهد في الوصول إلى الكبير.

(1174) في الآية إشارة إلى أن الطغاة يتبعون كثيرا ليصلوا إلى جزء مما يطمحون إليه؛ فوزن (استفعل) يدل على الجهد والمشقة، والجِدِّ والاجتهاد.

(1175) تشير الآية إلى أن الجندي الذي يرضى بالاشتغال تحت إمرة قائد فاسد، لا يراعي الحرمات، ولا يؤدي الحقوق يُعتبر فاسدا وإن كان في حقيقة أمره صالحا؛ ذلك أن الله أضاف جند فرعون إليه في معرض ذمه، فنالهم ما ناله، ولا يبعد أن يكون فيهم من لا يرضى بفعله، إلا أنه لما رضي الاشتغال عنده، وتنفيذ أوامره استحق ما استحق.

(1176) تشير الآية إلى أن الظالمين يعتقدون أن المنعة تكون بكثرة الجنود، وقوة الجيوش، ولا يخطر ببالهم أن الله قد يكون مع القليل فيغلب الكثير؛ ذلك أن الله ذكر جند فرعون بجمع الكثرة دون القلة ليشعرنا بأنه كان حريصا على تكثير جيشه. وواقعنا خير شاهد، فمعظم الظلمة يتحصنون بجنودهم، يرمونهم إلى النار ليستريحوا، إلا أن الله دائما ما يذكرهم بأن القوة له وحده لا شريك له، لكن قل من يعتبر.

(1177) في الآية إشارة إلى أن الكبر وإنكار البعث شيان منفصلان، قد يجتمعان -وهو الغالب- ، فيكون متكبرا ومنكرا، وقد ينفصلان فيكون متكبرا ومؤمنا بالبعث والجزاء؛ ويؤيد هذا النصوصُ الناهية للمؤمنين عن الكبر كقول لقمان لا به: ﴿وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18].

(1178) في الآية إشارة إلى أن الملأ عادة ما يرغبون في الطريق الذي يسير عليه رئيسهم، أو ملكهم، فملأ فرعون استكبر كما استكبر فرعون، ورضي بالطريق التي يسير عليها.

(1179) تشير الآية إلى أن الحق واحد لا يتعدد، فمن وافقه فقد أفلح ونجا، ومن لم يوافقه فقد خاب وخسر؛ ذلك أن الله أتى به معرفة، ولم يأت به نكرة، فأفادت الآية هذا المعنى والله أعلم.

(1180) تشير الآية إلى أن الحق معلوم للناس، فمتى ظهر زال اللبس، وأقيمت الحجة ، دل على هذا تعريفه.

الآية الأربعون، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

(1182) في الآية دلالة على عظمة الله وقدرته؛ ذلك أنه أهلك من بلغ به الطغيان إلى قال ﴿أَنَا

رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: 24]. دل على هذا نون العظمة في (فأخذناه) و(فنبذناه).¹

(1183) في الآية تسليية للدعاة والمصلحين، ببيان أن مناوئهم لن يفلحوا، وأتباعهم سينصرون؛ لأن الآية نزلت في الفترة المكية التي كانت السيطرة فيها لأهل الكفر، والظلم والقهر على أهل الإيمان والتوحيد؛ فكأنها تقول اصبروا سيصيبهم ما أصاب غيرهم من المكذبين.²

(1184) في الآية إشارة لنصرة النبي ﷺ على كفار قريش، وتولييه مناصبهم، وتمليكهم ديارهم وأموالهم؛ ذلك أن الله أهلك فرعون وجنده، وأورث ديارهم وأموالهم لبني إسرائيل، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (فانظر) ليطمئننه بأن نتيجة موسى مع فرعون ستكون له؛ وقد حصل بالفعل، فملك مفاتيح الكعبة في السنة الثامنة من الهجرة، ومفاتيح قرى غيرها، وملك أتباعه مفاتيح قصور أعتى الجبابرة في ذلك الزمان.³

(1185) في الآية إشارة إلى أن قوة الطغاة مهما عظمت، وجندهم مهما كثر فلن يعدو كونهم حصيات عند الله؛ ذلك أن الفعل (نبذهم) في اليم، يدل على أنهم مثل الحصى الصغير.⁴

(1186) في الآية إشارة إلى أن عقاب الله إذا حل بقوم يمر بهم كلمح البصر؛ ذلك أن الله أغرق أعتى الجبابرة، وأقوى الجنود في صبيحة واحدة، وتركهم عبرة لأولي الألباب.

(1187) في الآية دعوة للتعقل، وإعمال النظر في أفعال الأمم الماضية حتى لا يصيبنا ما أصابهم؛ ذلك أن الله قص علينا ما حدث، ودلنا على النظر حتى لا يصيبنا مثل ما أصابهم.⁵

¹ ينظر : أنوار التنزيل: 178/4.

² ينظر: جامع البيان: 582/19.

³ ينظر: المصدر السابق: 582/19.

⁴ ينظر: الكشف: 415/3.

⁵ ينظر: التفسير المظهر: 166/7.

(1188) تشير الآية إلى أن قيمة الشخص بإيمانه واتباعه هدي ربه، فمن كفر به، أو اتبع طريق غيره فلا فرق بينه وبين أنفه الأشياء في الكون؛ ذلك أن الله أتى بلفظ النبذ (فنبذناه) المشعر بالترك والإهمال، وعدم المبالاة.¹

(1189) في الآية إشارة إلى أن عقوبة الظالمين قريبة منهم وإن ظنوا أنهم بعيدون عنها، أو ناجون منها؛ ذلك أن مبارزة السحرة لموسى لم تذكر هنا، وإنما ذكر العقاب فقط لكون السورة يدور مقصدها حول الظلم والظالمين.²

(1190) تشير الآية إلى بعض آيات الله التي منها كون الشيء الواحد منجياً لعبد من عباد الله، وعذاباً أليماً لمتكبر عن أمر الله؛ فالنيل الذي أنجى الله فيه موسى وهو طفل صغير بلا أم ولا راع، أغرق فرعون الجبار مع جنوده، وبكامل عدته وعتاده.³

(1191) تشير الآية إلى أن الأمن إنما يكون في جناب الله، والخوف إنما يكون في البعد عنه؛ ذلك أنها بينت عاقبة فرعون الذي كان يخاف منه الجميع لَمَّا كان بعيداً عن الله، وأشارت بمفهومها إلى عاقبة موسى الذي كان في جنب الله.⁴

(1192) في الآية إشارة إلى أن الله إذا أراد بالعبد شيئاً دفعه من حيث لا يشعر إلى القيام بأسبابها فلما أراد إغراق فرعون وجنوده زرع فيهم الحماية على دينهم، والحماس في القضاء على موسى وأتباعه فكان تدميرهم تدميرهم.⁵

(1193) في الآية إشارة إلى أن الذي لا يرجع إلى حكم الله سيُرجعه الله إليه بعقابه، وحينئذ سترجع إليه روحه لتنال جزاءها.⁶

(1194) في الآية إشارة إلى أن حال أهل الضلالة واحد؛ هو تلقي دعاة الخير بالاستكبار واختلاق المعاذير؛ ذلك أن الآية جاءت في سياق التمثيل بحال الظالمين، فكأنها تقول لكفار قريش إن حالكم كحال من قبلكم، وقد حلَّ بهم ما ذكر لكم، وسيحل بكم مثله إن تماديتم على فعلكم.¹

¹ ينظر: التفسير الوسيط: 409/10.

² ينظر: في ظلال القرآن: 5/2695.

³ ينظر: المصدر السابق: 5/2695.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 5/2695.

⁵ ينظر: التفسير القرآني: 10/349.

⁶ ينظر التحرير والتنوير: 20/125.

(1195) في الآية إشارة إلى أن كل ما خلق الله في هذا الكون يُدافع عن الحق، ويهلك الباطل؛ ذلك أن اليم عبارة عن ماء في الظاهر لكنه جند من جنود الله في الباطن، فهو الذي ترك موسى وقومه-بأمر الله- يَمرون بسلام، وأهلك فرعون وجنوده بسهولة².

(1196) في الآية "إشارة عظيمة بأعظم بشارة بأن كل ظالم يكون عاقبته هكذا إن صابره المظلوم الحق، ورابطه حتى يحكم الله وهو خير الحالكين"³.

(1197) في الآية إشارة إلى أن العبد إذا أراد الله إهلاكه دخل دار الهلاك بنفسه، ففرعون الذي قدر الله إغراقه في البحر دخله طوعا، بل وحبا وغطرسة، ولم يكن يعلم أن هذا الدخول هو نهاية حياته.

(1198) في الآية إشارة إلى أن النظر ينبغي أن يكون من كل فرد من أفراد الأمة، ولا يجوز أن ينظر أحد مكانَ أحد؛ ذلك أن الله تعالى جاء بالأمر بصيغة المفرد (فانظر) المنبهة لكل فرد بالمسؤولية الملقاة على عاتقه.

(1199) في الآية إشارة إلى أن النظر يختلف من فرد لآخر، فقد يستفيد شخص من واقعة عبرا لا يستفيدا غيره، بل ولا يستفيدا الجمع العام؛ ذلك أن الله خاطب المفرد غير المعين، فاشعر أن كل فرد مطالب بأن يستفيد .

(1200) في الآية دعوة إلى إعمال النظر في الكتاب العزيز، ولا ينبغي الركون إلى القول بأن السلف الصالح قد كفونا المؤنة، واستنفدوا ما في القرآن من المعاني والدروس والعبر؛ ذلك أن (انظر) يقرؤها المتقدم والمتأخر، والمتقي والأتقي منه، وكلُّ واحد ينظر على أنه مطلوب منه النظر.

(1201) في الآية دعوة للنظر إلى الكيف لا إلى الكم؛ لأن الكيف يُعرِّف بأسرار الله في الكون، بخلاف الكم الذي قد يُعرف وقد لا يعرف؛ دليلُ هذا لفظ (كيف) الباعثُ على البحث عن السر في إهلاك فرعون.

(1202) في الآية دعوة إلى جمع خصائص الأقوام الماضية لمعرفة مراتبها في نزول العقاب؛ ذلك أن الله أتى بلفظ (الظالمين) الدالّ على صفة اشترك فيها فرعونُ مع أقوام سابقين، ومع أقوام لا حقين.

¹ ينظر التحرير والتنوير: 126/20.

² ينظر: الخواطر: 10930/18.

³ نظم الدرر: 298/14.

(1203) في الآية دعوة إلى النظر في مآلات الأشياء لا إلى أنفسها فقط؛ ذلك أن الله قال (عاقبة) ولم يقل إلى حكم فرعون، أو جبروته، أو طريقة خداعه؛ وقد أحسن ابن الوردي حين قال:

(1204) وافتكرك في منتهي حسن الذي*** أنت تحواه تجد أمرا جلل¹

(1205) في الآية إشارة إلى أن من كان الله معه فلن يغلب أبدا، وإن كان الله ضده فهو المغلوب قطعاً، ولو كان جنده عدد جند السماء، وقوته أكبر من قوة عاد وثمود؛ ذلك أن الله أهلك أعتى الجبابرة مع جنده وجعلهم عبرهم للأمم الآتية، فهل من معتبر !!!

(1206) تنبه الآية إلى بعض الطرق التي ينبغي التعامل بها مع الظالمين التي منها إظهار القوة أمامهم، وتكشير الأنياب في وجوهم؛ ذلك أن الله تعالى أتى بنون العظمة في الأخذ والنبذ فأشعرنا بهذه الهداية، ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ [الأنفال: 60]، وقول النبي ﷺ لأبي دجانة في غزوة أحد: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع²).

(1207) تشير الآية إلى الترابط الوثيق بين الاستكبار وعقاب الله، فمن تكبر على خلق الله فليعلم علم اليقين أن عقاب الله أقرب إليه من حبل الوريد؛ ذلك أن الله تعالى أتى بالفاء المشعرة بالترتيب والتعقيب.

(1208) تشير الآية إلى أن عاقبة الظالمين -التي هي الخسران في الدنيا- معلومة عند الأولين والآخرين، لأن الله أتى ب (كان) الدالة على وقوع هذا العقاب بأقوام عدة حتى صار قاعدة مستمرة؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى حكاية عن شعيب عليه ﴿وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 79].

(1209) في الآية دعوة لقراءة التاريخ بعين البصيرة، لا بعين الباصرة فقط؛ لأن بها تُدرك سنن الله في الله في الكون، وتُستنبط طرائقه في التدبير؛ دليل هذا أن الله أمر نبيه ﷺ بالنظر إلى عواقب الأمم الماضية بعدما قص عليه نبأ فرعون وجنوده.

¹ عون الأطفال، شرح لامية ابن الوردي، ص: 22.

² ينظر: سيرة ابن هشام: 67/2، والمنتقى في شرح الموطأ: 225/7.

(1210) في الآية دليل لقاعدة بلاغية وهي أن الضمير المفرد يصح استعماله في الجميع؛ ذلك أن الله تعالى قال: (فانظر) بلفظ المفرد، والمقصود أن ينظر كل فرد إلى التاريخ.

(1211) تشير الآية إلى أن الظالمين يطرحهم الله في المطارح التي تليق بهم، ولا يشترط أن تكون نتيجتهم الإغراق، وما قص الله من إهلاك فرعون بالغرق إنما هو سبيل التمثيل وليس للحصر.

(1212) في الآية إشارة على أن العبد ينظر إلى الفعل فيراه خيرا له، والله يجعله شرا له، ففرعون نظر إلى الطريق في البحر فظنها مؤدية إلى القبض على موسى وأتباعه حتى يتخلص منهم أبد الدهر، والله تعالى صيّر لها منهيّة لحياته، تاركةً اسمه عبرة للمعتبرين؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216].

(1213) في الآية إشارة إلى أن الظالم لا ينبغي منازلته إلا إذا كان لنا من القوة ما يكفيه؛ ذلك أن الله أتى بنون العظمة المشعرة بأن فرعون كان قويا، ولا يناسب القوة إلا القوة.

الآية الواحدة والأربعون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِكِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ

لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾

(1215) في الآية إشارة إلى أن من سنَّ سنة يكون له نصيب منها إلى يوم القيامة، فمن سن الظلم، وأفشاه في الدنيا يكون له نصيب من سيئات الظالمين إلى يوم القيامة¹.

(1216) في الآية إشارة إلى أن الاقتداء لا تشترط فيه وجود نية للمقتدي، فكل من عمل عملاً اشتهر به فلان، أو علان فقد رضي الاقتداء به ولو لم يقصد؛ ذلك أن الله وصفهم بالإمامة، والذين يسировون على طريقهم قد لا يخطر ببالهم التقليد، ومع ذلك يصدق عليهم وصف المقلدين².

(1217) في الآية إشارة إلى أن الغالب على الأئمة في الدنيا أنهم يُنْصَرُونَ على أعدائهم، قد تدوم نصرتهم إن كانوا على الحق، وقد يتقلب عليهم أنصارهم إن كانوا على الباطل، بخلاف الآخرة³.

(1218) تشير الآية إلى أن أهل الكفر والطغيان يجعلون مثلاً يسировون عليه، كما أن أهل التوحيد والإيمان يجعلون قدوة يسировون خلفها؛ ذلك أن الآية بينت أن هؤلاء أئمة، ولا يكون هكذا إلا إذا كان لهم مأمومون يأتمون بهم⁴.

(1219) تفيد الآية أن الظالمين قد يجدون في الدنيا من ينصرهم، ويُزَيِّن لهم أعمالهم حتى يظنون أنها عين الحق؛ ذلك أن الآية دلت بمنطوقها على عدم النصرة يوم القيامة، وأشارت بمفهومها إلى أنها يمكن أن تكون في الدنيا؛ وهذا ما يؤيده الواقع والتاريخ، فكم من ظالم زَيَّن له ظلمه، وكم من باغ أُعِين على بغيه، فنسأل الله السلامة والعافية⁵.

تفيد الآية أن أفعال العباد مخلوقة لله⁶، مع أنهم هم من يقومون بها، ذلك أن الله جعلهم أئمة في الكفر، وأسند الدعوة إليهم حقيقة، وليس في هذا تناقض؛ فمن حيث كونها وجدت في كون الله فهي من الله، ومن حيث إنهم كانوا أسباها فهي لهم أيضاً، وقد قال ابن القيم في شأنها:

¹ ينظر: نظم الدرر: 298/14.

² ينظر: المصدر السابق: 298/14.

³ ينظر: المصدر السابق: 298/19.

⁴ ينظر: جامع البيان: 583/19.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 583/19.

⁶ ينظر مفاتيح الغيب: 601/24.

وعموم قدرته تدل بأنه *** هو خالق الأفعال للحيوان

هي خلقه حقا وأفعال لهم *** حقا ولا يتناقض الأمران¹.

(1220) في الآية دليل على قبح أرواح الظلمة، وبشاعة صورتها في الدنيا والآخرة؛ ذلك أن الله لعنها، ولا يلعن إلا قبيحا².

(1221) في الآية إشارة إلى أن الله تعالى يتصرف في خلقه كما يشاء، يُحوّلهم من حال إلى حال، ومن طبيعة إلى أخرى؛ ذلك أن الله أتى ب (جعل) التي بمعنى صير ليشير إلى أن العباد لا يخرجون عن فعله وإرادته مهما طغوا وتجبروا³.

(1222) تشير الآية إلى أن كل من اشتهر حتى صار يُنظر إليه، ويُريد الناس طريقته فهو القدوة بغض النظر عن المقتدى فيه؛ ذلك أن الله وصفهم بالأئمة لما كان خبرهم من التأثير على الناس في حياتهم وبعد مماتهم⁴؛ ويؤيد هذا تقييدُ قدوة النبي بالحسن لكونه اشتهر بكمال الأخلاق، فالتقييد يدل على وجود قدوة سيئة.

(1223) تشير الآية إلى أن قادة الشر سيكونون قادة لأتباعهم يوم القيامة⁵؛ ذلك أن الله بين أنهم أئمة ولم يحصر إمامتهم بكونها في الدنيا أو في الآخرة، وقد جاء التصريح بأن فرعون يكون إمام أتباعه إلى النار، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: 98].

(1224) في الآية إشارة إلى أن دعوة أهل الضلالة تختلف من فرد إلى آخر، فقد تكون بالأمر، وقد تكون باختلاق قواعدها، وقد تكون بتنفيذها وتنزيلها على الأرض، فتكون بالأمر من الرأس، وبالاختلاق من الحاشية، وبالتنفيذ من الجنود؛ ذلك أن الله حكم عليهم جميعا بالدعوة إلى النار، وهم متفاوتون فيها⁶.

¹ الكافية الشافية، ص: 36.

² ينظر مفاتيح الغيب: 601/24.

³ ينظر: البحر المحيط: 307/8.

⁴ ينظر: المحرر المجيز: 289/4.

⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 349/10.

⁶ ينظر التحرير والتنوير: 126/20.

(1225) في الآية إشارة إلى أن الذي يدعو إلى شيء ما يكون متمسكا به، ومصرًا على تنزيهه في الواقع؛ ذلك أن الله بين أنهم دعاة إلى النار، وذكر في آية أنهم من هم أنفسهم من أهل النار، فقال: النار يعرضون عليها)¹.

(1226) تشير الآية إلى أن الدعوة إلى أي شيء ما تحتاج جندا ينصرونها، وأتباعا يقومون بإظهارها؛ ذلك أن حكم الله عليهم بعدم النصر في الآخرة يقتضي أن لهم في الدنيا أتباعا وجنودا إلا أنهم لم ينصروهم في الآخرة كما كانوا ينصرونهم في الدنيا².

(1227) في الآية دليل على أن الله قدّر أفعال العباد قبل أن يفعلوها؛ ذلك أنه غاير بين فعله وفعلهم، فأتى بالماضي في فعله (جعلنا) وأتى بالمضارع في فعلهم، (يدعون)؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: 170]، وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 398] وقول النبي ﷺ (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)³.

(1228) تفيد الآية أن يوم القيامة لا يُنصر فيه الظالمون لا من صديق ولا من عدو؛ لأن نفي النصرة جاء بالفعل المضارع المنفي المشعر بالعموم.

(1229) تفيد الآية أن الظالمين قد يجدون من ينصرهم في الدنيا، ويُرِين لهم أعمالهم حتى يظنون أنها عين الحق؛ ذلك أن الآية دلت بمنطوقها على عدم النصرة يوم القيامة، وأشارت بمفهومها إلى أنها يمكن أن تكون في الدنيا؛ وهذا ما يؤيده الواقع والتاريخ، فكم من ظالم زُيِّن له ظلمه، وكم من باغ أُعِين على بغيه، فنسأل الله السلامة والعافية.

(1230) في الآية دليل على أن أهل التوحيد والإيمان ينصر بعضهم بعضا يوم القيامة، وذلك بالشفاعة لهم عند رب العالمين؛ فالآية دلت بمنطوقها على عدم نصرة الظلمة يوم القيامة، وأشارت بمفهومها إلى ثبوتها لأهل الإيمان والطاعة؛ وقد ثبت في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية شفاعَةُ الشافعين؛ وعلى رأس هؤلاء سيدنا مُحَمَّد ﷺ.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 126/20.

² ينظر: المصدر السابق: 126/20.

³ صحيح مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى: 4/2044 رقم: 2653

(1231) تشير الآية إلى أن الظالمين يبحثون عن أمثالهم ليروا طرق تديبرهم حتى يسيروا عليها؛ ذلك أن الآية بيّنت أن فرعون وجنوده أئمةٌ لغيرهم، ومن طبيعة الناس أنهم يبحثون عن أكثر الناس ملائمة لما يريدون، فيسلكون سبيله.

(1232) في الآية إشارة إلى أن الظالمين لا يعملون عقولهم، ولا ينظرون ببصيرتهم، إنما يوكلون الأمور إلى غيرهم يفعل بها ما يشاء، لأن من شأن التقليد اتباع المقلد دون معرفة دليله، والمرتكزات التي بنى عليها منهجه.

(1233) في الآية دليل على أن عقاب الله إذا حلّ بأرض لن يترك أحدا من الظالمين، يستوي في هذا المنظور للظلم، والمؤيدون له، بل وحتى الراضون عنه، السائرون في طريق أصحابه؛ ذلك أن الله عاقب فرعون وجنوده أجمعين، ولم يترك منهم أي أحد كما يدل عليه العموم المستفاد من الإضافة (جنوده). ولا شك أن منهم من كان مسوقا راضيا بما يفعل.

(1234) في الآية إشارة إلى أن الأمر بأسباب الشيء يعد أمرا بالشيء نفسه؛ ذلك أن الله بين أن فرعون وجنوده يدعون إلى النار، وهم إنما يدعون إلى الشرك والظلم والطغيان، وهذه أسباب النار وليست هي النار نفسها؛ فأتى بالمسبب للدلالة على السبب كما هو معلوم في المجاز المرسل.

(1235) في الآية إشارة إلى أن العاقل هو الذي ينظر إلى آثار الشيء قبل الإقدام عليه، فإن كانت حسنة شجع نفسه عليه، وإن كانت سيئة كفها وألجمها بلجام التقوى؛ ذلك أن الآية بينت أن آل فرعون لا يُنصرون بسبب عبادتهم آلهتهم الباطلة، فنبهت بهذا قريشا ومن يسير على طريقهم بأن ما يقومون به ينبغي النظر فيه.

(1236) في الآية دعوة لأن يكون المرء من أهل القبول في الدنيا، صورته جميلة، وذكره مرفوع؛ ذلك أن الآية ذمتهم بمنطوقها لكونهم من المقبولين في الآخرة، ومدحت بمفهومها الذين حسنت صورتهم وسريرتهم في الدنيا والآخرة.

(1237) تشير الآية إلى أن الدعاة إلى النار لا يأسون، ولا يملون، بل تتجدد عزيمتهم، وتزداد همهم كلما رأوا منفذا لوصول دعوتهم إلى أتباعهم؛ دليل هذا الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

(1238) تشير الآية إلى أن الدعاة إلى النار لا يهدأ لهم بال إلا إذا رأوا المدعويين على شفير جهنم؛ ذلك أن حرف (إلى) يدل على الغاية التي تعني أنهم يسعون للوصول إلى تمام الهدف، لا إلى نصفه أو ربعه...

(1239) في الآية إشارة إلى أن الداعي قد يدعو إلى ما يتملص منه في القادم، سواء أكان القادم في الدنيا أو في الآخرة؛ ذلك أن الله قرن بين دعوتهم في الدنيا، وبين سلب نصرتهم يوم القيامة مما كانوا يدعون إليه، فأفاد ما ذكرت والله أعلم.

(1240) في الآية إشارة إلى ذم من يجعل شخصا يسير خلفه -إلا رسول الله ﷺ- ينظر بعينه، ويسمع بأذنيه، ويفكر بعقله؛ ذلك أن الآية ذمت الأئمة إلى النار بدلالة المطابقة، وذمت أتباعهم بدلالة اللزوم؛ وقد جاء التصريح بالذم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

(1241) تشير الآية إلى أن دعاة النار وإن كثروا في العدد، فهم قلة في العدة أعني العدة المعنوية، وهي الحجج والبراهين، ذلك أنها بينت أنهم منهزمون وإن كانت قوتهم في الدنيا تبلغ الجبال والوهاد.

الآية الثانية والأربعون، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ

مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

(1243) في الآية تحذير من عمل فرعون وجنوده؛ ذلك أنها بينت أن اللعنة تلحقهم في حياتهم وبعد مماتهم، مما يُوجب على العاقل الابتعاد عن أسباب اللعنة¹.

(1244) في الآية إشارة إلى أن قبح الظالمين والجبابرة المعتدين سرمدى يوم القيامة؛ ذلك أن الله أتى بالجملة الاسمية المقتضية للثبوت واللزوم².

(1245) في الآية إشارة إلى أن الظالمين لا يَحْيُونَ حياة كريمة وإن ظهر للناس حسنُ ثيابهم، ونقاءُ بشرتهم، وفسحةُ دورهم...؛ ذلك أن الله ذكر الدنيا، وحذف الحياةَ إمعاناً في تحقيرهم، وتنقيصِ قدرهم³.

(1246) في الآية إشارة إلى أن الظالمين يَجْمَعُونَ بين نوعين من اللعنة، لعنة قد حكم عليهم بها، ولعنة تتجدد من طرف مظلوميتهم، والسماعين لأخبارهم، والقارئین لتاريخهم⁴.

(1247) في الآية رد على الزاعمين بأن فرعون مات مؤمناً، وتوبيخ لمن يقول ليس في القرآن تصريح بكفره؛ ذلك أن الله حكم بلعنه في الدنيا، وبقبحه يوم القيامة، فكيف يكون مع هذا مؤمناً!!!!⁵.

(1248) في الآية إشارة إلى أن أهل الضلال يلعنهم الناس تارة، وَيَسْكُتُونَ عنهم تارة أخرى، إما نسياناً، أو خوفاً، أو طلباً لمصلحة؛ ذلك أن الله أتى في لعنهم بالجملة الفعلية الدالة حتى وقوع الحدث مرة بعد أخرى، ولم يأت بالجملة الاسمية الدالة على اللزوم والثبوت⁶.

¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 349/10.

² ينظر التحرير والتنوير: 127/20.

³ ينظر: نظم الدرر: 299/14.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 299/14.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 300/14.

⁶ ينظر التحرير والتنوير: 127/20.

(1249) تشير الآية إلى أن المتعالين في الدنيا، المتباهين بصورهم وأشكالهم فيها تقبح صورتهم في الآخرة حتى تشمئز منها النفوس؛ ذلك أن الآية التي قبلها بينت كبرهم، وذكرت هذه صفتهم¹.

(1250) تشير الآية إلى أن الظالمين والمجرمين تلحقهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ ذلك أن الله أتى بالنون الدالة على الجمع، أو الفرد المعظم نفسه، ولا مانع من حملها هنا على كلا الأمرين؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: 161].²

(1251) في الآية إشارة إلى أن المتكبر يُغير صورته في الدنيا، فينتج عن تغييرها تغيير صورته في الآخرة، لأن صورة الإنسان الحقيقية هي الضعف والاستكانة لله رب العالمين، فإحلال العظمة والعلو محلها تغيير لها، لذلك قبَّحهم الله يوم القيامة جزاء على تقبيهم أنفسهم في الدنيا³.

(1252) في الآية إشارة إلى أن أسوأ الناس من يجمع الله له بين قبح الروح وقبح الجسد؛ ذلك أن هؤلاء ملعونون في الدنيا، ومن المقبوحين في الآخرة⁴.

(1253) في الآية دليل على جواز لعن الكفار والظالمين على جهة الإطلاق دون التعيين؛ ذلك أن الله أتبعهم لعنة في الدنيا.

(1254) في الآية إشارة إلى أن أهل الضلال يسيرون واللجنة تلاحقهم من ورائهم شعروا أم لم يشعروا؛ ذلك أن (أتبع) فعل متعد يدل على وقوع اللعنة عليهم دون إرادة منهم.

(1255) في الآية دعوة إلى الحذر من الدنيا، والبعد عن الأسباب الموجبة للسقوط فيها؛ ذلك أن الله أتى باسم الإشارة - الذي يصح الاستغناء عنه ويستقيم الكلام - لبيان للمشركين، ولمن يأتي من بعدهم ممن يسير على شاكلتهم بأن الدنيا التي يعيشون فيها، ويسعون إلى تحقيق كل ملذاتها هي السبب في لعن الأمم الماضية فيها وفي الدار الأخرى أيضا.

¹ ينظر: في ظلال القرآن: 5/ 2695.

² ينظر: التفسير المظهر: 166/7.

³ ينظر: التفسير الوسيط: 10/ 409.

⁴ مفاتيح الغيب: 24/ 601.

(1256) في الآية إشارة إلى أن صفات الناس في الآخرة مرتبة على أحوالهم في الدنيا؛ ذلك أن الله بين أن اللعنة فعل منه، وأن القبح من صفاتهم يوم القيامة، ولم يقل (جعلناهم يوم القيامة) -مع أن كل ما يقع في الدنيا والآخرة بأمر الله- ليبين أن قبحهم ناتج عن أعمالهم. والله أعلم.

(1257) في الآية إشارة إلى أن المقبوحين في الآخرة أصناف وأنواع، وليسوا محصورين في آل فرعون وجنوده؛ ذلك أن (من) إما أن نحملها على التبعض، أو الجنس، وعلى كلا الاحتمالين يكون غيرهم من المقبوحين.

(1258) في الآية إشارة إلى أن الكافر هو الخاسر الحقيقي؛ لأن خسارته في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فاللعنة المطاردة له، والضنك الذي يكتنفه؛ وأما في الآخرة فقبح صورته، والخلود في دار السعير؛ ووجه الهداية أن الله جمع له بين اللعنة في الدنيا، والقبح في الآخرة.

الآية الثالثة والأربعون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا

الْقُرُونِ الْأُولَى بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(1260) في الآية إشارة إلى أن وحي الله بالنسبة للقلوب بمثابة البصر بالنسبة للعيون؛ فكما أن العين تدرك الحُفَرَ والأشواك الحسية ليتجنبها الإنسان، فكذلك القلب؛ إلا أن هذه الأمور معنوية وليست حسية؛ ذلك أن الله أعطى موسى التوراة-التي هي وحي- ووصفها بالنور؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: 174]¹.

(1261) في الآية إشارة إلى أن إيمان اليهود بالتوراة التي أنزلت على موسى فيه دخن؛ ذلك أن الله أكَّد الخبر ب (قد) و(اللام) المشعرتين بالإنكار؛ فكأن الله يقول: إن اليهود لما كذبوا مُجَّدًا، وصدَّقوا بموسى كانوا كأنهم منكرين لجميع الأنبياء؛ لأنهم أتوا بشيء واحد، ودعوا إلى هدف واحد².
(1262) في الآية دعوة لجعل نعم الله أمام العين في الصباح والسماء، في الشدة والرخاء ليعرف العبد قدرها فيشكر الله عليها؛ ذلك أن الله امتن على بني إسرائيل بموسى الذي هو من أعظم النعم عليهم- لعلهم يشكروا ربهم عليها³.

(1263) في الآية دعوة لمن نجاه الله من الهلاك بأن يشكر في الليل والنهار؛ لأنه منَّ عليه من بين كثير من عباده الذين أهلكوا غرقًا، أو خسفاً أو نزلت بهم الصيحة...؛ ذلك أن الله ذكَّر بني إسرائيل بإهلاك القرون الأولى ليعرفوا فضل الله عليهم فيشكروه عليه، ولكن هيهات هيهات، فقد طبعوا على الإنكار، والعتو والاستكبار⁴.

(1264) في الآية إشارة إلى أن وحي الله فيه كل ما يحتاجه الإنسان في دينه ودنياه؛ ذلك أن الله وصف التوراة بأنها بصائر للناس، وهي إنما جاء فيها ما يَهْمُ الناس ويحتاجونه⁵.

¹ ينظر: الكشف: 416/3.

² ينظر: نظم الدرر: 301/14.

³ ينظر: جامع البيان: 583/19.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 583/19.

⁵ ينظر: جامع البيان: 584/19.

(1265) في الآية إشارة إلى أن الله ينسخ شرعه السابق بشرعه اللاحق؛ ذلك أنه ذكر أن في التوراة بصائر، وهذا يقتضي أن تبقى معمولاً بها -على فرض عدم التحريف-، وهذا مالم يقع، فدل بطريق اللزوم على النسخ¹.

(1266) في الآية إشارة إلى أن الله لم يهلك ولن يهلك أي أمة من الأمم بعد نزول التوراة تشريفاً لها، ولمن أنزلت عليه²؛ ذلك أن الهلاك وُقِّت بوقت، فدل مفهوم المخالفة على ضده، وهو عدم الهلاك لمن يأتي بعده.

(1267) في الآية إشارة إلى أن المستبصر للشيء قد لا يهتدي إليه؛ ذلك أن الله عطف على البصائر الهداية ليبين أن المستبصر قد لا يهتدي لمانع³.

(1268) في الآية "إشارة إلى أنه ليس في الشرائع ما يخرج عن العقل بل متى تأمله الإنسان تذكر به من عقله ما يرشد إلى مثله"⁴، ذلك أنه لما ذكر الكتاب الذي هو التوراة أتبعه بالتذكُّر ليبين لنا أن من تذكر هذاه تذكُّره إلى ما في الكتاب.

(1269) في الآية إشارة إلى من أهم عوامل الإقناع تمثيل أمة بأخرى سبقتها، واشتركت معها في صفات كانت هي سبب هلاكها؛ ذلك أن الله بين أنه أهلك قروناً قبل موسى، ثم أهلك بعدها فرعون وملائه، وأشار بأن قريشاً تشترك مع الأمم المهلكة في صفات، فلا شك أنه سيلحقها ما لحقها⁵.

(1270) في الآية دعوة إلى لزوم شرائع الله، لأنها هي السبيل إليه، والهداية إلى رضوانه؛ ذلك أنها ذُكرت الكتاب، والغاية منه، فأشارت إلى لزومه، والسير على منهجه⁶.

¹ ينظر: نظم الدرر: 301/14.

² ينظر: المصدر السابق: 301/14.

³ ينظر: المصدر السابق: 301/14.

⁴ نظم الدرر: 303/14.

⁵ ينظر المحرر الوجيز: 289/4.

⁶ ينظر: أنوار التنزيل: 139/4.

(1271) في الآية إشارة إلى أن من أسباب ضياع المصالح، وحلول المفسد، واختلال نظم العالم، وفشو الشر اندراس معالم الشريعة بعد ظهورها؛ ذلك أن الله تعالى أهلك القرون الأولى التي غفلت عن شريعة ربها التي جاء بها الأنبياء السابقون، وأتى بالتوراة إلى بني إسرائيل حتى يرجعوا إلى الجادة¹.

(1272) في الآية إشارة إلى أن الأمم السابقة كانت تعطل رفضها دعوة المرسلين إليها بأن من سبقها لم يرسل إليهم، فكيف تكون بدعا من الأمم؟؟؟؛ ذلك أن قريشا كانت ترفض الإيمان بمحمد ﷺ بدعوى أن الأمم قبلها لم يرسل إليهم، فجاءت الآية تخبر عن إرسال الله لموسى².

(1273) في الآية إشارة إلى أن بين موسى والأنبياء قبله فترة كما أن بين محمد ﷺ وعيسى فترة كذلك؛ ذلك أن الآية تقرر رسالة محمد ﷺ، فشبهت حاله بحال الرسل الذين قبله، ومنهم موسى عليه السلام³.

(1274) في الآية إشارة إلى أن أهل الشرك يلوذون بكل من يظنون فيه الخلاص من الورطة التي يقعون فيها حتى لو كان ما عنده يلعن بعضه بعضا، وينقض بعضه بعضا؛ ذلك أن الآية جاءت ترد على المشركين الذين كانوا يسترشدون باليهود لمواجهة النبي صلى الله عليه وسلم فكان منهم أن نفوا الرسل قبله، مع أنهم يقولون نحن أتباع إبراهيم، وأيضا قالوا: ﴿لَوْلَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أَوْتِيَ مُوسَى﴾⁴.

(1275) في الآية دعوة إلى البحث عن تناقضات الخصم حتى يضرب بعض كلامه ببعض، ويظهر للناس فساد رأيه، وبطلان معتقده؛ ذلك أن الآية تقرر رسالة محمد ﷺ برسالة موسى الذي نفاه المشركون مرة، وأثبتوها مرة أخرى⁵.

(1276) في الآية إشارة إلى أن من حسن الكلام في الدعوة الجمع بين الاستدلال، والانداز في آن واحد؛ ذلك أن الآية تقرر رسالة محمد ﷺ، وتهدد قريشا ومن على منوالهم بإهلاكهم كما أهلك الأمم قبلهم⁶.

¹ ينظر تفسير المراغي: 63/20.

² ينظر: التحرير والتنوير: 128/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 128/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 128/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 128/20.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 128/20.

(1277) في الآية إشارة إلى أن تأخير الرسالات بعضها عن بعض ليس عبثاً، وإنما لحكم عظيمة منها الرحمة بالقوم، وحصول التعقل؛ ذلك أن التنصيص على الفتر أي الانقطاع في هذا المقام يُوحى بأنه أراد بالقوم خيراً¹.

(1278) في الآية إشارة إلى أن كتاب الله له دلالات عدة، وأوجه مختلفة، فمن أي منها نَظر إليه العبد دلَّه على الطريق المستقيم؛ فمن نظر من وجه بلاغته هداة، ومن نظر من جهة أحكامه هداة، ومن نظر من جهة قصصه وأخباره هداة...؛ ذلك أن الله تعالى أخبر عن كونه بصائر ب (جمع الكثرة)².

(1279) في الآية إشارة إلى أن التذكر مطلوب من الناس أجمعين، سواء الذين كانوا قبل مُحَمَّد، أو الذين أتوا بعده؛ ذلك أن التوراة كان من جملة المقاصد منها تذكرُ الناس، وذكرت هنا لبيان أن قريشا مثلهم³.

(1280) في الآية إشارة إلى أن التوراة وإن أرسلت إلى بني إسرائيل فإن من أراد الالتزام بها فله ذلك، دليل هذا لفظ الناس الذي يعم جميع بني آدم، إلا أن الفرق بين ما جاء به موسى وما جاء به مُحَمَّد ﷺ هو أن ما جاء به موسى لازم لبني إسرائيل وحدهم، ويحق لغيرهم الالتزام به؛ وأما ما جاء به مُحَمَّد ﷺ فلازم للجميع؛ ويؤيد هذا التاريخ، إذ قد تهود قوم ليسوا من بني إسرائيل، كالعرب الذين كانوا في اليمن (في فترة من فتراتها)، وكذلك ورقة وغيره⁴.

(1281) في الآية إشارة إلى أن الناس عادة ما ينسون الأَمَّ التي كانت قبلهم، فعذبها الله لكونها تعمل مثل أعمالهم؛ ذلك أن الله تعالى أخبر أنه أهلك القرون الأولى، فاندثرت واندثرت آثارهم، فلما جاء الذين بعدهم نسوهم كأن لن يكونوا قبلهم⁵.

(1282) في الآية إشارة إلى أن القرآن الكريم أيضاً بصائر للناس وهدى ورحمة؛ ذلك أن الله بين أن موسى جاء بعد فترة من الرسل، وعَرَّض بهذا عن رسول الله ﷺ⁶.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 129/20.

² ينظر: المصدر السابق: 129/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 129/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 129/20.

⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 351/10.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 352/10.

(1283) في الآية إشارة إلى وجوب القتال على هذه الأمة لتكون شريعة الله هي الحاكمة -إذا
اعترض طريق الدعوة معترض- بخلاف الأمم السابقة، فقد كان الواجب عليهم البلاغ فقط، والإتيان
بالمعجزات التي يكون بعض منها من اقتراح أقوامهم، فإن كذبوا تول الله عقابهم؛ ويؤيد هذا قوله
تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ
الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 40]¹.

(1284) في الآية إشارة إلى أن ماعدا كتاب الله من المناهج فهو باطل، وإن ظهر للناس أنه الحق
المبين؛ ذلك أن القرون الأولى التي أهلكها الله كانت لها مناهج تعتمد عليها، وتراها الحق المبين، فجاءت
التوراة عاصمة لهم مما هم فيه².

(1285) في الآية إشارة إلى أن الناس قد ينسون الأمور العظام حتى يصلوا إلى ما فطرهم الله عليه،
فيمحونه من ذاكرتهم، ويحلون محله ضده؛ ذلك أن من جملة مقاصد الآية تذكير العباد بما نسوه من
التوحيد³.

(1286) في الآية تنبيه إلى أن الأمم -عادة- تكون، أكثر إقبالا على الأمر الذي غاب عنها
سنين، وتشوفت للحصول عليه؛ ذلك أن الله تعالى لم يأت بالتوراة إلى بني إسرائيل إلا بعدما احتاجوا
إليها، كما يشعر بهذا لفظ القرون⁴.

(1287) في الآية دعوة لشكر الله على نعمه؛ ذلك أنها ختمت بتعليل الإيتاء بالتذكر الذي يؤدي
إلى الشكر⁵.

(1288) في الآية إشارة إلى أن كتاب الله نعمة من نعمه يجب على الناس شكرها في الليل والنهار؛
ذلك أن الله وصفه بالرحمة⁶.

¹ ينظر: الخواطر: 18/10934.

² ينظر: المصدر السابق: 18/10937.

³ ينظر: المصدر السابق: 18/10941.

⁴ ينظر: التفسير الوسيط: 10/410.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 10/410.

⁶ ينظر: الباب: 15/263.

(1289) في الآية دعوة للعباد لأن يتذكروا نعم الله وإن مرت بهم فترات الغفلة؛ ذلك أن التذكر جاء بصيغة المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

(1290) في الآية إشارة إلى أن أهل قريش ومن جاورهم كانوا يعلمون بنزول التوراة على موسى؛ ذلك أن الكتاب جاء معرّفًا بالألف العهدية؛ والأصل في الأسماء أن تأتي نكرة، ولا يعدل عنها إلا لمعنى بلاغي، فلما عدل عنه دل على هذا المعنى. والله أعلم.

(1291) في الآية إشارة إلى أن أن القرون التي أهلكها الله قبل موسى ليست محصورة في قوم نوح وعاد وثمود...، بل هناك أمم أخرى لم تُذكر كما لم يذكر كثير من الأنبياء والمرسلين؛ ذلك أن القرون جاءت على وزن الفُعل، وهو من أوزان جمع الكثرة.

(1292) في الآية إشارة إلى أن من الحكمة في الدعوة تحليل الناس بين الفينة والأخرى، حتى يستوعبوا الكلام، ويتفخوا على حقائقه؛ ذلك أن الله كان يجعل فترة بين الرسل حتى يحتاج الناس للوحي، بحيث إذا سمعوه أعطوه أسماعهم وعقولهم.

(1293) في الآية إشارة إلى أن وحي الله جمع بين النور الذي يضيء للناس، والهدي الذي يرشدهم، والرحمة التي تُراعي حالهم؛ ذلك أن هذه المذكورات عُطفت بالواو الدالة على التشريك.

(1294) في الآية إشارة إلى أن وحي الله يوصل العباد إلى النهاية التي يرجون منها النور، والهدى والرحمة؛ دل على هذا حرف (إلى) الدال على الغاية.

(1295) في الآية إشارة إلى أن من نظر إلى كتاب الله يهتدي، لأنه لم يقصر على فئة معينة، بل يعم جميع الناس، ويشمل جميع الأصناف، فهو بصيرة للفلاحين، وبصيرة للأطباء، وبصيرة للفقهاء...، ذلك أن وصفه بالبصائر دون البصيرة يوحي بتعدد أوجه النور.

(1296) في الآية إشارة إلى جواز القسم في الدعوة إلى الله، كأن يقسم الداعية على شيء ذكره الله في القرآن، أو النبيّ العدنان؛ ذلك أن الله تعالى أقسم على إتيانه موسى الكتاب، فكان هذا تنبيهنا لنا على هذا المعنى والله أعلم.

(1297) في الآية إشارة إلى أن إقسام العلماء على الحقائق الدينية يجعلها متقررة في الأذهان، وأقرب إلى تصديقها من المدعويين؛ ذلك أن الله أقسم على إنزاله التوراة لكي يتقرر هذا المعنى في النفوس.

(1298) في الآية إشارة إلى أن الله سينشئ قرونا أخرى بعد التي أهلكها قبل نزول التوراة؛ ذلك أنه قيد القرون بالأولى، فدل بالمفهوم على القرون الثانية.

(1299) في الآية إشارة إلى أن من أفضل أساليب الخطاب في الدعوة إلى الله التذكير بما فعل الله بالأمم الماضية قبل بيان الفضائل التي يعطيها للأمم التالية؛ ذلك أن الله تعالى أتى بجملة اعتراضية بين إنزال الكتاب، والهدف منه، ذكّر فيها بما فعل بالأمم الماضية، ليكون هذا رادعا لقريش، ومحفزا لها في آن واحد إلى الإسراع إلى القبول.

(1300) في الآية تنبيه للدعاة بأن لا ييأسوا من تذكّر المدعوين، بل يجب عليهم السير على طريقهم لعل قومهم يتذكرون بعد سنين؛ يفهم هذا من الفعل المضارع الدال على التجدد، ويؤكد هذا فعل النبي صلى الله عليه مع الطائف وغيرها من القبائل التي ردت دعوته، فما زال يدعو حتى هداهم الله أجمعين، فصلى الله عليه وسلم، وجزاه عنا خير ما جرى نبيا عن أمته.

الآية الرابعة والأربعون، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ

مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝٤٤﴾

(1301) في الآية إشارة إلى أن النبي ﷺ كان يتحدث عن الغيوب الماضية كأنه رآها رأي العين؛ ذلك أن الله نفى عنه الكون في زمانٍ حدوث الحوادث التي يتحدث عنها فأشار إلى أن أخباره كأنها رأي العين¹.

(1302) في الآية إشارة إلى أن سنن الله ماضية في الخير والشر، فكما أنه يهلك الأمم التي تشترك في صفة الإهلاك، فإنه يرحم الأمم التي تشترك في صفات الرحمة، ذلك أنه ﷺ بين أنه أرسل موسى بعدما احتاج الناس إلى النور والهدي، وأشار إلى أنه أرسل محمدًا ﷺ لاحتياج الناس إلى النور والعلم كذلك².

(1303) في الآية إشارة إلى أن أفضل أساليب الدعوة أن تبدأ بحجج المعارضين فتنفدها ثم تلحقها بحجج دامغة لا تبقى مجالاً للشك، ولا باباً للتملص؛ ذلك أن الله تعالى أبطل حجج المشركين المتمثلة في نفهم إرسال الرسل إلى الأمم السابقة، ثم قرر رسالة محمد ﷺ بغيبات لا يمكن أن يعلمها إلا نبي³.

(1304) في الآية إشارة إلى أن الدعاة يحسن بهم عند الاستدلال على نبوة نبي ما أن يُرفقوا كلامهم الحديث عن نبي آخر، حتى يتقوى الاستدلال، وتثبت نبوة جميع الأنبياء؛ ذلك أن الآية تتحدث عن نبي الله موسى، فإذا بالكلام ينتقل إلى إثبات نبوة محمد ﷺ صلى الله عليه وسلم⁴.

(1305) في الآية إشارة إلى أن الاستدلال وفق الطريق الكلامي محمود إذا روعيت شروطه؛ ذلك أنها انطلقت من نفي وجود النبي ﷺ في مكان نزول الوحي على موسى، لإثبات الوحي لمحمد ﷺ⁵.

(1306) في الآية إشارة إلى أن الشهادة على دين الله وأنبيائه ورسوله لا تكون للجميع، بل لمن لهم الحق فيها؛ ذلك أن الله لما ذكر الشاهدين عن علماء اليهود الذين استؤمنوا على

¹ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 240/6.

² ينظر تفسير المراغي: 65/20.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 129/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 130/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 130/20.

(1307) التوراة¹.

(1308) في الآية إشارة إلى أن النبي ﷺ لم يخرج من مكة لقصد التعلم، ولم يلتق بعالم من علماء اليهود والنصارى ليتعلم منهم؛ ذلك أن نفي الشهادة عنه يستلزم كونه لم يعلم بالأمر أصلاً².

(1309) في الآية إشارة إلى فضل أمة محمد على سائر الأمم؛ ذلك أن الله تعالى أجابها عن حال محمد ﷺ مع موسى، فقبل أن يبادر أي فرد من أفرادها بسؤال النبي ﷺ هل كنت معه حتى تروي لنا قصته؟ أجابه القرآن³.

(1310) في الآية إشارة إلى أن العمل بوحي الله سبب في الوصول إلى رحمته؛ لأن بني إسرائيل كانوا يخبطون خبط عشواء، فجاءهم الله بالتوراة لتوصلهم إلى رحمته⁴؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 88].

(1131) في الآية شاهد لمذهب البصريين المجوزين إضافة الصفة إلى الموصوف دون قيد أو شرط؛ ذلك أن الجانب صفة، والغري موصوف، وقد أضيف الجانب إلى الغري؛ ومثل الآية الكريمة: ﴿وَذَلِكَ دِينَ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وغيرها من الآيات⁵.

(1312) في الآية دعوة للنظر في ألفاظ القرآن بعين فاحصة؛ لأنها قد تُحمل على معان متعددة وتصلح لها جميعها، فالأمر: يصح حمله على الوحي، وهو الظاهر، ويصح حمله على محمد صلى الله عليه وسلم، يعني أن يكون موسى من أمته، ويصح حمله على إغراق فرعون⁶.

(1313) في الآية دليل على جواز عطف العام على الخاص؛ ذلك أنها نفت حضور النبي صلى الله عليه وسلم عليه لمكان قضاء الأمر، ثم نفت كونه من الشاهدين، والشهادة إنما هي جزء من الحضور⁷.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 130/20.

² ينظر: المصدر السابق: 130/20.

³ ينظر: جامع البيان: 584/19.

⁴ ينظر: الكشف: 417/3.

⁵ مفاتيح الغيب: 601/24.

⁶ ينظر: البحر المحيط: 308/8.

⁷ ينظر: البحر المحيط: 308/8.

(1314) في الآية شارة إلى أن استعمال المغيبات التي أتى بها الوحي عند نقاش الملحدين، والمنكرين للبعث والجزاء عاملٌ مهم من عوامل النجاح في الدعوة؛ ذلك أن الله ذكّر قريشا ونحن معها بالحقائق التي أتى بها الوحي لتسارع إلى الإيمان به، لكنهم تكبروا وعاندوا.

(1315) في الآية إشارة إلى أن كلام الله عظيم الشأن جليل القدر، عالي المنزلة، ينبغي أن يصل إلى كنه الإنسان وكيانه، حتى يشعر بحلاوته، ويتذوق معانيه؛ ذلك أن الله أتى بنون العظمة، وأتبعها بحرف الغاية فأشعرنا بما ذكرت، والله أعلم¹.

(1316) في الآية إشارة إلى صحة مسلك السبر والتقسيم الذي يعتمدونه الأصوليون في استنباط الأحكام، وتقرير القواعد؛ ذلك أن الله تعالى نفى عن محمد ﷺ شهادته وحضوره قضاء الله لموسى، والخبر إما أن يدرك عن شهود، أو عمن شاهده، أو العليم الخبير، فانتفى الأمران السابقان بالضرورة والنص، وثبت الآخر، فدل على كونه من رسل الله².

(1317) في الآية إشارة إلى أن الأمم الماضية لم تدون أخبارها على الوجه الصحيح، أو لم تدونها أصلا؛ ذلك أن الآية استدلت على رسالة محمد ﷺ بإخباره بأمور تاريخية، فلو كانت موجودة لانتشرت بين الناس كما هو حال الأخبار في زماننا، فعند المسلمين أخبار أوروبا وأمريكا...، كما عند أوروبا وأمريكا... أخبار المسلمين، فالتاريخ لا يُحجب إن دُون³.

(1318) في الآية إشارة إلى أن أهل مدين كانوا يقرؤون، وينقلون العلم بعضهم عن بعض؛ ذلك أن الله أتى بلفظ الثواء المشعر بالإقامة التي يلزمها التعلم بالتعلم⁴.

(1319) في الآية إشارة إلى صدق النبي في دعواه النبوة؛ ذلك أنه ﷺ أتى بأمور -وهي ما قصه الله من نبأ موسى وفرعون- لم يحضر زمن وقوعها، ولا كان من الشاهدين عليها.

(1320) في الآية إشارة إلى أن مصدر الغيب هو الوحي فقط، ومن رآه من غيره كالطالب جذوة

نارٍ من الماء

¹ ينظر: نظم الدرر: 303/14.

² ينظر: المصدر السابق: 303/14.

³ ينظر: التفسير الوسيط للزحيلي: 1921/3.

⁴ ينظر: الخواطر: 10940/18.

(1321) في الآية دليل على جواز الشهادة وإن لم يحضر الشاهد الواقعة؛ ذلك أنها فرقت بين الحضور وبين الشهادة فدلّت على جوازها والله أعلم.

(1322) في الآية إشارة إلى أن الشاهد لا يشترط فيه أن يكون من بني آدم، ولا ممن يعقل، بل يكون منهم، ويكون من غيرهم؛ ذلك أن الله أتى بـ (الشاهدين) جمعا، وأتى بـ (من) التبعية قبلها، فأشعرنا أن هناك من شهد موسى وهو يناجي ربه، وليس بالضرورة أن يكون إنسانا؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْذِرُهُ فَمَا أَصْبَرَهُمْ﴾ [الزلزلة: 4].

(1323) في الآية دعوة للإيمان بما أخبر الله به على طريق الإجمال فيما لم يفصل فيه؛ ذاك أنه ذكر سبحانه الشهادة، ولم يفصل في المشهود عليه؛ أهو كالقرآن أم كالسنة، أم كالحديث القدسي، فأشار إلينا بالإيمان، ونَبَّهنا على السكوت عما لم يفصل.

(1324) في الآية إشارة إلى جواز تأكيد الشيء الذي يعلم الجميع أنه ثابت، أو أنه منفي؛ ذلك أن مُحَمَّدًا ﷺ يعلم من نفسه، وتعلم قريش وغيرها أنه لم يحضر مكان تكليم الله موسى، ولم يعيش زمانه ومع ذلك أكد ربنا هذا بالباء الداخلة على خبر (ما).

(1325) في الآية إشارة إلى أن الله تعالى إذا أراد الرحمة لعبده يجعله داعيا إليه؛ ذلك أن الله نفى عن مُحَمَّدٍ ﷺ العلم بالأحداث التاريخية، ثم بين أنه رحمة بالدعوة إليه.

(1326) في الآية إشارة إلى أن الشهود لا يشترط فيهم كثرة العدد، وإنما توفر صفات الشهادة؛ ذلك أن الله تعالى أتى بـ (الشاهدين) التي هي جمع قلة للدلالة بها على سبعين ممن حضر مع موسى، فأفاد هذا المعنى والله أعلم.

(1327) في الآية إشارة إلى صحة بعض الاستدلالات المنطقية، كالانطلاق من المقدمة المتفق عليها، إلى النتيجة المختلف فيها؛ ذلك أنها انطلقت من عدم كون مُحَمَّدٍ ﷺ صلى الله عليه زمن بعث موسى، وهذا متفق عليه، إلى إثبات كونه نبيا، وهذا مختلف فيه.

(1328) في الآية إشارة إلى أن العبرة ببقاء أثر الرسالة، لا بالزمن الفارق بينها وبين التي قبلها؛ ذلك أن الآية نفت نفيا مطلقا أن يكون في العرب نذير قبل مُحَمَّدٍ ﷺ.

الآية الخامسة والأربعون، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَاهُ فَرُوقًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا

كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(1329) في الآية إشارة إلى أن قصص الأنبياء السابقين مما يجب على العلماء العلم به على الطريق الصحيح ليكون ساعدا لهم في الإقناع؛ ذلك أن الله أرسل مُحَمَّدًا ﷺ وامتن عليه بأنه علمه قصص الأنبياء السابقين¹.

(1330) في الآية إشارة إلى أن تطاول الأزمان يجعل العلوم تدرس، والرسالة تندثر؛ ذلك أن تعليل إرسال الرسالات جاء بناء على اندراس السابقات².

(1331) في الآية إشارة إلى أن من علامات المعجزات أن تكون على خلاف السائد، وتقرن بها التحدي؛ ذلك أن النبي ﷺ أخبر عن أحداث مضت بالدقة والتفصيل مع أنها لا يمكن أن تدرك - عند البشر - إلا بالنقل الصحيح، فدل على أنه رسول من رسل الله³.

(1332) في الآية إشارة إلى أن من أعظم وجوه الإعجاز ذكر السبب وحذف المسبب الذي يدرك من سياق الكلام، أو القرائن الحالية أو المقالية؛ ذلك أن الله تعالى ذكر تطاول الزمن الذي هو سبب في الإرسال، ولم يذكر المسبب الذي هو إرسال مُحَمَّد ﷺ لكونه مفهوما من القرائن⁴.

(1333) في الآية إشارة إلى أن الدعاة والعلماء يجب عليهم نفي ما علق بالشرعية مما ليس منها، وبيان ما يقبل التغيير وما لا يقبله؛ ذلك أن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ ليعين الحق من الباطل، ويظهر ما له أصل في الحنفية، وما لا أصل له فيها، وإنما أدخل عبر العادات، أو بقصد المغرضين. والعلماء هم حبل الأنبياء، ورثوا ما كلفهم الله به، وما أوجب عليهم من البيان⁵.

(1334) في الآية تنبيه للعباد بأن الموت يلاحقهم كما لاحق الأمم الماضية؛ ذلك أن الله بين أنه أنشأ قرونا، فأشار إلى أنه أفناها، فالعاقل من يعتبر ويتعظ⁶.

¹ ينظر: الكشف: 417/3.

² مفاتيح الغيب: 601/24.

³ المصدر السابق: 603/24.

⁴ ينظر: البحر المحيط: 309/8.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 309/8.

⁶ ينظر: نظم الدرر: 304/14.

(1335) في الآية إشارة إلى أن التدرّيج من أهم عوامل التغيير، سواء إلى الأحسن أو الأقبّح؛ ذلك أنّها ذكرت أن تطاول العمر أتى بالتدرّيج على نحو ما كان من الخير في الأمم السابقة، فكذلك الشأن مع الشر. وسيرة النبي ﷺ خير شاهد على هذا¹.

(1336) في الآية إشارة إلى من طبيعة البشر النسيان إذا تطاولت الأزمان؛ ذلك أن المشركين كانوا يقرون برسالة موسى عليه السلام بل كانوا يذهبون لسؤال اليهود عن أمور يُعجزون بها رسول الله ﷺ، ومع ذلك أظهروا أنفسهم كأن لم يعلموا من قبل، كما توحى به الإيجاز المستفاد من ﴿فَطَاوَلْ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي فنسوا رسالة موسى².

(1337) في الآية إشارة إلى أن تكرير نفس الدليل بمثال آخر أو أمثلة أخرى لا يعد قبيحاً، بل يدل على معرفة الداعي لما يدعو إليه، والغاية التي يصل إليها؛ ذلك أن الله ذكر في الآية السابقة أن مُحمّداً ﷺ لم يكن حاضراً أثناء مناجاة الله لموسى، وذكر أنه لم يكن مقيماً في أهل مدين حتى يروي قصتهم؛ فهما من جنس واحد³.

(1338) في الآية إشارة إلى أن من عادات الناس إذا سافروا لبلد معين أنهم إذا رجعوا إلى أوطانهم يحدثون قومهم بما شاهدوه؛ ذلك أن الآية نفت كون رسول الله مقيماً في مدين لتثبت أن حديثه عنها إنما هو بالوحي⁴.

(1339) في الآية إشارة إلى أن ما يخبر الله به من الغيوب التي لا يطلع عليها إلا بالنقل، يصح تسميته بالآية؛ ذلك أن الله وسم ما أخبر به مُحمّداً ﷺ من أمر موسى بالآيات⁵.

(1340) في الآية دعوة إلى عدم الحكم بقواعد العربية وحدها، بل لا بد من مراعاتها، ومراعاة أسلوب القرآن؛ ذلك أن الضمير (هم) لم يسبق له مرجع، فكان ظاهر العربية يقضي بأن يرجع على أهل مدين، لكن هذا يفسد المعنى، ويخل بالقصد⁶.

¹ ينظر: المصدر السابق: 304/14.

² ينظر: التحرير والتنوير: 131/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 131/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 132/20.

⁵ ينظر: التفسير الوسيط: 412/10.

⁶ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 353/10.

(1341) في الآية إشارة إلى أن بعد الناس عن زمن الوحي والرسالات من أسباب نكرانه؛ ذلك أن كفار قريش وغيرهم يؤمنون في الجملة بنزول الوحي على رجال سابقين كإبراهيم وموسى ومع ذلك أنكروا نبوة محمد ﷺ مع أنه جاء بمثل ما جاءوا به.

(1342) في الآية إشارة إلى أن دعوة الله واجبة التبليغ على العلماء والدعاة إلى كل خلق الله على قدر المستطاع؛ ذلك أن الله أرسل محمدًا ﷺ إلى قوم ليس فيهم وحي ليقيم عليهم الحجة، وأوجب عليه التبليغ فكذا الأمر بالنسبة للدعاة والعلماء.

(1343) في الآية إشارة إلى وجوب رواية الأخبار والأحداث كما هي دون زيادة ولا نقصان؛ ذلك أن النبي ﷺ أخبر عن ما وقع دون زيادة ولا نقصان.

(1344) في الآية إشارة إلى أن من شرط الحديث عن قوم المكوث معهم مدة تكفي لمعرفة عاداتهم وتقاليدهم، وطرق حديثهم لا أن يحدث عنهم بمجرد المرور؛ ذلك أن الله أتى بلفظ الثواء الذي يعني الإقامة ليشعرنا بهذا المعنى والله أعلم.

الآية السادسة والأربعون، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً

مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(1346) في الآية دعوة للخارجين عن منهج الله إلى العودة إلى صراطه، وتذكر نعمه وآلائه؛ ذلك أن الله بيّن كون النبي رحمة، ثم علل ذلك بتذكر العباد¹.

(1347) في الآية إشارة إلى أن من هياه الله لمنصب النبوة، أو لمنصب الدعوة فقد أراد رحمته، ورحمة المرسل عليهم، أو المدعوين؛ ذلك أن الله بيّن أن إرسال محمد صلى الله عليه رحمة، ولكن لم يحدد الذين تكون لهم الرحمة، فدل على أنها للمرسل والمرسل إليهم، والدعاة، والمدعوين².

(1348) إلى أن القوم الذين لم يرسل عليهم رسول خاص لا بأس بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر؛ لأن المعروف محبوب في حد ذاته، والمنكر مرفوض أيضا في حد ذاته؛ ذلك أن الله ذكر أنه لم يُرسل نذيرا إلى العرب، ولكن كان منهم من يسمع عن اليهود والنصارى بعض الأمور النافعة³.

(1349) تشير الآية إلى أن الشيء الذي صار معروفا ينبغي أن لا يعرف مرة أخرى، ذلك أن الطور ذكر وصفه قبل، وذكر هنا بلا وصف لأنه صار معروفا⁴.

(1350) في الآية إشارة إلى أن قارئ القرآن ينبغي أن يعرف مواقع الكلمات المتفقة في الألفاظ المختلفة في المعنى، فيحمل كل واحد منها على ما يليق به مستعينا بمقصود الآيات والسور، والأحداث والسياق؛ ذلك أن النداء ذكر هنا، وذكر في الآية الثلاثين من نفس السورة؛ إلا أن المقصود بالأول نداء التكليم الأولي بعد رجوعه من مدين، والمقصود هنا نداء نزول التوراة، مع أن المكان واحد، والمنزل عليه واحد كذلك⁵.

¹ ينظر: جامع البيان: 586/19.

² ينظر: نظم الدرر: 305/14.

³ ينظر: المصدر السابق: 305/14.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 133/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 133/20.

(1351) في الآية إشارة إلى أن حضور الأجسام في مكان ما لا قيمة له، إنما القيمة للعلم المتعلق بذلك المكان؛ ذلك أن الله تعالى نفى علم النبي صلى الله عليه وسلم بما وقع لموسى عن طريق الحضور، وأثبت له العلم عن غير طريقه، فأثبت أن المقصود هو العلم¹.

(1352) في الآية بيان لمقام النبي ﷺ عند الله؛ ذلك أنه عدل عن (رحمة منا) إلى رحمة من ربك، فأظهر في موضع الإضمار، وأتى بلفظ الرب المشعر برعية الله لنبيه ﷺ².

(1353) في الآية إشارة إلى أن قريشا لم يُرسل عليها إبراهيم ولا إسماعيل؛ ذلك أن الآية نفت نفيا قاطعا وجود نذير قبل محمد ﷺ، فدلّت لزوما على كون قريش أتت بعد إبراهيم وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام³.

(1354) في الآية تنبيه على فضل العرب، وأن الله امتن عليهم بنبي جاء بشريعة ليس لها نظير؛ ذلك أن الله تعالى خصهم بالذكر مع النبي ﷺ الذي جاء رحمة للعالمين ليشعرهم بهذه النكتة⁴.

(1355) تشير الآية إلى أن الأمة الخالية من الوحي مختلفة تمام الاختلال، وأن الأمة التي تكون فيها بعض شريعة نبي يكون فيها من الخير على قدر شريعته؛ ذلك أن الله امتن على العرب بالوحي لأنهم لم تكن لهم شريعة خالصة، إنما بقايا شريعة مع التحريف والتبديل⁵.

(1356) في الآية دليل على وجوب تصديق النبي ﷺ فيما أخبر عنه من المغيبات التي لم يحضرها في زمانه، وبعد زمانه، فما أخبر عنه في معركة مؤتة يجب التصديق به وإن لم يروه أحد ممن حضر- لذلك سمى العلماء هذه المعركة بالغزوة مع أنه لم يحضرها-، وما أخبر عنه من الفتن التي تكون في آخر الزمان يجب تصديقه كذلك، سواء أدركته العقول أم لا؛ فقد يقول قائل كيف تكون المعركة في آخر الزمان بالسيوف والآن نعيش عصر التطور في جميع المجالات، حتى إن الحروب تسير من القصور والثكنات البعيدة !!!؛ ذلك أن تصديقنا بما أخبر عنه في زمن موسى دون أن يحصر يلزمنا بتصديقه بما يخبر عنه في المستقبل.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 133/20.

² ينظر: المصدر السابق: 134/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 134/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 134/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 134/20.

(1357) في الآية إشارة إلى أن الرحمة التي أتى بها مُحَمَّدٌ ﷺ ستبقى في الأرض إلى أن يشاء الله؛ ذلك أنها جاءت في بعض القراءات مرفوعةً، فتكون حينئذ خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: (هي رحمة) فتصير جملة إسمية دالةً على الثبوت وال لزوم، والله أعلم.

(1358) في الآية إشارة إلى أن اختلاف المفسرين مقصودٌ من مقاصد القرآن الكريم، وليس كما يظهر للبعض بأنه شر مستطير، ومنكر عظيم؛ ذلك أن الله تعالى لم يذكر المفعول به (المنادى) فترك المفسرين يقدرونه بتقديرات عدة.

(1359) في الآية إشارة إلى أن القوم تعلو منزلتهم عند الله، وعند الخلق إذا سمّوا بأنفسهم عن مواضع الذل والمهانة، ذلك أن العرب الذين لم يرسل إليهم نذير قبل مُحَمَّدٌ ﷺ معروفون ومع ذلك نكّروهم (قوما) تقليلًا من شأنهم، وتهيدا للناس في طريقهم، والله أعلم.

(1360) في الآية إشارة إلى أن نفي الشيء في الماضي لا يستلزم نفيه في الحاضر والمستقبل؛ ذلك أن الله تعالى نفى عن العرب النذير في الماضي نفياً قاطعاً، ثم أرسل إليهم مُحَمَّدًا ﷺ.

(1361) في الآية إشارة إلى أن الإنذار لا يستعمل إلا مع القوم الذين يقتربون ما يوجب العقاب؛ ذلك أن الآية فيها لفظ الإنذار الذي يدل أصله على وجوب شيء على شخص، ولم يأت فيها التخويف الذي يكون عند وجوب العقاب، ويكون قبل الإقدام عليه.

(1362) في الآية إشارة إلى أن الداعية إلى الله إذا رأى في قوم فعلاً يستحقون عليه العقاب فعليه أن يستنفذ طاقته، ويبلغ أقصى ما عنده من جهد لتصوير العقاب في أذهانهم؛ ذلك أن الله أتى ب (نذير) التي هي اسم فاعل، ولم يأت بمنذر التي هي أيضاً اسم فاعل؛ لأن الأولى تدل على المبالغة.

(1363) في الآية إشارة إلى أن الداعية الصادق هو الذي يحمل همّ أمته، فيوجهها إلى الطريق الصحيح في الليل والنهار، في الشدة والرخاء؛ ذلك أن اسم الفاعل فيها (نذير) أتى على طريقة الصفة المشبهة، الدالة على أن النذارة صارت وصفا لازما للداعية لا يغيب عنه بحال من الأحوال.

الآية السابعة والأربعون، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا

رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(1365) تشير الآية إلى من طبيعة العباد الاعتذار، فلو عوقبوا على شيء لم يعرفوا عواقبه لقالوا لو جاءنا النذير لتركناه، وإذا جاءهم نبذوا قوله وراء ظهورهم، وحاربوه بما يملكون من قوة¹؛ ويؤيد هذا ما حدث لبني إسرائيل الذين طلبوا القتال، فلما فرض عليهم رفضوه.

(1366) في الآية إشارة إلى أن أعداء الأنبياء والدعاة يظهرون كأنهم هم الباحثون عن الهدى، الساعون في طلب أهله إذا حل بهم عقاب الله؛ ذلك ان الله أتى بحرف (لولا) التحضيضية، المشعرة بأنهم يبحثون عن الحق².

(1367) في الآية إشارة إلى أن الدعاة لا تبرأ ذمهم إلا إذا لم يعد لقومهم حجة أمام الله؛ ذلك أن الله تعالى بين العلة التي من أجلها أرسل الرسل، وهي عدم قولهم: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾، وليس المقصود الإرسال فحسب، إنما البيان الكافي³.

(1368) في الآية إشارة إلى أن أعداء الدعاة لا يتأسفون بعد فوات الأوان على عدم إيمانهم بالله تعالى، وإنما لحلول العقاب بهم؛ ذلك أن قولهم هذا لأجل الخلاص منه، وليس من أجل الحصول على الإيمان؛ ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَانُهَا وَعُنَّ وَانْهَمَ لَكُذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: 28]⁴.

(1369) في الآية إشارة إلى جواز إعطاء حكم الأقل للأكثر، وتغليبه عليه؛ ذلك أن أعمال بني آدم بعضها يكون بقلبه، وبعضها يكون بجوارحه، وأكثر الجوارح عملا هي الأيدي، لذلك أتى بها وحدها للدلالة على أعمالهم⁵.

¹ ينظر: جامع البيان: 586/19.

² ينظر: الكشف: 418/3

³ ينظر: المصدر السابق: 418/3

⁴ ينظر: المصدر السابق: 418/3

⁵ ينظر: المصدر السابق: 419/3

(1370) في الآية إشارة إلى أن الكفر درجات، وأنه قد يستحكم من العبد فيجعله غير آسف عليه حتى لو أصابه العذاب بسببه، فيكون حينئذ آسفا على العذاب، وليس على سببه؛ ذلك أن الله بين أنهم يحتجون بعدم الإرسال، وذكر في آية أخرى أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، ولذلك قال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، ولم يقل: ولولا أن يقولوا¹.

(1371) في الآية إشارة إلى أن الذين يشركون بالله يستحقون العقاب؛ إلا أن الله عفا عنهم رحمة منه وفضلا حتى يرسل إليهم الرسل، فيقيموا عليهم الحجة؛ ذلك أن الله تعالى لم يذكر جواب (لولا) فقدر ب (لعلناهم بما يستحقونه)².

(1372) تشير الآية إلى أن اليهود يتناقضون مع أنفسهم، فيؤمنون بالشيء إذا جاء من جهة، ويكفرون به إذا جاء من جهة أخرى؛ ذلك أنهم يؤمنون بما جاء به موسى من العصا واليد... لأنه جاء في التوراة، أو ورثوه أبا عن جد، ويكفرون بكل هذا لأنه جاء عن مُحَمَّد ﷺ³.

(1373) في الآية إشارة إلى أن الله تفضل على الخلق بإرسال الرسل لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وليس شيء من ذلك واجبا عليه؛ ذلك أن الله تعالى بيّن أنه أرسل حتى لا يقولوا، وليس لأنهم يقولون: (هذا واجب علي)⁴.

(1374) في الآية دليل على إجلال الله تعالى لرسوله ﷺ؛ ذلك أنه حذف الجواب المتضمن لإرساله، حتى لا يكون في مواجهتهم⁵.

(1375) في الآية إشارة إلى أن من الذنوب ما يعفى منه الإنسان، ومنها ما يستحق المؤاخذه عليه؛ ذلك أنه ربط بين تقديم الأيدي وبين العقاب، وبيّن في آية أخرى أن اجتناب الكبائر سبب لتكفير غيرها⁶.

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 604/24.

² ينظر: المحرر الوجيز: 290/4.

³ ينظر: المصدر السابق: 291/4.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 307/14.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 307/14.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 307/14.

(1376) في الآية إشارة إلى أن الحق ليس محصوراً إدراكه في الكتاب والسنة، بل يمكن أن يدرك بما جعل الله في قلب الإنسان من فطرة، أو بما وضع الله في خلقه من آيات؛ ذلك أنه قال : (جاء الحق)، ولم يقل جاء الكتاب مع أن الكتاب يأتي بالحق؛ ليرشدنا إلى أنه لا يمكن أن يخالف ما دل عليه العقل الصريح، وما شهد به الكون المنظور¹.

(1377) في الآية إشارة إلى وجوب قبول الحق بغض النظر عن مصدره، فإن جاءنا من الكتاب فبها ونعمت، وإن جاءنا من غيره-ولا بد أن يكون الكتاب أشار إليه، لأن فيه تبيان كل شيء-وجب قبوله؛ فإن توصل مثلاً من ليس على الإسلام إلى مسألة شهد لها العقل والحس والتجربة بالصواب فإن الواجب العمل بها، ولا ينبغي أن نسارع إلى ردها لأنها أتت من غير الكتاب².

(1378) في الآية إشارة إلى أن العبرة بالمأثري، وليست بمن أتى به؛ ذلك أن فيها بناء الفعل لما لم يسم فاعله إشعاراً بأن هدفهم مثل ما أوتي موسى، وليس غرضهم الذي أتى موسى³.

(1379) في الآية إشارة إلى أن السبب لا يلزم عنه المسبب، فالدعوة إلى الله سبب في الهدى، ومع ذلك أقرت الآية أنهم ما اهتدوا، وإنما أعرضوا وعاندوا⁴.

(1380) في الآية تحذير من مصائب الله التي تنزل بالعصاة والمذنبين؛ ذلك أن فيها تقديماً للمصيبة على القول؛ والتقديم يفيد الاهتمام بالمقدم⁵.

(1381) في الآية دعوة لتفسير القرآن على عرف العرب، وقواعد الشريعة، لا مع الوقوف على الألفاظ وحدها؛ ذلك أن المصيبة في اللغة: هي ما يصاب به الإنسان من خير أو شر، إلا أنها غلب استعمالها في الشر فينبغي حملها عليه⁶.

(1382) في الآية إشارة إلى ترتب المسببات على الأسباب؛ ذلك أن العقاب الذي يحل بالعصاة ليس اعتباطاً، وإنما هو نتيجة لأسباب قاموا بها؛ دل على هذا الباء الدالة على السبب⁷.

¹ ينظر: نظم الدرر: 308/14.

² ينظر: المصدر السابق: 308/14.

³ ينظر: المصدر السابق: 308/14.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 308/14.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 135/20.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 136/20.

⁷ ينظر: المصدر السابق: 136/20.

(1383) في الآية إشارة إلى أن العقاب يترتب على الشرك، وآثاره، والظلم وآثاره، والعناد وآثاره...¹، ذلك أن الآية قدمت اليد يصدق على الذي فعلوه حقيقة، وعلى الذي ترتب على فعلهم؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:12]، ففرق بين تقديمهم وآثارهم، وأثبت الكتابة للجميع.

(1384) في الآية إشارة إلى أنه لا يمكن أن تنزل عقوبة إلا بنص-يشمل النص هنا دلالة الظاهرة ومفهومه، وما يقاس عليه، ويستنبط من مضمونه-، ولا نص إلا بإعلام؛ ذلك أن الله لم يعاقب هؤلاء مع أنهم كانوا يرتكبون الموبقات لكون الحجة غير قائمة عليهم.²

(1385) في الآية دليل لجمهور أهل السنة الذين يجعلون الحجة تقوم بإرسال الرسل، وليس بالعقل المجرد، حتى ولو كان مستقل بإدراك الخلق والخالق؛ ذلك أن الله تعالى لم ينزل مصيبة على كفار قريش وغيرهم؛ لأنهم لم تقم عليهم الحجة بعد؛ وقول الله تعالى ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:15] خير شاهد.

(1386) في الآية إشارة إلى أن الذي تفوته فرصة من الفرص، فيجني أشواك ما زرع يتمنى لو عادت لاستغلها كاملة، ولما ضيع ثانية من ثواني عمره بعيدا عنها؛ ذلك أن (تبع) جاءت بصيغة التضعيف الدالة على المبالغة.

(1387) في الآية إشارة إلى أن أعداء الله لا يصلون إلى أهدافهم إلا بالتعاون فيما بينهم؛ ذلك أنهم أثبتوا المظاهرة لموسى وهارون-، على رأي، أو لموسى ومحمد- على رأي أيضا- انطلاقا من أنفسهم، لكونهم ألقوا أن الغلبة والظهور إنما يكون بالتعاون، ففقدوا به على الأنبياء والمرسبين.

(1388) في الآية إشارة إلى الله تعالى جعل في عقل الإنسان، وأبدع في الأكوان ما يدل عباده عليه، ويبين لهم الحق من الباطل، والرشد من الصواب؛ ذلك أن الله بين أنه لولا احتجاج المشركين على عدم الإرسال لما أرسل، فأشعر أن في خلقه وكونه أدلة كافية، لكن لم يجعلها مقيمة للحجة رحمة بعباده.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 136/20.

² ينظر: الخواطر: 10946/18.

(1389) في الآية إشارة إلى أن العبرة بإقامة الحجة، وليست بصاحبها، فلا يشترط فيه أن يكون غنيا، أو فقيرا، أو من قبيلة فلان، أو جنس علان...؛ ذلك أن الرسول ذكر في الآية نكرة فأشعر أنهم يكتفون بأي رسول يأتي من عند الله.

(1390) في الآية دليل على أن عدل الله شامل لجميع عبادته، فلا يُنزل العقاب بأحد لا يستحقه؛ ذلك أنه لم يعاقب المشركين؛ لأنه لم تقم عليهم الحجة.

(1391) تشير الآية إلى أن أعداء الله إذا حل بهم عقاب الله يعتذرون في نفس اللحظة، ولا يتركون فرصة للتروي والتمعن؛ هل ماحل بهم لهم دخل فيه أم هم منه برآء؟؟ ذلك أن الله عطف قولهم على المصيبة بالفاء المشعرة بالتعقيب.

(1392) في الآية إشارة إلى أن المنكرين لله، والمعاندين لرسول الله ولمن ينوب عنهم من الدعاة والعلماء إذا حل بهم مكروه تذكروا آلاء الله، وعلموا أن ما بهم من نعم إنما هي من الله؛ ذلك أن المشركين أتوا بلفظ الرب دون غيره لأنه المشعر بالتربية، والعطاء، والفضل والإحسان؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى حكاية على لسان بني إسرائيل ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 68].

(1393) في الآية إشارة إلى أن أعداء الدعاة يركزون على الدعاة ويتغاضون عمن يدعون إليه وهو الله تعالى؛ ذلك أنهم بنوا الفعل لما لم يسم فاعله، إيدانا منهم بأن مشكلتهم مع الرسول، والله أعلم.

(1394) تشير الآية إلى أن المشركين لله، العابدين معه غيره، إذا حلت بهم مصيبة غاب عنهم ما كانوا يعبدون، وتوجهوا إلى الواحد الديان؛ ذلك أن الله حكى عنهم أنهم لو نزل بهم العذاب لقالوا (ربنا) ولم يقولوا يا هبل، ولا غيره من آلهتهم؛ ويؤيد هذا قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67].

(1395) في الآية إشارة إلى أن أعداء الدعاة يُظهرون لأتباعهم أنهم باقون على العداوة ما بقيت الأرواح في أجسادهم، حتى يكون هذا دافعا لهم للبقاء بجنبهم؛ ذلك أنهم أخبروا عن كفرهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، وأكدوه ب (إن) حتى ترسخ نفوس أتباعهم لهذا.

الآية الثامنة والأربعون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَّلَهُمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ مِنْكُمْ



(1397) في الآية إشارة إلى أن الذين يردون دعوة الرسل لا يردونها بناء على عدم الاقتناع بأدلتها؛ وإنما غيًّا منهم وعنادا؛ ذلك أن الله تعالى أخبر أنه لم يعاقبهم دون أن يرسل إليهم الرسل حتى لا يتعللوا بعدم الإرسال، فلما أرسل إليهم الرسول قالوا: لو أتى بمثل الذي أتى به موسى 1.

(1398) تشير الآية إلى أن المنكرين لدعوة الأنبياء أصالة، والرَّادِينَ لدعوة الدعاة تبعاً يُقلد بعضهم بعضاً، ويسأل بعضهم بعضاً، ويُعين بعضهم بعضاً؛ ذلك أن قريشا كانت تبحث عن مخرج لها، تُنقذ به ماء وجهها، لأنها لم تجد ما تُقاوم بها حجج القرآن، فإذا بما تقف على اليهود فتسألهم عن الحل، فلم ييخلوا عليها، بل أمروها أن تسأل النبي ﷺ أن يأتي لهم بمثل الذي أُوتِيَ موسى من قبل!!! 2.

(1399) في الآية إشارة إلى أن الذي يخفي شيئاً في قلبه يظهره الله عليه دون أن يشعر؛ ذلك أن اليهود يقولون: كونوا هودا تهتدوا، ويقولون كذلك: لا نؤمن بأي كتاب على وجه الأرض، سواء أكان قرآناً أم إنجيلاً، أم تورا أم زبوراً؛ ذلك أن القرآن حكى تصريحهم بالكفر بجميع الكتب كما هو واضح من لفظة كل 3.

(1400) في الآية إشارة إلى جواز تسمية الشخص بما يتصف به، أو بما يأتي به؛ ذلك أن الحق أطلق هنا -وهو وصف- على الرسول المصدِّق بالمعجزات، فدل على جواز إطلاق الشيء على حامله، أو المتصف به 4.

(1401) في الآية دلالة على أن التوراة نزلت دفعة واحدة، وأن القرآن نزل مفزاً؛ ذلك أنهم طلبوا من الرسول أن ينزل عليه الوحي كما أنزل على موسى، فدل بالضرورة على أن القرآن نزل منجماً، وأن

¹ ينظر: جامع البيان: 587/19.

² ينظر: المصدر السابق: 588/19.

³ ينظر: جامع البيان: 588/19.

⁴ ينظر: الكشف: 419/3.

التوراة نزلت دفعة واحدة¹؛ ولهذا نصوص كثيرة تؤيده، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝﴾ [الفرقان: 32].

(1402) في الآية إشارة إلى أن أهل الأهواء لا رأي لهم ثابت، ولا منهج لهم صحيح، ولا عقيدة لهم صادقة؛ فيتلونون كما تتلون الحرباء، ويتعلقون بكل شبهة؛ ذلك أنهم قبل الإرسال طلبوا الرسول، وبعد الإرسال طلبوا نوعا معينا من الرسل، وشكلا معينا من المعجزات².

(1403) في الآية إشارة إلى أنه لا يشترط في حجج الدعاة أن تكون واحدة، بل يكفي فيها الوضوح والبيان؛ ذلك أن المشركين طلبوا —على جهة العناد— أن تكون معجزات محمد ﷺ من جنس معجزات موسى، فبين الله لهم أن محمدًا جاء بالحق، وأنهم يكفرون به كما يكفرون بموسى³.

(1404) في الآية إشارة إلى أن من كفر بنبي سابق فهو كافر بالنبي اللاحق؛ ذلك أن الذين كفروا بمعجزات موسى كانوا معه في زمانه، ومع ذلك أنزل هذا الوصف على الذين أتوا بعدهم، لأنهم مثلهم في الكفر بمحمد ﷺ⁴.

(1405) تشير الآية إلى أن نسبة السحر إلى رسول ما، أو تكذيبه يُعد نسبة له لجميع الأنبياء، وتكذيبا لهم أيضا؛ ذلك أن قريشا إنما نسبت السحر للنبي ﷺ فجعلهم الله ناسبين له لمحمد وموسى عليهما الصلاة والسلام⁵.

(1406) في الآية إشارة إلى أن الرد على القول ينبغي أن يتضمن الإشارة إلى المقترح، والمساند كذلك؛ ذلك أن الله تعالى خاطب المشركين بقوله: (أولم يكفروا) فكان مضمنا: أولم يكفر الذين علموكم هذا القول بما جاء به موسى⁶.

(1407) في الآية مدح للنبي ﷺ؛ لأن الحق لا يأتي بمفرده، وإنما الذي يأتي به شخص، والآتي به هنا هو النبي ﷺ، ولما كان الحق ممدوحا لزم أن يكون الآتي به كذلك¹.

¹ ينظر: الكشف: 419/3

² ينظر: مفاتيح الغيب: 605/24.

³ ينظر: المصدر السابق: 605/24.

⁴ ينظر: مفاتيح الغيب: 606/24.

⁵ ينظر: البحر المحيط: 311/8.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 311/8.

(1408) في الآية إشارة إلى أن أعداء الأنبياء والرسل يسعون للتخلص من حججهم حتى إنهم يجعلون ذواتهم صفاتٍ منكراً، ولا يقتصرون على كونهم حاملين لها، أو متصفين بها؛ ذلك أن المشركين قالوا عن موسى ومُحمَّد -على رأي- (سحران) بالمصدر كما جاء في بعض القراءات، مبالغةً لهم في الدم، حتى كأنهم السحر نفسه.²

(1409) في الآية إشارة إلى أن أعداء الدعاة دائماً ما يسعون إلى الحصول على منافع من أتباعهم -هذا إن وافقوا على دعوتهم-؛ ذلك أن قريشا طلبت من النبي ﷺ أن يأتي بمثل الذي أتى به موسى من المن والسلوى، وتفجير الأعين...³؛ ويؤيد هذا ما حصل مع النبي ﷺ، فقد كان يتبعه المنافقون في الغزو قصد الحصول على الغنائم، وآمن بدعوته كثير من طالبي المال عام الفتح.

(1410) في الآية إشارة إلى أن الآيات قبل مُحمَّد كانت حسية وأن آية مُحمَّد ﷺ معنوية؛ ذلك أن آية نوح السفينة، وآية إبراهيم النار، وآية ثمود الناقة، وآية موسى العصا...، بينما آية مُحمَّد صلى الله عليه وسلم القرآن الذي هو شيء معنوي وليس حسياً.⁴

(1411) في الآية إشارة إلى أن نبوة مُحمَّد ﷺ ستبقى إلى قيام الساعة⁵، فلا يحدها زمان، ولا يحجبها مكان؛ ذلك أنها مخالفتها لما كان عليه الأنبياء السابقون الذين كانت شريعتهم خاصة في الزمان والمكان، فكان لزاماً أن تخالفها كذلك في الزمان والمكان؛ ويؤيد هذا النقل والعقل؛ فأما النقل: فقول النبي ﷺ (مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحياً أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ)⁶، وأما العقل: فإن معجزات الأنبياء كانت حسية، ومن شأن الحسي أن يزول مع الآلة الحاسة عادة، بينما معجزة النبي ﷺ معنوية، ومن شأن المعنوي أن يستمر بشرط النقل الصحيح، الذي قد ضمنه الله لكتابه.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 137/20.

² ينظر: المصدر السابق: 138/20.

³ ينظر: التفسير القرآني: 355/10.

⁴ ينظر: الخواطر: 10948/18.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 10948/18.

⁶ صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي: 182/6، رقم: 4981، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان،

باب وجوب الإيمان بمحمد ﷺ: 134/1، رقم: 152.

(1412) في الآية إشارة إلى الفرق بين نبوة مُحَمَّد ﷺ، ونبوة غيره من الأنبياء؛ ذلك أن نبوتهم كان فيها شيآن: آية تدل على صدقهم، وكتاب يحمل شريعة ربهم، بينما نبوة مُحَمَّد ﷺ كانت فيها الآية والكتاب شيئاً واحداً، فالكتاب نفسه الذي فيه التشريع هو الآية في حد ذاتها، فسبحان من يتفضل على بعض خلقه بما يشاء من فضله¹.

(1413) في الآية دليل لدارسي التاريخ على أن اليهود كانوا في الجزيرة العربية، يسكنون بجوار المشركين؛ ذلك أن الحديث عن موسى وما جرى لا يليق بقوم ليس معهم علم بهذه الأمور، والعرب أمة أمية، فمن يأتيهم بهذا العلم، فدل لزوماً على وجود اليهود².

(1414) في الآية إشارة إلى أن أخبار القرآن كلها صادقة، وأحكامه كلها عادلة؛ ذلك أن الله وصفه بالحق الذي هو الشيء الثابت غير المتغير، وهو يعني الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام³.

(1415) في الآية إشارة إلى أن طبيعة البشر واحدة، ذلك أن الله أنكر عليهم كفرهم بموسى، فكان الإنكار من السابقين واللاحقين، وما زال إلى الآن⁴.

(1416) في الآية إشارة إلى أن أعداء الرسالات، والدعوات الإصلاحية لا يفرقون بين هذا النبي وذاك، ولا بين هذا المصلح وذاك، بل يجمعون الجميع في وصف واحد؛ ذلك أن الكفار -على رأي بعض المفسرين- قالوا لموسى وهارون أو لمحمد وموسى: ساحران تظاهرا...، فألصقوا وصفاً واحداً هو السحر بالاثنتين معاً.

(1417) في الآية إشارة إلى أن أعداء الدعاة لا يفرقون بين الداعية وأتباعه، فيحكمون على الجميع بوصف واحد حتى لو كانوا يصرحون بأن الأتباع ليس لهم من الوصف نصيب؛ ذلك أن الكفار وصفوا موسى وهارون -على رأي- بوصف السحر، مع أن الذي جاء بما يشبه السحر -في الظاهر، وإلا فهو معجزة في الحقيقة- هو موسى، وأما هارون فلم يذكر القرآن أنه كان يقوم بما يقوم به موسى.

¹ ينظر: الخواطر: 18/10948.

² ينظر: في ظلال القرآن: 5/2699.

³ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 230.

⁴ ينظر: المصدر السابق، ص: 231.

(1418) في الآية إشارة إلى أن الطغاة عادة ما يتعاملون مع الدعاة معاملة السيد لعبده، والقائد لجنده؛ ذلك أن الكفار طلبوا من النبي ﷺ أن يأتيهم بمثل ما أتى به موسى بأسلوب التحضيض المشعر بأنهم هم الذين يحق لهم الأمر والنهي.

(1419) في الآية إشارة إلى أن أعداء الدعاة ينطلقون مما فيهم من أوصاف، وما يقومون به من أفعال ثم يحكمون به على الدعاة؛ ذلك أن اليهود كانوا يقومون بالسحر، ويتظاهرون على الظلم - كما حكى القرآن عنهم في سورة البقرة- فألصقوا هذا بالأنبياء والمرسلين.

(1420) في الآية إشارة إلى أن الكفار عادة ما يخططون للوصول إلى أهدافهم؛ ذلك أنهم انطلقوا من أنفسهم للحكم على محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام، فأتوا بالفعل الماضي (تظاهرا) للدلالة على أن هذا قد تم وفرغ منه مع أن محمدًا ﷺ مازال يأتي بالقرآن الدال على إعجاز الله.

(1421) في الآية إشارة إلى أن من خالط قوما، أو ظنَّ بهم العلم والكمال يتأثر بصفاتهم شعر أم لم يشعر؛ ذلك أن المشركين لما ظنوا باليهود خيرا، ورجوا أن يكون عندهم حلٌّ لمشكلتهم تأثروا بصفاتهم التي منها العناد؛ فكما أن اليهود طلبوا من موسى طلبات فيها تعجيز، فكذلك الأمر بالنسبة للمشركين.

(1422) في الآية إشارة إلى أن أعداء الله لا يهتمون بأوصافهم ليقوموها، وإنما يهتمون بالدعاة، أو ما أتوا به فيردونه؛ ذلك أنهم قدموا المعمول (كلا) على العامل (كافرون) فأشعرونا بأنهم لا يهتمون بصفة الكفر، وإنما بالكتابين-على رأي- أو الرسولين على رأي آخر.

(1423) في الآية إشارة إلى أن الغالب في من اتصف بمعارضة أهل الله يسعى للجهر بها، وإزالة الشكوك من نفوس الناس؛ ذلك أنهم لم يكتفوا بإعلان الكفر بالرسولين، وإنما أكدوا ذلك بمؤكدتين : (إن) و(الجملة الإسمية).

(1424) في الآية إشارة إلى أن القول الذي يقترحه شخص أو جماعة، ويقول شخص أو جماعة، تصح نسبته إلى المقترح باعتبار، وإلى القائل باعتبار آخر؛ ذلك أن قريشا قالوا للنبي ﷺ: لولا آتيت بمثل ما أوتي موسى من البينات، وهم إنما نفذوا ما اقترح عليهم اليهود، لذلك نجد المفسرين مختلفين في إرجاع الضمير، فبعضهم يرجعه إلى اليهود، وبعضهم إلى قريش.

(1425) في الآية إشارة إلى أن الداعية المحنك هو الذي يستطيع أن يجد للخصم تناقضا بين أقواله، فيضرب الثاني بالأول، أو العكس، فيخرج بنتيجتين: الأولى: صدقُ دعواه، والثانية: بيان

ضعف خصمه؛ ذلك أن الآية ردت على اليهود -في رأي، أو على المشركين مع الإشارة إلى اليهود في رأي آخر- المقترحين على النبي عن طريق قريش الإتيان بما أتى به موسى، فأبطلت مذهبهم بأنهم أيضا كفروا بما أتى به موسى، وسيكفرون بما أتى به مُحَمَّد ﷺ، فكان فيه إثبات نبوة مُحَمَّد ﷺ، وهدم مذهب اليهود ومن يسير على طريقهم.

(1426) في الآية إشارة إلى أن أعداء الدعاة لديهم صورة في أذهانهم يريدون أن يحكموا بها على الجميع؛ ذلك أن عند اليهود صورة عن إثبات النبوة -وإن أنكروها على موسى- وهي العصا واليد وغيرها من الأمور الحسية، فأرادوا أن يحكموا على مُحَمَّد ﷺ بذلك، فيأتي بالعصا واليد...؛ دليل هذا (ما) المشعر بالمماثلة .

الآية التاسعة والأربعون، قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾

(1427) في الآية إشارة إلى أن عدم الإتيان بكتاب أهدى من التوراة والقرآن أمر معلوم قطعاً، فلا يقبل الشك بحال؛ لذلك أتى بحرف الشك (إن) دون حرف التحقيق (إذا)¹

(1428) في الآية إشارة على أن الواجب على الدعاة والعلماء الصدع بالحجج حتى تعم الجميع، وثُقِّم الحجة على الكافة؛ ذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بأن يصدع في وجه العرب، ويظهر لهم حجته، والعلماء والدعاة ورثته².

(1429) في الآية بيان أن كتب الله ليس شيء أهدى منها، فقد تضمنت الكمال في العبادات والمعاملات والأخلاق...، وتنزهت عن كل النقائص؛ ذلك أن قول الله تعالى (أهدى منهما) تنبيه على أنه ليس لهما مثيل.

(1430) في الآية إشارة إلى بيان بعض الطرق المفيدة في الدعوة، وهي إبطال شبهات الخصم أولاً، وإتباعها بالأدلة القاطعة؛ ذلك أن الله تعالى بعدما أبطل شبهات المشركين أعقبها بدليل صدق النبي ﷺ الذي لا يستطيع أن يأتي به كفار قريش بل ولو تظاهر معهم الإنس والجن³.

(1431) في الآية تنبيه على عجز العرب والعجم عن الإتيان بمثله، حتى لو جمعوا كل قواتهم، واتحدت جميع أفكارهم؛ ذلك أن الله تحداهم به، ولا يمكن أن يتحدى رب العالمين جل في علاه⁴.

(1432) في الآية مدح للتوراة والإنجيل، وبياناً لفضلهما على الخلق؛ ذلك أن الله أثبت عن طريق الإشارة إلى أنهما أفضل الكتب الهادية، وجمعهما في الحكم فدل على أن المدح يشملهما معاً⁵.

(1433) في الآية "دليل على أن مما يشتمل عليه من العلم والحقائق هو من طرق إعجازه كما قدمناه في المقدمة العاشرة."⁶

¹ ينظر: الكشف: 420/3.

² ينظر: المحرر الوجيز: 291/4.

³ ينظر: مفاتيح الغيب: 606/24.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 606/24.

⁵ ينظر: التحرير والتنوير: 139/20.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 139/20.

(1434) في الآية إشارة إلى أن كتاب الله المسطور (الكتاب الكلامي) وكتاب الله المنظور (الآيات الحسية كالعصا، واليد...) كلٌّ منهما يصدق عليه وصف الهدي، وكل منهما يصدق عليه اسم الكتاب؛ ذلك أن الضمير في منهما يصح رجوعه على الذي أتى به موسى من الآيات الحسية، والذي جاء به مُحَمَّد ﷺ من الآيات المعنوية¹.

(1435) في الآية إشارة إلى أن التكذيب بالآيات الكونية التي تدل على الله يُعتبر تكذيباً للآيات الشرعية التي تدل على الله أيضاً؛ ذلك أن كلا منهما يصدق عليه اسم الكتاب، وكلا منهما يصدق عليه وصف الهدي².

(1436) في الآية إشارة على أن من حسن الدعوة زرع الأمل في النفوس، وإن كان الداعية يعلم علم اليقين أن المدعويين ليس لهم ذرة من خير في نفوسهم؛ ذلك أن الله تعالى قال (إن كنتم صادقين) -وهو يعلم، ويعلم نبيه ﷺ أنهم غير صادقين- حتى يدفعهم إلى مراجعة النفس، والتخلي عن الكبر والغرور³.

(1437) في الآية إشارة إلى أن الذي يتحدى الناس من الدعاة عليه أن يكون على علم واسع حتى لا يُغلب ويظهر الدين ضعيفاً بسببه؛ ذلك أن النبي ﷺ تحدى الكفار -بأمر الله- بأن يأتوا بكتاب أهدي من الذي جاء به، وهو يعلم قطعاً أنهم لن يفعلوا، فكان فيه إيذانٌ بما ذكرت والله أعلم⁴.

(1438) في الآية إشارة إلى أن العالم الذي يصدر الفتوى عليه أن يجرد نفسه من هواها، وينظر إلى النصوص كما هي دون تأثر بمنهج أو فلسفة...؛ ذلك أن الله أثبت الهداية لكتابه، ونفاها عن غيره من الكتب؛ والعلماء هم الذين ينشرونها بين الناس فلزم أن يتجردوا من أنفسهم، وإلا لم يصدق على ما يُفتوا به أنه الهدي⁵.

(1439) في الآية إشارة إلى أن التنازل مع الخصم إلى نقطة يؤمن بها من أنفع الوسائل في الدعوة؛ ذلك أن النبي ﷺ انطلق مع قريش من كون الكتاب قابلاً للحق والباطل -مع أنه يعلم أنه لا يأتيه

¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن: 358/10.

² ينظر: المصدر السابق: 358/10.

³ ينظر: الخواطر: 10950/18.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 10950/18.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 10950/18.

الباطل من بين يده ولا من خلفه- ليلزمهم بالإتيان بخير منه؛ الشيء الذي سيعجزون عنه، ويكون دافعا إلى بيان ضعف حجتهم، وارعواء أتباعهم¹.

(1440) في الآية إشارة إلى أنه لا يلزم الانتقال من الشيء إلى غيره إلا إذا كان المنتقل إليه أهدى منه؛ ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله أقر اتباع الكتاب الذي يكون أهدى من التوراة والانجيل والقرآن - وهذا غير موجود في الواقع- فأثبت هذه الهداية والله أعلم².

(1441) في الآية إشارة على أن استعمال أسلوب التهكم مع الذي ظهرت عليه أمارات الإنكار لا بأس به، بل قد يكون من أنفع الوسائل في الدعوة؛ ذلك أن قول الله (اتبعه إن كنتم صادقين) وإن كان ظاهره أنه يتبع الحق حيث وجدته، إلا أن باطنه تهكم بهم؛ لأنهم لن يأتوا بمثله فضلا عما هو أهدى منه³.

(1442) "وأشار بالتعبير في وصفه بعند دون لدن إلى أنه يقنع منهم بكونه حكيمًا خارقًا للعادة في حكمته وإن لم يبلغ الذروة في الغرابة بأن انفك عن الإعجاز في نظمه كالتوراة"⁴

(1443) في الآية إشارة إلى أن الداعية يشرف قدره بشرف دعوته حتى يصير عين الدعوة، أو أشد منها في الاهتمام؛ ذلك أن فعل (استجاب) يتعدى -غالبا- إلى الدعوة بنفسه، وإلى الداعي باللام، وهنا عدي باللام اهتماما بالنبي ﷺ، ورفع لمكانته⁵.

(1444) في الآية إشارة إلى أن الذي يُشرع للناس عليه أن لا ينتفع بتشريعه، بأن يكون له حظ النفس فيه؛ ذلك أن التشريع البشري إنما يعتريه النقص من أمور، منها: رغبة المشرعين في حظوظ أنفسهم؛ وهدى الله لا يكون خالصا إلا إذا تجرد عن هذا.

(1445) في الآية إشارة إلى أن النبي ﷺ إنما كان ينفذ أمر ربه، وليس له دخل في القرآن الكريم إلا التبليغ؛ ذلك أن الله قال له: (قل) فقال، وحكى حتى اللفظة كما هي، ولم يتصرف فيها بالحذف لكون الكلام مفهوما.

¹ ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن عثيمين، (سلسلة مؤلفات الشيخ 136)، ص: 235.

² ينظر: المصدر السابق، ص: 236.

³ ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: 417/10.

⁴ نظم الدرر: 311/14.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 311/14.

(1446) في الآية إشارة إلى أن أعظم أدوات الإقناع، وأكثرها تأثيراً على نجاح الدعوة هي مخاطبة الملأ أمام أتباعهم، ليكون دافعا لهم إلى البحث إن كانوا يريدون الحق، أو يُظهر قدرهم أمام مقلديهم لتذهب مكانتهم من النفوس؛ ذلك أن الله تعالى أمر نبيه بأن يدعو الجميع، كما يشهد بهذا ضمير الجمع.

(1447) في الآية دعوة إلى اتباع الحق حيث كان، فلا يلزم منه أن يكون من فرد بعينه، أو جماعة معينة...؛ ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وعد الكفار إن أتوا بكتاب من عند الله أهدى من القرآن- ولن يستطيعوا- بأن يتبعه، ويسير على نهجه.

(1448) في الآية إشارة إلى أن الإتيان بكتاب من عند الله لا يتم عن طريق الطلب والبحث، وإنما عن طريق الاختيار والاصطفاء؛ ذلك أن الله دعا المعارضين لكتابه إلى الإتيان بكتاب من عنده، يكون فيه خير مما في التوراة والإنجيل والقرآن، وهذه الدعوة ليس المقصود منها الفعل، وإنما الإعجاز الملزم بالخضوع لشرع الله.

(1449) في الآية دعوة إلى التدافع مع الأعداء حتى لا يخيل للناس أنهم على الحق، وغيرهم على الباطل؛ ذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بأن يواجه ما قال الكفار- وإن كان النقل والعقل يشهدان ببطلانه- بأن يأتوا بخير مما أتى به هو، ونبي الله موسى عليه السلام ليعلمنا سنة التدافع؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251].

(1450) في الآية إشارة إلى أن التوراة في زمن النبي ﷺ لم تحرف كلها، بل بقي شيء منها فيه الهدى؛ ذلك أن المطالبة بأهدى من شيء يلزم منه أن يكون ذلك الشيء موجودا، أو على الأقل وجود بعض أجزائه، والله أعلم.

الآية الخمسون، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ

مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

(1451) في الآية بيانُ فساد منهج التقليد، ودعوة لاستعمال الحجج والبراهين؛ ذلك أن الله تعالى بيّن أنهم لم ينظروا في الأدلة، وإنما اكتفوا بتقليد الآباء الذين أودوا بهم إلى التهلكة¹.

(1452) في الآية إشارة إلى أن هداية الله - أعني هداية التوفيق - خاصة بالمؤمنين؛ ذلك أن الله نفى هدايته عن القوم الظالمين - والمقصود بهم أصالة الكفار - فدل بالمخالفة على إثباتها لغيرهم².

(1453) في الآية إشارة إلى أن اتباع الإنسان ما يهواه ليس بعيب إذا كان الذي يهواه مما أتى عن الله؛ ذلك أن الآية ذمت الهوى المقيد بكونه من غير الله، فأثبتت أن الذي يكون من الله غير مذموم³.

(1454) في الآية إشارة إلى أن الاستجابة ينبغي أن تكون للمضامين وليس لأصحابها؛ ذلك أن الله تعالى قال (لك) والمقصود لدعوتك، فحذف المضاف، وأبقى المضاف عليه دليلاً عليه⁴.

(1455) في الآية إشارة إلى أن من تُحدي بشيء ولم يأت به فإنما يتبع هواه، ولا يريد من الحق شيئاً؛ ذلك أن الله تعالى قال: (يستجيبيوا لك) وقد حملها بعض المفسرين على (فإن لم يأتوا بكتاب أهدى من التوراة والإنجيل)⁵.

(1456) في الآية إشارة إلى أن المنكرين لرسالة الله ليس لهم شيء يتبعونه إلا الهوى، وما يتبعون به من الخضوع للمنطق والفكر إنما هو تدليس وتلبيس على السذج؛ ذلك أن الله تعالى أتى بلفظ الحصر (أنما) ليشعرنا بأنهم لا يريدون حقاً، ولا يبحثون عن حجج، وإنما يريدون أن يبقى لهم هواهم يدورون معه حيث دار⁶.

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 606/24.

² ينظر: المصدر السابق: 607/24.

³ ينظر: البحر المحيط: 313/80.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 139/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 139/20.

⁶ ينظر: المصدر السابق: 140/20.

(1457) في الآية إشارة إلى أن العمل بما تمليه النفس من السير حول الأضرار والمخاطر إنما هو عينُ الهوى؛ ذلك أن الله تعالى شبه الهاوي بسائر، والهوى بموضع، لينتقل معناه في النفوس¹.

(1458) في الآية إشارة إلى أن الله تأمُّ العلم، لا يلحق أفعاله نقص ولا تعثرها سلبات؛ ذلك أن الهوى قُيِّد بكونه من الله ليشعرنا بأن هديه ناتج عن علمه المحيط بكل صغيرة وكبيرة، مما يحتم كون هديه خالياً من النقائص التي تلزم هدي الإنسان².

(1459) في الآية إشارة إلى أن الضلال درجات، فمنه ما تنتج عنه المشقة، ومنه ما يحدق بصاحبه الخطر، ومنه ما يكون سبباً للهلاك؛ ذلك أن (أفعل) في أصلها تأتي لاشتراك شيئين أو أكثر في صفة يكون لواحد منها النصيب الأوفر، سواء أكانت في جانب الخير أو جانب الشر³.

(1460) في الآية إشارة إلى أن الهوى يتحكم من النفوس إذا كان المجتمع بعيداً عن منهج الله؛ ذلك أن الله تعالى أتى بلفظ القوم المشعر بأن اتباع الهوى صفة من صفات المجتمع، وليس صفة من صفات الأفراد⁴.

(1461) في الآية إشارة إلى أن الظلم سبب من أسباب تخلي الله تعالى عن العبد، فيتركه وهواه، ذلك أن الله نفى هدايته عن القوم الظالمين، وعلق الحكم على المشتق (الظلم) فأشعر أنه العلة في التخلي والله أعلم⁵.

(1462) في الآية إشارة إلى طريقة مثلى في الدعوة وهي عدم مطاوعة الكفار في كل شيء؛ ذلك أنهم طلبوا من محمد صلى الله عليه وسلم أن يأتي بمعجزة أخرى غير القرآن فلم يجبههم الله إلى ما أرادوا، وإنما بين أنهم لا يتبعون إلا الهوى⁶.

¹ ينظر التحرير والتنوير: 140/20.

² ينظر: المصدر السابق: 141/20.

³ ينظر: المصدر السابق: 141/20.

⁴ ينظر: المصدر السابق: 141/20.

⁵ ينظر: المصدر السابق: 141/20.

⁶ ينظر: الخواطر: 10951/18.

(1463) في الآية إشارة إلى الذي صارت الطاعات هوى له يسير معه حيث سار غير داخل في هذا الذم؛ ذلك أن الهوى المذموم قيد بكونه من غير الله؛ أما من حارب نفسه حتى صارت تحب الطاعات فليس بمتبع للهوى في الحقيقة، إنما هو متبع لشرع الله¹.

(1464) في الآية إشارة إلى استحباب التسلية بالدعاة والعلماء قصد التخفيف عنهم؛ ذلك أن الله تعالى قال: (فإن لم يستجيبوا) تسلية بالنبي ﷺ، والعلماء ورثته².

(1465) في الآية إشارة إلى أن هذا القرآن بين، وأن حجج هذا الدين واضحة، فما يتركه إلا صاحب هوى؛ ذلك أن الله تعالى بين أن من يتبع هدي غير القرآن فإنه صاحب هوى، فدل بطريق اللزوم أنه واضح لا لبس فيه.

(1466) في الآية إشارة إلى أن الغالب على المعارضين لهدي الأنبياء ومن يدعوا إلى هديهم من الدعاة عدم الاستجابة، وأن القلة القليلة منهم هي التي تستجيب؛ ذلك أن الله تعالى أهمل استجابتهم فلم يقل (فإن استجابوا لك، فإنهم باحثون عن الحق، وإن لم يستجيبوا لك فإنهم راغبون في الباطل) ليشعرنا بهذه الهداية والله أعلم.

(1467) في الآية دليل قاطع على أن الذين يردون القرآن أصحاب هوى، ورد مفحم على الذين يلتمسون العذر لمشاهير العلماء الذين درسوا القرآن وماتوا على الكفر؛ ذلك أن الآية قطعية الثبوت والدلالة على أن من لم يستجب لرسول الله - بعد العلم بحججه - صاحب هوى.

(1468) في الآية إشارة إلى أن الذين طبع الله على قلوبهم لن يستجيبوا للدعاة ولو أتوا بجميع الحجج، واستعملوا كل الأساليب؛ ذلك أن الله أثبت عن طريق اللزوم أن بعض قريش لن يؤمنوا به؛ فكيف يؤمنون بغيره ممن هم دونه في الحجة والرتبة !!!

(1469) في الآية تنبيه للدعاة بأن يعرفوا حقيقة المدعويين حتى لا يضيع جهدهم سدى؛ ذلك أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه بأن يعلم أن هؤلاء إنما يتبعون الهوى حتى يتركهم ويتفرغ لغيرهم، وإذا كان هذا الحال مع رسول الله ﷺ الذي ما خلق إلا للدعوة، فكيف الحال بمن هم دونه علما وهمة !!!!

¹ ينظر: الخواطر: 18/10951.

² ينظر: التفسير الوسيط للطنطاوي: 417/10.

(1470) في الآية إشارة إلى أن أعداء الأنبياء والمرسلين إنما يتقبلون حيث مال بهم الهوى، فتارة يكون مع مذهب، وتارة مع غيره الذي قد يكون مناقضا له؛ ذلك أن الله قال (أهواءهم) بالجمع ليشعرنا بأن الذي يتبعه الشخص ليس شيئا واحدا يثبت عليه، وإنما في كل يهيم، لا يدري النتائج، ولا العواقب التي تنتظره.

(1471) في الآية إشارة إلى أن حكم الهوى يكون تابعا لأصله، فما كان عن غير هدى من الله فهو المذموم، وما كان عن هدى من الله فهو المحمود، وما كان جبلةً في الإنسان كهواه الأكل المعتدل، والنوم المعتدل... فهو المسكوت عنه. والله أعلم.

(1472) في الآية دعوة للعلماء والدعاة بأن يستعملوا أسلوب التحدي مع المنكرين لرسول الله، والشاكين في نسبة كتاب الله إلى الله، فيطلبوا منهم الإتيان بكتاب فوق القرآن الكريم في الهداية، ولن يستطيعوا. وقد جربت هذا والله الحمد فوجدته من أنفع وجوه الاستدلال، فقد حاورت نصارى وملاحدةً حول القرآن الكريم، فطلبت منهم الإتيان بكتاب أفضل من كتاب الله، أو على الأقل كتاب يدعي صاحبه أنه أفضل من كتاب الله، فما كان منهم إلا العجز والبهت.

(1473) في الآية إشارة إلى أن هداية الله بنوعيتها الإرشادية والتوفيقية تحتم على العقلاء عبادة الله حق العبادة؛ ذلك أن الله تعالى أتى بلفظ الجلالة (الله) دون الرب أو غيره من أسمائه الحسنى ليدلنا على ألوهيته جل في علاه.

(1474) في الآية تحذير من الظلم ومن أشد أنواعه التي هو الشرك بالله؛ ذلك أن عدم هداية الظالم توجب عليه النظر في فعله، حتى يعود إلى رشده، فيؤدي الحق إلى أصحابه.

(1475) في الآية إشارة إلى أن وجود أسباب تخلي الله عن العبد لا يلزم منها تخليه بالفعل؛ فالظلم سبب من أسباب عدم خلق الله للهداية في القلوب، ولم يلزم من هذا تخليه عن الظالمين، فكثير من الذين كانوا ظالمين في أول الدعوة أصبحوا أهم حماة، وأشد أنصارها.

(1476) في الآية إشارة إلى أن هداية الله الموجودة في كتبه لا حدود لها، فهي تشمل هداية العقيدة، وهداية السلوك، وهداية التشريع...، بل وهداية الأدب واللغة والقصص...، ذلك أن الله لم يقيد الهداية بجزئية من جزئياتها، فدلّت على العموم كما هو مقرر في علم البلاغة.

(1477) في الآية دعوة إلى لزوم كتاب الله واتباعه حذو القذة بالقذة، ولا يجوز التفريق في شيء منه بدعوى أنه لا يوافق العقل، أو لا يتطابق مع مستجدات العصر؛ ذلك أن قول الله تعالى (اتبعه) جاءت بالتضعيف الدال على الكثرة والمبالغة، فأرشدنا إلى هذه الهداية والله أعلم.

(1478) في الآية إشارة إلى أن الشخص يعلم صدق نفسه من كذبها، فلا يحتاج إلى غيره ليقول له: إنك صادق، أو كاذب، ولا على زمن آخر ليثبت صدقه من كذبه؛ ذلك أن الله أتى بالفعل الماضي (كنتم) المشعر بأن علمهم بصدقهم قد مضى وانقضى، بخلاف المضارع الذي يدل على تجديد هذه الصفة وضدها. والله أعلم.

(1479) في الآية إشارة إلى أن الذي يترك حجة الداعية وينتقل إلى شخصه إنما يتبع هواه؛ ذلك أن المشركين تركوا الحجة التي هي القرآن، وتوجهوا إلى النبي فطلبوا منه غيره فحكم الله عليهم باتباع الهوى.

(1480) في الآية إشارة إلى أن الصادق مع الله هو الذي يبذل غاية وسعه ليكون قوله وفعله موافقا لهدي الله؛ ذلك أن (يُستجيبوا) محلاة بالسین والتاء الدالين على الطلب والمبالغة، فكأن الآية تقول: الاتباع الحقيقي: هو الذي يكون همُّ صاحبه التوافق مع هدي الله، والله أعلم.

(1481) في الآية إشارة إلى أن اتباع بعض الهوى ليس كاتباع كلِّ الهوى، فمن كان هواه يكون تارة مع هدى الله، وتارة مع غيره ليس كمن يكون هواه دائما مع غير هدي الله؛ ذلك أن الله قال: (يتبعون) بالتضعيف، ولم يقل يتبعون بالتخفيف ليشعرنا بأنهم وصلوا إلى قمة الذم. والله أعلم.

(1482) في الآية إشارة إلى أن العاقل هو الذي ينظر إلى نتائج فعله قبل الإقدام عليه؛ ذلك أن الآية ذمت بمنطوقها الذين يتبعون الهوى (وهو فعل ما تهواه النفس دون النظر إلى عواقبه)، ومدحت بمفهومها الذين ينظرون إلى العواقب قبل الإقدام.

(1483) في الآية إشارة إلى أن الضلال نتيجة من نتائج اتباع الهوى، فيعظم أو يضعف على قدر اتباعه، غير أنه لا أحد أكثر ضلالا ممن يغلب هواه على هدى الله؛ ذلك أن الآية بينت أن الضلال نتيجة، وأتت بمن الشرطية المشعرة بالعموم فبينت أن لا ضلال فوق هذا الضلال والله أعلم.

(1484) في الآية إشارة إلى أن الداعية الذي ظهر له بالقرائن الحالية أو المقالية أن القوم الذين يدعوه لن يسمعوا له فعليه أن يكف عنهم، ويبحث عن غيرهم؛ ذلك أن الله تعالى طلب من محمد

ﷺ أن يعلم أن هؤلاء إنما يتبعون الهوى ليتركهم ويبحث عن غيرهم؛ ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]

(1485) في الآية إشارة إلى وجوب التذكير بالله في كل وقت وحين، عند الشدة والرخاء، والعسر واليسر؛ ذلك أن الله أظهر في موقع الإضمار، فقال (إن الله) في موقع الأصل فيه (إنه)، والإظهار في موقع الإضمار لا بد له من نكتة، ولعل ما قلت هو المراد، والله أعلم.

(1486) في الآية إشارة إلى أن عدم الهداية متعلق بالوصف، فمتى وُجد الحكم، بغض النظر عن الزمان والمكان، والأحوال والأشخاص؛ ذلك أن الله تعالى أتى بالفعل المضارع الدال على التجدد، وعلق الحكم بصفة الظلم فأشعر أنها أي العلة، والله أعلم.

إلى هنا ينتهي مبحث الهدايات الجزئية من السورتين، أسأل الله أن يمن علي بفتح منه في الهدايات الكلية، وفي غيرها من المباحث المؤطرة لهذا البحث، كما أسأله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وينفع به عباده إلى يوم الدين.

وصلى الله وسلم على سيد الدعاة وإمام المرسلين.

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في آيات السورة.

هدايات سورة القصص كسابقتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يكون مدار السورة، وقسم يؤخذ من مقاطع السورة، وقسم موسع بين آياتها، وآيات أخرى من سور القرآن

القسم الأول الهدايات التي تدور حول السورة

من خلال التأمل ظهر لي -والله أعلم- أن الهدايات التي تدور حولها السورة ثلاثة:

الهداية الأولى: قراءة سير الماضين، والنظر في عواقبهم بعين البصيرة، والتأمل في تدبير الله لهم في حياتهم وبعد مماتهم من أهم وسائل زرع الثقة في الله، يضاف إليها التطبيق العملي؛ وذلك يجعل النفس مكان الأمل الماضية، فتعمل مثل عملهم لترى النتيجة هل تكون كنتائجهم، أم أن الأمر مختلف؛ وقد دل على هذه الهداية ما يأتي:

﴿كون السورة في مجملها ترجع إلى قصتين رئيسيتين: الأولى: تدل على طغيان السلطة، والأخرى تدل على طغيان المال؛ وفي كل منهما تكون العواقب وخيمة¹.

﴿بدء السورة بإخبار النبي ﷺ -ومن معه، ومن يأتي بعده إلى قيام الساعة- بما حدث لموسى الرضيع، وما حدث لفرعون الطاغية، وكيف تدخلت قدرة الله لنجاة موسى، وتخلت كل القوى عن نصرة فرعون، فأصبح الطاغية في الأسفل جزاء لعلوه في الأرض، وأصبح المستضعفون سادة في الأرض ممكنين فيها، قال تعالى: **مَخْبَرًا نَبِيَّهُ ﷺ** بما حدث: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣﴾ ومؤكدا علو فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٤﴾ ومقررا ما يريد فعله بقوم موسى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥﴾

¹ ينظر: محتوات القرآن، ص: 204.

﴿ التمثيل بثلاثة أمور عجيبة، تقود العاقل لا محالة إلى اللجوء إلى الله، وتدفعه إلى التخلي عن كل القوى، هذه الأمور الثلاثة هي: أن الحبيب يتخلى عن حبيبه، والعدو يكرم عدوه، والغريب يصبح حبيباً؛ فأم موسى لما أراد الله أن تفارقه ألقته في اليم بثقة المؤمن الصادق ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ﴾ وفرعونُ الذي قتل آلاف الأبرياء يُكرم موسى العدو اللدود، -والطفل الذي أزهقت بسببه أرواح كثيرة - ويُربيه في قصره، ويُطعمه من خيراته، ويجعله في مرتبة أبنائه، يسعى لمصلحه، ودفع مساوئه، فجلب له المراضع، وأنقذه من الغرق؛ وآسيّة زوج فرعون تصبح الأم الحنون، فتشفق على الرضيع مثل أمه أو تزيد، تمنع زوجها من قتله، وتدفعه إلى إكرامه أو تنبيهه؛ كل هذا لأن الله شاء نجاة موسى عليه السلام، وشاء أن تكون قصته عبرة للمعتبرين، فيقومون بالمطلوب، ويتركون المسببات إلى صاحبها وهو رب العالمين.

﴿ الإشارة إلى أن تدبير الله وإن كان ظاهره السوء فهو الخير كله، والرحمة عينها، فموسى عليه السلام خرج من قصره لحاجته فإذا به يجد نفسه سبياً في قتل نفس، فلم يجد من حل إلا الخروج من ذلك القصر ومن المدينة الظالم أهلها، فحصل بسبب ذلك الخروج على أفضل الزوجات، وعاشر بسببه أحسن الأصهار، ثم هُيئ ليصبح نبيّ الله وكتيمه، وخامس أولي العزم من رسله، ليبقى ذكره في الغابرين، وليهدي الله به من يشاء إلى يوم الدين¹.

﴿ الإشارة كذلك أن أبواب الله لا يعلمها إلا هو، فإذا أغلقت في وجه الشخص كلُّ الأبواب فليعلم أن باباً لا يُغلق هو باب الله؛ ذلك أن الله تعالى هياً لموسى رجلاً غير معلوم² -وربما يكون من

¹ أقصد أن من قرأ سيرته في القرآن، أو سنة النبي العدنان سيوقن أن ما جاء به والذي جاء موسى مُحمَّد صلى الله عليه يخرج من مشكاة واحدة، ويدل على هذا ما في البخاري عن ورقة الذي أخبر النبي ﷺ بأن ما جاء به والذي جاء به موسى يخرج من مشكاة واحدة. ينظر: صحيح البخاري، بدء الوحي، كيف بدأ الوحي إلى رسول الله: 7/1، رقم 3.

² كما ظاهر من تنكيهه.

القصر، أو من أعوان الظلمة - فأخبره بتدبيرهم، لينجو من سطوتهم؛ كل هذا ليوقن الإنسان أن الله يُخرج من الضد ضده، ومن العدو كرمه، فيطمئن القلب، وتسكن النفس.

﴿التنصيص على أن المخرج لا يعلمه إلا الله، فقد يأتي من الضعيف الذي يُظن به الهوان، ومن الغريب الذي يُنظر إليه نظر الذل والمسكنة، فالمرأتان الضعيفتان اللتان ألفتا السقي بعد صدور الرعاء هياً الله لهما رجلا غريباً، يبحث عن طعام يسد به جوعه، أو مسكن يجد فيه راحته نسي كل همه، وأقبل على همهما فقضى حاجتهما؛ الشيء الذي هياً له هو أيضاً مخرجاً لم يكن يدريه، بل ربما لم يخطر بباله، فأكرم في أفضل البيوت، وخير بين الزوجات، ورجع بحظ وافر من الدنيا.

﴿الإشارة إلى أن الله إذا أراد أمر للعبد سلك به سبيله، ودبر له شأنه، حتى إذا أراد العبد أن يخرج عما رسم له قدّر الله ما يرّده، أو ألهمه طريق الرجوع إليه؛ فالآيات الكريمات ترسم قدّر نبي الله موسى الذي رسمه له ربه، حيث إنه أظلم عليه الليل، وأخفى عنه معالم الطريق ليجتنب عن شعلة تنير طريقه، أو هاد يده على سبيله، كل هذا - وقد هياًه من قبل - ليصل إلى المكانة التي شاءها له ربه، وليقوم بالوظيفة التي من أجلها خلق، وهي الدعوة إلى الله على بصيرة، ليكون حجة لله على خلقه يوم القيامة ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165].

﴿الإشارة إلى أن العباد وأن اجتمعوا بخيلهم ورجلهم فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله لك؛ فهذا فرعون الطاغية الذي بحث عن موسى وهو رضيع ليقتله، وبحث عنه وهو كبير ليقتص منه يقف أمامه وقوف الضعيف الدليل¹، يناظره - ليس بالمعنى الاصطلاحي، وإنما يخاطبه والناس ينظرون - لعله يدخل في حربه، وكأنه نسي أو أنساه الله ما كان في صدره تجاهه، فلما قرّر الإجهاز عليه تدخلت

¹ أعني أنه لم يستطع قتله من أول وهلة؛ لأن الله شاء أن يظهر لأتباعه أن أنه ضعيف.

قدرة الله لتشق طريقا في غير محله، لينجو من يشاء الله، ويهلك من أراد الله قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي آلٍ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿التنصيص على أن المطلوب لا يُنال إلا إذا شاء الله حتى لو كان في نظر الناس سهلا ميسورا؛ فأبو طالب رجلٌ حصيف، وعافل يزن الأمور، فالأصل في أمثاله الانصياع لدعوة الأنبياء، فإذا به يُرد دعوة سيد الدعاة، وأفصح العرب، وأقوى العالمين حجةً، إضافة إلى أنه كان حريصا على هدايته، ويُحبه حبا لا يوصف، حتى إنه حزن عليه كحزنه على زوجه خديجة فسُمِّي العام الذي مات فيه عام الحزن؛ وأنزل الله عليه في شأنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ كل هذا ليقن العباد أن التدبير في يد الله ﷻ، وليسلموا زمام أمورهم إليه، فما يدبره هو عين الحكمة، وما يوقعه هو عين الصواب.

ثم تحتم السورة بأمر عاشه الصحابة، وعاشه من قرأ سيرة النبي ﷺ، وهو إعطاء نموذج حي لما كانت تُرشد إليه السورة كلها، فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة -مستضعف يتبرص به أعداءه، يقتلون أصحابه، ويخططون لقتله هو أيضا عليه الصلاة والسلام- بأنه سيرجع إلى مكة، وأن جموعهم مهزومة، وعساكرهم مغلوبة، فكان ما قررت ورآه الناس رأي العين، فازدادوا ثقة برهم، وكان الحدث عبرة لمن يأتي بعدهم.

فكان في خاتمة السورة دعوةً إلى التجريب، وذلك بالنظر إلى وعود الله المتعلقة بالتدبير لأوليائه فيحذى حذوها لترتفع النفس من علم اليقين إلى عين اليقين.

الهداية الثانية: وعود الله لأوليائه لا تأتي من تلقاء نفسها، بل لا بد من السعي وراءها، واتخاذ الأسباب الكافية لتحقيقها، ودفع كل معيقاتها بحسب العلم والطاقة؛ ويمكن أن نستدل على هذه الهداية بما يأتي:

﴿إرضاع أم موسى لولدها قبل رميه في اليم، ووضعها له في تابوت يقيه من دخول الماء، ويحفظه من الغرق، ثم إرسال ابنتها تقتفي أثره، وتنظر أين ينهي أمره مع أنها ألقته إلقاء الوائق الذي

لا يشك في وعد الله، المؤمن بحفظ الله ورعايته ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ .

◀ **بدار موسى عليه السلام إلى الخروج من المدينة، واتخاذة كافة الوسائل للنجاة من فرعون وجنوده** ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۚ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ ثم لجأ إلى الله ليوقع المسببات وراء أسبابها ولم يخرج خروج من لا يدري أن يتجه -مع أنه خائف- بل قصد قرية بعينها (هي مدين) وسلك طريقا توصله إلى مراده، ثم سلم الأمر لمولاه قائلا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ .

◀ **مدافعتة للظالمين لأخذ حقوق الناس¹**، إذ سقى للمرأتين ثم توجه إلى مولاه سائلا منه رزقه، مفتقرا إلى ما عنده قائلا: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٤﴾﴾ .

◀ **كسبه بكده، وعرق جبينه، فاشتغل راعيا ثمان سنين أو عشرا، فلم يجلس مع الرجل الصالح في بيته كالأمير، يختار من يشاء من بناته ويتركهما كما كانتا ترعيان قبل مجيئه وإنما قضى الأجل الذي عاهد عليه صهره، ثم قفل راجعا إلى بلده** ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴿١٦﴾﴾، كما أمره الله بأن يخرج يده لتصبح بيضاء من غير سوء، وأن يلقي عصاه لتصبح حية تسعى؛ وكان في مقدور الله أن تصبح اليد بيضاء من غير إدخال، والعصا حية من إلقاء، لكن جعل هذا ليُعلمنا أن الأسباب والمسببات من تدبير الله لكن لا بد من قيام الإنسان بما يقدر الله من الأسباب.

◀ **التنصيص على أن الأسباب وحدها لا تفي بالغرض، فهي مطلوبة لكن من جهة أن الله أمر بها، وليس من جهة أنها تنتج المسببات بذاتها؛ فهذا سيد الخلق عليه الصلاة والسلام يدعو عمه إلى**

¹ سبق أن أشرت في الهدايات الجزئية أن هؤلاء القوم ليسوا بأحسن الناس، حيث تركوا الضعفاء في الخلف وأقبلوا على مصالحهم غير مباليين بما يلحقهم من تعب.

الإسلام عشر سنين تقريبا، ويظهر له من محاسن الشريعة ما يكفي كل عاقل للدخول فيه، والتشبث بأحكامه، ومع أنه من العقلاء كما تدل عليه تصرفاته في حماية النبي ﷺ إلا أن إرادة الله شاءت ألا تنتج الأسباب مسبباتها؛ كل هذا ليقع التوازن بين القيام الأسباب، والثقة في خالق مسبباتها.

الهداية الثالثة: الملك والمال من أهم الأسباب التي تغير صفات الناس، وتحول عقائدهم، فيصبحون ظلمة بعد أن كانوا عدولا، وكفاراً بعد أن كانوا مؤمنين؛ ففرعون الذي ملكه الله مصر علا في الأرض، وقسم شعبها، يستعمل هذا في خدمته، ذلك في خدمة أتباعه، وثالثا يكون مصيره القتل، أو العذاب، ويؤيد هذا ماجاء في سورة النمل من قول ملكة سبا ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(٢١)، وقارون كان من قوم موسى لكنه لما فتحت عليه الدنيا بغى وتجبر، ﴿إِنَّ قَدَرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾^(٢٢) وجعل ما حصل عليه من تلقاء نفسه، فقال مكابرا ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ونسي ما كان يعلمه من هلاك الله للأقوام السابقة.

القسم الثاني: الكلية المستخرجة من مقاطع السورة:

الواقع مهما اسود، والظلم مهما طال عمره، والضعف مهما بلغ مداه، فلا بد من يوم تشرق فيه الشمس، ويزول فيه الظلم، ويُنصر فيه الضعيف؛ ففرعون تجبر في الأرض سنين عددا^١، وبنوا إسرائيل ذاقوا ألوان العذاب، والأطفال قتلوا بلا جريمة، فلما شاء الله التغيير، أهلك الطاغية بجند لم يكن ليخطر بالبال، ونصر المستضعفين بطريقة تشبه الخيال!!، فأغرق فرعون في البحر، ونجى بني إسرائيل منه بسبب البحر!!! قال تعالى مقررا علوا فرعون، ومصورا واقع بني إسرائيل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ

^١ كما سبق أن قرناه في الهدايات الجزئية.

نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠﴾ ، ومبيناً قدرته التي لا حدود لها ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿١١﴾

الدعوة إلى الرضى بتدبير الله واعتباره عين الحكمة، فلا يقلق الإنسان من انسداد الأبواب، ولا يحزن من ضياع الأحباب؛ فالكل يسير بحكمة بالغة، وفق خطة محكمة؛ فالله تعالى ألهم الأم إلقاء ابنها في اليم- وهو فعل غير محمود في الظاهر- فكان إلقاؤها سببا في نجاته، وإقرار عينها برجوعه ورسالته، وجندُ فرعون أخذ موسى ولم يقتله مع أنه مكلف بقتل جميع الأطفال-وهذا أيضا فعل غير محمود في الظاهر؛ لأنه يخالف تنظيمات الدول القاضية بتنفيذ الأوامر-، وموسى حُرِّم عليه الإرضاع -وهذا أيضا مضر بالأطفال في الظاهر؛ لأنه سبب في موتهم-... كل هذا ليوقن عباد الله بأن أي تدبير من الله خير لهم في العاجل أو الآجل أو فيهما معا.

الداعية الناجح في دعوته هو الذي يخالط الناس ويرى أعمالهم لينكر منكرها، ويثني على معروفها، وإن صدرت منه أخطاء فينبغي أن يستغفر منها، ويكمل طريقه في الدعوة؛ فنبى الله موسى عليه السلام وإن كان يعيش في القصر بقدر الله إلا أنه خرج إلى أزقة المدينة، ورأى ما فيها من منكرات، واجتهد في نصرة المظلومين، وحين شعر بالخطأ استغفر الله، وأكمل طريقه باحثا عن مخرج ينجيه.

القسم الثالث: الهدايات الكلية المفارقة بين آيات السورة:

يمكن أن نذكر منها ما يأتي:

1) الأعمال العظيمة ينبغي أن لا يقدم عليها المرء من تلقاء نفسه، بل يحسن به أن يختار له أعوانا، ويبحث له عن أنصار حتى تكون المسببات وفق أسبابها على النظام الذي خلق الله في هذا الكون؛ وقد دل على هذه الهداية مجموعة من الأمور منها:

(2) أن الخطأ وارد على كل الناس، وخاصة الدعاة والمصلحين، فيحتاج إلى من يرده، أو ينجيه من الهلاك؛ وقد أشار إلى هذا المعنى قول الله تعالى في الرجل الصالح: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ

يَسْعَى

فالإنسان مهما بلغت قوته، وزاد علمه فلا يمكن أن يقضي جميع حاجاته بنفسه؛ فأم موسى احتاجت إلى ابنتها لترى ما يقع لرضيعها، وموسى عليه السلام احتاج إلى أخيه ليشد عضده، والرجل الصالح احتاج موسى ليرعى نعمه، والنبي محمد ﷺ احتاج إلى عمه ليحميه مع أن الله متكفل به، وناصره؛ وهذا المعنى مركوز في الفطر، فحتى الكفار لما رأوا نصره موسى ومحمد ﷺ ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾، لكن جاءت الآيات لترشد المؤمنين إلى الاعتناء به، وإعطائه المكانة اللائقة به.

الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.

هذا الفصل كسابقه أدرجت تحته ثلاثة مباحث، مبحث يتناول مناسبات السورة، ومبحث يتناول خصائصها، ومبحث يتناول أساليبها في عرض هداياتها، وإليك هذه المباحث:

المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.

تمهيد

الحديث عن مناسبة السورة لسابقتها أو لا حققتها إنما يستقيم على القول بأن الترتيب توقيفي، والواقع خلاف ذلك، فجمهور العلماء -منهم مالك بن أنس- يقولون بأن الترتيب اجتهاد من الصحابة¹؛ وعليه فإبداء المناسبة -إن وجدت، وكانت غير متكلفة- إنما غايته إظهار علم الصحابة بالقرآن، ومعرفة الغايات من سوره، مما جعلهم يضعون كل سورة بعد التي تلائمها حتى يُخيل إلى الناظر أن القرآن مؤلف تأليفا واحدا.

وقال ابن عطية: "وظاهر الآثار أن السبع الطول والحواميم والمفصل كان مرتبا في زمن النبي عليه السلام، وكان في السور ما لم يرتب، فذلك هو الذي رتب وقت الكتب²"، وهذا الرأي أظهر، وأقرب إلى الصواب؛ لأمرين اثنين:

أولاً: لأنه ثبت عن النبي ﷺ قراءة البقرة، ثم النساء ثم آل عمران³.

وثانياً: لعدم وجود دليل قولي يحسم المسألة، ويقرر أن الترتيب توقيفي.

وقد سبق أن أظهرت المناسبة بين سورة النمل والشعراء، كما أظهرتها بين سورة النمل والقصص؛ لأن نزولهن مرتب كما هن في المصحف، ولم أتعرض لهذا التفصيل لعدم وجود الداعي هناك.

مناسبة سورة القصص لسورة العنكبوت

من المناسبات التي يمكن استنباطها أنه لما ذكرت سورة القصص مجموعة من الامتحانات، التي منها امتحان أم موسى بإلقاء ولدها في اليم، وامتحان ابنها بخروجه من بلده، واشتغاله بغير المؤلف عنده، ثم مواجهته بعدوه الذي بلغ الغاية في التجبر والطغيان، إلى أن ختمت بذكر امتحان سيدنا محمد ﷺ بخروجه من مكة، وبشارته بالعودة إليها، كما عاد موسى إلى وطنه، ناسب أن تبدأ سورة

¹ ينظر: البرهان في علوم القرآن: 1/257.

² المحرر الوجيز: 1/50.

³ ينظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة: 1/536، رقم: 772.

العنكبوت بما يشير إلى أن الابتلاء سنة ربانية لجميع عباده الصالحين كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾¹.

وأيضا فلما أشارت سورة القصص إلى علو فرعون وتجره، واعتدائه على بني إسرائيل أكثر من اعتداء قريش على صحابة رسول الله ﷺ أعقبها سورة العنكبوت ببيان أن هذا عام في جميع أتباع الرسل، حتى يتسلى الصحابة رضي الله عنهم، وثبت فيهم روح العزم على المواصلة في الصبر، مع الثبات على الدين².

مناسبة أول السورة لخاتمها

من المناسبات التي يمكن ذكرها:

أولا: جاء في أول السورة هجرة موسى من وطنه ثم العودة إليه، وفي آخرها إشارة إلى هجرة محمد ﷺ من أحب البقاع إلى قلبه، ثم عودته إليها بعدما قضى ما يسر الله خارجها³.

ثانيا: تناسب المطلع والختام في الحديث عن مظاهرة المجرمين، ففي المطلع نجد عزم موسى عليه السلام على ترك مظاهرة المجرمين، حين قال ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾⁴ وفي الختام نجد نفى النبي ﷺ لمظاهرة الكافرين، إلا أن هذا النفي جاء في صورة النهي، إذ المعنى لا يصدُر منك هذا الفعل الذي هو المظاهرة⁴، فيصير أول السورة وآخرها متفقان على نفى المظاهرة، وهذا من جميل التناسب⁵.

ثالثا: من عجيب النكت-ولا شك أن هذا داخل أيضا في المناسبة- أن المدة التي قضاها نبي الله موسى خارج وطنه تقرب من المدة التي قضاها أيضا رسول الله ﷺ في المدينة قبل عودته؛ ذلك أن موسى قضى أزيد من ثمان سنين، ومحمد ﷺ فتح مكة في السنة الثامنة، فلعل فيها إشارة إلى النبي ﷺ بأن المدة التي سيقضيها ستكون مثل المدة التي قضاها موسى، أو قريبة منها؛ لأن قصة موسى

¹ ينظر: البرهان: في تناسب سور القرآن، ص: 271/270.

² ينظر: المختارات من المناسبات بين السور والآيات، ص: 172.

³ ينظر: مراصد المطالع، ص: 58، وجواهر البيان، ص: 75.

⁴ ينظر: التحرير والتنوير: 195/20.

⁵ ينظر: جواهر البيان، ص: 75.

جاءت في سياق عتو فرعون وعلوه، وسياق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم في شدة الأذى من قريش على النبي ﷺ، بعد موت عمه أبي طالب.

رابعا: كما أنها بدئت بالحديث عن الأرض، وختمت بالحديث عنه أيضا، إلا أن حديثها عنها أولا كان من باب الإخبار ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وحديثها عنه في الأخير كان من باب البيان ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

خامسا: ومما يمكن أن نعهده أيضا من المناسبات بين المطلع والخاتمة حديث كل منهما عن شيئين مترابطين، إذا وجد أحدهما عند الشخص، يسعى لإيجاد الآخر، وغالبا ما يحدث عنهما الإفساد في الأرض؛ هذان الشيان هما الملك والمال، فالملك كان لفرعون، -ولا شك كان معه المال-، والمال كان لقارون، وقد ذكر الأول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآيات، وذكر الثاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ وَلَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾.

سادسا: ومما يمكن عده من المناسبات الحديث عن العلو وضده، فأول السورة تحدث عن علو فرعون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وآخر السورة تحدث عن فقر الإنسان وضعفه، ومعه سائر المخلوقات ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فهي بهذا تكون قد أبلغت رسالة في قمة الروعة، مفادها أن كل ما يعتقد الناس علوا، فهو في الحقيقة دنو وصغار، إذ لو كان علوا حقيقة لبقى صاحبه مرفوعا، وآثاره عليه ظاهرة، والأمر ليس كذلك فكل شيء إلى الزوال.

المناسبة بين موضوعات السورة:

"بعد أن قص الله تعالى قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه وما تضمنه من غرائب الأحداث والعبر، وأوحى الله تعالى بجميع تلك الأخبار إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ذكره بإنعامه عليه

بذلك وبما خصه من المغيبات التي لا يعلمها، لا هو ولا قومه، وأبان الحاجة إلى رسالته، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"¹.

كما أنه لما أتى بأخبار دقيقة من الماضي قد لا توجد جميعها عند أهل الكتاب فضلا عن العرب الأميين كان من المناسب أن يعطف عليها ما هو معلوم قطعاً لدى اليهود والنصارى، ولدى مشركي العرب قاطبة، بل لكل عاقل على وجه الأرض وهو أن النبي ﷺ لم يكن موجود أثناء وقوع تلك الأحداث، ولم يسافر قط إلى الأماكن التي حدثت فيها؛ هذا لتقوم الحجة على الجميع، ويظهر الحق للعيان، ويبقى الإنكار قائماً على الهوى والتشهي، أو العداء القائم بين أهل الحق وأهل الضلال².

لذا أردف هذا بالتنصيص على أن الحجة قد قامت، وأن الحق قد ظهر، وما ردهم لبوتك إلا اتباع للهوى، ومكابرة مع العناد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾

ثم تأتي حلقة أخرى في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ مناسبةً للتي قبلها حتى يخيل للقارئ أنهما صنوان يخرجان من مشكاة واحدة؛ ذلك أن الذي يمر على الحق الذي جاء اليهود والنصارى، والعرب والمشركين يتعجب من عدم إيمانهم مع أن الحجة قد قامت عليهم، ويخالطه الشك في مدلول صيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ فيتساءل هل كل الذين أوتوا الكتاب لم يتذكروا بالقرآن؟ يأتي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ليجيب عن السؤال، ويبين أن اليهود والنصارى ليسوا على حال واحدة مع النبي ﷺ، فبعضهم - وخاصة من لديهم علم بالكتاب - آمن به، ونصرَ دعوته كورقة بن نوفل، وعبدالله بن سلام وغيرهما³.

فكشفت هذه الحلقة أن ما أتى به محمد ﷺ من جنس ما أتى به موسى وعيسى، وأن الذين يؤمنون بالأنبياء الصادقين إيماناً صادقا يسارعون إلى الإيمان به، ونشرِ دعوته، ليكون لهم الأجر

¹ التفسير المنير: 113/20.

² ينظر: نظم الدرر: 302/14.

³ ينظر: نظم الدرر: 308/14، والتحرير والتنوير: 143/20.

مرتين؛ لأنهم آمنوا بالأنبياء السابقين، وآمنوا بمحمد ﷺ¹، فكانت من المناسبة بمكان، فسبحان من علم ما يختلج النفوس ليجيبها قبل أن تسأل.

ومن الإشارات الخفية، واللطائف العجيبة أن التعبير عن إيمان أهل الكتاب لم يأت بالماضي ليكون دليلاً على صحة الدعوى، وجواباً مقنعاً للسائل وإنما جاء بالمضارع المشعر بأن الحدث قائم، فيشمل ورقة ابن نوفل مثلاً، ومن يؤمن بالنبي ﷺ عند وصوله إلى المدينة كعبد الله سلام، وأبي بن كعب، ويشمل كل من يؤمن به إلى يوم الدين.

ثم تأتي حلقة أخرى تتحدث عن واقع النبي مع أمته، وبخاصة مع أهله وأقربائه، الذين يعلمون صدقه، ولا يشكون في أمانته، فيتخفى أحدهم عن الآخر ليسمعوا القرآن، ويلتذ بمعانيه، فإذا اجتمعوا صمموا على الكفر، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾²، وقد ذكر ابن اسحاق "أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود: فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا"³.

"ولما كان من المعلوم أن نفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لما جبلت عليه من الخير والمحبة لنفع جميع العباد، لا سيما العرب، لقربهم منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لاسيما أقربهم منه صلة للرحم تتأثر بسبق أهل الكتاب لقومه، وكان ربما ظن ظان أن عدم هدايتهم لتقصير في دعائه أو إرادته لذلك،

¹ ينظر والتحرير والتنوير: 144/20

² ينظر جامع البيان: 460/17.

³ سيرة ابن هشام: 315/1.

وأنه لو أراد هدايتهم وأحبها، وعلق همته العلية بها لاهتدوا، أجيب عن هذا بقوله تعالى في سياق التأكيد إظهاراً لصفة القدرة والكبرياء والعظمة: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي نفسه، أو هدايته بخلق الإيمان في قلبه، وإنما في (يَدِكَ) الهداية التي هي الإرشاد والبيان¹.

ولعل هناك وجهاً آخر من المناسبة وهو أن دعوته قد ردها معظم العرب، وجل أهل الكتاب إلا طائفة قليلة، فظن أن ذلك محصور في الحقد الدفين عليه؛ لأنه من أصول إسماعيل، ومن أسرة فقيرة - وهذا سبب رئيس - فجاءت الآية لتبين عاملاً آخر وهو توفيق الله تعالى، إذ لا يعقل أن تكون بين النبي ﷺ وبين قومه خصومة سياسية، لأن عزه عزهم، أو يكون رفض دعوته من قبل عمه بسبب فقره؛ لأن كان يناصره، ويدر عليه أذى قومه، فلم يبق إلا التوفيق الرباني. ومن قرأ سبب نزول الآية المتمثل في دعوة النبي عمه إلى الإسلام ودعوة أبي جهل له إلى البقاء على دين الآباء والأجداد يدرك أن عوامل رفض الدعوة كثيرة، والعقد والعناد من أسبابها. والله أعلم.

فإذا عرف القارئ هذا تبادر على ذهنه سؤال عن العرب جميعهم هل تعللوا بما تعلل به اليهود في قولهم ﴿لَوْلَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ أم أن لهم أعذاراً أخرى ترتبط بما هو اجتماعي أو عسكري؟ فتأتي الآيات الكريمات موضحة السبب بقولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُخَاطَفُ مِنْ أَرْضِينَ﴾ وداحضة لهذا العذر الواهي بقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ﴾ بعد هذه الآيات يأتي قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ كاشفاً قدرة الله في الخارجين عن أمره، ومرهباً لمن يسير على طريقهم في عماية؛ فالآيات الأولى ذكّرت مشركي مكة بالخصوص بقدرة الله التي منعت عنهم الأعداء، وجعلتهم يعيشون في أمن وأمان دون سائر الناس، فناسب أن تأتي آيات أخرى مبينة فعله تعالى بمن يفعل مثل أفعالهم ليكون دافعاً لهم إلى شكره، ومخوفاً لهم من عقابه، قائلاً لهم بالمفهوم: إنني منزل بكم مثل ما أنزلت بالقوم الظالمين، فصفاً لكم كصفاً لهم، وسنتي لا تتخلف².

¹ نظم الدرر: 317/14، وينظر التحرير والتنوير: 147/20.

² ينظر: نظم الدرر: 326/14.

ولما بين تعالى حال المعدِّين الذين كانوا يعملون في الدنيا مثل أعمال مشركي العرب، تشوفت النفس لمعرفة حال من كان على مثل صفاتهم، ثم تخلى عنها لما جاءته النذر، أو بعد حرب طويل بينه وبين الأنبياء انتهت في الأخير إلى رجوعه إلى طريقهم، ناسب أن تأتي الآيات مبتدئة بقوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ لتطمئنه، وتقول له: إنك تتعامل مع رب رحيم، صفاته تختلف عن صفت العباد الذي لا يرحمون من قدروا عليه، ولتدفعه دفعا إلى التخلي عما هو فيه، والدخول في زمرة أتباع الأنبياء والمرسلين¹.

وفي هذه المناسبة إشارة عظيمة تجلت في نزع الله التائبين من عسكر المجرمين حتى يقل جمعهم، وتضعف شوكتهم².

وهناك مناسبة أخرى وهي التعريف بحال الفريقين معا، فريق أهل النار الذي سبق ذكره، وفريق أهل الجنة الذي بينت الآيات بعض صفاته، وذكر الضد عقب ضده من أهم أنواع التمييز والتعريف، وهذا باب من أبواب المناسبات كذلك³.

كما أن في هذا التعقيب -أعني التعقيب بالتوبة- دعوة للعلماء والمصلحين بأن يسعوا جاهدين إلى تقليل عدد الكفار والمشركين، وذلك بقبول كل من أظهر تصالحه مع الله حتى لو كان من أعدى الأعداء لهم، فهم يشتغلون مع الله، فلا ينبغي لهم أن يلتفتوا إلى الأذى الذي يلحقهم من أعدائهم في الله أيضا.

من هنا ناسب أن تأتي الآيات عقبها بالشواهد الكونية على وحدانية الله، ومعرفة لهم بفضل الله الذي جعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليقضوا فيه مصالحهم، ترغيبا لهم في الدخول إلى حبه، وسحبا لهم من معسكر الكافرين.

ولما كان من أهم أسباب إغراض كثير من المشركين عن دعوة النبي ﷺ، وإيذائهم له ولأصحابه شعورهم بالعزة الحاصلة بسبب ما عندهم من الأموال التي لا تناسب -في نظرهم- حال محمد صلى الله عليه وسلم وحال أتباعه من العبيد والفقراء حتى قالوا ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ

¹ ينظر: مفاتيح الغيب: 10/25.

² ينظر: المحرر الوجيز: 295/4.

³ ينظر: التحرير والتنوير: 163/20.

الْقَرَّتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾، [الزحرف: 31]، وقالوا أيضا على سبيل السخرية¹ ﴿أَهْلُؤَلَاءِ مَنْ رَبُّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
مَنْ بَيْنَنَا﴾ ناسب أن يذكر قصة رجل جمع من المال ما لم تستطع قريش بأكملها جمعه، بل قد لا
تستطيع العرب كلها ذلك ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ
مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوزُ بِالْعَصَبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾².

فبينت هذه القصة أن المال زائل، وما كان كذلك لا ينبغي أن يكون معيارا للحكم على الناس،
فهذا قارون الذي تسمعون عنه لم يُغن عنه ماله شيئا، ولم يستطع أتباعه إنقاذه من الخسف، بل ولا
حتى إنقاذ أمواله من الهلاك، ألا فاعتبروا.

وهناك مناسبة أخرى وهي أن العذاب إذا حل بقوم لا يستثني الأقارب، ولا الذين كانوا على حال
حسنة ثم تحولوا إلى حال أخرى توجب عليهم العذاب؛ هذا، حتى لا يظن ظان من أهل الشرك الذين
تربطهم قرابة، أو نحو ذلك بالنبي ﷺ أن قرابتهم منه ستغني عنهم من العذاب شيئا إذا حل بقومهم،
فقارون كان من قوم موسى، وقيل من قرابته أيضا ومع ذلك كان مصيره ما صورته الآيات³.

ومن المناسبات بين ذكر هذه القصة عقب الحديث عن مشركي العرب أنه لما كانت مقاطعتهم
للنبي ﷺ لم تكن على أسس الخلق، ولا على أسس الدين إنما على أمور تافهة، بعضها يرجع إلى
المال، وبعضهما يرجع إلى الحال، ناسب أن يذكر الله قصة رجل قطع قومه الذين كان من المفروض
أن يكونوا معه؛ لأن الجميع كان تحت قبضة فرعون فمروا بالله عليهم ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
أَسْضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾⁴ لكنه أثر غير ذلك،
فكانت عاقبته الهلاك والخسران، وفي هذا إشارة إلى مشركي العرب بأن عاقبتهم ستكون الخراب
والخسران إن ظلوا على ذلك⁴.

¹ ينظر: التحرير والتنوير: 252/7.

² ينظر: التحرير والتنوير: 174/20.

³ ينظر: نظم الدرر: 348/14، والتحرير والتنوير: 174/20.

⁴ ينظر: نظم الدرر: 349/14.

ولعل هناك مناسبة أخرى، وهي أن المال عادة ما يكون سبباً لبناء الدور والقصور التي تظلل شاهدة على أصحابها كما قررته الآيات السابقات ﴿فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ فناسب أن يذكر الله قصة جمع أصحابها من المال ما تعجز الدول عن جمعه إلا أنه لما لم ترك أثراً، كان كأنه لم يعيش يوماً على الأرض، ولولا إرادة الله تخليد ذكره ليكون عبرة لما علم به حتى العلماء فضلاً عن عامة الناس الذين يجري على ألسنتهم (مال قارون)؛ هذا ليعيد المعاندون للنبي ﷺ النظر في تصرفاتهم، ويقبّلوا أوراقهم لعلهم يدركون أن ما هم عليه لا يؤدي إلى النجاة، فما عليهم إلا أن يختاروا سبيل ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ﴿٦٧﴾

فسبحان الله العظيم الذي يضع الأسرار بين طيات كتابه لتكون دافعة إلى مزيد شكره، وكثير حمده.

بعد ذلك تأتي حلقة أخرى في السورة تتعلق بالنبي ﷺ، لتكشف له النهاية الكريمة قال الرازي: " ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى في ذلك، شرح له ما يتصل بأحواله فقال: إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ¹"

ذلك أنه لما ذكر عاقبة قارون، وبين أن جزاء الحسنة إحساناً، أعقب ذلك ببيان عاقبة النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة ²

وقال البقاعي: " ولما قرر ذكر الآخرة التي هي المرجع وكرره، وأثبت الجزاء فيها، وأن العاقبة للمتقين، أتبعه ما هو في بيان ذلك كالعلة، فقال مستأنفاً مقررأً مؤكداً لما تقرر في أذهانهم من إنكار الآخرة وما يقتضيه حال خروجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة المشرفة من استبعاد رده إليها: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ أي أوجب عليك القرآن أي الجامع لما تفرق من المحاسن، المفصل لما التبس من جميع المعاني، أي فرض عليك جميع ما في هذا الكتاب المشتمل على الجمع والفرق بما يظهر حسن تلقيه من تلاوة وإبلاغ وتحد وعمل وألزمك فيه وغيرك هذه الملازم، وكلفكم تلك التكاليف التي منها

¹ مفاتيح الغيب: 19/25.

² ينظر: التحرير والتنوير: 191/20.

المقارعة بالسيوف ﴿لَرَأَدُّكَ﴾ أي بعد الموت لأجل صعوبة ما كلفك به وألزمك من مشقته ﴿إِلَى مَعَادٍ﴾ أي مرجع عظيم يا له من مرجع¹

هذا مآظهر لي، ولعل هناك مناسبات أخرى بين المطلاع والختام، وبين السورة والتي قبلها، وبينها والتي بعده، ولعل الله ييسر من يفتح عليه بها؛ أما عبد ربه فيشهد الله أني ما قصرت في البحث عن المصادر، وما بخلت بإعمال ذهني في المقاطع، ولم أصل إلا حيث أوصلني الله.

¹ نظم الدرر: 375/14.

المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة.

تمهيد:

سبقت الإشارة إلى أن سورة القصص من السورة المكية التي تعالج قضايا التوحيد، والرسول، والبعث والجزاء...، وسبقت الإشارة أيضا إلى أن الغالب على أساليب على السور المكية الاختصار والاختصار، والإيجاز في العبارة، لكون أهل مكة فصحاء وبلغاء يفهمون بالإشارات الخفية، والتلميحات الذكية، لكن الناظر إلى سورة القصص يجد فيها خروجاً عن هذا الأسلوب¹، إذ نجد فيها الجمل الطويلة، والتفصيلات للقضايا الكبرى؛ فأياتها - كما سبقت مقارنتها بسورة النمل - أطول من سورة النمل، فبالإضافة إلى سورة الشعراء التي نزلت قبلها، كما أن تناولها للموضوعات كان فيه الإسهاب والتفصيل، وقصة موسى عليه السلام خير مثال، إذ نجد فيها من الطول والتفصيل ما لا نجده في غيرها من السور التي تناولت قصته عليه السلام. فعلى سبيل المثال نجد سورة النمل قد لخصت قصته في ثماني آيات قصيرات، بينما فصلتها سورة القصص في واحد وأربعين آية.

ولعل السر في ذلك - والله أعلم - أن العرب كانت تميل إلى القص، فتسمر الليالي عليه، مع أنها تعلم أن المقصود ما هو إلا أساطير الأولين، فجاءهم القرآن بَقَصٍّ يأخذ الألباب، ويأسر النفوس، مع صحة في النقل، وإفادة في المضمون.

لذلك نجد سور القرآن تأخذ من أحداث الأنبياء ما يوافق الغرض، ويفي بالعبارة فقط، ولم يقع التفصيل إلا في سورة يوسف وسورة القصص، حيث ابتدئت القصة من الأول، وعرجنا على أهم الأحداث، ونصتنا على الخاتمة.

خصائص سورة القصص:

مما ظهر لي أن السورة اختصت به:

أولاً: الحديث عن تربية موسى، وتفصيل ما وقع له في صغره، وما جرى لي بعد كبره، فقد أوردت السورة "القصة مُفَصَّلَةً ابتداءً من قبل أن يأتي موسى إلى الدنيا إلى ولادته، وإلقائه في اليمِّ والتقاطه من آل فرعون، وإرضاعه ونشأته وقتله المصري وهربه من مصر إلى مدين، وزواجه وعودته بعد عشر

¹ سبقت أن قلت إن القرآن الكريم لا يسير على نمط واحد في الأسلوب، بل ينوع حسب الأغراض والموضوعات،

والسياق...

سنين وإبلاغه بالرسالة من الله رب العالمين، وتأييده بالآيات، ودعوته فرعون إلى عبادة الله إلى غرق فرعون في اليم، وذلك من الآية الثانية إلى الآية الثالثة والأربعين.

فالقصة في سورة القصص، إذن مفصلة مطولة، وفي سورة النمل مُوجزة مجملة. وهذا الأمر ظاهر في صياغة القصتين، واختيار التعبير لكل منهما¹.

ثانياً: التنصيص على السبب الذي جعل فرعون يفعل بقومه ما قص الله في هذه السورة وفي غيرها من السور؛ ذلكم السبب هو العلو في الأرض، لذلك صدرت به القصة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾

ثالثاً: عرض قصة موسى مصحوبة بالخوف الذي يناسب مقصود السورة -وهو زرع الثقة بالله كما سبق بيانه-، لذلك كُرِّر فيها الخوف مرات، وأضيفت فيها ألفاظ لم تأت في سورة النمل التي قبلها، ولا في سور أخرى ذكرت القصة، ذلك أن قصته جاءت في سورة النمل في معرض التكريم، وجاءت في سورة القصص في سياق عرض الحالة التي كان عليها، وهي الخوف الذي بدأ من أولها، قبل خروجه إلى الدنيا كالخوف يملك قلب أمه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾، وعندما شب وشرع في التجوال داخل المدينة أصبح خائفاً ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ وعند خروجه منها رافقه الخوف كذلك ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾، وعندما دخل مدين دخل ومعه شيء من الخوف حتى قال له الرجل الصالح ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وحتى لما رجع إلى بلده، ورأى من جانب الطور نارا ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فخاطبه ربه ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾ لهذا جاء الترجي هنا ﴿لَعَلَّآتِيكُمْ مِنْهَا يُخَوِّرُ أَوْ جَذَوْهُ﴾ وجاء الحسم في النمل ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا يُخَوِّرُ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾².

رابعاً: اختصت بذكر قتل موسى للذي من عدوه ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾، وما ذكر في سور أخرى كقوله تعالى في طه ﴿وَقَتَلْتَ﴾، وفي الشعراء حكاية على لسان فرعون ﴿وَفَعَلْتَ

¹ لمسات بيانية، ص: 92.

² لمسات بيانية، ص: 94.

فَعَلَّتْكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ فإنما على سبيل الإخبار، وهذه تروي الواقعة كما هي.

خامسا: الحديث عن الرجل الصالح وابنتيه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾

سادسا: الحديث عن رعي موسى، واستئجاره، ونكاحه ابنة الرجل الصالح ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ ولم يذكر في غيرها من سور القرآن.

سادسا: الترتب الزمني لأحداث موسى عليه السلام، إذ بدأت من الحمل، ثم التربية، ثم الغربة، ثم بعد ذلك تأتية النبوة، ويعطى البنات، ثم يؤمر بالتبليغ، وهذا لا يوجد في غيرها، فعلى سبيل المثال أقرب السور شيها بها سورة طه، التي تناولت الولادة والتربية، وإلقاء محبة الله عليه ليست مثلها، إذ بدأت بالنبوة ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿٩﴾، ثم عقت بالآيات التي أتيتها، بعد ذلك أمر بالتبليغ إلى أن السورة إلى ولادته لكن ليس على طريق الإخبار وإنما عن طريق المنى، والتعريف بفضل الله ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ ﴿٢٧﴾ فكانت سورة القصص بحق مختصة برواية قصة موسى رواية تعريفية.

سابعا: ذكر أهم صفات النساء وهي الحياء، الذي مدحت به إحدى ابنتي الرجل الصالح، ﴿جَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ ولم ترد صفة الحياء في القرآن -باعتبارها وصفا للإنسان- إلا في موضعين، موضع جاءت صفة للنبي ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: 53]، وموضع جاءت صفة لابنة الرجل الصالح، لذلك حق لنا أن نقول إن ذكر الحياة بالنسبة للنساء تختص به سورة القصص.

ثامنا: الإشارة إلى عم النبي ﷺ الذي آزره، ودافع عن دعوته حتى لفظته قريش، وأصبح محاصرا في شعب من شعاب مكة؛ وفي الأخير مات على الشرك، فحزن النبي صلى الله عليه وآله حزنا شديدا، فأنزل

الله في شأنه قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ عن ابن المسيب، عن أبيه، أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل، فقال: (أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلماناه، حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لأستغفرن لك، ما لم أنه عنه) فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة: 113]. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ٥٦﴾¹

تاسعا: ذكر ما جرى لقارون وملكه، وما وقع له مع قومه، حيث بينت افتراق الناس في ماله إلى فرقتين: فرقة من أولي العلم اعتبرت ما عنده ظلا زائلا، وبينت أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا، وفرقة اعتبرت ما عنده شرفا عظيما، وتمنت لو كان لها مثله حتى تكون من أهل الحظوظ؛ فقارون وإن ذكرت في مواضع أخرى من القرآن فلم يذكر كما هنا، لذلك حق لهذه السورة أن تجعل مما اختص بذكره.

عاشرا: ذكر الإشارة إلى هجرة النبي ثم رجوعه إلى مكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، فالآية فيها تلميح للنبي ﷺ، لأن المعاد المذكور يراد به مكة كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال في ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أنها مكة².

حادي عشر: وما يمكن أن نعه من خصائها أيضا أن فيها آية، ذكر فيها أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان، حتى عدَّ القاض عياض هذا الأسلوب من الإعزاز، فقد "حكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية.. فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك!! فقالت: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ ٣١﴾...!!! الآية، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين

¹ صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب: 52/4، رقم: 3884.

² ينظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب، إن الذي فرض عليك القرآن: 113/6، رقم: 4773.

فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح من القولين¹.
هذا ما ظهر لي والله أعلم.

¹ الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 508/1.

المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.

تعد سورة القصص - كما سبقت الإشارة - من السور المكية التي لها في الغالب أسلوب خاص يتوافق والموضوعات التي تعالجها، وقد سبقت الإشارة أيضا إلى أن ذكر أساليب السورة لا يدل على أنها مختصة بها، أو أكثر من غيرها في هذا الأسلوب أو ذلك، وإنما تذكر لأجل التمثيل، أو لبيان أوجه الهدايات، كما سبق القول بأن استقصاء أساليب السورة لا يكفيه مبحث ضمن مشروع محصور بالزمان والمنهج، غاية ما في الأمر أن نذكر نماذج منها ونمثل لها بأمثلة من السورة.

من الأساليب التي استعملت، ويمكن ذكرها:

أولاً: استعمال الجمل الطويلة في تقرير المعاني، وهذا على غير العادة في السور المكية، إذ نص كثير من العلماء على القرآن الكريم "سَلَكَ مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات صغيرة السور؛ لأنهم كانوا أهل فصاحة وَلَسَنَ، صناعتهم الكلام، وهتهم البيان، فيناسبهم الإيجاز والإقلال، دون الإسهاب والإطناب"¹.

ولقد سبقت مقارنتها بسورة النمل فلا داعي لإعادة الحديث عنها من هذا الجانب، فليرجع إليه لمن أراد المزيد.

ثانياً: غلبة البدء بالجمل الفعلية، فعلى سبيل المثال لا نجد من الآية الواحدة إلى الآية الثالثة

والأربعين آية ابتدئت بالجملة الاسمية إلا قوله تعالى: ﴿طَسَمَ ۝١﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وما عداها إما مبدوءة بالفعل حقيقة، أو حكما، فالمبدوءة بالفعل حقيقة هي التي لم يتقدم عليها شيء، والمبدوءة بالفعل حكما هي التي تقدم عليها شيء لكنه من خواص الأفعال ك (لما) ونحوها، أو أنه يكون مع الجمل الفعلية والجمل الاسمية، لكنه لا يسند ولا يسند إليه، كالواو والفاء ونحوهما.

ولعل السر في هذا الأسلوب هو أن العرب كانت أمة أمية لا تعرف شيئا عن قصة موسى وفرعون، أو أنها تعرف بعض الأمور العامة ولا تشك في أحداثها، أو تنكر ما كان غريبا من وقائعها؛ ومن هذا كان شأنه يُناسبه الأسلوب الابتدائي التي يُلقى إلى خال الذهن كما يقول البلاغيون. وبما

¹ مناهل العرفان: 203/1.

أن الجمل الاسمية بنوعيهما (الصغرى والكبرى) فيها تأكيد، أو شبه تأكيد، عُدل عنها إلى الجمل الفعلية التي ليس فيها تأكيد أصلاً، ليتناسب الخطاب وحال! القوم الذين وجه إليهم.

ثالثاً: غلبة الجمل الفعلية الماضية على الجمل الفعلية المضارعية، فالناظر في آيات السورة يجدها تتحدث عن قصة حدثت وانقضى أمرها، إلا أن بعض أحداثها -وهو الغالب- روي بالفعل الماضي الذي هو الأصل في الأحداث التاريخية، ك ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ ﴿فَأَلْقَيْتُهَا﴾ ﴿وَدَخَلَ﴾ ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وروي بعض أحداثها بالفعل المضارع مثل ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَنُؤَيِّدُ الْفِرْعَوْنَ﴾ ولعل السر في ذلك -والله أعلم- أن الأحداث التي يراد منها أن تستقر في الأذهان، وتُغرس معها معانيها العقديَّة والسلوكية في النفوس يناسبها الفعل الماضي، والأحداث التي يراد منها تعليم الناس سنة الله في خلقه، وبيان فعله في أعدائه وأوليائه يناسبها الفعل المضارع التي يتجدد معناه في الزمان والمكان، لذا تحدثت السورة عن رضاع موسى ودخوله المدينة وخروجه منها، والتقائه بالمرأتين... بالجمل الفعلية الماضية، لتعلم الأحداث، وتُزرع الثقة بالله في النفوس، وتُحدث عن ذبح فرعون لأبناء بني إسرائيل، واستحيائه لنسائهم، وإرادة الله المنَّة عليهم، والتمكين لهم بالفعل المضارع ليُعلم أن الفراعنة في كل زمان ومكان يُقسمون شعوبهم، فمن يستحق القتل يقتلون، ومن يستحق السجن يسجنونه، ومن يستحق البقاء لأجل الخدمة وقضاء الأغراض يتركونه، وليُعلم أيضاً أن إرادة الله المنَّ على المستضعفين باقية، وتمكينه لهم في الأرض سنة جارية، فما عليهم إلا القيام بالأسباب، وانتظار المسببات من خالق الأسباب والمسببات والعباد. وقد سبقت الإشارة إلى بعض المعاني المستفادة من هذه الأفعال عند الحديث عن الهدايات الجزئية، فلترجع.

رابعاً: الأسلوب القصصي:

سبقت الإشارة إلى أن هذه السورة سميت بالقصص لورود هذا المصطلح فيها، ولأنها تقص ما جرى لفرعون وموسى من أحداث، وما حدث لقارون مع المال؛ فهي في مجملها تتحدث عن القصتين؛ لذا فالتمثيل لهذا الأسلوب بآيات منها أراه كقول الشاعر:

وليس يصح في الأفهام شيء ** إذا احتاج النهار إلى دليل¹.

¹ شرح معاني شعر المتنبي: 92/2.

خامسا: الإطناب:

ومن أمثلته في السورة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾^١ فالخوف والحزن اشتراكا في خصيصة، وامتناز كل منهما بخصيصة، لذلك كان فيها نوع عجيب من الإطناب، بل "من أجمل الإطناب، وهو أن يُذكر الشيء فيؤتي فيه بمعان متداخلة، إلا أن كل معنى مختص بخصيصة ليست للآخر، فقد قلنا في باب اللغة: إن الخوف هو غمٌ يصيب الإنسان لأمر يُتوقع نزوله في المستقبل، وأما الحزن فهو غم يصيبه لأمر وقع فعلاً ومضى، فنهيت عنهما جميعاً"^١.

سادسا: الكناية:

ومن أمثلتها في السورة: قوله الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾^٢ فإن الربط "على القلب كناية عن قراره واطمئنانه، شبه بما يربط مخافة الانفلات"^٢.

ومن أمثلتها أيضا قول الله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾^٣ أي سنقويك "إذ اليد تشد بشدة العضد؛ لأنه قوام اليد، فشد العضد كناية عن التقوية؛ لأن العضد إذا اشتد قوياً على محاولة الأمور"^٣

ومما يمكن أن نمثل به أيضا قول الله تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٤ فمعنى "لم تسكن من بعدهم لم يتركوا فيها خلفا لهم؛ وذلك كناية عن انقراضهم عن بكرة أبيهم"^٤

سابعا: التفخيم والتعظيم

ومن أمثلته قول الله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾^٥ فالخطاب على قول بعض العلماء لفرعون، وإنما "خاطبته بلفظ الجمع تعظيما ليساعدها فيما تريده"^٥

^١ حدائق الروح والريحان/140/21.

^٢ البحر المحيط: 289/8.

^٣ البحر المديد: 406/5.

^٤ التحرير والتنوير: 151/20.

^٥ إرشاد العقل السليم: 4/7.

ويمكن أن نمثل له أيضا بقوله تعالى ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾¹ ف (مَنْ) اسم موصول بمعنى الذين، أتى به دون غيره من الأسماء لتعظيم المؤمنين، وترغيب الناس في طريقهم، لأن ذكره جاء بعد الذين سال لعابهم على خطام الدنيا الفاني، لتفخيم شأنهم، والرفع من قدرهم¹. ولا يعترض على هذا بأن الذين يعشقون الدنيا وردوا كذلك بالاسم الموصول؛ لأن البلاغيين نصوا على أن الموصول كما يؤتى به للتفخيم، يؤتى به كذلك للتحقير، فالسياق والموضوع هو القرينة التي تبين المراد.

ويمكن أن نضيف إلى الأمثلة التي فيها أسلوب التعظيم قول الله تعالى ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾، حيث ورد فيها الخطاب خاصا بالنبي ﷺ في اللفظ، وعاما لكل البشر في المعنى "وإنما جاء بلفظ المفرد خطابا لحضرة الرسول تعظيما لشأنه؛ لأنه هو المبلّغ لأُمَّته كلامَ ربه ليكون أكثر وقعا في قلوب الناس"².

ثامنا: الطباق

وقد ورد السورة نوعان منه، طباق لفظي، وطباق معنوي؛ فمن أمثلة الطباق اللفظي قول الله تعالى: ﴿وَإِخَى هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾^(٣١) فالصدق والكذب متقابلان، وإن كان الأول للمفرد، والثاني للجمع، فيشملهما تعريف الطباق. ومن أمثلته أيضا قول الله تعالى: ﴿وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾^(٣٢) فالحسنة والسيئة متقابلان. ومن أمثلة الطباق المعنوي³ قول الله تعالى: ﴿جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾^(٣٣)، فالجبار في الأرض هو المفسد، وقد جرى مقابلته بالمصلحين "ففيه طباق في المعنى"⁴.

تاسعا: الحذف

¹ ينظر: السراج المنير: 119/3.

² بيان المعاني لملاحويش آل غازي عبدالقادر: 406/2.

³ -وهو الذي لا تكون المقابلة فيه بين اللفظ واللفظ، وإنما بين اللفظ والمعنى.

⁴ حقائق الروح والريحان/141/21.

الحذف من الأساليب التي كثرت وتنوعت في هذه السورة، حتى إننا لا نكاد نمُرُّ على آية، أو مقطع إلا نجد فيها حذف المفعول، أو المتعلقات، بل قد نجد في بعض الأحيان حذف جمل دل عليها السياق؛ فمن أمثلة حذف المفعول قوله تعالى: ﴿يَسْقُونَ﴾، حيث نصت على الساقين، وعلى فعلهم (السقي)، وتركت الشيء المسقى، أو الأشياء المسقية "لتعميم ما شأنه أن يسقى وهو: الماشية والناس، ولأن الغرض لا يتعلق بمعرفة المسقى، ولكن بما بعده من انزواء المرأتين عن السقي كما في الكشف تبعاً لدلائل الإعجاز، فيكون من تنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم، أو الحذف هنا للاختصار كما اختاره السكاكي، وأيده شارحاه السعد والسيد¹."

ومن أمثلة حذف المفعولين قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فحذف المفعولان، ودل عليهما بـ "﴿شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾" أي تزعمونهم شركائي؛ وهذا الحذف اختصاراً، وهو جائز في مفعولي (ظن) 2.

ومن أمثلة حذف الجمل قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فالتقطه وءال فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهلمن وجنودهما كانوا خاطئين ﴿٨﴾ ففي "الكلام حذف تقديره: ففعلت ما أمرت به من إرضاعه، ومن إلقائه في اليم³"

عاشراً: التقديم والتأخير:

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ﴿٣٦﴾

¹ التحرير والتنوير: 99/20.

² التحرير والتنوير: 156/20.

³ البحر المحیط: 287/8.

"تقدير معنى الكلام: استأجره فهو قوي أمين، وإن خير من استأجر مستأجر القوي الأمين. فكانت الجملة مشتملة على خصوصية تقديم الأهم وعلى إيجاز الحذف وعلى المذهب الكلامي، وبذلك ت غاية مقتضى الحال فكانت بالغة حد الإعجاز¹"

ومن أمثله أيضا قول الله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ وَلَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ "قال أبو عبيدة: إِنَّ في الكلام قلباً، والأصل: لتنوء العصبه بالمفتاح أي: لتنهض بها²".
ومن أمثله أيضا قوله الله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا﴾ حيث قال "قائلون: هو على التقديم والتأخير، أي: نجعل لكما سلطانا، أي: نجعل لكما سلطانا بآياتنا، فلا يصلون إليكما³".

حادي عشر: الاستعارة:

وردت الاستعارة في كثير من الآيات نذكر منها على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ وَءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، فهم إنما التقطوه ليكون لهم ولدا حبيبا، "ولكن لما كانت عاقبة التقاطهم إياه أن كان لهم عدوا في الله، وموجب حزن لهم، شبهت العاقبة بالعلة في كونها نتيجة للفعل، كشأن العلة غالبا، فاستعير لترتب العاقبة المشبهة الحرف الذي يدل على ترتيب العلة تبعا لاستعارة معنى الحرف إلى معنى آخر استعارة تبعية، أي استعير الحرف تبعا لاستعارة معناه؛ لأن الحروف بم عزل عن الاستعارة؛ لأن الحرف لا يقع موصوفا، فلاستعارة تكون في معناه، ثم تسري من المعنى إلى الحرف، فلذلك سميت استعارة تبعية عند جمهور علماء المعاني خلافا للسكاكي⁴".

ومن أمثله أيضا قول الله تعالى: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾، ف قيل: إن هذه سنة إلهية حيث إِنَّ من يضع يده على صدره يسكن روعه، وتطمئن نفسه، "وقيل: المراد من ضم الجناح

¹ التحرير والتنوير: 106/20.

² الباب في علم الكتاب: 289/15.

³ تفسير الماتريدي: 168/8.

⁴ التحرير والتنوير: 76/20.

السكون والتجلد والثبات عند انقلاب العصا حية، استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه¹.

كما يمكن أن نمثل بقول الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ في الكلام "على ما قيل: استعارة مكنية وتخيلية؛ وذلك أنهم شَبَّهُوا في الحقارة بنعال بالية، واستعير لهم اسمُ النعال، ثم حذف المستعار وبقي المستعار له، وجُعِلَ النبذ قرينة على أنه حقيقة، والمجاز في التعلق على نحو ما قيل في (أظفار المنية نشبت بفلان)².

ثاني عشر: المبالغة:

وردت المبالغة في السورة بأسلوبين، أسلوب جاءت فيه لفظية، وأسلوب جاءت فيه معنوية، فمن أمثلتها اللفظية قوله الله تعالى ﴿جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ فالجبار هو الذي بلغ مبلغا عظيما في التجبر، من كثرة تجبره وشدته.

ومن أمثلتها المعنوية قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ وَقَوْمُهُ لَا تَفْرَحُوا بِإِتِّ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ فليس في الآية لفظ خاص يدل على المبالغة كفعَّال وفِعُول ومفعَّال، وإنما مجموع الألفاظ هو الذي أعطى معنى المبالغة، حيث جُمع المفتاح، أو المفتاح — على رأي —، والكنز، وصاحب القوة، ثم جيء باسم الجمع (العصبة) فأعطى المجموع صورة حقيقة تدل على المبالغة في أبهى حلة.

ثالث عشر: البيان بعد الإجمال

ومن أمثلته في السورة قول الله تعالى: ﴿إِتِّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فهذه "الجملة وما عطف عليها بيان لجملة (نتلوا) أو بيان ل (نبا) موسى وفرعون، فقدم له الإجمال للدلالة على أنه نبا له شأن عظيم، وخطر بما فيه من شتى العبر³.

¹ التفسير المظهر: 162/7.

² روح المعاني: 291/10.

³ التحرير والتنوير: 66/20.

ومن أمثله أيضا قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فقد تضمنت "هذه الجملة تفصيلا لمجمل قوله: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي﴾ فإن الإرادة لما تعلقَت بإنفاذ بني إسرائيل من الذل خَلَقَ اللهُ المنقذَ لهم¹.

رابع عشر: التوكيد:

اللافت في السورة أن توكيد الأفعال لم يرد فيها إلا في آخر السورة، وكان موجهًا بالأساس إلى النبي ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، فبعد أن بين الله أن القرآن نزل على محمد دون أن يخطر بباله، أو يتمناه أعقب "ذلك بتحذيره من أدنى مظاهره للمشركين، فإن فعل الكون لما وقع في سياق النهي وكان سياق النهي مثل سياق النفي لأن النهي أخو النفي في سائر تصاريف الكلام كان وقوع فعل الكون في سياقه مفيدا تعميم النهي عن كل كون من أكوان المظاهرة للمشركين²

وأما النهي عن الصد فإنما هو "كناية عن نهي عن أن يتقبل منهم ما فيه صد عن آيات الله، كما يقول العرب: لا أعرفنك تفعل كذا، كنوا به عن: أنه لا يفعله³

ومن أمثلة التوكيد بأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرُّونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ ففيه ثلاثة مؤكدات: إن، والجملة الاسمية، والمسند الذي هو جملة فعلية، ثم علل في الأخير بجملة مؤكدة أيضا، وفي هذا "إيماء إلى أن رسوله ﷺ سيخرج من مكة وأن الله منجيه من ظالميه⁴.

خامس عشر: التتميم:

¹ التحرير والتنوير: 73/20.

² التحرير والتنوير: 195/20.

³ التحرير والتنوير: 195/20.

⁴ التحرير والتنوير: 97/20.

ومن أمثلته قول الله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾، قال ابن عاشور: "ومعنى ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أن أعمالنا مستحقة لنا، كناية عن ملازمتهم إياها، وأما قولهم ﴿وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ فهو تتميم على حد ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٍ﴾¹

ومن أمثلته أيضا: قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، جاء هذا الجزء من الآية بعد قول أولي العلم لقارون "﴿وَأَبْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾" فأوهما "أن يترك حظوظ الدنيا بعضه في ما هو متمحض لنعيم الدنيا إذا أتى حق الله في أمواله فلا يستعمل ماله إلا في القربات، فأفيد أن له استعمال " فكأن هذا الجزء "تتميم لا بد منه؛ لأنه إذا لم يغتنمها ليعمل للآخرة، لم يكن له نصيب في الآخرة".²

سادس عشر: حسن التعليل:

وهو أن "يدعي المتكلم مزخرفا كلامه علة لوصف ما، ثابت أو غير ثابت، وهذه العلة التي يدعيها مناسبة للوصف باعتبار لطيف غير حقيقي، والعلة الحقيقية خلاف ما ادعى"³

ولم يظهر مثال في السورة إلا قول الله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ "لأن الفرح المحض في الدنيا، من حيث إنها دنيا مذموم على الإطلاق، وأي فرح بشيء زائل وظل حائل"⁴.

سابع عشر: اللف والنشر:

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ الَيَّ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فقد "سلك في قوله ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ طريقة اللف والنشر المعكوس، فيعود

¹ التحرير والتنوير: 146/20.

² حقائق الروح والريحان: 280/21.

³ البلاغة العربية لحبنكة الميداني: 378/2.

⁴ إعراب القرآن وبيانه: 380/7.

﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ إلى الليل، ويعود ﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى النهار، والتقدير: ولتبتغوا من فضله فيه، فحذف الضمير وجاره إيجازا اعتمادا على المقابلة¹.

ولم يظهر لي مثال غير هذا.

ثامن عشر المقابلة:

ويمكن أن نمثل أيضا بقول الله تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالبسط يعني التوسعة، والقدر يعني التضيق، فهما متقابلان
كما يمكن أن نمثل أيضا المقابلة بالدارين، دار فرعون التي خسف الله بها، كما خسف بصاحبها، والدر التي أعدها للذين لا يردون علوا في الأرض ولا فسادا، فلما "انتهب قصة قارون بما فيها من العبر من خير وشر، فأعقبت باستئناف كلام عن الجزاء على الخير وضده في الحياة الأبدية وأنها معدة للذين حالهم بضد حال قارون، مع مناسبة ذكر الجنة بعنوان الدار لذكر الخسف بدار قارون للمقابلة بين دار زائلة ودار خالدة"².

الإشارة بالبعيد عن القريب

ومن أمثلتها قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ فالآيات قريبة منهم، يسمعونها تتلى ويرونها تكتب، لكن لما كانت معانيها دقيقة، وبلاغتها عالية، أشير إليها بالبعيد للدلالة على رفعها وعلو منزلتها.

تاسع عشر: الالتفات:

ويمكن أن نمثل له بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَارَ سُورًا يَتْلَوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، فإضافة الربوبية إلى النبي ﷺ (ربك) مشعرٌ بأنه موجه لأمتة الذين كذبوا آياته، ولهذا وقع الالتفات عنه إلى ضمير المتكلم في قوله ﴿آيَاتِنَا﴾ للإشارة إلى أن الآيات من عند الله وأن الدين دين الله³.

¹التحرير والتنوير: 171/20.

²التحرير والتنوير: 189/20.

³التحرير والتنوير: 153/20.

ومن أمثله أيضا قول الله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾^(٧٤)
وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴿لِإِبْرَازِ كَمَالِ الْعِتْنَاءِ بِشَأْنِ النَّزْعِ¹﴾.

كما يمكن أن نمثل أيضا بقول الله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ على قراءة
من قرأ "يعقلون" بياء الغيبة على الالتفات عن خطابهم لتعجب المؤمنين من حالهم، وقيل: لأنهم لما
كانوا لا يعقلون نزلوا منزلة الغائب لبعدهم عن مقام الخطاب²، لذلك فالقراءة بالياء "أبلغ في الموعظة
لاشتماله على الالتفات للإعراض به عن خطابهم"³
هذا ما أجمع جمعه مع الاختصار، والاقتصار، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه
الكريم، نافعا لخلقه.

¹ حدائق الروح والريحان: 282/21.

² التحرير والتنوير: 154/20.

³ السراج المنير: 111/3.

الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات آيات السورة، وأثر ذلك عليها.

لا يكون الطبيب طبيبا حتى ينظر إلى جسم المريض قبل أن صف الدواء، ولا يكون الدواء مفيدا حتى تُعرف خصائص الجسم؛ لأنه قد يكون مفيدا في جسم بعض المرضى دون بعض، وفي أعراض دون أعراض. والأمة في النهاية جسم مكوّن من خلايا (أفراده)، تصيبه الأعراض القاتلة، وغير القاتلة، فإن وجد طبيبا ماهرا، عالما بالأعراض وأسبابها، والأدوية وفوائدها، سيعطيه دواءً يزيل المرض بالكلية، أو يخفف عنه من آلامها حتى يتقوى ويعطيه دواء آخر يريحه من عناء المرض بحول الله.

لذا ينبغي أن نقف أولا مع واقع أمتنا، لنشخصه في ضوء هدايات السورة التي استخرجت من آياتها، وبخاصة الكلية منها، لرسم له مانراه دواء نافعا بإذن الله، ثم نذكر ما يؤول إليه أمره إن طبق أفرادها، أو القائمون عليه الدواء كما ينبغي، وكان في قدر الله أن تكون المسببات وفق الأسباب.

وقد قسمت هذا إلى الفصل لثلاثة مباحث خصصت الأول منها واقع الأمة في ضوء الهدايات، والثاني للسبل التي تنزل بها بها تلك الهدايات، والثالث للتوقعات المنتظرة في المستقبل بإذن الله.

المبحث الأول: واقع الفرد والمجتمع من هدايات آيات السورة

لم تنزل سورة من القرآن اعتباطاً، ولا لتخبر عن تاريخ الأمم الماضية، أو تخاطب من كان في زمن الرسالة وحدهم؛ وإنما لتكون عبرة للمعتبرين، وهدايا للمؤمنين؛ وسورة القصص لم تخرج عن هذا الإطار العام، قال ابن عاشور: "وابتدئت القصة بذكر أسبابها لتكون عبرة للمؤمنين يتخذون منها سنناً يعلمون بها علل الأشياء ومعلولاتها، ويسيروا في شؤونهم على طرائقها، فلولا تجر فرعون، -وهو من قبيح الخلال- ما حل به وبقومه الاستئصال، ولما خرج بنو إسرائيل من ذل العبودية. وهذا مصداق المثل: مصائب قوم عند قوم فوائد، وقوله تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216]¹".

وقد سبق بحمد الله أن استخرجنا منها هدايات جزئية، وهدايات كلية، فهمها الصحابة والسلف الصالح، وعملوا بها وإن لم يدونها، ونريد هنا أن نقارن واقعنا بها، لننظر مدى عملنا بها، أو بعدنا عنها.

واقع الأمة مع هداية: "أهم وسائل زرع الثقة في الله قراءة سير الماضين، والنظر في عواقبهم بعين البصيرة، والتأمل في تدبير الله لهم في حياتهم وبعد مماتهم، إضافة إلى التطبيق العملي".

للأسف الشديد واقع أمتنا مع هذه الهداية مخجل، ويبحث على الشفقة والحزن؛ لأنها في الجملة سلكت أحد مسلكين متناقضين، كان ضررها عليها أكثر من نفعهما، بل لم يكن فيهما نفع قط:

المسلك الأول: هو قراءة سير الماضين لكن ليس بقصد الاعتبار بحالهم، لتجاوز أخطائهم، وتطوير حسناتهم، وإنما لإثبات النقص عندهم، والطعن في كرامتهم؛ كما يفعل معظم من يدرس تاريخ الصحابة، وبخاصة التاريخ الذي يبدأ من آخر خلافة عثمان، إلى خلافة الأمويين ليقرر ما تشبع به، وما سمعه من أعداء أمته؛ فيقول مثلاً: إن الصحابة كانوا يقتتلون على الدنيا، ويتنافسون على الملك وجمع المال، ويستدل بمئات القتلى من الطرفين، وآلاف الجرحى من الفريقين... فيهدى لأعداء ملته طبقاً من ذهب، ويقتل روح الاقتداء والاتساء في أبناء أمته، فيهدم بيته بيديه، ليبكي فيما بعداً دماً من قلبه بدا الدموع من عينيه!!!.

¹ التحرير والتنوير: 66/20.

والذي دفعهم إلى هذا تاريخٌ مزور، اختلقه الخصم ضد خصمه، أو صاحبُ الهوى لإثبات صحة رأيه، وتطبيقٌ غير صحيح للإسلام ممن ينتسبون إليه، حيث حول بعض الخلفاء نظامَ الحكم من الشورى التي نص عليها القرآن، إلى الملك الذي يراعي القرابة أكثر من رعيه الأهلية والتقوى، فصارت النتيجة حربَ الإسلام بأفعال المسلمين، وضربَ المبادئ بتصرفات بعض الحكام والولاة الذين كانوا لا يتورعون في الدماء، وبخاصة أذناهم الذين يقتلون خيارَ المسلمين دون مراعاة للحرمان، ولا نظراً إلى القربان ، كما فعل أتباع يزيد مع سبط رسول الله ﷺ الحسين بن علي الذي قُتل بلا شفقة ولا رحمة، ولا مراعاة لقرابة أو حرمة...¹، وكما حدث لابن الزبير في مكة على يد الحجاج الذي رمى الكعبة بالمنجنيق دون مراعاة للصحة، ولا لمكانة للبيت...²؛ هذه الأحداث ومثلها كثير دفعت كثيراً من أصحاب الهوى لتصفية الحسابات، وإظهار العضلات، فأكلت الأمة بسبب هذا حنظلاً، وشربت مُراً.

المسلك الثاني: ركز على تاريخ الغرب البئيس الذي ليس فيه من الثمار إلا الحنظل، فعمد إلى تدريس أبناء المسلمين أسبابَ الحرب العالمية الأولى والثانية، وأسبابَ قيام الاشتراكية اللينينية والماركسية، وما ربحته الولايات المتحدة الأمريكية من الحربين، ومن جنته ألمانيا واليابان من نتائج مدمرة.

وللأسف لا يدرسون التاريخ كما هو، وإنما يركزون على شخصيات بعينها، وأفكار معينة، فصار عندنا جيل يفتخر بلينين وسطالين، وهيتلر...، ويؤسس جمعيات لبيان مواقفهم، وينشئ أحزاباً لتبني عقائدهم وأفكارهم، فظل على هذا الحال حتى وصل إلى وضع تشريعات مستمدة من أفكارهم ومعتقداتهم ضمن الدساتير الإسلامية، بل بعضها ضمن قوانين الأحوال الشخصية، فأصبح المسلم محكوماً بقوانين الاشتراكية والعلمانية وهو في بلد الإسلام!!!³.

¹ ينظر: البداية والنهاية: 549/11.

² ينظر: المصدر السابق: 177/12.

³ على سبيل المثال فقد دعا المجلس الوطني لحقوق الإنسان في المغرب بتاريخ 20/10/2015 إلى تبني قانون المساواة في الارث بين الرجل والمرأة، ودعت أحزاب اشتراكية -وما زالت- مثل الاتحاد الاشتراكي وغيره إلى هذا القانون، وإلى إباحة المثلية (اللواط) واعتبار الفاعلين موافقين للقانون!!!

هذا؛ لأن أكثر هؤلاء لم يعرفوا تاريخ الإسلام على حقيقته، ولم يدركوا مكانة الرموز الإسلامية عبر التاريخ بسبب التاريخ المزور، واعتماد تاريخ الغرب ليكون بديلاً.

فالمشكلة إذن مشكلة معرفة؛ لذلك فحينما تتاح الفرصة إلى دعاة هذه المدارس، ويتعرفون على حقيقة الإسلام يُصبحون فوراً جنداً من جنوده، ينافحون عنه بالقلم الذي كان ينافح عن تلك المدارس!!!

وحتى يكون لهذا الكلام معنى، ويُعتبر مبنياً على أسس علمية أعطي مثلاً لرجل مغربي¹ رضع العلمانية والاشتراكية حتى أصبح يحبها حب قيس لليلي!!! فلما كشف عنه الحجاب، ورأى نور الإسلام كما هو لا كما قرأه في التاريخ المزور انقلب رأساً على عقب؛ هذا الرجل هو حسن أوريد الذي بلغ به الذم للإسلام ورموزه إلى أن وصل إلى انتهار أمه، التي رغبت في أداء فريضة الحج، لكن لما قدر الله له الذهاب إليه مُكرهاً، ورأى ما لم يره من قبل، عاد بغير العقل الذي ذهب به، والتفكير الذي عاش عليه، واعتزل كل الأعمال التي كانت سبباً في انحرافه، حتى التي كان يجني منها الأموال الطائلة، ويجلس بها مع عليّة القوم وأصحاب المكانة، فترك السياسة، والمناصب العليا التي نالها بسبب دراسته التي كانت مع الأعيان على رأسهم ملك المغرب الحالي مُحمّد السادس حفظه الله، وتفرغ للكتابة في كل ما يخدم الإسلام والمسلمين².

صحيح أن هناك جهوداً مخلصّة لعلماء صادقين تحاول إظهار التاريخ كما هو، مع إثبات الفضل لأهله، والاعتذار عنهم فيما أخطأوا فيه، ثم التركيز على موطن العبر لاستخراجها، وبيان سبل تنزيلها

وقد اجتهد العلماء في التوفيق بين الأخبار التاريخية الصحيحة، وبين ما ثبت لهم من الفضل والرفعة في النصوص القطعية³، فألف ابن العربي كتابه المشهور: العواصم من القواصم قرر فيه قاعدة جليّة؛ وهي: عدم الخوض في أعراض الصحابة، أو التعرض لهم بسوء⁴، وهناك من رأى أن الخوض

¹ اخترت التمثيل بمغربي لأنني ابن المغرب، ولا يعني هذا أن البلدان الأخرى لا توجد فيها أمثلة، فالقصد أن يُظهر كل باحث نموذجاً أو نماذج من تأثروا بالمدارس الفكرية ثم انقلبوا عليها لما ظهرت لهم الحقيقة.

² ينظر: مقدمة كتابه: رواء مكة.

³ أقصد علماء أهل السنة والجماعة، أما أهل الزيغ فهم مع أحد المسلكين السابقين.

⁴ العواصم من القواصم، ص: 231.

أفضل، وأن النظر في مآلات الصحابة أنفع للمسلمين، وأشد عوناً لهم على بلوغ الأهداف - خصوصاً المتعلقة بالحكم- مع مراعاة ضوابط وقواعد مستمدة من نصوص الوحيين، ومن الذين يميل رأيهم إلى هذا ابن تيمية رحمه الله الذي قال بعد ذكر نصوص تاريخية: "وهذا في حرب أهل الشام والأحاديث تدل على أن حرب الجمل فتنة وأن ترك القتال فيها أولى؛ فعلى هذا نصوص أحمد وأكثر أهل السنة. وذلك الشجار بالألسنة والأيدي أصل لما جرى بين الأمة بعد ذلك؛ في الدين والدنيا. فليعتبر العاقل بذلك؛ وهو مذهب أهل السنة والجماعة.¹"، ومن أشد المنتصرين له في العصر الحديث الشيخ يوسف القرضاوي الذي قدم لكتاب: "الخلافت السياسية بين الصحابة" للدكتور محمد بن المختار الشنقيطي، وأثنى على صنيعه، واعتبر النظر وسيلة إلى النهوض من جديد، لسيادة الأمم كما ساد الصحابة عليهم السلام.²

واقع الأمة مع هداية: "وعود الله لأوليائه لا تأتني من تلقاء نفسها، بل لا بد من السعي وراءها، واتخاذ الأسباب الكافية لتحقيقها، ودفع كل معيقاتها بحسب العلم والطاقة".

ليكون الكلام منصفاً لا بد من التفريق بين جمهور الأمة، وبين عقلائها من أهل العلم والحكمة، فجمهورها للأسف استكن للواقع، وظلَّ يردد قول الله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]، وقول الرسول ﷺ (إِنَّ اللَّهَ زَوَى - أَي قَرَّبَ وَصَغَرَ - لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا)³ ونحو هذه النصوص التي تبشر بنصر الأمة - وهي حق لا محالة -، وتغافلوا عن النصوص التي تدل على أن النصر مسبب، يلزم أن يتقدمه سببه، أو أسبابه كقول الله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7]، وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، وكذلك مئات الوقائع السيرية التي تنص قطعاً على أن النصر لا بد له من أسباب، والفوز لا بد له من جهود!!!.

¹ مجموع الفتاوى: 51/35.

² ينظر: الخلافت السياسية، ص: 13.

³ صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة عضهم ببعض: 4/2215، رقم: 2889.

وأما العقلاء - وهم قلة للأسف مقارنة بغيرهم وإن كانوا كثيرا من حيث العدد- فإنهم يبذلون ما يملكون، ويسعون إلى الحصول على ما لا يملكون من الأسباب قصد الظفر بوعد الله، فبعضهم ينشئ المدارس، وبعضهم يؤلف الكتب، وبعضهم ينتشل العاصين من الرذائل، ويدخلهم مع إخوانهم إلى المساجد، لكن للأسف كان سلاح العدو أقوى، وأسبابهم للنظر أعظم وأحكم، فلم تتحقق المسببات كما نريد، لكن والله الحمد أبقت هذه الجهود قلوب الأمة تنبض بالحياة، وهذا وحده إنجاز عظيم يحتاج منا فقط المواصلة.

ولعل السبب في عدم تحقيق الأهداف كاملة يرجع إلى بذل جهود في غير محلها، وهدر طاقات في غير وقتها، فإما أن يبذل كل واحد جهدا بمفرده¹، كما هو حال كثير من الدعاة، أو يركز على أمور غيرها أولى منها في هذا الزمان، كمن يفني حياته للتأليف، ويهجر الدعوة في المساجد والمحافل، والمواسم بالكلية، فصرنا في الصورة جماعة وفي الواقع أفرادا، وعند الناظرين نشغل، وفي الواقع بدون ثمار، أو بثمار لا تحقق الرجاء!!!

واقع الأمة مع هداية: "الملك والمال من أهم الأسباب التي تغير صفات الناس، وتحول عقائدهم، فيصبحون ظلمة بعد أن كانوا عدولا، وكفاراً بعد أن كانوا مؤمنين..."

نأسف كثيرا ونقولها صراحة، فأمة الإسلام أتاها بلاء شديد من الملك والمال!!!

فبعض أفرادها استأثر بالمال، وضم إليه الملك، أو ما يقاربه من الولايات والرئاسات، حتى أصبح معظم الأموال في يد أفراد قلة، ومعظم الولايات بين عائلات معينة، أو صنف معين، يُحاربون من يقترب من مالهم، أو سلطاتهم بشتى أنواع الأساليب، يبدوون من الإقصاء ويصلون إلى التصفية والقتل!!!

¹ لا أقصد بالواحد هنا الذات المشخصة، وإنما أقصد الذات المعنوية، التي تشمل المراكز البحثية، والجماعة الدعوية...

فكم من عالم خيّر فاضل أقصي بسبب قوله، وكم من مصلح صالح عُزل عن منبره، ومقامه في مسجده، فصار بعض ذوي الملك والسلطان في الصورة مسلمين، ويقومون بأفعال فرعون وهامان ومن تبعهما من الكافرين¹!!!

فأثروا على كثير من أهل العلم، حتى فضل بعضهم البقاء في بيته عن تعرضه للأذى هو أو أهله، وفضل بعضهم الاشتغال في الخفاء حتى لا يُجرم من رزقه ورزق أبنائه، واختار بعضهم للأسف الدخول مع أهل المال والسلطان، يُحرف لهم معاني النصوص، ويؤول لهم الأفعال حتى تنسجم من روح الإسلام، ويُسلطون أقلامهم وحناجرهم على كل مخالف لنهجهم، ونهج من اختاروا الدخول في زمركم؛ كل هذا بسبب حطام الدنيا!!!

هذه هي الحقيقة، ولا تخفى على كل ذي بصيرة، ومن أراد التأكد فما عليه إلا النظر في أهل المال والسلطان وسيجد أن كل واحد منهم له داعية مشهور، أو عالم نحرير!!

وقلة قليلة من العلماء اختاروا الوسط، فكانوا مع ذوي السلطان والمال حينما يكون الحق معهم، يُدافعون عنهم حتى لو اتهموا بعباد السلاطين ونحو هذا، ويكونون عليهم حينما يجانبون الصواب، ومع ذلك لا يخرجون عنهم، ولا يحملون السلاح عليهم؛ لأن عقيدة أهل السنة والجماعة عدم الخروج على الحكام كما هو ثابت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ وكما هو منقول عن جماهر السلف الصالح عليهم السلام.

هذا وصف للحال، وسيأتي سبيل تحقيق هذه الهداية في المبحث الموالي.

واقع الأمة مع هداية : "الواقع مهما اسود، والظلم مهما طال عمره، والضعف مهما بلغ مداه، فلا

بد من يوم تشرق فيه الشمس، ويزول فيه الظلم، ويُنصر فيه الضعيف".

¹ لا أقصد بهذا الحكم عليهم بالكفر، فلست أهلا له، وليس هذا بمنهج علماء أهل السنة والجماعة؛ إنما قصدت الأفعال الناتجة عن هؤلاء كالقتل والتفريق والتضييق على المصلحين، وهذه كما صدرت من فرعون وهامان صدرت وتصدر من المسلمين.

الكلام في هذه الهداية يشبه الكلام في الهداية السابقة، فجمهور الأمة رضي بالواقع، واختار العيش بسلام حتى يأتي ملك الموت، وقلة منها من تراقب كل يوم ماذا حدث للأعداء، وما الذي وصلت إليه الأمة.

واقع الأمة مع هداية: "الداعية الناجم في دعوته هو الذي يخالط الناس ويرى أعمالهم لينكر منكرها، ويثني على معروفها".

في هذه الهداية وقع خلل كبير للدعاة والمصلحين شعروا به أم لم يشعروا؛ ذلك أن جلهم انحصر في دائرة الجامعات أو المعاهد، أو نذر نفسه للقنوات والفضائيات، فصرنا نرى التنظير دون التطبيق، والكلام دون الأثر!!!

فهذا يستقر في الأحياء الراقية، ويسكن في المنازل الفاخرة، وذاك يركب السيارات الفارهة، ويشترى من الأسواق الممتازة، وثالث لا يجالس إلا العلماء وطلبة العلم، أو ذوي الشرف والمراتب العلى، ورابع أصبح حياته مع الذين ماتوا بمئات السنين، فلا يكاد يخرج من مكتبته ليرى النور بعينه، وخامس نذر حياته للتأليف وكتابة المقالات، ولم يعد له وقت للتلاميذ وطلبة العلم...!!!

هذه حقيقة رضينا بها أم لم نرض، فأول مراحل العلاج كشف الداء حتى يُبحث عن الدواء المناسب.

فصارت النتيجة جيلا لا يعرف شيئا عن علماء بلده، حتى إذا ماتوا يُدفنون كما يدفن سائر الناس¹، لأنهم كانوا في الحياة معزولين عنهم، إما بسبب قناعات شخصية، أو ظروف سياسية، أو أمور أخرى.

واقع الأمة مع هداية: "الأعمال العظيمة ينبغي أن لا يقدم عليها المرء من تلقاء نفسه، بل يحسن به أن يختار له أعوانا، ويبحث له عن أنصار حتى تكون المسببات وفق أسبابها على النظام الذي خلق الله في هذه الكون".

¹ قد تكون بعض البلدان مختلفة عن هذا، لكن وطني الذي هو المغرب لا يعدو ما قلت؛ فكم من علماء ماتوا لم نعرف عنهم نحن طلبة العلم شيئا فضلا عن عوام الناس، فإلى الله المشتكى.

سبقت الإشارة إلى أن جل علمائنا ومصلحينا في هذا الزمان يشتغلون فرادى، وفي أحسن الأحوال ضمن جماعة ضيقة¹، وهذا جعل رؤاهم غير واضحة في بعض الأحيان، أو واضحة وليس لها الشروط الكافية.

واقع الأمة مع هداية: "الخطأ وارد على كل الناس، وخاصة الدعاة والمصلحين"، فيحتاج الداعية إلى من يرده إلى الصواب، أو من ينجيه من الهلاك".

واقع الأمة مع هذه الهداية هو نتاج واقعها مع الهدايات السابقة، فيقع بعض الدعاة، أو تقع بعض الجماعات في الخطأ، فيتمادى أو يتمادون لعدم وجود من يسدد، بسبب التفوق كما ذكرت، أو بسبب الخصام بين الأفراد والجماعات.

¹ فعلى سبيل المثال عندنا في المغرب مصلحون غيرون على الدين وأهله، لكن للأسف كل واحد يشتغل بمفرده، أو ضمن جماعة معينة، فهذا ينشئ مدرسة، وذاك ينشئ مدرسة، لكن سرعان ما يفشل الطرفان!!! واضرب مثالا برجال صالحين يعتقدون جميعا عقيدة أهل السنة والجماعة، كانت لهم مدرسة واحدة، وبرنامج واحد، فاستطاعوا من خلاله دحض شبهات الاشتراكيين في أواخر الثمانينات من القرن الماضي، لكن سرعان ما استقل كل فريق بنفسه، فأسس فريق مدرسة أطلق عليها جمعية الحافظ بن عبد البر، والثاني مدرسة أطلق عليها جمعية الدعوة إلى القرآن والسنة، لكن للأسف لم يتحقق المراد كاملا، وإن أسهما معا في إنشاء جيل واع بدين الإسلام -وأنا واحد من جهودهم جزاهم الله خيرا-، فأغلقتا معا، أو هما في حكم الموقوف، لعدم وجود ثمار حقيقية كما كان في السابق!!!

المبحث الثاني: سبل تنزيل هدايات السورة
من السبل التي أقترحها لتنزيل هدايات السورة على أرض الواقع ما يأتي:

سبل تنزيل هداية: أهم وسائل زرع الثقة في الله قراءة سير الماضين...

ينبغي أن يعلم أولاً أن هذه المهمة ليست لعوام الناس، وإنما هي لخاصتهم الذين يعرفون مواضع العبر، وطرق استخراجها، وسبل نشرها وبسطها، لذلك فدارس التاريخ "محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسنِ نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزالات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العنور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق"¹.

فلا يكفي في صدق الخبر أن يكون مدونا في كتب المختصين، ولا أن ينقله من عرف بالصدق والأمانة، بل لا بد من تحكيم قواعد الشريعة، وتشغيل قواعد المنطق السليم، وسبر كل رواية على حدة، لمعرفة مخرجها ومن تعود إليه أصولها²، حتى يعرف هل هي صحيحة أم ضعيفة، وهل ضعفها ينجبر، أم لا، بعد ذلك نقضي عليها بما يليق بها، وما يليق بمن نقلت عنهم، فقد تكون صحيحة لكن أسبابها غير الأسباب المذكورة معها. ومن المعلوم أن تغير الأسباب ينتج عنه تغير الحكم في المسببات.

ولا ينبغي أن نعول مطلقا على مثل قول الدكتور أكرم العمري الذي يقول: "لا شك أن اشتراط الصحة الحديثية في كل رواية تاريخية نريد قبولها فيه تعسف، لأن ما تنطبق عليه هذه الشروط لا يكفي لتغطية العصور المختلفة للتاريخ الإسلامي"³ لأن من الروايات التاريخية ما يكون ضررها على

¹ مقدمة ابن خلدون، ص: 9.

² ينظر: المصدر السابق، ص: 9.

³ السيرة النبوية الصحيحة، ص: 45.

المسلمين أشدَّ من ضرر حديث نبوي ينبنى عليه حكم فقهي، لأن الحديث الضعيف الذي ينبنى عليه حكم فقهي قد يبقى محصوراً في أفراد معينين، أما الحدث التاريخي فقد يهدم الأمة من أساسها!!!.

وأقصد هنا بالأساس الأحداث التي تلت مرحلة النبوة مباشرة، فهي عمود الأمة، ونهض طريقها إلى الإصلاح والسيادة على الأمم، فلا بد من إعمال قواعد المحدثين مع التشديد فيها؛ لأن الحكم ينبنى على أساسها، وصورة الصحابة تُرسخ في الأذهان على ضوءها.

بعد هذا نقول: إن قراءة الأحداث التاريخية الصحيحة لا ينبغي أن يكون القصد منها الترف الفكري، ولا الاكتناز بالمعلومات، وإنما الوقوف على مكامن القوة حتى نطورها، ومكامن الضعف حتى نجنبها، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

فالصحابة بشر يعتريهم ما يعتري البشر من الخطأ والسهو وإن كنا نقطع بأن أخطاءهم لا تكون عن قصد، ولا تبلغ مبلغ أخطائنا؛ لأنهم لا يريدون منها الحظ لأنفسهم، وإنما الإصلاح لأمتهم؛ فقد ثبتت لدينا تركيتهم في محكم التنزيل بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18]، وظهر لنا صدق نياتهم في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ لذا وجب علينا الدخول إلى تاريخهم بنية سليمة، وقصد صحيح، فمن هنا أتى الأمة البلاء، فحُرفت الأحداث، ورسمت الصور، فنقرأ الحدث غير الذي جرى، ونرسم في أذهاننا صوراً عن الصحابة ﷺ تخالف الصور الحقيقية.

ثانياً: الجزم بأن سنة الله لا تتغير، فلا تحابي الموالين، ولا تحيف على المخالفين؛ فمن سلك أسباب النصر نصره الله، ومن سلك أسباب الهزيمة فلا يلومن إلا نفسه، ولقد كان هذا الفهم للتاريخ هو السائد عند المسلمين، لذلك لما تحدث ابن تيمية رحمه الله عن الجزاء الأخروي، وبين الملل التي اتفقت

عليه والتي اختلفت فيه قال عقبها: "ولكن الجزاء في الدنيا متفق عليه أهل الأرض، فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة"¹، ومما يدل على أن هذا كان معلوما متواترا ينقله جيل عن جيل قوله: بعدها: "ولهذا يروى: "(الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"²).

وكتاب الله مليء بمثل هذا، فلما حكى ما جرى لنبي النصير، قال بعدها: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ وقال غير مرة: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62]، ومما يستأنس به في هذا المقام قول الشاعر³:

اقرأ التاريخ إذ فيه العبر ** ضل قوم ليس يدرون الخبر

وتأمل كيف أفنى ملكهم ** من على الملك تولى وقهر.

فما ينبغي أن يمر حدث تاريخي مهما صغر حجمه أو كبر إلا ويوضع تحت المجهر، لتعرف أسبابه ونتائجه، فإن كانت حسنة قمنا بها، وإن كانت سيئة تجنبناها.

ثالثا: التركيز في تعليم النشأ على تاريخ المسلمين، وإظهار أمجادهم وعظماهم، فالنشء يسيرون على ما تربوا عليه؛ فكما أن معظم أبنائنا في هذا الزمان يلبسون لباس المشاهير، ويقصون شعورهم كما يقصون، فكذلك سيتحلون بالعزة والكرامة كما كان يتحلى بها أسلافهم، ويستقلون فكريا وسلوكيا كما استقل أجداهم.

فالأزمة أزمة تربية، فالطفل لا بد له أن يقلد، ويبحث عن أفضل الموجود أمامه، فيسعى جاهدا ليكون مثله، وللأسف فأبنائنا لم يجدوا أمامهم إلا الزعماء الذين سبق ذكر بعضهم، والمشاهير الذين

¹ مجموع الفتاوى: 63/28.

² المصدر السابق: 63/28.

³ قيل بأنه شوقي، لكن لم أقف عليه في ديوانه، وقد وجدت البيتين في مجموعة الشعر الإسلامي ضمن المكتبة الشاملة، وحاولت الحصول على نسخة ورقية، أو مصورة، فلم أنجح.

يرونهم في الصباح والمساء؛ لذلك غاب عنهم عبد الله بن عباس، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن عمر...، وغاب عنهم الإمام مالك الذي كانت تعممه أمه وتلبسه أحسن الثياب وتقول له: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه¹، وغاب عنهم الإمام البخاري الذي نشأ يتيماً ومع ذلك كان ينتقد بعض شيوخه وهو في سن الثانية عشرة من عمره، فعن أبي جعفر محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي قال: "قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث؟ قال: أهتم حفظ الحديث وأنا في الكتاب، قال: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت إلى الداخلي وغيره، وقال يوماً: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له: يا أبا فلان، إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم! فانتهرني، فقلت: ارجع إلى الأصل. فدخل ونظر ثم خرج فقال: يا غلام، كيف هو؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم فأخذ القلم مني وأحكم كتابه، وقال: صدقت²، وقس على هذين النموذجين مآت أو آلاف النماذج من الذين تركوا بصمات واضحات في التاريخ، كل في مجاله، وما يميل إليه قلبه.

رابعاً: نقل الحقائق كما هي، فالانتقاء في النقل من أهم أسباب نفور الشباب، حيث يسمعون عن التاريخ الإسلامي بأنه مشرق كله، أمجادٌ تلو أمجاد، وكأن الناس يعيشون فيه شبه الملائكة؛ فإذا ما فتحوا أعينهم، وقرأوا لفئة أخرى سيجدون الطوام، وتترسخ في أذهانهم فكرة البرمجة!! وقد عرفت كثيراً من إخواني الذين انقلبوا رأساً على عقب، وربما صاروا ضد فئة أو جماعة بعد أن كانوا يناصروها أعواماً؛ لأنهم اكتشفوا حقائق، أو ظهرت لهم معلومات جديدة، فأصبحوا معول هدم يهدمون بيوتهم بأيديهم، ويذمون الجماعة التي عاشوا في أكنافها بما فيهم وبما ليس فيهم!!!

وهذا الكلام ليس وليد الفكر، أو نتاج الخواطر؛ وإنما أصله في السورة التي بين أيدينا، وفي سورة أخرى كثيرة؛ فعلى سبيل المثال لما أراد أن يقص سيرة نبي الله موسى من أولها إلى آخرها لتكون نموذجاً يحتذى بها - كما ذكر الطاهر بن عاشور³ -، ذكر بطولاته وتضحياته، وكفاحه ونضاله للطغاة والظالمين، وقص كذلك بعض أخطائه التي منها قتل القبطي.

¹ ينظر ترتيب المدارك: 1/130.

² ينظر على سبيل المثال تاريخ بغداد: 2/322، وتهذيب الكمال: 24/439.

³ التحرير والتنوير: 20/66.

ولس هذا عبثاً؛ وإنما في قمة الحكمة، فالدرس المرجو من وراء هذه القصة هو أن يعلم المصلحون، وأنصار المظلومين أنهم مهما أوتوا من النضج، وسلامة المنهج والقصد فقد يخطئون، إلا أن خطأهم لا ينقص شيئاً من كرامتهم، بل يزيدهم رفعة وعلواً؛ يحتاجون فقط التوبة والاستغفار، والاعتراف بالنقص والعجز عن إدراك الكمال؛ فهذا موسى قتل نفساً خطأ ومع ذلك لم يعدّها الله عليه، وإنما رفعه لمنزلة أولى العزم، وخصه بالتكليم.

وليس هذا خاصاً بالمصلحين بل يشمل حتى الأتباع والمقلدين، فمن يقرأ تاريخ الفضلاء، ويدرك أن الأخطاء منها واردة، ومع ذلك رفع الله قدرهم، ورضي عن صنيعهم سينظر إلى أخطاء المصلحين في زمانه على أنها طبيعية، ولا تدعو إلى النفرة أو القلق، فضلاً عن الخصام والمقاطعة!! وما أكثر الذين تركوا إخوانهم المصلحين وحدهم بسبب خطأ واحد، أو حتى أخطاء قد تصدر حتى من الصحابة والفضلاء!!!

سبل تنزيل هداية: "وعود الله لأوليائه لا تأتي من تلقاء نفسها..."

يمكن أن أختصر الكلام هنا في أمرين اثنين:

الأول: تعليم العقيدة الصحيحة التي تجعل العبد يعلم ما يجب عليه، وما هو من فعل الله؛ فالسعي وراء الرزق، واتخاذ الأسلحة لمواجهة العدو مما يُطلب من المكلف، والحصول على الرزق، والانتصار على العدو من فعل الله. بدون هذه العقيدة سنكون بين فئتين في طريقي نقيض: فئة ربطت كل شيء بالأسباب، فلم يعد بينها وبين غيرها ممن لا يؤمن بالله أي فرق، وفئة تخلت عن واجبها وعلقت كل شيء بالله، فاقتربوا من قوم موسى الذي قالوا له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24].

ولنأخذ على سبيل المثال ما فعله الأنصار والمهاجرون يوم بدر، حيث تهيؤوا للقاء العدو، ثم سلموا أمرهم إلى رسول الله ﷺ، حتى قال سعد بن عبادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ "فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا

البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله¹.

الثاني: الإكثار من النماذج التي ترسخ عقيدة ارتباط المسببات بالأسباب، فموسى عليه السلام وهو من أولي العزم فرّ من الظالمين طلبا للنجاة ولم يبق بينهم اعتمادا على الله، وطلب منه التأييد بأخيه لما أرسله الله؛ لأن لديه من المهارات ما تساعد على دعوته، ولم يقل إني رسول الله سيحقق لي كل ما أردت، ثم نفّذ أمر ربه بإلقاء العصا (وهو سبب، إذ كان يمكن أن تنقلب بدون إلقاء)، فكان النصر حليفه، والهلاك والخذلان لعدوه.

ونوح عليه السلام بنى السفينة وقضى فيها أعواما يغرس الشجر ثم يسقيه، وفي النهاية يستعمله لبناء السفينة، ثم ركب فيها لينجو بنفسه ومن آمن معه، ولم يقل إني رسول الله سينجيني بقدرته التي ليس لها حدود.

ومُحمّد صلى الله عليه وسلم استعمل الدليل يوم الهجرة، واختفى في الغار حتى هدأ الطلب، وسلك طريقا غير معهود...، ولم يقل إن الله قادر على أن يعمي أبصار العدو، أو أن يطير بي في السماء. ومثل هذه النماذج مما لا يحصى، فما ينبغي إلا تكرارها في المجالس والمجامع، لأخذ الدروس والعبر.

وعليه فإذا اطمأن القلب بنصرة الله، وعلم الإنسان ما يلزمه حتى يحصل على نصر الله، أصبح حاله كحال الصحابة رضي الله عنهم، وحينئذ يتحقق له ما تحقق لهم.

سبل تنزيل هداية: "الملك والمال من أهم الأسباب التي تغير صفات الناس"

المال والسلطان من أهم الركائز التي يعتمد عليه الإسلام في الدعوة، وفي مواجهة الأعداء، إلا أنهما سلاح ذو حدين، وغالبا ما يكونان على الأمة لا لها!!؛ لأن النفس البشرية ترى أنها قد خرجت بسببهما من الضعف إلى القوة، ومن الحاجة إلى الاستغناء!!! وإذا أردنا أن يكون المال والسلطان لنا فلا بد من معرفة طرق التعامل معهما. وقد بث القرآن في سورة، والنبى ﷺ في سنته وسيرته ما يشفى الغليل، وأنا أقتصر على ما أشارت إلى سورة القصص حتى لا يتشعب الكلام.

¹ سيرة ابن هشام: 1/615.

أولاً: يجب التعامل مع السلطان على أنه عبد من عباد الله، آتاه الله الحق في تسيير خلقه، وفق أحكامه وشروطه، فإن تعداها فقد أعطى الله للرعية، وخاصةً أولى العلم والحلم الحق في مناصحته، ومصارحته حتى يعلم أنه مسؤول أمام الله، ومسؤول أمام عباد الله، فيتقيد بما يجب عليه.

ومن تأمل قصة فرعون في هذه السورة وفي غيرها يتيقن أنه ما وصل إلى ذلك الفساد إلا بسبب الرعية الفاسدة، التي كانت تنفذ كل أوامره، سواء أوافقت العقل والفطرة أم خالفتهما، فمن يطيعه في ذبح الأطفال الأبرياء، والإمعان في سفك الدماء يعطيه إشارة واضحة بأنه لا توجد لديه أية معارضة على سياسته، فيترسخ في ذهنه أن الأرض كلها أصبحت طوع يديه، يفعل ما يشاء، لا معقب لقراراته، وأنها بلغت من الصواب حد الكمال، ومن الحكمة تمام المنتهى!!!

ففرعون لما ظهر له استكانُ قومه، وانصياعهم لكل قراراته قال لهم كما حكى الله عنه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26]، ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29]

ولم يقتصر الأمر عليه بل تعداه إلى كل قريب منه من الجنود والملا، من هنا نفهم قول الله تعالى: ﴿وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [٣٩].

ولما كانوا هم السبب فيما وصل إليه استحقوا العقاب معه ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ط فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ واستحقوا أيضا الوصف بالفسق الذي يعني الخروج عن الطريق المستقيم وهو الطاعة في المعروف ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54]؛ لأن كل واحد منهم كان يلقي الأوامر إلى من يليه، فلا يعترض ولا ينتقد¹.

فلتفادي حال فرعون وجنوده يلزمنا أمران:

الأول: اختيار السلطان المناسب، فليس كل تقي يصلح للحكم، كما أنه لا يصلح له كل ذكي، فلا بد من إعمال قواعد السلف في اختيار الولاة والحكام، وسلك طريقهم في التعامل معهم،

¹ ينظر: نظم الدرر: 80/3.

فختار أفضلنا علما وحكمة، وأزكنا نفسا وقلبا، ولا نعطي الحكم أو الولاية لمن سأل أو حرص عليه، ففي الصحيحين "عن أبي بردة ، عن أبي موسى ، قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي ، فقال أحد الرجلين : يا رسول الله ، أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل ، وقال الآخر مثل ذلك ، فقال : إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدا سأل ، ولا أحدا حرص عليه¹، ويشهد لهذا صنيع النبي ﷺ مع أبي ذر الذي قال: "قلت: يا رسول الله، ألا تستعلمني؟ قال: ف ضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)"².

ويستثنى من هذا من جمع شروطها، وتيقنًا أنه لا يطلبها حبا فيها؛ وإنما رغبة في صلاح البلاد والعباد، مع شرط عدم وجود من هو أولى منه بها؛ فهذا لا بأس بإعطائه إياها على ما اختاره جمع من العلماء؛ قال القرطبي بعدما تحدث عن طلب يوسف للإمارة: "وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب، لقول عليه السلام لعبد الرحمن: (لا تسأل الإمارة) وأيضا فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفات وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك، وهذا معنى قوله عليه السلام: (وكل إليها) ومن أبأها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فر منها، ثم إن ابتلي بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: (أعين عليها)"³.

أما جعل بلاد المسلمين ملكا للحكام ولأبنائهم يتوارثونها خلفا عن سلف فما يسهم في نهضة المسلمين؛ وإنما يزيد في تقهقرهم، وتخلفهم عن الركب.

¹ صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب: ما يكره من الحرص على الإمارة: 64/9، رقم: 7149، وصحيح مسلم، كتاب

الإمارة، باب: النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها: 1456/3، رقم: 1733.

² صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة: 1457/3، رقم: 1825.

³ الجامع لأحكام القرآن "9/216.

الثاني: الإعانة والنصرة والمؤازرة لكل من ولاه الله أمر المسلمين، أو تكلف بمهمة من المهام العظام، كالقضاء، وتسيير بعض الولايات ونحو هذا، فنعينهم باليد واللسان والقلب، وفي المقابل نبين لهم الحدود التي لا يجب تعديها، ونذكرهم بما ينتظرهم يوم لقاء الله إذا هم ضيعوا الأمانة، أو قصروا في تأديتها؛ فهذا نهج السلف حتى مع رسول الله ﷺ؛ ففي غزوة بدر عدّل النبي صلة الله عليه وسلم صفوف أصحابه، وفي يده قدح يُعدّل به القوم، فمر بسواد بن غزية فطعن في بطنه بالقدح، وقال: استو يا سواد؛ فقال: يا رسول الله، أوجعتني؛ وقد بعثك الله بالحق والعدل، قال: فأقديني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: استقد، قال: فاعتنقه فقبل بطنه: فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير.¹

فهذا سواد يقف أمام النبي ﷺ ويطلب منه القصاص!!! وهذا رسول الله يكشف عن بطنه ويُعطيه الحق في ضرب بطنه الشريف ﷺ؛ فلم يمنع سوادا شرف الرسول ولا مكانته- وإن كان إنما فعل ذلك رغبة في الشرف-، ولم يمنع رسول الله المنصب والشرف، ولا الزمان والمكان²؛ بل لم يُعنفه ولم يغلظ عليه؛ ليعطي للحكام والرعية إشارة واضحة وهي الإنكار من الرعية إذا ظهر لهم منكر، وعدم الطاعة إذا خالفوا نهج رسول الله ﷺ كما هو معلوم في شرعنا.

ثانيا: جعل السلطة على المال في يد الأخيار العقلاء، حتى يُنفق فيما يرجع بالنفع على المسلمين؛ فالمال مال الله، والإنسان مستخلف فيه، فلزم التعامل معه وفق شرع الله وحكمه.
ومن ذلك الحث على كسب المال، وجنيه من كل السبل المشروعة، فهو قوام الحياة، وركيزة الدعوة، ومن بين ما أوصل المسلمين في هذا الزمن إلى ما نراه احتياجهم لغيرهم، فيأخذون مساعدات عسكرية، ومساعدات طبية، واجتماعية...، ومن المعلوم أن اليد العليا خير من اليد السفلى³.

ومن ذلك إيضاح المقصود من النصوص المحذرة من المال والدنيا عموما، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15]، فالآية الكريمة لا تذم المال، وإنما تبين خطورة التعامل معه، قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره للمؤمنين: واعلموا، أيها

¹ ينظر: مغازي الواقيدي: 56/1، وسيرة ابن هشام: 626/1.

² فقد كان في زمان حرب، وفي مكان عام.

³ هذا لفظ من حديث رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة: 123/2 تحت رقم: 1472.

المؤمنون، أنما أموالكم التي خولكموها الله، وأولادكم التي وهبها الله لكم، اختبارٌ وبلاء، أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق الله عليكم فيها، والانتهاه إلى أمره ونهيهِ فيه¹.

فبسبب المال تمكن المسلمون من الوصول إلى تبوك، إذ قد أنفق عثمان على جيش العسرة ما مكنه من قطع الطريق الطويلة، لإظهار قوة المسلمين وشدة عزمهم.

لذا وجب الضرب بيد من حديد على كل من سولت له نفسه تبذير أموال المسلمين، وعُدّه من السفهاء الذين يُجبر عليهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: 5]، قال ابن جرير: "والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا، أن الله جل ثناؤه عم بقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ فلم يخصص سفيهًا دون سفيه، فغيرُ جائز لأحد أن يؤتي سفيهًا ماله، صبيًا صغيرًا كان أو رجلاً كبيرًا، ذكرًا كان أو أنثى.

و"السفيه" الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله، هو المستحقُّ الحجرَ بتضييعه ماله وفساده وإفساده وسوء تدبيره ذلك².

فجعلُ السلطان من الصالحين، وتأييده بالمصلحين، والحثُّ على إيجاد الأموال، ووضعها في يد الأمناء العقلاء كفيلٌ بأن يجعل تدبير المسلمين مرضيا عند الله، وقادرا على مواجهة أعداء الله.

سبل تنزيل هداية: واقع الأمة مع هداية: الواقع مهما اسود، والظلم مهما طال عمره...

لا بد أن نعلم أن بني آدم ينسون العظات والعبر، ويتسلل إلى نفوسهم اليأس والقنوط، من هنا وجب تذكيرهم بين الفينة والأخرى بواقع بني إسرائيل في بداية أمر فرعون، وحالهم عند نهايته، وواقع الصحابة في بداية الدعوة، وحالهم في الدولة، بل وحال المسلمين في الأندلس زمن ملوك الطوائف، وحالهم في عهد يوسف بن تاشفين... ليتجدد اليقين، وتُغلق كل منافذ تسرب اليأس والقنوط!!!

ولما سئل النبي عن السر الذي وراء نزول القرآن منجما كان الجواب من العليم الحكيم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٢)

¹ جامع البيان: 486/13.

² جامع البيان: 565/7.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝﴾ [الفرقان: 32]، أي "فلا تجزع من تكذيب من كذبك من قومك، وردَّ عليك ما جئتهم به، ولا يضق صدرك، فتترك بعض ما أنزلت إليك من أجل أن قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتُبًا وَجَاءَ مَعَهُ مَلَكَ﴾ [هود: 12] ؟ إذا علمت ما لقي من قبلك من رسلي من أممها¹."

فإذا كان هذا هو حال الرسول صلى الله عليه وسلم فكيف يكون حالنا نحن!!!
وللتذكير لا بد عند قص أحداث الأمم الماضية التي فيها دروس وعبر أن نلتزم القوانين التي سبقت الإشارة إليها، كالصحة في المنقول، وعرضه بعجره وبجره حتى يكون منسجما مع النقل والعقل.
سبل تنزيل هداية : "الداعية الناجم في دعوته هو الذي يخالط الناس ويرى أعمالهم لينكر منكرها، ويثني على معروفها".

يلزم كل داعية إلى الله، صادق النية، مخلص في الدعوة أن يدخل أسواق المسلمين، سواء التي توجد في البوادي أو التي في الحواضر، ويحضر أفراح المسلمين وأتراحهم سواء التي للأغنياء أو التي للفقراء، ويجلس مع جميع المسلمين الجهال والعلماء... حتى يكون نظره سديدا، وتكون أحكامه صائبة.

ومن تأمل سيرة الرسول ﷺ يدرك أهمية الاختلاط في الدعوة، فقد كان يدخل الأسواق، ويحضر النوادي، ويخرج إلى الطرقات، فعرف ما يحتاجه الناس، وسبل الوصول إلى قلوبهم، فكانت دعوته مثمرة، ونتائجها مبهرة!!!.

لذلك كان ﷺ يوجه كل واحد إلى ما يصلح له، فقد كان يُسأل السؤال نفسه، فيجيب عنه بأجوبة مختلفة، فعلى سبيل المثال: سئل عن أي العمل أحب إلى الله، فكان جوابه: (أدومه وإن قل²)، و (الصلاة على وقتها³)، وهذا الاختلاف ليس اعتباطيا، وإنما لما علمه الرسول من حال السائلين، أو لما تُمليه الظروف الراهنة، قال ابن حجر: "ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين بأن

¹ جامع البيان: 539/15.

² صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب: العمل الدائم وإن قل: 541/1، رقم: 782.

³ صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها: 121/1، رقم: 527.

أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه أو بما لهم فيه رغبة أو بما هو لائق بهم أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن أدائها وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل¹.

فقد يتطلب الوقت الحديث عن الصدقة أكثر من غيرها إذا احتاج الناس الطعام، ويكون الحديث عن الجهاد أفضل من غيره إذا داهم العدو بلاد المسلمين، والحديث عن الإصلاح بين الناس أفضل إذا كثرت الشنآن بين المؤمنين وهكذا؛ ولا يعلم هذه الأمور من يعيش في مكتبته، أو لا يخاطب إلا صنفا من الناس يوافق مستواه ومكانته.

وهناك مسألة أخرى تتعلق بالأثر الذي يحدثه الداعية، وهو أن قلوب الناس أميل إلى من يعيش معهم، فيلبس كلباسهم، ويأكل كأكلهم، ويركب مثل مركبهم، ومن يستكف عن مخالطة عوام الناس وبسطاءهم فقد تشبه بالمشركين في هذا الصنيع، فقد جاء عن سعد بن أبي وقاص قال: "كنا مع النبي ستة نفر، فقال المشركون للنبي: اطردهؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان، لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [المائدة: 52] 2".

سبل تنزيل هداية: "الأعمال العظيمة ينبغي أن لا يقدم عليها المرء من تلقاء نفسه، بل يحسن به أن يختار له أعوانا".

كان في مقدور الله أن يعطي لموسى عليه السلام ما تفضل به على أخيه هارون، ويرسله وحده إلى فرعون، لكنه أرسلهما معا يشد بعضهما بعضا ليكونا عبرة للمعتبرين!

سبقت الإشارة في سبل تنزيل هدايات سورة النمل إلى بعض السبل الكفيلة بتحقيق التعاون بين العلماء والدعاة، وأضيف هنا مسألة واحدة وهي اختيار الأحق والأجدر بالاشتراك في المهمة؛ فمن العلماء من يكون أقدر على الإقناع من غيره، ومنهم من يكون أحكم من غيره، ومنهم من يكون

¹ فتح الباري: 9/2.

² صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: 4/1878، رقم: 2413.

أشجع وأجراً على المغامرة من غيره، ومنهم من يكون أثبت وأشد صبراً على البلاء من غيره...، فالتعاون مع الأشد صبراً في موضع يتطلب الأحكم، أو الأجر لا ينتج ثماراً، والتعاون من الأحكم في مقام يتطلب الأقدار على الإقناع من غيره لا يجدي ثماراً أيضاً وهكذا؛ وعليه فليس كل داعية أو عالم يصلح لكل المهمات، وإنما كل ميسر لما خلق له.

فالاستعانة بالحدث الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة عن الأسانيد والمتون، وليست له دراية كافية بالملل والنحل وأصول المعتقدات في مناظرة الملحد قد ينتج نتائج عكسية، والاستعانة بالخبر بالملل والنحل في مركز بحثي يتوخى إرساء منهج صحيح للتعامل من السنة قد ينتج نتائج عكسية أيضاً، ويقاس على هذين المتخصصين في العربية، أو الفقه، أو السياسة الشرعية...

نعم يمكن أن نشرك الجميع في المهمة، ولكن لكل واحد جزء منها، فيكون الجميع كعمال مهتمين بشجرة، هذا يحرقها، وذاك يسقيها، وثالث يزيل عنها الأعشاب الضارة، ورابع يبحث عن دواء للأمراض التي تظهر عليها، وخامس ماهر في جني ثمارها، وسادس يعرف الأماكن التي تحتاج غلتها أكثر من غيرها... وهكذا.

وهذا بالضبط ما كان النبي ﷺ يقوم به، حيث اختار له صاحباً لا يفارقه في الحضر والسفر، حتى يأخذ عنه أصول الحكم، ومهارات التسيير، واختار له شاعراً فحلاً يرد على من يهجوهُ أو ينتقص من أصحابه، واختار رجلاً فجعلهم قواداً على الجيوش، وآخرين نواباً عليه في الصلاة...، وهكذا، فمن أراد الوصول إلى أهداف كبرى فما عليه إلا سلك طريق رسول الله ﷺ في الاختيار، بدون هذا قد تكون النتائج عكسية كما نرى في واقعنا.

سبل تنزيل: هداية: "الخطأ وارد على كل الناس، وخاصة الدعاة والمصلحين، فيحتاج الداعية إلى من يرده إلى الصواب، أو من ينجيه من الهلاك".

يجب على كل داعية أو مصلح أن يعلم أن إخوانه إنما هم بشر مثله، يصدر منهم ما يصدر عنه، ويعتريهم ما يعتريه؛ فيتعامل معهم بهذا المعيار، فإن أخطأوا استغفر لهم، وساعدهم على الرجوع إلى الصواب، ولا يكون معهم حين الصواب، وعليهم حين الخطأ!!

ومن تأمل في واقعنا أدرك أن هذا حال كثير من الدعاة، فإذا رأوا عالماً ألف كتاباً فأخطأ في بعض مباحثه، أو فصوله شنعوا عليه، وأصبحوا ضده بعد أن كانوا معه، فتبدأ لومة الاجتماع تتأكل شيئاً فشيئاً حتى يصبح كل واحد منا بمفرده!!! فإلى الله المستكفي، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات السورة على واقع الأمة

قد سبقت الإشارة إلى أن الله جعل في هذه الدنيا سننا لا تتخلف، فإذا وجدت الأسباب، وتوفرت الشروط، وانتفت الموانع ترتبت الآثار بإذن، سواء أكانت حسنة أم سيئة!!

ومن الآثار التي نتوقع أن تحصل بإذن الله في واقع الأمة، إذا التزمنا بتطبيق الهدايات:

أولاً: تصحيح عقائد الناس، التي تجعلهم يتصرفون التصرفات الصحيحة، فيقومون من سباتهم، ويتوجهون إلى أعمالهم الدنيوية والأخروية، فينبون العقول، ويرفعون العمران، يعتقدون بالقلوب ويعملون بالأركان...، فيصبح حالهم كحال الصحابة رضي الله عنهم، فيجاهدون في سبيل الله، ويبدلون أموالهم لوجه الله، وتصبح الأخوة العقدية أقوى من الأخوة في القرابة والنسب، ويطبقون قول الله تعالى: ﴿لَا تَجْدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: 22]، ويقتدون بأبي عبيدة بن الجراح الذي قدم عقيدته على قرابته يوم بدر، فقتل أباه كما ذكر جمع من المفسرين¹ ومن أهل السير²، ويقتدون بعبد الله بن عبد الله بن أبي الذي منع أباه من الدخول إلى المدينة لما قال (لئن رجعنا إلى المدينة)، وأتى إلى رسول الله ﷺ، فقال له: "يا رسول الله، أنت والله الأعز وهو الأذل، والله إن شئت لتخرجنه يا رسول الله، ووقف لأبيه قرب المدينة، فقال: والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدخول فتدخل حينئذ³".

¹ ينظر على سبيل المثال: تفسير القرطبي: 307/17، والدر المنثور: 327/14.

² قال ابن حجر في الإصابة: 476/3 "وهو فيما أخرجه الطبراني بسند جيد، عن عبد الله بن شاذب، قال: جعل والد أبي عبيدة يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، فيحيد عنه، فلما أكثر قصده فقتله، فنزلت"، وقال القاضي عياض في الشفا: 62/2 بعد إirاده لقول الله تعالى ﴿لَا تَجْدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ "وهؤلاء أصحابه رضي الله عنهم قد قتلوا أحبائهم وقتلوا آبائهم وأبنائهم في مرضاته".

³ جوامع السيرة، ص: 204.

حينما تصبح عقيدة الناس هكذا لا يبالون بالقوي ولا بالضعيف، ولا يهربون قيصر ولا هرقل، تتضح لديهم الصورة عن الحياة، فيعرفون متى يتقدمون، ومتى يتأخرون، وأين يضعون الرجل الأول، وأين يضعون الثانية، فيصلون إلى أهدافهم كاملة، دون أن يضيعوا حقوق أنفسهم وحقوق أمتهم.

ثانيا: معرفة الغايات والوسائل، والأسباب والمسببات، فيعيشون تاريخ من مضوا بعقولهم، وإن لم يعيشوه بأجسامهم، فينظرون إلى فرعون جالسا على عرشه، وإلى موسى مدافعا عن دعوته، يتأملون أهل الحق الذين أصبح العدو من ورائهم، والبحر من أمامهم، فيتعظون بطريق واحدة-سلوكها الله في البحر- أنجث من فَوْض الأمر إلى الله، وأهلك من اعتمد على نفسه، واتبع هواه!!

ثم يلتفتون إلى قريش وأتباعهم، فيعيشون معهم نفس العيش، فينظرون إلى أبي جهل الطاغية الذي دفعه طغيانه إلى أن يحمل صخرة عظيمة ليضرب بها النبي ﷺ وهو ساجد، فإذا به يرجع إلى أصحابه فرعا مذعورا بسبب ما رأى، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه "عن أبي هريرة، قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم، فقال: واللوات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليظاً على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: (لو دنا مني لا ختطفته الملائكة عضوا عضوا) قال: فأنزل الله عز وجل ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾﴾ [العلق: 7] ¹.

كما ينظر إلى بلال بن رباح الذي كان يخرج به سيده أمية بن خلف إلى الصحراء في وقت الظهيرة ويضع عليه صخرة عظيمة ويقول له: "لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتبعد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد" ²... فكانت العاقبة موت أبي جهل على يد غلامين

¹ كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: قوله: {إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى} 4/2154، رقم: 2797.

² ينظر قصته في سيرة ابن هشام: 1/318، والطبقات الكبرى لابن سعد: 3/175، كما ينظر: مسند الإمام أحمد الذي

أخرج جزءا منها: 6/382، رقم: 3832، وقال عنها الأرنؤوط إنها صحيحة الإسناد.

صغيرين في معركة بدر¹، وكانت عاقبة أمية أنه قتل على يد بلال مع جمع من الأنصار يوم بدر أيضاً².

وهكذا يعيش كل مسلم حياة من سبقه من الكفار والمؤمنين، آخذاً الدروس والعبر، عالماً ما له وما عليه، فيكون عندنا جيل كالصحابة في النظر والعزيمة، وإن لم يكن مثلهم في الفضل والأسبقية، فترجع لنا الدولة والعزة، ولأمتنا الرفعة والتقدير.

ثالثاً: يجد المسلمون حلاوة الإيمان، ويشعرون بلذة الحياة، فيزدادون اجتهاداً في التقرب إلى الله، ونشر دينه في الآفاق كما فعل الصحابة رضي الله عنهم.

رابعاً: يكون للمسلمين حكم صحيح، مبني على كتاب الله وسنة رسوله، وما قرره العلماء استنباطاً منهما، وعليه تتسع رقعة الإسلام، وتزداد هيبة المسلمين، كما يُحْكَمُ شرع الله في كل صغيرة وكبيرة.

فتكون الغيرة لله، والنصرة لدينه، فلا عبرة بالقريب إذا كان عدواً لله، ولا مكانة للشريف إذا كان محارباً لدين الله، فمن التزم بقواعد الإسلام فله حقوقه كاملة، ومن أراد أن يأخذ منها ما يوافق هواه، ويرد ما لا يوافقه فلتطبق عليه قواعد الإسلام، فيكون حكامنا كأبي بكر الذي تحول من الرجل اللين إلى الرجل الشديد، وحارب جحافل العرب دون هوادة، وقال لعمر المعروف بالشدة (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة، والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه)³، وقال لأمرأ الروم الذين قالوا: والله لنشغلن أبا بكر في نفسه حتى لا ترد خيوله بلادنا "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد"⁴. ويكونون كعمر الذي استلم

¹ ينظر صحيح البخاري: كتاب المغازي باب قتل أبي جهل: 74/5، رقم: 3962، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قتل أبي جهل: 31424، رقم: 1800.

² ينظر: صحيح البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل المسلم حربياً في دار الحرب، أو في دار الإسلام جاز: 98/3، رقم: 2301.

³ صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: 93/9، رقم: 7284، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله: 51/1، رقم: 20.

⁴ نفسه: 84/2.

مفاتيح بيت المقدس، وكتب العهد بنفسه، وختمه بخاتمه، بعد أن صلى في المسجد ركعتين، وصلى فيه أيضاً بالمسلمين¹.

وعلى الأقل يكونون كيوسف بن تاشفين² الذي أرسل جيشاً من المغرب الأقصى، وعبر به البحر إلى بلاد الأندلس، ليحقق به نصراً في معركة الزلاقة أرجع به الهيبة إلى المسلمين، وتركه خالداً إلى يوم الدين في أذهان الكافرين، فحق لابن عباد³ أن يقول: "أحب إليّ أن أكون راعي إبل بالعدوة من أن ألقى الله، وقد حوّلت الأندلس دار كفر!!!"

فالتاريخ يعيد نفسه، فما أن تتبع الأمة نهج من سلفها في العقيدة والجهاد، والسياسة والأحكام حتى تجد نفسها كمن سلفها أو خيراً منهم!!!.

خامساً ينعم المسلمون بخيرات الأرض، وما ينزل عليهم من بركات السماء، فتتوزع الأموال على أصحابها بالعدل دون محاباة، وتؤخذ من غير أصحابها دون شفقة ولا رحمة، فتزول الشحناء والبغضاء من القلوب، ويحل محلها الحب والاحترام؛ فالنفس البشرية تكره عادة من أخذ شيئاً من أموالها، حتى لو لم يسرقه الآخذ منهم مباشرة؛ كما يفعل كثير من أصحاب الأموال في زماننا، فيوسعون شركاتهم، ويوفرون الأموال في حساباتهم بسبب الفاقة التي جعلت كثيراً من الناس يقبلون بالأجر الزهيد للعمل معهم، وبسبب عدم دفع الزكوات التي تقلص الفوارق بين المسلمين!! فصار أصحاب الأموال ينظرون على العمال على أنهم صيد ثمين عثروا عليه، وينظر إليهم الفقراء على أنهم مستغلون للفقير الذي يعيشونه، فتقطعت الأواصر بين المسلمين!!

¹ ينظر: البداية والنهاية: 55/7.

² هو أبو يعقوب بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين وملك المثلثين، وهو الذي اختط مدينة مراكش، كان رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً، حتى إن ملوك الأندلس يفيئون إلى ظله ويحذرونه على ملكهم، ضرب السكة من يومئذ وجددها، ونقش ديناره " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وتحت ذلك " أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين " وكتب في الدائرة: " من يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين "، وشمل سلطانه المغربين الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس، وتوفي بمراكش توفي سنة: 500هـ. ينظر: (وفيات الأعيان: 121/7، والأعلام: 222/8).

³ هو: محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، أبو القاسم، المعتمد على الله: صاحب إشبيلية وقرطبة وما حولهما، وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزماً وضبطاً للأمور، ولد في باجة (بالأندلس) وولي إشبيلية بعد وفاة أبيه (سنة 461 هـ وامتلك قرطبة وكثيراً من المملكة الأندلسية، واتسع سلطانه إلى أن بلغ مدينة مرسية، يعد أحد أعظم ملوك الطوائف توفي بقرية صغيرة قرب مراكش تدعى أغما سنة 488هـ. ينظر: (وفيات الأعيان: 21/5، والوفاء بالوفيات: 151/3).

فلو أحسنا التصرف في المال، واستثمرناه وفق الهدايات القرآنية لصرنا كحال المسلمين في زمن عمر بن عبد العزيز الذي قضى الدّين عن المدينين الذين توفوا ولو يقضوا دينهم¹، وقضى بأن يجعل للمرضى والزمنين غلمانا يخدمونهم ويكون أجراً لهم من بيت المال²، وتورع حتى في حلي زوجته التي هي بنت الملوك، فأمرها بأن تضعه في بيت مال المسلمين³، بل لم يقف الأمر عند هذا، وإنما تعداه لما يعد من المحقرات التي لا يُلتفت إليها في نظر الشرع، فقد دخل عليه رجل يوماً وسأله عن أحوال المسلمين، والظروف التي يعيشونها، فأجابه على شمعة غليظة كانت من بيت المال، فلما انتقل معه إلى السؤال عن أهله وعباله أطفأ الشمعة ودعا بفتيلة لا تكاد تضيء، وظل عليها إلى أن انتهى من حديثه؛ فلما سأله عن سبب هذا قال له: إن الشمعة من بيت المال، فلما كنت تحدثنا عن أمر المسلمين جاز لي الانتفاع بنورها، ولما أصبحت تحدثني عن شأني لم يعد لي الحق فيها⁴!!! فكان نتيجة هذا قول يحيى بن سعيد "بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيتها لهم فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها مني قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم وولّاهم للمسلمين⁵".

فما حصل في زمن عمر ليس لشخص عمر، ولا للذين كانوا معه؛ وإنما لأنه ﷺ سار على النهج القويم، فكل من سار كسيره سيكون مثله؛ لأن سنة الله لا تحابي.

سادساً: بُزُرِعَ فِي الْأَمَةِ رُومُ التَّفَاوُلِ، فَهُوَ أَوَّلُ السَّلَامِ، فإذا لم يكن مع المحاربين كانت الهزيمة حتماً لهم، لذلك كان الرسول صلى الله عليه وأصحابه الكرام ييثون روح الأمل قبل المعركة حتى تتقوى النفوس على المواجهة؛ ففي غزوة بدر بشرهم النبي صلى الله عليه بإحدى الحسينيين وإن كان يعلم أن النصر على الأعداء هو الذي يحصل في المعركة، بدليل رسمه مواضع سقوط قتلى زعماء قريش؛ فأمتنا انهمزمت أولاً بالهزيمة النفسية، ثم لحقتها الهزيمة العسكرية والاقتصادية والسياسية...؛ فبث هذا النوع من الهدايات يزرع الأمل، خصوصاً إذا عزز بنماذج من تاريخ المسلمين تبرز الحال الذي وصلوا إليه من الضعف، والحال الذي وصلوا إليه من القوة لما قويت عزيمتهم، وقاموا بما يلزم من الأسباب.

¹ ينظر: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: 63.

² نفسه، ص: 54.

³ نفسه، ص: 63.

⁴ نفسه، ص: 37.

⁵ نفسه، ص: 65.

سابعاً: الانخراط جماعة في تحقيق هذه الأهداف، فيسهم صاحب المال بماله، وصاحب الخبرة بخبرته، والعالم بعلمه، والداعية بتحميس الناس، وحثهم على الإسهام...، ويكون لكل واحد منا تصور صحيح عن السنن الكونية، حتى لا نقف في الطريق إذا لم تتحقق الأهداف أمام أعيننا؛ فالعودة إلى ماكانت عليه الأمة قد يتطلب سنين عدداً، ويحتاج أجيالاً كثيرة، كل واحد يضع لبنته وينصرف، كما هو الحال عند الصحابة رضى الله عنهم؛ فبعضهم حرس الجيوش، وبعضهم التقط لها الأخبار، وبعضهم خطط لها في الحرب، وبعضهم حمل السلاح، وبعضهم داوى الجرحى... لكنهم لم يفتحوا الأندلس، ولم يشربوا من مياهها العذبة، أو يستظلوا بظلالها الوافرة، أو يأكلوا من ثمار أشجارها المتنوعة...، وفي المقابل كان لهم فضل التأسيس والبناء، والدعوة والجهاد فاستحقوا الرضوان من الله تعالى، والرضى من جميع المسلمين، زيادة على ما بشرهم به رسول الله ﷺ من الجنان الذي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

هذه بعض الآثار التي تتحقق إن شاء الله إذا طبقنا هدايات هذه السورة مع هدايات السور الأخرى، فما علينا إلا التوكل على الله، والشروع في العمل، والحث على المشاركة الجماعية، وننتظر النتائج، فإن لم نجعلها نحن فسيجعلها أبناؤنا أو أحفادنا، أو أمتنا من غير من أتى أصلاً بنا، فالهدف هدف أمة لا هدف شخص أو أشخاص، فنسأل الله أن نكون ممن أسهم ولو بالقليل في خدمة هذه الأمة عموماً، وخدمة كتاب الله خصوصاً، لعل هذا يشفع لنا أن نكون مع أهل القرآن في ضيافة النبي العدنان ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة

من خلال رحلةٍ دامت أزيد من ثلاث سنوات مع القرآن الكريم، وتفاسيره المختلفة منهاجاً ومأخذاً، أدركت أننا بصدق مقصرون في حق القرآن الكريم، نقرأه ولا نعي ما فيه، وإن وعينا فغالبا ما نقف على الظواهر وتبقى الجواهر خفية عنا؛ وقد خلصت بحمد الله من هذا البحث إلى ما يأتي:

(1) مفهوم الهدايات القرآنية من أصعب مباحث هذا البحث؛ فهو عمود فقره، وركن بنائه؛ وقد اعتمدت على تعريفات اللغويين، والعلماء المختصين، وخلصت إلى تعريف أراه أقرب إلى العلمية، وأوفق بالنظر عسى أن نسعد بعلم جديد يوسم ب (الهدايات القرآنية)، تكون له مبادئه العشرة، ويكون حاله كحال مقاصد الشريعة مع أصول الفقه؛ حيث خرجت من رحمه، وبنيت على أساسه؛ لأن التفسير أساس الهدايات وركنهما الأعظم؛ والتفريق بينهما إنما يكون من حيث التوظيف والمنهج المتبع؛ وإلا فإن قواعد التفسير هي نفسها المعتمدة في الهدايات القرآنية؛ كما كانت قواعد الأصول هي المعتمدة في المقاصد.

(2) الهداية القرآنية قد تكون كلية وقد تكون جزئية، والتفرق بينهما مما يصعب، خصوصا في هذه المرحلة التي يعتبر فيها النوع من البحث جديدا نوعا ما؛ وقد حاولت التفريق بينهما بالنظر إلى المعنى الذي يؤخذ من آيات السورة، أو من ألفاظها، أطلقت عليه هداية جزئية، وإن أخذ من مجموعها، أو من مقاطعها، أو حتى من آية منها وكانت تندج تحته جزئيات كثيرة أطلقت عليه هداية كلية.

(3) علم الهدايات القرآنية كان موجودا منذ نشأة التفسير، بل منذ نزول القرآن الكريم، كما كانت أصول الفقه معلومة قبل الشافعي، ومقاصد الشريعة معلومة قبل الشاطبي؛ فمعظم كتب التفسير تشير إشارات إلى الهدايات، تختلف في القلة والكثرة، والتصريح والتلميح، حيث نجد في بعضها عباراتٍ مثل (تُشير)، أو (تفيد)، أو (تدل)، أو (توحي)، أو (تضمن)، أو (تُعلم)، أو (تُنبه)....، قد تكون بالفعل كما مثل، أو بالإسم ك(الإشارة)، و(الإفادة)، و(الدلالة)....؛ وقد وقفت بحمد الله في السورتين فقط على عشرين عبارةً يُطلقها المفسرون على ماصطلح عليه بالهداية؛ وقد جمعتها ورتبتها بناء على الكثرة والقلة، وأتيت بأمثلة لها تثبت صدق الدعوى.

وهذا النوع من الهدايات أعنى المصريح به -بأي عبارة من العبارات التي ذكرت- قليلٌ مقارنة بغيره الذي فيه التلميح، كأن يستنبط المفسر معنى بديعا، ويدونه على أنه تفسير، فأعتمد إلى صياغته

كما تصاغ الهداية، وأحيل عليه بعبارة: (ينظر) للرجوع إلى المصدر قصد التحقق من صدق الفهم عنه.

فالمسألة إذن مسألة استخراج، لا مسألة إنشاء، أُضيفت عليها بعضُ اللمسات ليكون خطابنا جليلاً محققاً الغرض الذي من أجله أنزل القرآن.

(4) استخرجت بحمد الله أزيد من ألفين وأربعمائة هداية 2400 من السورتين (الجزء المخصص لبحثي)، بعضها من إشاراتٍ في كتب التفسير وغيرها، وبعضها عبرَ توظيف قواعد العلم عموماً، وقواعد اللغة والأصول خصوصاً.

(5) هذه الهدايات ليست وحياً يجب الوقوف عند حدوده، وإنما هي فهم للوحي، قد يتفق معي فيه العلماء وطلبة العلم، وقد يختلفون معي حوله؛ وما هو البحث بين أيديكم حتى تقوموه وتسددوه. (6) هذه الهدايات بعضها منقول بلفظ مؤلفيها، مما يعني أن استخراج الهدايات كان معلوماً عند العلماء المتقدمين، وإن لم يصطلحوا عليه بمصطلح يميزه عن غيره من العلوم.

(7) هدايات السورة أو الآية غالباً ما تكون متنوعة، وتتعلق بمجالات عدة، فنجد في السورة التي لها مقصد معين هداياتٍ متعلقةً بالعقيدة أو العبادة أو الأخلاق...، لكن في مجملها تخدم المقصد العام من السورة.

(8) الهدايات التي دونت غير مرتبة على الأبواب، ولا وفق المجالات، وإنما وفق الآيات، فأعتمد إلى الآية وأنظر في كتب التفسير بدءاً بالمتقدم منها، وانتهاءً بالمتأخر، ثم أدون ما وجدته؛ فإن نقلته بلفظه جعلته بين حاصرتين "" وإن نقلت أصل معناه ودونته بعبارتي، أشرت إليه في الهامش بعبارة: ينظر. ولا يعني هذا أن المصدر الذي أحلت عليه مختصاً بالإحالة، فقد يكون مختصاً، وقد مشتركاً بينه وبين من سبقه، أو بينه وبين من لحقه، كما هو الشأن في كثير من المعاني التفسيرية.

فالغرض إذن من هذا البحث هو جمع المادة من كتب التفسير وغيرها، أما تحقيق القول في المعني بيان أصله الأول فيصعب في هذا البحث المحصور بالزمن، والمضبوط بالمنهج.

(9) الوقوف على المناسبات بين أواخر السور وأوائل ما بعده، وبين مقاطعها المكونة لوحدها من أهم ما يساعد على استخراج الهدايات القرآنية؛ وقد حاولت جمع ما قيل في المناسبات سواء التي بين أول السورة والتي قبلها، أو بين آخرها وأول ما بعدها، أو بين موضوعاتها، وأضفت ما ظهر لي أنه مناسبة في الأقسام الثلاث.

(10) للسور القرآنية مقاصد يلزم كل باحث في الهدايات القرآنية الانطلاق منها حتى تكون الهدايات صحيحة، ومحقة للثمار المرجوة منها؛ لأنها هي الموجه إلى الصواب، والمرشد إلى السداد. وقد توصلت إلى أن مقصد سورة النمل هو الدعوة إلى العلم قصد توظيفه فيما يعود بالنفع على الفرد والمجتمع، ويحقق المقصد الأسمى من خلق الإنسان وهو العبودية لله، وأن مقصد سورة القصص هو زرع الثقة في الله التي تجعل العبد يقاوم الظالمين حتى لو كان سلاحهم أقوى من سلاحه بآلاف المرات.

(11) للوصول إلى مقاصد السور يلزم اتباع خطوات مضبوطة وفق قواعد علمية؛ وقد توصلت إلى أن اسم السورة وخاتمتها، ومفرداتها وجملها، ومقاطعها المكونة لبنيتها من أهم العناصر الكاشفة عن المقصود.

(12) التفريق بين المقصود والموضوع والهداية الكلية من أهم المفاتيح التي تفتح أبواب الهدايات، فالمقصود هو المدار الذي ترجع إليه كل الموضوعات، والموضوع هو الشيء الذي تعالجه السورة بصريح العبارة، والهداية الكلية هي توظيف ذلك المقصد، وتنزيله على أرض الواقع.

(13) الاهتمام بأحوال النزول -الذي تندرج تحته أسباب النزول- لم يأخذ حظه الكافي من البحث، وهو في نظري من أهم المفاتيح التي تعين على الغوص في بحر المعاني، وإلتقاط الدرر من المباني، وقد اجتهدت قدر الوسع في الحديث عنه في البحث، وأرجو أن يخص بمزيد عناية، وكبير اهتمام.

(14) لكل سورة أسلوب خاص تعالج به قضاياها، وخصائص تميزها عن غيرها، قد تكون في الموضوعات، وقد تكون في الألفاظ، وقد تكون في غير ذلك؛ وسورتا النمل والقصص لم تخرجا عن هذا الإطار؛ إلا أنني لم أقف على من درسهما دراسة علمية تبين ما تميزتا به من أساليب أو خصائص عن غيرهما؛ وقد اجتهدت في ذكر بعض الأساليب، واستخراج بعض الخصائص، إلا أنني لم أرض عن العمل؛ لأنه لم يصل بعد إلى ما تطمح إليه النفس. لكن إن شاء الله سأعود إليه في دراسات قادمة يكون لها من الوقت ما يكفي، ومن الجهد ما يفي.

(15) تعرضت إلى الواقع وعرضت عليه ما توصلت إليه من هدايات، فكان للأسف بعيدا عنها (في الجملة) كل البعد؛ وهذا ما سبب لنا تقهقرا، وتراجعا عن المكانة التي كنا فيها مآت السنين!!!

16) اقترحت بعض السبل الكفيلة بتوظيف الهدايات في أرض الواقع؛ واهتديت بالسنن الكونية، والسيرة النبوية، ثم التاريخ الإسلامي في الشرق والغرب، وبخاصة الأندلس منه؛ فما على الإخوة إلا النظر فيها لتصحيحها، ثم تطويرها لثبني بها أمة لها أمجادها وتاريخها المشرق؛ فأوروبا التي كانت أكثر تأخرا منا في هذا العصر لما خططت واقرحت، ثم جربت ونفذت أصبحت اليوم تتحكم في رقاب المسلمين!!!

17) توقعت إن التزم المسلمون بهذه الهدايات أن تصبح الكلمة لهم، والعزة لدينهم، والحكم لشرع الله، والعدل بين خلق الله...؛ كل هذا - كما قلت - بناء على سنن كونية ثابتة، وقواعد ربانية ضابطة؛ فما علينا إلا التفاؤل، وزرع الأمل في النفوس، فما هي أعوام ويصبح المسلمون كما كانوا من قبل.

فنسأل الله أن يفرحنا ويفرح كل غيور على أمة الإسلام بنصر هذه الأمة، وخروجها من عالم الضعف والهوان.

التوصيات:

من التوصيات التي أقترحها:

1. المواصلة في مشروع الهدايات لأنه مشروع علمي يجمع الشتات، ويوحد الصفوف، ويذيب الخلافات.
 2. الاجتهاد أكثر في ضبط مفهوم الهدايات؛ لأنه هو الذي يحدد العمل، ويؤزن به المنتج، وعلى ضوءه تتضح الصور.
 3. جمع الهدايات المتفرقة في القرآن الكريم كله، وفرزها حسب المجالات: أعني مجالات الاعتقاد، والعبادة، والمعاملات...، ثم وضع خطة واضحة للوصول إلى أهدافها عبر مراحل زمنية معقولة.
 4. تمييز الهدايات المستخرجة من السور المكية، عن الهدايات المستخرجة من السور المدنية، لتنزيل المناسب منها على أرض الواقع؛ فالهدايات المدنية صحيحة في ذاتها لكن تنزيلها على واقع يشبه واقع السور المدنية قد لا تنتج شيئا، بل قد تنتج ثمارا عكسية، والعكس بالعكس صحيح.
 5. نشر هذه الهدايات في كل مجالات الاتصال، وبخاصة وسائل التواصل الاجتماعي التي يستعملها معظم الناس؛ وتوصل الرسالة أسرع من البرق.
 6. ترجمتها إلى اللغات الحية حتى يعم نفعها، وبخاصة اللغات التي يتكلم بها معظم الناس، أو يستعملونها في المنتوجات.
 7. إنشاء مركز علمي يشتغل فيه المختصون بالدراسات القرآنية عموما، والمشتغلون بالهدايات القرآنية خصوصا، يكون هدفه الأكبر لم شَم الأمة، وتوحيدها على المشترك الذي جاء به القرآن والسنة.
 8. إعادة النظر في كتب المناسبات والخصائص والمقاصد قصد تطويرها، وإتمام نقصها؛ فلأسف أدركت من خلال بحثي المتواضع عدم التحرير في المفاهيم، وعدم الاستيعاب في الطرق والمضامين، فلو اجتهدنا في هذا المجال لارتبطنا بالقرآن أكثر ولا تربطت به أمتنا كذلك.
- هذا؛ والعلم عند الله والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

فهرس الآيات التي استخرجت منها الهدايات.

112

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

112

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾

129

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

133

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

140

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشُرَائِبِنَ يَدَي رَحْمَتِهِ ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٣﴾

143

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٤﴾

151

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٦٥﴾

157

﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۗ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۖ بَلْ هُمْ عَنْهَا عَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

164

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ أَذَاكُمُ الرَّبَّاءُ وَآبَاؤُنَا ۖ إِنَّنَا لَمُخْرَجُونَ﴾

167

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰؤُلَاءِ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ۖ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾

171

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ۖ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

- 175 ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾
- 179 ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾﴾
- 183 ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾
- 186 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾
- 190 ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾
- 192 ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾
- 198 ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾﴾
- 200 ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٧﴾﴾
- 204 ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٨﴾﴾
- 206 ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الصَّهَّاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾
- 212 ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾
- 213 ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴿٨٢﴾﴾
- 218 ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾
- 220 ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ ذَاكُم تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

221

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

223

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَ كُنُوفِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

227

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

233

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴿٨٩﴾﴾

238

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

241

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

249

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

252

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

سورة القصص

376

﴿طَسَمَ ﴿١﴾﴾

377

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾

380

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾

386

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾

393

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكَفِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُزَيِّرَنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

395

﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾

412

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

418

424

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرِمُوسَىٰ فَرِيًّا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ ءَلَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾

427

﴿وَقَالَتِ لَأُخْتِي ۖ فَصِيَّةٌ فَصُرْتُ بِهِ ۖ عَنْ جُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾

430

﴿وَحَرَّمَ نَاعِيَهُ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴿١٢﴾﴾

435 ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

439 ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

443 ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

444 ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

454 ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

457 ﴿فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴿١٨﴾﴾

460 ﴿فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمُوسَىٰ أَرِيدُ أَن تُقَاتِلَنِي كَمَا قَاتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴿١٩﴾﴾

466 ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

472 ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ ﴿٢١﴾﴾

475 ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ

478

تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

485

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

488

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ

496

لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ لَمْ يَجُوتْ مِنِ اقْتَوَمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

501

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قَالَ إِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ

عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ

وَكَيْلٌ ﴿٢٨﴾﴾

512

﴿* فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي

518

آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ

إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

525

﴿وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْجُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾
﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ مَا يُغْلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَسِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

- 582 ﴿وَاسْتَكَبَرَهُو وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَىٰ بَارِئٍ لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾
- 586 ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾
- 591 ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾
- 596 ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾
- 599 ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾
- 606 ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾
- 610 ﴿وَلَا كُنَّا أَشْنَا نَقُرُّونَا فَتَطَاوَلُ عَلَيْهِمُ الْأَعْمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾
- 613 ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ
مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾
- 616 ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمُ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾
- 616 ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفٍ لَّا يَكْفُرُونَ ﴿٤٨﴾﴾
- 627 ﴿قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾
- 631 ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى
مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

فهرس الأحاديث والآثار

692	أدومه وإن قل
75	أرأيتم لو أخبرتم أن خيلا بالوادي
91	الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها
692	الصلاة على وقتها
582	العز إزاره، والكبرياء رداؤه
333	المرأة التي يبكي صبياتها
689	اليد العليا خير من اليد السفلى
410	أملك، ثم أملك، ثم أملك
676	إِنَّ اللَّهَ زَوَى - أَي قَرَّبَ وَصَغَرَ - لِي الْأَرْضَ
238	إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك
538	إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها.
113	إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين
288	إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة
688	إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدا سألته
399	أنتم أعلم بأمر دنياكم
78	إنك لا تهدي من أحببت
102	إنكم لتكثرن عند الفزع، وتقلون عند الطمع
216	أول الآيات خروجاً، طلوع الشمس من مغربها
561	أول من يدعى يوم القيامة آدم
68	آية الكرسي سيدة أي القرآن
216	بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها
540	خلقت عبادي حنفاء كلهم
250	خلقت عبادي حنفاء كلهم
180	ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم

64	سجدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إحدى عشرة سجدة
697	عاقبة أمية أنه قتل على يد بلال
68	فاتحة الكتاب أفضل القرآن
329	فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن
463	فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة،
646	قراءة البقرة، ثم النساء ثم آل عمران
429	قصة النبي ﷺ مع حذيفة يوم الخندق
333	قصة علي رضي الله عنه واليهودي الذي وجدت عنده درع علي
69	قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن
62	قل: سورة النّضير
501	كان رسول الله ﷺ شريكى، فكان خير شريك لا يدارى ولا يشارى ولا يمارى
42	كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم
593	كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة
75	كتب إلى أهل نجران قبل أن تنزل عليه (طس) سليمان
421	كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران
692	كنا مع النبي ستة نفر، فقال المشركون للنبي
688	لا تسأل الإمارة
462	لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين
659	لأستغفرن لك، ما لم أنه عنه
67	لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن
534	لقد خشيت على نفسي
412	لقد سهل لكم من أمركم
343	لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة
82	لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ
696	لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا

241	 ما أطيبك من بلدة وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك
70	 ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن
493	 ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف، ولا سائل فخذ
474	 ما ظنك باثنين الله ثالثهما
205	 ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما
623	 مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ
177	 مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا
70	 من حدث عني حديثا يرى أنه كذب
64	 من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات
359	 هل تدري فيم يختصم الملائ الأعلى
315	 هل وجدتم ما وعد ربكم حقا
396	 وأحلت لي المغنم ولم تحل لأحد كان قبلي
396	 وأحلت لي المغنم، ولم تحل لأحد كان قبلي
401	 واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك
697	 والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة
435	 والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب
82	 ولم يلبسوا إيمانهم بظلم
490	 ومن آتى إليكم معروفا فكافئوه
72	 يا علي من قرأ طس التمل أعطاه الله بكل سجدة يسجد
422	 يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي
503	 يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج،
69	 يس قلب القرآن

فهرس المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، طبعة دار ابن كثير، الطبعة الأولى.
- 2- الإتيقان في علوم القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي تحقيق: مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 3- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- 4- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثانية 1405 هـ - 1985م.
- 5- أساليب البيان في القرآن الكريم ، لعيسى متقي زادة، مجلة الكلمة، العدد: 44.
- 6- الأساليب القرآنية في معالجة مشكلات المسلمين في عهد النبوة، إعداد الطالب: إسماعيل عبد الرحمن سليمان(مرقون).
- 7- الاستذكار لأبي عمر يوسف بن عبد الله عبد البر النمري القرطبي، تحقيق: سالم مُحمَّد عطا، مُحمَّد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 - 2000.
- 8- أسرار ترتيب القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق ودراسة أحمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الاعتصام، الطبعة: الثانية: 1978.
- 9- أسماء سور القرآن وفضائلها لمنيرة بنت مُحمَّد الدوسري، الناشر دار ابن الجوزي، سنة النشر 2005م 1426هـ.
- 10- الإصابة في تمييز الصحابة لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى مُحمَّد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1415 هـ.
- 11- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن مُحمَّد المختار الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، عام النشر : 1415 هـ - 1995 م.

- 12- الاعتصام لإبراهيم بن موسى بن مُحمَّد اللخمي الشهير بالشاطبي، تحقيق ودراسة: د. مُحمَّد بن عبد الرحمن الشقيير، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.
- 13- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثامنة - 1425 هـ - 2005 م.
- 14- إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، الطبعة: الرابعة، 1415 هـ.
- 15- إعلام الموقعين عن رب العالمين لمحمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.
- 16- الإعلام بقواطع الإسلام من قول أو فعل أو نية أو تعليق مكفر لأحمد بن مُحمَّد بن علي بن حجر الهيتمي، تحقيق: مُحمَّد عواد العواد، الناشر: دار التقوى/ سوريا، الطبعة: الأولى، 1428 هـ/ 2008 م.
- 17- الأعلام لخير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشرة 2002 م.
- 18- الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1424 هـ - 2004 م.
- 19- ألفية ابن مالك لمحمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، الناشر: دار التعاون.
- 20- إلى القرآن الكريم لمحمد شلتوت، الناشر: دار الشروق.
- 21- الإنسان في ميزان القرآن، لحسن الباش، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

22- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البضاوي، تحقيق: مُحمَّد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ

23- أول مرة أتدبر القرآن، جمع وإعداد: عادل مُحمَّد خليل، الناشر: شركة إس بي - الكويت، الطبعة: الثالثة عشرة، 1438 هـ - 2017م.

24- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبي بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، 1424هـ/2003م.

25- البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي مُحمَّد معوض، دار النشر : دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - 1422 هـ - 2001 م، الطبعة : الأولى.

26- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لأبي العباس أحمد بن مُحمَّد بن المهدي بن عجيبة الأنجري الفاسي الصوفي، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة.

27- البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1407 هـ - 1986 م.

28- البرهان في تناسب سور القرآن لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، تحقيق: مُحمَّد شعباني، دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر: 1410 هـ - 1990م.

29- البرهان في علوم القرآن لأبي عبد الله بدر الدين مُحمَّد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

- 30- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين أبي طاهر مُجَدِّ بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مُجَدِّ علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة
- 31- البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني ، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1996 م.
- 32- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، الناشر: دار الثقافة، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، 1983.
- 33- البيان والتبيين، لعمر بن بحر، أبي عثمان، الشهير ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: 1423 هـ.
- 34- بيان المعاني لعبد القادر بن مَلّا حويش السيد محمود آل غازي العاني، الناشر: مطبعة الترقى - دمشق، الطبعة: الأولى، 1382 هـ - 1965 م.
- 35- تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبي الفيض، الملقّب بمرتضى، الزبيدي، الناشر: دار الهداية.
- 36- تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002 م.
- 37- تاريخ دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: 1415 هـ - 1995 م.
- 38- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: 1984 هـ.
- 39- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب لأبي حيان مُجَدِّ بن يوسف ن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: سمير المجذوب، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 1403 هـ - 1983 م.

- 40- تذكرة الحفاظ لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، 1419هـ- 1998م.
- 41- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق ابن تاويت الطنجي، الناشر: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، الطبعة: الأولى.
- 42- التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى - 1416 هـ.
- 43- التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، الناشر: دار الشروق، الطبعة: السادسة عشر.
- 44- تفسير ابن عرفة لمحمد بن محمد ابن عرفة التونسي المالكي، تحقيق: جلال الأسيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 2008 م.
- 45- تفسير ابن فورك لمحمد بن الحسن بن فورك دراسة وتحقيق: علّال عبد القادر بندويش، الناشر: جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1430 - 2009 م.
- 46- تفسير الآيات الكونية للدكتور زغلول النجار، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، سنة الطبع: 2008.
- 47- التفسير البسيط لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ.
- 48- تفسير التستري لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: منشورات محمد علي بيضون / دارا لكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1423 هـ.
- 49- تفسير الشعراوي - الخواطر، لمحمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم.

50- تفسير القرآن العزيز لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق: أبي عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2002م.

51- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999م.

52- تفسير القرآن الكريم (التفسير القيم) لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة: الأولى - 1410 هـ.

53- تفسير القرآن الكريم لمحمد بن صالح بن عثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي،.

54- تفسير القرآن لأبي المظفر، منصور بن محمد السمعاني تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م.

55- التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة.

56- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) لمحمد بن محمد أبي منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005م.

57- تفسير الماوردي (النكت والعيون) لأبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

58- تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، 1365 هـ - 1946م.

- 59- التفسير المظهري، مُجَدِّ ثناء الله المظهري، تحقيق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية - باكستان، الطبعة: 1412 هـ.
- 60- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ.
- 61- التفسير الموضوعي 2 من إعداد: مناهج جامعة المدينة العالمية، الناشر: جامعة المدينة العالمية.
- 62- التفسير الوسيط للدكتور: وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: الأولى - 1422 هـ.
- 63- التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولى، (1393 هـ = 1973 م)
- 64- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لسيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة: الأولى.
- 65- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، المزيد تحقيق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1400 - 1980.
- 66- تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: مُجَدِّ عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 2001 م.
- 67- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420 هـ - 2000 م.
- 68- جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد مُجَدِّ شاكِر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.

69- جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر يوسف بن عبد البر بن عاصم النمري، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م.

70- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384 هـ - 1964 م.

71- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد مُجَدِّد بن أبي الخطاب ، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي مُجَدِّد البجادي، الناشر: نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

72- جمهرة اللغة لأبي بكر مُجَدِّد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، 1987 م.

73- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم لأبي مُجَدِّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار المعارف - مصر.

74- جواهر القرآن لأبو حامد مُجَدِّد بن مُجَدِّد الغزالي، تحقيق: الدكتور الشيخ مُجَدِّد رشيد رضا القباني، الناشر: دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة: الثانية، 1406 هـ - 1986 م.

75- حقائق الروح والريحان في رواي علوم القرآن للشيخ مُجَدِّد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم مُجَدِّد علي بن حسين مهدي، الناشر: دار طوق النجاة.

76- الحدود الأنيفة والتعريفات الدقيقة، لذكريا بن مُجَدِّد بن أحمد الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك، الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 هـ.

77- الخراج لأبي يوسف يعقوب حنبل الأنصاري، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ، سعد حسن مُجَدِّد.

78- خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين ابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، الطبعة: الطبعة الأخيرة 2004 م.

79- خصائص التعبير القرآني وسماته، للدكتور: عبد العظيم إبراهيم مُجَّد المطعني، الناشر : مكتبة وهبة، الطبعة الأولى 1413 هـ - 1992 م.

80- خصائص القرآن للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: التاسعة.

81- الخلافات السياسية بين الصحابة، رسالة في مكانة الأشخاص، وقدسية المبادئ، لمحمد بن المختار الشنقيطي، الناشر: الشبكة العربية للأبحاث والنشر/ الطبعة: الأولى 2013.

82- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد مُجَّد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

83- الدر المنثور لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الفكر - بيروت.

84- درء تعارض العقل والنقل لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي، تحقيق: الدكتور مُجَّد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام مُجَّد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، 1411 هـ - 1991 م.

85- الدرر في اختصار المغازي والسير لأبي يوسف عمر بن عبد البر النمري، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1403 هـ.

86- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب لمحمد الأمين بن المختار الشنقيطي، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة : الأولى 1417 هـ - 1996 م.

87- دلائل النظام، لعبد الحميد الفراهي الهندي، الناشر: المطبعة الحميدية، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: 1388 هـ

88- الرحلة في طلب الحديث لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: نور الدين عتر، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1395

89- روح البيان لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي الناشر: دار الفكر - بيروت.

90- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ.

91- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام لأبي القاسم عبد الرحمن بن أحمد السهيلي تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الطبعة الأولى، 1421 هـ / 2000 م.

92- زاد المعاد في هدي خير العباد، لمحمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون ، 1415 هـ / 1994 م.

93- زهرة التفاسير لمحمد بن أحمد، المعروف بأبي زهرة، دار النشر: دار الفكر العربي.

94- السبعة في القراءات، لأبي بكر بن مجاهد البغدادي، تحقيق: شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف - مصر، الطبعة: الثانية، 1400 هـ.

95- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير لشمس الدين، مُحمَّد بن أحمد الخطيب الشربيني، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، عام النشر: 1285 هـ.

96- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لأبي عبد الرحمن مُحمَّد ناصر الدين، الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (مكتبة المعارف).

97- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة لأبي عبد الرحمن مُحمَّد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ / 1992 م.

98- سلم الوصول إلى طبقات الفحول لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني المعروف بـ «حاجي خليفة» تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة إرسىكا، إستانبول - تركيا.

99- السماء في القرآن للدكتور زغلول النجار، الناشر: دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، سنة: 2005.

100- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي لعبد الملك بن حسين العصامي المكي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.

101- سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمد كامل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م.

102- سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، سنة النشر: 1998 م.

103- السنن الكبرى لأحمد بن الحسين أبوب بكر البيهقي تحقيق: محمد عبد القادر عطان الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م

104- السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراتها لعثمان بن سعيد أبي عمرو الداني تحقيق: الدكتور. رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة: الأولى، 1416.

105- سير أعلام النبلاء لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، 1405 هـ / 1985 م

106- السيرة النبوية الصحيحة، محاولة في تطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية للدكتور: أكرم ضياء العمري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: السادسة، 1415 هـ - 1994 م.

107- السيرة النبوية لابن هشام لعبد الملك بن هشام المعافري، أبو مُجَدِّ، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، 1375 هـ - 1955 م.

108- سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه لعبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، المصري، تحقيق: أحمد عبيد، الناشر: عالم الكتب - بيروت - لبنان، الطبعة: السادسة، 1404 هـ - 1984 م.

109- شرح الجوهر المكنون في الثلاثة فنون للشيخ العلامة أحمد بن مُجَدِّ العباسي السملالي، تحقيق: الدكتور اليزيد الراضي، الناشر: مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة: الأولى 1430-2009.

110- شَرْح شِعْرِ الْمُتَنَبِّي لإبراهيم بن مُجَدِّ بن زكريا الزهري، أبي القاسم ابن الإفليلي، دراسة وتحقيق: الدكتور مُصْطَفَى عَلَيَّان، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م.

111- شرح مقامات الحريري لأبي عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيْسِي الشُّرَيْشِي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، 2006 م - 1427 هـ.

112- الشفا بتعريف حقوق المصطفى لعياض بن موسى اليحصبي السبتي، الناشر: دار الفيحاء - عمان، الطبعة: الثانية - 1407 هـ.

113- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان بن سعيد الحميري اليمني، تحقيق: الدكتور حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف مُجَدِّ عبد الله،

الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، الطبعة: الأولى،
1420 هـ - 1999 م.

114- الشمقمقية، قصيدة أحمد بن الونان (مرقون)

115- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي،
تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة
1407 هـ - 1987 م.

116- صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان البُستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان
الفارسي (المتوفى: 739 هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر:
مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ - 1988 م.

117- صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه
) لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر:
دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ

118- الصناعتين لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد
أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت، عام النشر: 1419 هـ.

119- ضعيف أبي داود لمحمد ناصر الدين الألباني، دار النشر: مؤسسة غراس للنشر و التوزيع
- الكويت، الطبعة: الأولى - 1423 هـ.

120- الطبقات الكبرى لأبي عبد الله محمد بن سعد، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر
- بيروت، الطبعة: الأولى، 1968 م.

121- علم مقاصد السور للدكتور محمد بن علي الربيعه، الناشر: مكتبة الملك فهد الوطنية،
الطبعة: الأولى.

- 122- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، للقاضي مُحمَّد بن عبد الله أبي بكر بن العربي المعافري، تحقيق: محب الدين الخطيب - ومحمود مهدي الاستانبولي، الناشر: دار الجيل بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1407هـ - 1987م.
- 123- عون الأطفال، شرح لامية ابن الوردي، لصلاح الدين الزماكي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 2006م.
- 124- العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: الدكتور: مهدي المخزومي، الدكتور: إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
- 125- غريب الحديث لأبي سليمان حمد بن مُحمَّد البستي المعروف بالخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، الناشر: دار الفكر - دمشق، عام النشر: 1402 هـ - 1982 م.
- 126- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب لمحمد بن عُزير السجستاني، تحقيق: مُحمَّد أديب عبد الواحد جمران، الناشر : دار قتيبة - سوريا، الطبعة : الأولى ، 1416 هـ - 1995 م.
- 127- غريب القرآن لأبي مُحمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، السنة: 1398 هـ - 1978 م
- 128- الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد أحمد بن مُحمَّد الهروي، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1999 م.
- 129- الفائق في غريب الحديث والأثر لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، تحقيق: علي مُحمَّد البجاوي - مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة - لبنان، الطبعة: الثانية.
- 130- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379.

- 131- فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب مُحَمَّد صديق خان القنوجي، عني بطبعه وقدم له وراجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، عام النشر: 1412 هـ - 1992.
- 132- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن مُحَمَّد الشوكاني، دار النشر: دار الفكر - بيروت.
- 133- فضائل الصحابة لأبي عبد الله أحمد بن مُحَمَّد بن حنبل، تحقيق: الدكتور: وصي الله مُحَمَّد عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1403 - 1983.
- 134- فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن أيوب بن الضريس، تحقيق: غزوة بدير، الناشر: دار الفكر، دمشق - سورية، الطبعة: الأولى، 1408 هـ - 1987 م.
- 135- الفهرست لأبي الفرج مُحَمَّد بن إسحاق المعروف بابن النديم تحقيق: إبراهيم رمضان، الناشر: دار المعرفة بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية 1417 هـ - 1997 م.
- 136- الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية لنعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان، الناشر: دار ركابي للنشر - الغورية، مصر، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1999 م.
- 137- في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، الناشر: دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ.
- 138- قاعدة في الصبر لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: مُحَمَّد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- 139- القصيدة النونية لمحمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الثانية، 1417 هـ.

140- القطع والائتلاف لأبي جعفر أحمد بن مُحمَّد النَّحَّاس، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، الناشر: دار عالم الكتب - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1413 هـ - 1992 م.

141- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد لمحمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثانية، 1426 هـ - 2005 م.

142- الكامل في التاريخ لأبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ / 1997 م.

143- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.

144- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأحمد بن مُحمَّد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: الإمام أبي مُحمَّد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى 1422، هـ - 2002 م.

145- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، لأيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش - مُحمَّد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

146- لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن مُحمَّد المعروف بالخازن، تصحيح: مُحمَّد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ.

147- اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي مُحمَّد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.

148- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن علي، أبي الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.

149- لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة: الثالثة.

150- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل لفاضل بن صالح السامرائي، الناشر: دار عمار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، الطبعة: الثالثة، 1423 هـ - 2003 م.

151- مباحث في التفسير الموضوعي، لمصطفى مسلم، الناشر: دار القلم، الطبعة: الرابعة 1426 هـ - 2005 م.

152- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لنصر الله بن مُحمَّد الجزري، المعروف بابن الأثير الكاتب، تحقيق: مُحمَّد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، عام النشر: 1420 هـ.

153- مجمل اللغة لابن فارس لأحمد بن فارس القزويني، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - 1406 هـ - 1986 م.

154- مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن مُحمَّد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، عام النشر: 1416 هـ/1995 م.

155- المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث لمحمد بن عمر الأصبهاني، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، الناشر: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - مكة المكرمة، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى.

156- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين بن مُحمَّد سعيد بن قاسم القاسمي، تحقيق: مُحمَّد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ.

- 157- محاضرات في علوم القرآن لعبد الله غانم بن قدوري ، الناشر: دار عمار - عمان،
الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م.
- 158- محتويات سور القرآن الكريم، لأحمد بن أحمد الطويل، الناشر: مدار الوطن للنشر،
الطبعة: الأولى، 1434-2013.
- 159- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي
، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى
- 1422 هـ.
- 160- المحرر في علوم القرآن، د مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، الناشر: مركز الدراسات
والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، الطبعة: الثانية، 1429 هـ - 2008 م.
- 161- المختارات من المناسبات بين السور والآيات لابتسام عمر العمودي، الناشر: مركز تدبر
للدراسات والاستشارات، الطبعة: الأولى 1436 هـ - 2015 م.
- 162- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي) لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي،
حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة:
الأولى، 1419 هـ - 1998 م.
- 163- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين
السيوطي، قرأه وتممه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الناشر: مكتبة دار المنهاج
للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1426 هـ.
- 164- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد
القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 - 1990.
- 165- مسند الإمام أحمد بن حنبل لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيقك شعيب
الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر:
مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.

- 166- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ لمسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيقك مُجد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- 167- مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب العمري، التبريزي تحقيق: مُجد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، 1985.
- 168- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور لإبراهيم بن عمر أبي بكر البقاعي، دار النشر: مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1987 م.
- 169- معارج التفكير، ودقائق التدبر لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، الناشر دار القلم، الطبعة: الأولى، سنة النشر: 2002.
- 170- معالم مكة التاريخية والأثرية لعاتق بن غيث الحربي، الناشر: دار مكة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، 1400 هـ - 1980 م.
- 171- معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري الزجاج ، تحقيق: عبد الجليل عبده شلي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م.
- 172- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م.
- 173- معجم الأدباء لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م.
- 174- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصل بيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها للدكتور: مُجد حسن جبل، الناشر: مكتبة الآداب - القاهرة، الطبعة: الأولى، 2010 م.
- 175- معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ب الحموي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995 م.

- 176- معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي لدكتور أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل،
الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.
- 177- معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور: أحمد مختار عبد الحميد، الناشر: عالم الكتب،
الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.
- 178- معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة) لأحمد رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة -
بيروت.
- 179- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام مُجَّد هارون، الناشر: دار
الفكر، عام النشر: 1399 هـ - 1979 م.
- 180- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) لأبي مُجَّد الحسين بن مسعود البغوي،
المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى،
1420 هـ.
- 181- المغازي لمحمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي أبي عبد الله، الواقدي، تحقيق: مارسدن
جونس، الناشر: دار الأعلمي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1409/1989.
- 182- المغني لأبي مُجَّد موفق الدين، الشهير بابن قدامة المقدسي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن
عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح مُجَّد الحلو، الناشر: عالم الكتب، الرياض -
السعودية، الطبعة: الثالثة، 1417 هـ - 1997 م،
- 183- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله مُجَّد بن عمر التيمي الرازي، الناشر: دار
إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.
- 184- مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي الهندي، تحقيق: الدكتور مُجَّد أجمل أيوب
الإصلاحي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 2002 م.

- 185- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن مُجَدِّ المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ.
- 186- مفهوم الهدى في القرآن الكريم للدكتور حبيب مغراوي، عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وحدة علوم القرآن، سلسلة الدراسات القرآنية، ط.1، 1432هـ/2011م.
- 187- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة لشمس الدين أبي الخير مُجَدِّ بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق: مُجَدِّ عثمان الخشت، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1405 هـ - 1985م.
- 188- مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن مُجَدِّ بن خلدون ، الناشر دار القلم، سنة النشر 1984.
- 189- من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل لمُحَمَّد سَعِيد رَمْضَان البوطي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، عام النشر: 1420 هـ - 1999 م.
- 190- مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزُّرْقَانِي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة.
- 191- المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي القرطبي، الناشر: مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر، الطبعة: الأولى، 1332 هـ.
- 192- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، 1392.
- 193- الموافقات لإبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/1997م.

- 194- موسوعة التفسير بالمأثور، إعداد مركز الدراسات القرآنية والمعلوماتية، تحت إشراف: الدكتور مساعد الطيار، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: 1437-2017.
- 195- موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور: حكمت بن بشير بن ياسين، الناشر: دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999 م.
- 196- الموضوعات لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ضبط وتقديم وتحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، الناشر: محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى.
- 197- الميزان في تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات: مؤسسة الأعلى للمطبوعات، الطبعة: الأولى.
- 198- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله دراز، الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة: طبعة مزيدة ومحقة 1426هـ- 2005م.
- 199- نشر البنود على مراقبي السعود لعبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، تقديم: الداوي ولد سيدي بابا - أحمد رمزي، الناشر: مطبعة فضالة بالمغرب.
- 200- النشر في القراءات العشر، لشمس الدين أبي الخير ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى.
- 201- نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني لمحمود توفيق محمد سعد، الناشر: مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر الشريف، العدد الحادي والعشرين 1423هـ
- 202- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

- 203- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين أحمد بن مُجَّد المقرئ التلمساني ، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر- بيروت - لبنان.
- 204- النكت في إعجاز القرآن لعلي بن عيسى، أبي الحسن الرماني المعتزلي، تحقيق: مُجَّد خلف الله، د. مُجَّد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، 1976م.
- 205- نهاية الأرب في فنون الأدب لأحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين النويري ، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1423 هـ.
- 206- النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبي السعادات ابن الأثير، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود مُجَّد الطناحي.
- 207- النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبي السعادات الجزري ابن الأثير ، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود مُجَّد الطناحي.
- 208- الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، إعداد: الفريق البحثي المكون من: أ. د. طه عابدين، د. ياسين قاري، د. فخر الدين الزبير، الناشر: مكتبة دار المتنبي، سنة النشر: 1438هـ/ 2017م، الطبعة: الأولى.
- 209- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمال من فنون علومه لأبي مُجَّد مكِّي بن أبي طالب تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.
- 210- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل بن مُجَّد أمين البغدادي، الناشر: طبع بعناية وكالة المعارف الجليلية في مطبعتها البهية استانبول 1951، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان.

211- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيك الصفدي تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركى مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر: 1420هـ - 2000م.

212- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم ، الدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ

213- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت.

الجرائد والمجلات والمواقع

214- جريدة العرب: [/https://alarab.co.uk](https://alarab.co.uk)

215- جريدة البيان بتاريخ 27 فبراير 2017 <https://www.albayan.ae/across-the-uae/news-2017>
and-reports/2017-02-27-1.2870885

216- جريدة الصحراء، <http://www.assahraa.ma/web/2020/147120>

217- موقع جامعة الإيمان، سنة 2013

. http://www.jameataleman.org/main/articles.aspx?article_no=1674

218- مركز البيان للدراسات والتخطيط (تقرير عن بيانات الانتحار في العراق في عامي 2015 و2016 ، إعداد: د. محمد ج. عباس - د. نصيف الحميري - د. عماد عبد الرزاق، شاعر ناوش - البروفيسور لويس أبلبي، سنة النشر 2018.

فهرس الموضوعات

2.....	إهداء
3.....	شكر وامتنان
3.....	مقدمة
4.....	أهمية الموضوع:
5.....	أسباب اختيار الموضوع:
7.....	أهداف البحث:
8.....	الدراسات السابقة:
11.....	الجديد الذي يقدمه هذا البحث:
12.....	المنهج المتبع في البحث:
14.....	خطة البحث:
17.....	تمهيد:
18.....	المبحث الأول: التعريف بالهدايات القرآنية:
18.....	الهداية في اللغة
29.....	الهداية في الاصطلاح
32.....	المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنية.
33.....	المطلب الأول: موضوع الهدايات القرآنية
34.....	المطلب الثاني: صفاتها:
35.....	المطلب الثالث: غايات الهدايات القرآنية

38	المطلب الرابع: حاجة الناس إليها:
41	المطلب الخامس أثر الهدايات القرآنية:
43	المبحث الثالث: منهج العلماء في استخراج الهدايات القرآنية.
48	المبحث الرابع: إطلاقات العلماء على الهدايات، وطرق تناولهم لها:
	القسم الأول: الهدايات القرآنية في سورة النمل من الآية (59) إلى آخر
57	السورة.
58	الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات النمل:
59	الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.
60	المبحث الأول: اسم السورة:
67	المبحث الثاني: فضائل السورة.
73	المبحث الثالث: أحوال نزول السورة:
81	الفصل الثاني: معاني سورة النمل ومقاصدها.
82	المبحث الأول: مقاصد السورة العامة:
87	مقصود سورة النمل.
94	المبحث الثاني: معاني مفردات سورة النمل:
104	المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هداياتها.
108	الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة النمل من الآية (59) إلى آخر السورة: .
109	الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة.
110	المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة.
112	الآية التاسعة والخمسون،
119	الآية: الستون،
129	الآية الواحدة والستون

133	 الآية الثانية والستون
140	 الآية الثالثة والستون،
143	 الآية الرابعة والستون
151	 الآية الخامسة والستون، قال تعالى
157	 الآية السادسة والستون، قال تعالى
164	 الآية السابعة والستون،
167	 الآية الثامنة والستون
171	 الآية التاسعة والستون
175	 الآية السبعون
179	 الآية الواحدة والسبعون
183	 الآية الثانية والسبعون
186	 الآية الثالثة والسبعون
190	 الآية الرابعة والسبعون
192	 الآية الخامسة والسبعون
193	 الآية السادسة والسبعون
198	 الآية السابعة والسبعون
200	 الآية الثامنة والسبعون
204	 الآية التاسعة والسبعون
207	 الآية الثمانون
212	 الآية الواحدة والثمانون
213	 الآية الثانية والثمانون

217	 الآية الثالثة والثمانون
220	 الآية الرابعة والثمانون
221	 الآية الخامسة والثمانون
223	 الآية السادسة والستون
227	 الآية الثامنة والثمانون
233	 الآية التاسعة والثمانون
238	 الآية التسعون
241	 الآية الواحدة والتسعون
249	 الآية الثانية والتسعون
253	 الآية الثالثة والتسعون
256	 المبحث الثاني: الهدايات الكلية في آيات سورة النمل
256	أولاً: الهدايات الكلية التي تدور عليها السورة:
261	ثانياً: الهدايات الكلية التي تدل عليها مقاطع السورة:
264	ثالثاً: الهدايات الكلية التي جاءت منثورة بين أجزاء السورة
	الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض
266	هداياتها
267	 المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات السورة:
268	تعريف علم المناسبات:
269	أولاً: مناسبة سورة النمل لخاتمة سورة الشعراء
271	ثانياً مناسبة السورة لخاتمها:
272	ثالثاً: مناسبة سورة النمل لخاتمها

274	رابعاً: المناسبة بين موضوعات السورة
278	المبحث الثاني: خصائص الهدايات القرآنية
278	مفهوم الخصائص:
279	الخصائص العامة للقرآن الكريم
279	أولاً: الاقتصاد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى
280	ثانياً: خطاب العامة والخاصة في آن واحد
281	ثالثاً: إمتاع العقل والعاطفة
282	رابعاً: الإجمال والبيان:
283	خامساً: تصوير المعنى
284	الخصائص الخاصة بسورة النمل:
287	المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض الهدايات
289	مفهوم الأساليب:
290	من أساليب السورة في عرض الهدايات:
293	أساليب السورة في عرض الهدايات
307	الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات آيات السورة، وأثر ذلك عليها
308	المبحث الأول: واقع الفرد والمجتمع من هدايات آيات السورة
310	أولاً: واقع الأمة مع هداية: "العلم المطلوب شرعاً، والمرغوب طبعاً"
312	ثانياً: واقع الأمة مع هداية: "الاستمساك بكتاب الله..."
313	ثالثاً: واقع الأمة مع هداية: "قدرة الله ليس لها حدود"
314	رابعاً: واقع الأمة مع هداية "التعاون على العلم، والسعي لتوريثه،..."
316	خامساً: واقع الأمة مع هداية "من الواجبات على الكفاية أو الأعيان"

- سادسا: واقع الأمة مع هداية التشاور بين الناس عموما 317
- سابعا: واقع الأمة مع هداية يجب على الداعية إلى الله العلم بأن الدعوة 318
- تامنا: واقع الأمة مع هداية: الحرص تمام الحرص على إقناع الناس، 318
- تاسعا: واقع الأمة مع هداية: الابتكار في طرق الكشف عن المشركين 319
- عاشرا: واقع الأمة مع هداية: تنويع الاستدلال... 320
- حادي عشر: واقع الأمة مع هداية: الاعتناء بوسائل العلم والتعلم 321
- ثاني عشر: واقع الأمة مع هداية : التركيز في الدعوة على الأمور المهم 321
- المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة 323
- سبل تنزيل هداية: العلم المطلوب شرعا..... 325
- سبل تنزيل هداية: قدرة الله ليس لها حدود 327
- سبل تنزيل هداية: التشاور بين الناس..... 329
- سبل تنزيل هداية: الاهتمام بالتعاون على العلم 330
- المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة 332
- أولا بناء حضارة إنسانية متوازنة، 332
- ثانيا: خروج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم..... 332
- ثالثا: يعود الحكم إلى كتاب الله، وترجع إليه هيبتة التي أخذت من
النفوس 333
- رابعا: أن ترجع الهيبة إلى المسلمين بعدما افتقدوها سنين طويلة .. 333
- خامسا: ترجع لذة العيش إلى المسلمين التي افتقدوها... 334
- سادسا: تقوى لحمة العلماء، ويشد بعضهم بيد بعض 335

335	سابعاً: حل جميع المشكلات، وتجاوز جميع الصعاب حتى التي يظهر أن حلها من المستحيلات
336	القسم الثاني : الهدايات القرآنية في سورة القصص
338	الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها
339	المبحث الأول اسم سورة القصص
341	المبحث الثاني فضائل السورة
342	المبحث الثالث: أحوال نزول سورة القصص
346	الفصل الثاني: معاني السورة ومقاصدها
347	المبحث الأول: مقاصد السورة العامة
354	المبحث الثاني: معاني مفردات سورة القصص
371	المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هداياتها
	الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة القصص من الآية
374	[01] إلى الآية [50]، وربط ذلك بواقع الأمة
374	تمهيد:
375	الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في آيات السورة
376	المبحث الأول: الهدايات الجزئية في آيات السورة
376	الآية الأولى
377	الآية الثانية
380	الآية الثالثة
386	الآية الرابعة
393	الآية الخامسة

400	 الآية السادسة
404	 الآية السابعة
412	 الآية الثامنة
418	 الآية التاسعة
424	 الآية العاشرة
427	 الآية الحادية عشرة
430	 الآية الثانية عشرة
435	 الآية الثالثة عشرة
439	 الآية الرابعة عشرة
443	 الآية الخامسة عشرة
449	 الآية السادسة عشرة
454	 الآية السابعة عشرة
457	 الآية الثامنة عشرة
460	 الآية التاسعة عشرة
466	 الآية العشرون
472	 الآية الواحدة والعشرون
475	 الآية الثانية والعشرون
478	 الآية الثالثة والعشرون
485	 الآية الرابعة والعشرون
488	 الآية الخامسة والعشرون
496	 الآية السادسة والعشرون

501	 الآية السابعة والعشرون
512	 الآية الثامنة والعشرون
518	 الآية التاسعة والعشرون
526	 الآية الثلاثون
531	 الآية الواحدة والثلاثون
536	 الآية الثانية والثلاثون
542	 الآية الثالثة والثلاثون
545	 الآية الرابعة والثلاثون
551	 الآية الخامسة والثلاثون
556	 الآية السادسة والثلاثون
563	 الآية السابعة والثلاثون
571	 الآية الثامنة والثلاثون
582	 الآية التاسعة والثلاثون
586	 الآية الأربعون
591	 الآية الواحدة والأربعون
596	 الآية الثانية والأربعون
599	 الآية الثالثة والأربعون
606	 الآية الرابعة والأربعون
610	 الآية الخامسة والأربعون
613	 الآية السادسة والأربعون
616	 الآية السابعة والأربعون

627	 الآية التاسعة والأربعون
631	 الآية الخمسون
637	 المبحث الثاني: الهدايات الكلية في آيات السورة.
637	 القسم الأول الهدايات التي تدور السور السورة
642	 القسم الثاني: الكلية المستخرجة من مقاطع السورة:
643	 القسم الثالث: الهدايات الكلية المفرقة بين آيات السورة:
645	 الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها
646	 المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.
646	 تمهيد
646	 مناسبة سورة القصص لسورة العنكبوت
647	 مناسبة أول السورة لخاتمها
648	 المناسبة بين موضوعات السورة:
656	 المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة.
656	 تمهيد:
656	 خصائص سورة القصص:
661	 المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.
	الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات آيات السورة، وأثر ذلك
672	 عليها
673	 المبحث الأول: واقع الفرد والمجتمع من هدايات آيات السورة
673	 واقع الأمة مع هداية: ألهم وسائل زرع الثقة في الله
676	 واقع الأمة مع هداية: وعود الله لأوليائه لا تأتي من تلقاء نفسها

واقع الأمة مع هداية: الملك والمال من أهم الأسباب التي تغير صفات الناس،	677
واقع الأمة مع هداية : الواقع مهما اسود، والظلم مهما طال عمره	678
واقع الأمة مع هداية: الداعية الناجم في دعوته هو الذي يخالط الناس...	679
واقع الأمة مع هداية: الأعمال العظيمة...	679
واقع الأمة مع هداية: الخطأ وارد على كل الناس	680
المبحث الثاني: سبل تنزيل هدايات السورة	681
سبل تنزيل هداية: أهم وسائل زرع الثقة في الله قراءة سير الماضين	681
سبل تنزيل هداية: وعود الله لأوليائه لا تأتي من تلقاء نفسها...	685
سبل تنزيل هداية: الملك والمال من أهم الأسباب التي تغير صفات الناس	686
سبل تنزيل هداية: واقع الأمة مع هداية: الواقع مهما اسود.....	690
سبل تنزيل هداية : الداعية الناجم في دعوته هو الذي يخالط الناس ..	691
سبل تنزيل هداية: الأعمال العظيمة ينبغي أن لا يقدم عليها المرء من تلقاء نفسه،	692
سبل تنزيل: هداية: الخطأ وارد على كل الناس	693
المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات السورة على واقع الأمة	695
أولا: تصحيح عقائد الناس،	695
ثانيا: معرفة الغايات والوسائل، والأسباب والمسببات	696
ثالثا: يجد المسلمون حلاوة الإيمان، ويشعرون بلذة الحياة،	697
رابعا: يكون للمسلمين حكم صحيح، مبني على كتاب الله	697

698	خامسا ينعم المسلمون بخيرات الأرض...
699	سادسا: يُزرع في الأمة روح التفاؤل، فهو أول السلام،
700	سابعا: الانخراط جماعة في تحقيق هذه الأهداف،
701	خاتمة
705	التوصيات:
706	فهرس الآيات التي استخرجت منها الهدايات.
715	فهرس الأحاديث والآثار
719	فهرس المصادر والمراجع
744	فهرس الموضوعات